

العلاقات بين
الأندلس الإسلامية
واسبانيا النصرانية
في عصر بني أمية
وملوك الطوائف

تأليف
الدكتور رجب محمد عبد الحليم
معهد البحوث والدراسات الأفريقية
جامعة القاهرة

المشرون
دار الكتب الإسلامية
دار الكتاب للمصرى دار الكتاب اللبناني
المتاهرة بيروت

هذا الكتاب

يصدر بمناسبة حلول القرن الخامس عشر
لهجرة سيد المرسلين ورسول رب العالمين

محمد بن عبد الله

صلى الله عليه وسلم

نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ
يَجْعَلَهُ خَيْرًا وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ آمِينَ

دار الكتب الإسلامية • دار الكتاب المصري • دار الكتاب اللبناني
القاهرة بيروت

العلاقات بين
الأندلس الإسلامية
واسبانيا النصرانية
في عصر بني أمية
وملوك الطوائف

تأليف
الدكتور رجب محمد عبد الحليم
معهد البحوث والدراسات الأفريقية
جامعة القاهرة

المشرون
دار الكتب الإسلامية
دار الكتاب للمصرى دار الكتاب اللبناني
المطبعة بيروت

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر :

دار الكتاب المصري

القاهرة ٤٠٢٥

٣٣ شارع قصر السيل - ص.ب ١٥٦
ت. ٧٤٤١٦٨ / ٧٥٤٣٠١ - برقية (كتا مصر)

TELEX: 21581

ATT:134 KTMCAIRO

دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

ص.ب ٣١٧٦ - برقية (كتا لبنان)
ت. ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠

TELEX: K.T.L 22865 LE
BEIRUT

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أصبحت دراسة العلاقات بمعناها الواسع ، سياسية كانت أم اقتصادية أم ثقافية ، بين دولة وأخرى ، لها أهمية كبرى في معرفة قوة الشعوب والأمم ، وفي مدى الازدهار أو البوار الذى تتصف به دولة أو أخرى ، كما أنها دليل على صلاح أداة الحكم أو فسادها ، ومؤشر يضع يدينا على سلامة الخط السياسى ووحدة الجبهة الداخلية أو انقسامها . وعلى الباحث فى هذا الميدان أن يغوص فى أعماق المجتمعات وفهمها بشكل حياتها من نظم سياسية واقتصادية وغيرها ، بل ربما يدرس البيئة الطبيعية والجغرافية ، كى ينعرف على طبيعة العلاقات بين الأمم والشعوب ويصل الى العلل التى تؤدى الى الغلبة والانتصار أو الى الهزيمة والدمار ويضع يده على الأسباب التى تؤدى الى انتصار حضارة أو انحسار أخرى ، ولماذا كان هناك سلم أو صراع فى فترة معينة ، ولا يكتفى فى ذلك كله بالسرد التاريخى للأحداث والوقائع ، والا ضاع جهده هباء منثورا .

من هنا ينبع أهمية دراسة العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأشبانيا النصرانية ، فهى تضع يدينا على مفاتيح القوة والضعف فى هاتين الدولتين وهى فى ذلك كالمرآة ، نرى فيها مجتمعات شبة الجزيرة على حقيقتها ومدى ما كان فيها من وحدة وتفرق ، ومضائل ونقائص ، وعدالة أو ظلم وغنى أو فقر ورقى الحياة أو انحطاطها ، لأن ذلك كله ينعكس على علاقات دول شبة الجزيرة الأيبيرية مع بعضها البعض ، سواء فى الميدان السياسى أم فى ميدان الحضارة ، لاسيما وأن هذه العلاقات مرت بثلاثة عصور

مختلفة متميزة : عصر الامارة الأموية ، وعصر الخلافة الأموية ، وعصر ممالك الطوائف . وكل عصر من هذه العصور ، له نظمه السياسية ومظاهره الحضارية التي تميزه عن غيره من العصور .

ودرستنا للعلاقة بين الممالك الإسلامية والنصرانية في أسبانيا في هذه العصور ، ما هي الا محاولة للوقوف على مظاهر الاحتكاك ونتائجه بين هذه الممالك ، سواء كان هذا الاحتكاك سياسيا ام عسكريا ام حضاريا . وتاريخ الاسلام ، في هذه البلاد يظهره ذلك الاحتكاك الذي نشب بينه وبين النصرانية ، والذي نسميه عادة بالعلاقات ، منذ ظهرت دعوة الاسلام وحتى العصر الحديث . ومن هنا برز أهمية دراسة العلاقات بين الاسلام والنصرانية على أرض شبه الجزيرة . اذ كانت تلك الأرض ميدانا رحبا ، تصارعت فيه العقيدتان وجهها لوجه مدة أربعة قرون متصلة ، تبادلتا فيها النصر والهزيمة ، حتى كتب الفوز في نهايتها للمسلمين بانتصارهم فيوقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م .

وليس معنى ذلك أن الصراع قد توقف وانما استمر عدة قرون أخرى كتب في نهايتها النصر للنصرانية ، وتم اخراج المسلمين من الاندلس ، ولكننا نقصر حديثنا الآن على فترة الصراع الأولى التي استمرت حتى اقتربت نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، خاصة وأنه لم يعن أحد حتى الآن بابرار العلاقات بين مسلمي الأندلس ونصارى الأسبان أو قام بدراستها في تلك الفترة ، وذلك لغموض كثير من جوانبها السياسية ولصعوبة الخوض في دراسة تأثيراتها الحضارية المتبادلة بين الجانبين ، اذ أن القوى السياسية وخاصة النصرانية ، لم تتشكل كلها في وقت واحد ، ولم تأخذ شكلها النهائي الا بعد عصور عديدة ، وكانت دائما في تطور مستمر . ففي عصر الولاة ، كانت هناك دولة نصرانية واحدة في الشمال الأسباني هي دولة جليقية واشتريس ، وفي عصر الامارة الأموية ، كانت هناك دولتان نصرانيتان ، هما دولة جليقية السابقة ودولة نبرة (نافار) . وفي عصر الخلافة صارت ثلاثا ، هي جليقية التي تسمت باسم ليون ، ونبرة وقشتالة ، وفي عصر ممالك

الطوائف صارت أربعاً ، هي الدول السابقة مضافاً إليها دولة جديدة هي دولة أرغونة . هذا بخلاف إمارة برشلونة التي كانت تتبع ملوك الفرنجة في فرنسا .

وبالمثل ، كانت القوى السياسية في الأندلس الإسلامية تتشكل وتتمايز من عصر لآخر ، فهي في عصر الولاة ، غيرها في عصر بنى أمية ، غيرها في عصر ملوك الطوائف . فكل عصر له سماته الواضحة ، سواء في أنظمة الحكم ، أو في أسلوب الحياة كما أثرنا من قبل . ومع هذا فقد عكفنا على البحث والدراسة لإبراز العلاقة السياسية بين مسلمي الأندلس ونصارى الأسبان ، منذ أن وطئ المسلمون أرض شبه الجزيرة وحتى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فازلنا عنها غموضها ، وجمعنا شتاتها ، وحللنا دوافعها وعرفنا نتائجها ، بعد أن عرضنا لمظاهرها السياسية والعسكرية والحضارية .

وقد اعتنى بعض المؤرخين القدامى بالحديث عن الجانب السياسي والعسكري من تلك العلاقات ، وغفل معظمهم عن أن الحياة هناك لم تكن كلها حرباً متصلة ، ولم تكن الأيام كلها معارك بين شعبين اختلطاً أشد اختلاط ، ولم تكن العلاقات بينهما تقتصر على مجرد خروج الجيوش سواء من هذا الجانب أو ذاك ، للاغارة على الجانب الآخر ، بل كانت هناك مظاهر ودلائل لقيام علاقات سلمية بين الطرفين ، لكنها لم تبرز على السطح ولم تعط حقها من الأهمية والبحث ، بسبب تركيز المؤرخين القدامى على العلاقات الحربية ، وعدم الالتفات إلى غيرها من العلاقات السلمية أو الحضارية ، والتي تتمثل في التأثيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بين شعبين كانا في الأصل شعباً واحداً ، ويمين دولتين تسكنان على أرض واحدة هي أرض أسبانيا .

ذلك أن دوام التداخل بين شعوب شبه الجزيرة حقيقة لا يمكن إنكارها ، فالأسباني المسلم لم يكن شخصاً أجنبياً أو مختلفاً عن الأسباني المسيحي ، فقد غدا له صهراً ونسباً ، أو جارا تتصل حياته بحياته

ان سلما أو حربا . وكانت الامارات أو الممالك النصرانية في الشمال ، تضم أعدادا من المسلمين منذ وقت مبكر ، وكانت الممالك الاسلاميه في الأندلس تضم أيضا بين رعاياها نسبة عالية جدا من المسيحيين . هذا بالإضافة الى أن الحدود بين الممالك الاسلاميه والممالك النصرانية في شبه الجزيرة ، لم تكن حدودا ثابتة أو جامدة أو مغلقة ، لأنها لم تكن حدودا طبيعية وقد تبادل المسلمون والنصارى حكم كثير من المدن والاقاليم ، خاصة تلك التي تقع بين الطرفين والتي تسمى بالثغور ، وأدى ذلك الى احتكاك متصل ومستمر بين الأندلس الاسلاميه وأسبانيا النصرانية .

هذا الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا سواء كان أثناء الحروب أم أثناء فترات السلم ، وما أكثرها وأطولها ، كان له تأثيره على الطرفين في مجال الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية . وكانت الأندلس أشد تأثرا ، لأنها كانت صاحبة الحضارة الأقوى ، ومن هنا كان لها تأثيرها الشديد على الممالك النصرانية في الشمال الاسباني . وعن هذا الطريق امتدت تلك الحضارة الى جنوب فرنسا والى كثير من أنحاء أوروبا . ومن هنا كان لدراسة العلاقات بين الأندلس الاسلاميه وأسبانيا النصرانية اهمية كبرى من تلك الزاوية .

وتبدأ العلاقات السياسية والحضارية بين الدولتين بعد تمساح الفتح بفترة وجيزة ، ذلك أن المسلمين كانوا قد تركوا الركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة دون فتح ، استصغارا لشأنه ، ونظرا لبرودته الشديدة ، ولطبيعته الصخرية القاحلة . وفي هذه المنطقة ظهر نبيل قبلى يدعى بلاى . استطاع هذا النبيل أن يستثير اهل اقليمه المسمى اشتريس Asturias الواقع شمالى جليقية ، ويقوم هناك أول مملكة نصرانية ، هي مملكة جليقية وأشتريس ، منذ بداية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى .

ولم تعد أسبانيا منذ ذلك التاريخ قطرا اسلاميا خالصا ، وانقسمت الى دولة مسيحية في أقصى الشمال ، ودولة اسلاميه في باقى شبه الجزيرة ، وسوف تسير كل منهما في طريقها ، وسوف يستمر الصراع بينهما أثناء فترة الحكم الأموى ، وفي فترة حكم ملوك الطوائف . وكانت

الغلبة في هذا الصراع للمسلمين أيام الأمويين ، ولنصارى الشمال أيام ملوك الطوائف ، ثم عادت الغلبة مرة ثانية للمسلمين في نهاية عصر الطوائف على يد المرابطين ، عقب موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م

وقد قسمنا هذا البحث الى مقدمه تاريخية واربعة ابواب . تحدثنا في المقدمة عن أحوال الأندلس الإسلامية في عصر الولاة (٩٥ — ١٣٨ هـ) . وعن العوامل التي أدت الى قيام المقاومة النصرانية ، ممثلة في مملكة جليقية واشترس ، والى انتصارها فرصة الصراع القبلى في الأندلس الإسلامية ، فتسامت بالنوسع جنوبا وطردت المسلمين الموجودين في أطراف جليقية ، وحازت ما يقرب من ربع شبه الجزيرة ، وأصبحت حجر الزاوية للمقاومة النصرانية التي نمت وازدادت فيما يلى ذلك من عصور .

وتحدثنا في الباب الاول ، عن العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر أمراء بنى أمية (١٣٨ — ٣١٦ هـ) ووضحنا سبب هذا العصر . وسنأ عوامل القوة والضعف التي شكلت العلاقات بين الدوليين في تلك السرة . سواء كانت تلك العوامل تتعلق بفنل الحكم أم بتأروف طبيعیه وجغرافية وبشرية ، أم بأسباب دينية أو اجتماعية أو اقتصادية . ثم سنأولنا تلك العلاقات ، ووضحنا طبيعتها وأهدافها ، وما نار من معارك ومراع ، وما كان من سلام ومصالحة بين هذين التسعين اللذين يعيشان على أرض واحدة .

وكانت النتيجة أن أمراء بنى أمية استنأعوا أن يصدوا هجوم نصارى الأسبان ، وأن يوقفوا توسعهم . وأن يردوهم على أعقابهم كلما حاولوا العدوان ، واستمرت الحدود ثابتة بينهما ، ولم يخسر مسلمو الأندلس شيئاً ذا بال الا في أواخر عصر الامارة ، حيث نسفت تلك البلاد ، لسا أصابها من شتت وتمرى وحروب أهلية .

وفعلنا نفس الشئ في الباب الثانى ، وتحدثنا فيه عن العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر الخلافة ، وكانت القوى السياسية قد أخذت شكلها النهائى في ذلك العصر ، وأصبح

الشمال النصرانى يضم الاقسام السياسية التى عاشت بعد ذلك واستمرت حتى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . كما ظهرت الخلافة الأموية فى الأندلس الإسلامية منذ عام ٣١٦ هـ ، واستمرت أكثر من قرن ، ونقلت تلك البلاد الى عصر جديد تسوده الوحدة والقوة طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولذلك سادت وانتصرت على ممالك أسبانيا النصرانية المشتتة المتناحرة ، ثم هوت الخلافة الأموية بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وأنقلب ميزان القوة لصالح نصارى الشمال .

ومع ذلك فان عصر الخلافة يختلف تماما عما سبقه من عصور فى شكله السياسى وفى مظاهره الحضارية ، وفى علاقاته السياسية والعسكرية وكانت الغلبة فى معظمه للخلافة الأموية سواء فى الميدان السياسى أو العسكرى أم فى الميدان الحضارى ، وأصبح عبد الرحمن الناصر سيدا لشبه الجزيرة كلها ، مسلميها ونصاراها ، شمالها وجنوبها وأتته وغود ممالك أسبانيا النصرانية خاضعة راکعة ، نطلب السلام وتمد يدها بالجزية وتبايع على الطاعة والاذعان .

وفى الباب الثالث ، تحدثنا عن العلاقات السياسية بين ممالك الطوائف وبين ممالك أسبانيا النصرانية ، ووضحنا سمات ذلك العصر ، وألقينا نظرة عامة على أحوال ممالك الطوائف ، وبيننا ما انتابها من ضعف سياسى واقتصادى ، وتناحر عسكرى وفساد اجتماعى ، وما كان لذلك من أثر على علاقاتها مع أسبانيا النصرانية . كما ألقينا نظرة عامة على أحوال نصارى الشمال الأسبانى ، وبيننا ما سادهم من وحدة داخلية تحت حكم أسرة آل شانجه الكبير ، وما نتج عن ذلك من ازدياد قوتهم وتفوقهم .

وقد بيننا عوامل تلك القوة وذلك التفوق ، وختمنا بالحديث عن العلاقات السياسية بين الدولتين فى تلك الفترة ، ووضحنا ما اصطبفت به تلك العلاقات من صبغة صليبية ميزت هذا العصر عن غيره

من العصور السالفة ، وأدت الى انقلاب ميزان القوة السياسية والعسكرية لصالح اسبانيا النصرانية ، حتى أنها أصبحت تتحكم في مصر شبه الجزيرة ، وأصبح ملوك الطوائف مجرد ولاية يجوبون لهم الضرائب ويدينون لهم بالطاعة .

وقد انحسر هذا المد الصليبي عقب فوز المسلمين على نصارى الأسبان في موقعه الزلافة عام ٤٧٩ / ١٠٨٦ م بفضل جهود المرابطين . لكننا لم نجعل موقعه الزلافة ختاماً للحديث عن العلاقات بين اسبانيا النصرانية وممالك الطوائف ، لأن تلك الممالك لم تسقط كلها في يد المرابطين دفعة واحدة ، أو في وقت واحد ، اذ احتفظ بعضها باستقلالها ، وكانت لها علاقاتها مع اسبانيا النصرانية حتى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، مما اقتضى منا مواصلة الحديث عن تلك العلاقات واستيفائها حتى سقوط تلك الممالك اما في يد اسبانيا النصرانية أو في يد المرابطين .

وفي الباب الرابع والآخر ، تحدثنا عن أهم التأثيرات الحضارية بين الممالك الاسلامية والنصرانية في الأندلس ، في عصر بنى أمية وملوك الطوائف . وفي هذا الحديث نقصينا العوامل التى جعلت هذه التأثيرات بين هذين الشعبين المتلاصقين ممكنة ، وأبرزنا الدوافع والأسباب التى هيأت الفرصة لحدوثها وتفاعلها . ولا بد لهذه التأثيرات سواء كانت متبادلة أم من جانب واحد ، من قنوات تسلكها لى تصل الى الطرف الآخر فنعكسنا على البحث ، وأبرزنا تلك القنوات أو السبل التى سلكتها التيارات الحضارية بين الجانبين ، وتحدثنا عن مظاهرها سواء في ميدان الحياة الاجتماعية أم الثقافية أم الاقتصادية .

ورأينا أن الحضارة الاسلامية في الأندلس ، كان لها السبق والتفوق بحكم أنها حضارة الدولة الغالبة ، والغالب يتبعه المغلوب بحكم العادة ، كما أنها كانت حضارة متفوقة راقية ، صقلها الاسلام ، وهذبها المسلمون ، ونثروا عليها من زهور علومهم ، وأطايب فنهم ، وماكهة

أديهم ، حتى صارت تلك الحضارة هى النبراس الذى أضاء ظلمات
أسبانيا النصرانية وغرب أوربا فى تلك الفترة ، وهى النهر المتدفق
الذى نهلت منه أوربا فى بناء نهضتها الحديثة .

وبعد ، أرجو أن أكون قد وفقتنى الله فيهما ذهبت اليه فى هذا
البحث ، ولا أدعى الكمال فالكمال لله وحده ، وما أكون قد أصيبته من
توفيق بفضل الله وبتوجيه أستاذى الجليل الدكتور أحمد السيد دراج ،
أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة ، فله منى ولن قدموا لى يد
المساعدة كل شكر وتقدير والله الموفق وهو المستعان .

رجب محمد عبد الحليم

بحث في أهم المصادر والمراجع

قبل أن نستمرسل في الحديث عن العلاقات بين الممالك الإسلامية والممالك النصرانية في أسبانيا في عصرى بنى أمية وملوك الطوائف ، لابد أن نقول كلمة عن المصادر والمراجع التى أفادتنا في هذه الدراسة ، لأنها تبين مدى الجهد الذى بذلناه في جمع شتات هذا الموضوع الذى يتكرر أحداثه الآن بصورة أو بأخرى بين الاسلام والنصرانية أو بين الاسلام والشيوعية في بقاع كثيرة من عالم اليوم .

وفي هذه الدراسة كان اعتمادنا على عدد كبير من المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة . ومنتوع هذه المصادر بحيث تشمل كتب التاريخ والأدب والجغرافيا والطبقات والحسبة ، وكتبنا تقتصر الحديث على دولة معينة أو فترة زمنية محددة ، أو على فن من الفنون أو مهنة من المهن .

أما كتب التاريخ فعديدة . وكان اعتمادنا على ما كان منها معاصرا للأحداث أو قريبا منها ، مثال ذلك نص عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) ، الذى نشره الدكتور محمود على مكى بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بهدريد ، وهو من أقدم ما ألفه العرب في تاريخ الأندلس . وكان اعتمادنا عليه وعلى كتاب الامامة والسياسة ، المنسوب لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) في الحديث عن عصر الولاة الذى تضمنته المقدمة التاريخية للبحث .

ومن أشهر المؤرخين الذين عاشوا في القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، اثنان ، هما الرازى (ت ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م) ، وابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) . أما الرازى ، فكان له كتاب في أخبار ملوك الأندلس وغزواتهم ، وكتاب في أخبار عمر بن حفصون وابن مروان الجليقى وبنى قسى والتجيبين وبنى الطويل . وقد ضاعت هذه الكتب كلها ، ولم يبق منها الا ما اقتبس منه من أتى بعده من المؤرخين والكتاب ،

أمثال ابن حيان والعذري وابن الكردبوس وابن عذارى وابن الأبار وغيرهم . وتعد كتاباته من أدق الكتابات عن أمراء بنى أمية وخلفائهم .

أما ابن القوطية ، فله كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) وهو يسرد أخبار الأندلس منذ الفتح حتى بداية القرن الرابع الهجري . ويمتاز هذا الكتاب بمعلوماته القيمة عن العلاقات بين العرب وبين أهل البلاد وعن أوضاعهم الاقتصادية ، وعن علاقة بنى أمية بأمراء الثغور ونصارى الشمال .

ومن أشهر المؤرخين الذين عاشوا في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ابن حيان ، والعذري وابن بلقين . ويعتبر ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩ م) شيخ المؤرخين الأندلسيين وعمدتهم ، نظراً لدقة كتاباته وموضوعيته الشديدة . وقد ضاع تاريخه المسمى المقتبس في أخبار الأندلس في الفترة الأخيرة من عصر إمارة . ولحسن الحظ فقد نقل عنه بعض المؤرخين وحفظوا لنا بعضاً من هذه الثروة التاريخية النادرة ، مثل ابن بسام وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والمقري وغيرهم .

ويعتبر كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن عمر العذري (ت ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) الذي حققه الدكتور عبد العزيز الأهواني ونشره في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرد ، من أجود الكتب وأحسنها في الحديث عن الثغور الإسلامية ، وعن الأسرات التي استقلت بها وعلاقتها بقرطبة وبنصارى الشمال الأسباني ، لاسيما وأنه اعتمد في ذلك على أحمد بن موسى الرازي (ت ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م) وعلى ابنه عيسى (ت ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) ، وأورد لنا عدداً كبيراً من غزوات المنصور ابن أبي عامر ، وساعدنا بذلك في القضاء على الشك الذي ساور البعض في حقيقة وعدد هذه الغزوات التي زادت عن الخمسين .

أما مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بنى زيري أصحاب غرناطة ، والتي تعرف باسم « كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بغرناطة » ، فهو وثيقة نادرة من أحد ملوك عصر الطوائف ، ومن شاهد عيان

على أحداث عصره ، لاسيما وأنه شارك في هذه الأحداث وكان أحد أطرافها . فحكى لنا قصة مملكة غرناطة ، وعلاقتها مع نصارى الشمال الأسباني ، وذلك في مجال الدفاع عن نفسه وعن علاقاته مع هؤلاء النصاري . وملاحظ القارئ حيرته الشديدة بين الفونسو السادس ملك قشتالة وليون وبين يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وأمير المسلمين، وتردده في الولاء لهذا أو ذاك . ثم يقرر أخيرا التعاون مع الفونسو ، ويتصل به ويدفع له الجزية . وقد أفدنا منه كثيرا في هذه المجالات .

ويأتي بعد هؤلاء ، مؤرخون لا يقلون أهمية أو قدرا ، وإن كانوا متأخرين عن سبقهم ، مثل ابن الكردبوس ، وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون . وابن الكردبوس عاش في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين ، فلم يبعد كثيرا عن أحداث عصر ملوك الطوائف ، وله كتاب هام يسمى الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، نشره الدكتور أحمد مختار العبادي بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمطبعة . وهو من الكتب النادرة التي لا يستغنى عنها من يكتب في تاريخ خلفاء بني أمية وملوك الطوائف ، رغم احتوائه على بعض الأخطاء التاريخية واللغوية . وقد صحح لنا هذا الكتاب معلوماتنا عن عصر المنصور بن أبي عامر فيما يتعلق بعلاقاته بأسبانيا النصرانية وعرفنا لأول مرة أنه لم يكن انسانا مدمرا مخربا في حروبه كما كان معروفا عنه من قبل .

ويعد كتاب ابن عذارى المراكشي الذي عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، المسمى « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » الأساس الذي بنى عليه من أتى بعده من المؤرخين ، ونقلوا عنه نقلا حرفيا دون أن يكلفوا أنفسهم مجرد الإشارة إليه . وهو أهم ما لدينا من المصادر عن تاريخ المسلمين بالأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، وبعد أشمل تاريخ لحوادث الأندلس السياسية والاجتماعية والحروب التي دارت بين العرب والفرنج ونصاري الأسبان ، وبين العرب بعضهم وبعض ، ولذلك كان اعتمادى عليه كبيرا في جميع أبواب البحث ، وبصفة خاصة على جزئه الثاني والثالث والرابع ، لاسيما وأنه يضم مجموعة قيمة من النصوص التي لا تقدر قيمتها

أوردها ابن عذارى منسوبة الى أصحابها في الغالب ، ويبدو انه في أثناء نقله عنهم ، وقع في بعض الأخطاء التاريخية أشرنا اليها في ثنايا البحث . لكن ذلك لا يقلل من قيمة هذا السفر الذي لابد أن يعتمد عليه أى باحث في تاريخ الأندلس والمغرب .

أما لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) ، فله كتب عديدة ذكرتها في قائمة المصادر ، أهمها الجزء الثانى من كتابه المسمى « أعمال الاعلام فيمن بوبع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام » ، و « الاحاطة في أخبار غرناطة » ، و « الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية » . أما كتاب أعمال الاعلام (الجزء الثانى) ، فهو مفيد جداً في تاريخ الأندلس وعلاقاته بنصارى الشمال الأسباني ، وهو ينقل عن ابن عذارى ، لكنه يخص جزءاً لأخبار ملوك قشتالة ، نقله عن أحد علمائها الذي كان سفيراً لملك قشتالة الى السلطان المريني أبى فارس بن عبد العزيز ، لكنه يحوى كثيراً من الأخطاء عند ذكره لتواريخ تولية ملوك أسبانيا النصرانية أو وفاتهم . وكتابه الثانى « الاحاطة في أخبار غرناطة » مفيد في الحديث عن هذه المملكة وعن علاقاتها بغيرها من دول شبه الجزيرة ، أما كتابه المسمى « الحلل الموشية » ، فهو عظيم الفائدة ، لأنه احتوى على عدد كبير من الرسائل المتبادلة بين ملوك الطوائف ، خاصة المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، وبين الفونس (الفونسو) السادس ملك قشتالة وليون ، وايضا بينه وبين يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين . ولذلك كان اعتمادنا عليه كبيراً في توضيح العلاقة بين ملوك الطوائف في أخريات أيامهم وبين ملوك أسبانيا النصرانية .

وقد اعتمدنا على ما كتبه ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) في الجزء الرابع والسادس من كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » في الحديث عن علاقة خلفاء بنى أمية بملوك أسبانيا النصرانية ، وإن كنت قد لاحظت كثيراً من الأخطاء في ذكر التواريخ والاسماء . وقد اعتمد ابن خلدون في كثير من الأحيان على الرازى وابن حيان ، مما يزيد من أهمية كتابته . واعتمدت أيضاً على مقدمته ، وخاصة في الحديث عن التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية .

وهناك مخطوطات اعتمدنا عليها في بعض نواحي البحث ، وهى مصادر متأخرة تاريخيا . لكن بعضها أفادنا وأعطانا أفكارا جديدة بالنسبة لبعض أمراء بنى أمية . وهى بوجه عام قليلة الأهمية بالنسبة للمصادر المطبوعة التى أشرنا إليها حتى الآن ، وهى تستقى مادتها من هذه المصادر فى الغالب . ومن أهم هذه المخطوطات ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، لابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٣٦ م) ، ونهاية الأرب فى فنون الأدب للتوبري (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م) ، وعقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، للعيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٠ م) ، ومرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، لابن الجوزي ، (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) ، والجمان فى أخبار الزمان ، لمحمد الشطبيى المغربى ، وناصر الدين على القوم الكافرين للحجرى الذى عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى .

كما اعتمدنا أيضا على بعض كتب المشاركة من المؤرخين مثل ابن الأثير وأبو الفداء وكتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) ، يعد أحسن مؤلف ظهر فى المشرق عن الأندلس ، وهو ينثر تاريخها فى دقة أثناء حديثه عن تاريخ الدولة الإسلامية ، باعتبار أن الأندلس جزء من هذه الدولة . وقد اتبع ابن الأثير نظام الحوليات أى سرد الأحداث حسب السنين وكذلك فعل أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م) فى تاريخه .

وهناك كتب تاريخية هامة مجهولة المؤلف ، من أهمها كتاب أخبار مجموعة فى فتح الأندلس . ويبدو أنه كتب فى عهد حكم المستنصر بن الخليفة عبد الرحمن الناصر (ت ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م) . وقد أبدى هذا الكتاب أهمية خاصة لحركة المقاومة النصرانية ، وللحركات المناهضة لحركة المقاومة النصرانية ، وللحركات المناهضة لحكام قرطبة ، مما أفادنا كثيرا فى الحديث عن هذه النواحي . وهناك كتاب متأخر البربر الذى نشره ليفى بروفنسال ، وكتاب شرح حال الكنيسة ، وكتاب الطبيح فى المغرب والأندلس وهى كتب أفادتنا فى الحديث عن القوى الداخلية ، وفى موقف الكنيسة المسيحية من الحكم الإسلامى ، وفى التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الاجتماعية .

أما الكتب الأدبية التي اعتمدنا عليها في هذا البحث فهي كثيرة أيضا ومن أشهرها حسب ترتيبها الزمني ، كتب ابن عبد ربه وابن حزم وابن شهيد وابن بسام والمقرئ . وكتاب العقيد الفريد لابن عبد ربه (ت ٣٣٦ هـ / ٩٤٨ م) مشهور ذائع الصيت ، وقد أورد المؤلف صفحات قليلة عن تاريخ أمراء بني أمية وخلفائهم ، وقد استفدت منه في معرفة أسماء غزوات عبد الرحمن الناصر ضد أسبانيا النصرانية ، وتواريخها ونتائجها أوردها خلال أرجوزات شعرية ، لا نفي بالفرض في المجال التاريخي .

أما كتب ابن حزم (ت ٥٦٦ هـ / ١٠٦٦ م) ، فهي كثيرة ومتنوعة وهامة جدا ، لأنه عاصر فترة الخلافة الأهوية الأخيرة ، وعاصر عصر ممالك الطوائف ، فهو شاهد عيان على أحداث عصره ، كما أنه يمتاز بأنه من أشهر كتاب الأندلس وأغزرهم علما وأبعدهم صينا ، وذلك بسبب المناظرات والمساجلات العلمية التي دارت بينه وبين علماء وفقهاء عصره ومن أهم كتبه التي اعتمدنا عليها ، كتاب « طوق الحمامة في الألفة والألاف » و « رسائل ابن حزم » و « نقط العروس في تواريخ الخلفاء » و « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، « الرد على ابن النفيلة اليهودي » و « جمهرة أنساب العرب » وقد استفدنا منها كثيرا في التعرف على أحوال البلاد في الفترة التي عاشها ، وخاصة أحداث الفتنة البربرية ، وفي علاقة البلاد بممالك أسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف ، وتشوب كتابته رنة حزن شديد على ما أصاب بلاده من دمار ، وما لحق بها من مهانة قهيمية بسبب الاستعانة بملوك الأسبان في الصراعات الداخلية في الأندلس .

ولجأ زميله ابن شهيد (٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م) الى أسلوب الرمز في كتابه « رسالة النوايع والزوايع » ، وجعلها على لسان الجن ، وتعرض فيها لأحداث الأندلس ، وما ألم بها من محن . وقد استفدنا منها كثيرا في تفسير الأحداث التي أدت الى انهيار بني أمية ، وإلى السيطرة النصرانية على البلاد . وكتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، لابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٦ م) من أهم الكتب الأدبية التي وردت فيها صفحات عديدة عن أحداث الأندلس بأسلوب أدبي ، قلل من قيمتها

التاريخية ، لكنه اعتمد فيها على شيخ المؤرخين الأندلسيين وهو ابن حيان ، فأخذ من كتابه بالنص أو بالتلخيص ، وأنبأنا بذلك في تواضع وصراحة خائفين بالاعجاب . ولذلك استفدنا كثيرا من كتابه هذا واستقيننا منه معلومات غابة في الأهمية خاصة بعصر الخلافة وملوك الطوائف والعلاقة مع نصارى الشمال والدعوة الى الوحدة وترك الاستعانة بهؤلاء النصارى لم نجد لها في مصدر آخر .

أما كتاب المقرئ (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) المسمى « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، فرغم أنه مصدر متأخر تاريخيا ، الفسه صاحبه وهو بعيد عن وطنه ، إلا أنه موسوعة أدبية تاريخية كبرى ، جمع كثيرا ونقل كثيرا عن كتب ضاعت أصولها مثل كتاب الرازى وابن حيان وغيرهم . ولذلك فهو كتاب جليل الفائدة لكل من يعنى بتاريخ الأندلس . وكان اعتمادنا عليه كثيرا في أبواب الكتاب المختلفة ، وخاصة بالنسبة لما نقله عن الرازى وابن حيان .

ومن أشهر كتب الطبقات والتراجم التى اعتمدنا عليها في هذا البحث ، كتاب الخشنى وابن الفرضى وصاعد الطليطلى والحميرى وابن شكوال وابن الأبار وابن سعيد وابن شاکر الکتبى وابن خلکان . وكتب الطبقات لها أهمية كبرى في الحديث عن الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وربما وجدنا فيها اشارات تاريخية لانعثر عليها في أهم الكتب التاريخية . لذلك فهي مصدر لاغنى عنه للباحث في تاريخ الأندلس خاصة وأنها تعطى تراجم لرجال السياسة بجانب رجال الأدب والفقه والعلم وغيرهم ، مما يجعلها عظمة الفائدة .

والأربع الأول من مؤلفى كتب الطبقات الذين اشرنا اليهم معاصرون للأحداث في عصر خلفاء بنى أمية وعصر ملوك الطوائف ، لذلك فإن كتابتهم هامة جدا لهذا السبب . ألف أولهم وهو الخشنى (ت ٣٦١ هـ / ٩٧١ م) ، كتابا هاما في تاريخ قضاة قرطبة ، أورد فيه أخبارا طيبة أفادتنا كثيرا في التعرف على التيارات والتأثيرات الحضارية في مجال

الأدب والحياة الاجتماعية ، بلبه ابن الفرضى (ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م)
الذى ألف كتابا فى تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، أورد فيه
أخبارا هامة عن الفتنة البربرية وسقوط دولة بنى عامر .

أما صاعد الطليطلى (ت ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م) ، فقد ألف كتابا
عن طبقات الأمم ، أفادنا فى الحديث عن الأجناس والعناصر التى
تسكن شبه الجزيرة ، وألف الحميرى (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) الذى
كان معاصرا أيضا للوك الطوائف كتابا يسمى « جذوة المقتبس فى ذكر
ولاة الأندلس » حكى فى أوله تاريخ أمراء وخلفاء بنى أمية نقلا عن
أستاذه ابن حزم . ثم نقل عنه فيما بعد الضبى (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م)
فى كتابه « بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس » ، كما نقل عنه
أيضا عبد الواحد المراكشى (ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م) فى كتابه « المعجب
فى تلخيص أخبار المغرب » ، فيما حكاه كل منهما عن تاريخ بنى أمية فى
الأندلس .

ورغم أن ابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) وابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦١ م) ، وابن سعيد (ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م) متأخرون زمنيا عن
مؤلفى كتب الطبقات السابقين ، إلا أنهم أغزر مادة وأكثر فائدة ، فابن
الأبار مثلا ، لم ينهج فى كتابه « الحلة السراء » ، على طريقة الآخرين
فى ذكر التراجم حسب الحروف الأبجدية ، ولكنه جعلها حسب القرون ،
مبتدئا بالقرن الأول الهجرى ومنتهيا بالقرن السابع الهجرى ، مما يسهل
مهمة الباحث ، كما أنه يقلل فيما رواه من أخبار تاريخية عن ابن حبان
الذى أشرنا الى قيمته التاريخية ، وأورد ابن سعيد فى كتابه « المغرب
فى حلى المغرب » معلومات جغرافية واقتصادية هامة أفادتنا كثيرا فى الحديث
عن التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأشبانيا النصرانية .

ومن كتب الطبقات المشرقية كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان
(ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٤ م) وكتاب « فوات الوفيات » لابن شاکر الكتبى
(ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٠ م) وهو ذبل على كتاب ابن خلكان ، وقد وردت

فيها تراجم لشاهير الأدباء والفقهاء والسياسيين الأندلسيين ، منها ما ذكره ابن خلكان عن معركة الزلاقة بتفصيل لا نجده عند غيره من المؤرخين .

وكانت كتب الجغرافيا والرحلات ذات فائدة كبرى في التعرف على الحياة الطبيعية والبيئة الجغرافية ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدول شبه الجزيرة ، مما ساعدنا على التعرف على التأثيرات الحضارية المتبادلة بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية خاصة وأن معظم مؤلفي الجغرافيا والرحلات الذين اعتمدنا عليهم إما أندلسيون أو زاروا الأندلس ، ورصدوا في كتبهم ما رأوه بأنفسهم رأى العين ، أو نقلوا عن رأى وعاصر الأحداث .

ومن أشهر هذه الكتب حسب ترتيبها الزمني ، « كتاب المسالك والممالك » لابن حوقل الذي زار الأندلس في عصر عبد الرحمن الناصر ، وأورد لنا أخبارا في غاية الأهمية عن قوة الدولة الاقتصادية والسياسية . وكذلك هناك كتاب نصوص عن الأندلس ، للعزري (ت ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) وهو كتاب تاريخي جغرافي سبقت الإشارة إليه ، وكتاب « تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس » لابن غالب الذي عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وهو من نفس طراز كتاب العزري ، وكتاب « معجم البلدان » لياقوت (ت ٦٢ هـ / ١٢/٣٠ م) ، وكتاب « صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس » ، وهو مأخوذ عن كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للشريف الإدريسي (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥٣ م) .

وهناك كتاب « بسط الأرض في الطول والعرض » لابن سعيد المغربي (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٧٥ م) ، وكتاب « تقويم البلدان » لأبي الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م) ، وكتاب « وصف أفريقيا والمغرب والأندلس » ، وهو مأخوذ من كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٣٦ م) ، وكتاب « صفة جزيرة الأندلس » ،

المأخوذ من كتاب « الروض المعطار في خبر الأقطار » لمحمد بن عبد الله الحميري المتوفى في أواخر القرن التاسع الهجري .

وهناك أيضا كتب الحسبة ، ومن أشهرها كتاب « ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحاسب » ، لابن عبدون الذي عاش في أواخر القرن الخامس الهجري ، مما يجعل لكتابه أهمية كبرى . وقد استفدنا منه كثيرا في التعرف على الحياة الاجتماعية وما شابها من تأثيرات نصرانية ، وفيه انتسارات عديدة تدل على مظاهر الضعف التي كانت تناب البلاد في عصره . وهناك كتاب آخر في الحسبة للسقطي ، نشره ليفي بروفنسال . لكنه لا يصل إلى أهميته كتاب ابن عبدون لأنه يقصر الحديث على المهين وقوانينها ، ولا يتمتع صاحبه بملكة النقد والتعليق على أحداث الحياة كما فعل ابن عبدون .

أما المراجع العربية الحديثة التي استفدنا منها فكثيرة . من أهمها كتب الدكتور حسين مؤنس ، وخاصة كتابه « فجر الأندلس » و « بلاى وميلاد أشتريس » . وقد أنادا كثيرا في مقدمة البحث . وكذلك كانت الاستفادة عظيمة مما كتبه الأستاذ / محمد عبد الله عنان عن الأندلس في كتبه العديدة الجليلة المصدر العظيمة النفع ، والتي ضمنها تاريخا لممالك اسبانيا النصرانية اعتمد فيه على كتب اسبانية وانجليزية والمانية ، وان كانت هناك بعض الأخطاء التاريخية التي أشرنا إليها في ثنايا البحث ، وكذلك استفدنا كثيرا مما كتبه شكيب أرسلان في كتابه « الحل السندسية » ، عن جغرافية الأندلس وتاريخها ، خاصة وأنه ترجم كثيرا عن المستشرقين وزار الأندلس بنفسه ، ووصف ما شاهد ، فكانت كتابته دقيقة عظيمة الفائدة .

وهناك مراجع عربية حديثة مترجمة عن بعض المستشرقين الذين وقفوا حياتهم على دراسة تاريخ الأندلس ، مثل دوزي المستشرق الهولندي ، ليفي بروفنسال المستشرق الفرنسي ، ويوسف أشباخ المستشرق الألماني . وقد ترجم كامل كيلاني كتاب دوزي عن ملوك الطوائف ، وترجم الدكتور

حسن حبسى الجزء الأول من كتاب عن تاريخ مسلمى اسبانيا . كما ترجم الدكتور السيد عبد العزيز سالم كتاب ليفى بروفنسال عن الاسلام فى المغرب والأندلس ، و ترجم الدكتور محمد عبد الهادى شعيره كتابه عن أدب الأندلس وتاريخها ، و ترجم الاستاد / محمد عبد الله عنان كتاب انبياح عن تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين . وقد أفدت من هذه الكتب فى الحديث عن ممالك أسبانيا النصرانية رغم ما شابها أحيانا من نظره تعصبية لنصارى الشمال .

وهناك كتابان عظيمما المائدة جليلا القدر ، كما كتاب الفن الاسلامى فى اسبانيا والبرتغال للأستاذ مانويل جوهيث مورينو ، ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع عن الأسبانية ، وقد أفادنا كثيرا فى الحديث عن التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى مجال الصناعات والفنون والعماره . أما الكتاب الثانى فهو كتاب تاريخ الفكر الأندلسى لمؤلفه آنخل جونثالث بالنيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس عن الأسبانية ، وهو موسوعه ضخمة فى تاريخ الآداب والعلوم والفنون الأندلسية ، أفادنا كثيرا فى معرفة التأثيرات الحضارية المتبادلة بين الأسبان ومسلمى الأندلس .

أما المراجع الأجنبية التى قرأناها فى لغنها الأصلية ، فهى كثيرة وعديدة سواء بالانجليزية أم بالفرنسية أم بالأسبانية . وكان اعتمادنا عليها كبيرا فى الحديث عن أحوال ممالك أسبانيا النصرانية ، وعن علاقاتها بممالك الأندلس الاسلامية ، رغم ما يشوب بعضها من نظرة غير موضوعية فى تناول الأحداث ، ومن العطف الشديد على نصارى الأندلس أثناء الحديث عن متاومتهم لحكم المسلمين ، وفى إعطاء كثير من التفاصيل عن تلك المقاومة ، والتركيز على الخلافات والصراعات التى نشبت بين القوى السياسية التى كانت تتصارع على أرض الأندلس منذ بداية الفتح وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى .

ومن الغريب أن بعض هؤلاء الكتاب مثل دوزى يمشى وراء هذه
الخلافت حتى يصل بها الى أرض شبه الجزيرة العربية وسوريا والعراق ،
ويتتبع تفاصيلها هناك ثم يعود معها الى الأندلس ، ويذكر الصراعات
القبلية بين مضر ويمن ، وبين العرب والبربر ، وبين البربر والبرانس ،
وخصص لذلك الجزء الأول من كتابه المسمى
Histoire des Musulmans d'Espagne

والذى ترجم الى الانجليزية تحت عنوان :
A history of the moslems in Spain.

وكأن دوزى يريد أن يفسر تاريخ الاسلام على أساس هذه الصراعات
القبلية ، وربما أراد أن يوحى للقارئ بأن تاريخ الاسلام ، ما هو الا تاريخ
للصراع القبلى بين العناصر والقبائل المختلفة . ورغم ذلك فان كتاب
دوزى هذا يعتبر مرجعا هاما بل المرجع الأول لدارسى تلك الفترة
من تاريخ الأندلس بشقيها السياسى والحضارى .

أما كتاب النقوش العربية فى أسبانيا المسمى
Inscipcions Arabes D'Espagne . لمؤلفه الأستاذ ليفى بروفنسال ، وكذلك كتاب النميات
أو النقود المسمى Numismatica للمؤلف الأسباني Codera ، وكتاب
ملوك الطوائف ، المبني على ذكر النقود والمسمى Los Reyes de Taifas
لمؤلفه الأسباني Prieto y Vives ، كانت افادتنا منها كبيرة فى تصحيح
الأسماء والتواريخ التى وردت فى بعض كتب التاريخ .

وهناك بعض المؤلفات التاريخية الأخرى التى لا نقل أهمية ، وخاصة
فى اعطائنا الرواية النصرانية للعلاقات والأحداث التى وقعت بين الأندلس
الاسلامية وأسبانيا النصرانية . مثال ذلك كتاب Hole المسمى
Spain : under the Moslims ويورد هذا المؤلف الانجليزى فى مقدمة
كتابه ما يفيد بأنه اعتمد على ما كتبه الأوربيون فى فرنسا وهولندا وأسبانيا
فى تأليف كتابه . وعلى ذلك فهو كتاب مفيد جدا لا سيما وأنه يتناول
التاريخ والحضارة فى دقة واختصار غير مغل .

أما كتاب Spain : the root and the flower لمؤلفه الانجليزى المسمى فهو كتاب فى غاية الأهمية ، اذ أنه ليس سردا تاريخيا للأحداث السياسية والحربية ، ولكنه تاريخ لحضارة أسبانيا وشعبها منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث ، كما هو واضح من عنوان الكتاب . ويقول المؤلف أنه لم يهتم بالتاريخ السياسى قدر اهتمامه بالغوص وراء الأحاسيس والعوامل المحركة للأحداث . وقد زار أسبانيا عام ١٩٢٨ م ، ثم نررد عليها عدة مرات ، وحصل منها على درجة الدكتوراه فى الفلسفة والآداب من جامعة مدريد . وهناك تعرف شخصا على زعماء الفكر الأسباني ، مما يعطى لكتابته عن الحضارة الأسبانية أهمية كبرى .

ومن المهم أن نعرف أنه تحدث فى كتابه هذا عن طبيعة الأرض وأثرها على الشعب ، وعلى مجرى الأحداث التاريخية ، وعن الممالك المسيحية وصراعها مع العرب ، وطبيعة هذا الصراع ونتائجه الحضارية ، وأفرد لذلك فصلا خاصا ، أفادنا كثيرا فى نواحي البحث المختلفة . وقد استقى المؤلف مادة كتابه من أربعة وستين مصدرا من أمهات الكتب الأوروبية ، معظمها مؤلف باللغة الانجليزية والقليل بالأسبانية ، مما يعطينا الرواية الأوربية بالنسبة للحضارة العربية ومدى تأثيرها على أسبانيا فى العصور الوسطى .

وهناك كتاب A History of Spain للأستاذ Chapman وقد اعتمدنا عليه كثيرا فى الحديث عن أحوال ممالك أسبانيا النصرانية وعلاقاتها ببعضها ببعض ، وبمسلمى الأندلس . وكذلك هناك كتاب Murphy المسمى The history of the Mohamedan Empire in Spain وهو ينقسم الى قسمين ، الأول يتحدث عن التاريخ السياسى والحربى للعرب فى أسبانيا ، والثانى يتحدث عن نظمهم المدنية ، وأدبهم وعلومهم وصناعاتهم وتجاراتهم ، فهو كتاب هام لأنه يتناول التاريخ والحضارة . وقد اعتمدنا عليه فى بعض نواحي البحث . ويلاحظ أنه ينقل الروايات العربية ويترجمها بنصها فى كثير من الأحيان .

وهناك كثير من المقالات التي ظهرت بالأسبانية في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، عن العمارة والفنون والنفوس ، وبعض الوثائق التي ظهرت أخيرا عن الصكوك ووثائق البيع والشراء التي عثر عليها علماء الأسبان في مكاتب المدن الأسبانية مثل ونسقة وسرقسطة وطليلة وغيرها ، في القرون الأخيرة . وهي تلقى ضوءا جديدا على كثير من التأثيرات الحضارية المتبادلة بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية . وقد أثرت الى بعضها في قائمة المصادر والمراجع الموجودة في نهاية البحث .

من هذا العرض السريع نستطيع أن نتعرف على أهم المصادر والمراجع العربية والأوربية ، وأهمية كل منها بالنسبة لموضوع البحث ولأبوابه المختلفة . وهناك ثبت في نهاية البحث عرض بالتفصيل لأسماء تلك المصادر والمراجع وأغیرها مما لم نذكره في هذه المجالة ، فليرجع اليه من يريد المزيد .

تمهيد تاريخي

معبر الفسره الواقعة بين فنح الأندلس (رجب ٩٢ هـ / مايو ٧١١ م) وبين قيام حكم بنى امية (ذو الحجه ١٣٨ هـ / مايو ٧٥٦ م) ، من أهم فترات التاريخ الاسلامي في الأندلس ، وذلك لما صاحبها من أحداث انزت في مجرى هذا التاريخ حنى نهايه ، وأدت الى أن يفقد المسلمون ربع ما فنحوه من شبه الجزيره ، والى أن يقوم هناك فى أقصى الشمال فى أشتريس وجليقيه نواه لمملكة نصرانية ، أخذت على عاتقها استرداد ما فنحه المسلمون من البلاد وأعادنه الى حظيره النصرانية من جديد ، وتمكنت من دحر قوات المسلمين فى بعض المواقع الحربية وأعلنت بدء تلك الحركة التى سسمى فى التاريخ الأسباني بحركة الاسترداد Reconquista .

فما الذى حدث حتى أدى الى هذه النتيجة ، وخاصة أنه لم يكن قد مر على الفتح أعوام طوال ؟ لابد أن هناك من العوامل والأحداث ما أدى الى ذلك . والغريب أن تلك العوامل فى جوهرها هى نفس العوامل التى أدت الى سقوط دولة القوط ، وعلى ذلك لم يتعلم المسلمون الدرس من أعدائهم ، وتركوا أنفسهم نهبا للصراعات القبلية والعنصرية المقتية ، فكاد أمرهم يتلاشى من البلاد ، لولا الجهود التى بذلها عبد الرحمن الداخل فى تثبيت أركان الدولة والتصدى لحركة المقاومة النصرانية التى كانت قد نبتت واشتد عودها .

أما أولى العوامل التى أدت الى فشل المسلمين فى مجال علاقاتهم مع نصارى شمال أسبانيا على ذلك النحو ، فهو أنهم لم يستكملوا فتح شبه الجزيرة ، وتركوا بعض المناطق الوعرة فى أقصى الشمال ، فلم يصل حكمهم الى جبال قرطشونه فى أقصى الشرق ، وجبال بشلونة ومنطقة اشتريس

وجليقية في الشمال والشمال الغربي ، رغم ما قيل من أن موسى بن نصير اخترق جبال البرنات (البرانس) وغزا أربونة وغيرها من مدن سبتمانية في جنوبي فرنسا^(١) .

ووجه الخطأ في ذلك أن بعض القوط الذين فروا أمام جيوش الفتح تحصنوا في تلك المناطق ، وبدعوا في لم شناتهم استعدادا لفتح صفحة النضال مع مسلمي الأندلس ، ساعدهم على ذلك سياسة الخلافة الأموية التي أسرع في استدعاء موسى بن نصير ، ولم يكن قد أتم الفتح بعد . ولو قدر لهذا الفاتح العظيم البقاء في الأندلس بعض الوقت لربما اتخذت الأحداث مساراً آخر ، ولربما تمكن من إخضاع شبه الجزيرة كلها .

ولكن يبدو أن الخلافة الأموية خافت من استبداد موسى وأبغائه بهذه الأقطار النائية ، أو ربما خافت من النفيرير بالمسلمين ازاء طموح موسى الذي بدا أنه كان يريد مواصلة الغزو حتى يصل الى بلاد الشام عن طريق أوربا^(٢) .

ولهذا تم استدعاؤه بسرعة عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م وقام الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك — على ما في ذلك من خلاف بين المؤرخين — بتدبير مؤامرة قتل فيها عبد العزيز بن موسى بن نصير عام ٩٧ هـ / ٧١٦ م وظلت البلاد بدون وال لعدة شهور ، حتى اخبر الجند أيوب بن حبيب اللخمي ، ثم عزله سليمان وولى على الأندلس الحر بن عبد الله الثقفي ،

(١) ابن القوطبة ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٧ ، ٨ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٨ ، الحميري ، صمة جزيرة الأندلس ، ص ١٣٤ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

Livermore, A history of spain, p 66,

Murphy, The history of the Mohamedan Empire in Spain, p. 1

(٢) ابن قتبية ، الأمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٨٠ ، ٨١ ، الغساني ، مرحلة الوزين في إفنكك الأسير ، ص ١١٥ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ٤٥ .

وجعلها ولاية تابعة لأفريقية ، وأتى بعده عمر بن عبد العزيز وعزل هذا الوالى ، وأرسل لها السمع بن مالك الخولانى ، وجعلها ولاية تابعة للخلافة مباشرة . وقد أدى هذا النرد من جانب الخلافة الى اضطراب الأحوال الادارية بالأندلس والى كثرة عدد الولاة ، مما هيا الفرصة لنصارى الشمال لى يبدعوا ضد مسلمى الأندلس^(٣) .

اضف الى ذلك ما بذله المسلمون من جهد عظيم فى محاولاتهم غزو جنوب فرنسا ، وانصرافهم بذلك عن القضاء على الخطر المحدق بهم فى شمال سبانيا النصرانية ولو صرف المسلمون جهودهم تلك فى القضاء على نصارى الشمال لكان ذلك أفضل بكثير ، لكنهم شتتوا جهودهم ، وخلقوا لأنفسهم عدوا جديدا ، وجعلوا الفرنجة ونصارى الشمال الأسبابى فى خندق واحد ، وصاروا بذلك قلبا واحدا على المسلمين . وبالنسبة للمسلمين نجحوا فى غزواتهم لجنوب فرنسا ، لكنهم منوا هناك بهزيمة ساحقة فى موقعة تور بواتيه التى يسببها المسلمون بلاط الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من المسلمين عام ١١٤ هـ (٧٣٣) ، وقام نصارى شمال سبانيا بمطاردة فلول الجيش الاسلامى المنهزمة وارتفعت روحهم المعنوية بعد أن رأوا أن جيوش المسلمين يمكن أن تهزم^(٤) .

وشهدت هذه الفترة أيضا حدثين على جانب كبير من الأهمية . ورغم أنهما حدثا بعيدا عن بلاد الأندلس ، الا أنه كان لهما تأثير كسر فى تاريخ هذه البلاد . أولاها هو سقوط الدولة المروفتحية فى فرنسا عام ٧٥١ م ، وتولى بيبين Pepen القصر حكم البلاد ثم قبا به بمد نفوذه وسلطانته حة الجنوب الغربى ، الأمر الذى كان له انعكاسه على نصارى الشمال الأسباني .

(٣) الرازى برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢ ، مجهول ، أخبار مجموعة ص ٢٢ ، ٢٣ ، الحميرى جبخوة المقتبس ، ١٦١ ، ٢٦٢ ، ابن قتيبة ، الامامة ، ج ٢ ، ص ٩٥ - ٩٧ ، النودرى ، نهاية الأرب ، مخطوط ، د ٢٢ ورقة ١ ، ٢٢ .

(٤) ريبو ، تاريخ غزوات العرب فى فرنسا ، ص ١٠٣ .

أما الحدث الثانى فهو قيام الصراع فى المشرق بين بنى أمية وبنى العباس ، ذلك الصراع الذى انتهى بسقوط دولة الأمويين عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، وعلى هذا لم يكن هناك أمام بنى أمية من الوقت والجهد ما يعطونه للعمل على استقرار الأحوال فى بلاد الأندلس ، اذ انشغلوا بخطر بنى العباس ، واستغل ولاة الأندلس الفرصة واطلقوا لأنفسهم العنان فى الصراع على السلطان حتى مكثوا نصارى الشمال من خوض حرب ناجحة ضدهم . كما حاولت الخلافة العباسية الناشئة أن تزيد النار اشتعالا ، فأرسل أبو جعفر المنصور الى عامر بن وهب بولاية الأندلس ، فقام هذا الرجل بنادى بشعار العباسيين فى سرقسطة ورفع الرايات السوداء ، ولم ينته خطره الا بعد أن قتله يوسف الفهرى حاكم الأندلس وأخبر ولاتها^(٥) .

على أن أخطر ما تعرض له المسلمون فى الأندلس فى تلك الفترة وكانت له آثار ضارة على مستقبل الصراع بينهم وبين نصارى الشمال الأسباني هو قيام الصراع بين العرب والبربر ، ثم بين المقربة واليمينة . ولم يكن الصراع بين العرب والبربر بسبب ما قيل من استئثار العرب بالمناطق الخصبة ، بل بسبب سوء معاملتهم للبربر واعتبارهم شعبا محكما لا ينبغى له أن يأخذ أى نصيب فى الحكم أو فى إدارة البلاد . ولذلك رفع مونوسة البربرى هو وقومه من البربر علم الثورة ضد العرب فى جليقة وماردة وقورية وتتقدم للهجوم على قرطبة . لكن العرب هزموه هزيمة ساحقة عند وادى سلبط قرب طلبطلة عام ١٢٤ هـ / ٧٤١ م^(٦) .

كانت الحرب بين العرب والبربر حرب افناء ، وكان لها نتائح خطيرة على مستقبل البلاد . فقد خلقت فى نفوس العرب والبربر من الكراهية ما لم تمحه الأيام ، وهددت كل أمل فى الامتزاج التام بينهما ، كما

(٥) ابن حزم ، جبهة أنساب العرب ، ص ١١٧ .

(٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢ ، ٤٣ دوزى ، تاريخ مسلمى اسبانيا ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ١٥٩ ، لين بول ، قصة العرب فى اسبانيا ، ص ٤٧ .

أصابته الأندلس في مقتل . إذ خلا الشمال النصراني من العرب والبربر ، وانفسح المجال أمام نصارى الشمال وزادت آمالهم في استعادة البلاد من جديد . وليس بخاف على أحد أن الأندلس إنما أوتى من الشمال والغرب حيث هاجر البربر الذين كانوا يعيشون هناك^(٧) .

وكان للصراع بين القيسية واليمنية أثر خطير ، إذ أنه استمر لحوال فترة مصر الزلاة بقربيا ، وابتداء منذ عام ١١١ هـ / ٧٣٠ م عندما أرسل أبو عبده القيسي حاكم أفريقية بقريبه الهيثم القيسي واليا على الأندلس . فأنحاز هذا الوالي الى القيسية ، واضطهد البمنية وسجن زعماءهم وأطاح برعوس بعضهم ، مما كان له أثره في تمام الفتنة بينهما وخاصة بعد أن انفخوا من أبر البربر عام ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م . متقابل القيسيون واليمنيون في موقعتين لا تقل الواحدة منهما عن الجمل أو صفين وهما موقعة أوقه برطورة في شوال عام ١٢٤ هـ (أغسطس ٧٤٢ م) وموقعة شقندة عام ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) وفيهما انتصر القيسيون وصارت لهم قيادة الأندلس منذ ذلك الحين^(٨) .

المهم في ذلك كله أن العرب انشغلوا بالصراع القبلي المقيت حتى توقف الجهاد ضد نصارى الشمال في أسبانيا ، وضد الفرنجة فيما وراء البرنات بل تمكن ملأى ملك جليقة من هزيمتهم في موقعة كونا دونجا عام ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) كما سيأتى في حبه وأخرجهم من جليقية كلها وأفتتن الناس حتى تنصر كل مذبذب في دينه ، وتقهر المسلمون الر استورقة وتحالفت المجاعة التي شملت الأندلس في ذلك الحين مع نصارى الشمال فأخلى المسلمون المنطقة الشمالية الغربية كلها ونزلوا حتى فورية

(٧) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٨) الرازي برواية ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١١ ، دوزي ، المرجع نفسه ، ص ١٢٤ ، ١٣٥ .

وماردة عام ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) ، وبذلك خسر المسلمون ربع ما فتحوه من شبه الجزيرة^(٩) .

تلك هي أهم العوامل التي أعطت الفرصة لكي تنثأ أول مملكة نصرانية في شمال أسبانيا وهي مملكة جليقية وأشتريس . لكن كيف قامت هذه الدولة ، وما هي علاقاتها بمسلمي الأندلس في تلك الفترة التي نتحدث عنها والتي تسمى بعصر الولاة ؟ .

من الثابت أن فلول القسوط الذين فروا أمام الزحف الإسلامي تجمعت في أقصى الشمال في أستوريا Asturias التي تسميها المراجع العربية اشتريس أو اشتوريس وعند منطقة هناك تسمى الصخرة أو صخرة بلاي وتسميها المراجع النصرانية Picos de Uropa احتفى بلاي وأصحابه من هجمات المسلمين . ولما سمعوا نبأ وفاة لذريق Roderic انتخبوا بلاي خليفة له . وقام بلاي واتخذ من مدينة كانجاس دي أونيس Cangas de عاصمة له . ويعتبر هذا الأمير أو الملك هو أول من أقام أول إمارة نصرانية تقوم ضد المسلمين وتثور ضدهم^(١٠) .

ويخلط كثير من المؤرخين خلطا شديدا في بدء ثورة بلاي ، فبعضهم يجعله في ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى الذى تولى أمر الأندلس بين عامي ١٠٣ هـ ، ١٠٧ هـ ، وآخرون يجعلونه في ولاية عقبة بن الحجاج السلولى الذى حكم من سنة ١١٧ هـ الى ١٢٣ هـ ، وهناك أيضا أيضا من يجعل ثورة بلاي في أيام ولاية يوسف الفهرى (١٢٩ — ١٣٨ هـ)^(١١) .

(٩) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٦٢ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(١٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، مؤنس ، بلاي وميلاد

اشتريس ، ص ٥ .

Chapman, A history of spain, p 53

(١١) الراي ، بروايه المقرئ ، نفخ للطبيب ، ج ١ ، ص ٥٢٢ ، مؤنس ، المرجع

نفسه ص ١١ .

وسمى هذا المسمى بغيره هامة تحدد لنا بدء قيام حركة بلای هذا فيقول :
« قال غير واحد من المؤرخين ، أول من جمع كل النصراني بالأندلس بعد
غلبه العرب لهم عالج يقال له بلای من أهل أشتربس من أهل جليقية
كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، مهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن
التقي ، ثانی امراء العرب بالأندلس ، وذلك في السنة السادسة من فتحها
وهي سنة ٩٨ هـ ، وثار النصراني معه على نائب الحر بن عبد الرحمن
فطرده وملكوا البلاد وبقي الملك فيهم الى الآن » (١٢) .

ونسخلص من هذه الفترة الحقائق الآتية :

اولا — أن أول من ثار ضد المسلمين في الشمال النصراني كله هو
بلای ، وربما لم يكن بلای هذا من القوط ، وانما من أهل البلاد من أهل
أشتربس أو جليقية أي من سلالة الأيبيريين الرومان الذين حكمهم القوط
حتى قدوم العرب . وسواء كان بلای قوطيا أم من أهل البلاد الأصليين
فهو كان ابنا (لفافيل) دوق كنتبربة أو بنا لبرمود وأخو لذريق .
وكان قد اختلف مع عمه لذريق قبيل دخول العرب البلاد وذهب الى
أشتربس وأقام نفسه أميرا عليها حسب ما تدعيه الروايات النصرانية (١٣) .

ثانيا — كان بلای رهينة في قرطبة لضمان طاعة أهل بلده أشتربس
وجليقية ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذاري من أن موسى بن نصير « خرج
من طليطلة غازيا بفتح المدائن حتى دانت له الأندلس ، وجاء وجوه أهل
جليقية يطلبون الصلح ، فصالحهم وفتح بلاد الشكنس وأوغل في بلادهم
حتى أتوا قوما كالبهائم . . » (١٤) ، إذن صالحه أهل جليقية على أن يكون
أميرهم بلای نفسه رهينة عنده في قرطبة .

(١٢) المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٢١ .

(١٣) لمعرفة أصل بلای تفصيلا ، انظر د. حسين مؤنس ، بلای وبلاد أشتربس ،
ص ٦ - ٩ .

(١٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

ثالثا - استمر بلاى حبّيس قرطبة حتى فر أبام الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، وهو ثانى أمراء العرب بالأندلس بعدد اغتيال أول أمرائها منهم وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير عام ٩٧ هـ (٧١٦ م) ، وقد ظل الحر حاكما للأندلس حتى عام ١٠٠ هـ ٧١٩ عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز السمع بن مالك الخولانى واليا عليها من قبله (١٥) .

رابعا - هرب بلاى الى أشتريس عام ٩٨ هـ (٧١٧ م) والنفة حوله أهل تلك المنطقة من النصارى وأعلنوا الثورة ضد نائب الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، الذى لا تذكر لنا المراجع العربية أو النصرانية اسمه ، وطردوه من البلاد ، وأعلنوا بلاى أميرا أو ملكا عليهم منذ ذلك الوقت .

والواقع أن انصراف الحر الثقفى الى الجهاد فى بلاد الغال كان من الأسباب التى سهلت على المسيحيين اللاجئين الى جبال أشتريس (أستوريا) الاجتماع على العصيان وزرع نواة المقاومة ووضع أساس أول دولة مسيحية فى أسبانيا حلت محل دولة القوط التى قضى عليها العرب . ونضاف الى ذلك سبب آخر دفع مسيحيى تلك المنطقة دفعا الى الثورة ، هذا السبب هو سخط الناس على إدارة الحر وتبرمهم من عسفه وظلمه ، وكان هؤلاء حديثو عهد بالخضوع للعرب ، فثقل عليهم ذلك وغات نفوسهم بالثورة ، واستغل بلاى هذا الغليان وأعلن الثورة والتمرد والعصيان (١٦) .

من هذه الحقائق نرى أن ثورة بلاى أو دولة أشتريس انما ولدت عام ٩٨ هـ / ٧١٧ م ، ولم تكديضى على الفتح ست سنوات ، لكن يبدو أن بلاى ظل متوقعا فى بلدة كانجاس دى أونيس بأشتريس ، وأخذ بجميع الأنصار من القوط الهساريين من المسلمين ، ومن الأيبيريين الرومان المقيمين فى تلك الناحية ، وأخذ يحرضهم على الوثوب على الغرب

(١٥) ابن حيان سرواية المقرئ ، نفح الطيب ، ص ٥٦ .

(١٦) رينو ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٧٢ ، ٤٨ ، ٤٩ .

المقيمين هناك ، ويعجب عليهم طول الاستسلام والمراجع أمام المسلمين حتى استنهضهم وحملهم على الوثوب على المسلمين . ظهر هذا بوضوحاً أمام عنبة بن سحيم الكلبى والى الأندلس (١٠٣ - ١٠٧ هـ / ٧٢٢ - ٧٣٦ م) . ولم يكن هدف بلای فى ذلك الوقت هو استرداد الأندلس بل « دفع المسلمين عما بقى بأيديهم من أرضهم وحماة حريمهم ، وقد كانوا لا يطعمون فى ذلك » (١٧) .

اذن لم يقم بلای بنورنه أمام عنبة بن سحيم الكلبى ، بل قام بدعو الى الاحتفاظ بما بقى لهم من مناطق فى أشتريس وجليقية وكنتبرية ، تلك المناطق القاحلة القارصة البرد الجذباء التى لم يألّفها العرب أو البربر من قبل . وليس هناك من شك أيضاً فى أن مقتل السميح بن مالك الخولانى الوالى السابق على عنبة بن سحيم ، فى أرض الغال (فرنسا) عام ١٠٢ / ٧٢١ م ، قد شجع نصارى الشمال على ذلك (١٨) .

ولم تذكر لنا المراجع أن عنبة بن سحيم الكلبى قام بغزو نصارى الشمال ، بل انه وجه همته للانتقام لمقتل السميح بالايغال فى غزو الفرنجة حتى استشهد عام ١٠٧ هـ / ٧٢٦ م ، لكن المسلمين كانوا قد انتبهوا لحركة بلای فقام عامل المسلمين فى نواحي أشتريس القائد البربرى (مونوسة) بمحاولة التصدى لتلك الحركة ، ووقعت بينه وبين بلای مناوشات ، وظل مونوسة يحاربه ويطارده حتى ألجأه الى التحصن بالصخرة التى عرفت باسمه (صخرة بلای) فى عدد قليل جداً من أنصاره (١٩) .

(١٧) الرازى برواية المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ ، ابن حبان برواية المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(١٨) رينؤ ، المرجع نفسه ، ص ٧٢٠ .

(١٩) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، ٥٢٢ ، ج ١ ، ص ١٠٩ ، د. حسين مؤنس ، بلای وميلاد أشتريس ، ص ١٩ .

Murphy, The history of the Mohamdan Empire in Spain, p 79

لكن سوء الحظ لازم المسلمين فقام صراع بين مونسو وبين عبد الرحمن
الغافقي (١١٣ — ١١٤ هـ / ٧٣٢ / — ٧٣٢ م) واستطاع عبد الرحمن
والى الاندلس في ملك المنزه أن يقضى على مونسو وأن يقتله على يد قائده
البربري (ابن ريان) سنة ١١٣ هـ / ٧٣٢ م . ولم يلبث عبد الرحمن نفسه
أن وقع صريحا أمام اشتباكه مع الفرنجة في معركة بلاط الشهداء عام
١١٤ هـ / ٧٣٢ م . وبذلك خلا الجو أمام بلال ، فاشجع وخرج من
الصخرة واخذ في التوسع حتى استولى على جيخون Gilon التي كان
مونسو يقيم فيها ، وبسط سلطانه على اقليم اشترس وكنتربره واتسع
ملكه حتى شمل جزءا من جليقية (٢٠) .

ثم استولى امر الاندلس عقبه بن الحجاج السلولى (١١٧ — ١٢٣ هـ /
٧٣٥ — ٧٤١ م) وكان قائدا عظيما من طراز عبد الرحمن الغافقي ، جعل
فيه من الانتقام لكارثة بلاط الشهداء باستئناف الجهاد في غالة ثم القيام
برد عادية نصارى الشمال والقضاء على دويلتهم الناشئة في اشتريس
وجليقية . وباليته ركز جده كله في هذه الناحية ، لكنه اخذ من مدينة
أيونسة وراء البرنات قاعدة لغزو فرنسا ، وتوغل هناك حتى عاد نهر
الرون رباطا للمسلمين الذين هددوا بذلك قلب فرنسا . لكن شارل مارتل
هزم المسلمين ، عند أربونة هزيمة شديدة عام ١١٩ هـ / ٧٣٧ م (٢١) .

وفي عام ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م زحف شارل يساعده أخوه شلديبراند
وحليفه لوتبراند ملك اللمبارد على مواقع المسلمين ، واضطر عقبة أن يخلي
بروفانس والارتداد الى ما وراء جبال البرنات حيث اصطدم بعصانات
قوية من البشكنس والقوط الذين حرضهم الفرنج على التصدي له آنذا .

(٢٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٨ ، حسين مؤنس ، المرجع نفسه ،

ص ٢٠ .

(٢١) الخشبي ، عصاة فوطنة ، ص ٢١ ، ابن بشكوال برواية المقرئ ، نفح الطيب

ج ٢ ، ص ٥٨ .

مؤدنه ، وبذلك فقد المسلمون فتوحاتهم فى جنوب مرنسا ، ولم يبق لهم الا مدينة أربونة ، وضاع جهدهم فى هذا الصراع الذى كان وبالا عليهم^(٢٢) .

حول عتبه السلولى جهده فى نفس الوقت الى أشتريس وجليفية ، لكنه ايضا فى هذا الميدان لم يحقق نجاحا تاما ، فقد قام قائده علقمة بن عبد الرحمن اللخمى بالاشتباك مع بلاى ورجاله ، وتقدم حتى افتتح جليقيه كلها وما وراءها بحيث لم يبق هناك الا الصخرة النى احصى بها بلاى وقلة من جنده ، وظل علقمة محاصرا لها حتى كاد هؤلاء يموتون جوعا ولم يبق لفهم الا تلاتين رجلا وعشر نساء ، ولما أعيا المسلمين أمرهم تركوهم وعادوا الى أستورقة فى جليفية . وهنا ندعى بعض الروايات النصرانية نصرا حقتسه بلاى عند مغارة دونجا بالصخرة ، وتقول أن جيش علقمة قد هزم . لأن تلك الموقعة لم يحس أوانها بعد ، اذ أنها تمت عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م^(٢٣) .

كاد أمر تلك الدولة أن ينتهى فى عهد عتبه السلولى ، لكن هذا القائد العظيم لم يستمر فى ولاية الأندلس ، اذ ثار عليه عبد الملك بن قطن الفهرى عام ١٢٣ هـ وبولى الحكم بدلا منه . وبذلك بنفس بلاى الصعداء خاصة وأن الوالى الجديد انغمس فى أدنيه فى صراع مرير مع البربر بم القيسية بقيادة بلج بن بتر ، واستمر هذا الصراع بعد عبد الملك ، كما سبق أن انسرنا ، حتى قامت الفتنة بين أبى الخطار حسام بن ضرار الكلبي ونوابة العاملى ، وبين الصمبل ويوسف الفهرى عام ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م ، هنا فقط أصبح الجو مهيأ تماما لكى يحقق نصارى الشمال نصرا ولأل مره بعد الفتح على مسلمى الأندلس فى موقعه كوفنا دونجا^(٢٤) .

(٢٢) ابن خلدون العبر ، ج ٤ ، ص ١١٩ ، محمد هنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، ص ١١٣ - ١١٥ .

(٢٣) ابن عذارى السينا المغرب ، ج ٢ ، ص ٤١ ، مجهول ، احبار مجموعة ، ص ٢٨ ، د . حسن مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢٤) الرازى برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

ويخطط المؤرخون المسلمون والنصارى في الزمن الذي تمت فيه هذه المعركة خلطاً شديداً ، بل ويخلطون بين النورة التي قام بها بلاى وبين تلك الموقعة ويجعلونها شيئاً واحداً . وقد نبغنا حركة بلاى منذ منذ عام ٩٨ هـ / ٧١٧ م ورأينا أنه انبع سياسة الدفاع عما تبقى لديه من أرض في أشتريس وجليقية مما تركه المسلمون استصغاراً لشأنه . ولم يتركه المسلمون هادئ البال بل رموه بقوانينهم أيام غنبة وأيام عقبة السلولى حتى ألجأوه الى الصخرة ، والان أتى دور الهجوم . اذن لا مجال للخلط بين قيام ثورة أو دولة ، وبين موقعة حربية كسبتها تلك الدولة ، وكانت عاملاً كبيراً من عوامل ننبيت أوتادها وفتحت الباب أمامها للتوسع وبدء حركة الاسترداد التي قام بها نصارى الشمال ، وصارت علماً على تاريخهم في العصور الوسطى^(٢٥) .

وقد أعبر بعض المؤرخين أن النصر في هذه المعركة النى ضخم الأسباب قيمتها ، هو البداية الحقيقية لقيام دوله أشتريس . وعلى أية حال فاننا نميل — حسب منطق الاحداث وحسب رواية صاحب أخبار مجموعة في فنح الاندلس وهى رواية هامة — الى أن معركة كونا دونجا Cova d'onga حدثت عام ١٣٣ هـ (٧٥٠ — ٧٥١ م) اذ أن خلافة بنى أمية في المشرق قد انتهت ، والقوات الاسلامية في الاندلس قد تضعضعت بفعل الصراع القبلى العنيف ، أى أن الوضع العام في الداخل والخارج يهيئ لتلك المعركة ويكفل لها النصر ضد المسلمين . ولولا المجاعة التي شملت النصارى والمسلمين في شبه الجزيرة على السواء لأصبح مصير المسلمين في كفة الميزان^(٢٦) .

ورغم الأهمية العظيمة التي أعطاها الاسبان لهذه المعركة الا أنها لم تخرج عن كونها مناوشات حدثت بين المسلمين وبلاى فى إحدى مناطق

(٢٥) Crow, Spain : The root and the flower, pp. 48, 49 .

في تاريخ هذه المعركة وما قيل فيها من آراء ، انظر ، حسن مؤنس ، المرجع نفسه ، ١٩٥٠ .

(٢٦) مجهول ، أخبار مجهزة ، ص ٦١ ، ٦٢ .

الشمال لم تحدد مكانها المصادر الإسلامية ، ونسبها المراجع النصرانية
بكوفنا دونجا ، وكانت نتيجتها هزيمة المسلمين ، وترتب على ذلك أن
قام بلاى وأخرج المسلمين من جليقية كلها ، وعاد من أسلم من أهلها
الى النصرانية من جديد ، وتقهر المسلمون الى أسنورقة ، ولم يعودوا
الى مهاجمة هذه النواحي مره أخرى الا فى أيام المنصور بن أبى عامر فى
النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . ولذلك فان هذه الواقعة
تعتبر الميلاد الحقيقى لدولة أشتريس وتعتبر بدءا حاسما لحركة المقاومة
النصرانية فى شبه الجزيرة التى تعرف عادة بحركة الاسترداد
La Reconquista ، وهى على هذا الاعتبار حادث فاصل من حوادث
التاريخ الأسباني(٢٧) .

وعلى هذا الأساس نشأ وضع جديد سيكون محورا من أهم محاور
التاريخ الاندلسى كله ، وهو أن أسبانيا لن تكون منذ ذلك التاريخ قطرا
اسلاميا خالصا ، وانما ستكون قسمة بين الدولة الإسلامية والدولة
النصرانية ، وأن كلا من هاتين الدولتين ستسير فى طريقها ، وأن النزاع
بينهما سيستمر ويطول حتى ينهى أخيرا وبعد ثمانية قرون بالقضاء
على الدولة الإسلامية وعودة أسبانيا نصرانية كما كانت . من هنا
تتضح لنا أهمية شخصية بلاى فى التاريخ الإسلامى عامة ، فهو الذى
وضع أساس الدولة الأسبانية النصرانية التى ستحمل لواء المقاومة على
الجبهة الشمالية الغربية ، وهو أول من حقق نصرا على المسلمين جعلهم
يتراجعون لأول مرة عن أرض افنتحوها واستقروا فيها لمدة تقرب من
أربعين عاما(٢٨) .

والخطر فى الأمر أن تراجع المسلمين لم يقف عند حدود أشتريس
كما رأينا ، بل أنه زاد فى عهد الملك الفونسو الاول Alfonso 1 (١٣٥ —

(٢٧) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٦٢ .

(٢٨) د . حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ٢٤ ، ٢٧ .

١٤٢ هـ / ٧٥٢ - ٧٦٠ م^(٢٩) ، وهو ما تسميه الرواية الاسلامية عادة بأذفونش أو الفونش ، وقد حكم بعد وفاه بلاى بعمين ، ولم يكن من بيت بلاى بين انما كان ابنا لبطرة دوق كنبريه وكان الفونسو قد تزوج بفتا لبلاى تسمى أومنسندا Ermensinda وارتقى العرش بعد موت (فافلة) Fafila ابن بلاى بعمين ، مما يفهم منه أن فافلة بن بلاى مضى صغيرا دون أن يخلف عتبة ، والفونش هذا هو جد بنى الفونش الذين اتصل حكمهم بعد ذلك واستطاعوا أن يستردوا بلادهم^(٣٠) .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن الفونش الاول كان زعيما واسع النشاط على الهمة واسع الاطماع ، تولى الامارة في وقت ابنعد فيه خطر المسلمين عن حدود امارته أو مملكته ، بسبب ما وقعوا فيه من صراع ونزاع انتهزه الفونش واستغله أحسن استغلال ، واستفاد أيضا من تلك المجاعة التي عمت شبه الجزيرة أحسن فائدة ، حتى أنه استطاع أن « يخرج المسلمين عن أسنورثه وغيرها وانضم الناس الى ما وراء الدرب الآ(٣٠) والى قورية وماردة في عام ١٣٦ هـ (٧٥٣) واشتد الجوع وهاجر أهل الأندلس الى طنجة وأصيلا من ريف البربر ، فحف سكان الأندلس وكاد يغلب عليهم العدو الا أن الجوع شملهم »^(٣١) .

(٢٩) الرازي برواية المقرئ ، نفع الطبيب ج ٢ ، ص ٥٢٢ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٤ .

(٣٠) الدروب هي الطرق التي كان المسلمون يسكنونها في طريفهم من سهول الخنوب والوسط الى النواحي الساحلية العامة في أقصى شمال الأندلس ، ومعظمها طرق رومانبة ضخمة بين الخناب والجلال ، وأهمها دربان . درب سرقى من طليطلة الى وادى الحجارة الى حوض أبرة ، ثم يسير بمحازاته مارا بقلهرة وسخرة حتى بمبلونة Pampelona ومن ثم يفضى الى لابة Alava والقلاع Castilia واستريس ويسير الى مارده ودرب عربى يبدأ من الجرف ويسير الى ماردة وقورية ثم طليطلة ومنها الى سلمنقة وسمورة فجليقية . أنظر ، حسن مؤنس ، فجر الأندلس ، ٣٤٥ .

(٣١) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٦٢ .

والعبارة السابقة واضحة الدلالة ، وهى بين الى أى مدى كانت هجرة البربر والعرب من الشمال النصرانى بسبب مقاومه المسيحية وبسبب المجاعة التى كانت قد حلت بالبلاد منذ عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، وكنتيجة لما سبق أن أشرنا اليه من صراع المسلمين مع بعضهم البعض .

استطاع المسلمون الثبات عند قورية ومارده ، بعد أن خلفوا وراءهم مراكز هامة مثل ليون Leon وسمره Zamora ولدسما Ledesma فى الغرب ، وفى الجهة الشرقية فقد أخذوا سلمنقة Salamanca ولسدانيا Saldana وسيمانكاس Simancas وشقوبية Segovia وأبله Avila وأوكسة Oca وأوسمة Osma على وادى أبرة ، وكانت كلها مراكز هامة أتعب المسلمون أنفسهم فى فتحها وأضعافها فى غمرة الصراع القبلى والعنصرى المقيت ، وأصبحت حدود الأندلس الاسلامى الشمالية قبيل مجيء عبد الرحمن الداخل بدأ من الغرب عند مدينة قويمرة على نهر مندبق Mondego ، ثم نهد الى قورية فطليبة فطليطة فوادى الحجاره فتطيلة فبهلونه فى أقصى الشمال الشرقى . أى أن الأندلس الاسلامى فقد ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل قدوم عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٨ م (٣٢) .

وليس معنى ذلك أن مملكة مشتريس النائنه اتسعت حتى شملت هذه المناطق الهامة لان الواقع أن الفونس الاول لم يستول بالاعمال الا على النواحي المحيطة بأشتريس ، أى ناحيه لبانا وبردوليلى Vardulia وساحل جليقية ، وليس من المؤكد أنه احل ليون ، وأما الباقي وهو المساحة الواسعة الممتدة بين حوض النهو والتاجه فكانت فى ذلك الحين أرض فضاء قاحلة بين أسبانيا الاسلامية ودوله أشتريس النصرانية . ولم يفعل بها الفونش الاول أكثر من أنه زاد فى تخريبها حتى يجعلها منطقة فاصله بينه وبين قوات المسلمين . ورغم ذلك لم تكن الحدود بين الطرفين

(٣٢) شكيب أرسلان ، المرجع نفسه ج ٢ ، ص ٥٧ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

حدودا ثابتة ، اذ كانت في حالة صعود وهبوط حسب انتصار أحد الطرفين أو هزيمته من الطرف الآخر (٣٣) .

يؤكد ذلك ما تذكره المراجع العربية من أن المسلمين أحسوا بخطر قيام هذه الدولة وتوسعها على هذا النحو الذي بات يهدد النفور الإسلامية في الشمال والغرب ، خاصة وأن شعب إباسك والذي تذكره المصادر العربية عادة باسم البشكنس ، كان قد شجع بما قام به بلای والفونش الاول وأعلن الثورة هو الآخر . وكان البشكنس يسكنون كما سبق أن أشرنا شرق أشنريس وحول خليج بسكاية ، وربما اشتملت أراضيهم على نبرة (نافار) وامتدت حتى نهر الجارون في سبتمانيا بجنوب فرنسا (٣٤) .

وازاء ازدياد الأخطار المحدقة بالمسلمين في الشمال الغربي (جليقية وأشنريس) ، وفي الشمال خلف جبال ابرنات عند منطقة البشكنس ، أرسل يوسف الفهري حملتين الى هانين المنطقتين . أما حملته ضد جليقية فيبدو أنها لم تحقق شيئا ، اذ أن المصادر لا ذكرا بالصمت ولم تذكر لنا عنها شيئا ، لكنها أفادتنا عن الحملة الموجهة ضد البشكنس ، فقد ذكرت لنا أنها منيت بالفشل الذريع حيث قتل قائد الحملة عندما تقابل مع البشكنس في وادي شرنبة أو وادي الرمله Guadarrama وقتل عامة جنده ، وعادت فلولهم الى سرقسطة (٣٥) .

(٣٣) مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

Crow, Spain : theroot and the flower, p. 79 (٣٤)

Dozy, op. cit, p. 177

مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٧٦ .

(٣٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٧٦ ووادي شرنبة أو وادي الرمله الذي ذكر في المتن هو سلسلة جبال متوسطة الارتفاع تتفرع من سلسلة الجبال الوسطى El Sistema Central في وسط شبه الجزيرة ، تمر في مديريات مدريد وأبله وشقوبية ، وتتصل من ناحية الشرق بسلسلة الجبال الايبيرية ، ونقطة التقائها بسلسلة الجبال الوسطى مرتفع سومو سيبيرا Somosierra ويصل وادي الرمل

وقد لعب التآمر والخيانة دورا كبيرا في هزيمة المسلمين في وادي شرنبة عام ١٣٨هـ / ٧٥٦ م اذ ان الصراع على السلطة والصراع القبلى كانا وراء هذه الهزيمة ، فقد اراد يوسف الفهرى ان يقضى على بعض منافسيه من اشراف العرب « فارسلهم في ضعف ولما علم بقتل ابن شهاب قائد الحملة سره ذلك » (٣٦) .

الى هذا الحد وصلت الكراهية والاحتقاد والتنافس على السلطان في اواخر عصر الولاة ، لذلك لم يكن عجبا ان ينصر الباسك وأن يقوم الفونش الأول بالاسنيلاء على كثير من المدس والمقاتل الهامة التى لن يطأها المسلمون بعد ذلك الا فى عهد المنصور بن أبى عامر . ولم يكن عجبا أيضا ان يقول أحد المؤرخين أن الناس شمتوا بيوسف الفهرى عندما وصل رسول من قرطبة يخبره بأن فتى من قريش — يقصد عبد الرحمن الداخل — قد نزل بساحل المنكب بالأندلس وأن الناس اجتمعوا اليه (٣٧) .

ولم تكن شمنة الناس بيوسف الا لما فعله بالقرشيين من قواد حملة وادي شرنبة (أو وادي الرملة) . ومن ثم انفضوا عنه وتركوه فى قلة يواجه مصيره المحتوم ، وكأنها أرادت المتساذير أن تتدارك المسلمين فى هذا القطر الواسع برجل عظيم مثل عبد الرحمن الداخل يعيد اليهم ما فقدوه فى اواخر عصر الولاة ، أو يمنع على الاقل خطر النصارى على الدولة الاسلامية الناشئة .

الى قرب من مدريد عند مرتفع نانا ثيرادا Nevecerrada ويتبع من هذه الجبال نهر يسمى وادي الرمل Rio de Guadarrama ايضا يتجه الى الجنوب مارا بصاحبة الاسكوريال ويصب فى نهر باجه سرمى طليطلة . وهذا النهر — كما يدل عليه اسمه — جاف معظم العام تقريبا الا فى اوقات المطر العرير . وعلى مقربة من هذا النهر وقع للماء بين المسلمين والبشكتس عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م .
Diccionario Geografico de Espana, X, P. 434. انظر ،

(٣٦) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٧٧ .

(٣٧) ابن الاثار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ابن عذارى ، البيان

المغرب ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، ٦٠ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٧٧ .

الباب الأول

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية
وأسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية

الفصل الأول : الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس
الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية *

الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية
وأسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية *

الفصل الأول

الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس

الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية

تشكل العلاقات بين أي دولتين وفقا لظروف معينة ، وحسب عوامل خاصة ، تلون تلك العلاقات وتدفعها في اتجاه معين ، قد يكون اتجاهها نحو سلام ، وصداقة ، وحسن جوار ، وتعايش منمّر لصالح الطرفين وقد تدفعها في اتجاه منافض لهذا كله فنقوم الحروب ، وينشب الصراع السياسي ، والاقتصادي ، والثقافي ، والحربي ، وينتج عن ذلك دمار قد يكون متساويا عند الجانبين وقد يكون شديدا على أحدهما ، قليلا عند الآخر .

لكن المؤكد أن العلاقات بشقيها السلمي والحربي ، الودي والعدائي ، سوف تؤثر في كل منهما ، وسوف تثقل كثيرا أو قليلا من المؤثرات الحضارية من طرف إلى آخر .

وعلى هذا فحديثنا عن العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية ، لابد أن ينحو هذا المنحى ، ويتجه هذا الاتجاه ، فيأخذ منذ البداية تبين الظروف والعوامل والأحوال التي أثرت في العلاقات بين هاتين الدولتين ، والتي طبعتها بطابع معين في فترة معينة ، أو في عصر معين . وسوف نلاحظ أن هناك ظروفًا ، أو عوامل أدت إلى طبع العلاقات بينهما في عصر الإمارة الأموية بطابع قد لانجسده في عصر الخلافة مثلا ، أو في عصر ملوك الطوائف أيضا . ويمكن أن نعبر عن ذلك أيضا بأن هناك عوامل وظروفا أدت إلى رجحان كفة أحد الجانبين في عصر ما وظروفا أخرى أدت إلى اخفاقه وتعثره وضعفه في عصر آخر .

وعلى ذلك لابد أن نأخذ في الحديث عن تلك الظروف والعوامل داخل كل من الدولتين على حدة ، حتى يمكننا تفسير طبيعة العلاقات بينهما في الفترة التي حددناها للبحث وهي عصر بني أمية وملوك الطوائف .

أولا : ظروف الأندلس الإسلامية وأحوالها المؤثرة في علاقاتها بإسبانيا النصرانية في عصر أمارة بنى أمية

وفي هذا الصدد لابد أن نتحدث عن أربع نقاط ، فنبين أولا : سمات هذا العصر فيما يختص بعلاقته أمراء بنى أمية بإسبانيا النصرانية ، ثم نوضح عوامل القوة . وعوامل الضعف ، التي أثرت في علاقتهم بملك الدولة ، ثم نختم بالحديث عن موقف النصاري من أهل الذمة داخل الأندلس الإسلامية وأثر هذا الموقف ، في تطور العلاقات الأندلسية الأسبانية .

الموقف في تطور العلاقات الأندلسية الأسبانية :

١ - سمات عصر أمراء بنى أمية :

رأينا فيما سبق من حديث كيف أن المقاومة النصرانية الأسبانية النشطة ظهرت للوجود في أواخر عصر الولاة ، وكيف أنها استولت على بعض المناطق الإسلامية الهامة في الشمال . وقد أسعفت المقادير بلاد الأندلس المتفاحرة بقسودوم عبد الرحمن الداخل إليها عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦م ، وبوفاة عدوها النشط الفونش الأول ملك جلبقية وأشتريس بعد ذلك بقليل في عام ١٤٢ هـ / ٧٥٩م .

وبقسودوم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، بدأ عصر جديد في تاريخ الأندلس يسمى : عصر الإمارة وامتد هذا العصر حتى بداية القرن الرابع الهجري ، عندما تولى عبد الرحمن الناصر حكم البلاد عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢م وشمل بضع سنوات في حكم هذا الأمير ، حتى أعلن قيام الخلافة في عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨م ، فدخلت البلاد في عصر جديد هو عصر الخلافة .

وقد درج المؤرخون المحدثون على تقسيم عصر الإمارة الى عصرين : عصر القوة : وببدا بعبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦م وينتهي بوفاة عبد الرحمن الثاني عام ٢٣٨ هـ / ٨٢٢م .

وعصر الضعف : وببدا منذ ذلك التاريخ وينتهي بتولى الأمير عبد الرحمن المعروف بالناصر حكم البلاد عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢م .

الناريج وينتهى بتولى الأمير عبد الرحمن المعروف بالناصر حكم البلاد عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

لكننا لا نستطيع أن نأخذ بهذا التقسيم في مجال الحديث عن العلاقات السياسية بين مسلمي الأندلس وإسبانيا النصرانية في عصر الإمارة .

ذلك أن جميع أمراء بني أمية لم يتوانوا عن القيام بواجبهم في الدفاع عن الثغور الإسلامية ، كما كانوا يقومون بالهجوم على أراضي إسبانيا النصرانية وبرشلونة الفرنجية حتى أجبروها على طلب السلام والصلح عدة مرات ، ولم يتخلف أي أمير من أمراء بني أمية حتى في فترات الضعف — وهي فترات الانشغال بالفتن الداخلية — عن القيام بهذا الواجب المقدس .

ومما يؤيد ذلك أيضا أن العصر الذي يعتبره المؤرخون المحدثون عصر قوة ، ضاعت أثناءه مدن وثغور إسلامية هامة في الشمال الشرقي من البلاد ، مثل مدينة أريونة عام ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م ومدينة جرندة عام ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ، وثغر برشلونة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م . كما ضاعت مدن هامة في الشمال الغربي أيضا مثل مدينة لك وبرتقال ، وسمورة وقشتالة وشقوبية عام ١٤٦ هـ / ٧٦٤ م ، وضياح هذه المدن يعتبر علامة ضعف وليس علامة قوة ، وقد حدث هذا في عصر القوة ، ولم يكن إلا بسبب الأحوال الداخلية التي كانت تسود بلاد الأندلس في تلك الأثناء^(١) .

واتسم عصر الإمارة فيما يتعلق بعلاقة مسلمي الأندلس بإسبانيا النصرانية ، بسمات واضحة ، منها : ذلك التصدي لقوة مملكة جليقية الناشئة ووقف توسعها ، وحصرها في المناطق الشمالية التي استولت عليها أثناء عصر الولاة ، لكن انشغال أمراء بني أمية بالقضاء على الفتن الداخلية وبالصراع على الحكم . أدى إلى فرض السلام على الجانبين لفترات طويلة في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل وخلفائه على خلاف ما يظن البعض ،

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤ ، ص ١٢٢ ، القلشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ .

Murphy, Mohamedan Empire in Spain, p. 84

كما أدى أيضا الى ازدياد نشاط الفرنجة ، وسقوط ثغر برشلونة في أيديهم ، وصار خنجرا في ظهر المقاومة الاسلامية التي كان يقوم بها حكام قرطبة حينئذ ، وحكام سرقسطة حينئذ آخر^(٢) .

وقد أدى عدم التفرغ تماما لمقاومة نصارى الشمال الأسباني الى ظهور ممالك جديدة مثل مملكة نبرة (نافار) ، الى جانب مملكة جليقية واشتريس ، التي قامت في عصر الولاة والتي تحدثنا عنها من قبل . وبتوسع رقعة المقاومة النصرانية على هذا النحو ، أصبحت شبه الجزيرة الايبيرية مقسمة بين الدولة الأسبانية النصرانية في الشمال وبين الدولة الاسلامية في بقية أنحاء شبه الجزيرة ، وبدأ الصراع بينهما ، ولن تستطيع أى منهما القضاء على الأخرى تماما الا بعد صراع طويل مرير ، استمر ما يقرب من الثمانية قرون .

ولم يكن السلام الذي أشرنا اليه يعود الى انشقاق أمراء بنى أمية في هذا العصر بتوطيد الحكم والقضاء على الفتن الداخلية فقط ، بل يعود بالدرجة الأولى الى أن معظم أمراء بنى أمية كانوا أقوياء ، وكان في استطاعتهم السيطرة على مقاليد الأمور في أنحاء البلاد ، مما أجبر نصارى الشمال على احترامهم ، والحرص على مسالمتهم بقدر الامكان ، بل وارسال الوفود لعقد معاهدات السلام ، والصلح مع حكام قرطبة ، الذين كانوا قد نجحوا في القضاء على الصراع على كرسى الامارة ، ونجحوا أيضا في القضاء على الفتن الداخلية التي كان يقوم بها العرب والبربر ، وتفرغوا لممالك الشمال النصراني منذ بداية القرن الثالث الهجرى .

ومن سمات هذا العصر أيضا : أن الحرب كانت سجالا بين الفريقين في أحيان كثيرة ، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة ، ونشطت الحرب بينهما بصفة خاصة في أواخر عصر الامارة ، حيث كانت الأندلس قد تفتتت الى أقاليم أو دويلات صغيرة متناحرة ، فيما يشبه عصر ملوك الطوائف الذي ظهر بشكل سافر فيما بعد في القرن الخامس الهجرى ، وصار نفوذ

(٢) العيذى ، عمد الجمان ، ١٢ قسم ٧ ورقة ١٩٨ ، ٢٣٥ (مخطوط) .

أمراء بنى أمية لا يعتمدى مدينة قرطبة فى بعض الأحيان ، وانتهز نصارى الشمال الأسباني الفرصة واستولوا على بعض المراكز الإسلامية الهامة ، وتقدم الفونتنس الثالث (٢٥١ — ٢٩٥ هـ / ٨٦٦ هـ — ٩١٠ م) ملك ليون (جليقية) فى أراضى المسلمين .

ومن سمات عصر الإمارة البارزة أن حركات التمرد الداخلية شملت هذا العصر كله ولم تقتصر على فترة معينة أو حاكم معين ، ولم يخل منها عهد أى أمير من أمراء بنى أمية ، لكنه فى النصف الأول من عصر الإمارة ، كانت تقوم الفتن بين أمراء بنى أمية ، لكنه فى النصف الأول من عصر الإمارة ، كانت تقوم الفتن بين أمراء البيت الأموى بعضهم البعض بسبب الصراع على كرسى الإمارة ، وبلغ من عمق هذا الصراع أن بعضهم استعان بالفرنجة ضد البعض الآخر . أما فى النصف الثانى من عصر الإمارة ، فقد كانت حركات التمرد ذات طبيعة عنصرية ، أو شعوبية ، فقد قام المولدون الأسبان^(٣) ، يؤازرهم النصارى من أهل الذمة^(٤) ويدعمهم نصارى الشمال الأسباني والفرنجة بالثورة ضد العرب ، وضد حكم بنى أمية ، يتمثل ذلك فى ثورة ابن مروان الجليقى فى ماردة وبطليموس فى غربى الأندلس ، وثورة ابن حفصون فى رية فى الجنوب ، وتمرد بنى قسى فى سرقسطة فى الشمال الشرقى .

ولم يقوان أمراء بنى أمية فى القضاء على هذه الثورات ، لكنها شغلتهم كثيرا عن التصدى للأسبانيا النصرانية التى لو اتحدت ممالكها لנالت الكثير من المسلمين ، لكن الصراع كان قد نشب بين مملكة نبرة الناشئة وبين جارتها جليقية (ليون) ، التى كانت تحاول دائما أن تفرض سلطتها على الشمال الأسباني . وأعطى الصراع الداخلى بين نصارى الأسباني الفرصة لأمراء بنى أمية ، لى يقضوا على الفتن الداخلية .

(٣) المولدون الأسبان هم أبناء الأسبانيات اللاتى تزوجن من عرب أو بربر ونشأ ابنائهن على الإسلام ، وكون بعضهم أسرا حاكمه وخاصة فى شمال بلاد الأندلس .

(٤) النصارى من أصل الذمة ، هم النصارى الذين يعيشون بين مسلمى الأندلس وأصبحوا فى فقتهم ، فعلى المسلمين حمايتهم وتوفير الأمان لهم .

وننتج عن ذلك : نفوق الأندلس الاسلامية ، وازدياد قوتها عن جاراتها
من ممالك اسبانيا النصرانية .

٢ - عوامل القوة وأثرها في العلاقات مع ممالك اسبانيا النصرانية :

وكانت عوامل القوة التى كتلت التفوق فى معظم عصر الامارة على
اسبانيا النصرانية كثيرة ، اهمها : توحيد الجبهة الداخلية تحت قيادة
امراء بنى امية .

وكانت البلاد فى اواخر عصر الامارة نهبا للفوضى ، وسفك الدماء بين
الولاة المتنازعين على كرسى الحكم ، وكانت البلاد ميدانا للصراع المقيت
بين اليمانية والقيسية ، وبينهما وبين البربر ، كما سبق القول ، فأتى
عبد الرحمن الداخل وضرب تلك العناصر ، واستعان ببعضها ضد البعض الآخر
كما استعان فى تنفيذ سياسته تلك ، بالموالى والعبيد والبربر والمحاريين
من شمال افريقية ، واقام حكما مطلقا ، كان السلطان فيه للسيف وحده ،
واتبع فى ذلك جميع وسائل البطش والعنف^(٥) .

ويبدو أن الداخل كان مضطرا الى ذلك ، فقد كان اعتماده على
اليمانية فى بادئ الأمر ، لكنهم لم يلبثوا أن ثاروا عليه بسبب مقتل زعيمهم
ابى الصباح اليجصبى . وادى ذلك الى عدم اطمئنانه الى العرب قاطبة ،
وعرف أن قلوبهم لا يمكن أن تصفو له ، «فانحرف عنهم الى اتخاذ الممالك»
من الموالى والعبيد الذين اشتراهم واستكثر منهم ، حتى أنه كون منهم
جيشا قوامه أربعون ألف مقاتل ، تمكن به من السيطرة على أهل الأندلس
من العرب وغيرهم ، كما تمكن به من فرض السلام على جيرانه من نصارى
الأسبان فى الشمال ، واستقامت له الأمور ونوطد حكمه فى تلك البلاد^(٦) .

(٥) ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٠ ، لئن بول ، قصة العرب فى

اسبانيا ص ٦٠ .

(٦) ابن حيان برواية المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

وقد تعرض عبد الرحمن الداخل في أواخر عهده الى مؤامرة كبرى اشترك الفهريون (مضر) والكلبيون (يمن) ، والتمس هؤلاء الثوار المساعدة من شارلمان، امبراطور الفرنجة ، لكنهم لم ينفذوا الخطة التي كانوا قد اتفقوا عليها معه ، وكانت النتيجة أن اتهم بعضهم بعضا بالخيانة ، مما سهل على عبد الرحمن الداخل فرصة القضاء عليهم ، بعد أن عاد شارلمان خائبا ، حيث امتنعت عليه مدينة سرقسطة ، ومنعه أهلها من دخولها ، وتعرض اثناء عودته لهجوم قبائل البشكتس (الباسك) ، وفقد عددا كبيرا من جنده قلى ، كان من أشهرهم قائدده المحبوب ، رولان في عام ١٦١ هـ / ٧٧٧ م (٧) .

وقد بقيت ذيول هذه الحركة أيضا في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢ — ١٨٠ م) والأمير الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) واستقل أحد الثوار العرب بمدينة سرقسطة ، واستقل ثائر آخر بمدينة برشلونة . وساعدهم على ذلك ظهور الانشقاق في البيت الأموي ، اذ قام الصراع بين أبناء عبد الرحمن الداخل على كرسي الامارة ، واستمر هذا الصراع في عهد هشام وابنه الحكم ، واستعان بعضهم بشرلمان مرة ثانية . ف جاء الى الأندلس من جديد ، وساعده أحد الثوار العرب في الاستيلاء على برشلونة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، وضاعت تلك المدينة الهامة التي كانت تحمي الثغر الأعلى (سرقسطة) الى الأبد (٨) .

وقد تمكن حكام قرطبة من القضاء أخيرا ، على تلك الفتنة ، وعلى هؤلاء الثوار العرب ، الذين أضاعوا ثغر برشلونة الهامة ، وتأكد لديهم أن هؤلاء العرب لا يمكن الاعتماد عليهم ، فتوسعوا في استخدام الصقالبة

(٧) المعزى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ،

ص ٢٠ ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .

Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 204-206.

(٨) الرازي برواية ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٢ — ٩٤ ، ابن عذاري ،

المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، ٩٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٤ ، ابن خلدون ،

المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، المعينى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ورقة ١٩٨ ، ص ٢٣٥ .

والموالى منذ عهد الحكم ، واستمر خلفاؤه يسرون على منواله ، فركن العرب الى الهدوء طوال حكم ابنه عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وطوال عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) ، ولم ترفع الارستقراطية العربية رأسها الا في أواخر عهد الأمير محمد ، وقاموا بثوراتهم واستقلوا بما كان تحت يدهم من مدن وأقاليم ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر وقضى عليهم .

وكان لثورات البربر أيضا : أثرها في الجبهة الداخلية ، وعلى العلاقات بين مسلمي الأندلس ونصارى الشمال الأسباني ، فقد قام أحدهم ويدعى شقيا بن عبد الواحد المكناسي ، وادعى أنه فاطمي ، وقام يدعو للشيعه ، واستولى على شنت برية (قرب طليطلة) وامتد نفوذه الى المناطق التي تقع بين ماردة وقورية غربا ، الى ثغر وادي الحجرة وكونكة شرقا ، واستمرت ثورته من عام ١٥١ هـ حتى عام ١٦٠ هـ (٧٦٨ - ٧٧٧ م) ، ولم تنه تلك الثورة الا بعد أن اغتاله أحد أصحابه عام ١٦٠ هـ (٩) .

وقد شغلت تلك الثورة عبد الرحمن الداخل عن التصدي لنصارى الشمال ، الذين كانوا يحتضنون كل ثائر على بنى أمية ، فقد فتحوا أبوابهم لأحد ثوار البربر في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني ، ورحب به الفوننش (الفونسو) الثاني ملك جليقية واشترى ، ولما حاول هذا الثائر العودة الى بلاده ، خاف الفوننش من أن ينقلب ضده ويصالح أمير قرطبة فقتله عام ٢٢٥ هـ (١٠) .

ورغم هذا التشجيع الذي لقيه الثوار ، سواء كانوا من العرب ، أو من البربر من نصارى الشمال ، فقد نجح أمراء بنى أمية في القضاء على حركاتهم

(٩) ابن حزم ، حمزة انساب العرب ، ص ٧٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣ ، ١٣ ، ١٨ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

(١٠) ابن عسكاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٣ ، ١١٨ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٥ .

التي ظهرت في الصدر الأول من عصر الإمارة . ولما ظهر نشاطهم مرة أخرى في أواخر ذلك العصر ، اسنطاع الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) أن يوجههم لمهاجمة نصارى ببلونة بعد أن أقروا له بالطاعة والولاء . وبذلك : تمكن بنو أمية من توحيد الجبهة الداخلية ، وتفرغوا للجهاد ضد نصارى الشمال الأسباني ، ورد اعتداءاتهم على الثغور الإسلامية حتى اضطروهم إلى طلب الصلح في أحيان كثيرة^(١١) .

٢ — وكان الأسلوب الذي اتبعه أمراء بنو أمية في الحكم ، من عوامل قوتهم ، وكان له أثره في استقرار الأمور في الداخل ، وفي التصدي لنصارى الأسبان في الشمال . وكان هذا الأسلوب يركز على ذلك التوازن الذي أوجده الأمويون بين القوات الخاصة التي أنشئوها ، من الموالى والصقالبة والبربر ، ومن قوات القبائل العربية المنتشرة في الكور ، أو الولايات التي تعرف بالكور الجندة . وهي ولايات ينزلها « جند » من قبائل معينة ، كان أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى وزعهم عليها ، منذ عام ١٣٥ هـ / ٧٤٣ م في عصر الولاة^(١٢) .

وكان لقوة شخصية أمراء بنو أمية أثره في نجاح سياستهم في السيطرة على القوات الخاصة وعلى أجناد القبائل ، وتوجيهها لتحقيق مصلحة الدولة ، فاستطاعوا بذلك أن يقضوا على الثوار في كل ناحية ، واستطاعوا أن ينازلوا نصارى الشمال الأسباني ، وأن يلحقوا بهم الهزائم ويجبروهم على طلب الأمان والسلام .

لكن أمراء بنو أمية الأواخر اشتطوا في شراء الصقالبة والاعتماد عليهم ، فاختل التوازن وحاول هؤلاء الصقالبة السيطرة على مقاليد الأمور في بعض الأحيان ، ونزعت القبائل العربية إلى الاستقلال عن قرطبة ،

(١١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٩٩ ، آبن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .

(١٢) ابن حزم مرواية ابن حيان ، المتنبس ، ج ٣ ، ص ٤١ ، الحميري ، صيغة جزيرة الأندلس ، ص ٣٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٣٩ .

فانفطر عقد البلاد وصارت أشبه ما تكون بدول الطوائف في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي .

كما كان حب أمراء بني أمية للعدالة وانقيادهم للحق حتى ولو كان على أنفسهم أو أقرب الناس اليهم من الصفات البارزة التي انصفوا بها ، وكانت مصدرا قويا من مصادر قوتهم ، فقد اطمأن الخاص والعام الى حكمهم ، وتفرغ الناس للعمل في شئونهم الزراعية والصناعية والتجارية ، فزادت ثرواتهم ونمت ملكياتهم وترقت حياتهم ، وأدت تلك السياسة الرشيدة الى نتيجة واضحة في عهد عبد الرحمن الثاني ، فقد اقترنت أيامه بالهدوء وخلت من الثورات فتفرغ الى بناء الدولة واتخذ دارا للسكة بقرطبة ، وزادت هيبة الدولة وفخامتها ، وازدهرت الحياة في سائر مناحيها . وازداد العمران وكثير بناء المدن والقرى وشق الترع وبناء القنوات (١٣) .

٣ — وكان لتركيز السلطة في بيت الأمير الحاكم فقط وانتقال الحكم الى ابنه دون بقية أفراد الأسرة الأموية ، أثر كبير في استقرار الأمور وفي قوه قرطبة وقدرتها على مقارعة الخطوب سواء في الداخل أم في الخارج . فلم يحدث أن تولى اخوة الأمير الحاكم عرش الامارة من بعده الا في حالة واحدة ، هي انتقال الحكم بعد وفاة الأمير المنذر الى أخيه الأمير عبد الله عام ٢٧٥ هـ . عدا ذلك كان الحكم ينتقل بالوراثة من الأمير الى ابنه من بعده . حدث هذا طوال عصر الامارة ، وصار قاعدة سار عليها الأمويون حتى في عصر الخلافة حتى عام ٤٠٠ هـ .

وكان الأمويون في الأندلس أحوج الى الوحدة وتركيز السلطة على هذا الشكل أكثر من غيرهم من الأسر الحاكمة في الأقطار الاسلامية

(١٣) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٣ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٦ ، ٥١ ، ١٤٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، مجهول ، أخبار مجموعه ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، ابن شاذي الكندي ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

الأخرى ، بسبب طبيعة البلاد وتباين الأجناس والعناصر التى تقطنها ،
ويسبب ملاصقتها لعدو لا بنى ولا يمل من التطلع الى استرداد أرضه
من مسلمى الأندلس مرة أخرى . وكان أمويو الأندلس فى ذلك على خلاف
أجدادهم من أموى الشام حيث كان الاخوة يتولون منصب الخلافة ،
مثال ذلك : بنو عبد الملك بن مروان الاربعة ، الوليد ، وسليمان ، ويزيد
وهشام . وكان أمويو الأندلس على خلاف العباسيين فى بغداد أيضا
فى هذه الناحية ، فقد تولى الخلافة بنو الرشيد الثلاثة : الأمين والمأمون
والمعتصم ، وبنو المتوكل الثلاثة : المنتصر ، المعتز ، والمعتد^(١٤) .

{ — من عوامل قوة أمراء بنى أمية أيضا : سياستهم الناجحة فى
الاستعانة بالمولدين فى حكم الثغور واصطناعهم وتوجيه نشاطهم فى رد
هجمات نصارى الشمال الأسباني ، وضربهم بالعرب اذا ما حاولوا التمرد
والعصيان ، أو اذا ما تحالفوا مع نصارى الشمال ضد قرطبة ، وأول
من نفذ هذه السياسة هو الأمير الحكم (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) عندما
استعان بمهروس الأول ابن يوسف ، وهو من المولدين فى القضاء على
ثورة بنى جلدته من المولدين فى طليطلة عام ١٩١ هـ / ٨٠٧ م . وكان بنو
مهروس يعيشون فى مدينة تطيلة بالثغر الأعلى (سرقطسة) وتعرضوا
بذلك لهجمات النافاريين عام ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م الذين تمكنوا من أسر ولده
يوسف ، فقاتلهم مهروس حتى خلاص ابنه من أسرهم ، كما ساهم أيضا
فى صد خطر الفرنجة على ثغر طرطوشة الذى يقع فى شرقي
الأندلس على ساحل البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م^(١٥) .

وكان الثغر الأعلى الأندلسي (سرقسطة) تحيط به الممالك النصرانية
من الشمال والشرق والغرب ، وهو اقليم غنى بموارده الزراعية
والتجارية ، وكانت أغلبية سكانه من المولدين والنصارى من أهل الذمة ،
مثل أسرة بنى قسى وبنى عمروس وبنى الطويل (شبروط) وهى أسر

(١٤) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٦٢ ، ابن نسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٤٠ .

(١٥) السامرائي ، الثغر الأعلى الأندلسي ص ٣٤٤ .

من المولدين الأسبان . ولم يتبع هؤلاء المولدون سياسة النعصب أو الشعوبية التي كانت ملحوظة عند مولدى الجنوب الأندلسى ، وإنما كانت تحكمهم مصلحتهم الخاصة . وكان بعدهم عن قرطبة وقربهم من أسبانيا النصرانية يكف اوضاعهم السياسية ويؤثر فيها تأثيرا قويا^(١٦) .

فكانت العلاقة بين مولدى الشمال وبين حكومة قرطبة ، تتأرجح بين الطاعة والعصيان ، وكان هؤلاء المولدون يحاربون نصارى الشمال الأسباني أحيانا ويتحالفون معهم أحيانا أخرى . ولم تكن حروبهم هذه حبا فى بنى أمية أو كراهية لنصارى الشمال ، وإنما كان ذلك لتحقيق مصالحهم الذاتية ، وحماية لنفوذهم وابقاء لسلطانهم على تلك المناطق من بلاد الأندلس . ولذلك : كانوا يتعرضون كثيرا لهجوم جيوش الامارة الأموية لاجبارهم على العودة الى الطاعة . ورغم ذلك فقد أدوا خدمات جليلة للامارة فى حفظ تلك المناطق النائية من الوقوع فى قبضة أسبانيا النصرانية ، وفى بناء الكثير من الحصون لحمايتها ، وفى رد هجمات نصارى الشمال عن الثغور الاسلامية^(١٧) .

وعندما حاولت تلك الأسرات من المولدين أن تنفصل عن قرطبة وتعلى عليها التمرد ، والعصيان فى أواخر عصر الامارة ، قام أمراء بنى أمية بضربهم ببيض الأسرات ذات الأصل العربى ، مثل بنى تجيب الذين مكن لهم الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) وبنى لهم قلعة أيوب ، وأسكنهم بها .

ولما عاد بنو قسى الى النمرود فى عهد ابنه الأمير عبد الله عام ٢٧٦ هـ ، استعان هذا الأمير ببنى تجيب هؤلاء ، وتمكنوا من الاستيلاء على بمرقسطة وزاحموا بنى قسى ، وفرضوا نفوذهم على منطقة الثغر الأعلى منذ ذلك التاريخ^(١٨) .

Livermors, A history of Spain, P. 78

(١٦)

(١٧) ابن حيان ، المقتبس ، د ٣ ، ص ١٦ ، ٢٠ ، المعزى ، المصدر نفسه ، ٣٦ ، ٣٧ .

(١٨) ابن حيان ، المصدر نفسه ، د ٣ ، ص ٢٠ ، المعزى ، المصدر نفسه ،

ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٣ .

وقد مكنت عوامل القوة التي ذكرناها حتى الآن ، أمراء بنى أمية من اتباع سياسة نشطه وناجحة في علاقاتها بنصارى الشمال الأسباني ، وبنصارى برشلونة من الفرنجة ، وأصبحت بلاد الأندلس مرهوبة الجانب بفضل سياسة أمرائها وقوة شخصيتهم ، حتى هابههم خلفاء بنى العباس الأقوياء ، وقال أحدهم : « الحمد لله الذى جعل بيننا وبينهم بحرا » وهابههم نصارى الشمال الأسباني ، وهرعوا الى قرطبة مرارا يطلبون السلام ويمدون يدهم الى المودة .

٣ — عوامل الضعف وأثرها في العلاقات مع ممالك أسبانيا النصرانية :

لكنه كانت هناك أيضا : عوامل ضعف أثرت في العلاقات بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية في فترات معينة طوال عصر الامارة . ويمكن أن نلاحظ تلك العوامل بين ثنايا سياسات الامراء الأمويين أنفسهم ، ومنها مايمكن أن يعود الى تلك الفرقة العنصرية والدينية وللبيئة الطبيعية والبشرة الجغرافية التي كان لها أثرها في انقسام البلاد الى أقاليم منفصلة تفصل بينها حواجز طبيعية ، تساعد على التمرد وتؤيد الانفصال عن السلطة المركزية في قرطبة ، كما كان لوجود نصارى الشمال الأسباني وقربهم واتصالهم بالثغور الاسلامية ، ما ساعد على التمرد وحرص عليه ، وادى الى ضعف الحكومة الاسلامية في قرطبة .

١ — وقد سبق أن ذكرنا أن أمراء بنى أمية الأوائل قد أقاموا حكمهم بحدد السيف ، وأنهم أقاموا حكما مطلقا ، واتبعوا جميع وسائل البطش والعنف حتى مع أقرب الناس اليهم ، حفاظا على سلطانهم وتدعيما لحكمهم وارهبا لأعدائهم ، سواء في الداخل أم في الخارج ، واستعانوا في ذلك بالموالي والصقالبة .

ورغم نجاح تلك السياسة في تحقيق وحدة الجبهة الداخلية ، وفي رد كيد نصارى الشمال الأسباني وردعهم ، الا أنه كان لها خطرهما من ناحيتين : أولاها : أنه سوف يبرز خطر الاستعانة بهذه العناصر الأجنبية في فترات الضعف في أواخر عصر الامارة ، بعد أن

أصبحت تلك العناصر هي القوة الضاربة للدولة ، وصارت تتحكم في توجيه سياستها ، بعد أن تراخت يد الأمراء الأواخر في القبض على زمامها .

وثنايهما : أن تلك السياسة لم تألفها العرب ، ولم يتمودوا عليها . وإذا كان الأسبان الأندلسيون قد راققتهم سياسة الحكم المطلق التي سار عليها أمراء بنى أمية ، لأنهم استطابوا ذلك والفوه منذ العهدين القوطي والروماني ، إلا أن العرب بالتأكيد لم يألفوا ذلك ولم يعتادوه ، وكان يناسبهم العيش في أقاليمهم واقطاعاتهم داخل ما يشبه الجمهوريات المنفصلة ، ولم يكن يربط بينهم إلا شعورهم بالخطر المشترك الزاحف اليهم من نصارى الشمال الأسباني ، فكانوا ينفرون اليه جميعا يدا واحدة وقلبا واحدا . وكان هذا النمط من الحكومة هو ما يناسبهم وينسجم مع ما جبلوا عليه من حب للحرية والاستقلال والأنفة (١٩) .

ويعزو البعض كثرة الثوار في دولة بنى أمية الى طبيعة العرب والبربر ، وما طبعوا عليه من ، « علو الهمم وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة » ، اذ كان ما يحصل بالأندلس من العرب والبربر يجعل بعضهم يأنف من الازدعان لبعض ، ، ويجعل البعض الآخر من المؤرخين ذلك قاعدة عامة ويقول : « أن العرب متنافسون في الرياسة وقتل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه ، أو كبير عشيرته ، الا في الأقل ، وعلى كرهه من أجل الحياء ، فيتعدد الحكام منهم والأمراء ، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام ، فيفسد العمران وينتقص » (٢٠) .

(19) Dozy, op. cit, p. 211.

(١٩)

أنبس زكرما الصولى ، للدولة الاموية في قرطبة ، ص ١٠٣ .

(٢٠) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ج ٢ ، ٣٦ ، ابن خلدون ، مقدماته ، ج ٢

ص ٤٥٥ .

ولذلك ليس عجباً أن بكثرت المنردون والعصاة من أشراف العرب والبربر ، حتى أن بعضهم كان يلجأ الى الخارج طلباً للعدو ضد سلطان بنى أمية ، وكان البعض الآخر يعمد الى التآمر . وكان تأمر أفراد البيت الأموي ضد بعضهم البعض من الخواهر البارزة منذ بداية الدولة الأموية وحتى نهايتها ، وكان هذا مشجعاً للثوار فى الداخل ، ولنصارى الشمال الأسباني ، وادى ذلك فى النهاية الى ضياع أجزاء عزيزة من الأندلس الإسلامية والى خضوعها للسيطرة النصرانية^(٢١) .

وكانت بداية الانحلال وضعف الأمراء وظهور الفساد وانتشار الظلم منذ أواخر عهد عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) . وتميز عهده بسيطرة زوجته طروب وفتاه نصر الخصمى ومغنيه زرياب . وتميز عهد ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) بسيطرة وزيره هاشم بن عبد العزيز . وكان هذا الوزير رجلاً حقوداً مغروراً لا يعمل الا لمصلحته الخاصة ، ساء السياسة مع الجند حتى أنهم أسلموه ذات مرة الى الأعداء ، ونتج عن سوء سياسة ذلك الوزير أن كثرت الاضطرابات فى الدولة ، حتى أنها صارت دويلات منفصلة عند موت الأمير محمد عام ٢٧٢ هـ^(٢٢) .

أضف الى ذلك : ما حدث من صراع خفى بين الوزراء وبين مساعدى الأمير من أهل الذمة مثل ربيع القومس الذى ظهر نفوذه فى عهد الحكم الرضى ، وقومس بن أنطوينان الذى ارتفع شأنه فى عهد الأمير محمد ، وما صاحب ذلك من تأمر الوزير هاشم بن عبد العزيز عليه . وصار التأمر ظاهرة بارزة فى ذلك العصر بين رجال القصر والحظايا وأمهات الأولاد ، واقترن ذلك بانتشار الظلم والبغى على الرعية ، وساعد على ذلك ما آل اليه حال بعض القضاة والفقهاء الذين أخذوا

(٢١) ابن حزم برواية المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، الحشنى ، قضاء قرطبة ، ص ٢٩ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٩٢ ، ١٠٣ ، ابن خلدون ، Dozy, op. cit, p 204 للعبير ، ج ٤ ، ص ١٢٤

(٢٢) الحشنى ، قضاء قرطبة ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ١١٠ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ج ١ ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

بتنافسون على تولى مناصب القضاء ، ومد بعضهم يده لقبول الرشوة ،
فاختل ميزان العدالة وضعفت سلطة الدولة وازدادت آمال أسبانيا
النصرانية في استرداد الأندلس من المسلمين ، وازداد الخطر الخارجى ،
وكثر الاضطراب الداخلى ، ونطلع الناس الى منقذ لهم من هذه الحال
السيئة التى آلت بهم فى أواخر عصر الامارة ، ولم يكن هذا المنقذ
الا عبد الرحمن الناصر (٢٣) .

٢ — وكانت كثرة عناصر السكان وتنافسها من عوامل الضعف التى
أثرت فى تفكك الجبهة الداخلية فى أواخر عصر الامارة وأدت الى سوء
موقفها الخارجى تجاه أسبانيا النصرانية .

فقد كان يعيش على أرض الأندلس العرب بقبائلهم من يمن ، ومضر ،
والبربر بقبائلهم المتنوعة أيضا ، الى جانب أهل البلاد الأصليين سواء
كانوا من طبقة المولدين الذين اعتنقوا الاسلام ونشأوا عليه ، أو من
طبقة النصارى المعاهدين الذين احتفظوا بدينهم ونقاليدهم ، لكنهم استعربوا
لساناً وحياة ، وسموا لذلك بالمستعربين فيما بعد (٢٤) .

وكما لم يستطع القوط والوندال أن ينصهروا فى جسم الأمة الأيبيرية
كذلك لم يستطع العرب ولا البربر أن ينصهروا معاً أو مع أهل البلاد
الأصليين فى عصر الامارة . وكان هذا من العوامل التى أدت الى ذلك
الصراع العنيف فى عصر الولاة (٩٢ — ١٣٨ هـ) بين عنصرى العرب
والبربر ، أما فى عصر الامارة (١٣٨ — ٣١٦ هـ) فقد بدأ هذا الصراع
خافت الصوت أثناء الصدر الأول من عصر الامارة ، نظراً لقوة
الأمراء وحسن سياستهم كما سبق القول ، لكن الصراع بين عناصر
السكان جميعاً لم يلبث أن ازداد وانفجر منذ أواخر عهد عبد الرحمن

(٢٣) ابن حيان ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٤١ الخشنى ، المصدر
نفسه ، ص ١٠٥ ، ١١٠ — ١٢٣ ، ١٥٥ ، الحميدى ، جنوه المعبس ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
ابن سبيد ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، المولى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٢٤) أحمد أمى ، ظهر الاسلام ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

الثانى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ، عندما ضعف الأمراء وأصبحوا عرضة لحكم الوزراء والعناصر الأجنبية من الصقالبة والحفظا من زوجات أمراء بنى أمية (٢٥) .

وقد تميزت تلك الفترة الأخيرة من عصر الإمارة بثورات المولدين الذين كانوا يشكلون غالبية السكان فى الريف والمدن . وقد تمتع هؤلاء المولدين بالأمن والطمأنينة حتى قرب نهاية عصر عبد الرحمن الثانى ، واستعان الأمراء بهم فى الإدارة والجيش ، وفى حكم الثغور الإسلامية وفى التصدى لنصارى الشمال كما سبق القول . وكانت هذه الطبقة من السكان تنجح الى السلم والطاعة طالما كان الأمراء أقوياء ، ولما ضعف أمراء بنى أمية الأواخر ، كشف المولدون عن مكنون صدورهم وأعلنوا العداء لحكام قرطبة وللعرب عامة ، واستغلهم بعض الثوار أمال ابن حفصون وابن مروان الجليقى وبنى قسى وهم أصلا من المولدين فى تحقيق أهدافهم واستقلالهم عن حكومة قرطبة (٢٦) .

وكان هؤلاء المولدون بغمرهم شعور بالكراهية للسكان والأمراء من العرب ، بسبب سوء معاملتهم لهم ، وبسبب تلك الضريبة التى كانوا يدفعونها لهم منذ أن كانوا عجماء أى نصارى ، ولما أصبحوا مسلمين لم يكن من العدالة بقاء تلك الضريبة ، لكن العرب أصروا على دفعها لهم فقامت الفتن بينهما فى سرقسطة فى الشمال وفى إقليم رية فى الجنوب ، وفى كثير من المدن الأخرى مثل طليطلة وأشبيلية وبطليوس وماردة وباجة ومرسية ، فقلل الخراج واضطرب الأمن (٢٧) .

(٢٥) والمثال على هؤلاء الخطايا هى طروب ، خطية عبد الرحمن الأوسط التى كان لها نفوذ كبير فى البلاط الأموى ، وكانت تعمل فى سبيل وصول ابنها محمد الى العرش وتتنافس مع زوجاته الأخريات وتتآمر مع حراس القصر وبطانة عبد الرحمن الأوسط لتحقيق هذه الغاية .

(٢٦) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢٧) ابن حيان ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، حسين مؤنس ، الحطه السيرة لابن الاسار ، ج ١ ، ص ١٥١ وعن للفتنة بين العرب والمولدين ، وثورة المولدين ضد امراة بنى أمية ، أنظر ، ابن حيان ، المقتبس ،

وكان السبب المباشر هو مقتل أحد الزعماء العرب على يد بعض المولدين في إقليم البيرة ، فانتشرت الفتنة انتشار النار في الهشيم ، واثارت الاحتاد القومية بين العنصرين العربى والأسباني خاصة بعد أن جنح أمراء بنى أمية الأواخر الى اصطناع بعض الأمراء العرب ضد المولدين ، وانتهاز نصارى الشمال الأسباني الفرصة وأخذوا يحرضون هؤلاء المولدين ومن ينضم اليهم من النصارى من أهل الذمة ويمدونهم بالمساعدة حتى يقوضوا حكم بنى أمية وتعود البلاد الى النصرانية مرة أخرى(٢٨) .

٣ — وقد ساعد على ذلك ما تختص به بلاد الأندلس من عوامل طبيعية وبيئة جغرافية . ذلك أن هذه البلاد عبارة عن شبه جزيرة يقسمها من الوسط جبل الشارات ، ويتميز الجنوب عن الشمال ، فلكل منهما طابعه المناخى ، فالجنوب له مناخ الشمال الإفريقى أو حوض البحر المتوسط ، والشمال له مناخ أوربا ببردها وصقيعها . وقد أثر ذلك النوع فى المناخ فى أمزجة الناس وطباعهم حتى أنك لتجد الأسباني الشمالى ينصف بالخشونة والقسوة والعصبية بخلاف الأسباني الجنوبى الذى يقصف بالهدو والمسالمة . وكان هذا من العوامل التى زادت من التناقض بين سكان الأندلس ، وبينهم وبين سكان أسبانيا النصرانية ، وساعد على استمرار هؤلاء الأسبان فى مقاومتهم لمسلمى الأندلس عدة قرون(٢٩) .

ج ٣ ، ص ٦١ - ٦٤ ، ٦٩ - ٨٥ ، ابن الاسار ، الحلة السراء ج ١ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ - ١٥٧ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٤ - ١٥٧ ، ١٧١ - ١٧٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٤٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،

Dozy, op. cit, pp. 355 - 366, 318 - 382

(٢٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٣٢ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ١٥١ ، حتى تاريخ العرب (المطول) ، ج ٢ ، ص ٦٧٨ .

(٢٩) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ١٣٣ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٤ ، محمد كرد على ، عابر الأندلس وحاضرها ، ص ١٦٠ .

Crow, Spain, the root and the flower, p. 6

كذلك كان لطبيعة الأرض حتمية معينة لا تظهر الا في أوقات الضعف السياسى ، ذلك أنها تتكون من وديان طويلة توازى الأنهار الكثيرة التى تمتد من الشرق الى الغرب أو العكس ، وتفصل هذه الوديان بعضها عن البعض الآخر سلاسل جبلية تسير فى نفس الاتجاه وتقطع الجزيرة بالعرض ، وقد أدى ذلك الى انقسام البلاد الى اقاليم تتميز بشخصيتها جغرافيا ومناخيا وثقافيا واقتصاديا ونفسيا ، حتى أنك لو سألت أسبانيا عن وطنه ، لرد على الفور Soy hijo de Galicia أو لقال لك Soy hijo de Granada ومعناه اننى ابن لغاليسيا (جليقية) أو ابن لغرناطة ، أو أشتورية أو ليون أو نافار أو بلنسية أو الأندلس وهكذا (٣٠) .

وهذه البيئة الطبيعية والجغرافية ساعدت على اثارة النعرة القبلية ، والحركات الانفصالية قديما وحديثا ، وأدت الى تنوع غريب فى العادات ، والتقاليد ، ورغم أن الاسلام قد طبع البلاد بطابع جديد وأذاب عوامل التميز والخلاف الا أنه قد بقى منها ما يكفى لجعلها أتونا لحرب أهلية عند أول اشارة . وكان الثوار والمارقون ضد قرطبة يعلنون عصيانهم لها ، وهم آمنون مطمئنون خلف حصونهم ، وجبالهم الشاهقة أو أنهارهم الكثيرة المتعددة الفروع والمصادر ، مما كان يشكل عقبة أو عائقا أمام جيوش الامارة اذا ما حاولت أن نقضى على ثورتهم أو يبردهم (٣١) .

اما جبل للشارات الذى ورد فى هذه الفترة ، فهو سلسلة جبال تسمى ومها حاء لفظ « شارة » وجمعها « شارات » ، وتمتد من مدينة سالم الى قلمرية فى البرتغال وكانت لمظة الشارات تطلق أيضا على كورة أو اقليم يسمى اقليم الشارات ، من أعماله مدن طابيرة وظليطة ومجريط وأقلش ووادى الحجرة ، ووبذة . انظر ، القلقشندي ، صبيح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢١٣ ، شكيب أرسلان ، الحل السندسية ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، محمد الفاسى ، الاعلام الجغرافية الأندلسية ، ص ٢٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الثالث ، ص ٣٩ .

Crow, op. cit, p 2

(٣٠)

(٣١) ابن غالب ، المصجر نفسه ، ص ٣٠٧ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

Crow, op. cit, p. 3

ص ٢٤ ،

Chapman, A history of Spain, p. 5

٤ - فإذا أضيف الى هذه العوامل التي تحدثنا عنها حتى الآن ،
قرب الأندلس أو ،تصالها بالممالك النصرانية في الشمال الأسباني
لأدركنا على الفور صعوبة الموقف أمام أى حاكم في قرطبة . وكان على
هؤلاء الحكام أن يضعوا في اعتبارهم دائما أن شبه الجزيرة لم يعد
ملكا خاصا بهم ، وأن أى ثائر يمكنه أن يلقي المعون والمساعدة من ملوك
نصارى الشمال الأسباني . ولذلك اتبع أمراء بنى أمية وخلفاؤهم
فيما بعد أسلوب اللين ، والمداراة ، مع الثوار ، وخاصة : في الثغور
الإسلامية في الشمال ، واتبعوا معهم أيضا أسلوب الاصطناع ، فكانوا
يصطنعون قوما ليضربوا بهم آخرين كما سبق القول(٣٢) .

وكان ملوك أسبانيا النصرانية يعملون دائما على خلق المشاكل
والفتن والأزمات لحكومة قرطبة ، وذلك بمساعدتهم لثوار المولدين وغيرهم .
وكانت مساعدتهم لمولدى طليطلة الذين كانوا دائمى التمرد ضد قرطبة
واضحة ومستمرة ، وفي إحدى ثورات مولدى طليطلة أرسل اليهم أردونيو
ابن الفونسو الثانى ، ملك جليقية وأشتريس جيشا بقيادة أخيه
غثون Gaton فأوقعت بهم قوات الأمير محمد عام ٢٣٨ هـ وقتلت
ثمانية آلاف(٣٣) .

كذلك استعان ابن مروان الجليقى الثائر في ماردة وبطليوس في عهد
الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) بالفونسو الثالث بن أردونيو الأول ملك
جليقية وأشتريس ، واستطاع أن يهزم جيشا للأمير محمد كان تحت
قيادة ابنه المنذر ووزيره هاشم بن عبد العزيز عام ٢٦٢ هـ ، وتمكن
الجليقى من أسر هذا الوزير وإرساله لملك جليقية . ولما أرسل الأمير
محمد جيشا لتأديب ذلك الثائر والقضاء عليه عام ٢٦٣ هـ فر الى
الفونسو وأقام في كنفه في جليقية ثمانى سنوات ، ولذلك سمى : بالجليقى ،

(٣٢) ابن حبان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٢٠ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

ص ٣٦ .

(٣٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٢ - ١٤٤ ، ١٦٦ - ١٦٩ ،

Livermore, op. cit, p. 77

ثم عاد الى ماردة وبطليوس عام ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م ، ولما لم يتمكن الأمير محمد من هزيمته اضطر الى الاعتراف باستقلاله بتلك النواحي منذ ذلك التاريخ^(٣٤) .

كذلك استعان بنو قسى المولدون وحكام الثغر الأعلى بملوك نبرة بعد أن ساءت العلاقات بينهم وبين أمراء بنى أمية في أواخر عصر الإمارة . فقد هاجم موسى بن موسى القسوى أرباض مدينة قنيطرة وطرسونه وبرجة عام ٢٣٥ هـ بمساعدة ملك نبرة (نافار) بعد أن تم التحالف بينهما ، وتكررت هذه المساعدة وذلك التحالف بين بنى قسى وبين ملوك نبرة ، وخاصة عندما استعان أمراء بنى أمية بالأواخر بأسرة بنى نجيب العربية في قمع شوكة هؤلاء المولدين^(٣٥) .

واستعان بنو عمروس المولدون أيضا بملوك نبرة عندما ساءت العلاقات بينهم وبين الأمير محمد عام ٢٥٦ هـ . ولما أسرت قوات الأمير محمد بعض أفراد أسرة بنى عمروس وأعدمتهم في سرقسطة ، استتجد عمروس الثانى بفرسية بن وثقة ملك نبرة لكى يساعده ضد قوات الأمير محمد ، وكى يسترد مدينة وثقة ، مركز حكمه وسلطانه ، والتي كانت قد ضاعت منه ، واستولى عليها بنو قسى ، الذين قاموا هم الآخرون بمحاربة ملك نبرة ومصاهرته ، حتى يضمنوا سيطرتهم على المدينة^(٣٦) .

وان دلّ هذا على شيء فأنما يدلّ على أن الاتصال والملاصقة بين الثغور الإسلامية وبين ممالك أسبانيا النصرانية كان عامل ضعف واستنزاف لقوة حكومة قرطبة على مدى التاريخ . وسوف يتضح

(٣٤) ابن حيان ، المقنيس ، ج ٣ ، ص ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ .

Livermore, op. cit, p. 77

(٣٥) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن حيان ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(٣٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ،

ج ٢ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

تماما أثر عوامل القوة والضعف التى أشرنا إليها حتى الآن عندما نتحدث عن العلاقات بين مسلمى الأندلس وإسبانيا النصرانية بعد قليل .

٤ - المقاومة النصرانية فى الأندلس الإسلامية وارتباطها بنصارى الشمال :

وتعتبر هذه المقاومة من العوامل التى أضعفت حكومة قرطبة فى عهد الإمارة الأخير وشغاتها الى حد كبير عن التصدى لنصارى الشمال . وتتمثل المقاومة النصرانية داخل الأندلس الإسلامية فى حركات الاستشهاد التى قام بها بعض المسيحيين فى قرطبة وعدد من المدن الأخرى ، ودفعوا بسببها حياتهم ، اعتقادا منهم بأن ذلك يعد نصره للدين واستشهادا فى سبيل العقيدة ، وأنهم سوف ينالون ملكوت السموات ، وهو ما يمثل الجانب السلبي من المقاومة ضد الحكم الإسلامى . أما الجانب الإيجابى : فيمثلته معاونتهم للمولدين فى ثوراتهم ضد أمراء بنى أمية وضد العرب والمسلمين بصفة عامة ، ومساندتهم لنصارى الشمال الأسباني بخلق المشاكل والصعوبات أمام حكومة قرطبة ، حتى يتمكن هؤلاء النصارى من استعادة البلاد شيئا فشيئا .

لكن ما هى الدوافع التى دفعت نصارى أهل الذمة (٣٧) الى السير فى هذا الاتجاه ؟ وهل هى نفس الدوافع التى دفعت عناصر العرب والبربر والمولدين ، والتى أشرنا إليها من قبل ؟ وماذا كان وضع هؤلاء النصارى بعد الفتح الإسلامى للبلاد ، وهل كان الفتح نعمة أم نقمة بالنسبة لهم ؟ وإذا كان نعمة بشهادة معظم المؤرخين فلماذا فعلوا ذلك ؟

(٣٧) كان المسلمون يطلقون على أهل الأندلس جميعا اسم العجم أو عجم الأندلس وربما أطلق اسم الروم ، وأن كانت هذه التسمية فادرة الاستعمال ، فلما تمكن سلطان المسلمين ، أصبحوا يسمون عجم الذمة أو أهل الذمة ، فمن كان منهم له عهد ، سموا بالمعاهدين ، وربما قالوا المعاهدة من النصارى ، أو النصارى المعاهدين . وقد أطلق بعض المؤرخين المحدثين عليهم لفظ المستعربين وهى تسمية خاطئة ، لأن هذا اللفظ لم يرد فى الكتابات إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ظهر فى الكتابات اللاتينية أولا ، ثم انتقل الى كتاب الإسبان أنفسهم . انظر ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٧ .

أولا : سياسة بنى أمية تجاه النصارى المعاهدين وعوامل تمردهم :

بداية نقول : أن الفتح حسن أحوال الناس الاقتصادية ، وأنه أحدث ثورة اجتماعية .

وأما في الناحية الدينية : فتسامح العرب اعترف به كتاب النصارى أنفسهم . فلم يفرض المسلمون على نصارى أهل الذمة الا الجزية والخراج . والخراج هو ضريبة الأراضي التي كانت تتفاوت حسب قدرة انتاج الأرض ، وقد فرضت بمعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعا .

أما الجزية : فلم تكن مفروضة على جميع المسيحيين بل أعفى منها النساء والأطفال والرهبان والمقعدون والمرضى ، والعبيد ، وفي توجيه سياستها ، بعد أن تراخت يد الأمراء الأواخر في القبض وكانت تتراوح بين ٤٨ درهم ، ١٢ درهم^(٣٨) .

هذا وقد ظفر المسيحيون وغيرهم من المولدين بحق لم يكن لهم أيام ملوك القوط ، اذ أنهم احتفظوا بالجزء الأعظم من ثرواتهم وعقاراتهم وأصبح لهم الحق في توريثها أو نقلها لغيرهم ، مما هيا لهم جوا من الحرية لم يحلموا به من قبل ، ومن ثم فقد ازداد الانتاج خاصة بعد أن قام الفاتحون الجدد بقمع عناصر الشر والفوضى والقضاء على طبقة النبلاء ، وتحرير العبيد وأقنان الأرض من سيطرتهم ، وتنظيم ادارة البلاد ، ولذلك نشطت الزراعة والصناعة والتجارة ، وهبت ريح من الرخاء والدعة على مجتمع أضناه العسف والفاقة مدى عصور^(٣٩) .

ومن الناحية الاجتماعية ، كان الفتح ثورة اجتماعية ، فقد خلص الأهالي من عسف طبقة النبلاء ورجال الكليروس الذين كانوا يحوزون غالبية الأرض ، على شكل ضياع واسعة أو اقطاعات كبيرة يعمل فيها

Dozy, op. cit, p. 234, 235

(٣٨)

لبن بول ، قصة العرب في اسبانيا ، ص ٣٩ ، حتى ، المرجع نفسه ، ص ١٢ ، ص ٦٠٧ .

(٣٩) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ملحق كتاب نوزي المسمى ص ٦-٣

Recherches sur L'Histoire et la Litterature de L'Espagne

الرقيق وعبيد الأرض الذين كانوا يعاملون معاملة السوائم . ليس هذا فقط فقد أعطاهم الفتح نصيبا من الانتاج ، وأعظم من هذا أعطاهم حق العتق من العبودية ، ولم يكن على العبد الا أن ينطق بالشهادتين حتى يصبر حرا ، رأسه برأس النبيل الذي كان يسومه سوء العذاب من قبل^(٤٠) .

لذلك : كان الاقبال على الاسلام عظيما بين هذه الطبقات الفقيرة بالذات ، ومع هذا فقد سمح الاسلام بوجود الديانات الأخرى ، واحتفظ النصراني بتنظيماتهم الاجتماعية وبقانونهم الخاص وبحق المحاكمة أمام قضاة من بنى جنسهم ، ولم يرتدوا الملابس التي تميزهم عن غيرهم من طبقات الشعب ، واتخذوا الأسماء العربية بجانب الأسماء اللاتينية ، وتعلموا العربية ونبغ بعضهم فيها ، وبلغ استعرابتهم درجة أخذوا معها يختنون أولادهم ويطبّقون نظام الحريم في بيوتهم ، بل أنه لم يمض على الفتح أكثر من خمسين عاما حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم الى العربية حتى يفهمها النصراني ، لأن هؤلاء زهدوا في اللاتينية وأقبلوا على تعلم العربية بشغف واهتمام^(٤١) .

وقد ترك العرب للجماعات النصرانية أيضا نظامها المدني الذي كان موجودا أيام القوط ، وكان عليهم أن يختاروا من يقوم بجمع ضرائبهم ومن يمثلهم أمام الحكومة الاسلامية ويدير شئونهم في المدن والأرياف ، وهو ما كان يعرف بالقومس Comes^(٤٢) ، واكتفى العرب

(٤٠) Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 236, 237

(٤١) حتى ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٤٦ ، محمد كرد علي ، المرجع نفسه ، ج ١ ،

Livermore, op. cit, p. 74

ص ١٧٧ ،

(٤٢) قومس كلمة لاتينية ، وهي Comes ، والقومس في الأصل مرافق الملك

ونديمه ، ثم صارت هذه التسمية في أيام القوط باسبانيا والافرنج بغرب أوروبا خاصة بولاية الكور ، ومنها اشتق اللفظ الأسباني Conde واللفظ الفرنسي Comet ، وفي بعض التواريخ الاسلامية يوجد لفظ «قمط» عوضا عن «قومس» ، وجمع «قمط» «أقمط» ، وجمع قومس «قوامس» وكانت الوظيفة أو المنصب يسمى القمامة « أنظر ، ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ، ص ٢٩ ، ليفي بروفنسال ، حمرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٤٦٧ .

باختبار القومس الأعلى وهم الملقب بقومس الأندلس ، وكان أول من عين في هذا المنصب هو أرطباس بن غبطشة . وبذلك وجد في الأندلس من أول الأمر نظامان إداريان جنباً إلى جنب ، واحد :: للمسلمين وآخر للنصارى كما صار النصارى يتمتعون بحق اختيار قساوستهم وهو ما لم يعرفوه أبام القوط^(٤٣) .

ولم بترك المسلمون للمسيحيين في الأندلس نظامهم المدني والإدارى فقط ، بل انهم استعملوهم أيضاً في الجهاز الإدارى للدولة الإسلامية نفسها ، ووصل بعضهم إلى أسمى المناصب وأخطر المراكز ، حتى أدى ذلك في بعض الأحيان إلى فتن وثورات ومشاكل واجهت إمراء بنى أمية وأقصت مضاجعهم . فقد وثق الأمير الحكم (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) في أهل الذمة ، حتى أنه عين منهم ومن عنصر الصقليب ونصارى الشمال حرسه الخاص ، بل كان وصيفه المفضل أسبانيا مسيحياً ، وهو الذى قام بكشف المؤامرة التى تعرض لها الأمير الحكم عام ١٨٩ هـ^(٤٤) .

كما جعل قائد حرسه أو قائد الغلمان الخاصة (ربيعا القومس) ، وكان هذا النصرانى محبوباً من الأمير الحكم حتى أنه فوضه في فرض الضرائب على المسلمين وأهل الذمة ، فكرهه الجميع ، وأدى ذلك فيما أدى ، إلى قيام الفقهاء وأهل الربض بقرطبة بثورتهم المشهورة ضد الأمير الحكم عام ٢٠٢ هـ ، لذلك ما أن تولى عبد الرحمن الأوسط الحكم حتى أمر بصلب هذا القومس^(٤٥) .

(٤٣) ابن القوطية ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٤٧، ٤٦١ .

Dozy, op. cit, pp. 245

(٤٤)

(٤٥) يجعل البعض صلب هذا القومس على يد عبد الرحمن الأوسط (أنظر ، ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٨٨) ، بينما جعله آخرون في عهد أبيه الأمير الحكم ، (أنظر ، ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ١٤١) وتابعة على ذلك الأستاذ محمد عبد الله عنان (أنظر ، دولة الإسلام في الأندلس ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٥) . والحققة أن صلب هذا القومس تم على يد الأمير عبد الرحمن الذى تولى السلطة مبيل وفاء والده الحكم ، لذلك : تم هذا الأمر وكان الحكم ما يزال حياً ، (انظر ابن فضة الله العمري ، مسالك الأبصار ، ج ١٥ ، مسم ٢ ورمة ٣١٥) .

ورغم اشتداد حركة الاستشهاد المسيحي في عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ هـ - ٢٣٨ هـ) ، إلا أنه لم يتخل عن سياسته في التسامح واستخدام أهل الذمة والثقة بهم . بل تعدى الأمر إلى أنه عزل أحد القضاة بسبب شهادة شيخ أعجمي اللسان من نصارى أهل الذمة . وتابع ابنه الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٢ هـ) سياسة والده وأقر القومس جومس Gomez ابن أنطونيان في منصبه في القمامسة ، كما استخدمه كاتباً أثراً لديه ، حتى أنه كان المدير الفعلي للوزارة مدة طويلة أثناء المرض الطويل للوزير عبد الله بن أمية . ولما مات هذا الوزير سمع الأمير محمد يقول : « لو كان جومث من أهل ديارتنا لكنت قد عينته وزيراً بكل سرور » ، عندئذ أعلن جومث إسلامه وحصل على أسمى منزلة في بلاط الأمير محمد (٤٦) .

لم يبال الأمير محمد باعتراض الفقهاء وسخطهم من تلك السياسة ، ولم يبال أيضاً بما كان ينعت به المشاركة بنى أمية من استخدامهم للنصارى في بلاطهم ، وتوليهم أسمى المناصب ، وفانهم أن البلاد بها أقلية نصرانية كبيرة لها وزنها وشأنها وخطرها ، وكان على الحاكم أن يتعاون مع أهل البلاد بصفة عامة ، خاصة وأن العرب كانوا أقلية ، وأنهم أخذوا في الذوبان في هذا المجتمع نتيجة للزواج والاختلاط وانقطاع الهجرات العربية إلى الأندلس بعد استقلال بنى أمية بها ومعاداتهم لبنى العباس .

لكن تلك السياسة جلبت بعض المشاكل في الداخل لبنى أمية ، وقد سبقنا الإشارة إلى ما سببه ربيع القومس للأمير الحكم . وقد تسبب أيضاً قومس بن أنطونيان (جومث بن انتنيان حسب الرواية العربية) في إيجاد بعض المشاكل للأمير محمد ، إذ قام الصراع بين هذا النصراني وبين الوزير هشام بن عبد العزيز بعد أن « ظهر فضل أدب قومس ، وتولى الكتابة ، واضطلع بالأنقال ، وخاطب ونبه ، وعارض في الأمور »

Dozy, op. cit, p. 300

(٤٦) الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ٨٤ .

ولم يرض أن يكون تابعاً لغيره ، ولا مستحذبا لسواه . وقد خُاف قومس من بطش الوزير واعتكف في منزله ، ولما مات حاول الوزير مصادرة أمواله لصالح بيت المال بحجة أنه ارتد ومات على النصرانية ، لكن القاضى أنصفه بعد مماته ، وأيده الأمير محمد في حكمه ، ولم يستطع الوزير أن ينال منه أو من ورثته^(٤٧) .

استخدم أمراء بنى أمية أيضا : نصارى أهل الذمة في الجيش ، وأشركوهم في الغزو بلا عطاء كمتطوعين ، وكان النصارى يطعمون في غنائم الحرب وأسلابها حتى لو كانت ضد مواطنيهم من نصارى الشمال . كما كان الأمراء يؤلفون منهم قوات احتياطية يستعينون بها إذا خرجت جيوشهم للغزو^(٤٨) .

كذلك كان مذهب مالك وهو المذهب المنتشر في تلك الأنحاء متساهلا جدا في نصوصه تجاه أهل الذمة ، فقد ورد في المدونة الكبرى لابن سحنون المستقاة من فقه مالك نصوصا كثيرة في هذا المعنى ، إذ كان للنصارى حق الشفعة ، وكان المرتدون لا يحكم عليهم دائما بالموت ، وكان يعاقب المسلم إذا كسر آنية الخمر لذمى دون الرجوع للحاكم^(٤٩) .

إذا كانت تلك هى سياسة بنى أمية تجاه النصارى من أهل الذمة ، وإذا كانت هذه هى ثمار الفتح وقطوفه الدانية ، فما الذى جعل هؤلاء الناس يقومون في النصف الثانى من عصر الإمارة بما قاموا به ؟ هل كان هناك تعصب اسلامى ضدهم ؟ هل أكرههم العرب على الاسلام ؟ هل تعرضوا لكنائسهم أو أديرتهم ؟ هل منعوهم من إقامة شعائر دينهم ؟ الواقع يقول : بغير ذلك ، ولو كان العرب متعصبين لما سمحوا لأنفسهم

(٤٧) الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ١١١ - ١١٣ .

(٤٨) ابن الحطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، ص ١٠٩ - ١١١ ، مانويل جوميث مورينو ، الفن الاسلامى في اسبانيا ، ص ٧ د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ٦٠٢ .

(٤٩) سحنون . المدونة الكبرى ، ج ٤ ، ص ٢٢٦ ، ابن عيون ، المصدر نفسه ، ص ٩٥ نرنون ، أهل الذمة في الاسلام ، ص ٢٥٦ .

باستخدام أهل الذمه في مناصب الدولة العالبة ، سواء في الجيش أم في الإدارة ، ولما ائتمنوههم على أرواحهم ، اذ كان أمراء بنى أمية كما أسلفنا القول يجعلون المسيحيين من بين حراسهم ، ولو كان المسلمون منعصبين لما كانت هناك تلك الأقلية النصرانية الكبيرة العدد والتي ازداد غناها و ثراؤها يوما بعد يوم ، فنتيجة لحكم المسلمين الذي اتسم نجاههم بالعدالة والسماحة والانصاف .

لم يكره المسلمون أحدا من الأسبان على الدخول في الاسلام ، بل تركوا لهم حرية البقاء على دينهم مع دفع الجزية أو الدخول في الاسلام ، وكان الأسبانى يعلن اسلامه وهو يعلم تماما أن المرتد عقوبته الموت ، لذلك كان اسلامه عن اقتناع ورضى دون اكراه أو تهديد . لذلك : اعترف الأسبان مولدون ، ونصارى ، بأنهم يؤثرون حكم العرب على من عداهم من الافرنج أو القوط^(٥٠) .

وقد بلغ تسامح العرب حدا جعلهم يبيعون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم ، بل بلغت الحال ببعض المتحمسين منهم أن كانوا يقتلون على أبواب بعض المساجد لاقتناع المسلمين بالدخول في دينهم . وسمح المسلمون لهم أيضا بعقد مؤتمراتهم الدينية ، كمؤتمر أثبيلية النصراني الذي عقد في سنة ١٦٦ هـ / ٧٨٢ م ، ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عقد في عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، كما سمحوا لهم أيضا : ببناء الكنائس والأديرة . وتعند بيع النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربى من الأدلة على السماحة الدينية لمسلمى الأندلس^(٥١) .

ورغم ذلك يحمل الأستاذ دوزى على سياسة العرب الاسلامية في الأندلس ، ويرجع اسلام أهالى البلاد الى أن المسيحية لم تكن

Dozy, op. cit, p. 235

(٥٠)

Chapman, op. cit, p. 40

(٥١) غويستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٩٦ ، محمد كرد على ، غابر الأندلس

وحاضرها ، ص ٤٢ .

متمكنة في قلوبهم ، وأن المسيحية لم تكن عميقة الجذور في البلاد ، وإنها كانت ما تزال تتنازع البقاء والوجود مع الوثنية هناك ، ولذلك أسلم الأقباط والعبيد . أما اسلام النبلاء — في نظره — فلكي يهربوا من ضريبة الرأس ، أي : الجزية ، أو ليحافظوا على ممتلكاتهم عندما ينقض العرب عهودهم أو لأنهم اعتقدوا باخلاص في تعاليم الاسلام^(٥٢) .

ويواصل دوزي هجومه قائلا ان الكنيسة لم تكن حرة في عقد مؤتمراتها أو في تعيين أساقفتها ، وأن أمراء بني أمية كانوا يفرضون أعوانهم من الأساقفة على الكنائس ، وأن بعضا من هذه الكنائس قد اختفى أو تحول الى مساجد ... الخ^(٥٣) .

ومهما كانت دوافع الناس الى اعتناق الاسلام ، الا أنهم أخلصوا في اسلامهم وتعصبوا له أكثر من العرب أنفسهم . ولم يفرض المسلمون الأساقفة على الكنائس ، بل تركوا هذا للمسيحيين أنفسهم ، والدليل على هذا أن العرب كانوا قد أقاموا حليفهم أبة (عباس) مطرانا للبلاد ، لكن الأهالي لم يرضوا به وأقاموا مطرانا آخر يسمى أوربانو Urbano فلم يعترض المسلمون وأقروهم على ذلك^(٥٤) .

أما اتخاذ الكنائس مساجد ، فان ذلك لم يتم قهرا أو اقتدارا ، بل دفعت الدولة التعمييض الكافي لكي تبني كنيسة بدل التي أخذت ، فعل ذلك عبد الرحمن الداخل ، واعترف به دوزي نفسه . كما سمح المسلمون باقامة الكراسي الكنسية في المدن الجديدة مثل بطليوس وغيرها رغم قربها من قورية وماردة ، وكان في كل منهما كرسي كنسي . ولم يكن اختفاء الكراسي الكنسية الا نتيجة للتعديلات الادارية التي استدعاها وضع الدولة الجديدة ، والتي أدت الى خمول بعض المدن وهجرة

Dozy, op. cit, pp. 237 - 238

(٥٢)

Dozy, op. cit, pp. 238 - 239

(٥٣)

(٥٤) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٥٠٦ .

الناس منها الى غيرها ، فلم تعد تستحق أن يقوّم فيها كرسي كفى ،
وكان يحدث نفس الشيء اذا انتقلت مدينة من كورة الى اخرى(٥٥) .

من هنا يتضح لنا تماما ان سياسة العرب الدينية كانت تقوم أساسا
على مبدأ التسامح والحرية الدينية ، وعلى احترام مشاعر النصارى .
فما الذى جعل هؤلاء يقومون بتلك الحركات الانتحارية ؟ التى تسمى
بحركات الاستشهاد الذى جعلهم أيضا يقدمون العون والمساعدة لأولئك
المتبردين من المولدين ، ويساهمون بشكل غير مباشر مع نصارى الشمال
الأسباني في كفاحهم ضد الحكومة الاسلامية في قرطبة ؟

انه لغريب حقا أن يمتد لهب الفتنة الى نصارى اهل الذمة في
قرطبة ثم يمتد الى كثير من المدن والنواحي ، لا سيما وأن هؤلاء
النصارى لم يعانون من اضطهاد دينى أو ظلم اجتماعى أو حيف اقتصادى .
صحيح أن أعدادهم كانت كبيرة في الثرى والمدن رغم الأثواط البعيدة
التي قطعتها الحركة الاسلامية في عصر الولاة وعصر امارة بنى أمية ،
الا أن قوة نصارى اهل الذمة كانت تكمن في مقدرتهم الاقتصادية ،
اذ أنهم جنّوا ثروة كبيرة باشتغالهم في الزراعة والصناعة وبالأعمال
التجارية ، وكان العرب يأنفون من الاشتغال في تلك الأعمال ، كما
انشغلوا بالصراع فيما بينهم وبين البربر والمولدين في عصر الامارة الأولى ،
فتركوا تلك الميادين للنصارى يصولون فيها ويجولون .

اذن لم تكن ثورة هؤلاء النصارى لزيادة ثروة أو مضاعفة جاه ،
انما كانت لتحقيق مطالب اخرى ولعوامل يمكن توضيحها : وأولى هذه
العوامل عامل نفسى يتعلق بتدفق الحركة الاسلامية وانتشار حركة
الاستعراب انتشارا أفزع المتعصبين من القسس والرهبان ، اذ رأوا
أن أعداد المسيحيين تتناقص باستمرار حتى صاروا أقلية في وطن
كانوا يعتبرون أنفسهم هم أصحابه الحقيقيون ، وغاظهم في نفس الوقت

(٥٥) د. حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، حتى ، المرجع نفسه ،

Dozy, op. cit, p. 239

ارتفاع شأن مواطنيهم ، من الأسباب السذين اعتنقوا الاسلام فامتلات نفوسهم بالحقء ، والكراهية ضد الاسلام (٥٦) .

لقد اندفع شباب البصارى فى حركة الاستعراب اندفاعا أفقد المتعصبين النصارى صوابهم ، حنى جأر أحدهم بالشكوى من أن شباب المسيحيين صاروا يلتهمون الشعر العربى ومؤلفات العرب من فلسفة وأدب ، ليس بهدف تنفيذها بل لتصحيح أسلوبها العربى ، وأنهم هجروا كل ما هو مكتوب باللاتينية حتى الكتاب المقدس ، لقد نسى المسيحيون لسانهم حتى أن الواحد منهم كان لا يجد من يكتب له خطابا بلغة لاتينية صحيحة ، لكنهم يعبرون عن أنفسهم باللغة العربية الفصحى ، حتى أنهم يقتبسون الشعر العربى لتوضيح مراميهم فى الكتابة أكثر من العرب أنفسهم (٥٧) ١٠

وكان الاستعراب يسبق عادة النحول الى الاسلام ، لذلك قام هذا الفريق المتعصب من النصارى بأعماله الانتحارية حتى يدفع البقية الباقية الى الصمود والمقاومة أمام ذلك التيار الاسلامى الجارف ، فكانوا يحرضون بعض الرهبان والقسس على سب الاسلام وصاحبه علنا فى الشوارع وفى المساجد وأمام القضاة الذين كانوا يحاولون علاج هؤلاء المرضى ، ويؤجلون الحكم باعدامهم لامطائهم فرصة للتعقل والتروى ، لكنهم كانوا يعودون الى اصرارهم وعنفهم ، فكان القضاة يضطرون للحكم باعدامهم .

وهكذا كانوا يظنون أنهم نالوا الشهادة تهما كشهءاء عصر دقلديانوس (٥٨) .

(٥٦) د . حسن محمود ، تاريخ الغرب الاسلامى ، ص ٨٨ .

د ٢ ، ص ٦١٤ .

Livermore, op. cit, p. 77

Dozy, op. cit, p. 268

(٥٧)

Dozy, op. cit, p. 291

(٥٨)

أما العامل الثانى : الذى دفع بعض النصارى الى ذلك التعصب الدينى ، فعامل يتعلق بالدولة الاسلامية نفسها ويعود الى ظروفها السياسية والدينية والاجتماعية . فقد بدت على الدولة مظاهر الضعف ابتداء من عصر عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) حتى بداية عصر عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) . وكان الأمراء قبل ذلك يقبضون على مقاليد الحكم بيد من حديد ، ويسيطرون على الدولة من أدناها الى أقصاها سيطرة تامة . ولما ضعفت حكومة قرطبة تجددت اطماع الرعايا المسيحيين فى الاستقلال وتخيلوا أن فى مقدورهم أن يخرجوا عن طاعة الأمير ، وحرصهم على ذلك زعماءهم الدينيون المتعصبون^(٥٩) .

وكان فى مكونات الشخصية العربية ما يساعد هؤلاء فى تخيلاتهم العريضة ويدفعهم الى الكراهة . فقد كان المسلمين المستنثرون والطبقة الأرستقراطية العربية مهذبين جدا ويحسنون معاملة المسيحيين ولا يسيئون اليهم ويحترمون مشاعرهم ، أما العامة أو الدهماء فلم يكونوا على هذا المستوى من الخلق والفهم السلم للدين ، فكانوا أحيانا يهزأون ببعض المسيحيين ويعاملونهم معاملة سيئة . يدفعهم الى ذلك بعض فقهاء قرطبة الذين كانوا يطمحون الى المشاركة فى الحكم عن طريق السيطرة على العامة ، وتحريكها ضد الأمراء ، اذا ما وسع هؤلاء من دائرة استعانتهم بالنصارى فى شئون الحكم والادارة . وقد أسلفنا القول عما حدث بسبب استخدام ربيع القومس وجومث بن أنطونيان^(٦٠) .

ويبدو أن هذا التسامح العظيم الذى اشتهر به بنو أمية تجاه رعاياهم من النصارى قد أثار بعض الفقهاء المتشددىين ، كما أثار بعض القسس المتعصبين أيضا ، وهذا ليس بغريب . إذ أن الفقهاء ورجال البلاد كانوا يخشون مزاحمة النصارى لهم لا سيما وقد أكثر أمراء بنى

(٥٩) على محمد حمودة ، تاريخ الأندلس ص ١٦٠ .

Dozy, op. cit, p. 271

(٦٠)

امية منهم في القصر والبلاط والادارة والجيش . اما النصارى فقد اثارهم ذلك التسامح الذي كان يغرى المسيحيين على الدخول في الاسلام ، ويدفعهم بقوة الى البعد عن الكنيسة وتعاليمها^(٦١) .

هذا ما يتعلق بالدولة الاسلامية وحكومتها في قرطبة .

وهناك ما يتعلق بالكنيسة ورجالها أيضا . وكان هؤلاء هم السبب المباشر في اثاره الفتنة بتعصبهم الزائد ضد حكامهم المسلمين ، الذين جعلوا من مدينتهم — قرطبة — سكنا لهم ومركزا لعاصمة اسلامية زاهرة ، تحدث الناس عنها في الشرق والغرب . وقد ازداد تعصب هؤلاء القوم حتى رموا اخوانهم من النصارى المعتدلين بالخيانة والعمالة .

وقوى من ادعائهم هذا ، اخلاص هؤلاء النصارى لمناصبهم التي كانوا يشغلونها وادانتهم لأعمال العنف التي يقوم بها أولئك نفر من المتعصبين^(٦٢)

أضف الى ذلك تحامل هؤلاء المتعصبين وبغضهم للنبي العربي وتعاليمه ، تلك التعاليم التي كانوا يعتمدون في معرفتها على طائفة من الخرافات والأباطيل المستوردة من بمبلونة عاصمة مملكة نبرة المسيحية^(٦٣) . وكانوا هم أول من يعرفون كذبها ، فقد كانوا يعيشون بين المسلمين ، وكان من السهل عليهم معرفة الحقيقة ، لكنهم رفضوا ذلك وتعمدوا نشر الخرافات المضحكة عن نبي الاسلام .

ليس هذا فقط ، بل انهم كانوا يطوعون نصوص ديانتهم لتحقيق مآربهم ويعملون على اذاعة تلك النصوص التي تحض على الموت . مثال ذلك : « لا تخافوا من هؤلاء الذين يذبجون الأجساد ، لأنهم لا يستطيعون ذبح الأرواح ، ولا تخافوا الا الله وحده » ، « ان هؤلاء الذين سيدخلون

(٦١) بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٣ ، ٤ ، مؤنس ، فخر الاندلس ، ص ٤٤٤ .

٤٤٥ ، مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٥ .

Chapman, op. cit, p. 47, Dozy, op. cit, p. 238 (٦٢)

Dozy, op. cit, p. 269 (٦٣)

جنة المسيح هم الذين قدموا أنفسهم طواعية كشهداء » . وقد أدخلوا في روع البعض أن هذا الكلام يمثل الحقيقة والصدق وأن ما يقدمونه اليهم أيضا عن نبي الاسلام من أباطيل هو أيضا لا يبعد عن الحقيقة ، لدرجة أن أحد الرهبان بهد أن سب الاسلام خاطب القاضي قائلا : « قدمنى للموت ، اننى أسلم نفسى له ، ألم يقل المسيح ، مبارك من ضحى أو تعذب من أجل الحقيقة والصدق ؟ ولأجلهم كانت مملكة السماء » (٦٤) .

وبلغ من استخفاف هؤلاء النصارى المتعصبين بعقول ذويهم أنهم اقنعوهم أنهم إذا قدموا للموت ، فسوف يرفعون الى السماء كمثل عيسى ، وأن المسلمين لن يقتلوا الا شبيها لهم يلبس أحد الأجساد . ويحكى لنا الخشنى قصة من هذا النوع عندما تقدم أحد النصارى الى القاضي (أسلم بن عبد العزيز) طالبا تقديمه للموت ، قائلا له عندما سأله القاضي عن السبب : « أتتوهم أنك اذا قتلتنى أنى أنا المقتول ؟ فقال له القاضي : ومن المقتول اذن ؟ فقال له النصرانى : شبيهى يلقى على جسد من الاجساد فتقتله ، وأما أنا فأرفع من تلك الساعة الى السماء . فلم يجد القاضي حيلة فى اقناعه بعدم صحة ذلك الا أن أمر أعوانه بتجريد الرجل من نيابه والهاب ظهره بالسياط ، فأخذ الرجل يصيح ، حينئذ قال له القاضي : « فى ظهر من تقع هذه السياط ؟ فقال الرجل : فى ظهرى . قال له القاضي : وكذلك السيف ، والله لا يقع الا فى عنقك ، فلا تتوهم غير ذلك » (٦٥) .

واذا عرفنا أن أسلم بن عبد العزيز تولى القضاء عام ٣٠٠ هـ حتى عام ٣٠٩ هـ لتأكد لدينا أن تلك الحركة الانتحارية التى قام بها نصارى قرطبة كانت لها ذبول حتى بداية عهد عبد الرحمن الناصر ، وأنه رغم الشدة التى عالجها بها الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) من طرد للموظفين

المسيحيين من قصره ، ومن تدمير لبعض الكنائس الا أن تلك الحركة استمرت حتى بعد حكم ابنه المنذر ، وعبد الله ، وأنه لم تقمها الا شدة الناصر وحزمه (٦٦) .

ويبدو أن حركات الاستشهاد أو الانتحار المسيحي كانت معروفة أيضا في غير الاندلس ، فقد حدث عام ٢٨٤ هـ في بغداد أن شهد الناس على نصراني بأنه سب نبي الاسلام ، وطلبوا من القاضي أن يقيم عليه الحد . وكان غضب الناس شديدا لدرجة أنهم هاجموا قصر الخليفة المعتضد العباسي ، فردهم الخليفة الى القاضي ثانية فكادوا يقتلونه من كثرة الزحام حتى أنه أغلق بينه وبينهم بابا (٦٧).

وكان طبيعيا أن تقع مثل هذه الحوادث في قرطبة عاصمة امراء بنى أمية ، فالمتعصبون موجودون في كل مكان وفي كل عصر . وكان في امكان ثوار النصاري أن يتحولوا الى جنود وجيوش في المدن والاقاليم البعيدة عن قرطبة ، مركز السيطرة الاسلامية ويدها القوية ، وكان يمكنهم أن يشتبكوا في حرب عصابات أو وجهها لوجه مع جيوش قرطبة وحتى الموت . أما في قرطبة وهي عاصمة الدولة ، فلم يكن للنصاري الا أن يختاروا طريقا آخر غير ذلك الطريق وهو أن يصبحوا شهداء (٦٨) .

وهناك عامل هام وأخير ساعدهم بل حرضهم على اختيار هذا الطريق ، ذلك هو تحريض نصاري الشمال الأسباني . ويبدو أن هؤلاء النصاري انتهزوا فرصة الضعف التي كانت تعيشها حكومة قرطبة في ذلك الوقت ، وراوا أن يثيروا نصاري قرطبة حتى يتمكنوا من التهام الثغور الاسلامية شمالي طليطلة وبطليوس . والروايات النصرانية لاتشير الى هذا التحريض المتعمد الا عرضا ، بينما تصمت عنه الروايات العربية ولا تشير اليه أدنى اشارة .

Dozy, op. cit, p. 299

(٦٦)

(٦٧) ابن الجوزي ، المنظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج ٥ قسم ٢ ، ص ١٧٠ .

Dozy, op. cit, p. 272

(٦٨)

ثانياً — مظاهر حركة التمرد النصرانية داخل الأندلس الإسلامية :

بدأت هذه الفتنة بعد زيارة قام بها القس يولوجيوس Eulogius إلى بملونة عاصمة مملكة نبرة (نافار) عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ومن بملونة أحضر معه عدداً من الكتب المليئة بالباطيل ضد الإسلام ، كما أحضر معه عدداً من كتب الأدب الرومانى من أعمال فرجيل Virgil وهوراس Horace وجوفينال Juxenal ، وجد فيها ذلك القس معادلة معقولة راجحة للأدب العربى الذى كان القرطبيون المسيحيون يفتنون به . وفى طريق عودته عرج على طليطلة وقضى فيها عدة أيام تمكن فيها من إثارة أهل طليطلة ضد حكومة قرطبة التى تسىء إلى المسيحيين وتضطهدهم على حد زعمه (٧٠) .

ونلاحظ أن ثورات طليطلة لم تبدأ إلا بعد عودته إلى قرطبة واشعال نار الفتنة فيها بين عامى ٢٣٦ ، ٢٣٨ هـ / ٨٥٠ — ٨٥٢ م وحدث حركة الاستشهاد الجماعى فى تلك المدة . وعندئذ بدأت الثورة فى طليطلة وتمكن النصرانى من القبض على عاملها ، ثم خرج اليهم الأمير محمد عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م وأوقع بهم فى وادى سليف ، رغم المعاونة التى تلقتها طليطلة من أردونيو الاول ملك ليون (٧١) .

عاد الأمير محمد إلى قرطبة مكلاً بالنصر حيث ووجه بأعمال الاستشهاد تزداد وتعنف ، وقام يولوجيوس وصديقه ألفارو Alzaro باصدار نشرات يدافعون فيها عن أعمال الاستشهاد ويحرضون فيها جماهير المسيحيين ، بينما صممت طليطلة على تعيينه مطراناً لها بعد وفاة

(٦٩) لمعرفة دور القس يولوجيوس فى إثارة الفتنة باستقامته ، انظر ، Dozy, op. cit, pp. 273 - 274, 285 - 293, 206 - 307

كارل برودكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ ، ملحق رقم ٦ من البحث .
Dozy, op. cit, pp. 269, 270, 293. 300 (٧٠)

Dozy, op. cit, pp. 33 - 301 (٧١)

مطرانها Wistremir ورفضت اختيار أى مطران آخر بعد أن
رفض الأمير محمد ذهاب يولوجيوس اليها^(٧٢) .

ورغم الهزيمة الساحقة التى منى بها نصارى طليطلة والملك اردونيو
الأول ملك ليون الا أن الثورة تجددت واستمرت فى طليطلة ، مما دعا
الأمير محمد الى ارسال جيوشه اليها فى أعوام ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ هـ
(٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ م) ، ولم تفتت ثورة هذه المدينة الا بعد موت أو
استشهاد يولوجيوس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، ذلك الاستشهاد الذى أحدث
ضجة كبرى ليس فى قرطبة فقط ولكن فى جميع أنحاء أسبانيا . وقام
مؤرخو الشمال بتسجيل ذلك الحادث بفخر عظيم . وبعد ذلك بأربع
وعشرين عاما أصر الملك ألفونسو ملك ليون عند عقده معاهدة السلام
بينه وبين الأمير محمد على تسليم جثمان أو رفات القديس يولوجيوس
والقديسة لوكريتيا Leocritia

فالأمر واضح إذن : يولوجيوس يذهب الى ببلونة عاصمة مملكة
نبرة عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ثم يمر بطليطلة ويحرض أهلها على الثورة .
ثم يعود الى قرطبة ويشعل الفتنة فيها عام ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م ، ويدفع
ببعض الفتيات — بعضهن كن مسلمات أصلا وفتنهن ذلك القس — والرجال
شبانا وكهولا الى ساحة الاعداد . عندئذ تقوم طليطلة بثورتها بدءا من عام

(٧٢) Dozy, op. cit, p. 302

(٧٣) Dozy, op. cit, p. 307 ، ليفى بروفتسال ، دائرة المعارف

الاسلامية ، المجلد الثانى ، ص ٦٨٦ ليوكريتيا Leocritia فتاة قرطبية شابة مولودة
من أبوين مسلمين ، لكنها اعتنقت المسيحية سرا ، وفشل والدها فى إعادتها الى حظيرة الاسلام
وأخذ فى عقابها ، فهربت وختبأت عند يولوجيوس واخته Anulo . لكن الشرطة عرفت
بمكانها وقبضت عليها وعلى يولوجيوس الذى اعترف أمام القاضى بتلقينها مبادئ المسيحية
وطلب اعدامه ، وتم ذلك فى عام ٢٤٥ هـ / ١١ مارس ٨٥٤ م وبعد ذلك بأربعة أيام واجهت
ليوكريتيا نفس المصير واعتبرت مع الكنيسة من القديسين ، وطالب برفاتها مائة كليون بعدد
ذلك بعشرين عاما أثناء مفاوضات الصلح بينه وبين الأمير محمد . أنظر

Dozy, op. cit, p. 304 - 306

٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م ، يشجعها في ذلك ويساندها بالجيوش ملك ليون النصراني ولا تهدأ ثورة النصارى سواء في قرطبة أو في طليطلة إلا بموت يولوجيوس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

هذا ولم يأت التحريض فقط من نصارى الشمال الاسباني في مملكة نبرة أو مملكة ليون التي كانت تسمى بمملكة جليقية واشترى من قبل ، بل قام نصارى الفرنجة والبابوية بدورهم في هذا الشأن . وكان المسيحيون في أوروبا بصفة عامة يشجعون هذه الحركة ويباركونها ويرون فيها الشر الذي قد يحيل جو الأندلس الى نار تحرق والمؤرخون يشيرون الى وفود الرهبان الذين قدموا من فرنسا وغيرها من ممالك الشمال الاسباني ، اما للاستشهاد أو لجمع عظام شهداء قرطبة من النصارى ، لتعرض في باريس وغيرها من عواصم أوروبا لاستثارة الحبة في النفوس (٧٤) .

ويشير البعض بصفة خاصة الى قدوم هذين الراهبين الفرنسيين أدلارد Odilard وازوارد Usuard عام ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م اى : قبل استشهاد زعيم الفتنة في قرطبة يولوجيوس في عام واحد . وصل هذان الراهبان الى بلنسية لأخذ رفات القديس فنسنت Vincent ولما سمعا بأعمال الاستشهاد في قرطبة ، ذهبا اليها ، وبقيتا هناك شهرين ثم عادا الى فرنسا ومعهما رسالة مختومة بخاتم مطران قرطبة Saul ومعنونة باسم الملك شارل الجسور ، الذى أرسل رسوله منسيو Manclo الى قرطبة ليحصل على رفات بعض القديسين الشهداء (٧٥) .

وبذلك استطاعت تلك الأصابع الأجنبية أن تشعل الحريق وأن تفلح في انبعاث الفتنة في أواخر حكم الأمير عبد الرحمن الاوسط منذ عام ٢٣٦ هـ — ٨٥٠ م واستمرت لمدة عشر سنوات حتى عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م في عهد ابنه الأمير محمد . وواجهت حكومة قرطبة هذه الفتنة الدينية في أول الامر

(٧٤) د. حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ٨٤ ، ليفي بروفنسال ، المرجع نفسه ،

المجلد الثانى ، ص ٦٨٥ .

Dozy, op. cit, pp. 302 - 204

(٧٥)

بالحكمة . فدعا الأمير عبد الرحمن الى عقد مؤتمر كنسى لعلاج تلك المشكلة التى أخرجت الدولة كثيرا ، واستطاع هذا المؤتمر أو هذا المجمع أن يصدر قرارا بمنع المسيحيين من الاستمرار فى هذه الفتنة ، والقبض على المحرضين^(٧٦) .

لكن ذلك لم يفلح فى وقف الفتنة الا بعد أن قبض على زعيم المحرضين وهو يولوجيوس ، بعد أن ثبت أنه يحرض الفتيات على التنصر وعلى تقديم أنفسهن للموت وإيوائهن بعد فرارهن من ذويهن^(٧٧) ووجد يولوجيوس نفسه مضطرا لتقديم نفسه للموت بالطعن فى الاسلام وسب نبيه ، حتى يلحق برفاقه الذين كان قد حرضهم من قبل . وتم ذلك وأعدم يولوجيوس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .^(٧٨)

وكانت حكومة قرطبة فى عهد الأمير محمد قد تخلت عن سياسة التسامح ونفذت القانون حيال هؤلاء النفر من المتعصبين وأعدمتهم ، وكان هذا هو الهدف الذى يهدف اليه زعماء النصارى فى قرطبة . فبلا شك أثار هذا

(٧٦) وُبروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .
Dozy, op. cit, p. 289

(٧٧) من أمثال الفتيات اللاتي حرضهن يولوجيوس وكن مسلمات ، ليوكريثيا وقد سبق جميلة شابة ، انحطرت من أب مسلم وأم مسيحية لكن أباما تولى وهي صغيرة السن فلقتنها ذكرا (أنظر حاشية رقم ص) ، وفلورا Flora . وكانت فلورا فتاة قرطبية أمها المسيحية ، ورفض أخوها المسلم ذلك ، فهربت والتقت بها يولوجيوس لأول مرة ووقع حبها فى قلبه ، وأخفاها عنده حتى ذهبت الى القاضى الذى تأثر بشبابها وأدخلها السجن فربما أذهب بتهورها . لكن يولوجيوس زارها وقوى من عزمها رغم حبه لها . لكن تعصبه الأعمى وهدفه فى بث الكراهية والحقد وإثارة الناس ، وتمهيد الطريق أمام نصارى الشمال ، كل ذلك أعمى بصيرته ، لدرجة أنه أعتبر يوم اعدام فلورا عام ٢٣٧ هـ (٢٤ نوفمبر ٨٥١ م) يوم النصر عنده . هكذا بلغ تعصبه وحقد على مسلمى الأندلس .

Dozy, op. cit, pp. 274 - 276, 291 - 293

Dozy, op. cit, pp 304 - 306

Livernore, op. cit, p. 77

(٧٨) أنظر

الاعدام موجة من السخط واثار الاحتقاد وزاد من الكراهية المتأججة في نفوس المسيحيين ضد الاسلام هناك . وكما رأينا فقد ثارت طليطلة على الفور ولمدة سنوات متتالية ولم تهدأ الا بعد مقتل يولوجيوس^(٧٩)

في الواقع كانت طليطلة بمسيحييها ومولديها تعيش سلسلة متصلة من الثورات ضد حكومة قرطبة منذ الفتح وحتى عصر عبد الرحمن الناصر، ونالت استقلالاً داخلياً نظير دفع مبلغ معين من المال . لكنها لم تلبث بعد الناصر وبعد انهيار الخلافة الأموية أن ساهمت في عصر ملوك الطوائف بما كان فيه من نتن وانقسامات وصراعات على السلطان ، حتى فتحت أبوابها لألفونش (الفونسو) السادس وكانت أول مملكة تسقط في يد نصارى الشمال .

أما مسيحيو قرطبة نفسها فلم يستكينوا طويلاً ، إذ انهم انتهزوا فرصة تولى الأمير عبد الله الحكم (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م) وقاموا بالتورة بالاشتراك مع ابن حفصون - وكان ثائراً في جنوبي الاندلس - ومخالفه ضد امراء بني أمية . وفي هذه المرة لم تكن أعمال الاستشهاد هي الوسيلة الوحيدة لاثهار تعصبهم الديني وكراهيتهم للمسلمين ، بل انهم حملوا السلاح بقيادة رئيسهم الكونت سرفاندو الذي يسميه ابن حيان ثيريند بن حجاج القومس ، وخرجوا الى حصن بلي (بلاي Play) قرب طليطلة ، وأمدهم ابن حفصون بالجنود ، وصاروا يغيرون على نواحي قرطبة يحرقون القرى ويدمرون الزروع ، وأصبحت العاصمة مهددة بالخطر^(٨٠) .

استطاع اذن مسيحيو قرطبة وقوات ابن حفصون الذي ارتد الى النصرانية بعد ذلك ببضع سنوات (عام ٢٨٥ هـ) أن يهددوا عرش بني أمية ، لكن الأمير محمد استطاع أن يستولى على هذا الحصن أخيراً ،

Hole, Spain Under the moslems, p. 50

(٧٩)

Dozy, op. cit, pp. 300 - 302

(٨٠) ابن حيان المفتيس ، ج ٣ ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ليفي بروفنسال ، المرجع نفسه ص ٦٨٧ .

ويقول دوزى أنه أحضر أسرى الحصن أمامه وأعلن أن جميع من يقومون بتسجيل أسمائهم كمسلمين لن يعدموا بشرط أن يقسموا أنهم كانوا مسلمين . أما المسيحيون فلهم الموت إلا إذا اعتنقوا الاسلام ، لكنهم جميعا وكان عددهم يقرب من الألف اختاروا الموت بدل أن يتخلوا عن عقيدتهم . واحد فقط هو الذى أنقذ نفسه ، أما الباقون فقد واجهوا الموت فى بطولة (٨١)

ولم تخل ثورة من ثورات المولدين التى ازدحم بها هذا العصر من اشتراك وتدعيم نصارى أهل الذمة ، وجميع الثورات التى قام بها المولدون فى بطليوس وماردة وبشتر وريّة وجيان وسرقسطة وغيرها كان للنصارى دور بارز فيها خصوصا بعد أن تنصر أكبر الثوار ، وأعظمهم وهو ابن حفصون . ليس هذا فقط بل أننا نسمع أن كثيرا من مولدى الشمال ومن أسرة بنى قسى زعيمة المولدين هناك ، ارتدوا الى النصرانية (٨٢)

ويبدو أن حركات النصارى ضد حكومة قرطبة كانت سابقة لفتنة الاستشهاد بكثير ، اذ نرى ثورات لمسيحيى مدينة ماردة عام ٢١٤ هـ / ٨٢٩م حيث تحالف هؤلاء مع لويس ملك الفرنجة وقتلوا عامل المدينة ، ولم يخلدوا للهدوء الا بعد أن سير اليهم الأمير عبد الرحمن الأوسط جيشا كان هو على رأسه ، وضيق عليهم الحصار حتى استسلموا وسكنت الفتنة (٨٣) .

كذلك قام مسيحيو مدينة البيرة بزحف على قرطبة مطالبين برد المفارم التى كان ربيع القومس عامل الذمة قد اقتضاها منهم . وكانوا يظنون انها يمكن أن ترد اليهم بعد أن قام الأمير عبد الرحمن الأوسط بصلبه فى بداية حكمه . فأقبلوا حينئذ الى قرطبة وانضم اليهم مسيحيوها ، وساروا جميعا

Dozy, op. cit, p. 365

(٨١)

(٨٢) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٨ .

(٨٣) محمد عبد الله عنان ، تاريخ العرب فى الأندلس ، ص ٨٩ .

Chapman, op. cit, p, 44

الى القصر ، فأرسل اليهم الأمير قوة من الفتيان لتهدئتهم ، فاعتدوا عليها ، فبعث اليهم الجند الذين التحموا معهم في معركة فتكت بهم ، وقتل منهم الكثير « وانهزم جند البرة ومن معهم » من أهل قرطبة وفروا على وجوههم^(٨٤)

ولاشك أن هذه الانتفاضات الداخلية وحركات التمرد والثورة التي قام بها العرب والبربر والمولدون ونصارى أهل الذمة أضعفت حكومة قرطبة ، واتاحت الفرصة لنصارى الشمال الأسباني لاسترداد بعض أراضي أسبانيا التي كان العرب قد استولى عليها ، وأخذت بذلك الحدود الإسلامية تتراجع الى الجنوب ، وصار أمر الاسلام مهددا بالزوال ، ولم ينقذ البلاد من الضياع الا حكم عبد الرحمن الناصر في بداية القرن الرابع الهجرى .

(٨٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٤١ .

ثانياً - ظروف اسبانيا النصرانية واحوالها المؤثرة في علاقتها

بالأندلس الاسلامية في عصر الامارة الأموية

ان العوامل التي تحكم الصراع بين مسلمى الأندلس الاسلامية وشمال اسبانيا النصرانية تنبع من داخل كل منهما ، فاذا أردنا أن نعرف لماذا هزم أولئك وانتصر هؤلاء ، أو بمعنى آخر ، اذا أردنا أن نتعرف على طبيعة العلاقة بين الطرفين ، سواء في السلم أم في الحرب ، لابد لنا أن نضع يدنا على عوامل القوة وعوامل الضعف داخل كيان كل منهما .

وكما درسنا في الفصل السابق أحوال بلاد الأندلس في عصر الامارة وعرفنا مواطن القوة التي ميّنتها من أن تقتف على قدميها بعد أن هب نصارى الشمال وتوغلوا داخل أراضيها ، منتهزين فرصة الصراع القبلي الطاحن في عصر الولاة ، ودرسنا كذلك مواطن الضعف التي سهلت لنصارى الشمال الأسباني من أن يكتسبوا أرضاً جديدة ، وأن يتبادلوا الهزائم والانتصارات مع أمراء بنى أمية ، كذلك فانه علينا الآن أن نقوم بنفس المهمة وننفذ الى أعماق تلك الامارات والممالك النصرانية التي نشأت في الشمال ، ونرى ما فيها من عوامل قوة مكنتها من التقدم ، ومن عوامل ضعف استغلها المسلمون ، وتمكنوا من وقف هؤلاء النصارى ورد عادياتهم .

والشمال الأسباني النصراني لم يكن كله يشكل دولة واحدة أو كياناً واحداً ، بل كان هناك في عصر امارة بنى أمية ثلاثة تجمعات نصرانية رئيسية : أولاها : تلك المملكة التي تسمى مملكة جليقية وأشتريس . وقد نشأت على يد (بلاي) عام ٩٨ هـ / ٧١٨ م في الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة ايبيريا . وهى أول مملكة نصرانية تقوم بعد انتهاء الفتح العربى للبلاد ، وكان لها شرف حمل السلاح وبدء المقاومة ضد حكومة قرطبة ولم يكد يمضى على بداية الفتح ست سنوات (٨٥) .

(٨٥) انظر ، لتماميد للتاريخى ، ص

اتخذ بلای من مدينة كانجاس دى أونيس Cangas de Onis على الساحل الشمالى عاصمة له ، وهزم المسلمين فى موقعة كونا دونجا ، وكانت أول هزيمة لهم على يد نصارى الأسبان . وقد اضطروا بسبب ذلك وبسبب الصراع القبلى الذى دار بين العرب والبربر الى النزوح الى الجنوب وتركوا مناطق شاسعة جنوبى جليقية أصبحت حائلا بين الجالقة وبين المسلمين . وامنت بذلك مملكة جليقية على نفسها من غزو مفاجيء ، قد يأتيها يوما ما من الجنوب ، بل انها هى نفسها قامت بغزو ما يجاورها من شعور المسلمين وبدأت ماعرف بعد ذلك بحركة الاسترداد (٨٦) .

وقد سبق الحديث عن الصراع الذى دار بين مسلمى الاندلس وبين بلای ومن بعده الفونش (الفونسو) زوج ابنته ، والذى كان يحكم كنتبرية التى تقع الى الشرق من أشتريس (أشتورية) . وبذلك توحدت الامارتان ، كنتبرية وأشتريس ، فى مملكة واحدة تمتد من بلاد البشكتس شرقا الى شاطيء المحيط الأطلنطى غربا ، ومن خليج بسكاية شمالا الى نهر دويرة جنوبا . وسميت باسم مملكة جليقية لانها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التى كانت تسمى بهذا الاسم ، وظل هذا الاسم علما عليها حتى أواخر عصر امارة بنى أمية عندما نقل الملك غريسيه ابن الفونس الثالث ، العاصمة الى ليون عام ٢٩٤هـ / ٩١٠ م ، وسميت المملكة من وقتئذ مملكة ليون (٨٧) .

هذا عن التجمع النصرانى الأول . أما عن التجمع النصرانى الثانى : فيعرف بمملكة نبرة (نافار Navarra) وهى : فى غربى جبال البرنات والى الشرق من جبال كنتبرية Cantabria على أبواب غالة (فرنسا) وهى بذلك مملكة فاصلة بين امارة برشلونة التى تقع على ساحل البحر المتوسط فى الشرق ، وبين مملكة جليقية وأشتريس التى تسمت بعد ذلك

(٨٦) انظر ، التمهيد للتاريخى ، ص ٢١ ، ٢٢ .

Livermore, op. cit, pp. 69 , 70

(٨٧)

باسم مملكة ليون ، ثم باسم مملكة ليون وقشتالة في القرن الخامس الهجري /
الحادي عشر الميلادي (٨٨) .

كان يسكن جبال نبرة شعب شديد المراس يسمى الباسك
نسبة الى منطقة بسكاية Biscaya . وكان العرب يسمونه
البشكنس أو البشكونس ، وربما أطلقوا هذا الاسم على البلاد التي تقع
وراء البرنات الى جهة فرنسا ، لأن أصل الأهل والأهل واحد سواء في السفح
الجنوبي أو في السفح الشمالي من البرنات . وهم أمة مستقلة بنفسها
لهم لغتهم الخاصة حتى الآن ، وهم من أشد أمم الأرض استمساكا بقوميتهم
واحتفاظا بعباداتهم وتقاليدهم ، وهم يسببون حتى الان كثيرا من الأزمات
السياسية لحكومة أسبانيا (٨٩) .

كانت قاعدتهم مدينة بملونة Pamplona الحصينة التي حكمها
المسلمون ردحا من الزمن ثم فقدوها في أواخر القرن الثاني الهجري /
الثامن الميلادي أمام غزوات الفرنجة لاسبانيا الشمالية . وكانت هذه البلاد
ميدانا للجيش الاسلامي والفرنجة عند عبور كل منهما للآخرى . وقد
حاولت كل منهما غزوها ، لكن الباسك كانوا لايتوانون دائما عن الزود
عن استقلالهم ، وقد قام أمراء جليقية بمحاولة غزوها غير مرة وضماها الى
المملكة النصرانية ، لكنها استقلت بنفسها قرب نهاية القرن الثاني الهجري
عندما ظهر أحد زعماء الباسك المسمى أزوار عام ١٨٠ هـ / ٧٩٩ م
وجعل نفسه أميرا على تلك البلاد (٩٠)

(٨٨) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٣٤ ، شكيب ارسلان ، الحلال السندي

ج ١ ، ص ٣٢١ .

(٨٩) الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٥٦ ، القلقشندي ، المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٢٣٤ ،

رينو ، تاريخ غزوات فرنسا ، ص ١١٧ ، ارسلان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢١ .

Chapman, op. cit, p.55

Chapman, op. cit, pp. 55 - 56

(٩٠) عان ، المرجع نفسه ج ١ ، ص ٦٧ .

أما التجمع النصراني الثالث ، فهو أمانة قطلونية Catalonia (برشلونة) وهي بلاد قائمة بذاتها من قدم الدهر ، وكثيرا ما كانت أمة مستقلة بنفسها عن سائر أسبانيا ، ولم تتحد مع أرغونة وقشتالة الا بعد طرد المسلمين من الأندلس . وأهلها أمة يقال لها : القطلان أو الكتالان لسانهم غير لسان الأسبان وهم أقرب في لغتهم الى لغة بروفانس التي هي لغة جنوب فرنسا والتي تبعد عن اللاتينية بقدر ما تقرب منها اللغة الأسبانية . وشعب القطلان على وجه العموم لا يحب الشعب القشتالي^(٩١)

وتمتد هذه الامارة من جبال البرنات في الشمال الى بلنسية في الجنوب وبين منطقة الثغر الأعلى (سرقسطة) في الغرب الى البحر المتوسط في الشرق وكان لقطونية على هذا البحر ساحل يمتد مسافة ٤٠٠ كم . من رأس سربيرة Cerbira في الشمال الى مصب نهر سينيا Genia في الجنوب^(٩٢) .

وقد افتتح العرب قطلونية عندما دخلوا أسبانيا ، لكنهم لم يبقوا هناك طويلا ، اذ استطاع شارلمان أن يفز تلك المنطقة ويستولى على جيرونة عام ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ، ثم على برشلونة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، ويؤسس هناك امارة سموها « المارك الأسباني » Spanish Mark أو « الثغر القوطي » أو «امارة برشلونة» أو «الأطراف الأسبانية لمملكة الفرنجة» واتخذوا من برشلونة عاصمة لها . وبعد استيلاء الفرنج على برشلونة أصبحت طرطوشة التي تقع قرب التقاء نهر ابرة بالبحر المتوسط هي آخر المدن الإسلامية على ساحل ذلك البحر^(٩٣) .

وقد حكم هذه الامارة أولا عدد من الكونتات التابعين للملك الفرنجة ، لكن خضوع قطلونيا لهؤلاء الملوك لم يستمر طويلا اثناء القرن الثالث

(٩١) أرسلان ، المرجع نفسه ، ج ٢ ص ٩٩ .

(٩٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

(٩٣) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص ٣٥ ، الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

خليل السامرائي ، علاقات المرابطين ، ص ٥٢ ، Chapman, op. cit., p. 56

الهجرى / التاسع الميلادى . اذ يعتقد أن وفريدو Wifredo كونت
برشلونة هو أول من أعلن استقلاله عام ٣٦٠ هـ / ٨٧٤ م ، وأصبحت
هذه الامارة شوكة في ظهر النفر الاعلى الأندلسى (٩٤)

هذه لحظة سريعة عن مراكز تجمع نصارى الشمال الأسباني ،
فما هي حقيقة العلاقات بينها وانعكاسات ذلك على حركة الصراع ضد
قرطبة ؟ وما هي الأوضاع الداخلية لكل مملكة من هذه الممالك النصرانية ؟
وهل مكنت تلك الأوضاع نصارى الشمال من استئناف حركة المقاومة التي
كان قد بدأها الفونش الأول ملك جليقية وأشتريس في نهاية عصر الولاة
في الأندلس ؟

وللاجابة على هذه التساؤلات سوف نتناول بالبحث نقاطا أربع :
أولها ، الأسر الحاكمة في كل امارة أو دولة ، وما قام بين أفراد هذه
الأسر من صراعات على الحكم ، وعلاقة هذه الأسر بالقوى الاجتماعية
الآخري مثل النبلاء ورجال الكنيسة والعامّة ، وأثر ذلك كله في قوّة
الدولة أو ضعفها ، وانعكاسه على العلاقة مع دولة الاسلام في الأندلس
وثانيها ، البيئة الطبيعية والبشرية لكل مملكة أو امارة ، وهل هي عامل قوّة
أو ضعف ، وأثر ذلك على العلاقات مع أمراء بنى أمية في قرطبة ، وثالثها
العامل الدينى ، ومدى أثره في الصراع مع العرب ، ومدى استقلال
الممالك النصرانية له في هذا المجال . ورابعها ، علاقة الممالك النصرانية
في الشمال الأسباني كل منها بالآخري وأثر ذلك في الصراع مع العرب .

١ - النظام السياسى في ممالك الشمال النصرانية وأثره في العلاقات مع مسلمى الأندلس :

كانت مملكة جليقية وأشتريس هي أول دولة قامت في الشمال الأسباني
وكان لها السبق لسلسلة ملوكها ، كما أنها واكبت الدولة الاسلاميّة
منذ بداية قيامها تقريبا ، ولم يقم بجانبها مملكة ذات شأن الا مملكة نبرة

Chapman, op. cit, p. 56

التي ظهرت في وقت متأخر ، ولم يكن لها دور على المسرح السياسي الا في النصف الثاني من عصر امارة بني امية . اما قلطونية : فكانت دوقية أو امارة تابعة للفرنجة ولم يكن لها شأن كبير في تاريخ اسبانيا في تلك الفترة .

وعلى أية حال فان نظم الحكم في الممالك النصرانية الأسبانية في عصر الامارة كانت مماثلة للنظم التي كانت قائمة في أواخر عهد القوط . وكان الملك وراثيا في جليقية وأشتريس فقط ، ولكن في باقي الامارات مثل نبرة ، كان الملك ينتخب بواسطة النبلاء أو الاشراف . لكنهم كانوا يفتخبون من كان بمولده أحق الناس بالعرش اجتنابا للحرب الاهلية (٩٥) .

وكان الملك مطلق السلطان ، يقبض على زمام السلطة التشريعية والتنفيذية ، ولا يقيد النبلاء سلطته الا بالثورة ضده ، والا بأن يحاولوا جعل ارتقاء العرش بالانتخاب . ولذلك كان النبلاء دائما في حالة شد وجذب مع الملك لنفس الاغراض التي صارعوه من أجلها أيام دولة القوط (٩٦) .

ولا عجب في هذا فدولة جليقية ما هي الا استمرار لدولة القوط الزائلة ، وما الفونش وسلالته الا من نبلاء القوط الذين كانوا يقيمون في شمال البلاد وقت فتح العرب لها ، ولذلك استمرت سنن المملكة القوطية ، واستمر الجلالة يسمون انفسهم قوطا ويدعون النسبة الى القوط ، وتنهج حكومتهم منهج السياسة القوطية (٩٧) .

واذا كانت اسبانيا القوطية قد فقدت استقلالها ومكنت العرب من فتحها بسبب ذلك النزاع الذي حدث بين البيت المالك وبين النبلاء من

(٩٥) يوسف أشباح ، تاريخ الأندلس ، ص ١٣٢ .

(٩٦) Grow, Spain, the root and the flower, p. 94

Chapman, op. cit, 45

محمد عبد الله عنان ، تاريخ العرب في اسبانيا ، ص ١٠٨ .

(٩٧) المرجع السابق ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

القوط ، فإن دولة جليقية وأشتريس قد تعرضت لنفس الشيء ، لكن النبلاء في هذه المرة لم يساعدوا العرب ضد مليكهم كما حدث في الماضي ، وإنما كانوا يساعدون من يرغبونه في الجلوس على العرش وكان ذلك في بعض الأحيان لاعتبارات تعود الى ما تعود القوط أو الجلالقة من عدم الازدعان للملك اذا كان طفلا أو كان مفتصبا للعرش . لذلك كانت مساندة النبلاء تقرر في أحيان كثيرة من يضع التاج على رأسه وكان الملوك رغم ذلك في حاجة لاسترضاء أشرافهم بسبب الحروب الدائمة مع العرب ، فكانوا يغدقون عليهم المنح والعطايا والاقطاعات والمزايا التي جعلتهم مطلقى التصرف في أملاكهم ، حتى أنهم كانوا لا يرون كبير فرق بينهم وبين الملك ، لدرجة أنهم لم يسمحوا لأنفسهم أن يعاملوه بالتعظيم والتبجيل الذي كان يعامل به أهالى أوروبا ملوكهم العظام^(٩٨) .

ارتفعت شوكة الأشراف اذن ، ولجأ الملوك الى التماس المحالفة أو المساعدة من المدن النامية ومن رجال الكنيسة الاغنياء ، وكانوا يريدون بذلك خلق توازن سياسى بين سلطتهم وبين ازدياد نفوذ طبقة الأشراف أو النبلاء ، ومن ثم أغدقوا المزايا والعطايا على أهالى المدن فعظمت شوكتها وكثرت ثروتها ، كما أغدقوا العطايا على رجال الكنيسة بفرض الضرائب الباهظة على عامة الناس ، وتحصيلها لحساب الكنيسة ورجالها ولبناء الأديرة والكنائس ، حتى ضاق الناس ذرعا في بعض الأحيان وأعلنوا الثورة ضد ملوكهم^(٩٩) .

من هنا يمكننا القول بأن سلطة الملك كانت نظريا مطلقة ، وخاصة فيما يتعلق بأراضيه والمناطق المحررة من الأندلس الاسلامية . أما فيما يختص بأراضى النبلاء والكنيسة كانت هناك قيود وحدود لسلطاته نحوها . فقد تمتع النبلاء بحقوق اقتصادية وبحقوق السيادة على

(٩٨) روبرتسون ، اتحاف الملوك الألبيا ، ص ١٤٨ .

Crow, op. cit, p 94

(٩٩) روبرتسون ، اتحاف الملوك الألبيا ، ص ١٥٠ .

Crow, op. cit., p. 94

ممتلكاتهم ، كما كونوا قوات عسكرية وحارب كل منهم الآخر بل وحاربوا الملك في بعض الاحيان ، كما كانوا يجهعون الضرائب لأنفسهم . واحتل رجال الأكليروس موقفنا مشابها لهؤلاء النبلاء ، وحازت الكنيسة عقارات ضخمة من عطايا الأفراد وهبات الملوك (١٠٠)

وكان من نتيجة ذلك أن السلطة الملكية كانت تنهار اذا ما تحداها أولئك النبلاء ، وكانت تقوم الحرب الاهلية ، وربما انحاز الملك المعزول الى أحد أقاليم الدولة القاصية ، واستمر يمارس سلطته هناك ، وربما استعان على الملك الجدد الذي يعتبره غريبا له ، بالتصالح مع المسلمين أو مع الممالك النصرانية الاخرى القريبة منه . وقد حدث هذا عدة مرات في تاريخ جليقية ، وكان من نتيجته أن تمكنت قوات أمراء بني أمية أن تدخل جليقية والبة والقلاع وسائر مدن المملكة النصرانية غازية ، تستولي على المدن وتخرب الحصون وتعود محملة بالغنائم والأسلاب .

امام هذه الاوضاع كان يمكن للملك أن يلجأ الى قوة ثالثة يمكنه بها موازنة قوة الأشراف أو رجال الكنيسة ، ألا وهم عامة الشعب ، تلك الأكثرية الفقيرة التي كانت ترزخ تحت نير الاشراف أو رجال الكنيسة على السواء . لكن هذه الأكثرية استطاعت أن نشق طريقها الى الحرية والقوة حينما اشتدت معركة الحياة والموت بين الاسلام والنصرانية في أسبانيا واضطرت المملكة النصرانية أن تلجأ الى الأكثرية للذود عن حدودها وحياتها ، وانقلب الرقيق القديم جندا وفرسانا يثرون ضد ساداتهم ويرغمونهم على احترامهم ومصانعتهم (١٠١)

وربما كان هذا عامل قوة يحتسب للأسباب في معركتهم ضد الاسلام فالملوك لم يكونوا مطلقى السلطة ، كانت هناك قوى أخرى من أشراف وكنيسة ومدن عامة لا بد من أخذها في الاعتبار ولا بد من الاستفادة منها

Chapman, op. cit., p. 60.

(١٠٠)

(١٠١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الاول ، القسم الاول ،

ص ٢١٧ .

في عمل توازن يمكن هؤلاء الملوك من قيادة الصراع ضد مسلمى الاندلس
بمهارة واقتدار في أحبان كثيرة في عصر أمراء بنى أمية .

لم يكن هناك مثل ذلك الصراع القبلى الذى مزق الاندلس سواء في
عصر الولاة أم في عصر الامارة ، لم يكن هناك صراع بين مولدين وعرب
ولم يكن هناك صراع بين مسلمين ومسيحيين داخل المملكة الواحدة كما
حدث في الاندلس الاسلامية ، وانما كانت المملكة قلبا واحدا على عدوهم
المشترك من المسلمين ، وكان هذا سرا من أسرار نجاح نصارى الشمال
في معركتهم الطويلة ضد قرطبة الاسلامية .

لكن كان هناك ما أضعف الملكية في جليقية الى حد ما ، ألا وهو ذلك
الصراع على العرش بين أفراد الاسرة الملكية ، وهو ما شاركتهم فيه
الأسرة الأموية ، وكما حدث في قرطبة من انشقاق بعض أمراء بنى أمية
وانسحابهم الى أحد الاقاليم السعيدة عن قرطبة وعلان تمردهم
ضد السلطة المركزية ، بل واستعانتهم بالفرنجة أحيانا وبنصارى
الشمال في أحيان أخرى ، فقد حدث مثل ذلك أيضا في جليقية ونبرة ،
يبدو ذلك واضحا من تاريخ هاتين المملكتين في هذه الفترة (١٠٢) .

(١٠٢) عن تاريخ مملكتي جليقية ونبرة ، وعن الصراع على العرش فيهما ، انظر :

ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٧٩ ، الطقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ .
ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ،

ص ١٣ ، ١٨ .

العيني ، عقد الجمان ، ج ١٢ ، قسم ٢ ، ورقة ٢٩٦ .

حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٥١ .

محمد عبد الله عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٨ - ٢١٥ ، ج ٢ ، ص ٦٠ - ٦٨ .

رينسو ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا ، ص ١٤٥ - ١٤٧ .

Livermore, op. cit., pp. 79, 82, 83.

Chapman, op. cit., pp. 57, 65.

٢ — الطبيعة الجغرافية والبشرية واثرها في الاوضاع الداخلية :

هذا عن النظام السباسى فى ممالك الشمال النصرانية ، أما عن الطبيعة الجغرافية والبشرية ، فكما يقولون ان الارض تدافع عن أهلها ، وهذا حق فبما يتعلق بشمال أسبانيا ، فهناك مناطق لم يدخلها المسلمون قط ومناطق أخرى دخلوها لكنهم لم يستطيعوا العبث فيها طويلا ، بل أن جنود موسى بن نصير عندما اقتحم بهم مغاور جليقية وأشتريس «استوحشوا من هذه المناطق» وطلبوا منه ألا يفامر بهم فى هذه الأرض القاحلة .

وقد حاول قواد المسلمين فى عصر الولاة التوغل فى هذه المناطق مرارا، لكنهم كانوا يعودون من حيث أتوا ، ويكتفون بما حصلوا عليه من غنائم وأسلاب . وفى إحدى المرات كادوا يقضون على حركة المقاومة النصرانية الناشئة التى نظمها بلال فى جبال أشتريس فى أقصى شمال أسبانيا ، إلا أن حصن الصخرة التى تسمى كوفادونجا منعمهم عنه ، وظل يقاومهم حتى لم يبق معهم إلا عدد قليل من الرجال والنساء الذين كانوا لامطعم لهم إلا من غسل فى ثغوب الصخر كما تقول الرواية العربية (١٠٣) .

كان الشماليون يعيشون على السهول الممتدة بطول خليج بسكاي وحتى المحيط الأطلسى غربا ، وكانت هناك سلاسل من الجبال تمتد بطول هذه السهول وهى سلاسل جبال أشتريس وجبال كنتبرية ، وتمتد هذه السلاسل فيما يعرف بجبال البرينات أو البرانس أو البرينية Pyreness وينبع من هذه الجبال عدد من الأنهار لها فروع لإحصر لها ، فكانت هناك أنهار المنيو أو المندجو Mendgo ودوبره (الدورو Douro اللذان يصبان فى البحر المحيط أو المحيط الأطلسى حسب التعبير الحديث

(١٠٣) انظر ، للتعميد التاريخي ، ص

وهناك نهر أبره Ebro الذى ينبع من جبال البرنات ونهر نبره ويصب
في بحر الروم أو البحر المتوسط .

وبين المندجوه ودوبره هضاب قفرة واسعة أصبحت حاجزا طبيعيا
بين مسيحيي الشمال ومسلمي الجنوب . ولم يستطع المسيحيون في عصر
الامارة تعمير هذه المناطق بسبب عدم وجود من يزرعها وعدم توافر
الأموال اللازمة لذلك ، فكان يكتفى ملوك الشمال بتخريب هذه المناطق
واخذ من بها من المسيحيين معهم وبعودون الى الشمال . ولم يستطع
الفونش الثالث وهو أعظم أمراء النصاري وملوكهم في هذه الفترة الا أن
يحتل الأقاليم الواقعة على حدود مملكته ، وكانت تشمل ليابانا Liebana
وقشتالة القديمة المعروفة حينئذ ببردوليا Berdulia وساحل جليقية
Galicia ، وربما مدينة ليون (١٠٤) .

لذلك كانت الانهار والهضاب والجبال الوعرة ملجأ آمنا لنصاري
الشمال ، ساعدتهم كثيرا ضد العرب وضد الفرنجة ، وقصة شارلمان
مع الباسك (البشكنس) معروفة ويكفى أن مؤخرة جيشه قد دمرت ووقع
قريبه رولان صريعا ، ولم يكن ذلك الا لوعورة الجبال وضيق المسالك
أو المعابر التي كانت تسمح بمرور الجيوش بين بلاد الفرنجة وشمال
اسبانيا في صعوبة بالغة ، وقد رأينا ما فعلته صخرة كوفادونجا
بجيش علقمة ، وكيف أنه لم يستطع القضاء على بلاى وارند حيث لاقى
جيوش النصاري التي كبده خسائر فادحة كما نقول الرواية النصرانية (١٠٥)

Doay, A history of the Moslems in Spain, P. 412 (١٠٤)

(١٠٥) انظر التمهيد التاريخي ، ص ٣٤ ، ص ٢ ، أرسلان ، الحل السندسية ،

ج ١ ، ص ٣٢٢ .

Chapman, pp. cit., p. 43.

(١٠٦) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٤ .

Crow, op. cit., p. 94

ولما كان التنوع أو الاختلاف هو القاعدة الى حد ما ، فقد اتبع الشمال الغربي التقليد القوطى فى الحياة ، بينما شمال الوسط والشمال الشرقى (نبرة وقطلونية) احتفظوا بكثير من المؤسسات القوطية ، لكنهم دخلوا فى انصالات صريحة مع شعب الفرنجة الذى جعلهم متميزين فى النواحي الحضارية^(١٠١) .

ولذلك لم يسمر اتحاد الفاناريين والجلالقة طويلا فى عهد اماره بنى أمية ، بل ثار الاولون واستقلوا بأنفسهم وكونوا لهم مملكة مستقلة ، ظهر كيانها واضحا فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . بل ان تنوع الأقاليم داخل الدولة الواحدة كان له خطره ، ولذلك كان أمراء جليقية من أسرة الفونشس الأول يعلنون الثورة ضد الملك ، ثم يعتصمون بأحد أقاليم الدولة القاصية ويناثونونه منها . حدث هذا وانقسمت الدولة مرارا الى اماره كثرية والى اماره جليقية وان ظل الحكم الملكى مستمرا^(١٠٨) .

ولكن لم يحدث هذا بقصد القضاء على الأسرة المالكة أو بقصد انفصال جزء من الدولة وقيام مملكة جديدة فيه ، لكنه كان صراعا على الحكم بين أفراد الأسرة الواحدة ، بعكس ما كان موجودا فى الأندلس ، حيث ظهرت الحركات الانفصالية فى النصف الأخير من عصر الامارة ، وصار أمراء بنى أمية لا يسيطرون الا على قرطبة وحدها فى بعض الأحيان^(١٠٩) .

Chapman, op. cit., p. 59.

(١٠٧)

(١٠٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ،

ق ١ ، ص ٢١٧ ،

(١٠٩) عن الحركات الانفصالية فى الفترة الأخيرة من عصر الامارة الاموية ، انظر ،

ابن حيان المفتس ، ج ٣ ، ص ٣٢ - ١٢٩ .

المعزى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١١ ، ١٢ ، ٣٠ - ٣٦ ، ٦٢ - ٦٦ .

ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٤٤ - ١٥٧ ، ١٧١ - ١٧٨ .

Dozy, op. cit., pp. 355-356, 374-375, 381-382.

وكان هذا التنوع عاملاً من عوامل الضعف الى حد ما . وأقول الى حد ما ، بسبب وجود التجانس الجنسى والوحدة الدينية بين نصارى الشمال ، فلم تكن هناك مشكلة أقليات ولم يكن هناك صراع بين دين وآخر كما حدث في الجنوب وجعل من الطبيعة الجغرافية سلاحاً من أسلحة الثوار والمتمردين . وقد قلل من خطورة عامل التنوع الجغرافي هذا ، البعد المكاني لأقاليم الشمال عن قرطبة عاصمة الدول الإسلامية . فقرطبة كما نعرف بعيدة جداً عن أشتريس وجليقية في الغرب وعن البشكنس في الشمال ، ولذلك لم تخضع هذه المناطق لهم أبداً ، ولم يدم سلطانهم على بعضها الا لفترات قليلة جداً ، لأنها « بلاد لا يطيب سكتها لغير أهلها » (١١٠) . ولم يستغلوا هذا التنوع الجغرافي في ضرب هذه الأقاليم والممالك بعضها ببعض الآخر .

انعكست هذه البيئة الطبيعية القاسية على أخلاق السكان وعاداتهم وعلى وضعهم الاجتماعي وحياتهم الاقتصادية . وكما يصفهم المؤرخون كانوا قساة جفاة ، غلبت عليهم الخشونة والقسوة والتعصب حتى أنهم لو تغلبوا على مدينة كانوا يضعون السيف في رقاب جميع سكانها ، ولا يمكن أن نتوقع من هؤلاء القوم الذين يصفهم دوزي بالبرابرة ويصفهم أبو الفدا بأنهم « قوم كالبهائم » ، والحميري بأنهم « أهل غدر ودناءة أخلاق » ، لا يمكن أن نتوقع منهم نداء التسامح الديني الذي انبعه المسلمون تجاه المسيحيين (١١١) .

وقد جعلتهم خشونة الحياة وقسوة الطبيعة شجعاناً لا يهابون الموت ، « فهم أسد في حصونهم عقبان على خيولهم » ، فيهم بأس وشدة ، لا يرون الفرار عند اللقاء ، بل يرون الموت دونه ، ان رأوا فرصة أنهزوها وان رأوا غلبة فأنواعاً تذهب في الجبال ، لا يرون الهزيمة عاراً ،

(١١٠) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٣١ ، مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٨ .

(١١١) أبو الفدا ، تاريخه ، ج ١ ، ص ٩٨ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١١١ للحميري ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
Dozy, op. cit., pp. 414, 415.

ولذلك وصفهم بعض المؤرخين بأنهم كانوا كاللصوص وقطاع الطرق ، لا يفكرون الا في مغنم الحرب وأسلابها وأن هدفهم من غزو المدن والقرى هو نهبها وليس استعادتها ، فالاستعادة لا تتم الا اذا توافر عندهم قدر من الشعور القومى يدفعهم الى ذلك . وهذا الشعور لم يكن محسوسا لديهم بدرجة كافية وخاصة في فترة بداية حركه المقاومة النصرانية حيث كان النصارى يغيرون وينهبون ثم يعودون الى معقلهم في الجبال^(١١٢) .

وكان فقر بيئتهم أيضا من الدوافع الرئيسية التى دفعت بهم للهجرة ضد جيوش المسلمين القوية القادرة ، وخاصة في الصدر الأول من عصر الامارة ، وهى فترة القوة . انظر الى أحد المؤرخين أو الجغرافيين العرب المشهورين حينما يقول عن مبلونة عاصمة نبرة انها « بين جبال شامخة ، وشعاب غامضة ، قليلة الخيرات ، أهلها فقراء ، جاعة لصوص ، وأكثرهم متكلمون بالباشقية — أى لغة الباسك — لا يفهمون ، وخیلهم أصلب الدواب حافرا لخثونة بلادهم »^(١١٣)

وصف دقيق لطبيعة المكان واثره في السكان وحتى في الحيوان ، لكن فقر هؤلاء الناس لم يكن نتيجة لفقر البيئة الطبيعية أو قلة مواردها فقط ، بل كان أيضا نتيجة لاستمرار خواص المجتمع القديم الذى كان موجودا أيام القوط : أقلية غنية قوية تستأثر بنعم الحياة من ثروة وجاه ، وأكثرية مستعبدة ترزح تحت جور العرش واستغلال الأشراف والسادة ، وقاسى الناس من الضرائب الباهظة التى اتبع الملوك والأشراف ورجال الكنيسة أسوأ الطرق فى جمعها . ولكن كما أشرنا من قبل ، فان الحروب مع المسلمين حسنت أحوال هؤلاء الناس وحولتهم من مستعبدين

(١١٢) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

(١١٣) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

الى جنود احرار ، يلجا اليهم الاشراف والملوك للدفاع عن اراضيهم ومهاجمة المسلمين ان عن اهم الامر^(١١٤) .

ومع فقر هذا المجتمع فقد كان يتمتع بالوحدة الجنسية الى حد بعيد ، اقصد أن شمال أسبانيا النصراني كان منجائس السكان ، لا تشغله مشكلة اقلية ، ولا تعدد اديان . وكان ملوك الشمال ومنذ البداية يحرصون على ذلك أشد الحرص ، فكانت هناك هجرات متبادلة بين المسلمين والنصارى في مناطق الحدود ، النصارى يرحلون الى الشمال ، والمسلمون يعودون الى الجنوب . وكانت هجرة النصارى الى الشمال هامة حتى أشار اليها كثير من المؤرخين الأوربيين ، بل ان أحدهم جعل اهم ما قام به الملك ألفونس الأول (١٢٢ - ١٤٠ هـ / ٧٣٩ - ٧٥٧ م) والفونس الثاني (١٧٥ - ٢٢٧ هـ / ٧٩١ - ٨٤٢ م) - من ملوك جليقية - هو استعادتهم لكثير من المسيحيين المستعمرين من المناطق التي غزاها المسلمون ، لأن هؤلاء المسيحيين ساعدوا في ازدياد سكان الشمال وتعميره^(١١٥) .

ولم تكن هجرة المسلمين الى الجنوب منذ عصر الولاة الا بسبب طبيعة الشمال القاسية التي لم يتعودوا عليها في بلادهم الأصلية ، وبسبب الصراع المرير بين العرب والبربر الذي رأيناه في عصر الولاة وأدى الى هجرة الطرفين من الشمال الغربى لأسبانيا ، يضاف الى ذلك ما اشرنا اليه من قسوة النصارى وسيطرة حب الانتقام عليهم اذا ما استولوا على مدينة من المدن .

(١١٤) غان ، دولة الاسلام في الأندلس ، ع ١ ، ج ١ ، ص ٢١٧

Chapman, op. cit., p. 63

Dozy, op. cit., p. 412.

Chapman, op. cit., p. 55.

(١١٥)

Livermore, op. cit., p. 70.

ورغم هذا التجانس السكاني الذي نعم به الشمال النصراني الا انه يشتم رائحة بقاء المشكلة البديية ، وهى عدم الانصهار التام بين القوط وبين السكان الأصليين من الايبيريين الرومان . وبذكر بعض المؤرخين أن الجلالة غير القوط ويفصلون بينهما قائلين أن « العرب اسنولوا على الأندلس وملكوها من يد القوط والجلالة . وأن الباسك أيضا عنصر مميز يختلف في أصله عن الأسبان ، أو أنهم — أى الباسك — كانوا ايبيريين أفحاح ، وأما سائر الأسبان فهم ايبيريون أمشاج ، أى أنهم اختلطوا بغيرهم من العناصر والأجناس النى طرأت على أسبانيا قبل الفتح العربى لها بزمان طويل . ورغم ذلك فقد صهرت المعارك المستمرة مع المسلمين عناصر السكان فى الشمال الأسباني ، وجعلتهم ينسبون ما بينهم من فروق جنسية أو اجتماعية ازاء مكافحة العدو المشترك (١١٦) .

لم يستعن ملوك الجلالة بعنصر جديد على شعبهم ، أو لم يستخدموا عنصر غريبا فى جيوشهم كما فعل أمراء بنى أمية وخلفاؤهم من بعدهم . وكما رأينا استعان أمراء بنى أمية بالصقلية وبالموالى والفصارى من الأسبان ، وبالبربر ، وسما هؤلاء ووصلوا الى أعلى المناصب ، لكنهم لم يكونوا مخلصين للعرش الا عندما يكون قويا ، أما فى حالة الضعف فكان كل واحد من هؤلاء يعمل لمصلحته الخاصة ، ولو سنحت له فرصة ينال من ورائها نفعا ، كان ينتهزها ولو أدى الأمر الى مقتل مليكه أو سيده .

خذ على سبيل المثال نصرا الخصى الصقلبي خادم الأمير عبد الرحمن الأوسط ، الذى اشترك مع طروب ، تلك الجارية الصقلبية وحظبة ذلك الأمير فى مؤامرة للإطاحة به ، حتى تضمن عرش البلاد لابنها دون بقية اخوته من الزوجات الأخريات . والاستعانة بهذا الشتات من العناصر والأجناس كانت نقطة ضعف فى جسم الأمة الاسلامية فى الأندلس ، بينما

(١١٦) ابن خلدون ، تاريخه ، المجلد الثانى ، القسم الثالث ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، أرسلان ،

المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٥

Livermore, op. cit., p. 81.

كان تجانس السكان في الشمال وعدم استخدام ملوكهم لعناصر اجنبية في جيوشهم أو بلاطهم عنصر قوة يحسب لهم^(١١٧) .

٣ - العوامل الديني واثره :

هناك أيضا العوامل الديني وكيف استغله ملوك الجلالة بالذات في اثارة الصراع ضد أمراء بنى أمية ومن أتى من بعدهم . وكما هو معروف كانت الكنيسة قد أعلنت مبدأ الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية اثر غزوات البرابرة لأوربا حتى تحمى نفسها ونحتفظ بحريتها من هؤلاء ، ثم تسرب نفوذ الكنيسة الى السلطة الزمنية عندما انضم القسس والأساقفة الى السلك المدني أو أشركوا المدنيين في مجامعهم الدينية ، مثل مجمع طليطلة الديني^(١١٨) .

وبذلك صار للكنيسة دورها في حكومة ملوك الشمال النصراني ، ولذلك اغدق عليها هؤلاء الملوك حتى يضمنوها الى جانبهم في الصراع ضد بعضهم البعض أو ضد مسلمى الأندلس ، وكما أشرنا فقد أجبرهم هذا الاغداق على فرض كثير من الضرائب على أصحاب الضياع حتى أنهم ثاروا ضد ملوكهم لهذا السبب . وكانت الكنيسة نفسها تميل الى ذلك وتتحد مع الملوك وتؤيد سلطتهم المطلقة رغبة في مقاسمتهم السلطة الزمنية ، وان كان هذا ضد حرية الرعايا^(١١٩) .

لم يكن هناك صراع اذن بين ملوك الجلالة وبين رجال الكنيسة ، فاذا أضيف الى ذلك قوة ميل الأسبان للتشدد في الايمان والتعصب لكل ما يؤمنون به بعد أن تأصلت الكاثوليكية في ربوع البلاد ، لأدركنا على الفور

(١١٧) آدن حمان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٤١ ، ابن سعد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٤٩ ،

٥٣ ، ٥٤ ، الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٣٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٣٩ .

(١١٨) كيزو ، السحفة الأدبية ، ص ١٨٦ .

(١١٩) كيزو ، السحفة الأدبية ، ص ٧٢ .

مدى قوة ذلك الحدث الدنى الكبير الذى سوف يستغله ملوك أسبانيا
استغلالا مفيدا جدا فى شحن عزائم رجالهم واثارة شعبهم ضد
مسلمى الأندلس (١٢٠) .

ذلك أن راهبا فى قاصية جليقية الغربية زعم أنه شاهد فى احدى البقاع
نورا سماويا يكشف عن مئوى رفات القديس ياقب (يعقوب) الرسول ،
وحمل هذا النبأ الى الملك الفونش الثانى (١٧٥ - ٢٢٧ هـ / ٧٩٢ - ٨٤٢ م)
الذى أمر على الفور ببناء كنيسة فوق هذا المكان .

وزاعت الأسطورة فى جميع الأنحاء ، وصدفها الناس دون تردد ،
وبدأت جماعات الحجاج ليس فقط من أسبانيا ولكن من جميع أنحاء العالم
النصرانى ، تفد لزيارة هذا المكان المقدس الذى أصبح له أهمية تلى أهمية
أورشليم وروما (١٢١) .

وسرعان ما نهت مدينة فى هذا المكان وسميت بأسم سنتياجودى
كومبوستيلا Santiago de Compostela ، وأصبحت تلك المدينة
مؤثرا دينيا وسياسيا وصناعيا وتجاريا فى الشمال الغربى المسيحى ،
وكان ملوك أسبانيا من الذكاء بحيث استغلوا هذا الكشف المثير لذلك القبر ،
والهبوا حماس النصرارى فى معاركهم ضد المسلمين مما أعطى لهذه
المعارك صفة الحرب الصليبية منذ وقت مبكر . يتمثل ذلك فيما ادعاه
الملك ردمير ابن الملك ألفونش الثانى (٢٢٦ - ٢٣٤ هـ / ٨٤٢ - ٨٥٠ م)
أنه فى احدى المعارك رأى القديس ياقب فى نومه ليلة المعركة ووعده
بالنصر (١٢٢) .

(١٢٠) مؤسس ، فخر الأندلس ، ص ٩ .

(١٢١) عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

Chapman, op. cit., p. 55

(١٢٢) عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٦١ ،

Chapman, op. cit., p. 55

واذا كان المسلمون يعلمون الجهاد باسم الاسلام ويجعلون للصراع مع المسيحيين طابعا دينيا فلماذا لا يفعل المسيحيون ذلك . وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل عندما نتكلم عن طبيعة الحرب بين المسلمين والمسيحيين في بدايه الفصل الثالث من هذا الباب ، وما يهمنا الآن هو أن نقول أن ملوك أسبانيا استغلوا العامل الدينى أحسن استغلال لضرب المسلمين وللتخلص من خطر انقسام كانت قد بدت ظواهره في الأفق عندما حاول مطران طليطلة Elipandus وصديقه Felix أسقف Urgel أن يعيدوا الى الأذهان في عام ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م مذهباً لاهوتياً قديماً يقول بأن المسيح كان رجلاً امتلأ بالروح المقدسة وهكذا تبناه الله واختاره . وهو مما يناقض العقيدة الكاثوليكية التى تؤمن بعقيدة الثالوث المقدس وأن المسيح هو الله^(١٢٣) .

ورغم أن طليطلة كانت في هذا الوقت تحت حكم المسلمين ، إلا أن مطرانها هذا كان له من التأثير بحيث كان المسيحيون سواء في الأندلس الاسلامية أم في أسبانيا النصرانية يعتبرونه المهيمن على شئون الكنيسة ، ولما تسربت أقواله وآراؤه تلك الى أشتريس ، تحطمت الوحدة الدينية الأسبانية ، وكانت هناك حاجة الى من يلم شمل الكنيسة من جديد ، فكانت أسطورة هذا القبر المقدس الذى نادى به أحد الرهبان وصدقه الملك الفونس الثانى لغرض في نفس يعقوب^(١٢٤) .

٤ — أما عن علاقة إمارات الشمال الأسباني ببعضها وأثر ذلك في صراعها ضد مسلمى الأندلس ، فقد سبقت الإشارة مرارا الى تلك العلاقة التى كانت تربط ملوك الجلالة بأمراء نبرة ، وخاصة بعد أن استقل هؤلاء وأنشأوا مملكة نبرة المستقلة في النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . وأشرنا الى ثورات أمراء نبرة

Livermore, op. cit., pp. 79, 80.

(١٢٣)

Livermore, op. cit., pp. 79, 80.

(١٢٤)

ضد ملوك الجلالقة ، ثم أطماع هؤلاء في أراضى نبرة مما أجبر أهلها الى الاستعانة ببني قسي المولدين المسلمين .

وقد استعان المسلمون ومسيحيو الشمال الأسباني بملوك الفرنجة على حد سواء . أما المسلمون فبسبب الصراع على السلطة في قرطبة ، وأما النصارى فبسبب طلب المساعدة في صراعهم ضد مسلمى الأندلس . وكان ملوك الفرنجة يرغبون أيضا في فرض سيطرتهم على الأراضى الأسبانية المتاخمة لحدودهم حتى يأمنوا على أنفسهم داخل بلادهم ، بعد أن أذاقهم العرب الويل أيام عصر الولاة وتوغلوا داخل غالة (فرنسا) حتى نهر اللوار على مسافة قريبة من باريس . ولذلك كان ملوك الفرنجة يرحبون دائما بأى طلب للمساعدة ، يقدم لهم سواء من الجانب الاسلامي أم المسيحي^(١٢٥) .

وقد حالف الملك الفونش الثاني (١٧٥ - ٢٢٧ هـ / ٧٩١ - ٨٤٢ م) الامبراطور شارلمان وابنه لوبس النقي ، كما حالف البشكنس أيضا ، وذلك لتعزيز هجومه ضد الحكم (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢١ م) وابنه من بعده الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م) وكان من نتيجة التواجد الفرنسى أن سقطت برشلونة في يد الفرنجة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، وقامت إمارة قطلونية أو المارك الأسباني التي كان يحكمها أمراء من قبل ملوك الفرنجة مباشرة . كما استطاع هؤلاء الملوك بث نفوذهم في تلك الامارة الصغيرة التي قامت على سفوح جبال البرنات مثل إمارة سوبراب Sobrarbe وسردونيا

(١٢٥) عن الصراع بين مسلمى الأندلس على السلطة واستعانتهم بالفرنجة ، انظر ، الرازى برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٠ ، ٢٤ .

ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ،

Dozy, op. cit., pp. 204-206.

للعينى ، عقد الجمان ، ج ٢ ورقة ٢٩٨ ، ٢٣٥ ،

Serdonia التى يسمى العرب أهلها باسم السرطانيين ومثل إمارة
أرغونة وغيرها (١٢٦) .

وكان هذا الوجود الفرنسى مفيدا لنصارى الشمال الأسباني ،
فقد أصبحت إمارة قطالوننة بموقعها خلف الثغر الأعلى الأندلسى من
جهة الشرق مثل الشوكة فى ظهره ، كما أصبح الوجود الفرنسى فى
الشمال ملاذا يحتوى به نصارى هذه المنطقة إذا ما حلت بهم الهزيمة أو
طاردتهم قوات المسلمين . لكن هذا لا يمنع من القول بأن كل وحدة
فى شمالى أسبانيا كانت تعمل لحسابها الخاص . ولذلك لا نندهش إذا
رأينا المسيحيين يحاربون المسلمين وايضا يحاربون المسيحيين
الآخرين (١٢٧) .

خذ مثالا على ذلك ، نبرة النصرانية وتحالفها مع بنى قسى المسلمين
ضد ملوك الجالقة النصارى ، وخذ حملة شرلمان على الثغر الأعلى
الأندلسى عام ١٦١ هـ / ٧٧٨ م . وسواء أتت تلك الحملة باستدعاء
من المسلمين أم من المسيحيين ، إلا أن المسلمين تخلوا عن مساعدتها ،
بل وقتلوا ولم يسمحوا لها بدخول سرقسطة . كما أن المسيحيين
من شعب الباسك أغاروا على مؤخرة جيش شرلمان أثناء انسحابه
عبر ممرات جبال البرنات الغربية قرب نبرة والبشكنس ، وكبدوه خسائر
فادحة ، وقتلوا رولان الذى نشأت بسببه أنشودة رولان المشهورة (١٢٨) .

وكان هذا عاملا من عوامل الضعف أفساد منه المسلمون وخاصة فى
العصور التالية ، ولو لم يقم ملوك أقوياء فى جليقية من أمثال الفونش

(١٢٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤ ، ١٠٣ .

Chopman, op. ct., pp. 55,65.

Chapman, op. pp. 56.

(١٢٧)

(١٢٨) أرسلان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٢ . Chapman, op. ct., p. 43.

لبن بول ، قصة العرب فى أسبانيا ص ٣٠ ، ٣١ .

الأول والثاني والثالث المعاصرين لمعظم أمراء بنى أمية ، واستطاعوا أن يلموا شمل النصارى بالقوة ويدفعوا العرب عن بلادهم ، لمسا قامت لهم قائمة ، ولو لم ينضو نصارى الشمال تحت لواء هؤلاء الملوك الذين لم ينازعهم أحد بصفة جدية حيث كانت مملكة نبرة في طور النشأة ، لكان الخطر على النصرانية نفسها عظيما (١٢٩) .

هذه لمحة سريعة عن أحوال نصارى الشمال الأسباني وما كان فيها من عوامل قوة ، كفلت لهم الدفاع عما نبقى لهم من بلادهم ثم الهجوم على المسلمين واستعادة بعض أراضيهم حتى وصلت هجماتهم في عهد الفونبس الثالث خلف نهر التاجة ، وأصبحت المنطقة الواقعة بين نهر دويرة والمندجو جزءا من ممتلكاتهم . وهناك أيضا عوامل ضعف استغلها المسلمون واستطاعوا أن يوقفوا هذا الزحف النصراني ويردوه على أعقابهم ، ويستعيدوا جزءا مما فقدوه في عصر الولاة ، ويتبادلوا الهزائم والانتصارات مع نصارى الشمال .

لكن نصارى الشمال استطاعوا في الفترة الأخيرة من عصر الإمارة الأموية أن يفرضوا أنفسهم ، وأن تصل هجماتهم حتى مدينة ماردة على وادي يانة في الجنوب الغربى من الأندلس ، وأن يثيروا الاضطرابات في طليطلة وماردة وقرطبة ذاتها ، حتى بات أمر الاسلام في كفة الميزان ، ولم ينقذ تلك البلاد الا زعيم مقتدر هو عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م) .

والآن بعد أن القينا نظرة عامة على أحوال بلاد الأندلس في عصر إمارة بنى أمية ، وعلى أحوال بلاد الشمال الأسباني وعرفنا عوامل النصر والهزيمة عند كل من الطرفين المتصارعين على أرض شبه الجزيرة أصبح الآن حديثنا عن الصراع نفسه واجبا . لكن ما هي طبيعة هذا الصراع ؟ وهل كان صراعا عسكريا مستمرا ، أم تخللته فترات من السلام والهدوء تبادلا بينها السفارات والبعثات ؟ هذا هو ما سوف نتحدث عنه في الفصل الثالث من هذا الباب .

(١٢٩) محمد كرد على ، المرجع نفسه ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الفصل الثاني

مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وأشبانيا النصرانية في عصر خلفاء بني أمية

منذ أن وطئت أقدام عبد الرحمن الداخل أرض الأندلس وحتى قيام خلافة عبد الرحمن الناصر (١٣٨ - ٣١٦ هـ / ٧٥٥ - ٩٢٨ م) قام صراع طويل بين مسلمي الأندلس ونصارى الشمال الأشباني لم يتوقف الا لفترات قليلة . وما كان له أن يتوقف اذا عرفنا دواعي هذا الصراع وأهدافه . ولو وضعنا يدنا على أسباب هذا الصراع ودواعيه لعرفنا بكل بساطة طبيعته أو دلوله ومفهومه السليم .

أ - طبيعة الصراع بين أمراء بنى أمية وبين نصارى الشمال الأسباني وأسبابه :

بادئ ذي بدء ، نقول أن مسلمى الأندلس لم يكن هدفهم من هذا الصراع الذى قاموا به ضد نصارى الشمال الأسباني إبادة هؤلاء النصارى أو تحطيم دولهم وإزالتها من الوجود . وذلك لسبب بسيط هو أن معظم الحملات التى قاموا بها لم تكن إلا رد فعل لاعتداءات النصارى على الثغور الإسلامية أو مناطق الحدود المجاورة لهم . صحيح أن حملات المسلمين اتخذت شكلا تقليديا وزمينا ثابتا ، وهو إرسال صائفة كل سنة تقريبا ، وربما كانت هناك شتاتية ، لكن لم يكن ذلك إلا دفعا لخطر النصارى أو إرهابا لهم ، وتأمينا للحدود الإسلامية التى لم تكن حدودا ثابتة على الدوام . وهذا النوع من الحرب يسمى الآن فى المصطلح الحديث بالحرب الوقائية .

فالمسلمون اذن كانوا يريدون التعايش مع جيرانهم ولم يهدفوا الى القضاء عليهم . وهناك من العوامل التى اثرنا اليها فى تحليلنا لأحوال الدولة فى عصر الإمارة ما يؤكد هذا الاتجاه ، اذ كان الأمويون مشغولين فى تثبيت أمرهم والقضاء على الفتن وحركات التمرد الداخلية التى لم يخل منها عصر أى أمير من أمراء بنى أمية ، زد على ذلك هذا الانقسام أو الانشقاق الخطير فى كيان المجتمع نفسه وانقسامه الى بربر وعرب ومولدين ونصارى وأواخر عصر الإمارة ، وقيام كل فئة من هذه الفئات أو كل قوم من هؤلاء الأقوام بتثبيت سلطانه وإعلان استقلاله ، ومحاربه السلطة المركزية فى قرطبة بهدف القضاء عليها .

وإذا كان أمر هذا التعايش مع نصارى الشمال صحيحا ، فما هو هدف « الجهاد » الذى كان يعلنه أمراء بنى أمية ويصبغونه بالصبغة الدينية ؟ المعروف أن الجهاد فى سبيل الله يستهدف أمرين ،

أولاهما نشر الاسلام في أرض لم يدخلها الاسلام ، وثانيهما هو الدفاع عن أرض دخلها الاسلام . وفيما يبدو كان الهدف الثاني هو الذي كان يشغل بال أمراء بنى أمية وخلفائهم ، أما نشر الاسلام ، فانهم داخل الأندلس نفدوها ، لم يجبروا أحدا على اعتناقه ، ولم تكن هناك فرصة لقيام هجمات اسلامية ضد نصارى الشمال بهدف نشر الاسلام فيما بينهم ، خاصة بعد أن تحطمت محاولاتهم وراء جبال البرنات ولم يجنوا من وراء ذلك الا اعطاء الفرنجة الفرصة ليتدخلوا لمصلحة النصارى في الصراع الدائر بينهم وبين المسلمين .

كانت حركة الفتوحات بقصد نشر الاسلام قد توقفت في عصر الامارة وقنع المسلمون بما وضعوا عليه أيديهم من بلاد ، وأخذوا في تنظيم شؤونهم وترتيب أوضاعهم حتى ينعمسوا بثمرات الفتح ويستريحوا من هذا العناء الطويل والجهد العظيم الذي بذلوه منذ الفتح . ولم يكن الاستمرار في حركة الفتح ممكنا لدولة مثل الأندلس بالذات ، وهى دولة منقطعة عن غيرها من دول العالم الاسلامى الذى كان يعاдиها ويقف لها بالمرصاد . اذ كان العباسيون والأغالبة والأدارسة والفاطميون يقفون موقف العداء من بنى أمية في الأندلس ، وهذا أمر معزوف وليس يخاف على أحد^(١) .

على هذا الأساس يمكن أن نقول ونحن مطمئنون تماما أن هدف مسلمى الأندلس من حملاتهم المتتابعة في عصر الامارة وحتى الخلافة، هو توفير الحماية والأمن للمواطنين الذين يعيشون في مناطق النغور الاسلامية . كان هذا هو الهدف الرئيسى من حملات المسلمين ، وما عدا ذلك فهى أهداف ثانوية تدعم الهدف الأساسى ولا ترقى الى مستواه .

وهناك مثلا من يقول أن من الأهداف ، زرع هيبة المسلمين في نفوس أعدائهم واذلال هؤلاء الأعداء واجبارهم على الاستسلام حتى يقدموا

(١) ابن خلدون ، مقدمته ، ج ٢ ، ص ٧٠١ .

فروض الطاعة والولاء والجزية ، وهدم حصونهم المثامة على الحدود الإسلامية ، أو الاستيلاء عليها واسكانها بالمسلمين ، وتخريب أراضي العدو والتوغل فيها ، واجباره على تنفيذ شروط الصلح المعقودة اذا حاول الاخلال بها ، وتلبية نداء ملوك النصارى الموالين لقرطبة في حالة خلعهم من عروشهم^(٢) .

كل هذا صحيح ، لكنه يدخل ضمن الهدف الاساسى ، وهو توفير الأمن والأمان لمسلمى الأندلس . ولتحقيق ذلك قام أمراء بنو أمية بحملات ضد نصارى الشمال ، لا بقصد ابادتهم ، فلم يعد ذلك ممكنا بعد أن قامت دولة جليقية ودولة نبرة ، ومن ورائهما الفرنجة يمدونهما وقت الحاجة ، كما كانوا يمدون أيضا امارة قطالونيا ، تلك الشوكة التى زرعها الفرنجة في ظهر الثغر الأعلى الأندلسى . فكان هدف الحملات الإسلامية هو التأديب أو الارهاب واجبار هؤلاء الناس على التعايش معهم جميعا يعيشون على أرض اسبانيا .

وكان نصارى الشمال يستجيبون أحيانا ، وتتعدد مظاهر هذا التعايش من مصاهرات تتم بين ملوك الأسبان وبين ملوك الأندلس وأمراءه وجنوده وغيرهم ، ومن تبادل للبعثات والمتاجر ، وارسال الطلاب المسيحيين لتلقي العلم في قرطبة الى غير ذلك مما سوف نتعرض له في الباب الرابع . وعلى هذا الأساس لم يكن هناك تعصب دينى من مسلمى الأندلس ، ولم يكن هذا الطابع ملحوظا حينما كان التفوق في جانب اسبانيا المسلمة أيام الدولة الأموية ، وكان قاصرا على جماعات الفقهاء من ناحية وعلى القساوسة والأخبار من ناحية أخرى^(٣) .

كان هناك فقط حث على الجهاد وتقوية للروح المعنوية عند المسلمين . واتخذ ذلك مظاهر شتى ، لكنها جميعا لم تكن تعصبا

(٢) هشام أبو رمله ، نظم الحكم في الأندلس ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٣) عيان ، جهنم الأندلس ، العصر الرابع ، ص ٥٥ .

بقصد القضاء على النصرانية كدين ، كلا ، فان ديننا يعترف بجميع الأديان والرسل والأنبياء بل ويوصينا بأهل الكتاب . وكان من مظاهر الحث على الجهاد ، الخطب الدينية وصيحات خاصة يقولها المجاهدون أثناء القتال ، والتحدث عن قوة ضربات السيوف الاسلامية لالقاء الرعب في قلوب الأعداء(٤) .

وكان هناك من القضاة والفقهاء من يشتركون في الجهاد والغزو بل ويعتقد لهم اللواء على جند احدى الكور ، كما حدث مع القاضي الفرّج بن كنانة والقائد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، حيث عقد لهذا القائد على جند شذنة لقتال جليقية . وكان هناك أيضا من يأتى الى الأندلس من بلاد المشرق الاسلامى والشمال الأفريقى من العلماء ممن يتطوعون للجهاد ، باعتبار أن الأندلس كانت ثفرا اسلاميا(٥) .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن بعضا من علماء الأندلس استباحوا لأنفسهم وضع « أحاديث » ونسبوها للرسول ، فيها حض الناس على الجهاد والغزو والرباط ، وقد أشار الى ذلك الضبى وأورد محمد الشطيبى المغربى حوالى حيسة عشر حديثا في هذا المعنى منها أن « الاسلام سوف يبقى في الأندلس حتى تقوم الساعة » ، وأن « رباط يوم ليلة في الأندلس خير من اثنتى عشرة حجة بعد الفريضة » ، « وفي آخر الزمان يغشاهم عدوهم فيقتلهم على فراشهم وتسبى زرايعهم وتخرب

(٤) أحمد مختار العبادى ، صور لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس ،

ص ٩٠ - ٩٢ .

(٥) النباهى ، تاريخ مصابى الأندلس ، ص ٥٤ .

الصلى ، بغية النظمس ، ص ١٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

ابن الزبير ، صلته الصلة ، ص ١٧٠ ، ابن خلدون ، مقدماته ، ج ٢ ، ص ٧٠١ .

مساجدهم » ، الى آخر هذه الاحاديث التي قيلت لتشجيع اهل الاندلس على الصمود والتبسات أمام غزوات النصاري (٦) .

وكان هناك مجال تفوق فيه العرب وهو الشعر ، فكان الشعراء يصحبون الجنود ويصفون المعارك ويبثون الحمية في قلوبهم ، ويعودون يرددونها في الطرقات والميادين والشوارع مما يثير اعجاب الناس أما اذا دعا داعى القتال وهرع الناس للالتحاق بالجنود ، امتنع هؤلاء الذين يمشون في الاسواق ينشدون الازجال والاشعار عن الانشاد ، الا اذا كانت تثير في الناس الحمية ، وتزرع فيهم حب القتال . (٧) .

وبلغ من تشجيع الدولة والعلماء للجهاد أن الامام مالك ومذهبه كما هو معروف هو السائد في المغرب والاندلس ، أفتى بأن يكون الجهاد والغزو كفارة لحد القتل اذا امتنع أهل القتل عن القصاص أو أخذ الدية من القاتل ، فما عليه الا أن يتوجه للجهاد فيغزو فيقتل . كما أن الدولة قامت من جانبها وفرضت ضريبة سبى « الطبل العام » وأخرى تسمى « ضريبة الحشد » لإعانة بيت المال على الصرف على تلك الغزوات المتلاحقة ضد نصارى الشمال ، كما كانت تخصص العشور لنفقات الجنود ، وكانت تخزن في خزائن واسعة لوقت الحاجة (٨) .

هذه مجرد أمثلة لحب الناس للجهاد الذي كان هدفه هو الدفاع عن أخوانهم من مسلمى الثغور ، وكانت الدولة بصفة عامة تريد التعايش مع نصارى الشمال . فهل قبل هؤلاء بهذا التعايش الذى طلبه المسلمون ؟

(٦) الضى ، بغية النملس ، ص ١٤ .

محمد الشطيطى المغربى ، الجمان فى أخبار الزمان ، ورقة ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٧) ابن عبدون ، ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة ، ص ١١٣ .

بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلس ، ص ٣٧ .

(٨) العذرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١٢٥ ، النهاى ، المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

ابن حجة ، المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ١٣٦ .

المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢١١ ، ٢١٤ .

الحواب ، لا . لم يقتل نصارى الشمال بالنعاش جنباً الى جنب مع مسلمى الأندلس . كلف ذلك وهم يعتبرونه شعباً اجنبياً يعنى ديناً بخالف عقيدة الكاثوليكية التى يؤمنون بها ويتعصبون لها . فماذا كان هدفهم اذن ؟

منذ أن قامت دول الشمال النصرانى فى اسبانيا ، وجد معها منذ قيامها الحافز على قتال المسلمين . فقد قامت أولاً للدفاع عما تبقى لها من أرض شبه الجزيرة ، ونظور الدفاع الى الهجرم المشد فى النصف الاخير من عمر الامارة ، وصار هجوماً طاعياً بعد سقوط الخلافة الاموية فى قرطبة . وكان هدف الهجوم هو الأرض ، هو استعادة أرض شبه الجزيرة التى سيطر عليها المسلمون منذ أيام طارق بن زياد وموسى بن نصير

واتبع نصارى الشمال أساليب مختلفة لتحقيق هذا الفرض . اتبعوا أسلوب الحرب السافرة وجهاً لوجه ، وتحريض المولدين ، وإثارة الفتنة بين النصارى والمسلمين ، واستعداد الفرنجة على المسلمين ، وحرب العصابات وحرب الاستنزاف والانهك . وكانت معظم حروب النصارى من هذا النوع الأخير ، يضربون ضربة هنا ، وأخرى هناك ، فيقوم الأمير الاموى وينفق آلاف الدنانير ويجند آلاف الجنود ، ويقود جيشه بنفسه أو بواسطة أحد أولاده أو أخوته أو أحد قواده ويسير آلاف الأميال ، حتى إذا وصل الى منطقة الثغور يجد النصارى قد هاجموا أحد الحصون ودمروه ونهبوا ما فيه ومأحوله من قرى ، ثم لاذوا بالفرار

ولاشك أن هذا كان يكلف خزانة الامارة الاموية كثيراً من الاموال وبجهد مواردها أشد الجهد ، لكنها كانت مضطرة ازاء هذا السيل من الهجمات التى كان يقوم بها نصارى الشمال على ما يجاورهم من ثغور المسلمين . وكان حاكم قرطبة مسئولاً عن توفير الحماية هؤلاء ، ولو بوائى لقسام عليه الفقهاء والعامة واتهموه بالتفريط فى حفظ ديار الاسلام وهو اتهام دينى خطر لا ينحمله أى حاكم فى ذلك الوقت . وتحكى

لنا المصادر أن أحد حكام قرطبة من بنى أمية قام باحدى غزواته انقاذاً لامرأة مسلمة أسرها النصارى واستغاثت به وانهمنه بالتوانى عن انقاذها من أيديهم (١) .

وكان هذا ما يهدف اليه نصارى الشمال ، وهو اجهاد مسلمى الأندلس وخلق المشاكل أمامهم سواء داخل الأندلس نفسها أم على حدودها حتى يحين الوقت المناسب لتوجيه ضربات عانية تقنلهم من الأرض . . أرض الأسبان . حدث هذا عدة مرات فى عصر الإمارة ، وخاصة فى عهد الفونس الثانى والثالث حينما كانت حكومة قرطبة مثغفولة بالقضاء على المتمردين عليها من العرب والمولدين ونصارى أهل الذمة .

كان هذا هو هدف الاسبان من حربهم ضد مسلمى الأندلس ، وهذا هو أسلوبهم . فماذا يقول المؤرخون عن هذه الحرب ؟ هناك من يقول بأن حروب الاسبان هذه كانت حرباً دينية تستهدف نصره الكنيسة وهزيمة الاسلام ، ومن يقول بأنها كانت حرباً قومية تستهدف استرداد الوطن السليب ، ومن يقول بأنها جمعت بين الدين والقومية ، ومن يقول بأنها كانت حرباً لاتستهدف الا الحصول على أرض الكنيسة والتساج وليس هدفها الاسترداد أو تحرير البلاد .

اما القول بأنها كانت حرباً دينية أو مقدسة أو صليبية فأمر يحتاج الى وقفة . ذلك لأن المسلمين لم يعندوا على مقدسات النصارى فى الأندلس حتى يدعوا هؤلاء الى حرب صليبية كما دعا اليها نصارى الغرب فيما بعد بهدف انقباد بيت المقدس أو قدس الاقداس من يد هؤلاء المسلمين المتعصبين الدين اعتدوا — بزعمهم — على حرية الاماكن المقدسة فى أورشليم ومنعوا زيارتها وقتلوا حمانها . . . فشانتت ياقب (القديس يعقوب) ، وهو المزار المقدس عند الاسبان كان فى يدهم وتحت سيطرتهم ، وحتى عندما استطاع المسلمون فى عهد المنصور بن أبى عامر

(٩) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

الوصول اليه عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، لم يمسوا هذا المزار بأذى ، نعم ، دبروا المدينة وهدموا الكنيسة ، لكنهم حافظوا على قبر هذا القديس الزعموم بل وعينوا هناك من يحرسه (١٠) .

وحتى قصة القديس يعقوب نفسها لم تظهر منذ أن بدأت حرب الاسترداد في بداية عصر الامارة الاموية . ولم تأت هذه القصة الى الوجود الا في عهد ملك جليقية (ليون) الفونش الثاني (١٧٥ — ٢٢٧ هـ / ٧٩١ — ٨٤٢ م) ، وبالتحديد في عام ١٩٧ هـ / ٨١٣ م ، أى في أواخر القرن الثاني الهجري ، وبعد أن كان قد مر على قيام الحكم الاسلامي في الاندلس ما يزيد على قرن من الزمان . هي قصة اخترعها الرهبان مع الفونش الثاني لكي يثيروا النصارى ويدفعوهم للاستماتة في القتال ضد المسلمين (١١) واخترعوها ليعالجوا هذا الصدع الذي هدد المذهب الكاثوليكي بسبب ما ذهب اليه أسقف طليطلة من مذهب يخالفه ويناقضه أشد المناقضة ، واخترعوها أيضا لكي تستطيع العقيدة الكاثوليكية — بفضل الطقوس الجديدة للقديس يعقوب — الوقوف أمام عقيدة الاسلام الواضحة ، سواء في فكرة الألوهية أم في سائر ما احتوت عليه من مفاهيم اخلاقية أو عبادات ومعاملات . ووجد الاسبان في قصة القديس يعقوب الملاذ الذي بلجأون اليه للخروج من هذا المأزق الذي وضعتهم فيه شريعة الاسلام الغراء (١٢) .

هذا ولم يقدم الينا التاريخ أحداثا مؤكدة نشأت بسبب هذه الطقوس الخاصة بقصة القديس يعقوب ، لكن الخطر ليس في القصة ذاتها ، ولكن في تصديق الناس لها واعتقادهم فيها ، ذلك الاعتقاد الذى أصبح اعتقادا حريبا لدرجة أنه حرك الرجال لكي يقوموا بأعمال لا يمكن تصديقها . ويبدو أن القول بأن الاساطير تحرك الانسان

Crow; op. cit, p. 85

(١٠)

Crow, op. cit, p. 83

(١١) انظر ، الفصل الثانى ، الباب الاول ، ص

(١٢)

في التاريخ بقوة أكثر من الأحداث الواقعة هو قول صحيح الى حد كبير وخاصة في مثل ذلك الزمن ومثل هذا الصراع الذي نتحدث عنه^(١٣).

والأسطورة تقول بأن القديس يعقوب العظيم بن زبدي (أو زبدي Zebedee — أحد الحواريين الاثنى عشر — أنى الى أسبانيا لينشر المسيحية ، وظل هناك لمدة ست سنوات ثم عاد الى اورشليم حيث صلبه الملك هيرود Herud واستطاع تلامذه المخلصون أن يخفوا جسده وأن يضعوه في سفينة وصلت به الى أسبانيا ، ونزلوا به هناك في الميناء الروماني القديم Ira Flavia على ساحل جليقية ، ثم ذهبوا به الى موقع مدينة شنت ياقب (سنثياجو) الحالي حيث دفنوه هناك . وكان القبر مكانا يحج اليه الناس لمدة سنوات ، لكن عندما ازداد الاضطهاد الروماني للمسيحيين الاسبان ، أهملت تلك البقعة ونسيها الناس مدة ستة قرون . (١٤)

ويستطرد صاحب الرواية قائلا أنه في عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ادعى راهب كان يعيش في تلك المنطقة بأنه رأى نجما بسطع فوق شجرة بلوط عدة ليال متتالية ، وبذهابه الى هناك مع أسقف المنطقة ، وجد مقبرة بها رفات ثلاثة أشخاص ، أحدهم مقطوع الرأس ، فافترضوا أن هذا هو قبر القديس يعقوب ، وأخبرا الملك الفونس الثاني (١٧٥ — ٢٢٧ هـ / ٩٧١ — ٨٤٢ م الذي ذهب الى هناك مع رجال بلاطه وأمر ببناء كنيسة على الموقع . وعرف البابا ليو الثاني Leo بالحادث وقيام بإعلانه في رسالة له الى العالم أجمع ، وكان ذلك الأمر كان مجهولا من البابوية ولم تعرف من قبل أن أحد الحواريين العظيم يرقد جدته في أرض أسبانيا (١٥) .

Crow, op. cit, p. 83

(١٣)

Crow, op. cit, p. 83

(١٤)

Crow, op. cit, p. 83

(١٥)

ويشكك صاحب هذه الرواية في معرفة أى من هذه الهياكل العظمية الثلاثة هو للقديس يعقوب ، لان عظامها كانت مختلطة وموضوعة معا فى صندوق واحد . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد أنكر تلك القصة برمتها مؤرخوا الكنيسة الرومان وعلى رأسهم يوسابوس القيصرى الذى عاش فى العصر الاولى لانتشار المسيحية (٢٦٤ - ٣٤٥م) والذى يعتبر حجة فى تاريخ الكنيسة ، كما أنه من أقدم المؤرخين وأسبقهم فى هذا الموضوع واليه يرجع المؤرخون قديما وحديثا .

فقد استعرض ذلك المؤرخ تاريخ القديس يعقوب حتى لحظة استشهاده بأرض فلسطين فى اورشليم ثم قال « ولما استشهد دفنوه فى الحال بجانب الهيكل ، ولا يزال قبره بجوار الهيكل » (١٦) ويقول مؤرخ مسيحى آخر بأنه من المرجح أن يعقوب لم يفارق اورشليم بل بقى فيها حتى نال الشهادة على يد هيرودس أجريباس عام ٤٤ م ، ولذلك يشك فى صحة ماتدعيه الكنيسة الاسبانية من أنه بشر عندهم بالمسيحية (١٧) . كان هذا فى النصف الاول من القرن الرابع الميلادى ، فى حين تقول الاسطورة بأنه نقل الى أسبانيا فى بداية القرن الثالث الميلادى . فهى تقول بأنه نقل الى هناك وظل ستة قرون منسيا ، ثم أكتشف قبره عام ٨١٣ م أى أنه نقل فى بداية القرن الثالث الميلادى (١٨) .

على أية حال فقد استغل ملوك الشمال الاسباني تلك الاسطورة استغلالا سياسيا ، وأعلن ردمير (رامبرو) الاول ابن الفونس الثانى (٢٢٧ - ٢٣٥ هـ / ٨٤٢ - ٨٥٠ م) أنه رأى أثناء الليل القديس يعقوب ووعدته بالتصريح فى معركة ضد المسلمين ، وأنه كان يخطى جوادا أبيض ويحمل علما أبيض وصليبا أحمر ، وأعلن له القديس يعقوب أن

(١٦) يوسابوس القيصرى ، تاريخ الكنيسة ، ص ٩٦ - ٩٩ .

(١٧) عيسى أسعد ، الطرفة النقية ، ص ١٣ .

(١٨) يوسابوس القيصرى ، تاريخ الكنيسة ، ص ٩٦ - ٩٩ .

الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية في أسبانيا مسئولية الشخصية ، وأنه حضر ليقود الاسبان في ميدان المعركة ويذهب الخيال بالملك حتى يقول أن القديس بين له كيف ينظم قواته (١٩) .

أذاع ردمير الاول تلك الرؤيا على جنوده وكانوا منهزمين في اليوم السابق ، فاندفعوا وألقوا بأنفسهم على المسلمين مهلين بأعلى صوتهم "Eantiago Cierra Espana" أي أن القديس يعقوب هو حامى أسبانيا ، وهاجموا المسلمين في قوة ، ففر هؤلاء تاركين الميدان غاصا بجثث قتلاهم (٢٠) .

حدثت هذه المعركة كما تدعى الرواية النصرانية عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م وتسميها معركة Clavigo ، وفيها تم النصر للملك ردمير الاول بفضل القديس يعقوب . لكن لم يشر الى تلك المعركة مصدر عربى واحد من مصادرنا القديمة ، فهي تحدثنا عن معارك بين عبد الرحمن الاوسط وبين موسى بن موسى بن قسى في تطيلة بأرض الثغر الأعلى (سرقسطة) عام ٢٢٨ م ، وتقول أن عامله على أشبونة أرسل له بظهور سفن المجوس (أي النورمان الشماليين) ثم بتحدث عن غزوة لعبد الرحمن الاوسط في جليقية عام ٢٣١ هـ ٨٤٥ م ، وأنه حاصر مدينة ليون ، وأنه أحرقها ، ولم يتمكن من هدم سورها بسبب عظم سمكه ، فتركه وعاد (٢١) .

أذن كانت الاندلس كلها — شمالها وجنوبها — مشغولة في هذا الوقت عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م بدفع خطر النورمان الذين كانوا يغيرون

Crow, op. cit, p. 84 (١٩)

Crow, op. cit, p. 84 (٢٠)

(٢١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣٠ ، ١٣٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٩ .
المقرئ ، مع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

على أراضي النصارى والمسلمين . وكان ردمير منشغولا بالقضاء على حركة الأشراف الذين ظلوا في ثورة ضده منذ وفاة والده عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٢ م حتى عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م .^(٢٢) وعلى هذا الاساس فاننا نميل الى عدم تصديق المصادر النصرانية التي حدثت بتلك الواقعة عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م وأظهرت ما قام به القديس يعقوب حتى تم النصر فيها للمسيحيين .

ومنذ ذلك الوقت اعتبر المسيحيون أن القديس يعقوب هو نصير إسبانيا ، وأنه هو الحامي الخاص للجنود المسيحيين ، وأنه قاتل المسلمين Santiago Matamores وأعطى اعتقاد المسيحيين في هذا القديس العقيدة الكاثوليكية الاسبانية وحدة متينة في العصور الوسطى بعد أن كانت قد تعرضت للانشقاق^(٢٣) .

فنصارى الشمال اخترعوا الاسطورة عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م واخترعوا ذلك النصر المزعوم الذي تم بسبب تلك الاسطورة ، لتحقيق الاهداف التي تحدثنا عنها من قبل . وربما كان أفضل من ذلك في تحقيق تلك الاهداف ادعاء نصارى الشمال بأن النصارى من أهل الذمة المقيمين بالاندلس الاسلامية يعانون اضطهادا دينيا ، وأن كنائسهم بهدم ويمنعون من ضرب النواقيس ، ويعاملون معاملة سيئة ، وأنه صار من الواجب انقاذهم ، ولاينم ذلك الا باستعادة الارض التي كانوا يعتبرونها أرضا مغتصبة ، قال نصارى الشمال بلك الادعاءات معلا وشجعتهم البابوية وملوك الفرنجة على ذلك ، ومن هنا جاءت الصفة الدينية التي خلعها البعض على حروب الاسترداد^(٢٤) .

(٢٢) محمد عبد الله عيان ، المرجع نفسه ، ص ٦٠ ، ٦١ .

Crow, op. cit, p. 84

(٢٣)

(٢٤) أنظر ، الفصل الثانی من الباب الأول ، ص

وقد أسرف بعضهم في القول حتى قال بأن « جميع الحروب النى نشبت في أسبانيا لم تشتعل جذوتها الا باسم الدين ، وأن المسيحيين بدأوا حروبهم المقدسة تقريبا منذ بداية الغزو الاسلامى وحتى سقوط غرناطة عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢ م ، وأنه لم يكن رائدهم في جهادهم الطويل لاجراج المسلمين من شبه الجزيرة سوى عواطف دينية يشوبها تعصب عميق لم تألفه الجماعات الاسلامية(٢٥) .

وصبغة الحروب الصليبية التى خلعتها هؤلاء وغيرهم على حروب الاسترداد يجيها خلاف ما ذكرنا في نقض اسطورة القديس بعقوب وما تبمها من أساطير - امر في غابة الأهمية ، وهو أن الحرب الصليبية لايعلنها الا البابا فهو الرئيس الأعلى للمسيحية ، في حين أن أسبانيا النصرانية لم تعترف بسلطة البابوية واشراقها على الكنيسة الاسبانية الا عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م ، في حين أن أولئك المؤرخين أطلقوا صفة الحرب الصليبية على حروب الاسترداد منذ بدايتها في النصف الاول من القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى (٢٦) .

وهذا بالطبع غير صحيح ، وربما ينطبق هذا الوصف على تلك الحروب في عصورها الاخرة بدءا من القرن الخامس الهجرى حينما صار الصراع بين مسلمى أسبانيا ونصارها صراع حباة او موت ، وخاصة بعد أن تدفق على شبه الجزيرة المرابطون والموحدون الذين أثاروا الحماس الدينى في هذه المنطقة ، في الوقت الذى أثارت فيه البابوية في روما الحماس الدينى المسيحى في أوربا ، وقامت بأولى حملاتها الصليبية في المشرق في أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى(٢٧) .

(٢٥) عوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٦٠٥ ،

محمد على كرد ، عابر الأنطلس وحاصرها ص ١٩٦

محمد عبد الله عسان ، ناريج العربى في أسبانيا ص ٢٢

Chapman, op. cit, p. 53

(٢٦) محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية في الشرق والغرب ، ص ١٣٩ .

Grow, op. cit, p. 86

(٢٧)

هذا مجمل القول في أن حروب الاسترداد كانت حربا صليبية ، أما كونها كانت حربا قومية ، فانها لم تكن كذلك على الاقل حتى بداية حكم آل شانجه الكبير اكل أسبانيا النصرانية بدءا من عام ٤٢٦ هـ . والدليل على ذلك أن نصارى الشمال لم يطلقوا اسم « أسبانيا » على شبه الجزيرة كلها ولم يطلقوه على بلادهم التي تقع في شمالي «أسبانيا» فكسانوا لا يعرفون سوى أنهم يعيشون على أرض نبرة أو أشتريس أو قشتالة أو لبون أو أرغنة . أما لفظ أسبانيا فكسان يطلقونه على الجزء الجنوبي الذي يقع جنوب جبل الشارات . فهذا الجبل كان بقسم شبه الجزيرة الى منطقتين : قشتالة في الشمال وأسبانيا في الجنوب . أما لفظ الأندلس فكانوا يجهلونه جهلا تاما(٢٨) .

وقد سبق أن أشرنا الى أن الناس كانوا متعصبين لاقاليهم فهذا قشتالي وذلك لبوني والآخر يفخر بأنه من الباسك وهكذا لدرجة أنهم أحيانا كانوا يدخلون في حروب ضد بعضهم البعض متحالفين مع المسلمين فلو كانت تجمعهم قومية أسبانية لما حدث هذا ، لأنه لم يكن هناك فعلا الهام قومي أو شعور بوطن أسباني يدفعهم لقتال المسلمين ، ولم يكن هناك الا حرب النبلاء ورجال الاكليروس من أجل استعادة أراضيهم وضياعهم وحرب الملك من أجل استعادة سلطته الملكية على شبه الجزيرة(٢٩) .

لم تكن فكرة القومية ذاتها قد ظهرت في ذلك الوقت ، وكان يحرك الناس شعورهم باسترداد ما فقدوه وشعورهم ببهجة الغزو والفتح وما يأتي بعده من منائم وأسلاب ، ولقد تطرف البعض حتى قال بأن الاسبان لم يكن قصدهم بتلك الاغارات القصيرة العديدة الا مجرد السلب والنهب

(٢٨) الادريسي ، صفة المغرب ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، بلقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ،

ص ١٢٩ ، ١٣١ ، الملقشندى ، صبح الأعنى ، ج ٥ ، ص ٢١٣ .

ابن خلدون ، ممدته ، ج ١ ، ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

دائرة المعارف الاسلاميه ، المجلد الثالث ، ص ٣٧ .

Crow, op. cit, p. 79 Chapman, op. cit, p. 54 (٢٩)

Hdle, Spain under the moslems, p. 23

والانتقام ، وليس فتح بلادهم أو استعادتها . وربما بدا هذا القول صحيحا في العصور الاولى من حركة الاسترداد وخاصة في عصر الامارة الأموية (٣٠) .

ونحن لاننكر وجود العامل الدينى أو القومى فى حروب الاسنرداد ، لكن تلك العوامل لم تظهر منذ بداية تلك الحروب وانما بدأت نعلن عن نفسها بمرور الوقت ، وظهرت بشكل بين فى القرن الخامس الهجرى عندما مدت البابوية ومن ورائها أوربا يدها لنصارى الاسبان فى كفاحهم ضد مسلمى الاندلس .

هذا عن أهداف الصراع الذى اندلع بين نصارى الشمال الاسباني وبين مسلمى الاندلس فى عصر أمراء بنى أمية ، وعن طبيعته ودواعيه عند كلا الجانبين فماذا عن الصراع نفسه ؟

(٣٠) روبرتسون ، انحاف الملوك الألبا ، ص ١٣٨ .

ب — الصراع بين أمراء بنى أمية وبين نصارى الشمال الأسبانى :

كان الصراع بينهما فى غالبه صراعا عسكريا ، بين الشمال النصرانى وبين الجنوب المسلم ، ولنا ملاحظات نبديها قبل الحديث عن ادوار هذا الصراع الطويل .

أما الملاحظة الأولى ، فهى أن هذا الصدام العسكرى اختلف شدة وضعفنا حسب الاحوال الداخلية لكل من الجانبين والتى سبق الحديث عنها فى الفصلين الأول والثانى من هذا الباب . فعندما تكون هناك مشاكل داخلية فى الشمال ، كان الجنوب يفتيز الفرصة ويشدد هجومه والعكس صحيح . وبذلك تبادل الفريقان النصر والهزيمة ، ولم ينل احدهما من الآخر بما يقضى عليه ويزيله من الوجود .

الملاحظة الثانية : هى أن معظم الحملات التى قام بها مسلمو الأندلس فى عصر الامارة كانت تتجه أول ماتجه الى المنطقة الوسطى من الشمال النصرانى وهى التى تسمى ألبه والقلاع (قشتالة) ، وعندها يقرر القائد اما الاتجاه الى الشرق أى الى الثغر الاعلى (سرقسطة) للقضاء على المتمردين من بنى قسى وغيرهم من مولدى الأندلس الذين أعلنوا العصيان والتمرد بعد عام ٢٢٧ هـ وتحالفوا مع أمراء نبرة ، واما الاتجاه شمالا الى أهل نبرة لعقابهم على ذلك ، أو الاتجاه غربا لمهاجمة مملكة جلنقبة وأشتريس .

الملاحظة الثالثة : هى أن أمراء بنى أمية ادراكا منهم لخطورة الوضع فى مناطق التفجور أو الحدود مع الشمال النصرانى ، قاموا بتنظيم ارسال الحملات التى كانت تسمى الصوائف والشواتى ، وحفلت عهود معظم أفراد بنى أمية بارساء هذه الغزوات الى نصارى الشمال اما دفاعا أو هجوما أو ردا على هجوم قد تم أو مرتقبا حدوثه .

الملاحظة الرابعة : هي أن الإمارة في عصر الضعف ، وخاصة بعد وفاة الأمير محمد عام ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م وانقسام البلاد على النصارى الذى أشرنا اليه في الفصل الأول من هذا الباب ، تركت مهمة مقاومة نصارى الشمال لأمراء الثغور من بنى قسى المولدين وبنى تجيب العرب ، بل انها قامت بعقد اتفاق سلام مع الفونس الثالث عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ، وتفرغت لقتال ابن حفصون في الجنوب .

الملاحظة الخامسة : هي أن الأوضاع الداخلية كانت تفرض على طرفى الصراع أحيانا عقد معاهدات الصلح وإقرار السلام . حدث هذا في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، والأمير عبد الرحمن الأوسط ، والأمير عبد الله بن الأوسط . لكن لا تلبث دوافع الصراع أن تتحرك عند أحد الطرفين ، فينقض العهد فتنتسب الحرب من جديد ، وغالبا كان النصارى هم الناقضون للعهد .

أما الملاحظة الأخيرة : فهي أن محصلة هذا الصراع كانت لمصلحة نصارى الشمال الأسباني . فقد أصبحت دولتهم تشمل كل ما يقع خلف نهر دوبره ، ونصف المنطقة التى تقع بين نهر ابره وجبال الأبرنات . ولو رسمنا خطا وهميا للحدود بين الجانبين ، فانه سيكون على شكل نصف دائرة تبدأ من محبب نهر دويرة في غرب الأندلس ويمشى خط الحدود مع النهر شرقا حتى شمال مدينة سالم ، ثم يصعد شمالا ويمر جنوب مدينة قلهرة التى تقع جنوب منطقة ألبه والقلاع ، ثم يصعد شمالا ويخترق نهر أبرة ويمر جنوب مدينة جاقنة ثم بأخذ في الهبوط التدريجى مرورا بشمال مدن وشقة ولاردة حتى يستقر أخيرا عند نقطة على ساحل البحر المتوسط في منتصف المسافة بين برشلونة التى يسيطر عليها الفرنجة وبين طرطوشة آخر السفور الاسلامية في هذه الناحية .

بعد هذه الملاحظات السريعة يمكننا أن نحدث عن العلاقة بين أمراء بنى أمية وبين الممالك النصرانية في الشمال الأسباني كل على حدة.

١ - علاقة أمراء بنى أمية بمملكة جليقية (ليون) :

بدأ عصر الامارة في الأندلس بحكم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م واستمر هذا الأمير يحكم مدة أربعة وثلاثين عاما ، وعاصر بذلك عهود أربعة من ملوك الجلائقة وهم فرويلا الذى بدأ حكمه عام ١٣٩ هـ / ٧٥٧ م ثم أوريليوس (١٥١ - ١٥٧ هـ) وشيلون (١٥٧ - ١٦٦ هـ) ومورقاط الذى انتهى حكمه عام ١٧٢ هـ / ٧٨٩ م ، وهى نفس السنة التى انتهى فيها حكم عبد الرحمن الداخل (٣١) .

ولم يكن الحكم مستقرا سواء في الأندلس أو في مملكة جليقية طوال هذه الفترة ، وذلك بسبب الفتن الداخلية وحركات التمرد والطمع في السلطة ، وادى ذلك الى استتباب السلام على الحدود بين جليقية والأندلس ، ولم يحدث ما يعكر صفو هذا السلام الا في الفترة من عام ١٤٦ هـ / ٧٦٤ م الى عام ١٥٠ هـ / م ثم في عام ١٦٤ هـ . وكان هذا مدعاة لقول بعض المؤرخين المحدثين بوجود اتفاقية هدنة مدتها خمس سنوات عقدت عام ١٤١ هـ / ٧٥٩ م بين « الأمير الأكرم المعظم عبد الرحمن الأول وبين البطارقة والرهبان وأهل قشتالة » ثم قولهم أيضا بوجود اتفاق بايقات الأعمال العدوانية من الجانبين في المدة ١٤٨ - ١٧٣ هـ / ٧٦٨ - ٧٨٩ م ، لأن المصادر اللاتينية والعربية لم تتحدث عن اشتباك بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة ، وأخذ بعض الباحثين والمحدثين بالحديث عن شروط تلك الاتفاقيات واستنتاج النتائج المترتبة عليها الى غير ذلك (٣٢) .

أما القول بوجود هدنة مدتها خمس سنوات في بداية حكم عبد الرحمن الداخل فقول يعوزه الدليل ، ولم تشر اليه المصادر

(٣١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ،

ج ١ ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ ،

(٣٢) حسن محمود ، تاريخ الغرب الاسلامي ، ص ٨١ ، السامرائي ، الشعر الأعلى ،

ص ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٧ .

النصرانية ولا العربية ، وكل ما هنالك هو أن هذه الفترة كانت مملوءة بالفتن ، سواء في الأندلس حيث كان الداخل يواجه هرب عبد الرحمن الفهري وثورته في طليطلة وماردة ثم مقتله عام ١٤٢ هـ وثورة أبنائه من بعده ، ثم ان عبد الرحمن الداخل كان يعاني من سقوط أربونة في يد الفرنجة عام ١٤١ هـ / ٧٥٩ م وما تبع ذلك من نتائج^(٣٣) .

أما جليقية فكان الحاكم هو فرويلا (١٣٩ — ١٥٠ هـ / ٧٥٧ — ٧٦٧ م) وكان هو الآخر يعاني من انتفاض الأشراف عليه حتى أن أخاه دبر مؤامرة ضده فقتله ، ولم يتركه الأشراف إلا بعد أن سقط فرويلا نفسه قبلا ، لكنه قبل ذلك ببضع سنوات كان قد انتهز فرصة الثورة التي أعلنها العلاء بن مغيث اليحصبي ودعونه للعباسيين عام ١٤٦ هـ وقام بالاستيلاء على مدينة لك وبرتقال وسمورة وقشتالة وشقوبية وأخرج المسلمين منها وصارت تابعة للجلالة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر مرة ثانية^(٣٤) .

وكان هذا هو اللقاء الأول بين الداخل ونصارى الشمال وكان من نتيجة ضياع هذه المعاقل الهامة واستيلاء النصارى عليها ، وقد حاول الداخل استرجاعها فأرسل حملة بقيادة مولاة بدر عام ١٥٠ هـ إلى ألبه التي تقع شرقي منطقة ليون ، فأذعن له وأدت إليه الجزية . ولم تشر الرواية الإسلامية إلى شيء أكثر من هذا ، وظل الطرفان في سلام حتى عام ١٦٤ هـ^(٣٥) .

(٣٣) ابن عذارى ، المنصور نفسه ، د ٢ ، ص ٧٣ ، ٨٥ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين .

(٣٤) ابن خلدون ، العبر د ٤ ، ص ١٢٢ ، الفلکشندى ، صبح الأعشى ، د ٥ ، ص ٢٦٤ .
المحرى ، نفح الطيب ، د ١ ، ص ١٥٥ ، Murphy, op. cit, p. 84

(٣٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، د ٢ ، ص ٨٠ ، ٨١ .

لكن المراجع النصرانية تشير الى نبأ موقعة كبيرة وقعت بين المسلمين والنصارى فى بونتومو من أعمال جليقية ، وتقول لنا أن عبد الرحمن الداخل أرسل فى عام ١٥٥ هـ / ٧٧٣ م جيشا كبيرا الى الشمال بقيادة حاجبه عامر أو تمام بن علقمة على ما يظهر ، فلقية النصارى بقيادة فرويلا فى بونتومو ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون وقتل منهم عدد عظيم تقدره الرواية النصرانية بأربعة وخمسين ألفا ، وأسر قائدهم . أورد هذه الرواية الأستاذ محمد عبد الله عنان واكتفى فى نفيها بأن الرواية الاسلامبة لم تشر الى موقعة بهذه الخطورة نشبت بين المسلمين والنصارى (٣٦) .

لقد نسى الأستاذ عنان أن الملك فرويلا نفسه كان قد مات ومن على موته حوالى خمس سنوات . كما أن ظروف جليقية نفسها لم تك تسمح بهذا النصر العظيم الذى ادعاه مؤرخو النصارى ، فقد كانت الفتنة مشتعلة فى المملكة وكانت منقسمة منذ عام ١٥٠ هـ / ٧٥٧ م الى امارتين بين أوريليوس وشيلون ، ولم تعد اليها وحدتها الا عام ١٥٦ هـ / ٧٦٧ م وكانت ظروف الداخل نفسها لا تمكنه من القيام بأى نشاط حربي فى تلك الفترة بسبب ذلك التمرد الذى قام به ذلك الدعي الفاطمى البربرى شقبا بن عبد الواحد منذ عام ١٥١ الى عام ١٦١ هـ (٣٧) .

استمر السلام اذن بين الأندلس ونصارى الشمال من عام ١٥٠ هـ حتى أواخر عهد ملك جليقية المسمى شيلون (١٥٦-١٦٦ هـ / ٧٧٣-٧٨٣ م) حيث تم توقيع معاهدة الصلح بين الجانبين ، ربما فى عام ١٦٥ هـ / ٧٨٢ م . وقد أجبرت الأوضاع الداخلية الطرفين على توقيع تلك المعاهدة ، فقد كانت هناك ثورات محلية فى جليقية ضد شيلون ، وكان هناك هجوم شارلمان على سرقسطة عام ١٦١ هـ / ٧٧٨ م بسبب تمرد

(٣٦) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، ع ١ ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

(٣٧) ابن حزم ، المصبر نفسه ، ٧٨ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٢ ،

انظر المصل الثانى ، الباب الأول .

حكام برشلونة وسرقسطه واستدعائهم له ، ثم استمرارهم في التمرد والعصيان ضد عبد الرحمن الداخل بعد فشل حملة شرلمان ، مما أجبر الداخل على أن يزحف بنفسه على سرقسطة عام ١٦٤ هـ / ٧٨١ م . فارتدع هؤلاء وصالحوه ، فسار الداخل الى مبلونة عاصمة نبرة ودخل قلهرة وبلاد البشكنس ، ثم عاد الى قرطبة محملا بالغنائم والأسلاب^(٣٨) .

كان هذا هو اللقاء الثاني بين الداخل وبين نصارى الشمال ، ولم يكن هناك اتفاق سلام واستمر واحدا وعشرين عاما كما قال البعض ، بل ان الأوضاع الداخلية هي التي أجبرت الطرفين على العيش في سلام ، ولم يكن هناك اتفاق سلام الا في عام ١٦٥ هـ / ٧٨٦ م فقط قرب نهاية عهد الملك شيلون الذي أخافته حملة الداخل على مبلونة في العام السابق ، وبعد ذلك انقسمت ملكة الجلائقة مرة أخرى بعد موت شيلون. وفي بداية عهد خليفته مورقاط (١٦٦ - ١٧٢ هـ / ٧٨٣ - ٧٨٩ م) الذي حكم جليقية بينما الفونس المطالب بالعرش تركز في الجزء الشرقي من الدولة في نبرة وحكم هناك واسنغان بالفرنجة ، فاسنغان مورقاط ضده بالمسلمين الذين يمتون اليه بصلة القرابة ، اذ كانت أمه جارية عربية^(٣٩) .

وفي الوقت نفسه كان الداخل يواجه عودة حسين الأنصاري حاكم سرقسطة الى التمرد ، وكان الداخل قد أبرم معاهدة السلام مع نصارى الشمال ، فسار اليه وقتله عام ١٦٧ هـ / ٧٨٣ م ، وقضى الداخل ببقية مدة حكمه في مصارعة أبناء يوسف الفهرى الذين كانوا قد أعلنوا الثورة ضده في قسطلونة وطليلة عام ١٦٨ ، ١٦٩ ، وظل يحاربهم حتي قتلهم عام ١٩٧٠ هـ ، وتوفي الداخل نفسه بعد ذلك في عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ م)^(٤٠) .

(٣٨) العذري ، نصوص عن الأندلس ، ص ١١ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ١١٤ ،

ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، Dozy, op, cit, pp. 204 - 206

(٣٩) انظر ، الفصل الثاني ، من الباب الأول ، ص

(٤٠) العذري ، نصوص عن الأندلس ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ،

ص ١٢٤ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٤ .

تولى الإمارة بعد الداخل ابنه هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م)
كما تولى الملك في جليقية الملك برمند (١٧٢ - ١٧٥ هـ / ٧٨٩ - ٧٩١ م)
ومن بعده الفونش الثاني (١٧٥ - ٢٢٧ هـ / ٧٩١ - ٨٤٢ م) ولم تكن
أحوال الدولتين في عهد هشام وبرمند تسمح باستئناف الصراع . ذلك
أن هشام كان يواجه تمرد أخويه عبد الله وسليمان ، ذلك التمرد الذي
انتهى عام ١٧٥ هـ . كما انتهى في نفس العام تمرد حكام سرقسطة بعد
قتل عاملها مطروح بن سليمان بن يقظان ، بعد أن أرسل هشام حملة
إليه بقيادة قائده أبي عثمان عبيد الله بن عثمان^(٤١) .

وكان هناك انقسام في البيت المسالك في جليقية ، إذ استقل برمند
بالجزء الغربي من المملكة بتأييد الأشراف ، واستقل الفونش بالجزء
الشرقي ، لكنها تصالحا بعد أن انضحت نية الأمير هشام في غزو الشمال
النصراني ، ولم يلبث برمند (برمودو) أن مات وتولى الفونش العرش
مكانه وعادت الوحدة إلى المملكة مرة أخرى .

وبعد أن استتبت الأحوال للأمير هشام تفرغ لقتال أعداء البلاد
من النصارى والفرنجة لا سيما وأنه قد مضى ما يقرب من عشر سنوات
لم يحدث أى لقاء بين الجانبين منذ حملة الداخل عام ١٦٥ هـ على
الشمال النصراني ، حتى سرت الأقوال بأن المسلمين لا يقدرّون إلا على
قتال بعضهم البعض ، وأفتى بعض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج
لأمراء لا يعرفون إلا قتال مواطنيهم من المسلمين فقط . لذلك وضع الأمير
هشام نصب عينيه أن يزيل هذا الاتهام الخطير باستئناف الجهاد ليس
في الشمال النصراني وحده ، ولكن في أرض الغال أيضا^(٤٢) .

وقد تكلت ضده قوى الشمال النصرانية من جلالقة ونافارين ، لذلك
كان الأمير هشام يرسل جيوشين في وقت واحد ، أحدهما لقتال النافارين

(٤١) العذري ، المصدر نفسه ، ص ١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٤ .

ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .

(٤٢) رينو ، تاريخ عزلات العرب في فرنسا ، ص ١٢٦ .

والثانى لقتال الجالقة . وكان يحدث أن يلتقى الجيشان بعد أن يفرغ أحدهما من معاركه ، وتعود الجيوش رافعة أعلام النصر الى قرطبة .

حدث هذا فى أول معركة بين جيوش هشام ونصارى الشمال ، فقد أرسل فى عام ١٧٥ هـ / ٧٩١ م جيشا بقيادة أبى عثمان عبيد الله بن عثمان قضى على الثورة فى سرقسطة كما ذكرنا ثم زحف على البة والقلاع ، وتمكن من هزيمة أهل نبرة وقتل منهم تسعة آلاف .

. وفى نفس العام أرسل هشام جيشا آخر بقيادة يوسف بن بخت الفارسى عن طريق الثغر الأوسط الى جليقية والتقى بالملك برمند على نهر بوريبيا Burbia فهزمه جيش يوسف وقتل من جند برمند عشرة آلاف . وعلى أثر ذلك نازل برمند عن العرش لألفونس الثانى ولجأ الى الاعتزال بأحد الأديرة كما كان شأنه قبل تولى العرش(٤٣) .

، بدأ الصراع بعد ذلك بين هشام وبين القونش الثانى عقب تولى هذا الملك عرش جليقية وأشتريس . وكان اللقاء الأول بينهما عام ١٧٦ هـ حيث أرسل هشام جيشا بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث وصل الى منطقة البة والقلاع واثخن فى العدو وعاد الى قرطبة غانما . ثم كان الزحف الكبير الى بلاد الفرنجة عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، وكان بقيادة القائد السابق الذى استطاع أن يعبر جبال البرنات من ناحية قطلونية وأن يخرب جيرندة وأن يهدم سورها ، ثم يزحف على أريونة قاعدة الثغر الاسلامى القديم فى سبتمانية فى أرض الفرنجة . وكان الفرنجة قد استردوها عام ١٤١ هـ / ٧٥٨ م(٤٤) .

(٤٣) الرازى برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٥ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين فى الأندلس ، ص ٢١ .

(٤٤) ابن الأثير الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٨ ، المقرئ ، نفح الطنب ، ج ١ ص ١٥٨ .

وتخلط الروايات العربية القديمة والحديثة في استسلام مدينة أربونة لجيش عبد الملك بن عبد الواحد من عدمه ، فبعضها يقول أن هذا القائد استطاع أن يفتحها وكان الفتح عظيما حتى بلغ خمس السبى خمسة وأربعين ألفا من الذهب العيين ، كما أن ذلك القائد بلغ من تحكمه أن اشترط على المعاهدين من أهل جليقية نقل عدد من أحمال التراب من سور أربونة حتى قرطبة للمساهمة في بناء مسجد هناك^(٤٥) .

لكن الأستاذ عنان بورد رواية نصرانية تنكر استيلاء المسلمين على أربونة ، ويقول آخرون بأنهم لم يستولوا حتى على جسرندة . ويبدو أن هذا هو الرأي الصحيح ، لأن الروايات العربية لا تقطع بفتحها الا عند اثنين هما المقرئ وابن فضل الله العمري ، وهما من الرواة المتأخرين ، أما الرواة الأقرب للأحداث فلا يقولون الا أن المسلمين غنموا وبلغ السبى كذا ، وحطموا الأسوار الى آخر تلك العبارات التي يوردونها دليلا على قوة جيش المسلمين^(٤٦) .

ومما يؤيد الشك في الاستيلاء على أربونة قول ابن فضل الله العمري نفسه أن المسلمين اشترطوا على المعاهدين من أهل جليقية نقل عدد من أحمال التراب الى قرطبة اذلالا لهم . وهذا شرط فيما يبدو غير صحيح فأن أهل جليقية الذين يعيشون في قاصية الأندلس في الشمال الغربي ، من أربونة التي تبعد عنها آلاف الأميال وتقع في إقليم سبتمانيا شمالى جبال البرنات بمسافة كبيرة .

ربما كان هذا الشرط على أهل أربونة أو بالأصح على الأسرى من أهل أربونة الذين أذلهم المسلمون بأن جعلوهم ينقلون هذا العدد من

(٤٥) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبيصار ، ج ٦٥ ، قسم ٢ ورقة ٣١١ ، المقرئ نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٤٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٨ ، عنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

احمال التراب الى قرطبة ، فهذا هو المعقول ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى من أن المسلمين غنموا كثيرا من السبى الذى بلغ خمس قيمته خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين . وبديهي أن هذا السبى هو الذى قام بحمل هذا التراب الى قرطبة . وعاد المسلمون من هناك بعد الاستيلاء على تلك الغنائم الوفيرة ، ولو بقى المسلمون فى أربونة وجريدة عقب هذه الفزوة لما تمكن شراسان من الاستيلاء على برشلونة بعد ذلك بعدة سنوات فى عام ١٨٥ هـ بمنتهى السهولة^(٤٧) .

وقد عاد الأمير هشام الى اتباع أسلوب ارسال جيشين فى وقت واحد ، ففى عام ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م سير جيشا بقيادة عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث الى البسة والقلاع ، فأدى مهمته بنجاح وعاد الجيش محملا بالغنائم والأسلاب . أما الجيش الثانى فكان بقيادة أخيه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، وكانت وجهته جليقية ، ونجح هذا القائد فى هزيمة الملك الفونش وخرب دار مملكته (أوفيدو) التى كان قد انتقل اليها والتى يسميها المسلمون (أبسط) ، لكن الجيش ضل الطريق أثناء العودة « فنالتهم مشقة شديدة ومات منهم بشر كثير ونفقت درابهم وتلفت آلاتهم ثم سلموا وعادوا »^(٤٨) .

ويبدو أن كميننا للنصارى تعرض لهذا الجيش عند عودته ، ونال النصارى منه بعض الشيء ، وعاد الجيش بعد أن فقد بعض رجاله ، وكان لذلك رد فعل عند المسلمين . فلم يأت عام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م حتى قام عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بهجوم عنيف ضد جليقية ودخل أسترقة ، فاستنجد الفونش الثانى بأمرأاء نبرة وغيرهم من سكان تلك النواحي وتقهقر الى مكان بين الصخرة وجليقية فى أقصى الشمال على ساحل خليج بسكاية ، فأمر عبد الكريم أحمد قواده وهو فرج بن كنانة باقتفاء أثره فى أربعة آلاف فارس^(٤٩) .

(٤٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٤٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٢ .

(٤٩) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٢ .

نجح هذا القائد في القضاء على فرقة مسيحية مكونة من ثلاثة آلاف فارس ، وأسر قائدها المسمى غدشارة ، وتقدم عبد الكريم وطارد الفونش من حصن الى حصن ، وأخرج وراءه فرج بن كنانة هذه المرة في عشرة آلاف فارس ، فهزم الفونش الذي أسلم جميع معداته وذخائره وفر هاربا . وبذلك حقق الأمير هشام نصرا كبيرا على الفونش، لكن العمر لم يطل بهشام ، اذ أنه توفي في العام التالي « ١٨٠هـ / ٧٩٦م » (٥٠).

كان الأمير هشام تقيا ورعا ، خيرا فاضلا ، محبا للجهاد ، محصنا لشعبه وفيما لجنده ، حتى انه كان يلحق أبناء الشهداء منهم في الدبوان ويجعل لهم رزقا ، وبلغ من قوة الدولة في عهده ، أنه لم يكن هناك أسير مسلم واحد في بلاد النصارى ، وبالغ الناس في ذكر مناقبه حتى قالوا بأنه كان يشبه في سيره عمر بن عبد العزيز رحمهم الله جميعا (٥١).

تولى الحكم بعد وفاة هشام ابنه الأمير الحكم الأول المعروف بالربضى (١٨٠-٢٠٦ هـ / ٧٩٦-٨٢٢ م) وكان معاصرا للملك الفونش الثاني ملك جليقية وأشنريس . وقد عنف الصراع بين هذين الرجلين ، حتى اضطر الفونش أن يتحالف مع البشكنس وفرنج أكتبانيا لمواجهة الارادة الصلبة النى أبداها الأمير الحكم تجاه القضاء على أعدائه في الداخل والخارج .

وفي حين كانت الامور مستتبّة للفونش في الشمال النصراني ، كانت الثورات متلاحقة في الأندلس ضد الأمير الحكم . فقد واجه ثورة عميه عبد الله وسليمان وقضى عليهما عام ١٨٦ هـ ، ثم مؤامرة قامت ضده عام ١٨٩ هـ وقضى عليها أيضا ، ثم ثورة البربر في ماردة لمدة سبع سنوات

(٥٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ٩٧ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٥١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ ، مجهول : أخبار محمودة ، ص ١٢٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٣ .

من ١٩٠ الى ١٩٧ هـ وقضى عليها . ثم أخيرا ثورة أهل الريف في قرطبة عام ٢٠٣ هـ . كل ذلك اثّرنا اليه في حديثنا عن أحوال الأندلس (٥٢) .

وما يعنينا الآن هو أن الفرنج قد انnehزوا فرصة نورة عمى (الحكم) وتحالفوا مع الفونش الثانى ليضمّنوا ولاء البشكنس ومعاونتهم ، ثم زحف لوييس أمير اكيانيا وابن الامبراطور شارلمان على برشلونة عام ١١٨٥هـ/ ٨٠١ م واستولى عليها بعد حصار دام سبعة أشهر ، واخذ الفرنج من برشلونة قاعدة للثغر القوطى الذى نما فيها بعد وغدا إمارة نصرانية قوية هى إمارة قطلونية ، وخسر الاسلام بذلك أمنع ثغوره فى قاصية أسبانيا ، وارندت حدود الأندلس الى الثغر الأعلى بعد أن كانت تجاوز جبال البرنات . (٥٣) .

ويشير بعض المؤرخين الى هزيمة لجبوش الأمير الحكم عقب سقوط برشلونة ، لكن الهزيمة كانت ليوسف بن عمروس عامل تطيلة من قبل والده عمروس بن يوسف زعيم أسرة بنى عمروس المولدين بالثغر والذين استعان بهم (الحكم) مرارا فى القضاء على ثورة العرب فى سرقسطة والمولدين فى طليطلة . وكان الفرنج قد وصلوا الى تطيلة وأسروا يوسف ابن عمروس وسجنوه بصخرة قيس ، لكن والده أرسل أحد أقربائه على رأس جيش تمكن من انقاذه بعد هزيمة الفرنج (٥٤) .

(٥٢) الرازى ، برواية آبن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٤ ، آبن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .

(٥٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٣ ، أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٥ ، كارل بروكلمان ، المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٥ ، عفان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(٥٤) العذرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ٢٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٨٧ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٦ ، السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ .

وانتهز الفرنج فرصة انشغال الحكم في القضاء على مؤامرة ١٨٩ هـ ،
وثورة ماردة في نفس العام ، وأغار لوبس التقي على الثغر الأعلى حتى
وصل الى طرطوشة عام ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م فأرسل الحكم ابنه عبد الرحمن
على رأس جيش كبير ، وصل الى الثغر وانضمت اليه قوات عمروس
وعبدون ، عمال الثغر هناك ، وتمكنوا من دحر قوات لوبس وانقاذ
طرطوشة . (٥٥)

ومن ناحية أخرى فقد قام الفونش الثانى وعبر نهر دويره بقواته
عام ١٩٣ هـ / ٨١٠ م وغزا الاراضى الاسلامية ، وتوغل في سيره حتى قلورية
وأُسبونة في غرب الأندلس ، فرد عليه الامير الحكم في العام التالى (١٩٤ هـ /
٨٠٩ م) وزحف عن طريق مدينة الفرج (وادى الحجارة) وهزم جيوش
الفونش ، وأسر الكثير واستبدلهم بأسرى المسلمين . وقد عاد الحكم
بجيشه لفك أسر امرأه كانت قد أسرها النصارى وقالت « وا غوثاه يا حكم ،
لقد ضيعتنا » مما دفع بالحكم لى يقود الجيش بنفسه وينقذ تلك
المرأة من الأسر ، ويعاقب هؤلاء النصارى على افسادهم في منطقة الثغور
هناك . (٥٦)

وقد حاول الأمير الحكم أن يسترجع برشلونة ، فأرسل عمه
عبد الله البلنسى عام ١٩٩ هـ / ٨١٥ م في جيش الى هناك ، ورغم أن عبد الله
نجح في هزيمة حاميه المدينة وقتل الكثير من جنودها ، الا أنه لم يتمكن من
دخولها وعاد الى قرطبة ، وشعر الفرنج كما شعر المسلمون بعقم هذه
الحملة الخربة ، وآثر الفريقان التفاهم والمهادنة ، وعقد السلم بذلك
بين شارلمان والحكم واسنهر معقودا حتى وفاة شارلمان بعد ذلك
بأعوام قلائل في سنة ١٩٨ هـ / ٨١٤ م . (٥٧)

(٥٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(٥٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ابن الأثير ، الكامل ،

ج ٦ ، ص ٨٥ .

(٥٧) عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

لكنه كان لحملة عبد الله البلنسى رد فعل عند نصارى جليقية ، اذ احس الفونش بأن الصائفة المقبلة سوف تنجيه الى اراضيه ، خاصة وأن (الحكم) كان قد انتهى من تمرد البربر في ماردة عام ١٩٧هـ / ٨١٢م ، « فكانب الفونش جميع ملوك تلك النواحي مستنصرين بهم فاجتمعت اليه النصرانية من كل صوب » (٥٨)

وكان عبد الكريم بن مغيث قد وصل بقواته الى وادي نهر ارون بعد أن دمر في طريقه جميع ماوجده ، وأصبحت قوات الجانبين لايفصلها الا النهر ، وسعى كل طرف الى لقاء الآخر عبر النهر ، ونحاربوا حتى تكسرت السيوف ولجأوا للقذف بالحجارة ، الا أن كثرة الأمطار ونفاد المؤن عند قوات الفونش الثاني ، وضيق الحال بالمسلمين ، جعل توقف القتال أمرا لا مناص منه ، وعاد عبد الملك بجيشه الى قرطبة . (٥٩)

ولم يمض كثير حتى انشغل الامير الحكم بثورة أصل الربرض في قرطبة عام ٢٠٣هـ / ٨١٨م ، ثم نوفي بعد ذلك بقليل ، وتولى ابنه عبد الرحمن الثاني المعروف بالأوسط حكم البلاد (٢٠٦-٢٣٨هـ / ٨٢٠-٨٥٢م) . وفي عهد هذا الأمير كانت امارة نبرة قد استقلت عن مملكة جليقية وأستريس . وبدأت تظهر فيها الأسرة المالكة الجديدة ، كذلك ظهرت امارة قطلونية بعد استيلاء الفرنج على برشلونة في عهد الحكم عام ١٨٥ هـ . ولذلك سوف نقصر حديثنا منذ الآن عن مملكة جليقية فقط . وبعدها نفصل القول من علاقة نبرة بقرطبة وكذلك قطلونية .

كانت الامارة في عهد عبد الرحمن الأوسط لاتزال قوية ، فقد واجه ثورات عديدة داخل الدولة ، قضى عليها ، وتفرغ للصراع مع جيرانه من

(٥٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١١١ ، ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٥٩) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١١١ ، ١١٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١١٧ ، ١١٨ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .

نصارى الشمال الأسباني . وقد افتتح عهده بالقيام بغزوة تعرف بغزاة البسة والقلاع عام ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م . وفيها قاد عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث جيش الأمير ، ووصل الى الثغر الأعلى ، ثم دخل جليقية من باب البسة Alava من فج يقال له فج جرنيق Guernica الواقع بين سيرا دى أنثيا Sierra de Encia وجبال اتوريل Iturrieta واستولى عبد الكريم على كثير من ذخائر العدو ومؤنه ومعدانه وخرب المدن والقرى التى مر بها ، مما أجبر أهل تلك الناحية على مصالحة المسلمين وعلى دفع الجزية واطلاق أسراهم . (٦٠)

وكان هذا مدعاة لأن يظن بعض المؤرخين المحدثين أن صلحا تم بين الفونش الثانى ملك جليقية ، وبين عبد الرحمن الأوسط فى ذلك الوقت عام ٢٠٨ هـ ، مدللين على ذلك بأن الاشتباك قد توقف بين الطرفين ولم يستأنف الا عام ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م . والواقع أن الحرب استمرت بعد ذلك حتى عام ٢١١ هـ / ٨٢٦ م ولم يوقفها الا ظروف عبد الرحمن نفسه ، فقد ثارت ضده ماردة . (٢١٣-٢١٨ هـ) وظليطلة (٢١٩-٢٢٢ هـ) . (٦١)

ولم يكن هذا الصلح بسبب اغارة الفونش على مدينة سالم ، أو بسبب قيام المسلمين بتلك الغزوة عام ٢٠٨ هـ التى خربوا فيها مدينة ليون — كما قال البعض ، لأن تخريب المسلمين لتلك المدينة لم يكن الا فى غزوة عام ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م ولم تكن اغارة الفونش الثانى على مدينة سالم الا عام ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م . وربما أتى هذا الصلح بعد عام ٢١١ هـ ، ذلك أن المسلمين قاموا بعدة حملات متعاقبة بعد عام ٢٠٨ هـ ، منها حملة عبد الله البلنسى عام ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م ضد أشتريس ، وحملة العباس ابن عبد الله القرشى ضد جليقية فى نفس العام أيضا والتى توغلت حتى

(٦٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ .

ص ١٢٨ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦١ .

(٦١) عنان ، المرحح نفسه ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

بازو ، كذلك غزا البلنسى جليقية والقلاع أيضا عام ٢١١ هـ / ٨٢٦ م .
وبعد ذلك لم نعد نسمع عن حملات متبادلة بين عبد الرحمن والفونش
حتى عام ٢٢٣ هـ (٦٢)

في ذلك العام كان عبد الرحمن الأوسط قد فرغ من ثورة ماردة
وطليطلة وتفرغ لاستئناف الصراع مع جليقية ، فأرسل حملات متتالية ،
واحدة بقيادة أخيه الوليد عام ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م دخلت جليقية من جهة الغرب ،
وأخرى عام ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م بقيادة ابنه الحكم وعم أبيه عبد الله البلنسى
وهزمت قوات الفونش ، مما جعله يغير على مدينة سالم . فسار إليه فرتون
ابن موسى وهزمه وهدم الحصن الذي كان قد بناه أهل البية هناك (٦٣)

ورأى الأمير عبد الرحمن أن يقود الجيش بنفسه الى جليقية عام
٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م ، ففتح حصونها ، لكن غزاته طالت وتعب كثيرا ، مما أدى
الى أن يعتقد البعض من المؤرخين المحدثين الى أن الأمير لم يلق في
غزواته تلك نجاحا وأنها أثبتت عدم مقدرة الأمير من الناحية العسكرية ،
وأنه لم يعد يكثر من الخروج للغزو بنفسه ، وأن خروج المسلمين الى
بلاد جليقية أخذ يقل منذ ذلك الحين (٦٤) .

لم يخرج الأمير بنفسه فعلا في غزاة ضد جليقية بعد ذلك ، وإنما
خرج بنفسه في غزوتين ضد نبرة في عامي ٢٢٨ هـ ، ٢٢٩ هـ . وكان الموقف
في جليقية في ذلك الوقت لا يستدعى خروج المسلمين للغزو ، فقد توفي
الفونش الثاني عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م وتولى بعده ردمير (راميرو) الأول بعد

(٦٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ،
ص ١٨ ، ج ٧ ، ص ٩ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، المقرئ ، نفع
الطيب ، ج ١ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، Murphy, op, cit. pp. 91, 92.

(٦٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ،
ص ١٨٧ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦١ .

(٦٤) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٠ .

ثورة قام بها الأشراف ضده ، ثم نالت ثوراتهم ضده أيضا في عامي ٢٣٠هـ/٨٤٥م ، ٢٢٣ هـ — ٨٤٨ م / وتوفي هو نفسه عام ٢٣٥هـ—٨٥٠م . ولذلك كانت جليقية مشغولة بأحداثها الداخلية ، ولم يحدث منها ما يعكر الصفو ، وقد قلنا أن سياسة المسلمين كانت دفاعية في المثلث الأول (٦٥) .

ورغم ذلك فقد اننهز المسلمون فرصة الاضطراب الذي أصاب جليقية ، وأرسل الأمير عبد الرحمن ابنه محمدا في عام ٢٣١ هـ ٨٤٦ م على رأس جيش وصل الى مدينة ليون وضربها بالمنجنيق ، وهرب أهلها الى الجبال ، وأحرق المسلمون ما فيها ، وأرادوا هدم سورها ، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك لسمكه الكبير ، فعادوا الى قرطبة بعد أن أمعنوا في الجبالقة قتلا وسبيا ، وبعد ذلك بأربع سنوات أرسل عبد الرحمن ابنه المنذر على رأس حملة أخرى الى جليقية عن طريق البشة ، فغنم المسلمون وعادوا حيث سمعوا بوفاة الملك ردمر الأول ملك جليقية في نفس العام . (٦٦)

توفي الأمير عبد الرحمن بعد ذلك بقليل وتولى ابنه الأمير محمد حكم البلاد (٢٣٨—٢٧٣هـ / ٨٥٣ — ٨٨٦ م) ، وكان معاصرا له من ملوك جليقية أردون الاول (٢٣٥—٢٥١ هـ / ٨٥٠—٨٦٦ م) والفونش الثالث (٢٥٢—٢٩٦هـ / ٨٦٦—٩١٠م) . وقد بدأ الأمير محمد حكمه بإرسال حملتين عام ٢٣٩ هـ / ٨٥٣م ، أحدهما بقيادة أخيه الحكم بن عبد الرحمن لإصلاح قلعة رباح ، والثانية بقيادة موسى بن موسى بن قسى عامل الثغر الأعلى الى آلبة والقلاع ، حيث أفلح في فتح بعض الحصون . وكانت الثورة قد اندلعت في طليطلة ، قام بها المتمردون من المولسدين والنصارى واستعانوا في ذلك بالملك أردون الأول ملك جليقية الذي بعث اليهم أخاه

(٦٥) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

(٦٦) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ١٨ .

غانون عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ، فقاد الأمير محمد الجيش بنفسه ، واستطاع أن يهزم الحلفاء في وادي سليلط جنوبى طليطلة ، وقتل منهم عشرين ألفاً (٦٧)

وشغل الأمير محمد بعد ذلك بظهور النورمان الذين أغاروا على جليقية والأندلس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، كما شغله أيضا ظهور قوة نبرة وتحالفها مع أمراء بنى قسى الذين عادوا الى التمرد وطلبوا من الأمير محمد ألا تكون حملاته ضد جليقية عن طريق أراضيهم ، لما نالهم من النصب بسبب ذلك . (٦٨)

وتتابعت حملات الأمير محمد على جليقية في أعوام ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ هـ ، وهزم قوات أردون أكثر من مرة ، وعاقبه لمهاجمته الثغر الأعلى عام ٢٤٨ هـ وقضائه على قوات موسى بن موسى بن فرتون القسوى ، الذى مات بعد ذلك متأثرا بجراحه ، وأعلن ابنه (لب) خضوعه للأردون وتحالف معه ضد المسلمين ، واستطاع الأمير محمد رغم فتنة النصارى فى قرطبة أن يعاقب أردون وأن يطارد قواته حتى وادى نهر ابره ، وأن يهزمها هزيمة شديدة ، وأن يستولى على بعض حصونه مثل حصن جرنيق ، وأن يقتل فى إحدى هذه الغزوات عشرين ألفا من قوات أردون ، مما هدد من قوة النصارى وأضعف شوكتهم ، فركنوا الى الهدوء والسكينة (٦٩) .

توفى أردون عقب ذلك وتولى العرش ابنه ألفونش الثالث (٢٥٢ — ٢٩٦ هـ / ٨٦٦ — ٩١٠ م) . وقد واجه هذا الملك فى بداية حكمه ثورة أقاربه وأخوته ضده عدة مرات ، حتى تمكن أخيرا من القبض

(٦٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، القرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٦٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

(٦٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ — ١٤٩ ، ابن الأثير ج ٧ ، ص ٤٣ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٥ .

على اخوته وسمل عيونهم . وكان الأمير محمد مشغولا في نفس الوقت بقمع فتنة النصارى المعاهدين في قرطبة الذين قاموا بحركة الاستشهاد واتصلوا بالنصارى في طليطلة وماردة وغيرها لاعلان الثورة على بنى امية . ولذلك لا نسمع عن حملات عسكرية قامت بها الامارة الاموية لمدة خمسة عشر عاما(٧٠) .

وفي خلال هذه المدة كان الفونش الثالث يشجع الثورة الداخلية ضد قرطبة ، اذ كان يمد يد العون لعبد الرحمن بن مروان الجليقى الذى أعلن الثورة باسم المولدين في ماردة وتحالف مع الفونش الثالث . فأرسل اليه الأمير محمد جيشا بقيادة ابنه المنذر وقائده هاشم بن عبد العزيز ، تمكن الجليقى بمساعدة قوات الفونش من أسر هاشم وارساله الى ليون . وبعد فك أسره ، أرسله الأمير محمد في حملة انتقامية الى ماردة ، لكن الجليقى هددهم بحرق بطليوس اذا تجاوزت قواتهم مدينة لبلة Liebla . فعاد هاشم من حيث أتى(٧١) .

وقد فكر الأمير محمد في القضاء على مملكة جليقية بإرسال حملة بحرية عام ٢٦٦ هـ / ٨٨٠ م بقيادة قائد الأسطول عبد الحميد بن مغيث ، وبعد أن صنع السفن وأرسلها حنى وصلت قرب جليقية من ناحية البحر المحيط (المحيط الأطلسي) هبت عليها عاصفة فحطمت معظمها ولم يعد منها الا القليل(٧٢) .

ورد الفونش الثالث على ذلك بأن قام في العام الثانى (٢٦٧ هـ / ٨٨١ م) بغزو أراضى المسلمين ، وعبر نهر دويره والتاجه ، ووصل

(٧٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٢ - ١٤٥ ، ١٦٦ - ١٦٩ .

(٧١)

ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ١١٠ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

(٧٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ،

ص ١١٩ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٣١ رقم ٤ .

فى زحفه حتى أحواز ماردة ووادى آنة ، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه . وازاء ذلك أرسل الأمير محمد ابنه المنذر وقائده هاشم بن عبد العزيز فى حملة الى الثغر الأعلى ثم الى جليقة فافتتح حصن روطه ، وحصونا كثره فى منطقة ألبه والقلاع ، وتأهب الفونش الثالث للقائهم ، وجرت المفاوضات التى انتهت بالهدنة (٧٣) .

وقام الأمير محمد ببناء عدد من الحصون على طول الخط الممتد من سرقسطة حتى طليطلة ليمنع تقدم قوات النصارى من هذه الناحية ، فبنى حصن أشتريس لحماية مدينة سالم ، وحصون ظلمنكة ومجريط وفراطة لحماية أهل طليطلة ، وحصون قناليس Canales ، ودلوش Olmos وقلعة الحلفاء Salatalifa على سفوح جبال وادى الرمل الجنوبية (٧٤) .

وكان نصارى جليقية أيضا قد بنسوا أربع مدن حصينة بعد أن دفعوا حدودهم بعيدا حتى نهر الدويرة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وهى مدن سمورة Zamora وسمينقة Simancas ، وسان أشتييان San Steven de Gormaz وأوسمة Osma . وقد شكلت هذه المدن حدا قويا ضد المسلمين ، ولذلك فكر الطرفان فى السلام ، خاصة بعد أن اندلعت الثورات القبلية فى الأندلس الإسلامية ، وتحالف بنو قسى المولدون مع الفونش الثالث (٧٥) .

لذلك أرسل الأمير محمد ابنه المنذر عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م مع جيش بقيادة هاشم بن عبد العزيز ، استولى على سرقسطة واخترق ألبه لمقاتلة الفونش ، لكن المفاوضات جرت وانتهت بعقد الهدنة ، وأرسل الفونش القس (دولشديو) سفيرا الى قرطبة لوضع قواعد الصلح مع أمير الأندلس ، ونجحت المفاوضات وعاد السفير الى أفيدو عاصمة

(٧٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، غنان ، المرجع نفسه ،

ع ١ ، ج ٣ ، ص ١٧ ، ٦٤ .

(٧٤) محمود على مكي ، مدويد العربيه ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٧٥) الرازى برواية بن حيان ، المفتبس ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ،

ليون (جليقية) ، وتفرغ الفونش لعلاج مشاكل دولته الداخلية ، وكانت الأزمات والقلق السياسية والاجتماعية تتعاقب هناك لبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصراني نفسه (٧٦) .

ويبدو أن السلام قد استتب بين أمراء بنى أمية بعد وفاة الأمير محمد وبين الفونش الثالث ، وذلك بسبب الأوضاع الداخلية في كل من البلديين ، الأندلس وجليقية . وكان أمراء بنى أمية في خطر داهم بسبب كثرة الثورات والفتن وخاصة ثورة عمر بن حفصون كبير الثوار وخطرهم ، والذي كان يقود الثورة في الجنوب ، كما كان بنو قسي وبنو الطويل المولدون وبنو نجيب العرب قد استقلوا بالنصر الأعلى وتنازعوا فيما بينهم ، واستعان بعضهم على بعض بملوك نبرة وملوك جليقية . هذا بالإضافة الى الثورات الأخرى التي أشرنا اليها في الفصل الأول من هذا الباب (٧٧) .

لذلك فان قرطبة لم ترسل حملات الى الشمال ، وقام قواد الثغور بتلك المهمة خير قيام . فقام محمد بن لب بن موسى القسوى في أول سنة من حكم الأمير المنذر (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ — ٨٨٨ م) بمهاجمة البية والقلاع وفتح بعض حصونها . وبعد أن قتل محمد بن لب هذا أمام أسوار سرقسطة عام ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م ، بسبب محاولته الاستيلاء عليها من يد بنى تجيب ، اننهز الفونش الثالث الفرصة وحشد نصاري جليقية والبة والقلاع وبمبلونة ، وخرج للاغارة على الثغر الأعلى ، لكن لب بن محمد بن لب الذي خلف أباه على تطيلة وطرسونة ، استطاع أن يدحر قوات الفونش عند طرسونة عام ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م ، وأن يقتل منها ستة آلاف ، وينقذ جميع السبي الذين كانوا موجودين بها (٧٨) .

(٧٦) عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢ ، كارل بروكلمان ، المرجع

نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٧٧) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ٩٦ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ،

ج ٣ ، ص ١٥٧ — ١٥٩ ، ١٧٥ — ١٧٨ .

(٧٨) الرازي برواية ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، العفري ، المصدر

نفسه ، ص ٣٧ .

وفي منطقة الثغر الأوسط استطاع الفونش الثالث أن يعيد بناء سمورة عام ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م ، وأن يحصنها تحصينا قويا وسكنها النصاري ، واتخذها قاعدة للاغارة منها على الأراضي الاسلامية المجاورة ، واشتد احساس تلك المنطقة بالخطر وقالوا « قد كان اذاهم — اذى النصاري — وطروقتهم أرضنا من ليون كالمتوالى عندنا فكيف يكون من سمورة ، وقد اقتربوا منا ودبروا كيدنا ، فأصابوا مقتلتنا .. مع اشتغال أهل الثغر بالخلاف حتى انقطع الجهاد وكرت الجاهلية ، وصار أهل كل بلد من الثغور وما جاورها مضطرة الى مسالة المشركين وملاطفانهم ، لما بينهم وبين جيرانهم من داء الفتنة » (٧٩) .

لذلك ما ان دعاهم أحد الثوار الى القيام بمهاجمة تلك المدينة ، حتى استجابوا له ، وخرج معه أهل طليطلة وطلبيرة ووادي الحجاره وشننبرية ، وكان هذا الثائر يدعى أحمد بن معاوية ويعرف بالقط ، وهو من أشراف بني أمية وكان يريد الدولة لنفسه ، لكنه ادعى الجهاد وأعلن أنه المهدي ، وعبأ البربر المجاورين لمدينة سمورة وهاجمها عام ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م ، واكتسح قوات الفونش ، لكن زعماء البربر خانوه وارتدوا منهزمين لخوفهم منه اذا تم له النصر واشتدت شوكته ، فكرر الفونش على أحمد بن معاوية المهدي وقتله وعلق رأسه على باب سمورة ، وصار هذا اليوم يعرف بيوم سمورة (٨٠) .

واضح اذن أن تلك الاشتباكات كانت بين أمراء الثغر الأعلى وأحمد ابن معاوية القط وبين الفونش الثالث ، وكانت قرطبة لا سلطان لها على هؤلاء الأمراء ، ولذلك نستطيع القول بأن اتفاسق السلام ظل ساري المفعول بين قرطبة وبين الفونش حتى وفاة الأمير عبد الله عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وتولى عبد الرحمن الناصر الأمر من بعده . هنا تغير الموقف كما سنرى عند دراستنا في الباب الثاني .

(٧٩) ابن حبان ، المنيب ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

(٨٠) ابن حبان المنيب ، ج ٣ ، ص ١٣٣ - ١٣٩ ، ابن حزم ، جمهرة انساب

العرب ، ص ٨٨ .

٣ - علاقة امراء بنى أمية بامارة قطلونية (برشلونة) :

ظهرت نبرة على المسرح السياسى منذ بداية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وكانت قبل ذلك تسير فى فلك ملوك جليقية أو إباطرة الفرنجة ، وما لبثت أن اشتركت مع جليقية فى الهجوم على منطقة الشجر الأعلى عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ، فخرج اليهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، والتقى مع قوات بلشك الجلشقى^(٨١) ، وقوات نصارى ليون ، واستمرت المعركة بين الطرفين ثلاثة عشر يوما ، اندحرت فيها قبائل البشكنس ، وقتل أحد زعمائهم المدعو شانجة فارس بمبلونة^(٨٢) .

جنحت نبرة الى السلم فى بداية عهد الأمير عبد الرحمن الثانى بسبب قوة الامارة الأموية وقتئذ ونجاحها فى التصدى لملوك جليقية ، هذا فضلا عن تعرض نبرة نفسها لهجوم الجيش الفرنسى على بمبلونة عاصمة نبرة عام ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م بقيادة أزنار Aznar — وهو من أصل نافارى — وابلو الفرنسى ، فهرعت قوات موسى بن موسى بن فرتون بن قسى حاكم تطيلة ووشقه من مدن التفغر الأعلى ، وساعدت البشكنس فى صد هذا الهجوم ، وألحقت القوات المشتركة هزيمة فادحة بالجيش الفرنسى عند باب الشزرى (رونسفال) وأسرت القائدين^(٨٣) .

وفى ضوء هذه المساعدة التى قدمتها قوات الشجر الأعلى ، أرسلت نبرة سفارة الى بلاط عبد الرحمن الثانى وأبرمت معاهدة بين الطرفين

(٨١) بلشك الجلشقى تسمية المراجع الأخرى فلاسكو Velasco ويبدو أنه أحد زعماء البشكنس قبل ظهور الأسرة المالكة فى نبرة بعد ذلك بقليل ، انظر ، خليل للسمرائى ، الشجر الأعلى الأندلسى ، ص ١٦٧ .

(٨٢) المراجع السابق ، ص ١٦٧ .

(٨٣) وينو ، المراجع نفسه ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ،

Livermore, op. cit., p. 82.

تنضمن مساعدة المسلمين لنبرة في صد أي اعتداء خارجي ، وتساعد نبرة المسلمين حين يريدون عبور جبال البرنات الى فرنسا . وكان الكونت أرنار قد استطاع العودة الى نبرة بعد أن فك أسره بمساعدة الفرنجة ، واستمر في حكم نبرة حتى عام ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ، وجاء بعده أخوه شانجة وانتزع منه إمارة نبرة غرسية بن ونقة أحد زعماء الباسك الآخرين ، ومنه جاءت الأسرة المالكة التي حكمت نبرة بعد ذلك (٨٤) .

وبظهور هذه الأسرة تغيرت العلاقات بين نبرة وبين قرطبة ، وبدأ أمراء نبرة بمهاجمة الأراضي الإسلامية معتمدين على مصاهراتهم التي أبرموها مع أسرة بنى قسى . وكان أنيجو أريسته Inigo Arista الذي تسميه المصادر الإسلامية « ونقة بن شانجة » قد تزوج أرملة موسى بن غرتون بن قسى حاكم تطيلة في الثغر الأعلى الأندلسي ، ثم توفي حوالي عام ٢٠٥ / ٨٢٠ م واشتهر أولاده الثلاثة غرسية بن ونقة (٨٥) ، وغرتون بن ونقة أخو موسى بن موسى لأمه ، وغرسية أنجين وتسميه المصادر الإسلامية ، « غرسية بن ونقة » . ويبدو أنه هو الذي تولى الأمر بعد وفاة أبيه ، ويظهر في الأحداث السياسية منذ عام ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م (٨٦) .

في ضوء هذه العلاقات بين أسرة نبرة الحاكمة وبين بنى قسى ، بدأت الأسرة الأخيرة تنير المناصب لحكومة قرطبة بعد أن ساعدتها في حروبها كثيرا ضد نصارى الشمال . وكان موسى بن موسى القسوى أول من أعلن الخلاف من أسرته ضد بنى أمية ، وكان ذلك عقب مشاحنة أو سوء فهم بينه وبين أحد قواد بنى أمية أثناء حملة لهم على سرطانية (سردانية) في شمال الثغر الأعلى ، فكان ذلك سبب تمرد موسى بن موسى وخاصة بعد أن عين عبد الرحمن الثاني عبد الله بن كليب علي سرقسطة ، وقام في هذا العام بالاغارة على ممتلكات ينقة بن ونقة أخو موسى لأمه

(٨٤) خليل السامرائي ، المرجع نفسه ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٨ .

(٨٥) يبدو أن غرسية بن ونقة كان من زوجة أخرى لأن ابن حيا يطلق عليه إذ

« قرابة موسى ، وليس أخوه » . انظر ، بن حيان ، مجلة الأندلس ص ٢٩٨ .

(٨٦) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، السامرائي ، المرجع نفسه ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

عام ٢٢٦ هـ / ٨٤١ م . وظهر هذا الخلاف واضحا أثناء حملة للأمير عبد الرحمن الثاني على مبلونة عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م بقيادة ابنه المطرف ، اذ تخلف موسى عن اللحاق بالمطرف ، فأرسل عبد الرحمن الثاني حارث بن بزيع وولاه سرقسطة وأمره بحرب موسى ، لكن موسى أسره وقضى على جيشه^(٨٧) .

ازاء ذلك صمم عبد الرحمن الثاني على القضاء على موسى بن موسى ، فلجأ موسى الى التحالف مع نبرة ، فخرج عبد الرحمن الثاني عبد الرحمن الثاني على مبلونة عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م بقيادة ابنه المطرف ، بمبلونة وأُخِنَ فيهم القتل والسبي وعاد الى قرطبة ، ثم عاد في العام التالي لعقاب موسى بن موسى بنطيلة ، وبدأ عبد الرحمن بحصار تطيلة فأخضعها ، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى ، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى في جموع كبيرة ، فهزمهم عبد الرحمن هزيمة شديدة ، وفر موسى وحليفه جريحين ، ودخل موسى بمبلونة ، فاضطرت نبرة لطلب الأمان والصلح^(٨٨) .

وكان عبد الرحمن الثاني أيضا في حاجة الى الصلح مع نبرة ، بعد أن أخبره وهب الله بن حزم عامل أشبونة على البحر المحيط بورود مراكب النورمان لمهاجمة البلاد . فعقد عبد الرحمن الأمان لينقة ابن ونقة أخو موسى لأمه ، وأقره على بلده ، على شرط أن يؤدي الجزية ومقدارها ٧٠٠ دينار كل عام ، كما عقد الأمان أيضا لكونت سردانية على شرط أن يرد هو وأمير نبرة (ينقه) جميع ما بقي عندهما من سبي المسلمين من وثيقة^(٨٩) .

(٨٧) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٦ .

(٨٨) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٣ ، Murphy, op. cit., p. 92.

(٨٩) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣٠ .

وكما قلنا لم يكن القصد من غزوات أمراء بنى أمية الا إيقاع الرعب في قلوب نصارى الشمال حتى يلزموا السكنة والعيش في سلام مع جيرانهم المسلمين ، لذلك لم يكن لهذه الغزوات نتائج مستقرة . وكانت تعقد المعاهدات ثم لا تلبث الحرب أن ننشب من جديد حسب الأحوال الداخلية لكل من البلدين .

اذ لم يكد الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م) الذى تولى السلطة بعد أبيه الأمير عبد الرحمن الثانى يفرغ من القضاء على ثورة طليطلة عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ، وعلى فتنة النصارى المعاهدين فى قرطبة فى العام التالى ، وعلى خطر النورمان الذين هاجموا شبة الجزيرة عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، والتفوا مع سواحلها حتى وصلوا الى نهاية نهر أبرة ، ودخلوا نبرة واسروا ملكها غرسية ثم أطلقوا سراحه نظير فدية كبيرة . لم يكد يفرغ الأمير محمد من كل تلك المشاكل حتى قام بعدة حملات متتابعة على نبرة ولم تكن قد أفقت بعد من ضربة النورمان ، فغزا بملونة عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م ، وخرّب حصونها ، وافتتح منها حصون فيروس وفالحسن والقشتل ، وأسر فرتون بن غرسية أمير نبرة ، وسجنه فى قرطبة لمدة عشرين عاما ثم أطلقه الى بلده ، وكان غرسية فى ذلك الوقت متحالفا مع الملك أردون ملك جليقية ، بينما كان موسى بن موسى القسوى فى طاعة قرطبة (٩٠) .

لم تكن طاعة موسى لقرطبة الا طاعة اسمية ، اذ كان هو وأولاده يسيطرون على الثغر الأعلى وكانت له علاقات مع ملك نبرة كما أشرنا ، وكانت علاقاته مع أردون ملك ليون ، جاره من الغرب ، تتردد بين الخصومة والتحالف وفقا للظروف . كما كانت علاقات نبرة بمملكة ليون يشوبها التوتر والخوف وعدم الثقة ، اذ كانت مملكة نبرة الصغيرة تخشى على نفسها من مطامع جارتها القبية فى ليون ، ولذلك حدث أن قام موسى بن موسى ببناء حصن يسمى حصن البلدة جنوبى لوجرونيو (Logrono)

(٩٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣١ .

أحد فروع نهر أبرة من الجنوب ، فتقدم أردون ملك ليون عام ٢٤٨ هـ / ٨٥٩ م وهدم هذا الحصن وتقابل مع قوات موسى وصهره غربية في معركة حامية ، هزم فيها موسى وجرح ، وسقط صهره غربية قتيلا ، ثم توفي موسى متأثرا بجراحه عام ٢٥١ هـ / ٨٦٢ م^(٩١) .

وكانت هذه الهزيمة ضربة شديدة أصابت بني قسي في الشمال ، وأدت الى قيام (لب بن موسى) بمهادنة أردون ومخالفته على قتال المسلمين ، كما كانت ضربة قاسية لامارة نبرة ، اذ أنها عاشت فترة ضياع لمدة حوالي عشر سنوات ، لم يظهر لها فيها أى نشاط سياسى أو عسكرى .

شغلت حكومة قرطبة بعد ذلك بثورة أولاد موسى بن موسى القسوى واستيلائهم على الثغر الأعلى كله واستعانتهم بنصارى الشمال وخاصة نبرة ونصارى سرطانية . فكان على قوات الأمير محمد أن تقضى على قوات هؤلاء المتمردين ثم تواصل سيرها لقتال نصارى الشمال ، فكانت غزوة عام ٢٥٩ هـ حيث قام الأمير محمد بنفسه وحاصر بني موسى وأخضعهم ، ثم سار الى بلاد نبرة فخرّبها وأذل أهلها وعاد الى قرطبة . وتتابع حملات الأمير محمد على سرقسطة ومنها الى نبرة فى عامى ٢٦٠ هـ — ٨٧٣ م ، / ٢٦٤ هـ — ٨٧٨ م ، واستطاعت حكومة قرطبة أن تسنرد مدينة سرقسطة بعد أن اشترتها بالمال من بني قسي عام ٢٧٠ هـ وأعطت لكبيرهم محمد ابن لب بن موسى ولاية أرنيط وطرسونة ، فاستقامت طاعته وقام بدور بارز فى مجاهدة نبرة بعد ذلك^(٩٢) .

توفى الأمير محمد وتولى ابنه الأمير المنذر (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ — ٨٨٨ م) الحكم فى قرطبة ، لكن لا تذكر لنا المراجع شيئا

(٩١) عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ١٤ .

Livermore, op. cit., p. 83.

(٩٢) العنزي ، المصدر نفسه ، ص ٣١ — ٣٥ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

ص ١٥٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ١١٤ .

عن جهاده ضد نبرة ، ولعل ذلك يعود الى قصر مدة حكمه ، والى انشغاله بحركة ابن حفصون حيث مات محاصرا له عند قلعة ببشتر في الجنوب .

اما الأمر عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٣ م) الذي تولى الحكم بعد أخيه الأمير المنذر ، كان أميرا على قرطبة فقط ، اذ « لم يبق له الا الاسم فوق ظهر منبر قرطبة والقليل من غيرها » كما قال بذلك ابن الخطيب . وكانت هناك محاولات أشرنا اليها عند حديثنا عن أحوال الأندلس في الفصل الأول من هذا الباب ، لتوحيد جهود مولدى الشمال والجنوب ضد إمارة بنى أمية . وكانت رسل محمد بن لب قد وصلت الى جيان لمقابلة ابن حفصون للاتفاق على ذلك ، لكن محمد بن لب نفسه سقط في ذلك الوقت قتيلا أمام أسوار سرقسطة التي أراد أن وحصن مولة ، وقتل وسبى^(٩٥) .

وكان التجبييون قد اغتصبوا السلطة في سرقسطة ، ولذلك أعطيت ولاية مدينة تطيلة وطرسونة الى (لب) بعد مقتل والده محمد بن لب على النحو الذى أشرنا اليه . وقام لب هذا بدور كبير في رد هجوم الفونش الثالث وجيوش نبرة المنحلفة معه عند وادى برجة^(٩٤) ، وهزمهم وقتل منهم الكثير ، وهاجم منطقة ألبة في عام ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م وفتح حصن بابش ، وفر ألفونش هاربا بعد أن سمع بقرب قدومه . ثم صعد لب بن محمد نشاطه في ناحية بلارش شمال الثغر الأعلى في نفس العام ، وفتح هناك حصن لحرونة وحصن ايلاس وحصن قشتيل شنت وحصن مولة ، وقتل وسبى^(٩٥) .

(٩٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٩٤) وادى برجة حصن يقع الى غربي مدينة طرسونة وهو غير مدينة Berga التي تقع في شمال شرقي الثغر ، انظر الخريطة رقم ٤ .

(٩٥) العنري ، المصدر نفسه ، ص ٣٧ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

ويبدو أن هذه الانتصارات قد شجعت لب بن محمد على مواصلة النضال ضد نبرة التي دخلت في عهد ملك جديد هو شانجة غرسية الأول (٢٩٣ - ٣١٤ هـ / ٩٠٥ - ٩٢٦ م) . فواصل لب بن محمد نشاطه وأخذ في بناء حصن هرين بالقرب من نبرة ، فجمع له ملك نبرة الجموع واستعان بالسرطانيين ونصبوا له الكمان واستدرجوه اليها حتى قتلوه عام ٢٩٤ هـ / ٩٠٧ م^(٩٦) .

وقد ظن ملك نبرة أنه تخلص من مقاومة الثغر الأعلى بعد قضائه على لب بن محمد ، لكنه لم يعلم أن هناك من يستطيع رده على أعقابيه ، إذ أن محمد بن عبد الملك الطويل ، زعيم أسرة بنى الطويل المولدين أيضا مال الى التعاون مع أسرة بنى قسى ، وقام في العام التالي بغزو بريطانيا ، تم غزا منطقة بليارثس في عامي ٢٩٦ - ٢٩٧ هـ ، وهدم حصونها وقتل وسبى أكثر حتى كان مبلغ الفىء ١٣ ألفا^(٩٧) .

وفي عام ٢٩٨ هـ / ٩١١ م ظهر التعاون المشترك بين بنى قسى وبنى الطويل ضد نبرة ، إذ خرج محمد بن عبد الملك الطويل الى أرغونة في طريقه الى بمبلونة حيث يلتقى هناك مع قوات عبد الله بن محمد بن لب الذى كان قد خلف أخاه لب بن محمد في حكم تطيلة عام ٢٩٤ هـ . ولما أحس ابن الطويل بتحرك قوات ملك نبرة تخاذل وعاد أدراجه . ولما بلغ عبد الله بن لب ذلك عاد هو الآخر من حيث أتى ، بعد أن كان قد حصن لوازة من حصون شانجة ملك نبرة . وبذلك لم يتمكن ابن الطويل وابن قسى من القيام بعمل ناجح ضد نبرة في تلك الغزوة ، لكنهما استمرا بعد ذلك في النضال ضد نبرة مؤيدين من حاكم قرطبة الجديد للأمير عبد الرحمن^(٩٨) ، الذى نلقب فيما بعد بالخليفة عبد الرحمن الناصر .

(٩٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

ص ٢١٥ .

(٩٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ، ٢١٩ .

(٩٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

٣ - علاقة مأسراء بنى أمية بامارة قطلونية (برشلونة) :

بعد سقوط برشلونة في يد لويس التقي بن الامبراطور شرلمان عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، قامت امارة جديدة نصرانية في الشمال الشرقى لشبه الجزيرة وسميت هذه الامارة باسم قطلونية وعاصمتها برشلونة ، واصبحت مدخلا للنفوذ الفرنسى الى البلاد من ناحية الشرق ، كما كانت غسقونية مدخلا للنفوذ الفرنسى من ناحية خلبج بسكاية عند اطراف جبال البرنات الغربية . وكانت هذه الامارة الصغيرة شوكة في ظهر الثغر الأعلى ، كما انها أصبحت عائقا للثورات الاسلامية اذا ما حاولت التسلل الى جنوب بلاد الفرنجة . ولم تنس هذه الامارة الصغيرة دورها في مساندة نصارى الشمال الأسباني ضد المسلمين ، فأصبحت تغير بقواتها على اطراف الثغر الأعلى ، وتتصل بنصارى سرطانية بريطانية ، وتشجعهم على غزو اراضى المسلمين في تلك المنطقة^(٩٩) .

وعبثا حاول الأمير الحكم الرضى أن يسرجع برشلونة وتبادل الهجمات عام ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م مع قوات الفرنجة ، وانتهى الأمر بعقد الصلح بين لويس بن شرلمان الذى كان قد خلف أباه على عرش فرنسا (١٩٩ - ٢٢٦ هـ / ٨١٤ - ٨٤٠ م) ، وبين الحكم الرضى عام ٢٠١ هـ / ٨١٦ م ، ولم يدم هذا الصلح الا عواما قليلة . ذلك أن الفرنج في قطلونية أو الثغر القوطى كما يسميه البعض اغاروا بعد ذلك بحوالى عشر سناوت وفي عهد الأمير عبد الرحمن الثانى ، على اطراف الثغر الأعلى بقيادة أميرهم برنارد بن جيوم دوق تولوز ، بعد أن ثار ضده أيزون Aïson - وهو أحد النبلاء المنحدرين من سلالة القوط - في اقليم برشلونة سنة سنة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م واستولى على عدد من المدن والحصون مثل أوسونة ، واستنجد بالأمير عبد الرحمن الثانى ضد الفرنجة^(١٠٠) .

(٩٩) رينو ، المرجع نفسه ، ص ١٣٢ ، الفصل الثانى ، الباب الاول

(١٠٠) غنان ، تاريخ العرب في اسبانيا ، ص ٨٤ ، ٨٦ .

انتهزت قرطبة الفرصة ، وأرسل الأمير عبد الرحمن قريبه عبيد الله ابن عبد الله البلنسى على رأس جيش الى برشلونة عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، فاستمات حاكمها برنارد فى الدفاع عنها ولم يمكن المسلمين من فتحها ، فاضطر عبيد الله الى رفع الحصار عنها ، واجتاح ولاية قطلونية حتى وصل الى جرندة فى أقصى الشمال ، وأقام هناك شهرين ، ثم عاد الى قرطبة بعد أن فرق شمل النصارى فى تلك الأنحاء . لكن لم ينتج عن حملته هذه فتوحات ثابتة ، ولم يعاود الأمير عبد الرحمن مهاجمة برشلونة الا سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٠ م بعد وفاة الملك لويس التقي بن شرلمان بحوالى ٦ سنوات^(١٠١) .

كان الصراع دائرا بين شارل الأصلع (٢٢٦-٢٦٤ هـ / ٨٤٠-٨٧٧ م) الذى تولى العرش بعد وفاة والده لويس التقي ، وبين ابن أخيه بين الثانى ملك أكتانية على عرش البلاد ، وطلب بين مساعدة المسلمين ، وأرسل كونت طولوزة (تولوز) المسمى غليوم الى قرطبة ، فأرسل الأمير عبد الرحمن جيشا بقيادة حاجبه عبد الكريم بن مغيث الى برشلونة تمكن من اخراج عمال شارل الأصلع من معظم مدن قطلونية ، وعين غليوم حاكما لبرشلونة ، واجتاز المسلمون جبال البرنات وحاصروا مدينة جرندة الواقعة على مدخل تلك الجبال وعاثوا فى نواحيها ، ثم عادوا الى قرطبة^(١٠٢) .

ويبدو أن شارل الأصلع تمكن من انزال الهزيمة بمعارضيه ، اذ أنه استطاع أن يقتل غليوم كونت برشلونة لمساعدته المسلمين وفتح أبواب برشلونة لهم ، فأرسل الأمير عبد الرحمن فى أواخر سنى حكمه جيشا لمعاينة أهل مدينة برشلونة لعدم وقوفهم بجانب غليوم ومنعه من القتل . ومع ذلك أخذت برشلونة تنهج خطا معاديا لحكومة قرطبة ، مما جعل الأمير

(١٠١) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٥٠ ، السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٩ .
(١٠٢) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٣٠ ، رينو المرجع نفسه ، ص ١٥٦ .

Murphy, op. cit., p. 93.

محمد الذي تولى الحكم في قرطبة بعد عبد الرحمن الثاني يكتب الى موسى بن موسى القسوى عامله على الثغر الأعلى بأن يحشد جيشه ويغزو برشلونة . فدخلها موسى عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م وحارب قلاعها ، وتجاوزها الى ما وراءها حتى افتتح حصن طراحة وهو آخر حصون برشلونة ، ثم عاد الى سرقسطة غانما منتصرا (١٠٣) .

ويبدو أن فرنجة برشلونة عادوا للاغارة على اطراف الثغر الأعلى مما اجبر الأمير محمد أن يرسل جيشا آخر عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م تمكن من دخول برشلونة ، فأرسل أهلها الى ملك الفرنجة يطلبون الفوت فأمدهم بجيش جرار ، وكذلك طلب المسلمون المدد من قرطبة فوصلهم ، واقتتل الطرفان وانهزم الفرنجة واستولى المسلمون على أرياض المدينة وعلى برجين من أبراجها وقتلوا كثيرا من الفرنجة وعادوا الى قرطبة غانمين (١٠٤) .

وازاء هذه الحملات المتكررة على برشلونة ، اضطر الملك شارل الأصلع ملك فرنسا أن يوقع الصلح مع الأمير محمد عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م ، والنزم شارل في هذا الصلح بالأ يعود الى مساعدة من يخرج عن الطاعة من نصارى أسبانيا ، وتنازل الأمير محمد عن برشلونة وغيرها من مدن قطلونية ، ولم يعد المسلمون يتصدون لمحاربة ملوك فرنسا منذ ذلك الوقت محاربة مستمرة أو منتظمة . ذلك أنهم كانوا يضطرون أحيانا للاغارة على هذه المنطقة ، وأحيانا يصلون الى جبال البرنات ، حتى انه هاجر بعض الأساقفة من هناك خوفا على أنفسهم من هجمات المسلمين (١٠٥) .

(١٠٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٠ ، الزرأبي ، قرة النفوس ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٨ .

(١٠٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٧ .

(١٠٥) الزرأبي ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

وقد حدث ما توقعه المسلمون إذ أن اسماعيل بن موسى القسوى صاحب تطيلة كان قد شرع في بناء مدينة لاردة أو زيادة تحصينها وذلك في عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ، فحاول صاحب برشلونة الفرنجى أن يهزمه من ذلك وتقدم على رأس جيشه لتحقيق هذا الهدف ، لكن اسماعيل هزمه وقتل أكثر رجاله ، ومعروف أن لاردة على مسافة قريبة من برشلونة فخاف كونت برشلونة من هجمات مسلمى لاردة إذا لم لهم تحصين مدينتهم (١٠٦) .

وكانت إمارة بنى أمية نعانى أشد المعاناة في تلك الفترة من حياتها بسبب الثورات الداخلية التى أشرنا إليها من قبل ، مما أطمع أمراء تلك الإمارة الصغيرة في بلاد المسلمين ، حتى أنهم تجرعوا وأرسلوا حملة بحرية من خمسة عشر سفينة حربية ، أغارت على ساحل المرية عام ٢٧٦ هـ وأحرقت كثيرا من السفن الاسلامية الراسية هناك ، فخرج أهل بجانة من رجال البحر وقاوموا الغزاة ، حتى تم الصلح على أن يقلع هؤلاء الغزاة وألا يعودوا مرة أخرى (١٠٧) .

ويبدو أن قائد الأسطول الفرنجى كان ابنا لكونت برشلونة ، ذلك أن لب بن محمد القسوى صاحب الثغر الأعلى كان قد أغار بعد ذلك في عام ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م على حصن أورة من أحواز برشلونة ، والتقى هناك بكونت برشلونة عنقديد والد شنير فهزمه وقتله . وتولى شنير حكم برشلونة . وكان شنير هذا هو صاحب الحملة البحرية السالفة الذكر (١٠٨) .

(١٠٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٣٢ .

(١٠٧) الرازى برواية ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(١٠٨) الرازى برواية ابن حيا ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ١٣٦ .

ظل شنير Sunler حاكما لبرشلونة حتى عام ٢٩٩ هـ / ٩١٢ م
حينما اغار عليه محمد بن عبد الملك الطويل ، ولما وصل ابن الطويل
الى وادى طراحة قرب برشلونة كان شنير قد سبقه وكمن له فى صياصى
الجبال ، لكن ابن الطويل تمكن من هزيمته وقتل كثيرا من رجاله ، ثم دارت
الدائرة بعد ذلك على ابن الطويل حيث قتل فى العام التالى خلال
غزوة اخرى قام بها فى قطلونية ، فخلفه اولاده فى حكم اراضيه .
وهكذا بقيت برشلونة وما يليها من قطلونية خارجة عن حكم المسلمين ،
حتى فى زمن عبد الرحمن الناصر برغم كثرة غزواته وعظم دولته كما
سنرى فيما بعد(١٠٩) .

(١٠٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، شكيب ارسلان ، الحلل
السندسية ، ج ٢ ، ص ٢١٢ ، عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، ع ١ ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

الباب الثاني

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية
وأشبانيا النصرانية في عصر خلفاء بني أمية

الفصل الأول : الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين
الأندلس الإسلامية وأشبانيا النصرانية
في عصر خلفاء بني أمية .

الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس
الإسلامية وأشبانيا النصرانية في عصر خلفاء
بني أمية .

الفصل الأول

الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر خلفاء بني أمية

أولا — ظروف الأندلس الإسلامية وأحوالها المؤثرة في علاقتها بأسبانيا النصرانية

انتهى عصر الأمير عبد الله عام ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م ، وكانت الأندلس الإسلامية يطبق عليها ملوك جليقية ونبرة وبرشلونة من الشمال ، وابن حفصون من الجنوب ، وابن مروان الجليقي من الغرب ، وقام الثوار الآخرون من المولدين والعرب والبربر بالسيطرة على أجزائها الباقية ، حتى كان الأمير الأموي في بعض الأحيان لا نفوذ له إلا على قرطبة وحدها . ومع ذلك جاهد أمراء بني أمية الأواخر ما وسعهم الجهاد ، وصعدوا حتى نناح لهم الفرصة لصد هذه الموجة العاتية من التمزق والسقوط والضياع ، وتوج كفاحهم بما قام به عبد الرحمن الناصر من إسم هذا الشتات وإعادة الوحدة إلى البلاد مرة أخرى .

لقد أنقذ الناصر الأندلس من نفسها ، كما أنقذها من براثن السيطرة النصرانية من ملوك جليقية ونبرة ، ورفعها إلى مرتبة الدولة العظمى التي يخطب ودها الشرق والغرب ، وحقق لها السلام والازدهار والرفاهية في الداخل ، والانتصار والاحترام في الخارج . وكان الناصر منذ توليه الحكم يحارب معركتين في وقت واحد ، معركة مع نصارى الشمال الأسباني الذين رأوا أن يجهضوا قوة هذا الأمير الشاب وينالوا منه قبل أن يستكمل قوته ، ويتخلص من مشاكله الداخلية ويستدير لهم ، ومعركة مع ثوار الأندلس الذين ورثهم من عهود من سبقه من الأمراء . وانتصر الأمير عبد الرحمن في المعركتين ، وأعلن قيام الخلافة الأموية في الأندلس في ذي الحجة عام ٣١٦ هـ . (١)

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

فقد أحس عبد الرحمن الناصر بالقوة ، وأراد أن يدعم مركزه السياسي أمام أعدائه في الداخل والخارج ، وخاصة بعد أن ترامى إليه ما نال الخلافة العباسية بالمشرق من حجر الموالى واستبدادهم بالخلفاء وقيامهم بعزلهم وقتلهم ، كما لاحظ أيضا قيام الخلافة الفاطمية في المغرب ، وتسرب دعوتها الى الأندلس ذاتها ، مما جعله يعلن قيام الخلافة الأموية في قرطبة ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسم « الاملم الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين » وضرب النقود بهذه الألقاب (٢) .

وكما فعلنا في الباب السابق ، وألقبنا نظرة عامة على أحوال بلاد الأندلس والشمال الأسباني لنعرف عوامل القوة والضعف التي أثرت في العلاقات بينها ومكنت أولئك أو هؤلاء من احراز تقدم أو كسب انتصار ، علينا أن نفعل الآن نفس الشيء بالنسبة لهذا العصر ، عصر الخلافة الأموية ، لنعرف كيف تحولت الهزائم في عصر الامارة الاخير الى انتصارات في عصر الخلافة ، وكيف تحولت الأندلس ، من أندلس ابن حفصون وابن مروان الجليقي وبنى قسي وغيرهم ممن قطعوا أوصالها ، الى الأندلس الموحدة القوية ، الى أندلس عبد الرحمن الناصر .

١ - سمات عصر الخلافة :

وقد اتسم هذا العصر بسمات معينة بالنسبة لعلاقات مسلمي الأندلس بممالك أسبانيا النصرانية . فقد كان العصر عصر قوة في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) . وقد استخدم الناصر قوة الدولة في ارباب ممالك أسبانيا النصرانية وفي اجبارها على الخضوع وطلب السلام ، لكنه لم يعمل على القضاء عليها أو تدميرها تدميرا تاما . فقد كان معتدلا في استخدام قوته ، مدركا انه لا يمكن القضاء على تلك الممالك التي نشأ بعضها منذ أن تواجد المسلمون أنفسهم على أرض تلك البلاد . ومن ثم فقد ساد السلام بين الأندلس وأسبانيا النصرانية طوال السنوات الاخيرة من حكمه وطوال عهد ابنه الحكم المستنصر .

(٢) ابن خلدون ، مفتحته ، ج ٢ ، ص ٥٨٠ ، ٥٨١ .

وقد استمر عصر القوة في عهد الدولة العامية (٣٦٦-٣٩٩ هـ) رغم ما انتاب الخلافة نفسها من ضعف بسبب استبداد المنصور محمد بن أبى عامر بشئون الحكم وحجره على الخليفة الطفل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر (٣٦٦-٣٩٩ هـ) . لكن المنصور وابنه عبد الملك المظفر أسرفا في استخدام قوة الدولة ووجهها لتعطيم ممالك أسبانيا النصرانية ، ووصلت قوات المنصور الى أماكن لم تصل اليها جيوش اسلامية من قبل ، ودك عواصم ممالك نبرة وليون وبرشلونة ، وخرب كثيرا من بلدانهم ومدنهم وقراهم ، وصار سيد الجزيرة كلها بالسيف والقهر وسفك الدماء .

وقد تنفس نصارى الشمال الأسباني الصعداء عند سماعهم نبأ موته ، وانتهزوا فرصة سقوط دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ ، وقيام الصراع بين خلفاء بنى أمية الأواخر ، وتدخلوا فيما بينهم ، وأعانوا فريقا ضد فريق، الليونية أو البرشلونية . واتسمت هذه الفترة بتلك الظاهرة ، حتى استقر الأمر لبنى حمود ، وأعلنوا قيام الخلافة العلوية في قرطبة عام ٤٠٧ هـ ، حتى صار الخليفة الأموي لا يصل الى كرسى الخلافة الا على أسنة الحراب فترك نصارى الأسبان مسلمى الأندلس يأكل بعضهم بعضا ، ويقتتل بنو حمود مع بنى أمية ، ويقتتل بنو أمية مع بعضهم البعض للوصول الى كرسى الخلافة ، حتى سقطت خلافة بنى أمية نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م وظهر عصر جديد يعرف بعصر ممالك الطوائف .

وعصر الخلافة الأموية كما رأينا بدأ قوبا فيما يتعلق بالعلاقات مع أسبانيا النصرانية ، واستمر كذلك طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ومع بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، تغيرت الأحوال بسقوط دولة بنى عامر ، وقيام الفتنة البربرية ، وبدء الصراع على كرسى الخلافة ، والتماس المساعدة من ممالك أسبانيا النصرانية التى رأت أن الفرصة مواتية لكى تأخذ بثأرها من أحفاد الفاسق والمستنصر والمنصور ، ونشطت للقضاء عليهم ، وتقدمت حركة الاسترداد خطوات واسعة للأمام .

وقد كانت هناك عوامل معينة أدت الى موقف القوة في العلاقات مع نصارى الشمال طوال القرن الرابع الهجرى ، وعوامل أخرى أدت الى موقف الضعف في العلاقات مع هؤلاء النصارى بدءا من القرن الخامس الهجرى وحتى سقوط الخلافة عام ٤٢٢ هـ .

٢ - عوامل القوة وأثرها في العلاقات مع أسبانيا النصرانية :

أما عوامل القوة ، فقد كان أهمها هو وحدة الجبهة الداخلية التي تحققت لأول مرة على يد عبد الرحمن الناصر بعد فترة من التفكك والانقسام أشرنا اليها في حديثنا عن أحوال الأندلس في أواخر عصر الإمارة . وكان الناصر قد ورث بلادا ممزقة الاوصال مفتتة القوى ، فالشعر الأعلى (سرقسطة) تقاسمه بنو تجيب العرب ، وبنو قسي وبنو الطوبل من المولدين ، وماردة وبطليوس والغرب الأندلسى كله كان تحت سيطرة ابن مروان الجليقى ، وجنوب الأندلس كان فى قبضة عمر بن حفصون . وكانت البغضاء بين عناصر السكان من عرب وبربر ومولدين وبين المسلمين والنصارى ، قد هزت كيان الدولة وزعزعت حكم بنى أمية حتى أوشك على الزوال (٣) .

وكانت هذه الأوضاع تتطلب قائدا حكيما موصوفا بالشجاعة والدهاء . وقد توافرت تلك الصفات فى عبد الرحمن الناصر الذى اتبع تجاه أعدائه فى الداخل سياسة تنسم بالاعتدال والمداواة واللين حيناً ، وبالقوة والحزم والحسم حيناً آخر ، فكان يحاربهم ويحاصرهم ويجبرهم على التسليم ثم يعفو عنهم ، ويسكنهم بجواره فى قرطبة ويجزل لهم العطاء ، ويوفر لهم الحياة الكريمة ، حتى لا يفكروا فى التمرد والعصيان مرة أخرى . لم يكن يقتلهم أو يستل عيونهم أو يلقيهم فى غياهب السجون كما كان يفعل ملوك ليون ونبرة ، ولكنه كان رحيماً حتى بأعدائه ، وأذلك أحبوه واحترموه ولم يفكروا فى نقض تعهداتهم معه ، ولو حدث ذلك لم يكن الا بتأثير أسبانيا النصرانية وأغرائها لهم بالعودة الى العصيان والتمرد .

(٣) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ .

وقد ساعد الناصر أيضا في توحيد الجبهة الداخلية ، ما اتبعه من سياسة حكيمة تجاه الشعب والجيش . فلم يتبع أسلوب الارهاب والاستبداد المطلق في حكمه للبلاد . صحيح أنه حقق للدولة منتهى الأبهة والفخامة والقوة والسلطان ، وأصبحت مرهوبة الجانب شديدة البأس ، لكن ذلك لم يكن الا على أعدائها من نصارى الشمال الأسبانى الذين بلغت رهبة الخلافة في نفوسهم أن ملوكهم كانوا يقبلون الارض في مجلس الخليفة عندما كانوا يفسدون عليه طلبا للسلام (٤) .

أما أفراد الشعب ، فلم يكونوا يحملون في قلوبهم الا شعورا بالحب والهيبة والتقدير نحو خلفائهم الذين حققوا لهم الرفاهية في الداخل ، والنصر على الأعداء في الخارج ، واتبعوا العدالة في حكمهم حتى أن بعض الفقهاء اشتط في نقدهم وتأنيبهم ، لأنهم غالوا في إقامة العمائر والقصور ، وفي الإسراف في تزيينها ، فلم يقدم هؤلاء الخلفاء على إيدائهم أو عزلهم ، ليس خوفا منهم كما قال البعض ، ولكنها سنة أخذ بها بنو أمية أنفسهم ، لعلهم بأن هذه البلاد المتنوعة المشارب المتعددة العناصر السكانية ، لا تجمعها القوة فقط ، ولكن العدل واحترام الشرع والعمل بأقنوال الأئمة والفقهاء واحترامهم هو الذى يحقق وحدتها ، وهو السبيل لقيادتها (٥) ،

وقد أدت تلك السياسة الى امتزاج عناصر السكان تدريجيا ، ووجد ما يسمى بالشعب الأندلسى الذى أصبحت له خصائصه التى تميزه عن غيره من الشعوب الأخرى ، والذى وقر في قلبه حب بنى أمية ، وأصبحوا في نظره هم الحكام الشرعيون ، وكل من حاول أن ينال منهم كان يخضع هذه الحقيقة في الحسبان . وحدث أن حاول المنصور بن أبى عامر - ذلك الزعيم القوى الذى فرض سلطانه على سكان شبه الجزيرة جميعا ،

(٤) المقرئ ، نفع للطيب ، ج ١ ، ص ٩٩ ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٥) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، المقرئ ، نفع للطيب ، ج ١ ، ص ٩٩ ، أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ، كامل كيلانى ، نظرات في تاريخ الأدب الأندلسى ، ص ٢١٧ .

مسلمين ونصارى—أن يقصى بنى أمية عن كرسى الخلافة ، لكنه لم يستطع ذلك ، لأنه خشى غضبة الشعب وتأييد هلبنى أمية . وكان هذا هو السر فى أنه أوصى أولاده الا يمتحنوا الخليفة وأن يصونوا حقوقه فى الخلافة حتى لا يصطدموا بالشعب . ولما خالف تلك الوصية ابنه عبد الرحمن شنجول ، وأجبر الخليفة هشام المؤيد على مبايعته بولاية عهده ، تفجرت الثورة ضده وأطاحت برأسه وبدولة بنى عامر مما (٦) ،

لم يكن بنو عامر اذن طفافة مستبدين كما وصفهم البعض مستدلين على ذلك بقتل الناصر لابنه عبد الله الذى تأمر عليه عام ٣٣٩ هـ (٧) أو بموقفه من العرب الذين استتراب منهم ، واستعانته بالعناصر الأجنبية من الصقالبة الذين وثق بهم وولاهم أهم الوظائف فى الجيش والحكومة . لكن فأت هؤلاء جميعاً أن يعرفوا طبيعة العصر وطبيعة الشعب ، ووضع الدولة الأندلسية التى كان يحيط بها الأعداء من شمالها وجنوبها ، وفاتهم أيضاً ماذا كان يحدث للأندلس لو نجح عبدالله فى مؤامراته وقتل أباه ، ذلك الخليفة العظيم الذى رآب الصدع وأعلى كلمة الاسلام ، حتى قال البعض أن هذا المعاهل أولى به أن يكون من حكام هذا العصر بدلا من أن يكون من حكام العصور الوسطى (٨) .

وكان الناصر مضطرا للاستعانة بالعناصر الأجنبية فى الجيش لكى يوازن بهم العرب من ناحية وأهل الأندلس من ناحية أخرى ، حتى يضمن ولاء الجميع له ، وحتى لا يطفئ عنصر على الآخر ، ولم يخص أى حزب من

(٦) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٧) ذكر ابن الأبار أن قتل عبد الله كان عام ٣٣٨ هـ ، بينما ذكر بن سعد المغربى أنه كان عام ٣٣٩ هـ ، وهو التاريخ الذى أحضنا به ، لأن ابن سعيد يقل عن إبراهيم بن القاسم المروى المعروف بالرفيق ، وهو من مؤرخى المرن الرابع الهجرى ، وهو معاصر لعبد الرحمن الناصر . أنظر ، ابن الأبار ، الحطة للسيرة ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ابن سعد ، المغربى فى حلى المغرب ، ج ١ ص ١٨٦ ، ١٨٨ .

(٨) ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، النصولى ، الدولة الأموية فى قرطبة ، ص ١٢١ .

هذه الاحزاب بميزة ، أو رفعه دون غيره كما قال البعض لكنه شدد الضغط على العرب بسبب ماكانوا يثرونه من عصبية . والحقيقة أن العصبية كانت سر بلوى الاندلس ومصيبتها ، وكانت السبب في اشعال نار الفتنة بين عناصر السكان في عصر الامارة ، وقبله في عصر الولاة كما سبق القول^(٩) .

لم يقض الناصر على نفوذ العرب في الجيش قضاء تاما ، وانما اقام الى جانبهم عنصر الصقلية حتى يضمن نجاح السياسة التي اشرنا اليها ، ولم يقض الناصر على النظام القبلي في الجيش ، ولكنه اوجد نظام الجيش الدائم ، الذي كان يربط دائما في العاصمة ، والذي كان يكون أساسا من الصقلية . أما في الولايات والثغور ، فهناك الجيوش القبلية التي تهب وقت الحاجة عند استنفار الخليفة لها ، تحت قيادة قوادها وتتجمع عند نقطة معينة ، وتنطلق جميعا للغزو أو لرد اعتداءات النصارى . وبذلك كان لدى الناصر الجيش الثابت الدائم الذي يأخذ عطائه روائب شهرية ، والجيش القبلي الذي عطائه من ريع ما تحت يده من أرض ، ويهب فقط عند استدعاء الخليفة^(١٠) .

وأدى هذا النظام الذي أوجده الناصر الغرض منه تماما . إذ لم يستطع العرب إثارة المشاكل أمام الناصر ، ومشوا في ركابه مستفيدين مما يتيحه لهم من المغائم والاسلاب ، وما يحققه لهم من الانتصارات والفتوحات ، وظلوا مقيمين على الطاعة ، ينهضون للغزو عند أول إشارة . ولم يستطع الصقلية أن يقوموا بأي تحركات قد تثير الناصر أو تدفعه الى التخلص منهم أو استبدالهم بغيرهم ، بل أقاموا على انطاعة وأخلصوا الطوية ونالوا أرفع المناصب وأعلاها ، مما أثار عليهم حقد العرب ، وجعلهم يتخلون عن الناصر في واحدة من أكبر غزواته عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م ، وأسلموه للهزيمة ، لأنه جعل قيادة الجيش في يد نجدة الصقلية . وكان هذا

(٩) لين بول المرجع نفسه ، ص ٩٧ ، حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ١٣٦ .

(١٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١١٣ .

مؤشرا يدل على الحقن الدفين بين هذين العنصرين ، ولولا قوة شخصية خلفاء القرن الرابع الهجرى ، لتحول هذا الحقن الى صراع دموى ، كما حدث فى بداية القرن الخامس الهجرى ابان الفتنة البربرية وأطاح بالدولة وبالخلافة فى النهاية .

بهذه السياسة التى اتبعها الناصر فى معاملة أعدائه داخل الاندلس ونحو الشعب والجيش ، استطاع أن يوحد الجبهة الداخلية (١١) ، وأصبح

(١١) أقتضى توحيد الجبهة الداخلية أن يقوم الناصر بالقضاء على حيوب المقاومة الداخلية والحركات الانفصالية التى شملت معظم أنحاء الأندلس فى عصر الامارة .

وكان من أشهر هذه الحركات ثورة بنى حفصون ، وقد قضى عليها الناصر عام ٣١٥ هـ .
انظر ، ابن عذارى ، للبيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
٢٧١ - ٢٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٧٩ - ٢٩٢ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ،
٣٧٤ ، ٣٧٥ .

كما قضى الناصر على ثورة أهل طليطلة التى كانت قد استقلت بشئونها وحاولت الثورة فى عهد الناصر بتشجيع ملوك ليون ، لكن الناصر قضى على ثورتها عام ٣٢٠ هـ . انظر ، بن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٦١ .

كما قضى الناصر على ثورة ابن مروان الجليلى بغربى الأندلس عام ٣١٨ هـ . وكان الجليلى قد استمل بمباردة وبطلانوس ، واستعان فى ذلك بملوك ليون . انظر ، ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ .

أما المتمردون من المولدين والعرب الذين استقلوا بالثغر الأعلى (سرقسطة) وتقاسموه فيما بينهم ، وتحالفوا مع ملوك نبرة وليون أحيانا ، ودانوا بالطاعة للامارة الأموية ثم للخلافة أحيانا أخرى ، فلم يتركهم الناصر الا بعد أن أخضعهم .

لاخضاع بنى قسى ، انظر ، ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٨ ،
العدري ، بصوص عن الأندلس ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ،
٦٦ - ٦٣ ولاخضاع بنى تجيب العرب ، انظر ، ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،
ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ولاخضاع بنى الطويل ، انظر ، المعزى ، المصدر نفسه ، ص ٤٥ ،
للمعزى ، المصدر نفسه ، ص ٤٣ - ٥٢ .

فى سعة من أن يتفرغ لجهاده ضد ممالك أسبانيا النصرانية الذين لم يتجوا له فرصة لالتقاط أنفاسه ، وظل يصارعهم حتى صرعهم ، وأملى ارادته عليهم وأتوا اليه خاضعين مستسلمين ، يعلنون الطاعة والولاء ، وصار الناصر بذلك سيد شبه الجزيرة كلها ، شمالها وجنوبها ، مسلميها ونصارها وصارت الأندلس فى عهده قبلة الأنظار ، ومحط السفراء من جميع أنحاء العالم .

ومن عوامل قوة الأندلس فى عهد الخلافة أيضا اخضاع مناطق الثغور للخلافة ، واستخدامها كتواعد لضرب ممالك أسبانيا النصرانية حتى لا توجه الاسرات الحاكمة فى تلك الثغور ، نشاطها ضد قرطبة كما حدث فى عهد الامارة ، وحتى لا تكون سوطا فى يد نصارى الشمال ، يلهبون به ظهر قرطبة متى أرادوا .

وكانت مناطق الثغور الاسلامية نقطة ضعف فى كيان دولة الأندلس . وفى عصور الضعف ، كان حكام تلك الثغور يستقلون بها ، كما حدث فى أواخر عصر الامارة ، وفى بداية عصر الخلافة ، وكما حدث عقب انهيار دولة بنى عامر فى القرن الخامس الهجرى فيما يسمى بممالك الطوائف . وفى عصور القوة كان حكام تلك الثغور يقفون بين حكام قرطبة وبين حكام ليون ونبرة وبرشلونة ، يستعينون بأحدهما ضد الآخر ، ويضربون هذا بذاك ، ويتحالفون مع طرف ضد الطرف الآخر ، حفاظا على مصالحهم كما سبق القول ، ومن هنا كانت سياسة الناصر الحكيمة فى مجاهدتهم واخضاعهم بالقوة ، ثم مداراتهم واسترضائهم بتعيينهم حكاما على أقاليمهم بعد أن يعلنوا له الطاعة والخضوع .

وقد نجحت تلك السياسة أيضا نجاح فى تقليص أظافرهم ، ولجأ الناصر فى بعض الأحيان الى أسلوب ضربهم ببعض ، وهو أسلوب اتبعه أجداده فى عصر الامارة . وبذلك قضى الناصر على أسرة بنى قسى الذين كانوا يحكمون فى تطيلة ، بضربهم ببنى تجيب من العرب ، وساعده على ذلك ما تعرض له بنو قسى من هجمات ملك نبرة وملك ليون عام ٣١٠ هـ

على ممتلكاتهم ، وأسرهم لزعيم تلك الاسرة محمد بن عبد الله بن لب ، وقتله
في سجن بملونة (١٢) .

وكذلك فعل الناصر مع بنى الطويل الذين كانوا يحكمون في وشقة
وبريشتر ، اذ ضربهم ببني تجيب أيضا ، وخاصة بعد مقتل زعيمهم محمد
ابن عبد الملك الطويل عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، أثناء قتاله ضد جنود
برشلونه من الفرنجة . وقام بنو تجيب بمحاولة السيطرة على أملاك
بنى الطويل في لاردة وحصن منت شون . وكذلك ضرب الناصر بنى
الطويل ببني قسى أيضا ، فولى عمرو بن الطويل مدينة لاردة التي كانت في
حوزة محمد بن لب القسوى ، فقام الصراع بين الاسرتين عام ٣٠٩ هـ
وليس عام ٣١٩ هـ كما قال العذري ، لأن محمد بن لب كان قد مات
عام ٣١٧ هـ ، وانهزم عمروس في ذلك الصراع ، واسنولى محمد بن لب
على لاردة عام ٣١٠ هـ وأسر عمروس وأخاه موسى وأرسلهما الى الناصر
حبث صفح عنهما ، والتزم عمروس بالطاعة ، فأعاده الناصر الى وشقة
حاتمها لها ، وظل بها حتى توفي عام ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م (١٣)

وبعد اخضاع الناصر لحكام الثغر الاعلى ، أصبحوا أداة في يده ،
يذرب بهم ملوك اسبانيا النصرانية ، ويتخذ بلادهم قواعد ينطلق منها
لغزو هؤلاء الملوك . فقد ساعده بنو قسى في غزوة مويش عام ٣٠٧ هـ /
٩١٩ م ، وهزموا معا ملوك ثبرة وليون وحلفاءهم من بنى الطويل .
ولما تم اخضاع بنى الطويل اشتركوا مع الناصر في غزوة الخندق في
عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ ضد ملك ليون ، واشترك بنو تجيب العرب مع جيوش

(١٢) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٤٦٤ ، العذري المصدر نفسه ، ص ٤٣ ، ابن

عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

يجعل ابن عدارى ، المصنوع هو عبد الله بن لب ، وهذا خطأ ، لأن عبد الله هذا
مات مسموما عام ٣٠٣ هـ ، بينما العذري يجعل المقتول هو محمد بن عبد الله بن لب ، وهو
الصحيح ، لأنه معاصر للاحداث . أنظر ، المصدرين الأخيرين ونفس الصفحات .

(١٣) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ - ٦٨ .

الناصر لقتال بببلونة عاصمة نبرة عام ٣١٢ هـ ، وكافأهم الناصر وولاهم
حكاما لسرقسطة وتطيلة بالاضافة الى ثلعة أيوب ودروقة ، وصدوا
هجومًا لجند نبرة عام ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، وقتل الكثير منهم^(١٤) .

من هذا يتبين لنا أن عبد الرحمن الناصر صارع أمراء الثغر الاعلى
من المولدين والعرب ، واتبع معهم ومع غيرهم من الثوار الآخرين في جنوبى
الاندلس وغربها ، أسلوب القوة والحزم ، وأسلوب الإدارة والاصطناع
والعنف والمصالحة ، فكان يزحف عليهم بجيوشه اذا ما اظهروا العصيان
تم يعفوا عنهم بعد أن يقفوا في يده ، فيخلصون له الود ، ويصبحون
أداة يضرب بها أعداءه من ممالك أسبانيا النصرانية . وبذلك أمن
الناصر الجبهة الداخلية ، وانطلق يغالب نصارى الشمال الاسباني
ويصارعهم حتى صرعهم ، وأقبلوا عليه خاضعين مستسلمين يطلبون الصفح
ويلتمسون سلام الناصر ورضاه ، وحقق الناصر ماكان يصبو اليه من توفير
الهدوء والامن والامان لسكان شبه الجزيرة كلها ، واتاحة الفرصة
للجميع كي يعيشوا في سلام ، ويحققوا الرخاء والرفاهية لانفسهم
وبلادهم .

ومن عوامل قوة الدولة الاندلسية في عصر الخلافة ، ما قام به
المنصور محمد بن أبى عامر من اصلاحات عسكرية ، كانت لها نتائجها
الخطيرة على الصراع مع ممالك أسبانيا النصرانية ، وعلى كيان الدولة
الاندلسية نفسها بعد زوال حكم بنى عامر عام ٣٩٩ هـ . وكان المنصور
يهدف بتلك الاصلاحات الى احكام السيطرة على مقاليد الامور بعد أن
حجر على الخليفة هشام المؤيد ، واستبد بشئون الدولة ولقب نفسه
بالمالك الكريم^(١٥) .

(١٤) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٤٦٤ ، العزى ، المصدر نفسه ، ص ٤٣ . ٤٤ ،

٧١ - ٧٣ ،

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(١٥) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ابن بسام ،

الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٤٠ .

وكان اهل الاندلس قد رأوا فيه « الشخص القوي الذي رأب الصدع ودافع عن البلاد ووفر لها الامن والسكينة » فوافقوا على كفالته لهشام المؤيد حتى يكبر . لكن المنصور لم يكن مستعدا للتنازل عن سلطانه . ولذلك بنى قواته على نظام جديد ، يكفل له احكام السيطرة عليها من جانب ، ويضمن له حسن استخدامها لارهاب أعدائه في الداخل ولضرب أعداء البلاد في شمال أسبانيا من جانب آخر (١٦)

ذلك أنه أحس بخطر صقلية الخلفاء منذ البداية وأحس بالتنافس الموجود بينهم وبين العنصر العربي ، وعرف أن هذين العنصرين لن يفيداها كثيرا في تنفيذ مشروعاته السياسية والحربية ، فالصقلية عددهم قليل ، ولن يغفروا له قط حجره على ابن خليفهم . كما أن العرب كانوا منقسمين على أنفسهم ، فإذا أيدى المضيرون نخلى عنه اليمينيون ، أما المسلمون من أهل البلاد ، فلم يكونوا مهتمين بغير أعمالهم في الزراعة والتجارة . ولذلك عول المنصور على استخدام عنصر جديد ، ينفذ أوامره دون مناقشة (١٧)

كان هذا العنصر الجديد هم البربر الذين استقدمهم المنصور ثم ابنه من بعده عبد الملك المظفر من شمال افريقية ، وأغدقا عليهم وبالغا في اكرامهم ، فأخلصوا لبنى عامر ، ودافعوا عن دولتهم وحققوا لها كثيرا من الانتصارات على ممالك أسبانيا النصرانية لدرجة أن المنصور والمظفر لم تهزم لهما راية قط .

وبجانب استخدام البربر في الجيش ، قضى المنصور على العصبيات فيه ووزع الأجناد من العرب والبربر والصقلية على فرق الجيش بحيث كانت تحتوى كل فرقة على جند من هذه العناصر المتباينة ، ووزع جند القبيلة الواحدة على الفرق المختلفة حتى أصبح الجندي لايعرف القبيلة

(١٦) ابن حزم ، نبط العروس ، ص ٧٧ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٧ ، نكل : مختارات من الشعر الأندلسي ، ص ٤٧ .

(١٧) ابن عذارى ، المسحور نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ، خالد الصوفاني ، عصر المنصور الأندلسي ، ص ٨٠ .

التي كان ينسب اليها ويقاتل معها ، وأصبح ولاؤه للقائد غقط ، وليس لرئيس قبيلته كما كان الوضع أيام خلفاء وأمراء بنى أمية ، وبذلك صار جيشه أشبه بالجيش القومى الذى يدين بالطاعة لرئيسه الأعلى وهو المنصور بن أبى عامر (١٨) .

وكان هذا الإصلاح العسكرى ذا اثر فعال فى تحقيق جميع اهداف المنصور بن أبى عامر ، سواء فى الداخل أم فى الخارج ، وقد ضمن له السيطرة على البلاد ، فحكمها بيد من حديد ، فكانت دولة استبدادية عسكرية من الطراز الاول ، حققت الهدوء فى الداخل والانتصارات التى تشبه الخيال فى الخارج ، سواء فى الشمال ضد ممالك أسبانيا النصرانية أم فى الجنوب ضد الفاطميين وغيرهم ممن كانوا يقاومون نفوذه فى شمالي أفريقيا ، ولولا هذا الجيش المنظم الذى كان لايعرف له قائدا سواه ، لما استطاع المنصور بن أبى عامر أن يصل الى اقصى جليقية ونبرة (نافار) وبرشلونة ، وأن يدك عواصم تلك الممالك دكا لم يحدث فى أى عصر من العصور التى سبقتة .

كان المنصور قائدا عسكريا من الطراز الاول ، وكانت له همة لاتضارعها همة أخرى فى الجهاد . وربما خرج الى صلاة العيد فحدث له نية فى الجهاد ، فلا يعود الى قصره ، بل يخرج توا الى معسكره ، ويأخذ فى الزحف شمالا ولاينتظر حتى تكتمل قواته ، بل يأمر قواده أن يوافوه تباعا عند مكان معين . وكان هذا سببا من أسباب كثرة غزواته ضد ممالك أسبانيا النصرانية ، حتى قيل أنها بلغت أكثر من خمسين غزوة . ذلك انه كان يخرج للغزو فى العام مرتين ، احدهما فى الصيف فيما يعرف بالصائفة ، والاخرى فى الشتاء فيما يعرف بالشائية ، وربما خرج للغزو فى العام الواحد أكثر من ذلك (١٩) .

(١٨) الصقدي ، الوافى بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، النصولى ، المرجع

نفسه ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، الرفاعي ، الحاجب المنصور ، ص ١١ .

(١٩) الضبي ، بغية المتمس ، ص ١٠٦ .

ولم تقتصر عوامل القوة على النواحي السياسية أو العسكرية ، بل كان ازدهار الحياة في الأندلس وبلوغها القمة بمقاييس ذلك العصر ، من عوامل القوة التي أثرت على العلاقات بين الأندلس الإسلامية وممالك أسبانيا النصرانية ، وخاصة في النواحي الحضارية . ذلك أن الناصر خصص ثلث ميزانية الدولة — على عظم الجباية في ذلك الوقت — للبناء والمشروعات العمرانية ، وكذب التاريخ تفيض بذكر ما أنفقه الناصر على بناء مدينة الزهراء التي استمر العمل بها منذ عام ٣٢٥ هـ حتى وفاة ابنه الحكم المستنصر عام ٣٦٦ هـ ، علما بأنه كان ينفق على عمارتها مبلغ ثلاثمائة ألف دينار كل عام من هذه الأعوام الطوال . كما قام المنصور ببناء مدينة أخرى تسمى الزاهرة لانتقل بها وثنائها عن زهراء الناصر^(٢) وما ذلك الا مجرد أمثلة نذكرها للدلالة على وفرة الدخل ومثانة الوضع الاقتصادي الذي كان القاعدة الصلبة التي بنى عليها حكام القرن الرابع الهجري مشاريعهم العمرانية والعسكرية . وبصفة عامة بلغت الأندلس في ذلك القرن ذروة الرخاء والازدهار ، وتقدمت فيها الزراعة والنجارة والصناعة ، وازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون حتى أصبحت قرطبة قبلة لطلاب العلم وتجار ممالك أسبانيا النصرانية الذين وفدوا إليها لشراء ما فاضت به حضارة الأندلس من تحف وروائع فنية وملابس قيمة ، كانت نساء الطبقة الأرستقراطية في الشمال الأسباني تلح في طلبها ، وتجند سرورا لا حد له في اقتنائها . ولم يقتصر هذا الأمر على نصارى الشمال ، بل وصل تأثير الحضارة الأندلسية الى شتى أنحاء أوروبا ، حتى أنها وردت ضمن أشعار الراهبة السكسونية هيروسونيتا التي أشادت بها في قصائدها وأشعارها ، ووصفت قرطبة بأنها زينة الدنيا^(٣) .

ومن ثم وفدت على الأندلس سفارات عديدة من امبراطور القسطنطينية وامبراطور المانيا وملوك ليون ونبرة وبرشلونة تعقد المعاهدات وتوطد العلاقات الدبلوماسية والتجارية بينها وبين قرطبة . والجدر بالذكر

(٢٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١١٢ ، المقرئ ، ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٧٠ .

(٢١) ابن حوقل ، المصدر نفسه ، ص ١١٢ ، المقرئ ، ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، غان ، دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

أن رسل البابا يوحنا الثاني عشر ، وفدت على الناصر تطلب السلم والمودة بين الاسلام والانصرانية . ولم يرسل البابا سفارته تلك ، الا لاعتقاده بأن الناصر يمثل الزعامة الاسلامية في ذلك الوقت . فقد كانت الخلافة العباسية تسير في طريق الضعف ، والخلافة الفاطمية لم تبلغ بعد قوة ازدهارها وتقدمها السياسى والحضارى (٢٢) .

وما من شك في أن هذه الاحوال المستقرة وتلك السياسة الحكيمة التى اتبعها حكام قرطبة في القرن الرابع الهجرى ، والتى وضحتها خلال دراستنا لعوامل القوة التى توفرت للاندرلس فى علاقاتها مع ممالك اسبانيا النصرانية ، والتى أثرتنا اليها حتى الآن ، كان لها آثارها على الصراع بين مسلمى الاندرلس وبين نصارى الشمال الاسباني ، فأنقلبت الهزائم التى منيت بها البلاد أواخر عصر الامارة الى انتصارات رائعة ، وتحول تقهقر المسلمين الى الجنوب ، الى تقدم صاعد لهم نحو الشمال حتى أصبحت جميع ممالك اسبانيا النصرانية مجرد امارات تابعة لحكام قرطبة .

ورغم هذه الصورة الجميلة المشرقة للاندرلس في القرن الرابع الهجرى الا انه كان هناك مايشير الى حدوث انقلاب أو ثورة سوف تحدث بمجرد أن ينقضى عصر هؤلاء الحكام الأقوياء من بنى أمية وبنى عامر . فقد كان لسياساتهم بعض الجوانب السلبية التى لم تظهر في عهدهم ، نظرا لقوة شخصيتهم ولقدرتهم الفائقة على القيادة والسيطرة على مقاليد الامور . ولما انهضت دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ ، وقام الصراع بين خلفاء بنى أمية الاواخر على كرسى الخلافة أثناء مايعرف بالفتنة البربرية عام ٤٠٠ هـ ، ظهرت تلك الجوانب السلبية ، وقادت البلاد الى ذلك المصير المحزن الذى انتهت اليه في عصر ملوك الطوائف ، بعد أن تسببت في سقوط الخلافة نفسها .

(٢٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، المقبرى ، المصدر

نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١١٤ .

٣ - عوامل الضعف وأثرها في العلاقات مع ممالك أسبانيا النصرانية :

وتلك الجوانب السلبية يمكن أن نقول عنها أنها كانت عوامل ضعف المت بالأندلس الإسلامية وتمثلت فيما يعرف بالفتنة البربرية التي كانت - حقا - تشبه الزلزال - وقد وقف بعض المؤرخين طويلا عند حدوث ذلك الزلزال الذي اقتلع دولة بنى عامر ، وقضى في النهاية على الخلافة الأموية وخلع على الأندلس عصرا جديدا يعرف بعصر ممالك الطوائف .

وكان هذا الزلزال مرآة انعكس عليها كل سلبيات ونقائص الحكم الأموي والعباسي في الأندلس ، وقاد البلاد الى طريق الضعف والانحلال والنزق والانقسام والسقوط ، وأعطى الفرصة كاملة لحركة الاسترداد أن تتفجر خطوات وخطوات الى الامام ، وجعل مصر البلاد رهن مشيئة ملوك أسبانيا النصرانية الذين أصبحت لهم السيطرة الفعلية على شبه الجزيرة كلها بمسلميها ونصارها ، وضاعت وحدة الجبهة الداخلية وضاع معها مئات من المعازل والحصون والمدن الثغرية التي أضاع خلفاء القرن الرابع الهجري عمرهم في بنائها والحفاظ عليها ، وانقسم الوطن الواحد الى أوطان متعددة ، وانقسم الشعب الواحد الى شعوب أو طوائف ، تناحرت فيما بينها والتمست النعون ضد بعضها من عدو بلادها ، وكانت فرصة لاتعوض لنصارى الشمال ، فاغتموها على الفور ، وتدخلوا بين الفرق المتناحرة حتى أنهم وضعوا بعض أحفاد الناصر على كرسي الخلافة في قرطبة .

هكذا بين عشية وضحاها ، تحول الغالب الى مغلوب وتحولت الانتصارات الى هزائم ، والسيطرة الإسلامية والعزة القومية الى سيطرة نصرانية في عهد هذه الدمى من خلفاء بنى أمية الاواخر ، كل ذلك في بضعة شهور من عام ٤٠٠ هـ وهى مأساة لانجد لها تفسير الا ان نقول ان اسبابها لم تبرز فجأة ، وانما كانت كامنة في جسد الأمة الأندلسية قبل ذلك بزمان طويل . ومن أهم تلك الاسباب وقوع الصراع بين بنى أمية وتنازعهم على الخلافة .

وكان الناصر قد اتبع سياسة أسلافه من أمراء بنى أمية في تحجيس العنصر العربى عن ميدان الزعامة والقيادة ، وجعل البارزين منهم مجرد عمال أو ولاة لأطراف الدولة وثغورها ، مثل بنو تجيب الذين ولاهم على الثغر الأعلى . وسار على نفس الخط أيضا في الاستعانة بالعناصر الاجنبية فى الجيش والادارة لسهولة السيطرة عليها وعدم تمردھا ، وادى ذلك الى حرمان الدولة من ذوى الكفايات من العرب والبربر ، والى زرع الحقد والضغينة بينهم وبين الصقالبة الذين أصبحوا قوة يخشى بأسها . وكانت هزيمة الناصر الوحيدة عام ٣٢٧ هـ مؤثرا يدل على ذلك ابلغ الدلالة (٢٣)

وقد ظهر خطر الاسنعة بهذه العنصر الاجنبية اثناء فترات الاضطراب وقد برز هذا واضحا اثناء الفتنة البربرية . فقد أخذ الصقالبة والبربر ينحكمون فى تولية الخلفاء وعزلهم ، وقاموا بالاعتداء عليهم وقتلهم وتشريدھم واسنبدوا دونهم بالحكم والسلطان ، وتحالفوا مع ممالك اسبانيا النصرانية لتحقيق اهدافهم ، وساعدوا بذلك على قيام عصر ممالك الطوائف والقضاء على الخلافة الأموية (٢٤) .

كما وقع الأمويون فى خطأ آخر عندما قام الحكم المستنصر وولى ابنه الطفل هشام ولاية عهدہ ، ولما مات المستنصر تولى هشام الذى لقب بالمؤيد الخلافة وهو فى سن العاشرة ، مع انه كان فى بنى أمية الكثير من الشخصيات البارزة القادرة على قيادة البلاد فى حزم وكفاية لكن الحكم المستنصر نظر الى مصلحته الشخصية ، وارتكب هذا الخطأ السياسى مع انه كان يعييه على العباسيين فى المشرق . وربما كانت نظرية توريث الحكم فى عقب الخليفة أو الامير الحاكم وحده دون غيره من اخوته أو بنى عمومته أو اقاربه ، وهى النظرية التى سار عليها بنو أمية فى عصرى الامارة والخلافة هى المسئولة عن ذلك ، وربما استندوا

(٢٣) كلبيا سارنبللى ، مجاهد العامرى ، ص ٥ ، ١٥ ، انظر ، الفصل الثالث ،

الباب الثانى ، ص

(٢٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٩ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ،

ج ١ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠

في تلك النظرية الى تلك النبوءة التي تقول « لايزال ملك بنى أمية في اقبال ودوام ، ما توارثه الأبناء عن الآباء . فاذا انتقل الى الاخوة وتوارثوه فيها بينهم ، فقد أدبر وتولى » (٢٥)

ورغم ما حققته تلك السياسة في استقرار أداة الحكم الا أنه كان لها أيضا آثارها في زرع الضغينة والحقد في نفوس باقى أفراد البيت الأموي ، وقد تعرض الكثير من أمراء وخلفاء بنى أمية الى مؤامرات قام بها أخوتهم أو بنو عمومتهم بسبب الجلوس على العرش . وربما كان أخطرها ثورة بنى اسحاق الأمويين الذين انضموا الى ملك ليون وساعدوه على هزيمة الناصر في موقعة الخندق عام ٣٢٧ هـ ، كما أعطت هذه السياسة الفرصة لرجل مثل المنصور بن أبى عامر لان يستبد بالدولة ويحجر على الخليفة الطفل ، ويعمل في الأمويين سيف التشريد والقتل (٢٦)

أما الخطأ الثالث الذى ارتكبه خلفاء بنى أمية هو أنه عندما سقطت دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ ، تهافتوا على السلطان وانقسموا فريقين ، كل منهما يحاول هزيمة الآخر ويستعين في ذلك بنصارى الشمال الأسباني لمساعدوه على اعتلاء كرسى الخلافة ، نظير التنازل لهم عن كثير من المدن والحصون الاسلامية وفي غمرة هذا الصراع المقيت على الحكم تعرضت البلاد للخراب ، والقرى والمزارع للدمار ، وقتل العلماء ونهبت المساجد والدور والقصور ، وهدمت مدن بأكملها وأزيلت وكأنها لم تكن ، وأدى ذلك في النهاية الى سقوط الخلافة وزوال حكم بنى أمية وقيام عصر ممالك الطوائف (٢٧)

(٢٥) ابن حزم ، مط العروس ، ص ٦٢ ، ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ،

ص ٤٠ .

(٢٦) ابن حبان برواية بن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٠٤ ، ابن

عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(٢٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ - ٩٥ ، ١٠٤ ، ١٠٧ .

ومن عوامل الضعف التي ألت بالاندلس الاسلامية واثرت في مستقبل البلاد وفي علاقتها بنصارى الشمال ، سياسة بنى عامر في اضعاف الخلافة والاستبداد بالدولة . وكانت سياسة المنصور بن أبى عامر تقوم حسبما أشرنا من قبل على مبدأ الاستبداد بحكم الاندلس واتساع حيز الوسائل والسبل لتحقيق تلك الغاية ، وقضى بذلك على جميع العناصر المناوئة له من الصقالية والعرب ، ومن القيادات السياسية والعسكرية مثل المصحفى الحاجب ، وغالب الناصرى ، فارس الأندلس وبطلها . كما قضى أيضا على من يخشى بأسه من بنى أمية . وكان يوصى ابنه حين حضرته الوفاة ، ألا ينوانى عن هذه الفئة ، وأن يأخذها بالشدّة والعنف ، مما أدى الى سقوط هيبة بنى أمية في نفوس الناس والى ضياع مجدهم ونسيان الناس لهم (٢٨) .

وكان لهذه السياسة من اضطهاد بنى أمية وتشريدهم والاستبداد بهم أثر شديد على من جاء بعد ذلك من خلفائهم ، اذ لم يحسنوا السياسة ونسوا أساليب آباءهم فى الحكم واصطناع الانصار والاعوان . فقد تعصب سليمان المستعين للبربر ، واستعان المؤيد بالصقالية ، واستعان كلاهما بنصارى الشمال ، وبذلك تكرر انقسام الدولة الى حزبين متصارعين وهو الانقسام الذى ساعدت عليه سياسة بنى أمية فى الاستعانة بالصقالية وسياسة العامريين فى الاستعانة بعنصر البربر (٢٩) .

ومن الأخطاء الفادحة التى ارتكبها بنو عامر وأدت الى وقوع الكارثة هو تطلعهم الى منصب الخلافة ذاته . وقد راودت هذه الفكرة المنصور بن أبى عامر ، لكن مستشاريه نصحوه بالعدول عنها لانها سوف تثير

(٢٨) اس حيان برواية بن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، ١٢٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٢٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٥ ، ١١٣ ، ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١ ، ص ٥٢١ .

بنى أمية وتثير الشعب ضده كما سبق القول . لكن ابنه عبد الرحمن شنجول أقدم على تلك الخطوة وأخذ البيعة لنفسه بولاية عهد هشام المؤيد . وكانت غلطة العبر ، إذ تخلى عنه الجميع عندما قام محمد المهدي الأموي بالثورة ضده عام ٣٩٩ هـ . ذلك لأن هذا الأمر كان يعني تحويل الخلافة من المضرية (بنى أمية) الى البهنية (بنى عامر) (٣٢)

وهذا يدل على أن الصراع القبلي لم يكن قد انتهى بعد من الأندلس رغم ما قام به الناصر والمنصور من توجيه ضربات قاسية للمنصر العربي بالذات ، مما يدل على أن المجتمع القبلي القديم لم يكن قد اختفى تماما كما يقول دوزي ، وما قيام دول الطوائف إلا تعبير عن هذا المجتمع إلى حد كبير . فقد قامت تلك الدول ملتفة حول أسرات عربية أو بربرية هنا وهناك ، وعادت تلك الأسرات إلى سياستها الأولى في الصراع القبلي ضد بعضها البعض ، بعد أن زالت القوة المسيطرة التي كانت تتمثل في بنى أمية ، مما أعطى الفرصة لنصارى الشمال الأسباني للتدخل في شئون الأندلس والسيطرة على ممالكها (٣٣) .

ومن عوامل الضعف أيضا انقسام جند الأندلس وصراعهم على السلطان وقد وضع الأمويون والعامريون بذور هذا الانقسام عندما استعانوا بالموالي والصقالبة والبربر في الجيش والإدارة . وأصبحت هذه العناصر تتربص فرصة ضعف أو اضطراب حتى تعمل لمصلحتها الخاصة وتصبح لها السيادة على البلاد . وفيما يبدو لم تكن هذه العناصر مخلصا تماما للأمويين أو العامريين ، فكثيرا ما تأمر الصقالبة ضد بنى أمية في عصرى الإمارة والخلافة ، كما تأمروا أيضا ضد بنى عامر وانتهزوا فرصة موت

(٣٠) ابن حيان مرواية آبن بسمام ، الزخيرة ، ق ٤ ، د ١ ، ص ٥٦ ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، ص ٦٧ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٦ ، ابن الخطيب . الاعمال ، د ٢ ، ص ٩٧ .

(٣١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٦٦ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ ، ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، د ١٩٩ ، ص ١٩٩ .

المنصور بن أبي عامر وقال قائلهم « هل كتب علينا أن نبقي في حجر آل أبي عامر الدهر الداهر ؟ » وكان واضحا أن الفتى الصقلبي أسبق الجميع في التخلي عن عبد الرحمن شنجول بن أبي عامر عندما ثار ضده بنو أمية عام ٣٩٩ هـ (٣٢)

أما البربر فقد كانوا أسرع من غيرهم في التخلي عن عبد الرحمن شنجول ، وقال له زعيمهم محمد بن يعلى الزناتي « إياك أن تغتر ، فليس والله يقابل عنك أحد من زناته ، والناس تبع لهم » . وادى ذلك الى أن ظفر به محمد المهدي الأموي وقتله وقضى على دولة بني عامر . وكان تخلي البربر عن العامريين بهذا الشكل من الأثباء الملفتة للنظر ، فالعامريون هم الذين استقدموا البربر من المغرب الأقصى أو شجعوهم على النزوح الى الأندلس ورفعوا من شأنهم حتى صاروا أكثر أجناد الأندلس وأظهرهم نعمة وأعلامهم منزلة ، وأصبحوا قوة رئيسية تعتمد عليها الدولة في حروبها وبقائها ، فما الذي أغرى هؤلاء البربر بالتخلي عن بني عامر ؟ (٣٣)

يبدو أن البربر كانوا مثل الصقلابة غير مخلصين تماما لبني عامر ، فصنهاجة كانت من الد أعداء بني أمية وبني عامر معا ، ولم تلجأ الى الأندلس الا بسبب الصراع بين زعمائها على أرض المغرب الأقصى . وكانت نضمر الحقد للمنصور بن أبي عامر ، لأنه أخذهم بالثدة وطبق أحكام الشرع على من يستحق العقوبة منهم . أما زناته فكان ولاؤها للعامريين لكن سياسة بني عامر في قتل بعض زعمائهم قللت من إخلاصهم لهم . هذا بالإضافة الى أن البربر جنود مرتزقة ، وهذا النوع من الجنود لا يدافعون عن وطن ينتمون اليه ، بل يدافعون — اذا دافعوا — عن حاكم يضمن

(٣٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ص ٦٧ ، ابن عذري ، ج ٣ ، ص ٢٤ - ٢٦ ، ٦٨ .

(٣٣) ابن عذري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤١٧ ، ج ٣ ، ص ٦٨ - ٧١ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

لهم مصالحهم وأرزاقهم ، فاذا رأوا أن مصالحتهم مع شخص آخر انضمو
اليه دون تردد (٣٤)

وهذا ما حدث فعلا ، فعندما رأوا عبد الرحمن شنجول يتخبط
في سباسته ، ورأوا قيام أهل قرطبة مع المهدي ضده ، تحول ولاؤهم
عنه وأسلموه الى حتفه خوفا على أموالهم وأهليهم الذين يعيشون في قرطبة
وبذلك تم القضاء على دولة بنى عامر ، وانقسم جند الاندلس الى حزبين
متصارعين على السلطان ، الاندلسيون وعلى رأسهم الصقالبة في جانب ،
والبربر في جانب آخر ، وحاول كل فريق أن يصل الى السلطة مستقرا وراء
أحد الخلفاء من بنى أمية ، مما أوقع البلاد في أتون حرب أهلية جرت
عليها الخراب والدمار (٣٥) .

من هذا يتضح لنا مبلغ ما ارتكبه بنو أمية وبنو عامر من خطأ ،
عندما اعتمدوا اعتمادا كلياً على تلك العناصر الأجنبية ، وأهملوا العنصر
العربي وأهل البلاد الأصليين من المولدين وغيرهم . وكانت تلك العناصر
الأجنبية تلتزم الهدوء والطاعة طالما كان الحاكم قويا ، وعند الضعف
أو في فترات الاضطراب كانت تقوم بدورها المخرب وتستبد بالبلاد ، مما
هيا الفرصة للاستعانة بملوك إسبانيا النصرانية كي يتدخلوا في شئون
الاندلس الداخلية ويبسطوا سلطانهم عليها .

وكان استغلال ملوك إسبانيا النصرانية للصراعات الداخلية في الاندلس
من العوامل التي أضعفت الجبهة الداخلية في تلك البلاد الى حد كبير .
وقد حدث ذلك منذ وقت مبكر عندما غضب الناصر على أقربائه من بنى
اسحاق بن أمية ، وقام بقتل زعيمهم أحمد بن اسحاق بسبب تأمره عليه ،

(٣٤) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، المقرئ ، المصدر نفسه ،

ج ١ ، ص ٣٦٤ ، كليلا سارنللي ، المرجع نفسه ص ٢٩ ، ٣١ .

(٣٥) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٢ ، ٦٢ ، ابن عذاري ،

المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦٧ .

واتصاله بالفاطميين وتحريضه لبنى نجيب على الثورة ضد الناصر . ولما تخلص الناصر من ذلك الثائر ، فر أخوه أمية بن اسحاق الى شنترين في غرب الاندلس ، ورفع لواء الثورة ضد الناصر ، وانتهاز ردمير (راميرو) الثانى ملك ليون الفرصة ، واتصل به واستقدمه وعينه وزيرا ، وأشركه في حربه ضد الناصر ، وأعطاه أمية معلومات ثمينة عن قوات الناصر قبل المعركة ، ودله على عورات المسلمين ، مما سهل له النصر على الناصر في موقعة الخندق الشهيرة عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م (٣٦)

ولم تكن ثورات طليطلة المتكررة ضد الخلافة الأموية الا بتشجيع من نصارى الشمال ، كما حاول كونت قشتالة أن يستغل العداء الذى نشب بين المنصور بن أبى عامر وابنه عبد الله . ولما تأمر هذا الابن العقاق على أبيه ، وانكشفت مؤامراته وخاف على حياته ، فر الى كونت قشتالة وفى عصر قوة الخلافة الأموية لجأ نصارى الشمال الاسباني الى أسلوب آخر للنيل من قوة الجبهة الداخلية فى الاندلس ، وذلك عن طريق المصاهرات التى عقدوها مع الاسرات الحاكمة فى الثغور الاسلامية من المولدين من بنى قسى وبنى الطويل . وعلى سبيل المثال فقد صاهر فرتون الطويل صاحب وشقة من أعمال الثغر الاعلى ، شانجة بن غريسية ملك نبرة ، واشترك معه فى غزوة مطونية عام ٣٠٦ هـ ضد جيش الناصر (٣٧) .

وطبيعى أن هذا الرجل وأمثاله كان يتمرد على قرطبة لعلمه أن هناك من يحميه ويمد له يد العون والمساعدة من أصهاره ملوك الشمال، وأن هناك من يستقبله لاجئا اليه من هؤلاء الملوك عند الضرورة . وقد تكرر

(٣٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ص ١٢٦ .
Dozy, op. cit., pp. 426, 427.

(٣٧) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٩٣ ، الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .
العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٤٥ ، ٦٨ ، ٦٩ .
Dozy, op. cit., pp. 507-508

هذا كثيرا حتى أن نهاية آخر أمراء بنى قسى حكام تطيلة في الشجر الاعلى ، كانت عند أصهاره من أمراء أسبانيا النصرانية . وكان الامير القسوى قد لجأ الى صهره النصرانى عقب اعتداءات بنى تجيب على أملاك أسرته ، لكن صهره هذا طمع فدما كان معه ومع أصحابه القسويين من أموال وسلاح وحلى ، ففدروهم وقتلهم عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م . (٣٨)

وكان تدخل ملوك أسبانيا النصرانية قويا وأكثر فعالية أثناء الفتنة البربرية في مطلع القرن الخامس الهجرى . فقد انتهزوا فرصة الصراع بين أمراء بنى أمية الأواخر على تولى منصب الخلافة وساعدوا فريقا ضد الآخر . واستعانة ملوك بنى أمية الأواخر بملوك أسبانيا النصرانية لا يدل الا على مدى ما وصلوا اليه من ضعف وهوان وفقدان للحماية الدينية والعزة القومية . وكان تدخل ملوك أسبانيا النصرانية على هذا النحو في شئون الأندلس الداخلية ، مما أضعف الجبهة الداخلية وجعل مسلمى الأندلس يضرب بعضهم بعضا وادى الى تعيق الانفصال والأحقاد بينهم ، حتى أصبحوا لقمة سهلة يستطيع نصارى الشمال التهامها فى أى وقت يريدون . (٣٩)

ومن عوامل الضعف التى أثرت فى الجبهة الداخلية وكانت لها آثارها على العلاقة بين مسلمى الأندلس ونصارى الشمال الأسباني ، طبيعة الأندلسيين أنفسهم وتباين أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية . فقد كان هناك ما يشبه الصراع الطبقي بسبب التفاوت الحاد فى الدخول . فهناك طبقة أرستقراطية حاكمة مهيمنة ، لها الفنى والثروة والنفوذ ، تلتف حولها بعض الأسرات الثرية أمثال أسرة بنى عبدة وبنى شهيد وجهور وفطيس . وهناك طبقة متوسطة أغنتت بفضل نشاطها فى الزراعة والتجارة والصناعة ، وهناك طبقة الحرفيين والعمال والعامة ، وكانت تعيش فى مستوى منخفض . فالعامل كان يكره صاحب العمل ، والطبقة الوسطى كانت تحصد طبقة

(٣٨) العدى المصدر نفسه ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، ٨٦ ، ٧٨ ، ٩٤ - ٩٦ ، ابن بسلام ، للخيرة ، ق ١ ، ح ١ ، ص ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ .

الأغنياء والجميع كانوا يكرهون القواد البرابرة والصقالبية . لكن هؤلاء جميعا كانوا لا يظهرون مشاعرهم ويعيشون في هدوء طالما كان الحاكم قويا ، فلما ضعف الحكام وتنازعوا على السلطة ، لم يكن أمام هذه الفئات الا الانضمام لأى ثورة تقوم حسبما يتفق مع مصالحها (٤٠) .

من هنا يمكن القول بأن القوى الاجتماعية التى استند اليها الأمويون والعامريون كانت غير مناسبة ، ومن ثم انهارت وانهار معها بنو أمية عند أول صدمة ، وكانت هذه الصدمة داخلية ، ولم تكن نتيجة غزو خارجي ، بل انها نبعثت من تناقضات وتناقض وعيوب النظام الذى اتبعه بنو أمية وبنو عامر فى حكم البلاد والتى أشرنا اليها ، تلك التناقضات التى كانت كامنة ولم تظهر الا عندما تراخت قبضة الحكام . فعبد الرحمن شنجل لم يكن فى قدرة أبيه أو أخيه ، وهشام المؤيد استطاب الحياة الهادئة وعزف عن توجيه الأمور وتركها لبنى عامر ، لذا ظهرت عيوب النظام وأدت الى انهياره وقيام نظام دول الطوائف .

ومما جسم تلك العيوب الاجتماعية طبيعة الشعب الأندلسى وتكوينه العنصرى وطبيعة البلاد الجغرافية . فقد كان هذا الشعب يحتوى على عناصر مختلفة ، من عرب وبربر وصقالبية وأهل البلاد الاصلين سواء كانوا مسلمين أم نصارى . صحيح أن المصاهرة والمجاورة قربت بين تلك العناصر ، الا أنه بقى من مظاهر التناقض ما يكفى لقيام الصراع فيما بينها اذا ما حانت الفرصة ، ساعدها على ذلك الطبيعة الجغرافية وتفتت البلاد الى أودية نحجز بينها جبال تزخر بالعديد من الحصون والقلاع ، تحمى الثوار وتساعدهم ضد الحكومة المركزية (٤١)

فاذا أضفنا الى ذلك طبيعة الناس أنفسهم ، لأصبح الأمر ، فقد وصف البعض عامة قرطبة بالذات بأنهم أكثر الناس فضولا واشدهم شغفا ،

(٤٠) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٤٠٧ .
Dozy, op. cit., pp. 534-535, 538.

(٤١) لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٤٧ .

حتى أنهم كانوا يقاتلون مع هذا ، ثم يقتتلون معه وربما في نفس اليوم ، معرضين أنفسهم للهلاك ، ولذلك وصفهم بعض المؤرخين بصغر الاحلام ونقص العقول . ويعمل المقرئ ذلك بأن أهل الاندلس يميلون الى مساندة كل شخص قسوى أراد الوصول الى السلطان وأنهم كانوا يجرون وراء كل ناعق ، وان أهل المشرق أصوب رأيا منهم في مراعاة نظام الملك ، حتى لا يحدث الخلل الذى يؤدى الى اختلال الاوضاع وفساد الامور (٤٢) .

وقد أصاب المقرئ عين الحقيقة ، فيذكر المؤرخون المعاصرون لتلك الأحداث أن الناس عندما علموا بنبا الثورة ضد بنى عامر « تهافتوا على المهدي — زعيم الثورة — تهافت الفرائش على النار ، ولم يتوقف عن بيعته احد ، ولم يتخلف عن أخذ ماله واستحلال نهبه والدخول في فئنته فقيه ولا عالم ولا عدل ولا امام ولا حاج ولا تاجر ، وقام هؤلاء جميعا لنصرته ، رغم أنهم ليسوا جندا ولا يحسنون الدفاع عن أنفسهم فضلا عن غيرهم » ولما رأى المهدي تلك الجموع الزاخرة أثبت منهم خمسين ألفا في ديوان المعطاء، وحركهم للمقضاء على ما بقى من بنى عامر وشيعتهم وترك لهم نهب مدينة الزاهرة ، بما فيها من مال ومتاع . (٤٣) .

ومما يلفت النظر في هذا ، هو موقف العلماء والفقهاء ، فهم الذين كانوا قد أفتوا بطبيعة الحال بجواز ولاية عبد الرحمن شنجل العهد ، وحضروا البيعة وأيدوها ، وأذاعوا حديثا نسبوه ظلما الى الرسول عليه الصلاة والسلام ، قالوا فيه « لاتقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » . وكان عبد الرحمن شنجل قحطانيا ، وعندما رأى

(٤٢) ابن حزم ، مداواة النفوس ، ص ١٦ ، ابن حومل ، صورة الارض ، ص ١٠٦ ، المقرئ ، نفع الطيب ج ٢ ، ص ٧٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ .

(٤٣) ابن حيان برواية ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٠ - ٢٧٢ ، للرقيق مرواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ج ٣ ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ٧٥ .

هؤلاء الفقهاء انهيار بنى عامر سرعان ما انتهزوا الفرصة وأعلنوا تأييد النظام الجديد . اذن الهدف هو المصلحة الشخصية لا غير (٤٤)

وبذلك صارت الانتهازية والنفعية طابع كثير من الحكام والناس فمن يقتلونه اليوم يصيرون فى خدمة ابنه غدا وامتألت حياتهم بقصص الغدر والغش والجبن والبخل والانهلال الخلقى ، كما تسلطت عليهم روح الأنانية والفردية حتى أن الواحد منهم كان يتخذ إزاء داره مسجدا وحاما خاصا به دون غيره من الناس . وقد لاحظ تلك الصفات السيئة قائد الجيش النصراني الذي ساعد سليمان المستعين فى دخول قرطبة ، وهزيمة المهدي فى ربيع الاول ٤٠٠ هـ ، وقال أنه كان يظن أن الدين والشجاعة والعقل عند أهل قرطبة ، فاذا هم خلوا من هذه الصفات (٤٥)

ومجتمع هذه صفاته لا يمكن أن يستمر فى المقاومة ، فقد تفتت وحدته أثناء الفتنة البربرية أو الحرب الاهلية التى استمرت منذ مطلع القرن الخامس الهجرى حتى سقطت الخلافة الأموية فى عام ٤٢٢ هـ . وأتاحت تلك الفتنة الفرصة للملك أسبانيا النصرانية من أن يحققوا أهدافهم فى السيطرة على الاندلس الاسلامية ، مما لون العلاقة بينهم وبين الخلفاء الأمويين الأواخر بلون جديد لم تألفه الأندلس من قبل ، وقلب موازين القوى لصالح النصراني ، بطريقة لم تحدث منذ أن دخل الاسلام تلك البلاد .

(٤٤) ابن حيان براوية ابن الأبار ، المصدر نفسه ج ١ ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٤٥) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٨٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٨ ، ١٩ ، ابن الخطيب ، معيار الاختيار ، ٢١ ، ٢٢ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، الضبى ، المصدر نفسه ، ص ١٨٩ - ١٩١ ، المفزى ، نفع للطيب ، ج ١ ، ص ١٠٤ ، ٢٦١ ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

ثانياً — ظروف اسبانيا النصرانية وأحوالها المؤثرة في علاقتها

بالأندلس الإسلامية في عصر الخلافة

تحدثنا في الباب الأول والقينا نظرة عامة على أحوال بلاد الأندلس وشمالي أسبانيا النصراني وعرفنا عوامل القوة والضعف في كل منهما ووصلنا الى أنه هناك حكومة واحدة تسيطر على الأندلس حتى نهاية عصر عبد الرحمن الثاني (الأوسط) ، وفي الجانب الآخر كانت هناك أيضا دولة واحدة وهي مملكة جليقية واشتربس (ليون) .

وفي أواخر عصر الامارة الأموية نهات سلطنة أمراء بنى أمية وانقسمت الأندلس الى امارات مستقلة فيما يشبه عصر ملوك الطوائف، وقام الصراع بين هذه الامارات بعضها البعض ، وبينها وبين حكومة قرطبة . كذلك انقسمت دولة جليقية واستقل عنها الباسك أو النافيون وكونوا دولة نبرة (نافار) ، كما ظهرت امارة قطلونية في الشمال الشرقي لأسبانيا ، وقام الصراع أيضا بين هذه الدويلات الصغيرة واستعان بعضها بالمسلمين ، واستعان البعض الآخر بالفرنجة في صراعهم ضد بعضهم البعض .

ولهذا التماثل في الأوضاع السياسية لكل من الأندلس الإسلامية وشمال أسبانيا النصراني في عصر الامارة ، نستطيع أن نقول أنه كان هناك توازن سياسي وعسكري طوال هذا العصر ، عدا النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، حيث اختل التوازن ومال ميزان القوة في جانب أسبانيا النصرانية ، وحقق نصارى الشمال تقدما في أرض المسلمين ووصلت حدودهم الى نهر دويرة .

كل هذا رأيناه في عصر الامارة ، أما في عصر الخلافة فقد مال الميزان السياسي والعسكري طوال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، في جانب الأندلس الإسلامية ، وذلك لعدة أسباب . أولها : أن الأندلس

كانت دولة واحدة ، وكان لايسطر على اراضيها الا حكومة خلفاء بنى امية .
اما في الشمال النصراني ، فكانت هناك مملكتان ، هما مملكة ليون ومملكة نبرة
وامارتان هما امارة قطلونية (برشلونية) و امارة قشتالة التي لم يكن لها
وجود في العصر السابق .

وثانيها : أن الخلافة سيطرت على أشرف الناس ورؤسائهم ، وقضت
على نفوذهم سواء كانوا من العرب أم من المولدين أم من البربر ، وجعلت
من بقى منهم مجرد ولاء أو عمال ، لا تحفل كتب التاريخ بمجرد الاشارة
اليهم وخاصة منذ عهد الحكم المستنصر ، (٣٥٠-٣٦٦ هـ / ٩٦١-٩٧٦ م)
اما في الشمال النصراني فكان النبلاء والأشراف لا يزالون يقومون بدورهم
المعتاد الذي كانوا يقومون به في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ،
من مساعدة ملك أو أمير ضد آخر ، حتى يضمنوا سيطرتهم ، ويطمئنوا على
مصالحهم ونفوذهم تجاه ملوكهم .

وبذلك كانوا عاملا من عوامل الاضطراب السياسي وخاصة في مملكة
ليون . وبلغ الأمر بأحدهم وهو كونت قشتالة فرنان جونزالث
Fernan Gonzalez أن يقيم دولة أو امارة جديدة وهي امارة قشتالة ، وظل
يصارع مملكة ليون ومملكة نبرة مرة أخرى طوال القرن الرابع الهجري ،
حتى أجهدهم الصراع جميعا وخضعوا لسلطان الخلافة .

وثالثها : في الأندلس ، انتهت الحروب الأهلية بقضاء الخلفاء على
الثوار ، بينما بدأت تلك الحروب بشدة وعنف في الشمال النصراني ، وماكانت
تهدا إلا لكي تعود أكثر اشتعالا من جديد ، اما بسبب العرش أو بسبب
التنازع على الحدود بين دول الشمال ، أو الطمع في ضم امارة الى أخرى
بالقوة ، أو انفصال امارة عن أخرى . وكانت المصاهرات عاملا قويا في
تحقيق هذه الأطماع وفي تعقيد الموقف السياسي ، واضطراب العلاقات بين
دول الشمال النصراني بعضها البعض .

ورابعها : انقطاع مساعدة ملوك الفرنجة لمسيحيي شمال أسبانيا بسبب ما أبرم بين أمراء بنى أمية الأواخر وبين ملوك فرنسا من معاهدات تنص على ألا يتدخل أى منهما في شئون الآخر ، والا يساعد الفرنجة نصارى الشمال نظير أن يتخلى المسلمون عن برشلونة ، وكذلك انقطع تحالف أمراء الثغر الأعلى الأندلسي من بنى قسى وغيرهم من نبلاء المسلمين وأمرائهم مع نصارى الشمال ، بسبب قضاء الخلافة على نفوذهم . وبذلك فقد مسيحيو الشمال العون الخارجى سواء من المولدين أم من الفرنجة، مما ساعد على ازدياد ضعفهم وازدياد قوة الخلافة (٤٦) .

كل هذه الأسباب أدت الى سيطرة الخلافة على شبه جزيرة أيبيريا كلها ، وصارت كلمة الخلفاء هى العليا ، سواء فى الأندلس أو فى دول الشمال النصرانية حتى أن كلمة من خليفة قرطبة كانت تعزل ملكا وتعين آخر ، وكان هناك وجود اسلامى فى شكل حاميات أندلسية داخل هذه الممالك لتحميها من بعضها البعض ولتراقبها فى نفس الوقت ولتضمن السيطرة عليها أولا وقبل كل شئ .

وفى الفصل السابق وضعنا أيدينا على عوامل القوة فى أندلس الخلفاء ، وعرفنا أسباب تفوقهم . وعلينا الآن أن نتعرف على أحوال ممالك أسبانيا النصرانية فى هذا العصر أى فى عصر الخلافة الأموية . وسوف نتعرض الى الأسرار الحاكمة فى كل دولة أو إمارة ، لنعرف على مدى استقرارها فى الحكم ، وعلاقتها بالقوى الداخلية وبخاصة النبلاء أو الطبقة الأرستقراطية وما ثار فيها من حروب أهلية ، وكذلك علاقاتها بجيرانها من دول الشمال الاسباني الأخرى ، وأثر هذا كله فى علاقات هذه الدول بخلفاء بنى أمية ، باحثين عن عوامل الضعف والقوة التى أشرنا اليها فى بداية هذا الحديث .

(٤٦) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الأول ، ص

١ - أحوال مملكة ليون : -

كان حاكم ليون هو الفونش الثالث في نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . وكما رأينا استفادت المملكة النصرانية مما أصاب المسلمين في الأندلس من الفتن والانقسامات ، ولم يأت القرن الهجري / العاشر الميلادي الا وكانت هذه الدولة تهدد وجود المملكة الاسلامية ذاته ، واستطاع الفونش الثالث ان يصل بهجمانه الى نهر الناجه ، وأن يبنى مدينة سمورة او يعيد بناءها ويسكنها بالنصارى لتصبح مركز تهديد لقلب المملكة الاسلامية (٤٧)

لكن هذا الملك القوي تعرض عام ٢٩٨هـ / ٩١٠م لثوره ابنائه وزوجنه الملكة خمينا الفانارية ، وأجبروه على التنازل عن العرش ، وأيدهم في ذلك كثير من النبلاء ، فاضطر لتقسيم مملكته بين ابنائه الثلاثة ، وتنازل عن الملك لابنه الأكبر غرسية (٢٩٧-٣٠١ هـ / ٩١٠-٩١٤م) وأخذ ابنه الثاني أردون جليقبة (غاليسيا) ، وأخذ الثالث فرويلا ولابة أشنرييس (أستوريا) ، وقنع أبوهم الفونش بمدينة سمورة . وما لبث أن توفي في نفس العام ، ولم يمكث ابنه غرسية في الملك طويلا ، اذ توفي بعده ببضع سنوات ، فتولى عرش ليون من بعده أخوه أردون الثاني (٣٠١-٣١٢هـ / ٩١٤ - ٩٢٤ م (٤٨) .

كان أردون الثاني ملكا نشيطا ، اذ أنه انتهاز فرصة الاضطراب الذي كان لايزال يسود الأندلس في بداية عهد الناصر ، وأغار على الثغور الاسلامية ، متحالفا مع نبرة عدة مرات ، وما لبث أن توفي وخلفه أخوه فرويلا الثاني (٣١٢-٣١٣ هـ / ٩٢٤-٩٢٥م) الذي توفي بعد عام من توليه العرش بسبب مرضه . وبوفاته نشبت نيران الحرب الاهلية الاولى بين شانجة والفونش ابني أردون الثاني بسبب الصراع على العرش . وانتصر

Chapman, op. cit., p. 57 & Livermore- op. cit., p. 83.. (٤٧)

(٤٨) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٤
Livermore, op. cit., p. 92

الفوننش على أخيه وتوج ملكا على ليون باسم الفوننش الرابع (٣١٣ - ٣٢٠ هـ / ٩٢٥ - ٩٣٢ م) . ويرجع انتصار الفوننش الرابع الى المساعدة التي أتته من صهره شانجه غرسية الاول ملك نبرة ، الذي كان قد زوج ابنته لألفوننش الرابع . كما تلقى مساعدة من بعض أعضاء الاسرة المالكة الآخرين . (٤٩)

ومهما يكن من أمر ، فإن شانجه أخو الملك الجديد ، والذي كان ينازعه على العرش ، لم يئأس وجمع جيشا جديدا وفر الى أطراف جليقية الشمالية ، وهناك توج نفسه ملكا في سنتياجو دي كومبوستيلا Santiago de compostela ثم زحف على ليون وحاصرها واستولى عليها ، وأقصى أخاه عن العرش ، فعاد ملك نبرة الى مساعدة صهره الفوننش الرابع الذي استطاع بعد سنتين أن يسترجع ليون (عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م) لكن أخاه شانجه ظل محتفظا بولاية جليقية (٥٠)

وبذلك انقسمت مملكة ليون بين الاخوين شانجه والفوننش الرابع لمدة أربع سنوات ، ولم ينته هذا الانقسام وما صحبه من حرب أهلية الا بوفاة شانجه عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م . وكان هذا الصراع فرصة ذهبية استغلها عبد الرحمن الناصر في تحطيم التوارق المارقين عليه في الأندلس ، وفي القضاء على دعوة الفاطميين في المغرب الأقصى .

ولكن الحرب الأهلية عادت من جديد وبصورة أشد عنفا مما سبق . ذلك أن الفوننش الرابع غلبه الحزن الشديد على فقد زوجته ، وتنازل عن العرش لأخيه ردمير (راميرو) الثاني (٣٢٠ - ٣٣٩ هـ / ٩٣٢ - ٩٥١ م) ودخل الدير واعتنق الرهبانية . لكنه عافها بعد قليل وترك الدير ونادى بنفسه ملكا في سيمتقة واعتبر الرهبان هذا العمل علرا .

(٤٩) ابن حيان برواية ابن خلدون ، المعبر ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

Dozy, op. cit., pp. 422-423, Livermore, op. cit., p. 92. (٥٠)

(٥١) هان ، تاريخ العرب في اسبانيا ص ١٥٢ .

كجيرا وهددوه بعقاب الله اذا لم يعد الى الدير من جديد ، فاستسلم لهم لانه كان ضعيف الشخصية ، وعاد الى الدير مرة أخرى . (٥٢)

ما لبث الفونش أن حن الى العرش مرة أخرى ، وانتهاز فرصة غياب أخيه ردمير الثاني لذهابه الى طليطلة ومساعدتها في ثورتها ضد عبد الرحمن الناصر ، واستولى على ليون . وما أن سمع ردمير بذلك ، حتى عاد على الفور ، وبدوره حاصر ليون ، واستولى عليها . لكي يضع حدا لمحاولات أخيه الفونش فقد قام بسمل عينييه ، هو وثلاثة من أبناء عمه فرويلا الثاني ، الذين كانوا قد ساعدوه في الثورة ضده . وبذلك خلص الحكم لردمير الثاني الذي كان ملكا شجاعا ، استطاع أن ينتصر على عبد الرحمن الناصر في موقعة الخندق الشهيرة عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م . (٥٣)

لكن ردمير لم يستمتع بهذا النصر طويلا ، لأن الحرب بالاهلية نشبت من جديد ، ليس بسبب العرش هذه المرة ، ولكن بسبب حركة انفصالية قادها كونت قشتالة فرنان جونتالث في عام ٣٣١ هـ / ٩٤٣ م . وكان أهل قشتالة يتحرقون شوقا للاستقلال عن ليون ، وللانتقام لمقتل زعمائهم الذي قام به والد الملك ردمير الثاني من قبل . لكن هذا الملك انتصر أيضا على قشتالة وأسر زعيمها فرنان جونتالث ، وعين لها حاكما آخر . وما لبث أهل قشتالة أن قاموا بالثورة من جديد وزحفوا على ليون ، فاضطر ردمير الى فك أسر زعيمهم ، وأن يصاهره توثيقا للعلاقات والروابط بينهما . وقد أدت الاحداث الى ضعف حكومة ليون ، إذ أن ردمير فقد معاونة أهم

(٥٢) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ص ١٤٢ ،

(٥٣) يقول ابن خلدون أن ردمير سمل عيون أخوته وليس أبناء عمه فرويلا الثاني ، لكن الصحيح هو ما أشرنا اليه في المتن ، لأن الرواية النصرانية لم تشر الى ذلك ، ولأن ردمير لم يكن له أخوة الا شبانجة ، وقد مات من قبل في عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م كما تقدم ، والأخ الثاني وهو الفونش الرابع الذي قام أخوه ردمير بسمل عينييه مع أبناء عمه الثلاثة . انظر ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ،

Livermore, op. cit., pp. 94-95

واشجع تابعيه ، ولذلك شددت الخلافة الاموية الضغط عليه ، ولم لبث
أن مات في عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م^(٥٤)

وما أن توفي ردمير الثانى حتى نشبت الحرب الاهلية من جديد بسبب
وراثه العرش . ذلك أن ردمير الثانى كان قد أنجب من زوجته الغاليسية
(الجليقية) ابنه أردون ، ومن زوجته النافارية أوراكة ، أخت غرسية
ملك نبرة ، ولدا آخر هو شانجة .^(٥٥)

ادعى أردون أحقيته في العرش باعتباره أكبر الأخوين^(٥٦) ولكن
شانجة نازعه معتمدا على مساعدة اخواله النافاريين ، وعلى القشنايين
الذين وعدهم بالاستقلال . وقام هؤلاء جميعا بالزحف على ليون ، لكن أردون
هزمهم وتولى العرش (٣٣٩-٣٤٤ هـ / ٩٥٠-٩٥٦ م) ، ونصر شانجه
الى جدته طوطة (تنودا) ملكة نبرة ، كما اضطر أردون أمام هجمات الناصر
الشرسة أن يعقد معه معاهدة اعترف له فيها بالطاعة عام ٣٤٤ هـ /
٩٥٥ م ، وما لبث أن مات في العام التالي^(٥٧) .

ولما كان أردون الثالث قد ترك طفلا رضيعا ، فقد استطاع شانجة
أن يلى العرش بعد وفاة أخيه أردون ، لكن النبلاء كرهوه لأنه كان طاغية
مستندا لا هدف الا لتحطيم نفوذهم . ونقض الهدنة النى كان قد عقدها

(٥٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤١٥ - ٤٢٥ ، ابن الخطيب ، اعمال
الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، Dozy, op. cit., pp. 435-436

(٥٥) يخطئ ابن عذارى ويقول ان اسمه قرسية ، وهذا غير صحيح ، انظر ، ابن
عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٥٦) يقول دوزى انه لم يكن له حق في العرش لأنه ابن غير شرعى ، انظر ،
Dozy, p. cit., p. 436

(٥٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، آيڤن تخلصون ، العبر ،
ج ٤ ، ص ١٤٣ ،
Dozy, p. cit.- pp. 436, 437 & Livermore, op. cit., p. 95.

أخوه مع الناصر . فهزمته قوات الخلافة ، وانتهز كونت قشتالة الطموح
فرنان جوثالت الفرصة . ونأمر مع النبلاء الآخرين وعزلوه عن العرش ،
واقاموا ابن عمه اردون الرابع (٣٤٧-٣٤٨ هـ / ٩٥٨-٩٥٩ م) ابن الفونس
الرابع . ملكا على ليون . وفر شانجه الى جدته طوطه في نبرة مرة أخرى (٥٨).

أصبح اردون الرابع سياسه سيئة في معاملة الرعية والنبلاء حتى
أنه سمي في أواخر أيامه باسم اردون الشرير ، وقد احتير للعرش لأنه
لم يكن هناك في الأسرة المالكة من يمكن اختياره بدلا منه ، وقد دعم مركزه
بمصاهرة خونس قشتاله بان تزوج من ابنته اوراكة Urraca ، أرملة
اردون الثالث . التي أصبحت ملكة على ليون للمرة الثانية . لكن اردون
الرابع لم يرضى بالعرش طويلا . إذ أن غريمه شانجه الذي لجأ الى جدته
طوطه بانه نبرة . وعند هو وجدته هذه وابنها غرسيه بن شانجه الاول
ملك نبرة الذي موطنه لتقدم غروصى الولاء والطاعة ، وليطلبوا مساعدة
الخطيفه الناصر الذي سار من اعادة شانجه الى عرشه نظرا للتخلي للخليفة
عن بعض الحضور عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٩ م ، وهرب اردون الرابع الى
أشريس . (٥٩)

وشانت هذه التطورات مدعاه لكي يعلن كونت قشتالة استقلاله
عن ليون ، وأصبحت قشتالة منذ بداية النصف الثاني من القرن الرابع
الهجري / العشر الميلادي دولة مستقلة . وكان لذلك أثره في مملكة ليون ،
إذ حاول حسانم جليلة الكونت جنتالغو Gonsalvo أن يقلده وأثار
الاضطرابات هناك . وانتهت النهاية لأمحو وغيزوى وقوامبرة . ونجح الملك
شانجه في السيطرة على الثورة في المنطقة التي تقع شمال الدويرة ، لكن
كونت داقمة طلب مقاتلته واعطاه ثاكنة مسمومة ، ما أن تذوقها شانجه

(٥٨) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ، الملقشغدي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ ،
Dozy, op. cit., p. 440 & Livermore, op. cit., p. 96.

(٥٩) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ،
Dozy, op. cit., p. 440, 444 & Livermore, op. cit., p. 96.

حتى أحس بالموت وطلب العودة الى ليون حيث مات في اليوم الثالث من وصوله اليها عام ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م . (٦٠)

ترك شانجة على عرش ليون طفلا لم يتعد عمره الخمس سنوات، حكم باسم ردمير الثالث (٣٥٤-٣٧٠ هـ / ٩٦٦-٩٨٢ م) نحت وصاية عمته البيرة Elivira راهبة دير سان سلفادور في ليون . واقبلت هذه المرأة مثل طوطة من قبل الى قرطبة لطلب السلام مع الحكم المستنصر . ويبدو أن الشروط كانت مجحفة بالنسبة للملك ليون ، مما أثار نبلاء ولاية جليقية ، وخاصة انهم لم يودوا الخضوع لاهراء وطفل ، فأعلنوا استقلالهم . وانقسمت الملكة بين عدد من النبلاء الصغار ، وضاعت هيبتها (٦١)

ولما كبر ردمير الثالث حاول غزو الثغور الاسلامية في عهد المنصور ابن أبى عامر لكنه هزم عدة مرات ، فتمرد أهل ولاية جليقية وعزلوا ردمير عن العرش ، اذ اعتقدوا أن سوء الحظ ملازم له ، كما أنه جرح كبرياءهم بادعائه سلطة أوتوقراطية فنشبت الثورة ضده ، وولى النبلاء ابن عمه برمند (برمودو) الثانى الذى كان مقيما عندهم في شنت يلقب « سنتياجو » ، (٣٧٠ - ٣٨٧ هـ / ٩٨٢ - ٩٩٩ م) . (٦٢)

وقامت الحرب بين الملكين ، وزحف ردمير على برمند الثائر ، Portilla de Arenas وعلى الحدود بين ليون وجليقية ، نشبت المعركة وحالف الحظ قواد برمند الذى استطاع فى عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م أن يستولى على مدينة ليون من الملك السابق ردمير ، وهرب الأخير الى مرتفعات استورقة

(٦٠) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، غان ، تاريخ العرب في اسبانيا .

ص ١٥٦ .

Dozy, op. cit., p. 453 & Livermore, op. cit., p. 96.

Dozy, op. cit., pp. 453, 454 & Livermore, op. cit., pp. 96,97. (٦١)

Dozy, op. cit.- p. 500.

(٦٢)

Astorga
وطلب المساعدة من المنصور ، واعترف به كسيد أعلى له ،
لكنه مات بعد ذلك بقليل في عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . (٦٣)

بعد وفاة ردمير حاولت أمه أن تحكم بواسطة مساعدة اسلامية ،
لكن الحامية الاسلامية انسحبت وتركها دون تأييد أمام ازدياد قوة برمند
الذي أدرك أنه إذا لم يحصد حذو ردمير ، فانه سوف يجد صعوبة
كبيرة في اجبار النبلاء المنافسين على احترامه والاعتراف بسلطانه ، ومن ثم
فقد أعلن خضوعه للمنصور بن أبى عامر ، لكنه مالبث أن تمرد عليه
ومات مهزوما عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ، وخلف طفلا صغيرا ارتقى العرش
باسم الفونش الخامس (٣٨٩-٤١٦ هـ / ٩٩٩ - ١٠٢٨ م) . وبسبب
الوصاية على هذا الطفل ، قام النزاع بين شانجه غرسية كونت قشتالة
وخال الفونش الطفل ، وبين منتدو جونثالث Menando Gonzalez
والتي تسميه الرواية الاسلامية مسد بن عبد شلب أو منتد بن غندشلب (٦٤)

احتكم الرجلان المتنازعان على الوصاية الى عبد الملك المظفر بن
المنصور بن أبى عامر والذي خلف أباه في حجابة الخليفة هشام المؤيد في
الفترة (٣٩٢ - ٣٩٩ هـ) ، فأوفد اليهما المظفر بعض نصارى قرطبة
فحكوا بالوصاية لمنتدو جونثالث الذي ظل يقوم بها حتى مصرعه عام
٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م ، فباشر الفونش الخامس شئون الحكم بنفسه وطلب
من النبلاء اعلان الطاعة له ، فأطاعوه واستتب له الامر ، وامتد به
الأجل حتى سقطت دولة بني عامر وتهاوت الخلافة الاموية ، وتوحدت
ممالك الشمال الأسباني ونشطت حركة الاسترداد نشاطا كبيرا . (٦٥)

Dozy, op. cit., p. 500

(٦٣)

(٦٤) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، المقتشدي ، صبح الأعشى ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، ابن الخطيب ، المسعر نفوسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ ،
Dozy, op. cit., p. 500 & Livermore, pp. cit., pp. 97, 98,

(٦٥) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٢ ، المقتشدي ، المسعر نفوسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ،

Dozy, op. cit., p. 500 & Livermore, op. cit., pp. 97, 98.

وفي هذا الحديث الذي سبقناه حتى الآن عن مملكة ليون رأينا جميع الظواهر التي أوردناها في بداية حديثنا من قبل ، من صراع على العرش وعلى الأرض ، وندخل النبلاء بين هذا وذاك من الملوك والأمراء ، والمصاهرات وأثرها في العلاقات بين مملكة ليون وغيرها من ممالك الشمال الإسباني . وما أدى إليه كل ذلك من ضعف ووهن في جسم دولة ليون ، حتى أن معظم ملوكها لم يحكموا إلا بعد اذعانهم لخلفاء بني أمية ودفع الجزية لهم ، وحكيهم فيما نشب بينهم من خلاف ، مما جعل كلمة الخلفاء هي العليا في شئون تسه الجزيرة . وسوف ينضح هذا كثيرا عند حديثنا عن العلاقات بين مملكة ليون ودولة الخلافة .

٢ - أحوال مملكة نبرة (نافار) :

بدأ عصر عبد الرحمن الناصر ، وكان في حكم نبرة الملك شانجة بن غرسية الاول (٢٩٢-٣١٣ هـ / ٩٠٥-٩٢٥ م) ، وهو أول من أعلن أنه « ملك » من أمراء نبرة ، وبه نبدا مملكة نبرة الحقيقية ، ومنه خرجت الاسرة الملكية التي حكمت تلك البلاد ، ثم ضمت اليها ليون وقشتالة في الثلث الاول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، نتيجة للمصاهرات والحروب الاهلية .

وتتميز هذه المملكة باستقرار الحكم فيها ، وعدم قيام نبلائها بالتمرد ضد ملوكها خلافا لما رأيناه في مملكة ليون ، وهذا يرجع الى طبيعة نظام الحكم الذي كان يقوم على مبدأ الاختيار أو الانتخاب . وكما اربطت الأسرة الملكية النافارية بعلاقات المصاهرة مع ملوك ليون وكونتات قشتالة ، فانها أيضا صاهرت أمراء بني قسى المسلمين حكام الفجر الأعلى الأندلسي (سرقسطة) منذ عصر الإمارة ، وساعدها ذلك على الوقوف امام اطماع جيرانها من ملوك ليون وأمراء بني أمية .

وكانت مملكة نبرة غالبا ما تتحالف مع ملوك ليون اذا اشتد الخطر عليها من جانب قوات الخلافة ، لذلك فاننا نرى سلسلة من المحالفات بين الجانبين ، بدأت منذ بدايه القرن الرابع الهجري / العاشر

الميلادى ضد المسلمين . . ولم يكن نشاط شانجة، الأول قاصرا على مهاجمة مناطق النفور الاسلامية ، فقد تدخل في الشؤون الداخلية لمملكة ليون عندما قام الصراع على العرش بين ابني حبيبته اردون الناسى بن الفونس الثالث ، وكان أحد الأخوين وهو الفونس الرابع زوجا لابنة شانجة ملك نبره . . ورغم هزيمة الفونس الرابع في البداهه الا ان جيوش نبرة ساعدته على الصمود أمام احييسه الذى لم يلبث ان مات عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م (٦٦) .

كان شانجة ملك نبرة قد مات أثناء الصراع بين هذين الأخوين اللبونيين ونرك على العرش طفلا صغيرا يدعى غرسية شانجة Garcia Sanchez (٣١٤ — ٣٥٩ هـ / ٩٢٦ — ٩٦٩ م) ، وقامت أمه الملكة طوطة بالوصاية عليه (٦٧) وتصرفت ككائب للملك . وقد حاربت هذه الملكة العنيدة الخلافة حوالى ٣٠ عاما ، تحالفت أثناءها مع ليون وزوجت ابنتها أوراقة من ملك ليون ردمير الثانى ، وانسركت معه في هزيمته للناصر في معركة الخندق عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م (٦٨) .

وعن طريق المصاهرات مع ملوك ليون استطاعت نبرة التدخل أكثر من مرة في نرحس الملوك الذين ينسبون اليها بالمصاهرة ، ومساعدتهم في الجلوس على عرش ليون ، اذ أنه بعد وفاة ردمير الثانى عام ٣٣٩ هـ / ٩٥١ م ، قامت الحرب الأهلية بين ولديه حيث كان أكبرهما وهو اردون من أم من جليقية ، والثانى شانجة من أوراقة النافارية ، ابنة الملكة طوطة . الا أن الابن الأكبر اردون هزم قوات أخيه

(٦٦) ابن عدارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ ، ٢٨٦ ، ابن خلدون ، المعبر .

ج ٤ ، ص ١٤٢ .

Livermore, op. cit., p. 94.

(٦٧) يفول Livermore, أنها حدثه وهذا خطأ والصحيح

ما أثبتناه . ويقول ابن خلدون المعبر ج ٤ ، ص ١٤٢) أنها اخته ثم يعود الى تصحيح نفسه ويقول أنها أمه .

Livermore, op. cit., p. 95.

(٦٨)

وعقد الصلح مع الناصر ، وتمر شانجة الى جدته طوطة في نبرة^(٦٩) .

ولما عاد شانجة الى حكم ليون بعد وفاة أخيه أردون الثالث . عام ٣٤٤ هـ / ٩٥٦ م نازعه العرش ابن عمه أردون الرابع ، وطرده من ليون بمساعدة القشتاليين فلجأ شانجة الى جدته مرة أخرى . ولما كانت نبرة لا تستطيع مواجهة ليون وقشتالة بمفردها فقد بحثت طوطة عن حليف قوي ، ولم يكن أمامها الا الخليفة عبد الرحمن الناصر . وكانت هذه الملكة تحكم مملكة نبرة باسم ابنها شانجة بن غرسية الاول ، مع أنه بلغ ن العمر ما يمكنه من أن يحكم بمفرده^(٧٠) .

وقد كان حبها لحفيدها شانجه الليوني مسيطرا عليها بالدرجة أنها نسيت أحقادها وعداءها للمسلمين الذي يزيد عمره عن ثلاثين عاما ، ووفدت على الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وتعاقدت معه على أن يعيد حفيدها الى عرشه في ليون . وتم ذلك عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٩ م بعد أن قامت قوات نبرة بمهاجمة قشتالة المتحالفة مع ملك ليون مفتصب العرش ، واستطاعت أن تأخذ أميرها الكونت فرنان جونثالث أسيرا ، وبعد أن نمت هزيمة أردون الرابع فر الى جبال أشتريس^(٧١) .

خلف شانجة الثاني (٣٥٩ - ٣٨٤ هـ / ٩٦٩ - ٩٩٤ م) وألده غرسية بن شانجة الاول وصاهر المنصور بن أبي عامر ، لكنه مات وخلفه ابنه يسمى غرسية (٣٨٤ - ٣٩٠ هـ / ٩٩٤ - ١٠٠٠ م) على عرش نبرة ، لكن يبدو أنه كان ضعيف الشخصية ، لان المراجع النصرانية تشير اليه وتسميه غرسية المرتجف أو المرتعش ، كما أنه هزم أمام قوات المنصور الذي دمر عاصمته وخرب مملكته^(٧٢)

Livmore, op. cit., p. 95.

(٦٩)

(٧٠)

(٧١) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٣ .

Dozy, op. cit.- p. 444. & Livmore, op. cit., p. 96.

(٧٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٦٢ - ٦٥ .

Dozy, op. cit., p. 497 & Livmore, op. cit., p. 98.

على أمة حال فقد مات غرسية في سن مبكرة وترك ابناً صغيراً يسمى شانجة كان يعيش في بلاط قشتالة لأن أمه الملكة خيمنة Ximena كانت من أصل قشتالي ، وبذلك وضع تحت رعاية كونت قشتالة الثالث، شانجة بن غرسية بن فرنان جونثالث مؤسس الإمارة القشتالية ، وزوجه كونت قشتالة هذا من ابنته الكبرى التي تسمى ألبيرة ، وتولى شانجة هذا عرش نبره باسم شانجة الثالث (٣٩٠ — ٤٢٩ هـ / ١٠٠٠ — ١٠٣٩ م).

وبعد اعتلاء شانجة عرش نبرة بقليل دخلت البلاد النصرانية والإسلامية في أسبانيا في عصر جديد ، هو عصر ملوك الطوائف مما سنتحدث عنه في الباب الثالث . لكن ما يهمنا الآن هو أن نقول أن الأسرة المالكة في نبرة كما وضع من هذه الدراسة السريعة كانت فعلاً متميزة عن الأسرة المالكة في ليون ، إذ لم يحدث فيها إطلاقاً صراع على العرش ، ولهذا فرغت تلك الملكة إما لمجاهدة المسلمين أو لمجاهدة ملوك ليون أو أمراء قشتالة . ولكن الصراع الذي دار بين هذه القوى أضعفها أمام هجمات الناصر والمنصور ولم يستطع نبرة أن تتبوأ مكانتها إلا بعد أن انهارت الدولة العامرية والخلافة الأموية في مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .

أحوال إمارة قشتالة :

كانت قشتالة إحدى ولايات مملكته ليون الشرقية ، فهي بذلك تقع بينها وبين نبرة كما تطل على الثغور الإسلامية من ناحية الشمال الأوسط. ونضم قشتالة مدينة برغنس Burgas وإبله Avila وشقوبية Segovia وصورية Soria ، ولوكروني ، وسانت أندر Santander أو شنت أروم . وهي مدينة تواجه من الثغور الإسلامية قلعة أيوب ومدينة سالم والثغر الأوسط . وبسبب هذا الموقع كانت منطقة قشتالة معبراً لجنود الإمارة والخلافة عند مهاجمتها لمملكة ليون أو لمملكة نبرة .

وكانت منطلقه قشتالة تسمى في الروايات الإسلامية بمنطقة البه
والقلاع ، وقد سميت بهذا الاسم نظرا لهذا العدد من القلاع Castles
الذي أنشأه القشتاليون اتقاء لهجمات القوات الإسلامية ، ومبها جاء اسم
المنطقة نفسها فسميت قشتالة Castilla ، وظهرت قشتالة نتيجة
لتوسع مملكة ليون جنوبا وترقا على عهد الملك الفونس الثالث (ت ٢٩٦
/ ٩١٠ م) الذي وصل بحدود مملكته جنوبا الى نهر الدويرة مستردا
زامورة وسيمينقاس في السنوات الاولى من القرن التاسع الميلادي . (٧٤)

وقد عمرت هذه المناطق بنبلاء وأساقفة من الشمال ، واتخذت
شكلا مجددا تحت قيادة أحد زعمائها القشتالين الذي وأرث السلطة
لابنائيه ، وهو الكونت فرنان جونثالت . وقد امتدت حدود قشتالة في
عهد من حدود الباسك في الشمال الى النغر الإسلامية عند وادي الرملة
Guadarrama في الجنوب ، وعمرت بهؤلاء الأبطال المحاربين
الجبليين الذين تركوا الأمان في بيوتهم وسكنوا هذه القلاع مغامر
بأنفسهم على أمل احراز المجد والنصر ضد المسلمين (٧٥)

ولدت قشتالة في خطر من حيث الزمان والمكان ، فبسبب موقعها بين
ليون ونبرة كان لا يمكن لقشتالة أن تستمر طويلا كإمارة مستقلة ، فقد
كانت مسرحا للصراع بين هاتين المملكتين ، وعرضة لهجماتهم ضد بعضهم
الآخر ، كما كانت عرضة لهجمات الجيوش الإسلامية في نفس الوقت .
ولذلك أتبع أمراء قشتالة أسلوب المصاهرات وخاصة مع نبرة ، حتى تضمن
حليفيا يشد أزرها في صراعها مع ليون في معركة نل الاستقلال عنها .
كما تسلمت قشتالة داخل الإمبراطورية المالكية الليونية نفسها عن طريق المصاهرات
أيضا ووجهت بذلك الحفاظ على هذا الاستقلال . وأدت هذه المصاهرات في
النهاية الى اتحاد قشتالة وليون ونبرة ، وأصبحت هذه المنطقة كلها
تسمى مملكة قشتالة .

Crow, op. cit., p. 81.

(٧٤)

Livermore, op. cit., p. 93.

Crow, op. cit., p. 81, Livermore, op. cit., p. 93.

(٧٥)

وقد تميز الحكم في إمارة قشتالة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عنه في مملكة ليون . إذ أن الحكم في قشتالة كان وراثيا لا يتخلله صراع على الحكم كما حدث في ليون ، فلم يكن هناك نبلاء يتصارعون مع الأمير على السلطة . لأن تلك الفترة التي كانت تعيشها قشتالة كانت فترة تحقيق الاستقلال ، وفترة الصراع مع لبون ونبرة لتثبيت هذا الاستقلال والدفاع عنه ، وفترة الصراع في نفس الوقت مع الخلافة الإسلامية المساعدة وكان أمبرها المؤسس فرنان جونزالث هو الذي كان يقودها في هذا الصراع الطويل المرير ، لذلك كان القشتاليون يعتبرونه بطلا قوميا ، لدرجة أنهم خلدوا اسمه في أشعارهم وأساطيرهم . (٧٦)

وهكذا كان أمراء قشتالة متفرغين تماما لتحقيق هدفهم أو أملهم في الاستقلال عن ليون ، وفي مجاهدة المسلمين في نفس الوقت . ساعدها على ذلك طبيعتها الجغرافية وما فيها من عدد هائل من القلاع والحصون ، وموقعها المتوسط الذي يجعلها تلجأ الى جارتها الشرقى أو الغربى اذا اعتدى عليها وأحد منهما (٧٧) .

وكانت بداية الاحتكاك بين شعب قشتالة وبين ملوك لبون عندما وزع الملك الفونس الثالث المملكة بين أولاده الثلاثة في عام ٩١٠ (٢٩٦هـ) ، وقد تضايق أهل قشتالة من ملوك لبون الذين كانوا يعتبرونهم من سلالة القوط ، ولأن هؤلاء الملوك كانوا يفرضون أنفسهم كحكام على أساس الوراثة ، بينما الجنود الأحرار من أهل قشتالة والمرابطون دائما على الحدود كانوا يخارون عادة قضائهم كحكام لهم وكانوا يحافظون على عاداتهم وحبهم للحربة . وقد حاول الفونس الثالث أن يكسر من شوكتهم وحبهم للاستقلال بتقسيم منطقة قشتالة بين عدد من القوامس أو الكونتات كما احتال أنه أردون الثانى (٣٠١ — ٣١٢ هـ / ٩١٤ — ٩٢٤ م) على

Crow, op. cit., p. 81

(٧٦)

Chapman, op. cit.- p. 57.

(٧٧)

عدد كبير من نبلاء قشتالة وزعمائها وقبض عليهم وأعدمهم فهدأت قشتالة حينما لموت زعمائها ، لكنها كانت تنحين الفرصة للانتقام من ليون^(٧٨)

وقد حانت هذه الفرصة ووجدت قشتالة بطلها المنتقم في شخص الكونت فرنان جونثالت
Count Fernan Gonzalez
الذي كانت حياته مصدرا لالهاب خيال شعراء القرون الوسطى . وقد انتهز هذا الكونت فرصة الحرب الاهلية التي نشبت في ليون بين أبناء اردون الثانى على العرش ، وقام بنوحيد قشتالة في عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م . وجعل منها امارة لها كيائها وحدودها^(٧٩)

انتهت الحرب الاهلية الليونية بموت ابنى اردون أحدهما بعد الآخر . وبقي ردمير الابن الثالث الذى اعتلى العرش عام ٣١٩ هـ / ٩٣٢ م ووجد أمامه امارة قشتالية لها أميرها وهو الكونت فرنان جونثالت . لم يقدر ردمير الثانى على تجاهل هذا الوضع واستنفاد منه ، اذ استنعان بالقشتاليين في صد هجمات الناصر ، ثم في الهجوم عليه وهزيمته في موقعة الخندق عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م . وفي نفس الوقت لم يفكر الكونت في التمرد ضد ليون طالما أن جيوش الخلافة كانت تميث في بلاد النصارى وتنهب الاديرة وتحرقها . ولكن عقب موقعة الخندق ، رأى الكونت أنه لم يعد هناك ما يخشاه من المسلمين ، فأعلن تمرده ضد ملك ليون^(٨٠)

قامت حرب الاستقلال بين ليون وقشتالة ، لكن ردمير الثانى ملك ليون انتصر وأسر عدوه فرنان جونثالت ، وسجنه في ليون ، ومنح ولاية قشتالة لأحد رجاله ، ثم أرسل ابنه شانجه للإقامة هناك في عاصمتها برغش

Dozy, op. cit., p. 432 & Livermore, op. cit., p. 92. (٧٨)

(٧٩) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

Dozy, op. cit., p. 432 & Livermore, op. cit., p. 92.

Dozy, op. cit., p. 432 & Livermore, op. cit., p. 95 (٨٠)

Chapman, op. cit., p. 57.

ورغم أنه أحس معاملة القشتاليين إلا أنهم ظلوا مخلصين لأميرهم المأسور ولم تخمد في نفوسهم نيران الوطنية . ولما طال أسر زعيمهم ثاروا وزحفت قواتهم على ليون ، فخشي ردمير عاقبة هذا الأمر ، وأطلق سراح فرنان جونثالك بشروط فادحة ، هي أن يقسم يمين الطاعة ، وأن يتنازل عن كل أملاكه ، وأن يزوج ابنته أوراكه بأردون ابن ردمير . قبل الكونت ذلك مكرها ، وظل أهل قشتالة ناظمين على ليون ، ففقد ردمير بذلك مساعده أمهر قواده وأتسجع جنوده ، واضمحلت قواه العسكرية واضطر للالتزام بخطة الدفاع أمام هجمات المسلمين ، وهو المنتصر عليهم في موقعه الخندق المشهورة (٨١)

وكان للكونت فرنان أمير قشتالة دور خطير في الصراع الذي نشب بين ابني غريمه ردمير ملك ليون ، أردون وشانجه . ورغم أن أردون كان زوجا لابنة الكونت إلا أن الكونت كان لايميل الى مساعدته لان المصاهرة كانت قهرية كما تقدم ، كما أن أردون رفض مطالبه في أن يكون مركزه في قشتالة أمرا وراثيا ، وأن يعترف بوحدة قشتالة بحيث لاتجزأ مرة أخرى . ولذلك فضل الكونت مساعدة شانجه الذي وعده برد أملاكه اليه ، وكذلك الاعتراف باستقلال قشتالة . فحشد الكونت جنده وتقدم لمساعدة شانجه . إلا أن أردون هزم أعداءه وقوى حكم ليون (٣٣٩ — ٣٤٤ هـ / ٩٥٠ — ٩٥٦ م) (٨٢)

وتدخل أمير قشتالة مرة أخرى في ليون عندما مات أردون الثالث ، وقام الصراع بين أخيه شانجه الاول وبين ابن عمه أردون الرابع ، ذلك أن أردون الرابع كان قد تزوج أرملة أردون الثالث ملك ليون السابق ، وهي كما تقدم ابنة الأمير قشتالة الكونت فرنان جونثالك ، الذي انتهز فرصة الصراع بين أفراد الاسرة المالكة الليونية وحقق استقلال قشتالة بحيث لم يعد

Dozy, op. cit., pp. 435 & Livermore, op. cit., p. 95

(٨١)

Dozy, op. cit., p. 436 & Livermore, op. cit., p. 95

(٨٢)

ملك ليون أى سلطة عليها ، بل ان قشتالة كانت بفوتها ومصاهرتها هي التي تقرر من يحكم ليون (٨٣)

قرر امير قشتالة التدخل على الفور في أحداث ليون ، ووقف الى جانب زوج ابنته اردون الرابع وأرسل له جيشا قشتاليا ، ففر شانجه الى جده الملكة طوطلة ملكة نبرة الى صاحبته ووفدت على الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وعقدت معه معاهدة اعترفت له فيها بالطاعة ودفع الجزية على أن يساعد حفيدها شانجه على العودة الى عرشه . وقامت قوات نبرة بمهاجمة قشتالة ، وقامت القوات الاسلامية بمهاجمة ليون ففر اردون الرابع الى جبال ألتيريس ، وأسر الكونت فرنان أمير قشتالة نفسه بواسطة النافاريين وحمل الى بنبلونة ، بينما اتخذ صهره المخلوع اردون الرابع طريقه الى قرطبة لطلب المساعدة (٨٤)

أطلق النفازيون سراح أمير قشتالة بعد ذلك بقليل ، لكنه لم يلبث أن مات وخلفه في حكمها ، ابنه الأمير غرسية (٣٦٠ — ٣٨٥ هـ / ٩٧٠ — ٩٩٥ م) والذي تسميه الروايات الاسلامية غرسية بن فرذلند أو غرسية بن فرانسه بن عبد شلب . ظل هذا الامير يعيش في هدوء حتى قام الصراع بين القائد غالب والمنصور بن ابي عامر على السلطة في عصر الخليفة هشام المؤيد الطفل ، وحاول غرسية التدخل في جانب غالب ، لكنه منى بالهزيمة ثم اشترك بعد ذلك في تحالف مع راميرو الثالث ملك لبون (٣٥٦ — ٣٧٢ هـ / ٩٦٦ — ٩٨٢ م) ، لكنهم هزموا ، ومات غرسية أسيرا في قرطبة على قول احدى الروايات النصرانية ، وان كانت الرواية الاسلامية لم تنشر الى ذلك (٨٥)

(٨٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعمال ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٨٤) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ،
Dozy- op. cit., p. 444, Livermore, op. cit., p. 96.

(٨٥) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ١٥٥ — ١٥٦ ،
Livermore, op. cit , pp. 97, 98.

ترك غريسيه ابنه شانجة في حكم قشتالة (٣٨٥ — ٤٠٦ هـ / ٩٩٥ — ١٠١٧ م) . وقد احتفظ مع سميّه غريسية شانجة ملك نبره (٣٨٤ — ٣٩٠ هـ / ٩٩٤ — ١٠٠٠ م) بعلاقات حميمة ، وقد فتح غريسية القشتالي باب قصره لكي ينشأ فيه شانجة ابن صديقه غريسية ملك نبرة ، لأن امه كانت من أصل قشتالي ، ولان والده ملك نبرة كان قد مات في سن مبكرة . وعمل غريسية أمير قشتالة على ربط قشتالة بنبرة ، فزوج شانجة الذي صار فيما بعد ملكا على نبرة باسم شانجة الثالث (٣٩٠ — ٤٢٩ هـ / ١٠٠٠ — ١٠٣٩ م) من ابنته الكبرى المسماة البيرة ، كما زوج ابنته الأخرى المسماة طريجة من ملك لبون برمند وكان من نتيجة هذه المصاهرات أن ارتبطت البلاد الثلاثة في وحدة واحدة في مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بينما كانت الأندلس تعيش عصر التفرق والانقسام والصراع في عهد ملوك الطوائف^(٨٦)

وهكذا نرى أن الاوضاع الداخلية في الدولة النصرانية في شمالي اسبانيا كانت تساعد خلفاء بنى أمية على القيام بدورهم في فرض السلام على جميع أجزاء شبه جزيرة ايبيريا . فقد شغلت ملكة ليون بالحروب الاهلية الداخلية المتتالية بسبب الصراع على العرش ، وقد اعاقها ذلك بالتاكيد عن القيام بدور نشط ضد خلفاء بنى أمية كما شغلت هذه الدولة من ناحية أخرى بالصراعات التي اثارها امارة قشتالة في سبيل تحقيق استقلالها عنها ، وشغلت قشتالة وليون ونبرة بالصراع ضد بعضها البعض تأييدا لهذا الامر أو ذاك ممن تربطه علاقة مصاهرة بأحد ملوك هذه الدولة أو تلك .

وكان من نتيجة ذلك أن قل التعاون بين ملوك وأمراء هذه الدول ، وكان التعاون لا يظهر الا اذا أحست احداها بخطر الفناء نتيجة لهجمة شرسة من هجمات المسلمين المتتالية ، وعندئذ تتحد وتتصالف

(٨٦) ابن الحطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

Livermore, op. cit., p. 98.

وما إن ينتهى الخطر حتى تعود تلك الدول الى محاربة بعضها البعض ،
بل وتستعين بالخلافة للانتصار على خصومها وتحقيق أهدافها .

كانت الكراهية بينهم موجودة لدرجة أنه عندما غزا المنصور ليون
امتلا القشتاليون سرورا ، وعندما عانت قشتالة بدورها من نفس المصير
كان الليونيون شامتين . وكانت هاتان المملكتان تتيهان فرحا وسرورا
عندما اكتسح المسلمون نبرة . وفي تلك الايام كان تعبير أو لفظ إسبانيا
(Spain) Espana يستعمل فقط للإشارة الى ذلك الجزء من
شبه الجزيرة الذى أقام فيه المسلمون دولتهم وعندما كان نصارى الشمال
يشيرون الى وطنهم الخاص ، كانوا يقولون أسماء ممالكهم التى يعيشون
فيها مثل ليون ، قشتالة ، نبرة ، أشتريس . . . الخ ، وكانت هذه الروح
الانفصالية هى التى هزمتهم أمام الأندلس الموحدة فى عصر الخلافة فى
القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى^(٨٧) ، وسوف نرى أثر هذه
الأوضاع الداخلية وأثر عوامل القوة والضعف فى كل من الأندلس وشمال
إسبانيا واضحا فى تطور العلاقات بينهما ، وذلك فى حديثنا عن تلك
العلاقات ومظاهرها وطبيعتها فى الفصل الثانى من هذا الباب .

Crow, op. cit., p. 82.

(٨٧)

الفصل الثاني

مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية

١ - طبيعة العلاقات بين مسلمي الأندلس ونصارى الشمال الأسباني

قلنا في حديثنا عن العلاقة بين أمراء بني أمية ونصارى الشمال الأسباني أن هؤلاء الأمراء لم يكن هدفهم من الصراع مع نصارى الشمال هو إبادتهم أو تحطيم دولتهم ، بل كان هدفهم هو التعايش السلمى معهم ، ولم يكن ذلك ممكنا إلا عن طريق سلسلة من الغزوات أو الحروب ، قد تكون رد فعل لهجمات نصرانية ، وهذا هو الاغلب الاعم أو قد تكون حربا بدأها المسلمون للنخوف والارهاب ، أو درءا لخطر محتمل وهى ما تسمى بالحرب الوقائية في عصرنا الحديث .

هذا ماكان في عصر الامارة ، وكان لذلك دواعيه النابعة من الظروف والأوضاع الداخلية لطرفى الصراع ، لكن هذه الأوضاع تغيرت في عصر الخلافة وتطورت لصالح المسلمين ، ومال ميزان القوة السياسى والعسكرى الى جانبهم . وحقق خلفاء بني أمية من أمثال الناصر والمستنصر وحجابهم من أمثال المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر عبد الملك تفوقا ساحقا على دول الشمال النصرانى مجتمعة ، حتى انها أتت راكمة تطلب السلم والمواذعة . فهل تغيرت أهداف الصراع عند خلفاء بني أمية عنها في عهد الامارة ؟ وماذا كانت أهدافه أيضا عند نصارى الشمال ؟ وما هى نتيجة هذا الصراع وطبيعته بالنسبة للطرفين ؟

لم يغير عند الصراع سواء عند نصارى الشمال ، أو عند مسلمي الأندلس . فالأولون ونسعوا نصب أعينهم استرداد بلادهم التى استولى

عليها المسلمون . والمسلمون كانوا يريدون ردع هؤلاء النصارى وكبح جماحهم وتحقيق هبة الدولة الاسلامية ، وسحق أى محاولة نصرانية تنال من اراضيها . لم يكن فى ذهن خلفاء بنى أمية التوسع فى اراضى الشمال فذلك شئ لا يريدونه رغم انه كانت لديهم القدرة عليه . فقد احتل الناصر بنبلونة مثلا ، وكان يستطيع الاستمرار فى ذلك والقضاء على مملكة نبرة ، ولكن عندما تقدم ملكها يطلب الصلح ، أخلى الناصر عاصمته وقبل محالفته ، وكذلك فعل مع امارة قشتالة وكانت ناشئة اذ ذاك ، وكان يستطيع القضاء عليها فى مهدها . ولكن نظرية الناصر كانت الاعتراف بحقوق الممالك الاخرى لتعترف هى بحق الخلافة الأموية على اراضيها :

وكان ما يهم خلفاء بنى أمية الاقوياء هو تحقيق الأمن والأمان للمواطنين ولديار الاسلام ، هذا كان منتهى أملهم ، فهل تركهم مسيحيو الشمال يحققون هذا الهدف ؟ (١)

الواقع أنهم تصدوا للخلافة وهى ما تزال فى مهدها وحاولوا القضاء عليها ، واثارة مشاعر المسلمين بأن الخليفة غير قادر على تحقيق الأمان للرعية وهو المسئول عنها دينيا وسياسيا ، حتى أنه فى احدى الهجمات التى شنّها نصارى الشمال ونالوا فيها من المسلمين وقتلوا عددا كبيرا من زعماء الثغور هاجت الاندلس على الناصر ورموه بالتفريط فى تأمين حياة رعيته من المسلمين (٢) .

اذن أجبر الناصر وهو أول خلفاء بنى أمية على خوض المعارك مع شمال أسبانيا النصرانى اجبارا ، وسوف نرى أنه فى معظم حروبه لم يكن هو البادئ بالعدوان ، وانما نصارى الشمال بتعصبهم المقيت كانوا وراء تلك المعارك التى استمرت حوالى أربعين عاما من خلافة الناصر البالغة خمسين عاما . ولم تكن حروب الناصر الا رد فعل لهجمات

(١)

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

الشمال ، أو كانت بسبب نقضهم لها أبرموه معه من معاهدات . هذه هي طبيعة العلاقات بينهم وبين الناصر . واستمر ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٨٦ م) يسير على سياسة أبيه ، إلا إذا نقض هؤلاء النصاري عهدا كان لهم معه أو مع أبيه الناصر . واستمرت بذلك فترة السلام من أواخر حياة الناصر حتى وفاة الحكم المستنصر فيما يقرب من حوالى عشرين عاما .

ولما تولى ابنه هشام المؤيد الخلافة (٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٩ م) كان لا يزال طفلا فاستحجب رجل الدولة القوى محمد بن أبي عامر الذى انتهاز الفرصة وحجر على الخليفة واستبد بالسلطة ، وتغير هدف الصراع وطبيعة العلاقات مع نصارى الشمال . فقد كان هدف هذا الرجل ذى القبضة الحديدية والعزيمة الوثابة والرغبة المتوهجة فى الجهاد هو تحطيم دول الشمال النصرانية ، وتطهير أسبانيا كلها من النصارى ودولهم لو قدر على ذلك (٣)

قرر المنصور اذن أن يقضى على دول الشمال ، وأن يخضها جميعا لسلطه الخلافة وقد خالف فى ذلك خطة من تقدمه من خلفاء بنى أمية أو أمراءهم ، إذ كان هؤلاء جميعا يحاربون للدفاع ورد الغزوات أما هو فكان يبدأ بالحرب دائما ، تحدوه فى ذلك روح قوية فى الجهاد حتى انه كان يتوق الى الموت فى ميدان المعركة ، وكان دائما يحمل معه أكفانه كلما خرج يغزو الشمال ، فهو دائما مستعد للشهادة ، وفعلا مات وهو عائد من إحدى غزواته ودفن فى مدينة سالم ، وهى أبعد ما تكون عن قرطبة ، فهى من ثغور المسلمين التى تطل على قشتالة ، وكأنه أراد أن يذكر النصارى بوجوده قريبا منهم حتى وهو ميت (٤)

(٣) د. حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ص ١٦١ .

(٤) حنى ، تاريخ العرب (المطول) ج ٢ . ص ٦٣٥ .

حطم المنصور كثيراً من بلاد الشمال ودمر عواصمهم الثلاث ، ليون ، وبنبلونة وبرشلونة ، وأنزل الخراب والدمار بزراعتهم وبيوتهم وكنائسهم وأديرتهم ، حتى أنه دمر في إحدى غزواته قدس أقداسهم ، وهى مدينة سانت ياقب ، ذلك المزار الدينى الكبير الذى يحيطونه بكل تقديس واجلال وأراد المنصور من وراء ذلك أن يقضى على الرمز الذى يلتقون حوله والذى جعلوه حامى حوى المسيحية فى أسبانيا (٥)

وهكذا تغبرت طبيعة الممارك بين أسبانيا الاسلامية وأسبانيا النصرانية ، وبدأت الحرب تأخذ صفة الحرب الدينية ، فالنصارى يحرقون المساجد ويمتلون بجثث القتلى . والمسلمون يدمرون الكنائس ويقتلون القسس والرهبان ، ويشفرك هؤلاء فى الممارك لاثارة الحماس الدينى فى نفوس بنى جلدتهم من النصارى ، ويقوم الفقهاء بنفس الشئ فى جيوش المسلمين . ويحاول النصارى سواء فى الأندلس أم فى الشمال فتنة الناس واغراءهم بالارنداد عن دين الاسلام ، ويقوم المسلمون بقتل من يعرفون عنه ذلك ، ويفد على الأندلس من يفد من المسلمين الراغبين فى الجهاد ، وكذلك يفد على شمال أسبانيا من يفد لمجاهدة الاسلام أو لجمع عظام الشهداء المسيحيين (٦)

حدث كل ذلك طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وحدث ما هو أكثر منه ، فقد أخذت العوامل الدينية والقومية يظهر تأثيرها على العلاقات بين ممالك الشمال النصرانية ، ورأت هذه الدول أنه لابد من وحدة الكلمة حتى تستطيع مقاومة الخطر الاسلامى والقضاء عليه . اتحدت ليون ونبرة وقشتالة ، وأحياناً برشلونة ، فى كثير من الممارك ، وأحرزوا نصراً فى بعضها ، وأصابتهم الهزيمة فى معظمها ،

(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ ،

(٦) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٩٤ ، ٤٦٨ ، الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧١ ، السلاوى ، الاستيلاء ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ،

لكنهم احسوا بفائدة الكفاح المشترك ضد العدو المشترك ، وكان هذا ارهاصا لما تم في القرن التالي حيث أصبحوا وحدة واحدة ، بينما تفرق شمل المسلمين ، وبذلك ظهرت بوادر الوحدة القومية الاسبانية منذ ذلك الحين ، وكانت أسبق من غيرها في دول أوروبا بسبب الحركة الفريدة التي تميزت بها أسبانيا ، وهي حركة الاسترداد (٧) .

هكذا تغيرت أهداف الصراع وتغيرت طبيعته في أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولم يكن الا بتأثير المنصور بن أبى عامر الذى يعد من طراز المجاهدين الاوائل أمال موسى بن نصير ، وعبدالرحمن الغافقى ، وكأنه أراد أن يحيى سنة الجهاد التي كانت قد فترت الى حد بعيد بعد انتهاء عصر الولاة . لكن الغريب أن المنصور رغم غزواته الى بلقت ماينيف عن الخمسين لم يستطع ازالة هذه الدول من الوجود ، ولم يقم بحركة استيطان اسلامية لهذه الدول . فهل كانت تنقصه الامكانيات ؟ أم أن الأوضاع الداخلية كانت لاتساعده على ذلك ؟ أم أن هناك من الأخطار الخارجية ماثل يده عن تحقيق هذا الهدف ؟

يجب أن نضع في الحسبان أن الوضع الداخلى كان فى غير مصلحة بنى عامر على المستوى البعيد ، وكان المنصور يعرف ذلك حتى أنه تنبأ بخراب مدينته الزاهرة التي بناها وتجشم فى بنائها الكثير ، وكان فى وصاياهم لأولاده ومواليه يحذرهم من بنى أمية ويقول لهم « لا تفرنكم بوارق بنى أمية فانى أعرف ذنبى اليهم » ، فهو اذن كان لديه الاحساس بما سوف تؤول اليه الأمور بعد وفاته . وصدق احساس الرجل ، اذ لم يمض على وفاته أكثر من سبع سنوات حتى زلزلت الأرض زلزالها وصلب ابنه عبد الرحمن وقضى على دولته ، وأزيلت مدينته الزاهرة من الوجود فى عدة ساعات ، وقامت دولة أخرى على رأسها البربر الذين كان يقيم ملكه على سواعدهم (٨) .

(٧) عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٥٣ .

(٨) ابن بسام ، الفخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٥٨ .

اذن كان هناك انقسام في الجبهة الداخلية أيام بنى عامر لكنه كان انقساما مستترا كالثار نسرى تحت الرماد ، كان هناك حزب بنى أمية وحزب بنى عامر . ورغم أن السيطرة السياسية كانت للحزب الآخر إلا أن الحزبين كانا يتربص كل منهما بالآخر . لذلك كان اعتماد بنى عامر على البربر والمرتزقة في جيوشهم التي كانت تطيعهم طاعة عمياء والتي حققوا بها تلك الانتصارات الرائعة . كانت شخصية المنصور طاغية ، وكان لا يمكن لحزب بنى أمية الذى أضناه التشريد والقتل والمصادرة على يد بنى عامر أن يرفع رأسه في عهد هذا الرجل القاهر . تركوا له الميدان يسرح ويمرح فيه بمفرده ، تركوه ينبج لهم بدل أن ينبج عليهم كما قال بذلك هشام المؤيد (٩)

بجانب ذلك يجب ألا ننسى أيضا أن الخطر الخارجى الذى كان يتمثل في دولة الفاطميين في شمال إفريقيا قد استنزف الكثير من جهود بنى أمية وبنى عامر ، ولو أمن الفاطميون الجبهة الجنوبية لبنى أمية لكان لصراعهم مع نصارى الشمال شأن آخر . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن الاندلس كانت ثغرا نائيا من ثغور المسلمين ، وباليها كانت لها صلة ببقية الاقطار الإسلامية في المشرق ، انما استقلت بنفسها وأقامت على أرضها خلافة تنافس خلافة بنى العباس في المشرق ولفاطميين في المغرب .

فالاندلس كانت عضوا صغيرا بتر من جسد الأمة الإسلامية المنزمية الأطراف ، وكان عليه أن ينزف دماء الحياة ، وأن يقف وحيدا في هذا المكان القصى يجاهد النصارى ويجالد الثائرين ، معتمدا على قواه الذاتية حتى تضب معين هذه القوى ، ونالها الاعياء ، فاسترخت واستسلمت بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، حينما بدأت الخلافة الأموية تدخل مرحلة الضعف والسقوط . وتغيرت طبيعة العلاقات ومظاهرها مع نصارى الشمال ، ذلك أن خلفاء بنى أمية في تلك الفترة انقسموا على أنفسهم ودخلوا في صراع داخلى عنيف على الفوز بكرسى الخلافة ، واستعانوا في ذلك بنصارى الشمال

(٩) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

لتحقيق هذا الهدف ودخلت قوات النصارى قرطبة تقهر فريقتا لمصلحة الآخر وبذلك تغيرت أهداف الصراع وانقلبت الحال وصار الفالاب مغلوبا ، وانعكست الاوضاع بالنسبة للعلاقات مع نصارى الشمال مما كان عليه فى عصر قوة الخلفاء فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

هذا عن طبيعة الصراع وأهدافه ودواعيه سواء فى عصر قوة الخلافة أم فى عصر ضعفها ، لكن هل كانت العلاقة بين الجانبين الاسلامى والمسيحى فى شبه الجزيرة طوال عصر الخلافة حريا وصراعا عسكريا لا يخدم أواره ولا يستقر قراره ؟ وهل استبد المسلمون بنصارى الشمال واستخدموا قواهم العسكرية الفائقة فى فرض الحرب عليهم وخاصة فى عصر قوة الخلافة ؟

لم يفعل المسلمون ذلك ، لأنه كان يتنافى مع أهداف الصراع ومع طبيعة العلاقات ، ويمكننا أن نقسم عصر الخلافة الى أربع فترات ، فترة الصراع المتوازن وتبدأ من بداية عهد عبد الرحمن الناصر فى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وتنتهى بعام ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، وهو عام السلام الذى تم فيه عقد معاهدات السلام بين الناصر وجيرانه من نصارى الشمال والفترة الثانية ، وهى فترة السلام وتبدأ من هذا العام وتنتهى بوفاة الحكم المستنصر عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وفيها استخدم الناصر وابنه المستنصر الأساليب الدبلوماسية فى معظم الأحيان ، لفض تحالف نصارى الشمال ، حتى أصبح هو السيد الفعلى لشبه الجزيرة كلها . والفترة الثالثة وهى فترة الصراع المتطرف الذى قاده المنصور بن أبى عامر فى عنف وشراسة ضد نصارى الشمال ، وحطم فيه دولهم وأذل كبرياءهم . وتأتى بعد ذلك فترة سقوط الخلافة بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وفيها انقلب ميزان القوى لصالح نصارى الشمال ، وأصبحوا يتدخلون فى تولية الخلفاء وعزلهم . وسوف نناول علاقة خلفاء بنى أمية بنصارى الشمال فى عصر قوة الخلافة وفى عصر ضعفها كل على حدة .

٢ - علاقات خلفاء بني أمية بنصاري الشمال الأسباني في عصر القوة

(٢) علاقات خلفاء بني أمية بمملكة ليون :

حكم ليون في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عشرة من الملوك عاصر الناصر منهم سبعة ، وقد سبقت دراسة أحوال كل من البلدين ، تلك الأحوال التي أثرت كثيرا على العلاقة بينهما ، ومكنت الناصر وخلفاءه من أن يقودوا حركة الصراع مع ملوك ليون باقتدار وكفاية وشجاعة منقطعة النظير ، جعلتهم سادة شبه الجزيرة كلها .

وتبدأ المرحلة الأولى في العلاقات بين ليون وقرطبة بهجوم شنه الملك أردون (اردونيو) الثاني بن الفونش (الفونسو) الثالث (٣٠١ - ٣١٢ هـ / ٩١٤ - ٩٢٤ م) ، عام ٣٠٢ هـ / ٣١٤ م على ماردة واستولى على حصن الحفش ووضع السيف في رقاب مدافعيه ، وامند الرعب الى أهل بطليوس الذين افتدوا أنفسهم بالمال ، وقدموا شكواهم الى الناصر . ورغم أن ماردة كانت من المناطق النائرة ضد الناصر إلا أنه أراد أن يكسب قلوب الثوار هناك ، فجرد ضد ملك ليون جيشا بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبدة عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ، وكانت هذه هي الحملة الأولى ضد ليون في عهد الناصر وكانت ردا على عدوان أردون وسوف بتكرر ذلك فيما سيأتي من حملات (١٠)

ولم يمض على اغارة أردون الثاني على ماردة كثير حتى فاجأ أهل الثغور بهجوم خاطف عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م ، أحرق فيه أرباض طليبة (على نهر الناجة) . فأمر الناصر قائده ابن أبي عبدة أن يخرج لاغساة أهل هذه الناحية ، وحاصر قلعة شنت اشتبين أو قاشتر مورش حسب الرواية العربية واشرف المسلمون على الظفر لولا أن أردون أقبل لانقاذها ، ففر البربر والجند المرتزقة وتركوا ابن أبي عبدة الذي صمم على الدفاع

(١٠) ابن عذاري . المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ١٤١ .

حتى الموت هو وكثير من جنوده وضباطه . وانتهت المعركة باستشهاده
وغير الباقون وعادوا سالمين حسب الرواية الاسلامية . أما الرواية
النصرانية فتقول ان الهزيمة كانت ساحقة لدرجة ان المرتفعات والقلاع
والسهول والغابات من الدويرة حتى أثينسة كانت مغطاة بجثث
المسلمين (١١) .

ازدادت شجاعة أردون الثاني ملك ليون وتحالف مع ملك نبرة شانجة
ابن غرسية ، وهاجم ناجرة وتطيلة بالثغر الاعلى ، فأرسل الناصر حاجبه
بدرا عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م الى منطقة ليون للانتقام لقتل ابن ابي عبدة
وحدثت معركتان على مقربة من مكان يسمى مطونية والذي سميت الغزوة
باسمه . كسب المسلمون احدى المعركتين حسب رواية دوزي بينما الرواية
الاسلامية تقول ان النصر كان تاما ، وأن بدرا هزم ملكي ليون ونبرة ، وأبى
أرسل الى الناصر ألف رأس من قتلاهم مع كتاب الفتح الذي قرىء على
جميع منابر الأندلس (١٢) .

كان بنو تجيب وبنو طويل من أمراء الثغر الاعلى الاندلسي يتحالفون
مع نصارى الشمال في ذلك الوقت ويحاربون الى جانبهم ، ولذلك رأى
الناصر انه لابد من الخروج بنفسه لتأديبهم وللانتقام بنفسه لقتل قائده.
ابن ابي عبدة ، خاصة وأن ملك ليون قد أغار على حصن القلعة قرب
مدينة الفرج (وادى الحجارة) في المحرم ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م . فأسرع
الناصر في سيره حتى وصل الى طلبطلة ومنها الى مدينة سالم ، وأظهر
انه يريد التوجه الى الثغر الاعلى ، لكنه مال ناحية البة والقلاع
(قشتالة) من مملكة ليون واستولى على قلعة أوسمة التي تسميها

(١١) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

(١٢) ابن عبد ربه ، العمدة المفيد ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ،
ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

الروايات العربية وخشمة ، وأحرقها ، ثم تقدم الى قلعة شنت أشتين (قاشترمورش) ، وهى التى كانت مسرحا لهزيمة المسلمين المروعة عام ٣٠٥ هـ ففرت حاميتها واستولى عليها الناصر وهدمها واجتاح مدينة قلونية وخربها ، ثم ولى وجهه شطر الثغر الاعلى ونبرة (١٣) .

أسرع ملك ليون الى نجدة ملك نبرة والحق الملكان بعض الخسائر بالمسلمين أثناء مرورهم بين ممرات الجبال ومضايقتها ، لكن الناصر استدرجهم الى سهول جنكيرة وسحق جيوشهم مجتمعة وقتل أكثر من ألف مسيحي كانوا قد لجأوا الى قلعة مويش ، وهى القلعة التى اعطت اسمها لتلك المعركة . وبعد هذه الهزيمة القاسية لم يجرؤ ملك ليون على التعرض للثغور الاسلامية مرة أخرى ، وما لبث أن مات عام ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م (١٤)

قامت الحرب الأهلية فى ليون بسبب وراثة العرش بعد موت أردون الثانى حتى استقر الأمر للملك ردمير (راميرو) الثانى (٣١٩ — ٣٣٩ هـ / ٩٢١ — ٩٥١ م) . وكان هذا الملك من أشجع ملوك ليون وأقدرهم وكان أكثرهم بغضا للمسلمين ، فقد استطاع أن يحرض طليطلة على الثورة ضد الناصر حتى يشغله عن غزو ليون ، فجرد الناصر عليها جيوشه عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وحاصرها ، وعبثا حاول ردمير انقاذها لكن جيوش الناصر صدته وهزمته قبل الوصول اليها ، فعاد الى بلاده نازكا المدينة لحصنها المحتوم (١٥)

(١٣) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ ، ٣٧١ ،

(١٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ — ٢٦٩ ، ابن خلكون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٤١ ،

(١٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ — ٣١٢ ، ابن عبد ربه ، العقد المريد ، ج ٢ ، ص ٣٧٥

وكان ردمير أكثر حظا في العام التالي (٣٢١ هـ / ٩٣٣ م) ، اذ استطاع تابعه فرنان جونثالك كونت قشتالة أن يهزم قوات المسلمين التي كانت تهدد أوسمة . وأخذ الناصر ثأره في العام التالي (٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) ، وكانت رغبته أن تشهد السهول المحيطة بأوسمة انتصار جيوشه كما شهدت هزيمتها ، وعبثا حاول اخراج ردمير من حصونها التي تحصن فيها ، فترك الناصر قوة لمحاصرته ، وتقدم نحو الشمال ووصل الى برغش ودمرها تدميرا رهيبا ، وقتل كل رهبان دير سسان بيدرو دى كاردينيا البالغ عددهم مائتان ، وواجهت كثير من القلاع نفس المصير (١٦) .

لجأ ردمير الى أسلوبه في إثارة الشقاق بين المسلمين ، وحرص بنى هاشم التجيبين حكام سرقسطة وقلعة أيوب على شق عصا الطاعة على الناصر ، فقام هؤلاء بإعلان تمردهم وتحالفوا مع ردمير ، وانضمت اليهم الملكة هوطة (تيودا) ملكة نبرة ، وبذلك اتحد الشمال كله ضد الناصر . واستطاع الناصر في عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٧ م أن يهزم بنى تجيب ويقضى على ثورتهم ، وأن يهزم أيضا جيوش نبرة ويخرب كثيرا من حصونهم ، فأعلنت الملكة طاعتها للناصر ودفعت له الجزية (١٧)

وبذلك أخضع الناصر الشمال الشرقي ولم يبق أمامه الا خصمه العتيد ردمير الثانى ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقى ، فاعد لغزوه جيشا ضخما يبلغ عدده زهاء مائة ألف ، وعهد بقيادته الى فتاه نجدة الصقلبي وهنا تختلف الروايات الاسلامية فيما بينها بخصوص زمان المعركة ومكانها

(١٦) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ،

(١٧) المغزى ، نصوص الأنطلس ، ص ٤٥ ، ابن عبد ربه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، المغزى ،

نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٩ ،

فالمقرى ينقل عن المسعودى بأنها كانت عند مدينة سمورة في شوال
عام ٣٢٧ هـ ويتابعه في ذلك الحميرى (١٨) .

أما بقية الروايات الإسلامية فتشير الى أنها كانت عند مدينة شانت
مائكة أو شانت مانكش أو شانت ماكس ، وهى أسماء متشابهة لمدينة
سلمنقة (سبمانقاس) التى تقع على نهر دويرة حيث حدثت
المعركة هناك بين ١١ و ١٧ من شوال ٣٢٧ هـ ، وقيها هزم
المسلمون بسبب خيانة الضباط العرب الذين أرادوا الانتقام من الناصر
الذى أسند القيادة العليا لنجدة الصقلي ، فتقهقروا وارتدوا الى مكان
يسمى الخندى جنوب سيمنقه ، حيث هزمهم النصارى هزيمة ساحقة ،
قتل فيها أربعون أو خمسون ألفا من جند الناصر . ولما عاد
الناصر الى قرطبة قبض على ثلاثمائة من الفرسان وصلبهم ونادى عليهم
« هذا جزاء من غش الاسلام وكاد لأهله » وأخل بمصاف الجهاد » (١٩)

ويبدو أن رواية المسعودى والحميرى غير صحيحة ، لأن المسعودى
وإن كان معاصرا للمعركة إلا أنه كان يعيش بعيدا عن مكانها ، فهو من مؤرخى
المشرق ، وربما نقل عن لايعرف مكان المعركة الصحيح . أما الحميرى
فهو مصدر متأخر لأنه عاش فى القرن الثامن الهجرى ، كما أن روايته
يبدو عليها الاضطراب ، فهو يذكر مثلا أن جيش الناصر كان مائتى ألف
ثم يعود وفى نفس الرواية ويقول أنه كان مائة ألف .

أما الروايات الأخرى التى أوردناها فهى صحيحة وتتفق فى ذلك مع
الروايات النصرانية المتعددة ، كما أنها صدرت من مؤرخين أندلسيين
قريبى العهد بالأحداث ونقلوا عن شهودها . ويلفت النظر فى رواية

(١٨) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ،
ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(١٩) ابن حيان ، الاقتبس ج ٣ ، ص ١٩ ، ٢٨ ، المسندى ، المصدر نفسه ، ص ٤٦ ،
ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٠ .

ابن حيسان أنها تذكر المعركة مرة باسم الخندق ومرة تقول أنها « غزوة شنت مانتكش وهي الغزوة المعروفة بالخندق » ويقول ابن خلدون أنها وقعت الخندق القريبة من مدينة شنت ماكس (سيمنقة) . وهو تحديد دقيق جدا لمكان المعركة (٢٠) .

وقد عرض الاسناذ محمد عبد الله عنان الرواية الاولى التي أثبتنا خطأها وقال عنها انها تقترب من الرواية النصرانية ، وهذا أيضا خطأ ولا يقترب منها الا الروايات التي أوردها والتي تتفق معها في المكان والزمان الذي جعله في شوال عام ٣٢٧ هـ / يولية ٩٣٩ م . ولاغبرة في هذا ببعض الروايات الاسلامية المتأخرة التي جعلت المعركة في زمن غير زمانها بنحو عشر سنوات أو أكثر أو أقل (٢١)

وربما أتى الخلط عند بعض الكتاب المسلمين بالنسبة لاسم المعركة وقالوا انها كانت عند سمورة ، بسبب أن تلك المدينة يحيط بها سبعة أسوار بين كل سور والآخر خندق ملء بالماء زيادة في تحصين المدينة ، ولما كانت معركة سيمنقة اشتهرت باسم معركة الخندق ، فقد ظن هؤلاء أنه خندق مدينة سمورة . وهنا يقول الدكتور حسين مؤنس بأن المسلمين كانوا قد حفرُوا خندقًا تحت أسوار سيمنقة ، حتى يحصروا عنده قوات العدو الهاربة في حالة الهزيمة . لكننا لا ندري كيف وقع المسلمون في خندق حفره بأنفسهم ، وهل لم يدر بخلدون أنهم ربما وقعوا فيه اذا جرت عليهم الهزيمة؟ (٢٢) .

(٢٠) ابن حيسان ، المفتيس ، ج ٣ ، ص ١٩ : ٢٨ ، ابن خلدون ، للعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٠ .

(٢١) محمد عبد الله عنان (تاريخ الاسلام في الأندلس ع ١ ، ج ٢ ، ص ٨٥ ، ٨٦) والظلمشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤) يجعلان المعركة في عام ٣٣٧ هـ ، ابن خلدون يحفل المعركة في عام ٣٢٣ هـ ، أنظر ، العبر ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٢٧ ، صاحب أخبار مجموعة يحفل المعركة عام ٣٢٦ هـ ، أنظر ، ص ١٥٦ .

(٢٢) د. حسين مؤنس ، الحلة السيرة لابن الأبار ، ج ١ ، حاشية ص ٢٧٢ .

يبدو أن هذا القول مغالى فيه ، فالصحيح هو أن الخندق كان اسما لمحلة قريبة من سيمنقة ربما كان فيها خندق سبق للمسلمين أو النصارى حفره من قبل وسميت البلدة باسمه ، وهو أمر محتمل لأن المنطقة ثغرية تقع على الحدود بين المسلمين والنصارى وهى معرضة للهجوم عليها فى أى وقت . ونحدد المكان بهذا الشكل هو ما اتفقت عليه الروايات الإسلامية المعتمدة وكذلك الروايات النصرانية أيضا .

ولا تختلف الروايتان الا فى نتيجة المعركة فبينما تذكر الرواية الإسلامية بأن المسلمين انسحبوا وعادوا الى قرطبة سالمين بعد أن قتل منهم الكثير ، تقول الرواية النصرانية ان الهزيمة كانت ساحقة وأن الخليفة هرب من سيوف المسيحيين وتكدست الطرق بالقتلى من المسلمين ، وكانت الهزيمة كارثة لدرجة أن الناصر قرر الا يغزو بنفسه بعد ذلك . ورأى المسيحيون فى نصرهم هذا نصرا لعقيدتهم المسيحية ، مما يشير الى ظهور الروح الصليبية بين جنود الممالك الشمالية منذ ذلك الحين (٢٣) .

ولم يكن غريبا أن يهزم الناصر هذه الهزيمة الساحقة ، فقد كانت الجبهة الداخلية الإسلامية مفككة فى ذلك الوقت ، فقد كانت ثورة التجيبين مشتتة قبيل المعركة ، ولم يمر وقت طويل على اخمادها بالسيف والنار ، ورغم اشتراك محمد بن هاشم التجيبى مع الناصر فى المعركة ، الا انه فيما يبدو كان غير مخلص له ، فقد قتل الناصر ابن عمه صاحب قلعة أيوب قبل المعركة بعامين ، ونحن نعرف مدى عمق غريزة الثأر فى نفوس العرب (٢٤) .

ولم تكن ثورة بنى تجيب هى الثورة الوحيدة التى شغلت الناصر فى ذلك الوقت ، فبعد كانت هناك ثورة اقربائه من بنى اسحاق المروانيين

(٢٣) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٢٩ - ٢٨ .

(٢٤) المعزى ، المصدر نفسه ، ص ٥١ ، ٥٢ .

انشاء حصارهم لسرقسطة عام ٢٣٥ هـ ، وقام الناصر بقتل زعيمهم ، ففر اخوه امية بن اسحاق وانضم الى الملك ردمير ملك ليون وتقدم له معلومات ثمينة عن خطط الناصر وأسابيه في القتال ، وعن نقاط الضعف التى يمكن منها مهاجمة البلاد الاسلامية(٢٥) .

وهناك ما اشرنا اليه عند حديثنا عن الأحوال الداخلية فى قرطبة عندما استعان الناصر بالصقالبة فى الادارة والجيش ، وأهمل العرب وأبعدهم عن المناصب العليا ، فكان تواطؤهم عليه فى هذه المعركة . ناذا أضفنا الى هذا كله ، ذلك التحالف الذى كان قد تم قبيل المعركة بين ملك ليون ردمير الثانى ، وبين ملكة نبرة الملكة طوطة التى نقضت عهدها مع الناصر ، وبين كونت قشتالة وجنوده الشجعان ، لأدركنا على الفور امكانية هزيمة الناصر فى هذه المعركة التى لم يهزم فى غيرها قط(٢٦) .

ولم تكن هذه الهزيمة بالغة الأثر فى قسوة الأندلس ، اذ سرعان ما أعاد الناصر تنظيم قواته ، وحالفه الحظ بقيام الحرب الأهلية بين ليون وقشتالة ، فاستغل تلك الفرصة الثمينة وأرسل قواته لمهاجمة أراضى ليون فى الأعوام التالية حتى وفاة ردمير عام ٣٣٩ هـ ، واستولى قواده على كثير من الحصون والأسرى والسبى ، وقام الناصر بإعادة بناء مدينة سالم وشحنها بالمعدات والرجال فى عام ٣٣٥ هـ لتكون مركزا للدفاع عما يليها من أراضى المسلمين ، واضطر ردمير المنتصر أن يأخذ موقف الدفاع وحتى وفاته(٢٧)

(٢٥) العذرى ، المصدر نفسه ص ٥٠ ، الخميرى ، المصدر نفسه ، ص ٩٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٢٦ ، ابن خلدون ، للعبر ، ج ٤ ، ص ١٣٩ .

(٢٦) محبول ، أخبار مجموعة ، ص ١٥٣ - ١٥٦ ، حتى ، تاريخ العرب ج ٢ ، ص ٦٢٣ ، Dozy, op. cit., p. 431

(٢٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٥ - ٣٢٥ ، Livermore, op. cit., p. 85.

انزلقت ليون بعد ذلك في مهاوى الحرب الأهلية بسبب الصراع على العرش بين ولدى ردمير الثاني ، وانتهاز المسلمون الفرصة وأغاروا على جليقية وطلبيرة في عامي ٣٤١ هـ ، ٣٤٣ هـ . وفي العام التالي أرسل الناصر عددا كبيرا من قواده البارزين على رأس جيش ضخم فهاجموا ولاية قشتالة ، وخرّبوا نواحيها وقتلوا ما يقرب من عشرة آلاف من أهلها ، وكانت الهزيمة نادرة حتى أن ملك ليون أردون الثالث أرسل يطلب الصلح والسلام من عبد الرحمن الناصر (٢٨) .

وكان الناصر يرغب هو الآخر في السلام حتى يتفرغ للجبهة الجنوبية حيث ازدادت قوة الفاطميين في ذلك الوقت ، وأيضا لكي يوسع الهوة بين أعضاء الأسرة المالكة الليونية التي كانت قد انقسمت على نفسها في ذلك الوقت ، وكان هناك صراع على العرش بين أردون الثالث وبين أخيه شانجه الذي تسانده نبرة ، فرأى الناصر أن يدعم أردون الثالث ، ومن ثم وافق الناصر على ما طلبه أردون وأرسل رسوله محمد بن حسين والطبيب اليهودي حسداى بن شبروط الى ليون عام ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، وانتهت المفاوضات بأن تنازل أردون عن حصون معينة للخليفة نظير السلام . وفي العام التالي طلب أردون الثالث من الخليفة ادخال كونت قشتالة في اتفاقية السلام ، فرحب الخليفة بذلك وأخذ يستعد بكل قوته لارسال حملة ضخمة الى المغرب لمواجهة الفاطميين في معركة حاسمة ، لكن موت أردون الثالث فجأة أوقف كل خطته . (٢٩)

فقد رفض شانجه الملك الجديد (٣٤٥-٣٥٥ هـ / ٩٥٦-٩٦٦م) تنفيذ المعاهدة التي كان أخوه أردون الثالث قد أبرمها مع الناصر في العام السابق ، بأن رفض تسليم الحصون المتفق عليها في تلك المعاهدة .

(٢٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ - ٣٣٠ ، لين بول ، قصة العرب

في أسبانيا ، ص ١٩٠ .

(٢٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ ،

Dozy, op. cit., pp. 437-439, Nurphy, op. cit., p. 101.

Livermore, op. cit, p. 95.

فاضطر الناصر لاستخدام قوائمه التي كان قد أعدّها لأفريقية ضد مملكة ليون ، حيث سحق جيوشها في عام ٣٤٦هـ / ٩٥٧م ، وما لبث كونت قشتالة أن نغلب على شائجة وقام مع النبلاء الآخرين وعزلوه وأقاموا مكانه ابن عمه أردون الرابع الذي كان صهرا لكونت قشتالة ، وفر شائجة الى بلاط جدته الملكة طوطه في نبرة (٣٠) .

قدمت الملكة طوطه مع حفيدها شائجة الى قرطبة عام ٣٤٧هـ / ٩٥٩م ومعها ابنها غرسية بن شائجة الاول ملك نبرة ، تطلب المساعدة من الخليفة الناصر لاعادة حفيدها الى عرش ليون ، ولمعالجته من السمّة المفرطة على يد أطباء قرطبة الماهرين ، وذلك نظير التخلي عن عشرة حصون . وافق الناصر وأرسل قوة اسلامية اعادت شائجة الى عرش مملكته ، وهرب أردون الرابع الى اشتريس ، وقامت نبرة بمهاجمة قشتالة وأسرت حاكمها الكونت فرنان جونثالث صهر أردون . (٣١)

وبذلك أصبح الخليفة عبد الرحمن الناصر السيد الفعلي للمجتمع الأيبيري كله ، مسلميه ومسيحيه ، فالبلاد الخارجة عن طاعته أخضعها ، والممالك المسيحية حالف بعضها وكسب صداقتهم ، وأجبر الباقين على احترامه ، وجعلهم لا يلجأون إليه كعدو ، بل كصديق ، وتخطى صيته حدود شبه الجزيرة وترامى الى بلاد غالية ، بل وصل الى المانيا والقسطنطينية ، وتوافد الناس من كل أنحاء أوروبا على قرطبة التي أصبحت ليست عاصمة للإسلام في الغرب الإسلامي كله فقط ، بل انها عاصمة للتمدن والحضارة في أوروبا كلها (٣٢)

(٣٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ،

ج ٥ ، ص ٢٦٥ ،

Dozy, op. cit., p. 439, Livermore, op. cit., p. 96

(٣١) ابن عذار ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ،

Dozy, op. cit., pp. 443,444

(٣٢) د. حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

موفى الناصر عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، وخلفه ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ / ٩٦١-٩٧٦م) الذى تابع سياسة أبيه ازاء نصارى الشمال ، فعمل على الوقوف أمام سياستهم النوسعية ، واستعمل الاساليب الدبلوماسية والسيف معا . انتظر أولا حتى يعرف نوابا جيرانه . أما شانجة ملك ليون ، فقد قدم كثيرا من الاعتذارات لتأخر تسليم الحصون التى نصت عليها الاتفاقية بينه وبين الخليفة الراحل وقام غرسية ملك نبرة باطلاق كونت قشتالة من أسره خلافا للاتفاقية أيضا ، وانضم هذا الكونت الى صهره أردون الرابع الملك المخلوع ، وأخذ يعبثان فى الاراضى الاسلامية . (٣٣)

أعد الخليفة الحكم حملة كبرى للقضاء على أردون وكونت قشتالة، فخاف أردون على مصيره ، ووفد الى قرطبة عام ٣٥١ هـ - ٩٦٢م ملقيا بنفسه الى (الحكم) ضارعا اليه أن يعيده الى عرشه ، وأنه ليس مثل ابن عمه شانجة الذى خالف شروط الاتفاقية ، وأنه يضع نفسه وأرضه وسعبيه تحت أمر الخليفة . فأكرمه المستنصر ووعدته بإعادته الى عرشه على شرط أن يتعهد بحفظ السلام بينه وبين الخلافة والا يخالف كونت قشتالة وأن يترك ابنه رهينة . وبمجرد أن وقع أردون الاتفاقية ، وضع المستنصر تحت أمرته جيشا على رأسه قائده غالب (٣٤) .

وبدأ مركز شانجة ملك ليون حرجا للغاية ، وعرف النهاية المتوقعة . فجليقية رفضت أن تعترف به حتى الآن ، وبدأ أنها سوف تؤيد أردون لو عاد بقوة اسلامية . وحتى الامارات الاخرى التى تتبع شانجة نفسه كانت لا تحبه ، ومن المحتمل أن تعلن تمردا عليه حتى لا تعرض نفسها للغزو الاسلامى . ومن ثم فقد اتخذ شانجة قرارا .

(٣٣) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٠ ،

Dozy, op. cit., p. 448

(٣٤)

انظر الوصف الرائع لاستقبال أردون فى قرطبة ، المفردى ، ازهار الرياض ج ٢ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٢ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨١ - ١٨٤ .

Dozy, op. cit., pp. 449-452.

ذلك أنه أسرع على النوى بالذهاب الى قرطبة وقابل الخليفة الحكم وتعهد بتنفيذ كل بنود الاتفاقية . فوجد (الحكم) أنه حصل على كل ما يريده وألا فائدة من الوعود النوى بذلها أردون الرابع اذا ما عاد الى العرش . وقد حلت المشكلة بأن مات أردون نفسه بعد ذلك بقليل (٣٥)

لكن موت أردون خلق موقفا جديدا ، فقد بدد مخاوف شانجه ، وجعله يطمئن على عرشه ، فقد مات منافسه . وقرر شانجه الاستعانة بحلفائه القدامى من أخواله ملوك نبره ، ومن يليهم من كونتات قطلونية بوريل Borrell وميرون Miron ، وكذلك كونت قشتالة العدو اللدود للخلافة ، وأعلن عدم التزامه مرة أخرى بالاتفاقية ، فاضطر الحكم لقنالهم ، وبدأ أولا بقشتالة ، واستولى على قلعة شنت أشتين عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، وأجبر حاكم قشتالة فرنان جونثالث على طلب السلام ، واستطاع القائد غالب أن يهزم جيوش ليون ونبرة في موقعة أتينسة Atienza وكذلك هزمهم قائد النغر يحيى بن محمد التجبى حاكم سرقسطة واستولى على مدينه فلهره الهامة ، وقام قائد وشقة واسنولى على مطونية ، وعانت قوات السغور فى برشلونه . وغنم المسلمون فى هذه الغزوات من الاموال والسلاح والدواب والاطعمة والسبى مالا يحصى ، وبهذا أجبر المستنصر أعداءه على طلب السلام (٣٦)

حالف الحظ الحكم المستنصر بوفاة شانجه ملك ليون عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م ، وخلفه ابنه الطفل ردمير الثالث (٣٥٥ هـ - ٣٧٢ هـ / ٩٦٦ - ٩٨٢ م) ، وتولت عهده البيرة Elvira الوصاية عليه . وكان لتولى هذا الطفل الصغير عرش ليون أثر فى انتشار الفوضى وانقسام الدولة الى امارات صغيرة ، وأخذ كل أمير من أمرائها يتوجه الى قرطبة للاستعانة بخليفتها ضد خصومه

(٣٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥١ ،
Dozy, op. cit., p. 452.

(٣٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٩ ، آبن خلدون ، الجبر ، ج ٤ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، المقري ، النفع ، ج ١ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ ،
Dozy, op. cit., p. 453; Murphy, op. cit., pp. 105,106.

فيما يشبه عصر ملوك الطوائف الذي ظهر في الأندلس بعد انهيار الخلافة، وتوالت السفارات المسيحية من جميع دول الشمال الإسباني على بلاط الحكم المستنصر ، تطلب السلام وتجدد معاهدات الصلح منذ عام ٣٥٥هـ / ٩٦٦ م (٣٧)

. امتد السلام حتى توفي الحكم المستنصر في عام ٣٦٦هـ / ٩٧٦ م وكانت وفاته ايذانا ببداية مرحلة جديدة من الصراع غير المتكافئ بين نصارى الشمال وبين المنصور بن أبى عامر ، حاجب هشام المؤيد (٣٦٦-٣٩٩هـ / ٩٧٦-١٠٠٨م) الذي خلف أباه المستنصر في الخلافة . ولما كان هشام لا يزال طفلا فقد استبد ابن أبى عامر بالسلطة وحجر على الخليفة ، وقضى على كل معارضيه ، وصار هو الحاكم بأمره ، ودخل مع نصارى الشمال في صراع رهيب ، أجبرهم فيه على طلب السلام وجعلهم مجرد حكام تابعين لسلطانه (٣٨)

ورغم ذلك لم يكن المنصور بن أبى عامر ذلك الرجل الجبار العنيد الذى حطم بلاد العدو وخربها ، وانما كانت تحدوه روح اصلاحية غلبت على نفسه فى ذلك الوقت ، استمع الى حوارهِ مع حاجبه عندما شعر بدنو أجله حيث قال عن نفسه ، أنه يستحق القتل والاحراق بالنار من المسلمين ، لأنه عندما فتح بلاد الأسبان فى الشمال عبرها بالآقوات من كل مكان ، ووفر لها المؤن ووصلها ببلاد المسلمين وحصنها غاية التحصين ، فاتصلت العمارة بين الأندلس الإسلامية وبين أسبانيا النصرانية ، ثم أخذ يندم على ذلك ويتمنى لو أنه كان قد خرب من تلك البلاد مقدار مسيرة عشرة أيام وجعلها فيافي قفاراً حتى لا يصل النصارى الى بلاد المسلمين الا بمشقة كبيرة ، ومن ثم يمكن الدفاع وانقاذ البلاد من خطرهم (٣٩) .

(٣٧) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
Dozy, op. cit., p. 453, Livermore, op. cit., p. 97.

(٣٨) ابن سعيد ، المغرب فى خطى المغرب ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

(٣٩) ابن الكرد بوس ، الاكتفاء فى إخبار الخلفاء ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

وهذا بالطبع شيء جديد لا يعرفه أحد عن المنصور من قبل ، وإذا كان المنصور قد لجأ في كثير من حروبه الى التدمير ، فلم يكن ذلك يقارن بما كان يفعله نصارى الشمال عندما يتغلبون على مدينة أو قرية أو حصن ولم يكن التخريب والتقتيل الا أسلوبهم المفضل ، ولم يكن المنصور ليعاملهم الا بأسلوبهم ، حتى يتحقق السلام الذى لا يمكن أن يتحقق الا بالقوة . وسلك المنصور هذا السبيل في شدة وعنف ، وأكثر من الغزوات حتى بلغت ما يزيد عن الخمسين غزوة .

وقد قام الأستاذ خالد الصوفاني الأستاذ بكلية الآداب بدمشق بعمل دراسة على هذه الغزوات ولاحظ أذهبا تتفاوت من سنة أو من فترة الى أخرى خلال حكم المنصور وأورد الجدول الآتى للتدليل على صحة كلامه :

التاريخ	أرقام الغزوات	مجموع الغزوات
من سنة ٣٦٦ هـ - ٣٧١ هـ (٩٧٦ - ٩٨١ م)	من ١ - ٤	٤ غزوات
من سنة ٣٧٩ - ٣٨٧ هـ (٩٨٩ - ٩٩٧ م)	من ٤٦ - ٤٨	٣ غزوات
من سنة ٣٨٧ هـ - ٣٩٢ هـ (٩٩٧ - ١٠٠٢ م)	من ٤٨ - ٥٢ أو أكثر	٤ غزوات
ثم		
من سنة ٣٧١ - ٣٧٩ هـ (٩٨١ - ٩٨٩ م)	من ٤ - ٤٥	٤١ غزوة

ويعلل الأسناذ خالد الصوفاني هذا التفاوت في عدد الغزوات من فترة الى أخرى ، بأنه ربما عمد المؤرخون الى ذكر المهم من الغزوات ، وأهملوا الغزوات الثانوية ، وربما حسب بعض المؤرخين الغزوات الصغيرة الجانبية التي كانت تنفرع أحيانا عن غزوة كبرى ضمن الغزوات الخمسين ، ثم يختم مقاله بأن ذلك من « باب التخمين » ولايزيد كونه عن فرضية ليس لها ما يدعمها أو يثبتها سوى جهلنا بعدد تلك الغزوات الأساسية (٤٠)

(٤٠) خالد الصوفاني ، عصر المنصور الاندلسي ، ص ١١٧ - ١١٩ .

ويبدو أن الأستاذ الصوفاني لم تتوافر لديه المصادر الكافية ، فأضنى نفسه في هذا البحث الذي قُدمه عن التفاوت بين غزوات المنصور من فترة لأخرى أثناء حكمه . والواقع أنه ليس هناك تفاوت في عدد الغزوات ، وإنما كان المنصور يلزم نفسه بغزوتين كل عام . وكل ما هنالك أن الأستاذ الصوفاني لم تصل إليه أسماء الغزوات ونواحيها . وقد عثرنا على ثبت كامل بأسماء الغزوات بدءاً من عام ٣٦٦ هـ إلى ٣٧٦ هـ فقط ، فكان عددها خلال تلك السنوات العشر فقط أربعاً وعشرين غزوة^(٤١) .

وفي الفترة الأولى التي أشار إليها الأسناذ الصوفاني من ٣٦٦ هـ إلى ٣٧١ هـ والتي جعل فيها ٤ غزوات فقط ، قام المنصور في هذه الفترة بالذات بأربع عشرة غزوة وليس بأربع فقط . ذلك أن المنصور كان يقوم أحياناً بأكثر من غزوتين في العام ، وفي عام ٣٧٠ هـ قام بأربع غزوات ، وفي عام ٣٧١ هـ قام بثلاث غزوات ، وفي عام ٣٧٣ هـ قام بأربع غزوات ، وهذا يفسر سر التفاوت في عدد الغزوات في بعض الفترات^(٤٢) .

وفي هذا المقام نقول أن غزوات المنصور لم تكن موجهة كلها إلى تدمير الشمال ، إذ ربما يعتقد البعض ذلك ، وإنما يدخل فيها مقام به المنصور من غزوات في الأندلس نفسها ضد بعض المتمردين ، ومن غزوات في شمال إفريقية ضد الفاطميين . ويحتل أن يكون المؤرخون قد أسقطوا بعضاً من هذه الغزوات . ومما يؤيد ذلك أن العذري يذكر خمس غزوات للمنصور حتى عام ٣٦٨ هـ ، بينما يقول ابن حبان وهو معاصر للعذري أن المتصور خرج في غزوته الثامنة عام ٣٦٨ هـ لضبط شئون جنوب الجزيرة تجاه نشاط الفاطميين هناك^(٤٣) .

(٤١) العذري ، المصدر نفسه ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ - ٧٨ .

(٤٢) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، مجهول نقلاً عن ابن حبان ،

مناخر البربر ص ٣ .

كما نلاحظ أيضا أن العذري حينما يتحدث عن غزوات المنصور بقول عن بعضها انها كانت شائبة مفردة أو صائفة مفردة . ويقول عن أخرى أنها كانت صائفة ذات ثلاث دخلات ، جمع فسها بين بمبلونة وبسيط برشلونة ، وهذا يؤيد الفرض الذي قدمه الدكتور الصوفاني من أن الغزوة الواحدة ربما تفرع عنها غزوة أخرى ثانوية لم تذكرها كتب التاريخ ، ومن ثم أصبح الفرض يقينا لدينا ، وأصبحنا في غنى عن البحث مره أخرى في عدد غزوات المنصور ونوقيتاتها . وحسبنا نقدم فقد قام المنصور بأربع وعشرين غزوة في العشر سنوات الأولى من حكمه ، وعلى ذلك فانه قام بغزواته الباقية وهي حوالي ست وعشرين في السنوات الباقية من حكمه ، وهي سنة عشر عاما على أساس غزوتين كل عام كحد أقصى حسبما أشار الى ذلك معظم المؤرخين ، فلا داعي اذن للنشكيك في عدد الغزوات بحجة التباين في حدودها على النحو الذي أشار اليه الأستاذ الصوفاني (٤٤) .

وقد قام المنصور بأولى غزواته عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ضد مملكة ليون بعد أن انتهز ملكها ردمير الثالث (٣٥٥ - ٣٧٢ هـ / ٩٦٦ - ٩٨٢) فرصة موت الحكم المستنصر ، وأغار على الثغر الجوفي أو الثغر الأوسط ، واستغاث هناك بالحاجب جعفر المصحفي الذي جبن عن اتخاذ القرار المناسب . حينئذ أعلن المنصور قيامه لمقارعة ردمير بعد أن زوده المسؤولون في قرطبة بالجنود والمال والعتاد اللازم . وخرج الى الحدود وحاصر حصن الحامة في جليقية ، ثم عاد اليها مرة أخرى في الصائفة من نفس العام ، وافتتح حصن موله ، واستولى على سبى كثير ومغانم كثيرة ، وعاد الى قرطبة ، فبعد صيته واشتهر ذكره بين الخاصة والعامة ، ونضاعل شأن المصحفي منذ ذلك الوقت (٤٥)

(٤٣) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ - ٧٨ ، الحميدى ، جذوة المقتبس ، ص ٢٤ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، الضبى ، بغية الملتبس ، ص ١٠٦ ، ابن الأثير ، الكاهل ، ج ٨ ، ص ٣٤٥ .

(٤٤) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، ابن بسام ، الخيرة ، ق ٤ ج ٤ ، ص ٤٤ ، ٤٥ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، Dozy, op. lct., pp. 476 - 477. ج ٢ ، ص ٦١ ،

وقام ابن أبى عامر بغزوتين في عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، افتتح في الأولى حصن أرنيق وخرب مدينة سلمنقة من أعمال مملكة ليون ، فكافأه الخليفة بأن رفع راتبه وقلده منصب ذى الوزارتين . وأراد ابن أبى عامر أن يثبت للجميع جدارته ، فقام في نفس العام بغزوته الثانية الى نبرة وبرشلونة ، وتوالت غزواته بعد ذلك حتى اصطدم بصهره غالب الناصري قائد الثغر الأوسط ، والذي استعان بنصارى الشمال في صراعه ضد ابن أبى عامر ، وتقابل الطرفان عند أنتيسة قرب مدينة سالم ، وانتصر ابن أبى عامر عام ٣٧٠ هـ ، وقرر معاقبة ليون على مساعدتها لخصمه غالب (٤٦) .

تقدمت قوات المنصور بن أبى عامر ، وعلى مقدمتها عبد الله بن عبد العزيز الذى استطاع أن يحاصر سمورة (زامورة Zamore) في يولية عام ٩٨١ م / صفر ٣٧١ هـ . ورغم أن المسلمين لم يستطيعوا الاستيلاء على القلعة ، الا أنهم أخذوا ثأرهم تماما . فقد أحرقوا أرياف المدينة وقتلوا أربعة آلاف مسيحي ، وأخذوا مثل هذا العدد أسرى ، وفي إحدى جهاتها دمروا عددا كبيرا من القرى بما فيها من بيع وديارات وكنائس وعادوا الى قرطبة ظافرين (٤٧) .

وعلى الفور دخل ملك ليون ردمير الثالث الذى لم يبلغ العشرين بعد في تحالف مع غرسية فرناندوز كونت قشتالة ، ومع ملك نبرة شانجة بن غرسية المعروف بسانشو أباركا Sancho Abarka ، ولذلك يسمى العذرى هذه الغزوة بأنها غزوة الثلاث أمم ، وزحف الحلفاء الثلاثة على ابن أبى عامر الذى قابلهم عند روطة Rueda الى الجنوب من سيمينقة Simancas قرب أحد فروع نهر دويرة ، في صفر

(٤٥) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ - ٧٧ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٢ - ٦٥ .
Dozy, op. cit., p. 497.

(٤٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٧ ، ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٦ ، Dozy, op. cit., p. 497 ويلاحظ أن العذرى يجعل المعركة في شهر صفر عام ٣٧١ هـ ، بينما يجعلها ابن الأبار في المحرم . والأول صحيح لانه أقرب للأحداث .

من عام ٣٧٢ هـ / يونيه ٩٨٢ م . وانتصر ابن أبى عامر واستولى المسلمون على سيمنقة واستورقة ، وعاد المنصور ومعه أحد عشر ألفا من الأسرى حيث احتقل به الخليفة وخلع عليه لقب المنصور (٤٨) .

وفى ربيع الأول من نفس العام (٣٧٢ هـ / سبتمبر ٩٨٢ م) زحف المنصور على مدينة ليون نفسها واستطاع دمر أن يمنع تقدمه . وعندما رأى المنصور تقهقر قواته ، أعلن غضبه وألقى بنفسه على الأرض من فوق منصته التي كان يجلس عليها . وأثار هذا المنظر حماس جنده ، فآلقوا بأنفسهم على الأعداء الذين أخذوا في الهرب ، وطاردتهم المسلمون حتى أبواب مدينة ليون . لكن عاصفة ثلجية شديدة هبت في ذلك الحين ومنعت المسلمين من الاستيلاء عليها ، وعادوا إلى قرطبة ظافرين (٤٩) .

أزاء هذه الهزائم المتكررة ، ساءت الأحوال في ليون وثار النبلاء وعزلوا دمر الثالث عن العرش ، وتوجوا ابن عمه برمند الثاني (٣٧٢ - ٣٨٩ هـ / ٩٨٢ - ٩٩٩ م) على العرش ، ونشبت الحرب الأهلية بين الملكين ، ولم توقف إلا بوفاة دمر في عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م ، وحاولت أمه أن تحكم بمساعدة من المنصور لكنه رفض ذلك ، وتقدم برمند نفسه تحت حماية المنصور الذي ساعده على مقاومة بعض النبلاء الذين لم يعترفوا بسلطته ، وعقد له المنصور على سمورة وليون ، وبذلك أصبح نابعا للمنصور وأصبحت ليون إمارة تابعة له أيضا (٥٠)

(٤٧) العزوى ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٦٧ ، Dozy, op. cit., 497.

(٤٨) العزوى ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ ،

Dozy, op. cit., p. 498.

(٤٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، الطقشندى ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ ،

Dozy, op. cit., p. 500, Livermore, op. cit., p. 88

وانتهز المنصور فرصة الحرب الأهلية في ليون ، وقام بعدة حملات على سيمنقة (شنت مانتش) ، وعلى سلمنقة ، وعلى احدى نواحي شقوبية التي تسمى (شقرمنية) ، وعلى زامور (سمورة) . وكان البربر من صنهاجة قد وصلوا الى الأندلس ووجههم المنصور للغزو في جليقية ، فذهبوا وخربوا كثيرا من النواحي ثم عادوا الى قرطبة ، ثم عادوا مع جيوش المنصور للاغارة على ليون من جديد ، وهزموا جيوشها وأصابوا من السبي ثلاثين ألفا . ويبدو أن هذا النشاط الحربى المكثف هو الذى دفع ملك ليون الجديد الى وضع نفسه تحت حماية المنصور كما تقدم (٥١) .

لم يدم السلم طويلا بين ليون وقرطبة ، اذ سرعان ماتجددت الحرب بين الجانبين ، فيذكر العذرى أن المنصور قام بحملتين ضد ليون عام ٣٧٦ هـ ، صالح في احداها سمورة ، وهاجم في الأخرى قلنبرية Coimbra وهى التى تسمى عادة قلمرية . وفى نفس الوقت فقد عامل جنود الحامية الاسلامية في ليون اهلهما على أنها مدينة محتلة ، واشتكى برمند الثانى من ذلك للمنصور . لكنه لم يهتم بشكواه ، فنفذ صبر الملك وطرده الحامية الاسلامية واعتبر المنصور ذلك اعلانا بالحرب من جانب ملك ليون ، واراد أن يعطيه درسا فى الطاعة ، فهاجم قلمرية عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م واستولى عليها ودمرها تدميرا شديدا لدرجة أنها ظلت مهجورة سبع سنوات (٥٢) .

وفى العام التالى (٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) تقدم المنصور وعبر نهر دويره (الدورو) واستولت جنوده على استرقة ، ثم اقتحموا العاصمة ليون كاعصار ، حاملين معهم الموت والدمار . حطموا المدن والقللاع والأديرة والكنائس والبيع . وباخنصار لم يبقوا على شيء ما . وكان ردمير الثالث قد قذف بنفسه الى سموره فقد كان لايشك فى أن المسلمين سيبدأونها

(٥٠) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ١٢ .

(٥١) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ ، ابن القزى ، تاريخ علماء الأندلس ،

ج ٢ ، ص ١٤٩ .

Dozy, op. cit., p. 505

بالهجوم لأنها في طريقهم ، لكن المنصور مر بها وحطم ليون أولا ، واقتنحمتها قواته بعد مقاومة دامت أربعة أيام بسبب حصانها ، وجرت مذبحة قتل فيها الكونت الجليقي جونزالفو جونثالث ، الذي كان يتولى الدفاع عن المدينة ، وانتهت المذبحة ليبدأ التدمير . باختصار لم يبق حجر على حجر في المدينة . ثم انسحب المنصور راجعا الى سمورة فهرب منها الملك وقام السكان بتسليم المدينة للمنصور الذي سلمها بدوره للنهب والسلب ، واعترف جميع كونتات وملكة ليون بالمنصور سيديا لهم^(٥٢)

ظل السلام قائما على الجبهة الليونية الأندلسية حتى قام عبد الله بالناظر على أبيه المنصور عام ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، ولما اكتشفت المؤامرة فر عبد الله الى أمبر قشتالة ، وفر زميله عبد الله بن عبد العزيز المرواني هاربا الى برمند الثالث ملك ليون . وفي هذا الوقت كانت سلطة الملك اسمية . اذ أن النبلاء كانوا قد استقلوا بمقاطعاتهم ، وأقام الملك في مدينة أستورقة Astorga بعد تخريب ليون في الغزوة الإسلامية السابقة ، وكان المنصور قد خرج على رأس قواته لمهاجمة قشتالة وليون حتى تسلم اليه المتأخرين ، وما أن شعر برمند باقتراب جيوش المنصور حتى انهيار وتخلّى عن المدينة وطلب السلام الذي حصل عليه نظير أن يسلم عبد الله المرواني ، وأن يدفع الجزية^(٥٣) .

أما أشهر غزوات المنصور بن أبي عامر على الإطلاق ، فهي غزوة شنّت ياقب عام ٣٨٧ - ٩٩٧م وكانت شنّت ياقب بمتابعة الكعبة عند المسلمين ، فيها يجلفون واليهما بحجون من جميع أنحاء أسبانيا وأوروبا ، بل ومن قسط النوبة ومصر . وخرج المنصور اليها في غزوته الثامنة والأربعين ، ووصل الى ولاية جليقية حيث وفد اليه عدد كبير من القوامس (الكونتات) المتمسكين بطاعته . ويبدو أن

(٥٢) اس الفرضى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٠ ، الضبي ، المصدر نفسه ،

ص ٧٣ ، ٧٤ ،

Dozy, op. cit., pp. 505, 506

(٥٣) ابن الأمار ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٨ - ٢٢٠ ،

Dozy, op. cit., p. 509.

وانتهز المنصور فرصة الحرب الأهلية في ليون ، وقام بعدة حملات على سيمنقة (شنت مانكش) ، وعلى سلمنقة ، وعلى إحدى نواحي شقوبية التي تسمى (شقرونية) ، وعلى زامور (سموره) . وكان البربر من صنهاجة قد وصلوا الى الأندلس ووجههم المنصور للغزو في جليقة ، فذهبوا وخربوا كثيرا من النواحي ثم عادوا الى قرطبة ، ثم عادوا مع جيوش المنصور للاغارة على ليون من جديد ، وهزموا جيوشها وأصابوا من السبي ثلاثين ألفا . ويبدو أن هذا النشاط الحربى المكثف هو الذى دفع ملك ليون الجديد الى وضع نفسه تحت حماية المنصور كما نقدم (٥١) .

لم يدم السلم طويلا بين ليون وقرطبة ، اذ سرعان ما تجددت الحرب بين الجانبين ، فيذكر العذرى أن المنصور قام بحملتين ضد ليون عام ٣٧٦ هـ ، صالح في احداها سمورة ، وهاجم في الأخرى قلنبرية Coimbra وهى التى تسمى عادة قلنبرية . وفى نفس الوقت فقد عامل جنود الحامية الاسلامية في ليون أهلها على أنها مدينة محتلة ، واشتكى برمند الثانى من ذلك للمنصور . لكنه لم يهتم بشكواه ، فنفذ صبر الملك وطرده الحامية الاسلامية واعتبر المنصور ذلك اعلانا بالحرب من جانب ملك ليون ، وأراد أن يعطيه درسا فى الطاعة ، فهاجم قلنبرية عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م واستولى عليها ودمرها تدميرا شديدا لدرجة أنها ظلت مهجورة سبع سنوات (٥٢) .

وفى العام التالى (٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) تقدم المنصور وعبر نهر دويره (الدورو) واستولت جنوده على استرقة ، ثم اقتحموا العاصمة ليون كاعصار ، حاملين معهم الموت والدمار . حطموا المدن والقلاع والأديرة والكنائس والبيع . وباخنصار لم يبقوا على شيء ما . وكان ردمير الثالث قد قذف بنفسه الى سمورة فقد كان لايشك فى أن المسلمين سيبدؤونها

(٥٠) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢ .

(٥١) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ ، ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ،

ج ٢ ، ص ١٤٩ ،

Dozy, op. cit., p. 505

بالهجوم لأنها في طريقهم ، لكن المنصور مر بها وحطم ليون أولا ، واقتحمها قواده بعد مقاومة دامت أربعة أيام بسبب حصانها ، وجرت مذبحه قتل فيها الكونت الجليقي جونزالفو جونثالث ، الذي كان يتولى الدفاع عن المدينة ، وانتهت المذبحة ليبدأ التدمير . باختصار لم يبق حجر على حجر في المدينة . تم انسحاب المنصور راجعا الى سمورة فهرب منها الملك وقام السكان بنسليم المدينة للمنصور الذي سلمها بدوره للنهب والسلب ، واعترف جميع كونتات مملكة ليون بالمنصور سيدا لهم^(٥٢)

ظل السلام قائما على الجبهة الليونية الأندلسية حتى قام عبد الله بالتآمر على أبيه المنصور عام ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، ولما اكتشفت المؤامرة فر عبد الله الى أمر قشتالة ، وفر زميله عبد الله بن عبد العزيز المرواني هاربا الى برمند الثالث ملك ليون . وفي هذا الوقت كانت سلطة الملك اسبجة . اذ أن النبلاء كانوا قد استقلوا بمقاطعاتهم ، وأقام الملك في مدينة أستورقة Astorga بعد تخريب ليون في الغزوة الاسلامية السابقة ، وكان المنصور قد خرج على رأس قواته لمهاجمة قشتالة وليون حتى تسلم اليه المتآمرين ، وما أن شعر برمند باقتراب جيوش المنصور حتى انهيار وتخلّى عن المدينة وطلب السلام الذي حصل عليه نظير أن يسلم عبد الله المرواني ، وأن يدفع الجزية^(٥٣) .

أما أشهر غزوات المنصور بن أبي عامر على الاطلاق ، فهي غزوة شنت باقرب عام ٣٨٧ — ٩٩٧ م وكانت شنت باقرب بمشابة الكعبة عند المسلمين ، فيها حلفون واليهما يحجون من جميع أنحاء أسبانيا وأوروبا ، بل ومن قبط النوبة ومصر . وخرج المنصور اليها في غزوته الثامنة والأربعين ، ووصل الى ولاية جلبقية حيث وفد اليه عدد كبير من القوامس (الكونتات) المتمسكين بطاعته . ويبدو أن

(٥٢) ابن الفرضي ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٠ ، الضبي ، المصدر نفسه ،

ص ٧٣ ، ٧٤ ،

Dozy, op. cit., pp. 505, 506

(٥٣) ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٨ — ٢٢٠ ،

Dozy, op. cit., p. 509.

سبب الغزوة هو أن برمند انتهاز فرصة تمرد زيرى بن عطية في بلاد المغرب وأعلن العصيان ، فأراد المنصور أن يعاقبه عقابا رهيبا بأن يدك تلك المدينة المقدسة وأن يصل الى أقصى مكان لم يصل اليه مسلم من قبل ، وأن يبرهن لأعدائه في أفريقيّا أيضا أنه قادر على القتال في جبهتين في وقت واحد (٥٤) .

وفي يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة من عام ٣٨٧ هـ / ٣ يونيو ٩٩٧ م أطلع المنصور من قرطبة سالكا طريق قورية وبيزو Vieseو ثم الى أوبورنو Oporto حيث وجد أسطولاً الذي كان قد أبحر من قصر أبي دانس على ساحل الأندلس الغربى ، وعبر المنصور المنطقة بين دويرة والمنهو Minho دون صعوبات ، لأنها كانت تخص الكونتات المواليين له . وقد اكتشف المنصور وجود بعض الجواسيس بين النصاري الذين قد وفدوا اليه من قبل كمرتزقة ، فأعدمهم وانطلق وعبر نهر المنهو وحطم بعض المدن التى لاقاها في طريقه ، حتى وصل الى مدينة شنت ياقب والتى يعرف اسمها بسنتياجودى كومبو ستيل Santiago de Compostela فوجدها خالية من السكان وأعمل المسلمون فيها يد الهدم وتركوها قاعا صاففا ، لكنهم لم يمسوا قبر القديس يعقوب بسوء ، بل ان المنصور عين من يحرسه (٥٥) .

انسحب المنصور من مدينة شنت ياقب (سنتياجو) ومال في طريقه الى بعضكى الأراضى التى تخص الملك برمند ، فعاث فيها حتى وصل الى حصن مليقة أو لاميجو Lamego ، حيث خلع على الكونتات المواليين له ، وانسحب عائدا الى قرطبة ومعه عدد ضخم من المسيحيين يحملون على

(٥٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٤١ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ ،

Dozy, op. cit., p. 516.

(٥٥) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٧ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٤١ - ٤٤٣ ، Dozy, op. cit., pp. 517-519.

أكسافهم بوابات سننجاو وأجراس الكنيسة التي عملت مشاعل لاضاءة المسجد الجامع بقرطبة ، وقام المنصور وأسكن المسلمين مدبنة سمورة بعد ذلك بعامين ، وولى عليها أبا الأحوص معن بن عبد العزيز النجيبى وصار أهل جليقية جميعا فى طاعته ، وكان حكامهم كالعمال لديه (٥٦) .

ولم يلبث أن مات برمند ملك ليون عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ، وترك طفلا صغيرا يسمى الفونش حيث قام الصراع بين النبلاء على الوصاية عليه ، وانتقل مركز النقل السياسى الى قشتالة التى أصبح بلاطها أقوى بلاط فى شمال أسبانيا النصرانية فى ذلك الوقت . ولم يلبث أن مات المنصور أبضا عام ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م فتنفس ملوك النصارى جميعا الصعداء لأنهم كانوا يكرهونه من أعماق قلوبهم لدرجة أن أحد كهنتهم كتب فى حواريته « مات المنصور ودفن فى الجحيم » (٥٧) .

تولى الحجابة بعد المنصور ابنه عبد الملك المظفر (٣٩٢ — ٣٩٩ هـ) واستغل كراهية كونت قشتالة لكونت جليقية الذى فاز بالوصاية على ملك ليون وعقد معه صلحا عام ٣٩٣ هـ ، وجرد عبد الملك حملة فى نفس العام على قلمريه المواجهة لأرض جليقية ، وبعد ذلك بعامين أعد حملة كبرى وقام بالهجوم على جليقية من أعمال ملكة ليون ، ومعه شانجة أمير قشتالة ، بدله على نقط الضعف التى يمكنه أن ينفذ منها الى أمنع المعازل ، فدلّه على مدينة ليونة Luna لكنه لم يظفر بها لضعفها الشديد ، واستطاع قائده « واضح » أن يحتل مدينة سمورة وأن يحرق ما يحيط بها ، وعاد ومعه من السبى الفين عدا الأموال والغنائم . وعاد المظفر دون أن يظفر بكونت جليقية . (٥٨)

(٥٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ،
Dozy, op. cit., p. 520, Crow, op. cit., p. 64.
Murphy, op. cit., p 113.
Crow, op. cit., p. 63.

(٥٧)

(٥٨) ابن بسلام ، الدخره ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

مات المظفر بعد ذلك ببضع سنوات (٤٩٩ هـ) وتولى أخوه عبد الرحمن المأمون المعروف بشنجلول ، نسبة الى جده شانجه ملك نبره ولم يكن عبد الرحمن في مقدرة أخيه أو كفائة أبيه ، وارتكب غلطة العمر اذ أجبر هشام المؤيد على تعيينه وليا للعهد ، فآثار بذلك الأمويين والشعب جميعا ، ثم ذهب الى جليقية بغزوها وبوغل عنها ، ولم يقدم جيشها على لقائه وانما اعتصم كونت جليقية بالجبال ، ولم ينقذه من أبدى القوات الاسلامية الا نبأ الثورة التي قامت في قرطبة ضد عبدالرحمن شنجلول وضد الخليفة هشام المؤيد معا . فعاد عبد الرحمن الى قرطبة حيث نم صلبه على أحد أبوابها في رجب من عام ٣٩٩ هـ . وبذلك انتهت دولة بني عامر ، وبدأ انهيار الخلافة الأموية (٥٩)

بهذا نرى أثر الأوضاع الداخلية في كل من الأندلس الاسلامية في عهد الخلافة ، وفي مملكة ليون النصرانية ، على الصراع الذي دار بينهما وما انتهى اليه ذلك الصراع من اضعاف لتلك المملكة وتدمير لمعظم مدنها حتى أن جل ملوكها طلبوا السلام والأمان من حكام قرطبة ، ولم يثبت للخلافة في عدائه الا مليكان هما أردون الثاني (٣٠١ — ٣١٢ هـ / ٩١٤ — ٩٥٤ م) وردمبر الثاني (٣١٩ — ٣٣٩ هـ / سكا — ٩٥١ م) ، حيث استطاعا أن يحرزا بعض الانتصارات على الخلافة في مستهل قيامها . وقد تراجعت حدود ليون الى الوراء ، واستولى المسلمون على سمورة وسلمنقة وأسكنوها بالمسلمين ، واحتلوا مدينة ليون نفسها عدة سنوات ، وبذلك كانت نتيجة الصراع في صف الخلافة (٦٠) .

ب ـ علاقة خلفاء بني أمية بمملكة نبرة (نافار) :

عاصر الناصر أول خلفاء بني أمية (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م) ملكين من ملوك نبرة هما شانجه بن غرسية الأول (٢٩٠ —

(٥٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ٩٧ ، ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ج ١٥ ، قسم ٢ ورقة ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، الضى ، المصدر نفسه ، ص ١٩ .
Dozy, op. cit., p. 544.

(٦٠) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ٢٦٦ .

٣١٤ هـ / ٥٩ - ٩٢٦ م) وابنه غربسيه بن شانجة (٣١٤ - ٣٥٩ هـ / ٩٢٦ - ٩٦٩ م) . وكان أولهما من أقدر ملوك نبرة ، اذ استطاع بالمصاهرات التى نشأت بينه وبين أمراء الثغر الأعلى (سرقسطة) من المولدين من بنى قسى وغيرهم ، أن يضرب الخلافة بهؤلاء الأمراء وبحقق بعض الانتصارات ، ولو حاول هؤلاء الأمراء أن يتمرّدوا عليه كان فى مكانه اخضاعهم لأن بلادهم تحت قدميه وقربة من بلاده ، وكان فى قدرته الاغارة عليها فى أى وقت ، لأنها من المناطق البعيدة جدا عن مركز الخلافة ولذلك كانت معاناتها شديدة من هجمات ملوك نبرة .

استغل ملك نبرة انشغال الناصر فى ضرب قوى الثوار داخل الأندلس نفسها وأغار على مدينة تطيلة عام ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م ، وقتل من أهلها ألف فارس ، وأسر أميرها عبد الله بن محمد بن لب القسوى فى أحد الكمائن ، فتولى حكم تطيلة أخوه مطرف ، وافتدى عبد الله نفسه بالتنازل لملك نبرة عن حصن البراة بفالجش وقبروش ، وارتهن ابنته وولده فرتون ، لكنه مات بعد شهرين من اطلاق سراحه بتأثير السم الذى أطعمه له شانجة فى بملونه أثناء أسره (٦١) .

وقد اشترك ملك نبرة شانجة بن غرسية الأول مع ملك ليون أردون ابن الفونس الثالث عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م فى الهجوم على مدينة ناجرة Najera بالثغر الأعلى ، ثم انتقلا الى تطيلة ، ووصلا الى رافد كالش ووادى طرسونة جنوب نهر أبره ، ثم انفصل شانجه بقواته وعبر نهر أبره شمالا ، وقاتل حصن بلتيرة وحطم ريبضه وأحرق مسجده الجامع ، مما أحفظ الناصر وجعله يرسل الحملة المعروفة بحملة مطونية Mitonia بقيادة حاجبه بدر بن أحمد عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ، وكتب الى أهل الثغور بضرورة الاشتراك فى هذه الحملة لأخذ

(٦١) العفرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٨ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

ثأر قائده ابن أبي عبده الذي استشهد هو ورفاقه في قشتالة في العام السابق ، ولرد اعتداء نصارى نبره ولمون على منطقة الثغر الأعلى(٦٢)

ولم يكن تطاول نصارى نبرة بهذا الشكل إلا استغلالا للظروف الداخلية التي كانت تمر بها الاندلس في ذلك الوقت ، كما تحالف معهم مولدو الثغر الأعلى من بنى الطويل ، وأعطوهم الفرصة لكي يستولوا على حصن منت شون عام ٣٠٧ هـ . ويبدو أن حملة بدر السابقة لم تشف غليله ، فقام بنفسه على رأس قواته عام ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م في غزوة تعرف بغزوة مويش ، عن طريق مدينة الفرج ومدينة سالم ، ثم عطف على البة والقلال (قشتالة) ، ودمر المسلمون حصن أوسمه (وخشمة) وحصن شنت أشتبين (قاشتر مورش) ومدينة قلونية ، ثم زحف الناصر بعد ذلك الى الثغر الأعلى لنجدة مدينة تطيلة من اعتداءات ملك نبرة ، وأرسل محمد بن لب القسوى على رأس فرقة من الفرسان ، فاستولى على حصن قلقرة ، ثم استولى الناصر على حصن قلهرة ، وفر شانجة معتصما بالجبال بعد أن هزم هزيمة ساحقة(٦٣) .

استنجد ملك نبرة بأردون ملك ليون الذي هب لنجدة لكنهما هزما معا في سهور جونكيرة Junquera ، وقضى المسلمون على مقاتلي حصن مويش ، وساروا الى حصن آخر اتخذ شانجة لمضابطة أهل بقيرة Vijuera واستولوا عليه ، وأخذ الناصر في تقصد حصون المسلمين على حدود نبرة وزاد في تحصينها ، وهدم حصون النصارى المجاورة لها في مساحة تبلغ عشرة أميال مربعة ، وحاز المسلمون غنائم وأموالا لا يحصىها العدد ، حتى أن القمح كان يعرض سنة أقفزة بدرهم ، فلا يوجد من يشتريه ، وتخلص المسلمون من الاطعمة بحرقها لكثرتها وعدم الحاجة اليها . وبذلك أعطى الناصر درسا قاسيا لملكة نبرة وعاد الى مدينة أنتيسة ، حيث خلع على

(٦٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٦٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

Dozy, op. cit., p. 420.

حماة الثغر ورجاله ، وعاد الى قرطبة بعد أن بلغت غزواته تسعين يوماً^(٤٦) .

ورغم هذه الضربة القاسية التي نزلت بالنافاريين في حملة عام ٣٠٨ هجرية / ٩٢٠ م إلا أنهم عادوا الى التحرش بحصون الثغر الاعلى ، الحاصره لهم . ففي عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م هاجم ملك نبرة حصن بقرية (فجيرة) Viguera . أسر محمد بن عبد الله بن محمد بن لب القسوي ومطرف بن موسى بن ذى النون وابن عبد الله بن محمد بن محمد ، ويحيى بن أبى الفتح وكثيراً من وجوه العرب والمولدين والبربر ، وسجنهم في ببلونة ثم ذبحهم عن آخرهم ، وسقط حصن فجيرة في يده^(٤٧) .

وكان قتل هؤلاء الزعماء وسقوط فجيرة مثيراً جداً لدرجة أنه فجر غضب أهل الاندلس جميعاً ، ورموا عبد الرحمن الناصر بالتهاون في الدفاع عن حماة الثغور ، فصمم الناصر على الانتقام لهذه الكارثة ، وزحف بجيوشه على ببلونة عاصمة مملكة نبرة عام ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م ، وهى الغزوة المعروفة بغزوة ببلونة ، ومر الناصر في طريقه بكورة تدمير وبلنسية ، وقضى على الثوار الموجودين هناك ، ثم دخل تطيلة ، وخرج اليه بنو تجيب وغيرهم من عمال الثغر في جنود وفيرة وعدة كاملة ، وقصدوا جميعاً حصن قلعة Carcer فأخلاه شأنجه وانتقل الناصر الى حصن ببطرة آلتة Peratla وحصن فالكجش Falces وقرقشتال Carcaseilla على وادى أرغون وحطمها وأحرق أرياضها وسبى أهلها^(٤٨) .

اخترق الناصر بعد ذلك فج المركوير قاصداً العاصمة ببلونة واستولى في طريقه على قرية بشكونسة مسقط رأس شأنجه وأسرتة وأحرقها

(٤٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٩

Dozy, op. cit., p. 421.

(٤٥) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٩ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

Dozy, op. cit., p. 422.

عن ٢٧٦ هـ

(٤٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

Dozy, op. cit., p. 422.

واجتاز الناصر ممرات جبلية ضيقة ، حاول غيها شانجة التصدي للمسلمين ، لكنه أصيب بهزيمة قاسية ووصل المسلمون الى مبلونة فوجدوها خالية مقفرة ، قد فر عنها سكانها ، فأمر الناصر بهدم جميع مبانيها وتخريب كنيساتها . وتلقى شانجه عند ذاك مساعدة من قشتالة وهاجم الجيش الاسلامي أثناء عودته مرتين ، مرة عند شنت اشتبين والأخرى عند قلهرة . الا أن المسلمين هزمهم واستولوا على حصن قلهرة وهدموه ، ثم دخلوا الأراضى الاسلامية عند حصن بلتيرة ، وعاد الناصر بعد أن دمر مبلونة وسحق قواتها وأخضع حكامها^(٦٧) .

لم يعمر ملك نبرة شانجة بن غرسية الأول طويلا بعد هذه الهزيمة القاسية ، إذ مات بعد عامين ، فتولى ابنه الطفل غرسية (٣١٤ — ٣٥٩ ٩٢٦ — ٩٦٩ م) عرش نبرة تحت وصاية أمه الملكة تيودا Tueda التي تعرفها الروايات الاسلامية باسم طوطة ، واستتب السلام بين الجانبين لمدة عشر سنوات ، انشغل الناصر فيها بمقمع المتمردين في الأندلس ، وانشغلت فيها ليون بحرب أهلية بسبب التنازع على العرش ، ولم يكن أمام الملكة طوطة الا أن تستكين حتى نحين الفرصة المناسبة للانتقام من عبد الرحمن الناصر^(٦٨) .

وجاءت الفرصة عندما هرد بنو نجيب على الخلافة ، وتحالفوا مع ملك ليون ومع الملكة طوطة ، واتحد الشمال كله مسلموه ومسيحيوه ضد الناصر منذ عام ٣٢٢ هـ . فزحف الناصر عليهم في العام التالي وقضى على تمرد بنى نجيب ، ثم زحف على مبلونة عام ٣٢٥ هـ لعقابها ، فحاصرها وخرب مبانيها ودمر حصونها وسحق كل مقاومة للملكة طوطة ، فاضطرت الى تقديم ولائها للناصر الذى أقر ولدها غرسية ملكا على

(٦٧) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ،

ج ٢ ، ص ٣٨٠ — ٢٨٣ ، ابن الفرضى ، المصدر نفسه ، ص ٣٥ ،
Dozy, op. cit., p. 422, Murphy, op. cit., p. 96.

(٦٨) أنظر ، الفصل الثانى من الباب الثانى ، ص

نبرة . وبذلك انهارت الجبهة الشمالية الشرقية المتحالفة ضد الناصر(٦٩)

وحانت فرصه أخرى انتهزتها ملك الملكة العنيدة عندما وقع الصدام بين عبد الرحمن الناصر وبين ردمير ملك ليون عام ١٢٢٧ هـ / ٩٣٩ م . حينئذ قررت الملكة طوطة اغتنام الفرصة واثنركت بقواتها مع ملك ليون ناكته ليهودها مع الناصر . وبذلك انحدرت قوى أسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى ، واستطاعت الابقاع بجيش الناصر عام ٣٢٧ هـ في واقعة الخندق المشهورة ، حيث منى الناصر فيها بهزيمة ساحقة جعله يركز كل جهوده ضد ملكة ليون خلال السنوات العشر التالية . وظلت نبرة في حالة سلام مع الناصر حتى قامت الحرب الأهلية في ليون بسبب النزاع على العرش عام ٣٤٦ هـ / ٩٥٤ م(٧٠)

هنا تخرج الروايات الاسلامية عن صمتها الذي التزمته بالنسبة لملكة نبرة ، وذكرت نشاطها في اعادة حفيدها شانجة ملك ليون المخلوع وقررت أن تنزل عن كبريائها وتأتى مع ابنها ملك نبرة وحفيدها ملك ليون الى قرطبة عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م ، لتلتبس من عاملها مساعدته في اعادة حفيدها شانجة الى عرشه ، ولتعتقد لنفسها عهدا بالصلح والسلام مع الناصر . ذلك أن الخلافة كانت قد أرسلت في العام السابق القائد غالب الى نبرة ، حيث افتتح عددا من حصونها وخرب كثيرا من قراها ، وبذلك عادت نبرة للطاعة مرة أخرى(٧١)

بعد موت الناصر وجدت الملكة طوطة الفرصة سانحة لأن تشترك في التمرد الذي أعلنه حفيدها ملك ليون ضد الحكم المستنصر ، فزحف اليها القسائد غالب واستطاع أن يدمر جيشها ويستولى على حصن قلهرة عام ٣٥٤ هـ . فصادت الملكة الى صوابها وعادت تطلب السلام من جديد ،

(٦٩) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٩ . Murphy, op. cit., p. 97.

(٧٠) أنظر ، الفصل الثاني من الباب الثاني ،

(٧١) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ، المقرئ ، للنفع ، ج ١ ، ص ١٧٠ . Hole, Spain under the Moslems, pp. 90-39.

وأرسل ابنها غرسية بن شنانجة ملك نبرة بعثة من الاساقفة والقوامس يطلبون الصلح ويجددون معاهدة السلام ، وظل غرسية على ولائه للمستنصر حتى مات وخلفه ابنه شنانجة على عرش نبرة (٣٥٩ — ٣٨٤ هـ ٩٦٩ — ٩٩٤ م) وظل هو الآخر محافظا على عهد أبيه مع الخلافة حتى مات المستنصر عام ٣٦٦ هـ (٧٢) .

تولى الخلافة بعد المستنصر ابنه الطفل هشام المؤيد ، وقام الصراع بين الحاجب المنصور بن أبي عامر وبين القائد غالب على السلطان ، وانتهاز نصارى الشمال في ليون الفرصة وأغاروا على الثغور فجرد اليهم المنصور حملة سماها غزوة الغابرة في شوال من عام ٣٦٧ هـ ، مايو ٩٧٨ م . وكانت هذه الغزوة موجهة لضرب ليون وبمبلونة وبرشلونة اذ تفرعت عنها حملات صغيرة لضرب كل جهة من هذه الجهات على حدة . ويبدو أن هذه الغزوة كانت السبب الذى دعا شنانجة ملك نبرة لأن ينقض انفاقه مع الخليفة الراحل ، وينضم الى ملك ليون في مساعدته للقائد غالب غريم المنصور بن أبي عامر . لكن المنصور استطاع أن يهزمهم في ذى القعدة عام ٣٧٠ هـ عند أنتيسة قرب قلعة أيوب وأن يقتل ابن ملك نبرة . فاضطر هذا الملك لأن يرسل رسله للصلح مع المنصور وأرسل معهم احدى بناته لتكون زوجا له (٧٣) .

ورغم هذا النصر فقد صمم المنصور على عقاب ليون ونبرة . أما ليون فقد حطم جيوشها وأحرق أرياض سمورة وخرب عددا كبيرا من القرى بلغ ألف قرية في تلك الناحية ، فتحالف ملك ليون مع نبرة وقشتالة ضد المنصور عام ٣٧٢ هـ وزحف جيوشهم للقائه ، فهزمهم جميعا عند روطبة جنوب غرب سيمنقه ، وعاد ملك نبرة الى بلاده يجبر

(٧٢) آبن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .

Livermore, op. cit., p. 97.

(٧٣) العفري ، المصدر نفسه ، ص ٧٧ ، آبن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

Livermore, op. cit., p. 98.

ص ٦٣ ، ٦٤ .

أذبال الخيبة والفشل ، وكان عليه أخيرا أن يأتى الى قرطبة ليقدم اعتذاره ويعلن طاعته لصهره المرعب ، المنصور بن أبى عامر ، وقضى بقية عمره فى سلام حتى توفى عام ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م (٧٤) .

لكن الأستاذ عنان يشير الى هزيمة للمنصور تمت على يد شائجة ملك نبرة عام ٣٧٦ هـ / ٩٨٧ م . ولم نجد فى مصادرنا ما يشير الى ذلك ، بل ان هناك من يقول بأن المنصور غزا نبرة عام ٣٧٩ هـ فى غزوة تسمى غزوة البياض . ويبدو أن الأستاذ عنان يشير الى حملة لم يذكر اسمها المؤرخون ، وإنما أتوا بوصف لها ، ويقولون بأن المنصور غزا فى بلاد الفرنج — وكان بعضهم يسمي الألبان فرنجا ورؤما وأعاجم — وأخذ ينسف ويدمر ويخرب ويتوغل فى بلادهم ، وعند عودته وجد الافرنج قد قطعوا عليه خط الرجعة وكنوا له عند مضيق بين جبلين لابد له من اجتيازه (٧٥) .

ولما رأى المنصور ذلك ، احتال عليهم وظهر أنه ينوى الإقامة فى هذا المكان ، ففاوضوه حتى يرحل عنهم ، وانتهت المفاوضات بأن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبى ، وأن يمدوه بالميرة حتى يصل الى بلاده ، وأن يطهروا له الطريق من جثث قتلاهم ، ففعلوا ذلك وعاد المنصور الى قرطبة . ويمكن أن يكون الأستاذ عنان قد اعتبر ذلك هزيمة للمنصور ، لكن المنصور لم يخسر شيئا بل عاد وافر الكرامة بما معه من سبى وغنائم (٧٦) .

تولى عرش نبرة بعد وفاته شائجة ابنه غرسيه (٣٨٤ — ٣٩٠ هـ / ٩٩٤ — ١٠٠٠ م) ، ولم يكن هذا الملك فى مقدرة أبيه ، فقد اطلقت عليه الرواية النصرانية لقب غرسيه المرتعد ، ولم يحاول هذا

Livermore, op. cit., p. 98.

(٧٤)

(٧٥) ابن عدارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢١ ، ألقى ، نفع الطيب ، ج ١ ،

ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، محمد عبد الله عنان ، تاريخ العرب فى أسبانيا ، ص ١٦٧ .

(٧٦) نفس المصادر والصفحات فى الحاشية السابقة .

لذلك الضعيف أن يرفع صوته ضد المنصور وإنما اكتفى بأن أقام معه
ومع جيرانه من أجراء قشتالة علاقات الصداقة . ويكفى ما تشير إليه الرواية
الإسلامية من رعبه وفزعته عندما سمع بقدوم المنصور لانتفاذ امرأة
الميرة في إحدى كنائس نبرة ، لأن أسرها يعتبر اخلالا بانفلاق السلام
المعتود بين الطرفين ، ساعنها انهار ملك نبرة وأقسم بأغلظ الايمان
نه لا يعرف بوجود تلك المرأة المسلمة في البلاد ، وقام بهدم الكنيسة التي
كانت تخدم فيها ، وارسل للمنصور بذلك ، فاستحى المنصور وعاد
الى قرطبة (٧٧) .

مات ذلك الملك الضعيف وخلف ابنا صغير السن يسمى شانجه
على عرش نبرة . ولما كان شانجه طفلا لم يتجاوز الرابعة من عمره ،
فبعد رحل مع امه الملكة خبينا ذات الأصل القشتالي الى برغش عاصمة
قشتالة . حيث تربى هناك ، وزوجه الكونت شانجه غرسية ابنته الكبرى
الميرة . ونبوا شانجه عرش نبرة باسم شانجه الأول (٣٩٠ — ٤٢٩ هـ /
١٠٠٠ — ١٠٣٩ م) ولم يلبث أن مات المنصور بعد ذلك بعامين
وخلفه في الحجابة ابنه عبد الملك المظفر الذي اتبع سياسة أبيه في القاء
الرعب في قلوب نصارى الشمال ، حتى لايفكروا في مهاجمة الثغور
الإسلامية (٧٨) .

وننبذا لهذه السياسة قام المظفر بعدة حملات على برشلونة عام
٣٩٣ هـ ، وعلى جليقية عام ٣٩٥ هـ ، وجاء دور نبرة عام ٣٩٦ هـ ، فبعد
تخرج اليها عبد الملك المظفر غازيا الى ببلونة عاصمة نبرة في شوال
من هذا العام ، وعندما وصل الى أرض المملكة بدأ بالاغارة الى أرياض
حصن أبنيونش ، ففر أهله عنه وهدمه المظفر ورحل عنه الى حصن شنت
برانس وأحرق أرياضه أيضا ، لكنه لم يصل الى ببلونة وعاد الى قرطبة (٧٩)

(٧٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ، القزى ، المصدر نفسه ،
ج ٢ ، ص ١٣٩ .

(٧٨) انظر ، الفصل الثانى من الباب الثانى ،

(٧٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣ .

ويبدو أن المظفر لم يكن موفقا تماما في هذه الغزوة إذ أن العاصمة قللت من قيمتها ، لأنه لم يصيبهم من ورائها سبى كثير كما عودهم المنصور من قتل ، وصاحوا « مات الجلاب .. مات الجلاب » يقصدون والده المنصور ويعلل ابن عذارى سبب الاخفاق في هذه الغزوة بظروف طبيعية تتعلق بسوء المناخ وما حدث من عواصف رعدية وثلجية ، وقد سبق أن تسببت وعورة تلك المنطقة في نهديد المنصور بالهزيمة ، ولولا احتياله على النافاريين كما وضحا لانتهى الى نفس النتيجة الى انتهى اليها ابنه عبد الملك .

وقد شجع هذا الاخفاق أهل نبرة فوضعوا يدهم مع أمير قشتالة الذي استطاع أن يوحد جهد أهل الشمال جميعا عام ٣٩٧ هـ وبدخل بهم في صراع ضد عبد الملك المظفر ، الذي استطاع أن ينتصر عليهم جميعا في غزوته التي قام بها في ذلك العام والتي تعرف بغزوة قلوئية ، وعساد منها ليخلع عليه الخليفة لقب المظفر سيف الدولة (٨٠) .

ولم يسفر هذا الصراع الطويل بين مملكة نبرة وبين أندلس القرن الرابع الهجرى الا عن تدمير شامل للعاصمة ببلونة ولكثير من المدن والحصون النافارية ، وسقوط عدد من الحصون في يد المسلمين مثل حصن قلهرة وغيره ، وصارت نبرة مملكة تابعة لقرطبة معظم سنى القرن الرابع الهجرى ، واذا كان هناك من يقول بقلّة النتائج ، الا أن ذلك لم يكن تقصيرا من حكام الأندلس ، وانما يبرره عمق المقاومة النصرانية التي كانت تتحطم وما تلبث أن تدب فيها الحياة من جديد وترفع لواء الكفاح ، ذلك اللواء الذى نسلته قشتالة قرب سقوط دولة بنى عامر (٨١)

(٨٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ص ٣ ، ص ١٤ - ١٦ .

(٨١) د. حسن محمود ، تاريخ الغرب الإسلامى ، ص ١٤٥ .

ج - علاقات خلفاء بني أمية بامارة قشتالة :

ظهرت قشتالة على مسرح الحياة السياسية في النصف الأخير من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . وكانت قبل ذلك تجاهد لتحقيق استقلالها عن مملكة ليون حسبما تقدم عند الحديث عن الأوضاع الداخلية لقشتالة . وقرب نهاية عصر عبد الرحمن الناصر كانت قشتالة هي التي تقرر من يجلس على عرش ليون . وكانت قشتالة تؤيد أحد الطامعين من الأسرة المالكة الليونية ، بينما تؤيد نبرة أخاه أو ابن عمه ممن ارتبط معها غالبا برباط المصاهرة ، وتسعى الى قرطبة لطلب المساعدة كما حدث عندما تقدمت الملكة طوطة ملكة نبرة مع ابنها ومع حفيدها شانجة ملك ليون المخلوع على يد كونت قشتالة القوي^(٨٢) .

هنا فقط يتردد اسم كونت قشتالة فرنان جونزالث Fernan Gonzalez في الروايات الإسلامية ، وتقول أنه بعد أن انتصر أردون الثالث على أخيه شانجة وتولى عرش ليون عام ٣٣٩ هـ ، تزوج من ابنة كونت قشتالة وعقد صلحا مع الناصر عام ٣٤٤ هـ ، فطلب منه الكونت أن يتوسط لدى الخليفة الناصر ليعقد مع قشتالة صلحا مائتلا لصلحه ، ولكن موت أردون الثالث فجأة عام ٣٤٥ هـ قلب خطط الكونت ، إذ أن شانجة ارتقى عرش ليون ، ورفض تنفيذ اتفاق أخيه أردون الثالث مع الناصر ، فانهز كونت قشتالة أقوى القوامس في المملكة الليونية وقام بانقلاب ضد شانجة ، ووضع ابن عمه أردون الرابع على العرش وزوجه ابنته أرملة أردون الثالث^(٨٣) .

ووفدت الملكة طوطة ملكة نبرة مع حفيدها المخلوع شانجة الى قرطبة وأعانتته قوة إسلامية في الرجوع الى عرشه عام ٣٤٩ هـ / ٩٥٩م

(٨٢) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني ، ص

(٨٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ، ١٨٠ ، القلقشندي ، المصدر نفسه ،

ج ٥ ، ص ٢٦٥ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٠ ، انظر الفصل الثاني ، للباب الثاني ، ص

وقامت قوات نبرة بالهجوم على قشتالة حسب الخطة الموضوعة وأسرت أميرها فرنان جونثالث . ولما مات الناصر وتولى الحكم المستنصر عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م حاولت ممالك الثغور أن تحرر نفسها من أسسار الخلافة ، فأطلقت نبرة سراح كونت قشتالة الذي أخذ يقوم بالهجوم على ما يجاوره من الثغور الإسلامية وتحالف مع ملك ليون ، لكن المستنصر وجه اليهم حملة عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م عاثت في قشتالة ، واستولت على قلعة شنت أشتبين ، وأجبرت الكونت على طلب السلام (٨٤) .

لم يلبث أن مات كونت قشتالة فرنان جونثالث عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م وقام ابنه غرسية بحكم الإمارة (٣٥٩ - ٣٨٥ هـ / ٩٧٠ - ٩٩٥ م) ، ولم تذكر عنه المصادر أى نشاط إلا بعد وفاة المستنصر عام ٣٦٦ هـ وقيام الصراع بين المنصور بن أبى عامر وبين القائد غالب . هنا تدخل الكونت الجديد وقاد قواته لمساعدة غالب عام ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ، لكن المنصور هزمهم كما تقدم وقرر عقاب قشتالة . ولما أحس أميرها بذلك دخل في حلف مع ملك ليون وملك نبرة . لكن المنصور هزمهم عند روطة جنوبى سيمينقة حسبما تقدم عام ٣٧٢ هـ ، وأجبر القشتاليين أن يخلوا أنينسة Atienza وسيبولفيد Sepulveda فالتزم غرسية أمير قشتالة جانب الهدوء حتى وافته فرصة جديدة للنيل من المنصور بن أبى عامر (٨٥) .

فقد نأمر عبد الله على أبيه المنصور بن أبى عامر ، وانتهاز فرصة انشغال والده في حصار مدينة شنت أشتبين بقشتالة عام ٣٧٩ هـ ، وفر الى غرسيه بن فرنان (غرسيه بن فرزند) صاحب ألبه (قشتالة) بعد انكشاف المؤامرة ، وحاول أمير قشتالة أن يستغل الموقف لصالحه ووعد عبد الله بالحماية من أبيه ، وحافظ على وعده لمدة عام ، لكن المنصور

(٨٤) آبن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٥ ، انظر للفصل الثانى ، الباب الثانى ، ص

Livermore, op. cit., p. 88.

(٨٥)

انظر ، للفصل الثانى من الباب الثانى ، ص

جرد عليه الحملات وهزمه واستولى منه على حصن أوسمة (وخشمة)
وأسكنه بالمسلمين . عندئذ أعلن غرسيه قبوله لكل شروط المنصور وسلم
إليه ابنه عبد الله ، حيث قام رجال المنصور بقتله عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م^(٨٦)

ولم يصفح المنصور لكونت قشتالة اعانته لعبد الله ، وأراد أن
يجعله يشرب من نفس الكأس ، وقام بحريض شانجه على التمرد ضد
إبيه الكونت عام ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، فأعلن هذا الابن العاق الثورة ضد
إبيه ، وأعلن المنصور مساندته على الفور وحاصر حصون سان ستيفان
(شنت أشتين) وكلونيا . ولم يحسم الموقف على الوجه الذى أراده
المنصور فعاد إلى قرطبة ، ولم يلبث أن أتاه الخبر من صاحب مدينة
سالم أنه تمكن من أسر غرسية كونت قشتالة فى كمين أعد له ، وأنه
ساقه أسيرا إلى مدينة سالم حيث مات متأثرا بجراحه ، وأعطيت جثته
لابنه عندما وفد على المنصور يطلب الصلح بعد ذلك^(٨٧) .

مات غرسية وتولى ابنه شانجه إمارة قشتالة (٣٨٥ — ٤٠٧ هـ /
٩٩٥ — ١٠١٧ م) . وقد كان لشانجه هذا شأن عظيم فيما بعد ،
وتلقب بلقب الامبراطور ، لكنه أمام المنصور كان مجرد حاكم يدفع الجزية
فى هذه الأثناء قام المنصور بأضخم وأشهر حملة ضد نصارى الشمال ،
عندما هاجم مدينتهم المقدسة شاننت ياقب (سنتياجو) فى أقصى جليقية
عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ودمرها تدميرا شديدا ، ويبدو أن هذا الاعتداء على
المدينة المقدسة وعلى كنيسة القديس يعقوب قد أثار فيهم روح المقاومة
على أشد ما تكون ، ونجحت قشتالة فى انشاء جبهة موحدة ضد المنصور

(٨٦) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ ،

Dozy, op. cit., p. 508.

(٨٧) الصديدي ، جذوة المقتبس ، ص ٢٧٧ ، ابن بسام ، الخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ،

ص ١٢ ، ٣٠ — ٣١ ، الضبى ، المصدر نفسه ، ص ٣١٠ ، ٣١١ ، أبو الفدا ، تاريخه ،
Dozy, op. cit., p. 509.

ج ١ ، ص ١٢٤ ،

تشمل جميع ملوك النصرانية من بابلونة في الشرق ، حتى استرقة في أقصى الغرب^(٨٨) .

كانت القيادة العليا في يد أمير قشتالة ، ذلك أن ملك نبرة كان طفلاً يعيش في بلاط قشتالة ، والفونش الخامس ملك ليون كان أيضاً طفلاً تحت وصاية أحد كونتات جليقية . ولذلك كانت قشتالة هي محور المقاومة ومركز النقل في الصدام العسكري مع المسلمين منذ ذلك الحين وكان شائجة قائداً ممتازاً إلا أنه اختار للمعركة مكاناً استراتيجياً هو جبل جربيرة الذي ينوسط إمارة قشتالة ويتمتع بحصانة طبيعية ، فهو شديد الانحدار من ناحية المسلمين ، ومتصل بسهول ونواح عامرة ، تسهل وصول الميرة من الخلف لجنود قشتالة وحلفائها . ولما وصل المنصور ورأى منعة هذا الجبل ، هاله الأمر وتشاور مع أصحابه ، فاختلّفوا وعاجلهم شائجة بالهجوم ، وركز على المينة وأطاح بها ، ثم على الميسرة وضربها ، وأيقن الجميع بأنها الهزيمة^(٨٩) .

كان ابن أبي عامر ذاهل العقل حائر اللب ، لكن وطنيته كانت صادقة ، إذ دفع بابنه عبد الملك إلى المينة بعد أن قبله وهو يبكي ، لانه موثق باستشهاده ، ثم وجه ابنه الآخر عبد الرحمن ناحية الميسرة ، وتغير سير المعركة بعد أن رفع المنصور مركز قيادته إلى ربوة عالية يشرف منها على أرض المعركة ، ولما رأى الأعداء شخصه ظنوا أن مدداً جديداً أتى المسلمين ، فانهارت قواهم وأخذوا في الهرب نجاة بأنفسهم ، وطاردتهم المسلمون قتلاً وأسراً مسافة عشرة أميال ، واستولوا على جميع ما معهم من سلاح ومتاع ، وذلك في شعبان سنة ٣٩٠ هـ^(٩٠) .

كان النصارى قد أقبلوا إلى المعركة ومعهم الحبال قد أعدوها ليقربوا بها أسرى المسلمين ، لكن ثبتت جأش المنصور وصبره وقوة

(٨٨) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٩ ،

Livermore, op. cit., p. 88.

(٨٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٩ ، ٧١ .

(٩٠) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧١ - ٧٢ .

ايمانه ونفاذ بصبرته وشجاعة المخلصين من جنده ، قلبت الهزيمة نصرا مؤزرا ، ومع ذلك فان المنصور لم يواجه طوال حياته حربا أشد وأقسى على نفسه من هذه الحرب التي كاد يصاب فيها بالهزيمة ، والتي اشتهر في بدايتها حوالى الثمانمائة من فرسانه ومن رؤساء الجند ووجوه الناس . وقد أمر المنصور عقب عودته الى قرطبة كاتب رسائله أن يكتب منشورا يتلى على كافة جنده الذين كانوا قد أخذوا في الفرار والهرب في بداية المعركة ، وكادوا يتسببون في الهزيمة ، وغبه بلومهم ويؤنبهم ويهددهم باستبدالهم بغيرهم من المخلصين^(٩١)

وكان المنصور عقب احراز النصر في الموقعة السابقة التي تسمى بموقعة جريرة نسبة الى الجبل الذي حدثت عنده ، قد توغل في أرض قشتالة وأخذ يدمر كل ما يجده حتى وصل الى سرقسطة ، ثم عاد الى قشتالة مرة أخرى وصعد منها الى بملونة ، حيث فر الجند والسكان رهبة وفزعا من المنصور . وأخذ المنصور يواصل هجمانه بعد ذلك على شانجة زعيم الشمال وأمر قشتالة حتى أذعن للطاعة واستأذن المنصور في القدوم بنفسه الى قرطبة ، وسر المنصور لجيئه سرورا شديدا ، وأعد له استقبالا عظيما أخذ بعقل شانجة ، وأظهر له قوة الاسلام حتى خفق قلبه ذعرا ورهبة الى أن وصل الى مجلس المنصور ، فقبل الأرض بين يديه ، وعاتبه المنصور وصفح عنه وخلع عليه^(٩٢) .

ويبدو أن المنصور قد أدرك بشاغب فكره وبعد نظره مدى خطورة هذا الزعيم النصراني شانجة أمير قشتالة ، فقام بأخر غزواته ضده في صفر من عام ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م ، وهي الغزوة التي تعرضت بغزاة قنالش والدير ، لأن المنصور وصل فيها الى قنالش في مقاطعة ريوجة Rioja على مقربة من ناجرة في أرض قشتالة ، أما الدير فالمرجح أنه دير القديس أمليان

(٩١) النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٢ ، ٨٤ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه

ج ٢ ، ص ٦٩ - ٧٤ .

(٩٢) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ .

Emilian . وقد لازمه المرض في تلك الغزاة ، واشتدت عليه العلة ، ومات في طريق العودة ، ودفن في مدينة سالم (٣٩٢هـ / أغسطس ١٠٠٢م) (٩٣) وما أن مات المنصور حتى اشتدت آمال نصارى الشمال في غلبة المسلمين ، وانتظر عبد الملك حتى تسقط له الأمور في قرطبة ، وأرسل فتاه « واضحا » صاحب مدينة سالم الى شانجة أمير قشتالة وعقد الصلح معه عام ٣٩٣ هـ . وفي العام التالي احكم اليه ملوك النصرانية بشأن النزاع على الوصاية على الفونس الخامس ملك ليون الذي كان لا يزال طفلا . وببدو أن حكم عبد الملك باسناد الوصاية الى كونت جليقية قد أغضب كونت قشتالة الذي كان يطمع في ذلك ، فنقض الصلح الذي كان قد أبرمه معه واضح الصقلبي وأعلن عداؤه لعبد الملك (٩٤) .

لم ينتظر عبد الملك طويلا حتى خرج الى قشتالة وأوغل في أراضيها ، وخاف شانجه من الهزيمة ، ولم يواجه عبد الملك في ميدان القتال ، وأخلى له القلاع والحصون ، فعاد عبد الملك الى قرطبة ، واضطر شانجة ان يأتي وراءه طلبا للسلم وأخذ على نفسه العهود بأن يساعده في غزو قومه في جليقية . وفعل سار مع عبد الملك في العام التالي (٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م) لغزو بنى غومس الذين أخذوا الوصاية على ملك ليون والتي كان يطمع فيها أمير قشتالة . وبعد انتهاء المعركة عاد كل منهما الى وطنه ، وأخذ شانجة يستعد سرا ليحارب عبد الملك (٩٥) .

وعندما أحس عبد الملك بتدبير شانجة بادره بالخروج غازيا في عام ٣٩٧ هـ / ١٠٠٧ م في الغزوة التي تعرف بغزوة قلوئية أو غزاة النصر حيث لقي فيها شانجة وجميع زعماء النصرانية في الشمال الأسباني ، وهزمهم

(٩٣) ابن بيسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠١ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٧١ ، (٩٤) ابن بيسام ، الدخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٩٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠ . Dozy, op. cit., p. 522. (٩٥) ابن بيسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١١ .

هزيمة شنيعة عند حصن قلونية ، واخذ الكثير من الغنائم والأسلاب والسبى ، وعاد الى قرطبة حيث خلع عليه الخليفة كل ألوان الكريم ولقبه بلقب المظفر . ولم تكن هذه آخر حروبه مع قشتالة ، فقد اضطر الى غزوها مرة أخرى في العام السالى حيث هاجم حصن شنت مرتين على نهر دويرة ، وافتتحه وحرق أرياضه وقتل مدافعيه ، ووزع السبى على أهل الرباط والجند ، وقفل عائدا الى قرطبة(٩٦) .

قام عبد الملك المظفر بغزواته الأخيرة وهى المعروفة بغزاة « العلة » ضد قشتالة أيضا ، ولم يفصل لنا المؤرخون نتائج هذه الغزوة ، وإنما تحدثوا عن علة المظفر ومرضه وموته ، و يقولون أنه قصد شانجة صاحب قشتالة ، ولكن المرض لم يمكنه من إتمام الغزوة ، وأحس الجند بدنو أجله ، فغرق عنه أكثر المتطوعين ، وعاد به الجيش الى قرطبة حيث مات بها في صفر من عام ٣٩٩هـ / أكتوبر ١٠٠٨ م ، ونولى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن المعروف بشنجل ، والذي أنهدمت دولة بنى عامر على يديه في نفس العام .

د - علاقة خلفاء بنى أمية بإمارة قطلونية (برشلونة) :

كانت إمارة قطلونية تتبع دولة الفرنجة ، ولذلك لم تكن على خط واحد مع ممالك الشمال النصرانية في جهادها ضد مسلمى الأندلس . إذ أن أمراء بنى أمية الأواخر عقدوا مع أباطرة الفرنجة معاهدة تقضى بعدم مساعدتهم لنصارى الشمال ضد المسلمين مقابل اعتراف المسلمين بحكم الفرنجة فى قطلونية . وكانت هذه المعاهدة حجر الزاوية فى العلاقة بين قرطبة وبرشلونة عاصمة قطلونية(٩٧) .

ذلك أننا لم نسمع عن معارك حربية فى عنف وضراوة المعارك التى رأيناها بين دول أسبانيا النصرانية وبين مسلمى الأندلس ، سواء فى عهد

(٩٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١ - ٢٣ .

(٩٧) أنظر الفصل الثالث من الباب الأول ، ص

الامارة أو في عهد الخلافة . وكل ما هنالك هو أن أمراء الثغر الأعلى الأندلسي من المسلمين كانوا يغيرون أحيانا على برشلونة في بدء عهد الخلافة بمقداد أغار عبد الملك بن عبد الله الطويل صاحب وشقة وبريشتر من أعمال الثغر الأعلى ، على برشلونة عام ٣٠١هـ / ٩١٣ م ، واستشهد في قتاله مع فرنجة برشلونة^(٩٨) ولم نسمع شيئا بعد ذلك حتى عام ٣٢٨ هـ .

ويبدو أن أهل برشلونة قد أطمعتهم هزيمة المسلمين عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م في موقعة الخندق أمام جيوش ردمير الثاني ملك ليون ، فاعتدوا على الثغر الأعلى ، مما دفع الناصر إلى إرسال حملة بحرية صغيرة لضرب برشلونة من البحر . أفلعت هذه الحملة من ميناء المرية وعلى رأسها محمد ابن رماحس قائد البحرية ، ووصلت إلى ميناء طرطوشة حيث تم تدعيمها ببعض السفن الحربية ، ثم واصلت إبحارها حتى وصلت إلى ميناء برشلونة . وهناك وجدوا كونت برشلونة قد أعد بعثة للسفر إلى قرطبة لعقد الصلح مع الناصر ، ومن ثم انتفى الغرض من الحملة ، فعادت إلى قواعدها ، ووصلت الرسل إلى قرطبة حيث تم عقد الصلح^(٩٩) .

كان أمراء أو كونتات برشلونة في هذا الوقت مستقلين عن دولة الفرنجة وكانت أسرة بوريل تقوم بشئون الحكم فيها ، وكانت تعرف مدى بعدها عن فرنسا ، وتعرف أيضا أنها قريبة من بلاد المسلمين ، وأن العصر كان عصر الخلافة القوية التي لا تألوا جهدا في إخضاع من يرفع رأسه بالعداء أو العصيان ضدها ، ولذلك حافظ أمراء برشلونة على معاهدة الصلح ونفذوها بكل دقة ، وعندما رأوا ملوك الأسبان يهرعون إلى قرطبة عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م بفرض تجديد صلح قديم أو عقد صلح جديد ، جاء كونت برشلونة إلى الناصر راغبا في تجديد الصلح . لكن الأسناد ٢٠٥٥

(٩٨) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ . انظر ، الفصل الثالث من الباب

الأول . ص

(٩٩) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٨١ .

يقول ان الناصر عامل البعثة القطلانية بقسوة استثنائية على خلاف العادة ولا ندري سببا لذلك ، وعادت البعثة بعد أن وقعت السلام وقبلت كل شروطه^(١٠٠) .

وبموت الناصر عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١م تغير الموقف ، اذ ان نصارى الشمال تلكأوا في تنفيذ معاهدات السلام التي كانوا قد عقدوها مع الخلافة . وقام ملك نبرة مخالفا شروط الصلح المعقودة معه وأطلق سراح كونت شنانجة الى افرنان جونثالث الذي كان قد أسره عند تنفيذ عملية اعادة شنانجة الى عرش ليون عام ٣٤٩ هـ بمساعدة قوة اسلامية . وبادر هذا الكونت ونحالف مع كونت برشلونة بوريل الثانى ، وانضم اليه ملك نبرة أيضا ، ملك ليون المخلوع اردون الرابع . وظل شنانجة ملك ليون بعيدا عن هذا التحالف محافظا على عهده مع الحكم المستنصر^(١٠١) .

لكن اردون الرابع خاف على مصر عاقبة هذا التحالف ووفد على الخليفة الحكم ، ووفد في اثره شنانجة ، فجدد الحكم الصلح مع شنانجة ولم يأبه بما كان قد انفق عليه مع اردون من قبل ، ووعى الأسبان الدرس جيدا وهرع ملوكهم مرة أخرى الى قرطبة بطلبون السلام وتجديد معاهدات الصلح، وكان من بينهم وفد أهل قطلونية الذين أرادوا أن يكفروا عن خطئهم فأحضروا للمستنصر هدية قيمة ، عشرون صبيا من الخصيان الصقلية وعشرين قنطارا من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير وعشرة أذرع صقلبية ، ومائتا سيف أفرنجية . فقبل المستنصر هديتهم وجدد الصلح معهم على شرط أن يهدموا الحصون القريبة من بلاد المسلمين ، وألا ينحالفوا عليه مع نصارى الشمال ، وأن يحذروه منهم اذا عرفوا نيتهم في الهجوم عليه^(١٠٢) .

استمر السلام قائما بين فرنجة برشلونة وبين مسلمى الأندلس طوال عهد الحكم المستنصر حتى مات عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦م وتولى ابنه هشام

(١٠٠) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

Hole, op. cit., p. 91.

(١٠١) غان ، تاريخ العرب في اسبانيا ، ص ١٥٦ .

المؤيد الخلافة ، وكان لا يزال طفلا ، فطمعت الفرنجة ونصارى الشمال بصفة عامة في استئثار الفضل ضد الأندلس ، ونقضوا معاهدات الصلح التي كانوا قد أبرموها مع المستنصر في بداية حكمه . وكان المسلمون كما ذكرنا يحزنون أشغورهم مع أباطرة الفرنجة ولا يغيرون على برشلونة لأنهم إذا فعلوا فسوف يترضى الثوات الفرنجية لقتالهم لأن برشلونة كانت أمانة تابعة لهم (١٠٣) .

لكن المنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد لم يأخذ بهذا المنطق ، وكان هدفه هو اخضاع كل من بعيتى في شبه الجزيرة لسلطانه ، سواء كان مسلما أم مسيحيا . من نصارى الشمال أم من الفرنجة قطلونية ، وكان المنصور يعرف مدى الترويح السائدة في مملكة الفرنجة في ذلك الوقت بسبب النظام الاقتصادي وقبام النبلاء باستقلالهم في أقاليمهم . ودن هنا فان أمراء قطلونية لن ينجدهم أحد اذا طلبوا المساعدة (١٠٤) .

على أية حال نان العذرى يبدنا دون غيره من سائر المؤرخين القدامى بغزوة مكررة للمنصور بن أبى عامر في إقليم قطلونية ، نعود الى السنة الأولى من توليه الحجابة . اذ ذكر له غزوة تسمى بغزوة الغابرة قام بها في شوال عام ٣٦٧ هـ / مايو ١٧٨ م . ويبدو أن هذه الحملة كان هدفها الأساسى بمبلونة ، ثم تفرعت عنها حملة صغيرة الى برشلونة ، اذ يقول «انها صائفة ذات دخلات ، جمع بها بين بمبلونه وبسيط برشلونة . ، ولا يحدثنا عن نتائج هذه الغزوة ولا عن غيرها من الغزوات الأخرى في بلاد نبرة وليون ، اذ أنه كان يكتفى بذكر اسم الغزوة وتاريخها فقط ولا يذكر اسم الدولة التى تمت فيها ولا نتائجها ، ومن هنا جاءت الصعوبة في التعرف على الدولة التى وقعت فيها هذه الغزوة أو تلك . (١٠٥) .

(١٠٢) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٥ ، المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

(١٠٣) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

Dozy, op. cit., pp. 500-501

Dozy, op. cit., pp. 500,501.

(١٠٤)

(١٠٥) المقري ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

وهكذا يذكر لنا العذري قيام المنصور بغزوة تسمى « شنت بلبق » الثانية وبسيط برشلونة « في المحرم من عام ٣٧٤هـ / يونيه ٩٨٤ م . أما « شنت بلبق الأولى » فكانت قبل ذلك بخمس سنوات أى في المحرم عام ٣٦٩هـ / يولية ٩٧٩م . وفي هذه الفترة كان المنصور مشغولا بصراعه مع غالب تم مع نصارى الشمال الذين تحالفوا ضده وحاربوه عام ٣٧٢ هـ وانتصر عليهم في موقعة سيمينقة ، ودانت له ليون ونبرة بالطاعة ، ولم يبق امامه الا برشلونة (١٠٦) .

ويبدو ان حملة شنت بلبق الثانية (٣٧٤ هـ) كانت لجس نبض قوات الفرنجة في برشلونة ، اذ انه لم ينته هذا العام حتى قام المنصور في ذى الحجة منه / مايو ٩٨٥م بحملة مدمرة على برشلونة . فقد أعد المنصور قوة ضخمة ومرر بالبيرة وبسطة ومرسية ، ثم اتجه شمالا وسار بحذاء الساحل الشرقي حتى وصل برشلونة بعد شهرين تقريبا (المحرم ٣٧٥ هـ) ، وكانت هذه الغزوة الثالثة والعشرون للمنصور ، وكان يصحبه فيها حوالى أربعون من الشعراء لسجيل انتصاره (١٠٧) .

اتنحم المنصور اقليم قطلونية والتحم مع حاكمه بوريل الثانى في موقعة عرفت باسم وقعة بيفش ، وقعت في الطريق الى برشلونة ، ويبدو أن حاكم قطلونية كان قد تقدم بقوانه لملاقاة المنصور ومنعه من التقدم داخل الاقليم . وحكى بعض المؤرخين أن المنصور أمر جنده باتخاذ قرامد هندية يضعونها على سواعدهم ليحموا بها رؤسهم من سيوف الفرنج البتازة ، وكانت النتيجة عدة هزائم متلاحقة لحاكم قطلونية ، وتقدم المنصور وزحف على برشلونة العاصمة التى كان الفرنج قد استولوا عليها منذ عهد الحكم بن هشام عام ١٨٥هـ / ٨٠١م ، وظلت في حوزتهم حتى ذلك العهد فتاستولى عليها المنصور (٣٧٥ هـ) ودمرها ثم أضرم فيها النيران ، وقتل

(١٠٦) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٧٦ ، ٧٩ .

(١٠٧) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

Dozy, op. cit., p. 500, Livermore, op. cit., 88.

«معظم السكان والجنود»، وأخذ الباقين أسرى ، وعاد الى قرطبة محملاً بالغنائم والأسلاب بعد أن أخضع هذا الاقليم لسلطانه(١٠٨) .

ولم تستمر برشلونة طويلاً في يد المسلمين ، اذ ان الفرنجة انتهزوا فرصة انشغال المنصور في حملة له على بملونة عام ٣٧٦هـ ، وسار جيش من الفرنجة الى برشلونة تعاونه السفن من البحر واستولى عليها . لذلك ، غان اول عمل قام به عبد الملك المظفر بعد توليه الحجابة عام ٣٩٢هـ ، هو الاستعداد لحملة كانت وجهتها قطلونية ، بعد أن عقد الصلح مع شانجة زعيم نصارى الشمال وأمر قشتالة في ذلك الوقت في عام ٣٩٣هـ(١٠٩) .

اسعد عبد الملك لحملة برشلونة استعداداً هائلاً ، ووفد عليه المبطوعون والمجاهدون من شمال افريقيا ومن سائر أنحاء الأندلس حتى خسقت بهم قرطبة وأرباضها ، ووزع عبد الملك عليهم المال والسلاح . ويعطينا ابن عذارى وصفاً رائعاً جميلاً لخروجه على رأس قواده ووزرائه وعلمائه من قرطبة الى برشلونة . فقد انذ عبد الملك طريق الثغر الأوسط ثم الأعلى ، حتى وصل الى برشلونة مخالفاً بذلك والده الذي اتخذ طريق الساحل الشرقى ، وعندما وصل عبد الملك الى مدينة سالم لحق به عدة زعماء من نصارى ليو ن وقتتالة لمساعدته في حربه حسب الاتفاق المبرم بينهم في أول هذا العام (٣٩٣ هـ) (١١٠) .

وصلت قوات المسلمين والنصارى الى سرقسطة وأخرج عبد الملك فتاه « واضحاً » الصقلبي في نخبة من جنده وفرسانه لمقارعه حصن مدنيش الذي رب من حصن ممقصر ، فافتحه « واضح » وسار الجميع الى حصن

(١٠٨) ابن الكرد بوس ، الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، ص ٦٣ ، ابن الفرغى ، المنصور نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٧٤ ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٧٠ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ،

Dozy, op. cit., p 501

(١٠٩) عنان ، تاريخ العرب في الأندلس ، ص ١٦٧ .

(١١٠) ابن عذارى ، المنصور نفسه ، ج ٣ ، ص ٤ ، هـ ، ابن الخطيب ، أعمال

الاعلام ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

مقتصر من أعمال برسلونه ، وضربوا عليه الحصار . لكن أهل الحصن كانوا سُججعا فخرجوا الى المسلمين وقاطلهم . وكانت صولات وجولات بين الجيوش في كر وفر حتى حذر الليل بينهم . وعند الفجر استنطاع المسلمون دخول الحصن بعد أن كانوا قد مسحوا فيه ثغرة أثناء الليل ، وأخذوا من غيبه سبيا ونبدوا أهوالهم ، وأجبا بعض مدافعي الحصن الى مكان منيع ، فأحرق بهم المسلمون وقتلهم عن آخرهم (١١١) .

وكان الحاجب عبد الملك قد أصدر أوامره أثناء القتال بالآل يحرق المسلمون منزلا ولا يهدمون بناء ، عكس ما فعله أبوه في حملته التي دمر فيها برسلونه وأحرقها عام ٣٧٥ هـ . ذلك أن عبد الملك كان يرمى إلى استئطان هذا الحصن واسكانه بالمسلمين حتى يكون برسلونه تحت سيطرته . وبعد بمقام أنفج أخذ في إصلاح الحصن ونادى في المسلمين « من أراد الأبواب في الديوان بدينارين في الشهرين على أن يسوطن هذا الحصن وله مع ذلك المنزل والمحرق » مرغب في ذلك عدد كبير من المسلمين واستفروا فيه منذ ذلك الحين (١١٢) .

ولم يحالف عبد الملك سنة أبيه في النصف، والخريب ، ويبدو أن إصلاح الحصن ذا الاهمية الكبرى في السيطرة على برسلونه كان نسيئا استثنائيا حتى لا تصيع منه برسلونه كما ضاعت من يد أبيه من قبل . فقد جال عبد الملك وجنده في أنحاء إقليم قطلونية يخربون ويدمرون وينسفون حتى تركوه بلقعا خرابا وقفرا يبابا على حد تعبير ابن حيان وقد ورد في كتاب الفتح الذي أرسله عبد الملك إلى قرطبة ، أن عدد الحصون التي افتتحها عنوة وقتل جنودها وسبى ذرارهم وغنم أموالهم ستة حصون ، وعدد الحصون التي أخلاها أهلها، فخرها، وهدمها خمسة وثمانين حصنا ، وبلغ عدد السبى الذي وفد به عبد الملك على قرطبة ٥٥٧٠ نفرا . وكان يوما مشهودا احتلت به الدولة والخلافة وقام الشعراء ،

(١١١) ابن حيان برواية ابن عذري . . المصحح نفسه ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٧ .

(١١٢) ابن حيان برواية ابن عذري . . المصحح نفسه ، ج ٣ ، ص ٧ .

والأدباء ، وأنشدوا الأنصار ، وخلع الخليفة على عبد الملك وبالح في تكريمه^(١١٣) .

كانت هذه الحملة درسا للفرنجة ولغيرهم من نصارى الشمال اذ انهم حافظوا على عهودهم مع عبد الملك ، وأنى رسول برشلونة الى قرطنة يمد يد الطاعة ويطلب السلام . وكالعادة استعد المظفر عبد الملك لاستقباله استقبالا رائعا ، وكان هذا آخر يوم من أمام العظمة والمجد في تاريخ بنى عامر ، اذ لم يمض بضعة سنوات حتى مات المظفر وخلفه أخوه عبد الرحمن الذى كانت نهاية الدولة على يديه عام ٣٩٩هـ .^(١١٤) .

٣ - علاقات خلفاء بنى أمية بنصارى الشمال الأسباني في عصر ضعف الخلافة

وكما سبقت الإشارة عند الحديث عن أحوال الأندلس في عصر الخلافة في الفصل الأول من هذا الباب ، رأينا أن هناك عوامل ضعف أملت بالبلاد وأدت أكلها بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فيسما يعرف بالفتنة البربرية . وكان ذلك عقب سقوط دولة بنى عامر عام ٣٩٩هـ ، ذلك السقوط الذى اختتم عصر القوة وأسلم البلاد لحرب أهلية تأتت مولازين الصراع بين الأندلس ونصارى الشمال رأسا على عقب ، وجعلت هؤلاء النصارى يتحكمون في الخلافة والخلفاء الى حد كبير ، حتى أتى بنو حمود وأنقذوا كرسى الخلافة من هذا الهوان . لكن الصراع استمر بين خلفاء بنى أمية الأواخر بعضهم البعض حتى تم القضاء عليهم وعلى الخلافة نهائيا عام ٤٢٢هـ .

وتفصيل ذلك أن المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبدالرحمن الناصر استطاع أن يقود الثورة ضد بنى عامر ويتقضى على دولتهم ، وبويع

(١١٣) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧ ، ٨ ، ١٠

الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

(١١٤) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٤ .

نه بالخلافة في جمادى الآخرة عام ٣٩٩ هـ / يناير ١٠٠٩ م ، لكنه أساء السيرة وخاصة مع البربر الذين أعلن بعضه لهم واعرى الناس بهم ، وفتح باب الفتنة على مصراعيه ، ففر هؤلاء البربر الى التفر والتفرا حول سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وقدموه على انفسهم وبإيعوه بالخلافة وتسمى بالمسعين بالله ، وذلك في شوال عام ٣٩٩ / مايو ١٠٠٩ م . وبذلك انقسمت الأندلس الى حزبين أو فريقين ، حزب البربر ويؤيد سليمان المستعين ، وحزب الأندلسيين ويدعو لمحمد المهدي^(١١٥)

بدأت نذر الكارثة التي حاقت بالأندلس الإسلامية تلوح في الأفق منذ ذلك الحين ، فقد قرر كل فريق أن يستعين على خصمه بنصارى الشمال ، ومهدوا الطريق لهم لكي يشفوا غليلهم من أحفاد الناصر والمنصور ، وأن يتعرفوا على مواطن الضعف ، وأن ينفذوا سياساتهم في ضرب كل فريق بالآخر ، وأن يستولوا في النهاية على المعاقل والحصون التي كان الناصر والمنصور قد قضيا حياتهما في بنائها وشحنها بالسلاح والرجال ، وجعلها درعا يزود عن البلاد ومنطلقا لهجماتها ضد نصارى الشمال . كل ذلك حدث ولم يمض على آخر غزوة للمسلمين في أرض النصارى أكثر من عام واحد .

أدرك البربر منذ البداية أنهم قلة قليلة المسدد بالنسبة للأندلسيين فاصلوا بالكونت سنانجه بن غرسية بن فرنان أدور قنستالة والذي كان يعد أقوى أبراء الشمال النصراني في ذلك الوقت ، وطلبوا منه محالفته ضد المهدي وضد حليفه واضح الصقلبي صاحب مدينة سالم الذي كان قد حرض أهالي الثغور على مقاطعة البربر ، اقتصاديا حتى اضطروا الى أكل حشائش الأرض^(١١٦) .

(١١٥) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، الضمى ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، ١١٣ . ويذهب أن حرب الأندلسيين يتكون من باقى سكان الأندلس ، أى من العرب ومولاي بنى عامر والمولدين والصقالبة .
(١١٦) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، ٨٦ ، ابن مسام ، للتخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٢٥ .

وكانت رسل المهدي وواضح الصقلي تطالب في نفس الوقت بحالفة شانجة حد البربر ، على أن يعطاه ما أحب من مدن الثغر وحصونه ، وأرسلا اليه هدية قيمة ، فيها من التحف والطرائف ما لا يحصى . لكن شانجة تحالف مع البربر حتى يزيد من شقة الخلاف بين هذين الفريقين من المسلمين ، وأرسل لهم على الفور ألف عربة محملة بالدقيق والعقاقير والأطعمة وغير ذلك من المؤن الضرورية حتى الحبال والأوناد اللازمة لدوابهم ، فغوى البربر وانتعشت روحهم المعنوية^(١١٧) .

وقام سليمان وجنوده من البربر تؤازرهم قوات شانجة أمير قشتالة وزحفوا حتى وصلوا مدينة سالم ، وهزموا واضح عند شرنبة ، في ذي الحجة عام ٣٩٩ هـ / يولية ١٠٠٩ م ، وحازوا ما كان في معسكره من مال وسلاح ، وزحفوا الى قرطبة وهزموا جند المهدي في موقعة قنتيش في ربيع الأول عام ٤٠٠ هـ / اكتوبر ١٠٠٩ م ، ووضع البربر والنصارى السيف في رقاب أهل قرطبة فأبادوا منهم ما بن عشرين الى ثلاثين ألف رجل ، كان من بينهم عدد كبير من العلماء وأئمة المساجد ، وهرب المهدي وواضح الى طليطلة ، وبويع سليمان المستنعي خليفة في قرطبة^(١١٨) .

وهكذا يمكننا القول بأن دولة سليمان الأولى قد أقامها نصارى قشتالة ، أما الخليفة المهزوم فقد لجأ الى فرنجة برشلونه وأميرها رامون (رايمون) وأرمقندة صاحب أورجل (ارقله)^(١١٩) لعله يجد عندهم ما يعينه على استرداد عرشه ، وكان رسوله اليهم حاجبه واضح الصقلي الذيفاوضهم على أساس أن يسلمهم مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط . وإسا أخلاها من المسلمين ووضعوا يدهم عليها ، حولوا مسجدها الى كنيسة . وشرطوا عليه أن يلزم بدفع مائة دينار لقائد

(١١٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

(١١٨) ابن حبان مرواية ابن سمام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٧ ، الضبي ، المصدر نفس ، ص ٢٠ ، المراكشي ،

المعجب ، ص ٤١ ، ٤٢ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

(١١٩) أورجل Urgel إحدى كونتيات قطلونية .

الحملة النصرانية ، ودينارين لكل جنسدى من جنوده ، عائلوه على ما يلزمهم من المؤن والأعنة ، ولهم ايضاً ما يحوزونه من عسكر البربر من مال وسلاح وسبى ، الى غير ذلك من الشروط الميمنة التى قبلها واضح والمهدى^(١٢) .

قام الفرنج فى سبعة آلاف رجل وعلى رأسهم أرمندة كونت (أورجل) مع واضح الصابى ووصلوا الى طليطلة حيث انضموا الى قوات المهدى ، وسار الجميع الى قرطبة ويقابلوا مع جنس سليمان المسمى عند وضع يسمى عتقه البر ، على بعد بضعة عشرين ميلاً من قرطبة فى شوال عام ٤٠٠ هـ / مايو ١٠١٠ م . وكان النصر فى البدايه لسليمان والبربر ، حيث هجموا بعنف على الفرنج وقتلوا أمرهم أرمندة وكسر من جنده ، لكن سليمان ظن ان الهزيمة حاقت بالبربر عندما رأى الفرنج يخرقون صفوفهم ، وكان البربر قد أفسحوا لهم حتى يتقدموا فيحيطون بهم ومقتضون عليهم . لم يفهم سليمان تلك الخطة ، وفر من ميدان المعركة وانه الى شاطبة ، فعاد البربر الى الزهران وأخذوا أموالهم وأولادهم وذهبوا جنوباً الى وادى آرة ، من أحواز مريلة ناحية الجزيرة الخضراء^(١٣)

دخل المهدى قرطبة وبويع له بالخلافة للمرة الثانية واعطى الفرنج اعطياتهم وصمم على ملاحقه البربر والقضاء عليهم نهائياً ، والبقى هو وحلفاؤه من الفرنج بهم عند وادى آرة ، لكنهم هزموهم فى ذى القعدة عام ٤٠٠ هـ / يونيه ١٠١٠ م رغم كثرتهم وقلة عدد البربر . وقتل من الفرنج اكثر من ثلاثة آلاف وغرق منهم عدد كبير ، وغنم البربر ما وجدوه معهم من مال وسلاح ودواب ، وعاد المنهزمون الى قرطبة ، حيث رحل الفرنج على الفور وعادوا الى بلادهم . وكان حزن القرطبيين على رحيلهم

(١٢٠) ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣١ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٤ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٤ .
(١٢١) ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٤ - ٩٦ ، الضبي ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ ، المراكشى ، المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

عظيمسا حتى أنهم كانوا يتبادلون فيما بينهم عبارات العزاء أسفا على رحيلهم وجزعا من سيطرة البربر عليهم بعد مفسادة حمانهم من الفرنج^(١٢٢) .

ولم يلبث أن فام واضح وقتل المهدي بعد أن أحس بتخرج مركزه وأظهر هشاما المؤيد وبايعة بالخلافة ، اعتقادا منه بأن البربر سيعودون الى الطاعة ، ولكنهم نمادوا في مهاجمة قرطبة ، فلجأ واضح الى شانجه أمير قشتالة وعقد معه باسم هشام المؤيد اتفاقية في صفر عام ٤٠١ هـ / سبتمبر ١٠١٠ م ، يسلم له بمقتضاها جميع الحصون التي كان قد أسولى عليها الحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر ، وكانت لا نقل عن مائتي حصن . وكان دس بينهما سان اسيفيان وجورهث Gormez وأسما Osma وكرونياء دلكوندي Cruna del Conde^(١٢٣) .

وكان شانجه أمير قشتالة قد رأى أن يحالف واضحا وهشاما المؤيد حتى يتمكن من استلام ما يريده من الحصون على الفور ، ذلك أنها كانتا حينئذ في السلطة ، وتدين لهما منطقة الثغور بالطاعة . أما البربر فكانوا وقتها ينمركزون في جنوب الأندلس . وقد فعل شانجه ذلك أيضا حتى يمنع الأندلسيين من اللجوء الى فرنجة برشلونة مرة أخرى ، وربما كان يعتقد أن الغلبة سوف تكون في النهاية للأندلسيين على اعتبار أنهم تمكنوا من هزيمة البربر وأخرجوهم من قرطبة ، بعد أن كان هؤلاء قد سيطروا عليها عقب انتصارهم في قنتيش . وكان شانجه يتبع أيضا في ذلك سياسة ضرب المسلمين بعضهم ببعض ، فمرة يتحالف مع البربر وأخرى مع الأندلسيين ، حتى يطيل أمد الصراع فيما بينهما ، فتضعف الجبهة الإسلامية في النهاية وتسقط صريعة تحت اقدام النصارى .

(١٢٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، المراكشي ، المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

(١٢٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٧ ، ٢٤٢ .

وبعد أن تسلم شائجة ما أراده من المدن والحصون ترك المسلمين يأكل بعضهم بعضا ولم يتقدم لنجدة هشام ، وخاصة بعد أن فتك بحاجبه واضح الذى حاول أن يخونه وينضم لأعدائه من البربر ، بعد أن رأى تصميمهم على مقاتلة أهل قرطبة الذين رفض فقهاؤها الصلح مع البربر ، واستهانوا بواضح وخرج الجند من تحت سيطرته مما ساعد على الفك به . وانتهى الصراع بين هشام وسليمان بأن دخل سليمان قرطبة في شوال عام ٤٠٣ هـ / أبريل ١٠١٣ م ، واستمر في حكمها حتى قام عليه بنى حمود وقتلوه وأقاموا الخلافة الحمودية العلوية في قرطبة في المحرم عام ٤٠٧ هـ (١٢٤) .

وما لبث الصراع أن نشب من جديد بين بنى حمود وبين عبد الرحمن المرتضى الأموى الذى أقامه خيران الصقلبي صاحب المرية خليفة في شرق الأندلس ، وفي هذه المرة لجأ المرتضى الأموى الى فرنجة برشلونة لأنه رأى غدر نصارى قشتالة بهشام المؤيد وتخليهم عنه رغم العدد الهائل من الحصون التى كان قد سلمها لهم . فأنى رايونند Reymond كونت برشلونة بنفسه مع منذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة لمساعدة المرتضى في صراعه ضد بنى حمود وحلفائهم من البربر (١٢٥) .

ولكن الأمر انتهى بغدر خيران بالمرتضى ونأمر عليه مع أعدائه ثم قتله ، وعاد رايونند الى بلاده دون أن يشترك في المعركة ، ولم نعد نسمع بعد ذلك عن تدخل لفرنجة برشلونة أو نصارى الشمال الأسباني في شئون خلفاء بنى أمية الأواخر ، حتى انتهت خلافتهم نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م ، ونشب الصراع بعد ذلك بين نصارى الشمال الأسباني وبين ممالك الطوائف التى خلفت بنى أمية في حكم الأندلس (١٢٦)

(١٢٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٣ .
Dozy, op. cit., pp. 567 - 569. (١٢٥)
Dozy, op. cit., pp. 567 - 569. (١٢٦)

الباب الثالث

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية
وأسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

الفصل الأول : الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس،
الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية،
وأسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

الفصل الأول

الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس
الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

أولاً - ظروف الأندلس الإسلامية وأحوالها المؤثرة في علاقتها بأسبانيا
النصرانية

١ - الفتنة البربرية وأثرها في قيام عصر ملوك الطوائف :

رأينا فيها سبق من حديث عن الفتنة البربرية أو الحرب الأهلية
التي نشبت بين خلفاء بني أمية الأواخر ، أنها تسببت في انقسام
أهل الأندلس إلى حزبين متصارعين ، استعان كل منهما بأحد ملوك
إسبانيا النصرانية ضد الآخر ، كي يعينه على تولي منصب الخلافة في
قرطبة وانهز ملوك الأسبان الفرصة حتى ينالوا نصيبهم من الغنم
وفعل نفس الشيء . أولئك القواد الطموحون من الصقالبة والبربر ،
ورؤساء الأسرانت المرمية ، وكونوا لأنفسهم دولا انتشرت بطول البلاد
وعرضها . وبذلك تجزأ الوطن الواحد إلى أوطان متعددة ، وأصبحت كل
عشيرة أو كل طائفة من طوائف سكان الأندلس لها حكومتها ، ولها كيانها
السياسي الخاص بها فيما يعرف بممالك الطوائف .

وسرعان ما أعلن أصحاب هذه الممالك عن حقهم في الحكم ، وانتحلوا
الألقاب السلطانية ، واخذوا الحجاب والوزراء ، وصاروا ملوكا .
وساعدهم على ذلك خطآن ارتكبهما بنو أمية أثناء الفتنة البربرية ،
أثرتا إلى أحدهما وهو استعانتهم بملوك إسبانيا النصرانية في الصراع
على عرش الخلافة ، مما قضى على هيبة الخلافة ، ودلل على ضعف
الحساس الديني والعزة القومية لدى هؤلاء الخلفاء الضعاف ، فاستهان
بهم الناس وأصبحوا لا ينظرون إليهم كما كانوا ينظرون من قبل إلى
الناصر أو المستنصر . وما زاد من هوانهم في نظر الناس ما اتصف

به معظم خلفاء بنى أمية الأواخر من استهتار بالفضائل والقيم الدينية والخلقية ، ومن سوء سياسة وتخبط في شئون الحكم وإدارة البلاد^(١) .

أما الخطأ الثانى الذى ارتكبه بنو أمية في فترة الفتنة فهو أنهم تركوا أقاليم الدولة وولاياتها تقع في أيدي عناصر الصقالبة والبربر ، بل أن بعضهم قام بتوزيعها عليهم كما فعل سليمان المستعين ، ولم يلبث حكام الولايات هؤلاء ، أن اسفلوا بها عقب مقتل سليمان المستعين على يد بنى حمود في أوائل عام ٤٠٧ هـ ، وقال قائلهم « اقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به اليه » ، وأعلن آخرون استقلالهم عن كل سلطة وقالوا « أحق الناس بالملك من استقل به »^(٢) .

وكان من نتيجة هذا الإصرار العنيد على الإمساك بالحكم والسلطان أن انقسمت الدولة الإسلامية في الأندلس الى دويلات عديدة ، بلغف في مجموعها سنا وعشرين دولة وضاعت جهود قرن كامل في توحيد تلك البلاد ، وعادت الى ما كانت عليه قبل اناصر لكنها في هذه المرة لن نجد من يجمع ستاتها ويرأب صدعها وينقذها من حالة الضياع الذى تعرضت له عقب سقوط الخلافة الأموية . وتكرست هذه الحالة نتيجة للسياسة التى اتبعها ملوك الطوائف ، من استمرارهم في الصراع ضد بعضهم البعض ، واستعانهم بملوك اسبانيا النصرانية ، حتى اضطروا لدفع الجزية لهم ، وانتهى الأمر بسقوط كثير من المعاقل والمدن الهامة في أيديهم مثل بريشتر عام ٤٥٦ هـ ، وطليطلة قاعدة الثغر الأوسط عام ٤٧٨ هـ^(٣) .

(١) ابن حيان برواية ابن بسام ، الخزيرة ، ق ١ ، د ١ ، ص ٣٠ ، ٣٢ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، ٩٤ .

ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

الصدى ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، د ٣ ، ص ٧٧ ، ١١٣ .

ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، د ١ ، ص ١١١ ، ١١٢ .

ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٥١ .

(٣) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، د ٢ ، ص ١١٤ - ١١٧ .

وسوف بنضح ذلك كله من دراسنا لسمات هذا العصر ، والأحوال تلك الممالك الصغيرة ، وعلاقاتها بعضها ببعض الآخر ، وما حدث فيها من صراع داخلي على الحكم ، وما اصف به ملوك هذه الممالك من فساد ، وما تفشى بين سكانها من عيوب خلقية واجتماعية واقتصادية .

ب — سمات عصر ملوك الطوائف ومظاهر الضعف فيه :

ويتمثل مجتمع الطوائف في تلك الدويلات والامارات التي بلغ عددها ستا وعشرين ، وكان لكل مدينة أو منطقة أميرها المستقل متخذا لقب الملك أو الأمير أو الوالى ، أو القاضى ، أو الحاجب ، تبعاً لحجم المدينة أو المنطقة التي يحكمها . وكان لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر نظراً لما يجيش به الجميع من الأطماع ، ولاختفاء المثل الأعلى الذي أوجده الأميون وهو المحافظة على وحدة البلاد . وبدأ القوى يبطش بالضعيف الذى حاول بدوره أن يتحالف مع جار أقوى ، ونتج عن هذا الصراع الدامى أن تكونت من هذه الدويلات ، أربع دول رئيسية غلبت على جميع الدويلات الأخرى أو تحالفت معها^(٤) .

ففى جنوب الأندلس فى غرناطة ومالقة غلب الحزب الإفريقى أو البربرى المتمثل فى بنى حمود وحلفائهم من صنهاجة وزناتة من حكام غرناطة وقرمونة وبعض المدن الأخرى . وفى الجنوب الغربى ، كان هناك بنو عباد العرب أمراء اشبيلية ، وكان هؤلاء يخوضون الحرب مع الحزب الإفريقى بلا انقطاع حتى سم لهم الظفر ، كما غلبوا بالحرب والخديعة على جميع الأمراء والولاة فى جنوب غربى الأندلس ، واضطر أمير قرطبة وبطلوريوس الى الانضواء تحت لوائهم حلفاء أو مغلوبين^(٥) .

أما فى وسط اسبانيا المسلمة (الأندلس) فكان هناك بنو ذى النون أمراء طليطلة الأقوياء الذين وقفوا لمحاولات بنى عباد فى فرض سيطرتهم

(٤) يوسف اشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٥) يوسف اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٣١ .

على بلاد الأندلس ، وإن كان هذا على حساب استقلالهم فقد دعموا الجزية للوك قشتالة لمساعدتهم ضد خصومهم من بنى عباد . وكان الفريق الرابع بحكم في نرق الأندلس ممثلا في بقايا العامريين وعبيدهم في بلنسية ومرسية ودانية والمرية ، وفي أسرة بنى تجيب وبنى هود العربية في سرقسطة وتطيلة ووشفة . وكان هؤلاء يخوضون الصراع مع بنى ذى النون البربر أمراء طليطلة ويسنعيون أيضا بملوك شمال أسبانيا النصرانية^(٦) .

ومن أولى السمات التي انسم بها عصر ملوك الطوائف أن هذه النجومات و الدويلات ، لم يسرشد سواء في علاقاتها ببعضها البعض ، أو في علاقاتها بشعوبها سياسه اسلامية تقوم على رفع شأن الاسلام ونوسيع نفوذه ، ومحاربه المسيحيين في الشمال ، والتضحية بالأهداف الثانوية تجساه هذا الهدف السامى الذى عاش له أمراء وخلفاء بنو أمة . كما أن ملوك الطوائف لم يقيموا سياستهم على أساس التعايش السلمى بين بعضهم البعض ، والاحتفاظ بالأمر الواقع والمحافظة عليه ، كما قال بذلك البعض الذين عللوا هذه السياسة بضعف بعض الدويلات ، وأنه كان لهذه السياسة انصار عديدون بين حكام المقاطعات الصغيرة والحصون المستقلة^(٧) . ذلك أن التفاول بين دول الطوائف من حيث القوة والضعف وانستداد الأثرة والأطماع الشخصية ، وحب الرئاسة عند الجميع ، واشتداد الخطر النحرانى المطل عليهم من الشمال ، كل ذلك جعل الدويلات القوية ببطش بالضعيفة وتجبرها على الانضواء تحت سلطاتها متحالفة أو مقهورة حسما تتقدم . ذلك أنه لم يكن هناك الا سياسة واحدة بنى عليها ملوك الطوائف سياستهم ، وهى سياسة التوسع على حساب القوى المجاورة بكل الوسائل الممكنة ، سواء كان ذلك عن طريق الحرب أو المؤامرات أو الشراء أو المعاهدات^(٨) .

(٦) يوسف اشباح ، المرجع نفسه ، ص ٣١ .

(٧) صلاح خالص ، ابن عمار الأندلسى ، ص ٧٤ .

(٨) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

المقرى ، مع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ ، ٦٠٥ .

وكان لطبيعة دول الطوائف أثر كبير في انشاع تلك السياسة ، فهي في الواقع لم تكن دولا بالمعنى المعروف ، وانما كانت اقرب منها الى وحدات الاقطاع ، والى عصبية الأسرة القوية ذات العصبية او الجماعة القبلية في حالات الامارات البربرية ، ومن ثم فانه لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح تكون مهمتها العمل لخير الشعوب التي تحكمها ، وانما كانت اسرات او زعامات تعمل قبل كل شيء لمصلحتها الخاصة ، ولرفعة شأنها ، وتنمية ثرواتها ، وتدعيم سلطاتها وبذخها ، ولا يهمها بعد ذلك ان يسعد الشعب او ان يعيش في سقاء ، ولا يهمها ان يسمو شأن الدين او يذل ، وانما يهمها مصلحتها فقط ، ولو انها رأت تلك المصلحة في اعتناق النصرانية لبادرت الى ذلك دون أدنى خوف او خجل . اذن فهو عصر الاطماع والاثانية والمصالح والمؤامرات ، عصر كانت فيه الجارية نرفع الى عرش الملكات ، ويهبط الملوك الى درك العوز والفاقة والسول (٩) .

ولذلك لم يكن الصراع صراعا حزبيا او قائما على أساس جنسى ، كالصراع بين العرب والبربر او بين الأسبان المسلمين والبربر ، كما قال بذلك هنري بربرز وناقشه فيه البعض . ولم يكن صراعا بين فريقين أو حزبين كما قال بذلك ابن عدارى ، لأن الأحداث التاريخية لا تؤيد ذلك ، بل انها تقول بأن البربر حاربوا بعضهم بعضا وكان بربر زناتة لا يثقون في بربر صنهاجة ، ولذلك انضم بربر قريونة ورندة وتاكارنا الى بنى عباد العرب في أحيان كثيرة ضد بربر صنهاجة في غرناطة . كما حارب العرب بعضهم بعضا كما حدث بين بنى عباد في أسبيلية وبين بنى جهور حكام قرطبة حيث حاربوهم حتى دضوا عليهم وضموا قرطبة الى املاكهم (١٠) .

(٩) ابن حيان ، برواية ابن عدارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .

اس حزم ، للرد على ابن النعيلة لليهودى ، ص ١٧٧ .

عنان ، دول الطوائف ، ص ٤١٨ .

(١٠) ابن حيان برواية ابن عدارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١٩ .

صلاح خالص ، المعتمد بن عباد ، ص ١٠٦ .

ولما كان الصراع شخصباً فقد أنبسط الجميع فيه مبدأ الفساية تبرر الوسيلة ، وكان الأخ يغدر بأخيه ويستعين في ذلك بالأمراء المجاورين وربما استعان بنصارى الشمال ، وتاريخ ملوك الطوائف حافل بذلك . وعلى سبيل المثال لم يتورع المعتضد بن عباد ملك اشبيلية من دعوة جيرانه من أمراء البربر وأولم لهم وليمة ، ثم دعاهم لدخول الحمام ، ولما دخلوه سد عليهم أبوابه ، وظلوا فيه حتى ماتوا ، بل أنه علق رؤوس أعدائه الذين وصلت اليهم يده ، سواء بالحرب أم بالختل والمدر على اشجار حديقة قصره ، وسماها حديقة الموت ، وجعلها رمزا لقوته وبطشه ، وانذارا بالموت لكل من نسول له نفسه من معارضيه بالخروج عن طاعته (١١) .

أما ابنه المعتمد فقد بلغ في ذلك شأوا بعيدا ، ويكفى ما فعله وزيره ابن عمار من الاستيلاء على مرسية بالتآمر مع نبلائها ، ثم الاستيلاء على قرطبة التي كان أهلها قد استدعوه ليحميهم من عدوان المأمون ملك طليطلة ، ثم لم يلبث أن استولى عليها بعد أن هزم المأمون وأنزل بنى جهور بن قصورهم ، وراحت كلمة آخر ملوكهم « نغص علينا كل شيء حتى الموت » دليلا وسمة لهذا العصر المضطرب (١٢) .

وهذا هو عبد العزيز بن المنصور بن أبى عامر حاكم بلنسية الذى نزل الى المرية ليضبط أمورها ، بعد قتل أميرها الفتى العامرى زهير عام ٤٣٩ هـ أثناء صراعه مع بنى زيرى أمراء غرناطة ، فحسده مجاهد العامرى صاحب دانية ، وخاف من اتساع مملكته التى أصبحت تضم بلنسية والمرية ، وأغار على بلنسية أثناء غياب عبد العزيز عنها ، ولما شعر الأخير بذلك استخلف صهره ووزيره معن بن صادق النجيبى على المرية ، وعاد الى مملكته فى بلنسية ليدفع عنها خطر مجاهد العامرى . لكن هذا

(١١) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ٢ ، ص ٥٠ ، ٥١ .

دورى ، ملوك الطوائف ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(١٢) المصدرين السابقين .

الصهر لم يلدث أن انتهز الفرصة واستولى على الحكم في المrise وأعلن استقلاله بها وخان الأمانة (١٣) .

والسمة الأخرى التي اتسم بها هذا العصر ، هو عدم وجود أساس شرعى معين لحكم هؤلاء الملوك والأمراء المتصارعين . فلم يكونوا من بيت امارة أو خلافة وإنما هم متغلبون ، ذهب كل منهم الى ناحية عقب انهيار بنى عامر وبنى أمية واستولى عليها وأقام ملكه فيها ، أو كان حاكما لتلك المنطقة قبل الفتنه فاستقل بها ، وكل منهم يدعى انه حافظ لما تحت يده حتى يظهر الحاكم الشرعى فينزل له عنه طواعية ، وهم فى ذلك كاذبون ، وحسبما تقدم كان يقول قائلهم « أحق بالملك من استقل به ، ولو نازعنى فيه كبار الصحابة والخلفاء الراشدون لضربت عنقهم » (١٤) .

ولكى يصبغوا على حكمهم صفة الشرعية ، فقد أقاموا لأنفسهم خلفاء ، واستقر بعضهم وراء خلفاء بنى أمية الأواخر الضعاف ، أو خلفاء بنى حمود الذين سماهم بعض ملوك الطوائف بأنهم أدياء ولا حق لهم فى الخلافة . ففى أثناء الفتنة البربرية ، هرب الموالى العامريون أمثال خيران وزهير ومجاهد ومبارك ومظفر الى شرق الأندلس ، واستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية والمرية وغيرها . وقام أحدهم وهو مجاهد العامري ، وأقام أحد أفراد أسرة بنى أمية ويدعى عبد الله بن عبد الله بن الوليد المعروف بالمعيطى خليفة فى دانيه ، وبإيعه وسماه أمير المؤمنين . وأقلع معه غازيا الى سردانيا والجزائر الشرقية ففتحوها ، ثم لم يلبث أن غضب عليه مجاهد وخلعه ، ففر المعيطى الى أرض كنامة بالمغرب واستقر بها (١٥)

وقام غير مجاهد من الموالى العامريين بالدعوة الى خلفاء بنى حمود أو بنى أمية ، مثال ذلك خيران الصقلبي الذى أدت مساعدته لبنى حمود

(١٣) ابن خيان برواية ابن مسام ، للخيرة ، ق ١ ، د ٢ ، ص ٢٣٧

اس خلکان ، وفتاب الاعيان ، د ٤ ، ص ١٣١ .

(١٤) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، د ٢ ، ص ٢٤٤ .

(١٥) ابن حزم ، الحمرة ، ص ١٠٦ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ،

ص ١١٥ ، ١١٦ .

الى قيام خلافتهم في قرطبة عام ٤٠٧ هـ ، ولما خاف حيران على نفسه من بنى حمود فر الى شرق الأندلس واقام المرتضى الأموي خليفة ، ثم غدر به وقتله وقام بعد ذلك بالدعوة لهشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية بعد أن ساعد اهل قرطبة في القضاء على حكم بنى حمود بها عام ٤١٧ هـ / ١٠٢٦م^(١٦) .

ولما سقطت الخلافة الأموية نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م ، قام بنو عباد ملوك اشبيلية وأظهروا رجلا نسبها بهشام المؤيد ، ودعوا له بالخلافة عام ٤٢٥ هـ وبايعوه ، وأرسلوا الى الامارات والممالك الأخرى بالدخول في دعوته وطاعته ، فاستجابت له وضربت النقود باسمه في جميع امارات شرق الأندلس ، مثل دانية وطرطوشة وبلنسية وسرقسطة وتطيلة والمريه ولاردة ومورقة ، وهناك قطعه نقود ضربت باسمه في سرقسطة عام ٤٤٦ هـ في عهد الحاجب عماد الدولة احمد ، كما اعترفت بخلافته بطليوس وطليلة وقرمونه وما والاها من الأمراء الصغار مثل ابن نوح وابن خزون^(١٧) .

ونلاحظ أنه قد اعترف بخلافة هذا الرجل الحصرى المشبه بهشام عرب وبربر وصقالية ، وكان لكل منهم هدفه الذي يسعى اليه من وراء هذا الاعتراف ، فان عباد مثلا كان يريد أن يناهض خلافة بنى حمود في مالقة ويريد أن يستقطب أكبر عدد من ملوك الطوائف ضد بنى حمود وحلفائهم من بنى زيري ملوك غرناطة . وكان هذا أيضا هو نفس هدف بنى جهور أمراء قرطبة . وقد استغل البعض تلك الدعوة للاستيلاء على الحكم ، مثال ذلك ما فعله عبد الله بن حكيم ابن عم منذر بن يحيى صاحب سرقسطة ، حيث قام عبد الله هذا بقتل ابن عمه منذر عام ٤٣٠ هـ وأخرج رأسه فوق عصا ونادى عليه « هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشام ودافع حقه » وكان (منذر) قد رفض الاعتراف بامامة هشام الحصرى متأسيا في ذلك

(١٦) رجب محمد عبد الحليم ، دولة بنى حمود ، ص ٦٣ .

(١٧) ابن حزم ، نفاة العروس ، ص ٨٢ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٣ ،

ص ٢١٩ .

Codera, Numismatice, pp. 136, 168, 175, 182, 254.

بوالده يحيى وبخاله اسماعيل بن ذى النون ملك طليطلة . وقد اعترف
حبيب اسماعيل بامامته عام ٤٣٦ هـ (١٨) .

وقد أسى وقت على الأندلس وقد أصبح فيها أربعة خلفاء فى وقت
واحد ، كلهم يسمى بامرء المؤمنين ويخطب لهم بها فى زمن واحد ، وهم
خلف الحصرى المنسبه بهشام بأنسبيلية ، ومحمد بن القاسم بن حمود فى
الجزيرة الخضراء ، ومحمد بن ادريس بن على بن حمود فى مالقة ، وادريس
ابن يحيى بن على بن حمود فى بيشتر وسنة . وان دل هذا على شئ
عائنا يدل على مدى الابتدال الذى وصل اليه هذا المنصب الخطير . لكنها
مصلحة الأمراء الشخصيه التى فرضت هذه الأوضاع ، وما ان ينتفى
الغرض منها حتى تزول بأدنى اشارة ممن أقاموها ، مثلما فعل المعتضد بن
عباد عندما أعلن موت هشام المؤيد عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م وقطع الدعوة
له بعد أن استتب له الأمر ومد سيطرته على جميع جيرانه ، وبعد أن
زالت خلافة بنى حمود قبل ذلك بعامين شأى يد بنى زيرى أمراء
غرناطة (١٩) .

وقد لجأ ملوك الطوائف لتدعيم نفوذهم الى الاستعانة بقوة روحية
أخرى ، تلك القوة التى تتمثل فى رجال الدين من الفقهاء والعلماء . وقد
كان الفقهاء فى الواقع فى هذا العصر الذى ساد فيه الانحلال والفوضى
الأخلاقية والاجتماعية والسياسية أكبر عصب للأمراء الطوائف فى تبرير
طغيانهم وظلمهم ، وتزكية تصرفاتهم وابرازهم لأموال الرعية . وقد كانوا
يأكلون على كل مائدة ، ويخدمون هذا أو ذاك من الأمراء والملوك ليحوزوا
النفوذ والمال ، ويضعون فتاوبهم الفقهية فى خدمة السلاطين ، تأييدا
لظلمهم وجورهم باسم الشرع حتى ضج منهم كتاب ذلك العصر ، منهم ابن
حزم وابن حيان وغيرهم ممن وصفوهم فى كتاباتهم بأبشع الصفات (٢٠) .

(١٨) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٧٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩ .

(١٩) ابن حزم ، نمط العروس ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٩ .

(٢٠) ابن حزم ، الرد على ابن البعريلى اليهودى ، ص ١٧٤ .

ابن حيان بروايته ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

المحرى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

فهذا ابن حزم يقول عنهم « لا يغرركم الفساق والمنتسبون الى الفقه واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزيبون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم » وذاك ابن حيان يقول عنهم أيضا أنهم سكتوا عن ظلم الحكام « وأصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم ، آخذ بالتقية في صدقهم » ، أما المقرئ فيتابعهم بقوله ان شر العلماء علماء السلاطين ويذكر ان علماء هذا العصر صاروا يسعون الى الحكام بعد ان كان الدين يسعون اليهم (٢١) .

لكن يبدو ان أسلوب ملوك الطوائف في الحياة وطريقتهم في الحكم لم تكن تعجب جميع رجال الدين ، فقد رأينا فريقا منهم من المخلصين لمبادئهم الدينية ، يفضلون العيش في عزلة عن الحكام حتى ولو ذاقوا طعم المسغبة ، واعتبروا أن العملة المتداولة في أيدي الناس انما نبعت من سحت ، ورفضوا تولى مناصب القضاء والمناصب الأخرى احتجاجا على القوضى السياسية والدينية والأخلاقية التي كان يعينها الحكام منذ الفتنة البربرية في مستهل القرن الخامس الهجري . وكان ابن حزم وأسرته من هؤلاء الذين « ذاقوا مرارة الحرمان وهجر الأوطان وترك الخلان » (٢٢) .

وقد عرض قسم من هؤلاء الفقهاء أنفسهم لغضب الحكام وانتقامهم ، كما حدث للفقهاء أبي الحسن الهوزنى الذى قتله المعتضد بيديه عندما تجرأ فنبهه الى الخطر الذى يتهدد البلاد نتيجة خطأ سياسة ملوك الطوائف ، كذلك قام حفصه الفتح بن محمد بن عباد بقتل الفقيه عمر بن حبان بن خلف ابن حبان بالمدور ومثل بجثته عام ٤٧٤ هـ . وكان هذا من عوامل الضعف التى ألت بعصر ملوك الطوائف اذا قارناه بعصر خلفاء أو أمراء بنى أمية

(٢١) المصادر السابقة ونفس الصفحات .

(٢٢) للنباهى ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، الحميدى ، المصدر نفسه ،

ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٣٥ - ٤٣ ، د ٢ ص ٤٧٦ ، ٤٨٠ ، ٤٩١ .

ابن عبد البر ، القصد والأمم ، ص ٥ .

صلاح خالص ، المرجع نفسه ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

الذين كانوا يحترمون العلماء ولا يجرعون على عزلهم حتى لو بالغوا في بقريعتهم ونصحهم . وكان لعدم رضا هذا القسم من رجال الدين تأثيره المهم في انهيار نظام ملوك الطوائف وتداعى دويلاتهم وفي حمل العمامة على النكر للوكهم وتأيد المرابطين الشديدي التعصب للدين (٢٣) .

وبذلك انهارت الدعامة الروحية التي استند اليها ملوك الطوائف في حكمهم لرعاياهم ، فلم يكن الخلفاء الذين أقاموهم سوى دمي لم تمل احترام الناس وتقديرهم ، وكذلك أولئك الفقهاء الذين ظاهروهم وأيدوهم في سياستهم ، لم يكونوا أيضا محل تقدير الناس أو رضاهم ، وظهور ذلك واضحا في الأمثلة العامة التي انشرت بين أفراد الشعب انتقادا لمسلكتهم المشين ، مثال ذلك بعد وضعه في صيفه عربية سليمة « ابق الله العظيم ولا تشارك في صفقه مع فقيه » (٢٤) .

ولما كان ملوك الطوائف يعرفون حقيقة سياستهم وأنها لا يمكن ان تنال رضا الناس مهما أقاموا من خلائف أو قربوا من فقهاء وعلماء . لذلك نراهم قد ركزوا اهتمامهم على اتخاذ قوة مادية عسكرية يستطيعون بها أن يحققوا أهدافهم وتتمثل تلك القوة في العبيد من جهة وفي الجنود المرتزقة من جهة أخرى . وكان الخلفاء يعتمدون اعتمادا كبيرا على أثر الدعوة للجهاد في نفوس الناس ، ولم يكن للوك الطوائف أن يعلنوا الجهاد لأن جهادهم أصبح ضد اخوانهم المسلمين في الامارات المجاورة ، كما أنه لم تكن لهم الصفة الشرعية لاعلان تلك الدعوة رغم ما لجأوا اليه من اقامه خلافة هنا أو هناك ، ولذلك لجأوا الى استعمال الجند المرتزقة على نطاق واسع بغض النظر عن أصلهم أو دينهم . وعلى هذا تدفقت عليهم أعداد غفيرة من نصارى الشمال نظير أجور معينة ، ولم يشذ عن ذلك أى مملكة من ممالك الطوائف الرئيسية ، فكلها استعانت بهم كمأجورين أو حلفاء (٢٥) .

(٢٣) ابن بشكوال ، الصلاة ، ج ١ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٢٤) صلاح خالص ، المرجع نفسه ، ص ٦٤ .

(٢٥) ابن حيان ، برواية ابن عدارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٢٥ ،

١٦٠ ، ٢٦١ .

ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٩٧ ، ص ٢٧٢ .

ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

جـ - عوامل الضعف وأثرها في علاقة ملوك الطوائف بأسبانيا النصرانية :

تلك هي سمات عصر ملوك الطوائف وبعض مظاهر الضعف فيه . وهناك عوامل عديدة أدت الى ذلك وساعدت عليه ، منها صراع ملوك الطوائف ضد بعضهم البعض ، وصراع حكام كل مملكة على كرسى العرش بها ، وما صاحب ذلك من فساد هؤلاء الملوك وما أدى اليه من فساد طبقة الوزراء والموظفين ، وما نتج عن ذلك كله من انتشار العيوب الخلقية والاجتماعية والاقتصادية بين أفراد الشعب الأندلسي نفسه في مختلف ممالكه واماراته العديدة المتناحرة . وكى ننضح الصورة تماما ويظهر اثر تلك العوامل العديدة على مستقبل الاسلام في بلاد الأندلس لا بد أن نتحدث عن كل منها في نتيء من التفصيل .

١ - علاقة ملوك الطوائف بعضهم ببعض الآخر وصراعتهم على السلطان :

خاض ملوك الطوائف حروبا مستمرة بعضهم ضد البعض بمساعدة الجند المرتزقة من نصارى الشمال أو من البربر ، وقد بذلت محاولات للمصلح وجمع الشمل ، ولدينا عدة رسائل من الكاتب أبى عبد الله البزليانى الى صاحبه ساطبة والى غيرهما من أمراء شرق الأندلس ، يدعوها فيها الى التعاون مع المظفر أبى محمد الذى لا يبعد أن يكون هو عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، لأنه يذكر أنها تحالما مع الموفق أبى الجيش وهو لقب مجاهد العامرى صاحب دانيه ، وان كلا من الطرفين المتحاربين استعانوا بالنصارى . وكان مجاهد العامرى في صراع مع ابن أبى عامر بسبب السباق على ملك المرية بعد مقتل زهير العامرى حسبما نقدم (٢٦) .

والكاتب في هذه الرسائل التى احتفظ لنا 'س' بسام ببعضها يعيب على هؤلاء الأمراء الاستعانة بالنصارى ويحذرهم من ذلك حتى لا يقف هؤلاء الأعداء على عورات المسلمين ولا يعرفون مواطن الضعف عندهم ، اذ لو عرفوا ذلك واستعانوا بملوك النصارى الآخرين سواء في أسبانيا أو في

(٢٦) ابن بسام ، الفخيرة ، ق ١ ، د ٢ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٤٥٤ = ٤٥٩ .
الملقشندى ، صبح الأعشى ، د ٥ ، ص ٢٥٣ .

غيرها واتوا لمحاربة المسلمين ، حينئذ لا يمكن مقاومتهم ، ولا بد أن ينتهي الأمر باخلاء الجزيرة من المسلمين . ثبأ كاث القرن الخامس الهجرى بما حدث فعلا بعد عدة فزون ، ولم يكن هذا الا سبب تلك الأحقاد والصراعات العقيمة على السلطة ، والاستعانة بنصارى الشمال ضد بعضهم البعض (٢٧) .

أما عن الصراعات والحروب التى اندلعت بين ملوك الطوائف فائنا نذكر منها ذلك الصراع الذى نشب بين بنى زيرى أمراء غرناطة وبين حكام المرية وخاصة خيراء الصقلنى الذى أتى مع المرتضى وهرم عام ٤٠٩ هـ ، وزهير الذى حكم المرية بعد موت خيراء عام ٤١٩ هـ . وكان زهير قد طمع فى ملك غرناطة ، لكن باديس بن حبوس أمير غرناطة هزمه وقتله عام ٤٢٩ هـ ، واستولى على المرية معن بن صمادح غدرا من يد صهره المنصور عبد العزيز بن عامر . وقام الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة ببناء بعض الحصون لمحاصرة ابن صمادح ، ولما تبين له ضعفه ، هدم تلك الحصون وصالحه واستألفه ، لأن جاراً ضعيفاً خير من جار قوى لا يمكن العيش بجواره حسبما اعتقد أمير غرناطة (٢٨) .

وكان هناك صراع آخر بين بنى زيرى الصنهاجيين حكام غرناطة وبين بنى عباد حكام أشبيلية ، وكان بنو عباد فى حرب مستمرة مع هؤلاء البربر من صنهاجة وقاموا بالابتناع بين بربر زنانه فى قرمونه وبين صنهاجة وذلك حتى يصمدوا لتلك القوة الكبيرة التى شكلها بنو حمود وبنى زيرى فى جنوب الأندلس . واستطاع بنو عباد قتل خليفة بنى حمود يحيى المعلى فى كمين عام ٤٢٧ هـ ، ولما حاول بنو عباد الاستيلاء على قرمونه وأشبونة واستحى ، أرسل حكامها من لابرير الى بنى حمود وبنى زيرى الذين أسرعوا لنجدتهم ، ومكنوا من هزيمة جيوش بنى عباد وقتل قائده اسماعيل بن عباد عام ٤٣٠ هـ (٢٩) .

(٢٧) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، د ٢ ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٢٨) ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٨٩ ، ٩٠ .

(٢٩) ابن حيان مرواية ابن بسام ، الخيرة ، ق ١ ، د ١ ، ص ٢٧٢ .

ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ١٠٤ .

استمر الصراع بين الفريقين حتى استولى بنى زيرى على مالقة وقضوا على بنى حمود عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، ثم استطاع بنو عباد الاستيلاء منهم على جيان عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، فاضطر أمير غرناطة للاستعانة بقوات الفوننش السادس ملك قنستالة . لكن المعتمد بن عباد أرسل وزيره ابا بكر بن عمار الى الفوننش السادس وعقد معه حلفا ضد غرناطة نظير خمسين ألف دينار . وكان ابن ذى النون أمير طليطلة قد توسط لدى الفوننش حتى يرضى بمحالفه غرناطة ، ويتمكن هو من الاستيلاء على قرطبة ، وقد أراد الفوننش ان يصعد الخلاف ويكرس العداوة بين المسلمين فحالف غرناطة ، وترك ابن ذى النون يستولى على قرطبة عام ٤٦٢ هـ . وكانت قرطبة فى الواقع تحت سيطرة بنى عباد (٣٠) .

ولما أسرع بنو عباد لانتفاذ قرطبة من يد ابن ذى النون وكان كلاهما يستعين بالنصارى المرتزقة ، أدرك الأخير صعوبة بقاءه على حصار قرطبة وعاد الى طليطلة ، وانهز بنو عباد الفرصه واستولوا على قرطبة من يد حلفائهم بنى جهور ، وان كان ابن عذارى يقول ان ذلك تم باتفاق أهلها مع بنى عباد ، بسبب سوء سيرة عبد الرحمن الذى كان أبوه أبو الوليد بن جهور قد تنازل له عن حكم المدينة . وتم القبض على بنى جهور ، أما شيخهم أبو الوليد فقد اخبأ فى مقصورة هو وبناته ونساؤه فاقترحها عليه قوم من النصارى وجردوهم مما معهم ، وتم نفيهم الى جزيرة شلطيث . وهكذا انتهى ملك بنى جهور فى قرطبة على يد بنى عباد عام ٤٦٧ هـ (٣١) .

وكانت علاقته أشبيلية بجيرانها من بنى الأفطس حكام بطليوس سيئة أيضا ، بسبب الصراع على مدينة لبلة التى تقع بينهما ، وقامت الحروب:

(٣٠) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧٦ ، ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، د ٢ ، ص ١٢٤ .

(٣١) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، د ٢ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، د ٣ ، ص ٢٥٨ - ٢٦١ .

ابن سعد ، المصدر نفسه ، د ١ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

بسبب ذلك . واستعان بنو الأمتس بنى جلدتهم من البربر حكام قرمونة ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م وقتل أمير قرمونة كما قتل عبيد الله الخراز صاحب بابة وابن عم حاكم بطليوس ، ونجا ابن الأمتس نفسه بصعوبة بالغفة ، وبلغ عدد قتلاه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف ، وكانت الخسارة كبيرة لدرجة أن بطليوس بقيت مدة من الزمن خالية من سكانها إلا من الشيوخ والأطفال والنساء (٣٢) .

وانتقم ابن الأمتس لنفسه من بنى عباد بطريقة غير شرعية ، لكنها تدل على روح العصر وعلى مساعدته من صراع لا يحكمه أى مبدأ من مبادئ الأخلاق . ذلك أنه فى عام ٤٢٥ هـ / ١٠٣٤ م سمح عبد الله بن الأمتس أمير بطليوس لجيش بنى عباد أن يمر عبر أراضيه لقتال مملكة ليون ، وأثناء عودته هاجمه ابن الأمتس بغتة ، وقتل من جنود أشبيلية عددا كبيرا ، وفر اسماعيل بن عباد ونجا من الموت بصعوبة ، ومنذ ذلك الحين تأصلت العداوة والبغضاء بين بنى عباد وبنى الأمتس (٣٣) .

وكان هناك صراع بين بنى ذى النون البربر حكام طليطله ، وبين بنى هود الجذاميين العرب حكام سرقسطة ، ودانية (بعد أن استولوا عليها من على ابن مجاهد العامرى) وطرطوشة (بعد أن مات صاحبها لبيب ثم متاتل الفتى العامرى) . وكان الصراع بين بنى ذى النون وبنى هود بسبب تنافسهم على اهتلاك مدينة وادى الحجارة ، ولما استولى عليها سليمان بن هود قامت قيامة المؤمن بن ذى النون ، واستعان بنصارى الشمال ، ودعته الضرورة أيضا الى محالفه المعتضد بن عباد والدخول فى دعوته لخلف الحصرى المشبه بهشام عام ٤٣٦ هـ (٣٤) .

ازاء ذلك استعان ابن هود بملك آخر من نصارى الشمال ، واستطاع أن يعث فى طليطلة وأعمالها ، وأن يدمر زرعها ، فأرسل اليه أهلها يطلبون

(٣٢) ابن حبان نرواية ابن مسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، د ١ ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٣٣) ابن عدارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٣٤) ابن بلقسين ، مذكراته ، ص ٧٧ ، ابن عدارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ،

ص ٢٢٤ ، ٦٧٧ .

الصلح ، فمظاهر ابن هود بمواقفتهم الى ما طلبوا ، تم لم يلبث أن سار هو وحلفاؤه من النصارى ، واحتلوا مدينة سالم التابعة لبنى ذى النون ، وساعده على ذلك عبد الرحمن بن اسماعيل بن ذى النون الذى كان بنازع اخاه يحيى صاحب طليطلة فى حكمها . ودامت المنة بين ابن هود وابن ذى النون من عام ٤٣٥ هـ الى آخر عام ٤٣٨ هـ ولم تنقته الا بوفاة سليمان بن هود . ولما زال خطر سرقسطة عن طليطلة ، بدا اميرها يسند لمنزلة ابن الأقطس صاحب بطليوس وبنى جهور أصحاب قرطبة (٣٥) .

وما أن أحس بنو جهور بذلك حتى عقدوا حلفا مع أمراء بطليوس واتسليه دسد بنى ذى النون أمراء طليطلة ، وحالف هؤلاء بدورهم مع بالنسية ومع قنستالة النصرانى ، واستطاعوا أن يوقعوا بقوات قرطبة ، لكن العباديين أنقذوها واسبولوا عليها حسبما تقدم ، وعاد الطليطليون مهزومين عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م (٣٦) .

وقام الدور الثانى من الصراع بين بنى عباد فى عهد المعتمد بعد وفاة والده المعتضد عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م وبين المأمون بن ذى النون ، وكانا أقوى ملكين فى الأندلس فى ذلك الوقت بعد أن حطمت الحروب الأهلية الدويلات الاسلاميه الأخرى . ولما رأى المأمون أن اشبيلية مشغولة بحروبها مع بنى حمود وبنى زيرى ، وأن بنى الأقطس يقتتلون فيما بينهم على كرسى الحكم عقب وفاة محمد بن عبد الله المظفر ، وأن بنى هود حكام سرقسطة يتسبكون مع جيرانهم النصارى فى حروب دموية مسمرة ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، وانقض على العامريين أصحاب بدمير ومرسية وانتزعها منهم ، وكان هؤلاء حلفاء لبنى عباد (٣٧) .

وما كاد المعتمد بن عباد يقف على فعله المأمون حتى أرسل وزيره اس عمار الى ريموند برنجار أمير قطلونيه (برشلونه) ، وحالفه على

(٣٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ - ٢٨٣ .

(٣٦) يوسف أشباح ، تاريخ الأندلس ، ص ٤٩ ، ٥١ .

(٣٧) يوسف أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

مساعدته ضد طليطله . وما ان وصل ريموند الى مرسية ، حتى وجد قوات طليطلة وبلنسية وقونقه ودانبسه ومربطر وشساطبه وشنتمريه الشرق والسهلة ، معاونها فرقة من المرتزقة من قشتالة وجليقية ، فأدرك استحالة الهجزم ، لكن قوات طليطلة وحلفاءها أجبره على دخول المعركة ، وهزمته هو وحلفاءه الأشبيليين هزيمة ساحقة ، واستولى المأمون على مرسية وأربولة وعدة مدن أخرى (٣٨) .

ولم يصيع المأمون وقته سدى ، اذ وجه بعد ذلك عدة جيوش تجاه سرقةسطة وبطليوس وجيان حتى لا يترك لها فرصة التحالف مع اشبيلية ، وانقض جيشه على قرطبة بغية ، فسقطت دون مقاومة ، ثم واصل جيش المأمون زحفه الى أسبيلية ذابها واقتحمها عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م ، منتهزا فرصة غياب المعتمد في حربه لننى زيرى في غرناطة . لكن المأمون أطل البقاء في أسبيلية حتى اختتم المعتمد حربه في الجنوب بنجاح ، وعاد الى عاصمته واسنردها منتهزا مرصه وفاة المأمون عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٦ م (٣٩) .

استمر الصراع بين ملوك الطوائف حتى سقطت طليطلة في يد الفونش السادس ملك قشتالة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، فأتوا اليه مهنيين ، يحملون الهدايا ويمعلنون الطاعة ، وبلغ من سخريه القدر أن احدهم كافأه الفونش على هدينه بقرد ، غصار بفخر به على سائر زملائه من ملوك الطوائف . وكان سقوط طليطلة بهذا الشكل المخدئ دليلا واضحا على فشل حكم ملوك الطوائف ونتيجة طبعيه لذلك الصراع الذى استمر بينهم ولم يهدأ لحظه واحدة (٤٠) .

٢ - الصراع الداخلى فى كل مملكة على الحكم :

ولم يكن ملوك الطوائف موفقين أيضا فى علاقاتهم مع شعوبهم أو فى سياساتهم الداخلية . ويبدو أنهم كانوا يقبضون على السلطان بأيد مرتعشة ،

(٣٨) يوسف أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٥٥ .

(٣٩) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

يوسف أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٤٠) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

اذ لم تنجح أسرة واحدة من الأسرات الحاكمة من الصراع الداخلى بين أفرادها على كرسى الحكم ، ولذلك لم يكن هناك استقرار سياسى يمكنهم من العمل لخير شعوبهم . وقد كان هناك أمل فى أن يقوم بنو حمود بصفقتهم أدارسة حسنيون من آل البيت ، أن يسدوا الفراغ السياسى الذى نجم عن تهاوى خلافة بنى أمية ، الا أن الصراع الداخلى بين أفراد الأسرة الحمودية لم يمكنها من تحقيق هذا الهدف .

فمن البداية وعقب مقتل أول خلفاء بنى حمود تنسازع ولداه يحيى وادريس مع عمهما على الخلافة ، وتبادلا حكم قرطبة عدة مرات ، وكان يحيى بن على بن حمود مؤيدا من البربر ، وعمه القاسم بن حمود مؤيدا من السودان . وتسبب هذا الصراع فى انفصال أشبيلية واستقلالها تحت حكم بنى عباد منذ عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، كما سقطت الخلافة الحمودية نفسها فى قرطبة ، وعادت الخلافة الأموية الهزيلة ثم اختفت ، وقام فيها حكم بنى جهور منذ عام ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠ م . واستمر الصراع داخل الأسرة الحمودية مما أضعفها وجعلها تسقط فى ايدى حلفائها من بنى ريرى حكام غرناطة عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٨ م . وفى العام التالى قام المعتضد بن عباد باسقاط الفرع الحمودى فى الجزيرة الخضراء . وبذلك انتهت دولة بنى حمود نتيجة لانقسامهم على أنفسهم ولضعف خلفائهم الأواخر (٤١) .

ولم ينج بنو زيرى أمراء غرناطة من هذا المرض أيضا ، اذ ظهر الانقسام بين أفراد الأسرة الزيرية عقب وفاة حبوس بن ماكسن الذى كان قد تولى حكم غرناطة عقب رحيل زاوى بن زيرى عنها فى عام ٤١٠ هـ . وكان حبوس قد قسم أعمال غرناطة على أقاربه وبنى عمومته من بربر صنهاجة ، حتى أصبح كل منهم سلطانا على ما يليه ، له أجناده وحكومته ، وكان حبوس يستشيرهم فى أموره ولا ينفرد بأمر دونهم . فلما توفى قام أحدهم وهو يدير بن حباسة وحاول الاستيلاء على مقاليد الحكم فى غرناطة من يد باديس الذى تولى الحكم بعد وفاة والده حبوس ، وعرف الوزير

(٤١) رجب محمد عبد الحليم ، دولة بنى حمود فى مالقة الأندلس ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

اليهودى ابن النفرالة بذلك ونصح باديس بأخذ المتآمرين بالحيلة ، حتى لا ينهار حكم بنى زيرى ، فقبل النصيحة وضرب المتآمرين بعضهم ببعض ، فخلص له الحكم (٤٢) .

ورغم ذلك كان باديس محتاطا لنفسه ولابنه بلقين فبنى له قصبة مألقة بعد أن استولى عليها من بنى حمود عام ٤٤٩ هـ ، بنيانا لم يقدر على مثله أحد فى زمانه ، وخبا فيها أمواله وجميع ما ورثه ، وجعله ذخرا لابنه إذا ما ساءت الأحوال فى غرناطة ، سواء بتآمر بنى عمومته أو بمحاربة ملوك الطوائف . كما أخذ أقاربه بالشدة والعنف ، فاذا أحس من أحدهم بما يريه ، حكم عليه بالنفى والمصادرة حتى لا يبقى لابنه بلقين من يناوئه بعد وفاته (٤٣) .

وقد أتت سياسة باديس بثمارها ، وحكم بلقين غرناطة بعيدا عن الصراع الأسرى ، وترك ولدين هما تميم وعبد الله ، وحكم الأول مألقة ، وتولى الثانى حكم غرناطة نفسها ، وكالعادة قام الصراع بين الأخوين ، وحاول تميم سلب مدينة المنكب من أخيه ، وقام عبد الله بحربه وحصاره ، لكنه لم يلبث أن عقد معه الصلح حتى لا تذهب به العداوة أن يفرط فى مدينته ويسلمها لأعداء بنى زيرى ، كما فعل عمه ماكسن من قبل بجيان ، واكتفى عبد الله بتأديبه وأخلى له قلعة جطرون بدل المنكب ، لأن رعبتها نصارى ، فهم على الحباد بينه وبين أخيه تميم . ورغم ذلك فقد قام تميم هذا بدور مخجل عند قدوم المرابطين ، إذ أنه شكاه أخاه اليهم وتسبب فى إضعاف مركز بنى زيرى والقضاء عليهم فى النهاية (٤٤) .

ولم يكن بنو ذى النون أسعد حظا من بنى زيرى ، إذ أن يحيى الماهون بن اسماعيل بن ذى النون (٤٣٥ — ٤٦٧ هـ / ١٠٤٣ / ١٠٧٤) خرج عليه أخوه عبد الرحمن وعمه (أرقم) . أما أخوه فقد حاول الاستيلاء

(٤٢) ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢٦ ، ٣٤ .

(٤٣) ابن بلقين ، المصدر نفسه ص ٣٦ ، ٤٣ .

(٤٤) ابن بلقين ، المصدر نفسه ص ٩٠ ، ٩٤ .

على السلطة من المأمون واتصل بأعداء البلاد من بنى هود حكام سرقسطة والثغر الأعلى ، ودلهم على عورات البلاد . أما عمه (أرقم) فقد كان أدبياً لامعاً ، فحسده ابن أخيه المأمون على ذلك وأظهر له البغض ، فخاف الأمير أرقم وهر إلى الثغر الأعلى ، ثم شد رحاله إلى فردناند ملك جليقية وحليف بنى هود ، الذين كانوا أعداء ابن أخيه المأمون بن ذى النون ، وأتى معه لمعاينة طليطلة والانتقام منها لما فعله حليفها شانجة ملك قشتالة بأرضى بنى هود ، ولينقم أرقم لنفسه من ابن أخيه المأمون (٤٥) .

وكان المأمون غائباً عن طليطلة ومقيماً بمدينة سالم حتى يمنع عنها هجوم بنى هود المتوقع ، وأدى الأمر إلى شراء أهل طليطلة حريتهم وحياتهم من فردناند (فردلند حسب الرواية العربية) بالأموال . واستطاع المأمون بعد ذلك أن يتخلص من عمه بالحيلة والخديعة ، إذ أنه دس إلى فردناند من أوعز إليه بأن أرقم ما هو إلا جاسوس لابن أخيه المأمون ، فقتله ، وخرج بذلك المأمون وقال « الحمد لله : هذه نعمة من جهين ، فقد عدو ، ووجوب ثار نطلب به » (٤٦) .

وكانت أسرة بنى هود ملوك سرقسطة والثغر الأعلى مثالا آخر للصراع الأسرى المقتب . ولم تع هذه الأسرة الدرس الذى نالت به حكم سرقسطة من يد بنى تجيب عام ٤٣٢ هـ / ١٠٣٩ م ، إذ أن صراعاً نشب داخل الأسرة التجيبية عام ٤٣٠ هـ ، انتهى بقتل أميرها واسنيلاء سليمان بن هود حاكم لاردة والملقب بالمنعم عليها . وارتكب سليمان المستعبر خطأ سياسياً عندما قسم بلاده على أولاده الخمسة قبل موته . وما لبث الصراع أن نشب بين الأخوة بعد وفاة والدهم ، واستطاع أحدهم وهو أحمد عماد الدولة المقتدر (٤٤١ — ٤٧٤ هـ / ١٠٤٩ — ١٠٨١ م) أن يسولى على أملاك أخوته عدا يوسف عماد الدولة المظفر صاحب لاردة (٤٧) .

(٤٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ، ابن سعد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(٤٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ، ابن سعيد المغرب ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(٤٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ ، ج ٤ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .
أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

وقد تسبب أسلوب أحمد المقتدر في اغتصاب أملاك اخوته ، أن كرهه الناس ومالوا الى أخيه يوسف المظفر . فحالف المقتدر ملوك أسبانيا النصرانية ضد أخيه حتى أنه تواطأ في إحدى المرات على قافلة تحمل الميرة والطعام نجدة لأهل نطيلة ، الذين كانوا قد أصابهم الجهد والغلاء ، ورأسلوا أميرهم يوسف المظفر يستنجدون به . وكان يوسف قد دفع الأموال لابن ردمير حتى تمر القافلة عبر أراضيه الى نطيلة ، لأنها لا يمكن أن تمر عبر أراضى أخيه المقتدر . لكن المقتدر بخسة ونذالة أرسل لابن ردمير من المال أضعاف ما أعطاه يوسف ، على أن يسمح له بمهاجمة القافلة ومن يحمبها من جنود يوسف . وانتهى الأمر بكارثة . إذ ضاعت القافلة وأخذ النصارى أغلب رجالها وجنودها أسرى وفتكوا بالآخرين (٤٨) .

وإزاء ذلك أحس الناس بأنه لا فائدة من بقائهم على طاعة يوسف ، ورأوا أنه لا أمان لهم الا بالاعتراف بطاعة أخيه المقتدر ، وانتهى الأمر بالقبض على يوسف وسجنه في قلعة روظة ، وظل بها سجيناً حتى مات أخوه المقتدر وتولى الإمارة ابنه يوسف المؤتمن (٤٧٤ — ٤٧٨ هـ / ١٠٨١ — ١٠٨٥ م) وتمكن يوسف المظفر من الفرار من سجنه ، ولجأ الى الفونش السادس ملك قشتالة عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م واحتفى به وما لبث أن مات عنده بعد قليل ، وأتى الفونش بجيوشه الى سرقسطة زاعماً أن المظفر كان قد تنازل له عن حقه المقتصب فيما كان يحكمه أثناء حباته ، لكن يوسف المؤتمن تمكن من هزيمة الفونش ، ونجا بامارته من هذا المأزق الخطير (٤٩) .

احتدم الصراع بين يوسف المؤتمن وبين أخيه المنذر ، وكانا قد اقتسما المملكة ، ورغم هذا استمر المنذر ينازع أخاه يوسف المؤتمن ، ثم ابن أخيه أحمد المستعين بن يوسف المؤتمن (٤٧٨ — ٥٠٣ هـ / ١٠٨٥ — ١١٠٩ م) . وكان كل من الطرفين يستعين بملوك النصارى في صراعه ضد

(٤٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٤٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

د حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١٠١ ، ١٠٣ .

الطرف الآخر ، مما نسب في ضعف حكم بنى هود لهذه المنطقة الهامة من الأندلس والتي كانت حاجزا بين المسلمين وما يليها من ممالك النصارى . وانتهاز الفونش السادس فرصه الصراع بين المستعبد وعيه المنذر وحاصر سرقسطة ، وكادت تسقط في يده لولا مفاجأته بنزول المراتبين بلاد الأندلس عام ٤٧٩ هـ ، فبقيت أسرة بنى هود في الحكم مدة أخرى حتى سقطت في يد النصارى عام ٥١٢ هـ (٥٠) .

٣ — فساد ملوك الطوائف :

وفي غمرة هذا الصراع الدامى على الحكم داخل كل أسرة من الأسرات الملكية التى توزعت الأندلس فيما بينها ، وبين هذه الأسرات بعضها البعض ، ازداد فساد الحكام والأمراء والملوك ، وقاسى الشعب الأندلسى فى ظل حكمهم كثيرا من ضرورب الاضطهاد والظلم ، فقد كان هؤلاء الحكام يعتبرون ممالكهم ضياعا خاصة يستغلونها كيفما يشاءون ويجعلون من شعوبهم عبيدا ليس عليهم الا الكد والكبح ودفع ما يطلب منهم من الضرائب الباهظة والغرامات الثقيلة ، حتى ساءت حال الرعية وبلغ الحال بالناس أن أكلوا البقل والحشائش ولبسوا الجلود والحصر ، وفر أكثرهم عن قراهم (٥١) .

وقد أدت هذه الحال الى أن قام الناس بيهلون الى الله بالخلاص من هؤلاء الحكام الظلمة ، وسجلوا ذلك على لسان كتابهم المعاصرين أمثال ابن حزم وابن حيان . فهذا ابن حزم يرفع يديه الى السماء ويقول « اللهم انا فنشكو اليك تشاغلي أهل الممالك من أهل ملنا بدنيهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عما قربب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم ، وبجمع أموال ربما كانت سببا فى انقراض أعمارهم وعونا لأعدائنا عليهم عن حياطة ملتهم ... الخ » (٥٢) .

٥٠) أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ١٥٥ .

الفلسندى ، صبح الأعنى ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ .

د. حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ١٠٢ .

(٥١) ابن حبان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٥٢) ابن حزم ، الرد على ابن الخزيلة اليهودى ، ص ٤٥ .

وقد وصل انسفال الحكام بأمورهم الخاصة عن الكوارث التي كانت تصيب المسلمين على أمدى نصارى الشمال درجة ندل على أنهم لم يكونوا حكاما بالمعنى المعروف ، بل زعماء أو رؤساء جماعات اعتبروا النسيب والأرض غنمة لا تستحق حتى مجرد العناية بها والذب عنها . فغد اغار فردناند ملك ليون على بطليوس ودمرها واستباح حريمها وفعل بها الأفاعيل ، وورد الخبر على المأمون صاحب طليطلة ، ولما دخل عليه وزيره ابن مثنى وجده شديد الاطراق والضيق ، فأخذ يفرج عنه معتقدا أن ذلك لما سمعه مما أصاب المسلمين في بطليوس ، لكن ابن مثنى ذهل عندما التفت إليه المأمون وقال له « الا ترى هذا الصانع الحقير الذى يتولى بنيان قصرى أنه لا يمتثل لأمرى وينغصص على لذتى ويستخف بامرئى » (٥٣) .

هكذا كان المأمون يهتم ببناء قصره ولا بهمه أن يذهب مسلمو بطليوس الى الجحيم . وقد أدى ذلك الى أن يقول ابن حزم عن هؤلاء الحكام « ان كل مدبر مدينة أو حصن فى شئ من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله ، وساع فى الأرض بفساد ، والذى ترونه عيانا من شتمهم الغارات على أموال المسلمين . . وضربهم المكوس والجزية على رقاب المسلمين ، وتسلبتهم اليهود لتحصيلها ، كل ذلك بموافقة رجال من أهل الفقه والدين المنافقين الذين لا بهمهم الا مصلحتهم الشخصية ، ليدل دلائله مؤكدة على ضروره التخلص من هؤلاء الحكام ، وقد أتت الفرصة عندما قدم المرابطون فطالبت الرعية فى صراحة ووضوح بضرورة عزلهم حتى يتخلصوا من هذا الظلم الذى عاشوا فيه ثمانين عاما » (٥٤) .

وقد أدى هذا الظلم فى جمع الأموال من الرعية ونحصيلها بغير الطريق الشرعى ، الى قول المعاصرين « أنه لبس فى الأندلس فى ذلك الوقت درهم حلال ولا دينار طيب يمكن القطع بأنه حلال عدا ما يستخرج من وادى لارده من ذهب » . وكان أسلوب الحكام فى جمع تلك الأموال من القسوة

(٥٣) ابن بسام ، الفخيرة ، ق ٤ ، د ١ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٥٤) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ١٧٣ ، ابن طليح ، مكراته ، ص ١٢٠ ، ٢١٠ .

ابن خلدون ، المعر ، د ٤ ، ص ١٥٨ .

والعنف أن فر الناس وتركوا ديارهم وقراهم حسما بقدوم . هذا في الوقت الذي كان فيه ملوك نصارى الشمال الأسباني يوزعون ما تصل اليه أيديهم من أموال ، سواء من الجزية المفروضة على المسلمين أو غير ذلك على رجالهم ، فكانوا يدخلون الكنيسة ويقسمها سلطانهم على رجاله بالطاس ، ويأخذ مثلما يأخذون ، وربما يتنازل عن نصيبه لهم ، وبذلك كانوا يصطنعون الرجال ، بينما كان سلاطين الأندلس يخزنون الأموال ويضيعون الرجال ، فكان للنصارى بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال ، وبذلك انتصروا وقهروا المسلمين واذلواهم^(٥٥) .

وكما كان التناقض بين ملوك الطوائف على الحدود وحياسة المدن والقلاع ، كان تنافسهم شديدا في بناء القصور ، والمنزهات وانقاذ الألقاب ، فهذا نقش عثر عليه بمدينة قونكة سجل عليه ألقاب إسماعيل بن ذى النون ووصفه بأنه « حسام الدولة أبو أحمد إسماعيل بن المأمون ذى المجدين بن الظاهر ذى الرئاستين » ولم يقنصر الأمر على ذلك فقد تلقبوا بألقاب الخلفاء حتى قال في ذلك بعض الشعراء : ^(٥٦)

مما يزهدنى فى أرض أندلس لقيب معتضد فيها ومعتمد
القب مملكة فى غير موضعها كالحمر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وفى الحقيقة لم تكن لهذه الألقاب قيمة ، وقد صرح بذلك المعاصرون وعابها عليهم ملوك الشمال ، لكنها كانت لازمة لاسدال مظهر العزة السلطانية والأبهة الملوكية على بلاط هؤلاء الحكام الذين غرقوا فى النعيم حتى الثمالة ، ويكفينا وصف حياة عبيد خصيين من عبيد آل عامر كانا يديران ساقية فى بلنسية ، ثم توليا أماره بلنسية وشاطبة زمان الفتنة ، وبلغت جبايتهما لأول ولايتهما مائة وعشرين ألف دينار سنويا ، فاتخذوا

(٥٥) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ١٧٥ ، الطرطوشى ، سراج الملوك ص ١٠٨ .

اس حيان برواية ابن عدارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٥٦) المقرئ ، نفع الطبيب ، ج ١ ، ص ٩٩ .

Levi - Provençal, Inscripciones, pp. 190, 191.

الساسن الزاهرة ، والروض الناضرة وأجريا بها الحياة المتدفقة وبغيا
القصور ، وانغمسا في النعم إلى قمم رأسبهما ، وأخلدا إلى الدعة ، وسارعا
في انهباب اللذة حتى أربيا على من تقدم وتأخر . وكان موكبهما يوم خروجهما
إلى المسجد للصلاة يوم الجمعة ، يفوق موكب مولاها المظفر عبد الملك بن
أبي عامر (٥٧) .

وكان ملوك الطوائف لا يتركون شيئا يدعمون به ملكهم ويظهر هيبتهم ،
إلا حرصوا عليه واغتنموه ، من ذلك بذلهم العطاء الوافر للشعراء والأدباء
واسرافهم في ذلك اسرافا لا مثيل له ، وعلى سبيل المثال فقد منح المعتمد
ابن عباد الشاعر عبد الجليل بن وهبون ألفين من الدنانير على بيتين اثنين
من الشعر ، بينما منح المعتصم بن صمادح قرية بأكملها للشاعر أبي الفضل
جعفر بن أبي عبد الله بن شرف البرجي ، عندما أتى إليه يشتكى من عامل
تلك القرية وأنشده رائيته الشهيرة التي مطلعها :

قامت تجر ذيول العصب والحبر ضعيفة الخصر والميناق والنظر

ولما بلغ منها قوله :

لم يبق للجور في أيامهم أثر إلا الذي في عيون الفيد من حور

قال له المعتصم : « لقد أعطيتك هذه القرية نظير هذا البيت الواحد ،
ووقع له بها وعزل عنها نظر كل وال » (٥٨) .

وكان كثير من ملوك الطوائف يقولون الشعر ويبرعون فيه . وقد
شغلهم ذلك وشغلهم حياتهم الخاصة عن سياسة ملكهم وإدارة حكمهم على
النهج السليم ، حتى قال البعض من المستشرقين أن عبقرية مسلمي أسبانيا

(٥٧) ابن خيان مروياته ابن عذاري ، المصنف نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٨ - ١٦١ .

ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ابن الكريبوس ، الاكتفاء ، ص ٨٩ .

(٥٨) ابن مسام ، للخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

بالشيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٩٧ ، ١١١ .

كانت من الطراز الأول ، لكن نبوغهم السياسى لم يبلغ الكمال . وماذا يفيد الشعر والأدب فى رد اعتداءات النصارى أو فى رد المظالم عن الرعية ؟ وبكى ما قاله أحد البدو حينما سمع نسرا وعرف أنه للمعتمد بن عباد فقال « اظن هذا الملك لم يكن له من الملك الا حظ بسير ، ونصيب حقير ، مهمل هذا الشعر لا بقوله من شغل بشيء دونه » (٢٩) .

أما المجون والخلاعة وشرب الخمر والاستغراق فى الملهات الجسدية والاكثار من الجوارى والنساء فكان قاسما مشتركا بين جميع ملوك الطوائف . فهذا هو المعتضد بن عباد ، يقولون عنه أنه « كان له كلف بالنساء وخلق فى اجناسهن فانتهى فى ذلك الى مدى لم يبلغه أحد نظرائه » ، وهذا ابنه المعتمد يقولون انه خلق ثمانمائة امرأة من امهات الأولاد وجوارى المنعة واماء الخدمة بالاضافة الى ولوعه بالخمر وانغماسه فى الملهات . أما بنو زيرى حكام عرناطة فكان الوزراء لا يرون وسيلة يشغلونهم بها حتى يستبدوا هم بالحكم والسلطان الا باغراقهم فى الملهات واشغالهم بالنساء اللاتى كثرن وكون فرقا ، كل فرقة منهن كانت تطمح فى ولاية من تربيته من أبناء السلطان حتى يكون لها الحظوة والغلبة ، فكثرت مؤامرات البلاط لهذا السبب (٣٠) .

وهذا هو يحيى المأمون ملك طليطلة الذى اشتغل بالخلاعة والمجون واكثر مهادة النصارى ومصانعتهم ، حتى يكون لديه منسج للهو واللعب واقتناص أموال الرعيّة . أما على بن مجاهد صاحب دانية فقد « طلب السلم وأغمد السيف وكانت همته فى خراج بجبيه ، ومتجر ينميّه » وكان بعض خلفاء بنى حمود يسيرون أيضا على هذا النهج فلم يقع يحيى بن على بن حمود قتيلا عام ٤٢٧ هـ الا لأنه نزل ميدان المعركة مخمورا لم يفق بعد من سكره . ولم يكن كل هذا التهلك الا نتيجة لضعف الوازع الدينى

(٥٩) بالنتيا ، المرجع نفسه ، ص ١٠٦ ، لوبيون ، حضارة العرب ، ص ٢٩٠ .

(٦٠) ابن الأبار ، الطه السيرا ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

ابن بلقيس ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

وضاع القيم الأخلاقية واستئثار أخلاق اللذة والمنفعة الشخصية بكل شيء (٦١) .

٤ - فساد طبقة الوزراء والموظفين :

وقد انتشرت البلوى بين الموظفين والحكام الصغار الذين أخذوا بدورهم بقتلodon ملوكهم وأمراءهم ، وبدلون بدلوههم في نهب الرعية وظلم الناس . وكانت هذه الطبقة من جامعي الضرائب ورجال الشرطة وغيرهم من الموظفين محل الشكوى ، وكثرت أوصانهم بأنهم « مرتشون انرار ظالمون فجار لا ايمان لهم ولا دين ولا ورع ولا يقين » ، وأنه يجب على القاضي أن لا يتركهم يظلمون الناس ويجب أن يكونوا تحت سلطانه ورقابته ، وعليه أيضا أن يدبر أمور الرعية مع السلطان الذي لا يجب أن يغلق بابه ويكثر حجابيه ، الى آخر تلك الآمال التي كانت تداعب عقول الناس في هذا العصر ، والتي لم تتحقق على الاطلاق (٦٢) .

ولم يكن هذا الانحلال والفساد قاصرا على صغار الموظفين بل انه كان ممثلا في أعلى منصب بعد منصب الملك أو الأمير ، وهو منصب الوزير ، وقد حفل هذا العصر بطائفة من الوزراء الذين يمكن أن نسميهم بالوزراء المفامرين . أشهرهم الشاعر ابن عمار وزير المعتمد بن عباد الأشبيلي . ويكاد يجمع معظم المؤرخين على أنه كانت له صلة خاصة بالملك ألفونس السادس ملك قشتالة وليون ، وأنه كان فيما يبدو صنيعة من صنائعه وأداة من أدواته يحركه لتسهيل منروعانه ضد ملوك الطوائف . وقد استعان به في الايقاع بغرناطة ، واعتمد عليه ابن عمار في حركته الانفصالية ضد المعتمد بن عباد (٦٣) .

(٦١) للمعنى ، عقد للجمان ، ق ٤ ، ١٩ د ورقة ٦٤٢ ، ٦٤٣ .

ابن سام ، الخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

ابن الكريبوس . الاكتفاء في أخبار الخلفاء . ص ٧٧ .

رحب عبد الطيم ، دولة بن حمود ، ص ١١٣ .

(٦٢) ابن عدون ، ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة ، ص ٣ ، ٥ - ص ٧ ،

١٤ - ١٨ ، ٣٠ .

(٦٣) صلاح حالص ، المعتمد بن عباد ، ص ١٣٥ .

كان ابن عمار لا يعمل الا لمصلحته الشخصية معسديا في ذلك بحكام
وساسه عصره ، وقد ظهر ذلك أثناء حملته على مرسيه ، وبدل أن يخضعها
لحساب مليكه المعتمد ، استولى عليها لنفسه ، وأخذ بقول النسر في هجاء
المعتمد وأسرته ، وجلس للناس كما يحس الملوك ، وأظهر الاستخفاف
بالناس ، ثم دخل طليطلة كرسول من قتل الفونش السادس ، وبأمر مع
اشرافها في عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٣ م على النورة ضد ملكها القادر بن
دى النون ، وحرصهم على أن يحكموا أنفسهم ويعطوا الجزية لالمونش حتى
يتقوا شره . ولما أحس القادر بذلك قبض على المتآمرين وفر بعضهم الى
الفونش ، وفر ابن عمار وعاد الى سرقسطة (٦٤) .

ولم يتمكن من العودة الى مرسيه ، لأن مساعده ابن رثيق الذي كان
قد تركه في حكمها ، عامله بأسلوبه واغتصب حكم المدينة لنفسه ، واستولى
على ثروة ابن عمار وطرد أسرته من المدينة . وبذلك فشل ابن عمار سواء
في طليطلة أو في مرسية . فاتجه حينئذ لتقديم خدماته الى بنى هود حكام
سرقسطة ، فأثار فيها الفتنة أيضا ، وتمكن من اخماد ثوره في أحد الحصون
التابعة لبنى هود ، ولما حاول تكرار ذلك في قلعة شسقورة فشل وأسر
صاحبها وسلمه للمعتمد بن عباد ، وباع له القلعة أيضا ، وكان نصيب ابن
عمار المغامر الجريء القتل على يدى ابن عباد نفسه (٦٥) .

وهناك من أمثال ابن عمار ، وزير يهودى يسمى اسماعيل بن نغزالة
اليهودى ، وكان وزيرا لبنى زيرى الصنهاجيين حكام غرناطة . ولم يحدث
في دولة اسلامية أن صار أحد اليهود رئيسا للوزراء كما حدث في غرناطة ،
ذلك لأن التقليد الاسلامى لا يقبل ذلك مطلقا . لكن المدينة كانت غاصة
باليهود وكانوا كثره حتى سميت بأنها مدينة اليهود ، وكان هذا العنصر
لا يشره الى الولاة ولا بطمع في السلطان منلها يفعل العرب أو البربر .
زد على ذلك أن البربر أنفسهم لا يصلحون لنولى هذه المهمة فهم لا يفهمون
الا في الحرب وليسوا من أهل القلم أو من أهل الأدب ، كما أن العرب كانوا

(٦٤) ابن بلقين . منكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٦٥) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ ، ٨١ .

بأنفون من الخدمة نحت رئاسة أمير بربرى . لذلك اخذه بنو زبرى وزيرا
ومشبرا لهم (٦٦) .

وفى عهد هذا الوزير صارت لليهود صولة واشتد نفذهم وكثرت
أموالهم ، ولما أحس بقرب تغير نفس باديس بن حبوس ملك غرناطة عليه ،
بادر بتدبير مؤامرة بالاشنراك مع ابن صمادح صاحب المربة على أن تكون
للأخير غرناطة ، ويكون لليهود دولة بالمربة ، لكن بنى زبرى عرفوا بالمؤامرة
وقتلوا الوزير اليهودى وأجروا مذبة بشعة ضد بنى جلادته عام ٤٥٩ هـ (٦٧)

وكانت سياسة المغامرة هذه ، والاستئثار بالسلطة والعمل للمصلحة
الشخصية ، وراء النهايات المفجعة النى انتهت بها حياة معظم وزراء ذلك
العصر ، مثال ذلك ابن الحديدى فى طليطلة وقتله على يد القادر ، وابن
جحاف فى بلنسية وقتله للقادر ثم قتله هو نفسه على يد السيد القمبيطور ،
وابن السقا مدبر حكم آل جهور فى قرطبة ثم قتله ودفنه فى مسجده الذى
نهب وعطلت فيه الصلاة . وسماحة وزير الأبر عبد الله بن بلقين صاحب
غرناطة وصاحب المذكرات الرائعة التى سجل فيها أحداث عصره ، وقد شكا
هذا الوزير من قيام الأمير عبد الله بتسيير دفة الأمور بنفسه ، فنصحته أقرانه
باشغال الأمير بالنساء ، وانتهى الأمر بعزل هذا الوزير ونفيه الى المربة (٦٨)

وهناك أيضا ابن الريولة وزير على بن مجاهد صاحب دانية ، وقد تأمر
هذا الوزير على أميره وسلم المدينسة للمقتدر بن هود صاحب سرقسطة ،
فكفأه ابن هود بأن عينه وزيرا له . ولما مات المقتدر (٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م)
شعر ابنه يوسف المؤتمن بتأمر هذا الوزير مع الفونش السادس مقتديا فى
ذلك بابن عمار ، حتى يصير له ما صار لابن عمار من نفوذ وسلطان وأموال ،
فعاجله المؤتمن بالقتل ، وهناك أيضا الوزير الصقلبى نجاء وزير بنى حمود

Dozy, op. cit. p. 608.

(٦٧) آبن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٦ .

المقرى ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٠٨ .

(٦٨) ابن حيان برواية ابن سمام ، الفخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٩١ .

ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣ .

الدى رام أن يقضى عليهم ويسنولى على الدولة ، وكان مصيره القتل على يد
البربر عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م (٦٩) .

هـ — انتشار العيوب الخلقية والاجتماعية والاقتصادية بين أفراد الشعب :

وإذا كانت هذه هى أخلاق الحكام والملوك والوزراء والموظفين فماذا
نتوقع من جماهير الشعب المغلوبة على أمرها ؟ لا بد أنه سفسود فيها نفس
الأخلاق والعيوب والرذائل ، والناس على دين ملوكهم كما يقولون ،
فانتشرت الإباحية وشرب الخمر بين أفراد الشعب ، حتى كانت الخمريات
هى أكثر فنون الشعر ذيوعا بين شعراء الأندلس ، وقد أمحش أحدهم فى
وصفها وذكرها حتى قطع الحاكم لسانه ، وكان كثير من الناس يقضون
لياليهم أيقاظا يجتمعون على الكؤوس حتى الصباح لدرجة أن بعض من وقد
على الأندلس من المشاركة اشتكى من عدم استطاعتهم النوم هناك . ورغم
ما فى هذا القول من مبالغة واضحة إلا أنه يدل على سوء الحال (٧٠) .

أما الإباحية والرذائل الخلقية فقد انتشرت انتشارا رهيبا حتى أننا
نرى ولادة القرطبية بنت المستكفى الأموى ، والتي عاشت عصر ملوك
الطوائف ، وكانت أديبه لها باع طويل فى الأدب والشعر ، وتقيم ندوة
يجتمع فيها مشاهير الأدب والشعراء ، كتبت بالذهب على رداؤها : (٧١)

أنا والله أصلح للمعالى أمشى مشيتى وأتبه فيها
وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتى من يثسيتها

وقد بلغت الإباحية والاسنخفاف بالدين أو النزوع منه نهائيا ، أن
عشق إبراهيم بن سببار النظام رأس المعتزلة فى الأندلس فنى نصرانيا

(٦٩) ابن بلقن ، مذكراته ، ص ٧٧ ، ٧٨ ، رجب عبيد الطيم ، المرجع نفسه ،
ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٧٠) ابن عبيدون ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٣٦٩ .
اميليو غرسيه عومس ، الشعر الأندلسى ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ .
(٧١) بركل ، مختارات من الشعر الأندلسى ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

ووضع له كتاباً في تفضيل التثليث على التوحيد تقرباً إليه . وهناك من مات من النسعراء لأنه لم يزل محبوبه من الفئسان . وكما يقول ابن خلدون « اذا تأذن الله بانقراض الملك من أمه ، حملهم على ارتكاب المذمومات وافتحال الرذائل وسلوك طريقها » ، وهذا ما حدث في الاندلس وأدى فيها أدى الى ضياعه (٧٢) .

كما انتشر الربا بين الناس الذين تحايلوا على منع الزكاة ، وقاموا باحتكار السلع والمواد الغذائية حتى يثروا على حساب الفير كما ائرى غيرهم من الحكام ، وجرحهم هذا الى اتقان تزييف العملة حتى أن بعض الناس كان يشترط قبل البيع والشراء أن يكون التعامل بنقود طيبة غير مغشوشة ، مما يدل على انتشار هذا النوع من الجرائم الاقتصادية . أما الرشوة والسمرة واكل أموال اليتامى ، والنجس والجبن والجهل والكذب وغش الأطعمة والأغذية ، وانتشار السرقات واللصوصية وغير ذلك من الرذائل والعيوب الاجتماعية ، فقد انتشرت بين الناس انتشاراً واسعاً حتى قال بعض المعاصرين « أن تلك الحال لا يصلحها الا نبى » (٧٣) .

وانعكس هذا كله في ميادين القتال بين مسلمى الأندلس ونصارى الشمال ورائنا النتيجة ، وهى أن زمام الموقف أصبح فى يد قشتالة وليون ، وأن المسلمين أصبحوا مجرد سجناء فى شبه الجزيرة ولن يطلق سراحهم

(٧٢) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٣٠ ، ابن عجدون ، المصدر نفسه ، ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .
ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، د ١ ، ص ١٨٢ ، السقطى ، آداب الحسبة ،
ص ٤٨ ، ٤٩ .

ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص ٨٠ ، ابن خلدون ، مقدمته ، د ٢ ، ص ٤٤٦ .

(٧٣) ابن حزم ، مداواة النفوس ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

ابن عجدون ، المصدر نفسه ، ص ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٠ .

ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، د ٢ ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .
ابن بشكوال ، الصلة ، د ١ ، ص ٢٥٨ ، السقطى ، المصدر نفسه ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

الا بالموت أو بالفرار منها الى ارض اخرى . وما كان هذا كله الا نتيجة لتلك العوامل وتلك السمات التي اتسم بها عصر ملوك الطوائف ، وهي سمات لا تتطوى الا على ضعف واضطراب سياسى واجتماعى واقتصادى ، شمل الأندلس من أدناها الى أقصاها . وبذلك فشل ملوك الطوائف فى قيادة الصراع ضد نصارى الشمال ، وكانت نتيجة فشلهم هذا هو ضياع بريشتر وطليلة وغير ذلك من المدن والحصون الى الأبد ، وضياعهم هم أنفسهم بعد ذلك حينما قدم المرابطون عام ٤٧٩ هـ وراوا بأعينهم مدى التفسخ الذى أصاب هذا النظام فقتلوا عليه غير آسفين انقاذا للبلاد والاسلام من الضياع .

ثانياً — ظروف أسبانيا النصرانية وأحوالها المؤثرة

في علاقتها بالأندلس الإسلامية في عصر ملوك الطوائف

شهد القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى انقلاباً فى ميزان القوى السياسى والمسكرى لصالح الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا . وفى الفصل السابق وضعنا أحوال ممالك الطوائف فى الأندلس وبيننا عوامل الضعف التى جعلت تلك الممالك تدفع الجزية للوك الأسبان ، وتستعين بهم فى صراعها ضد بعضها البعض ، مما هيا الفرصة لكن يسيطر أسبانيا النصرانية على الأندلس الإسلامية حتى وصول المرابطين عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م .

ولا بد أن أحوال ممالك أسبانيا النصرانية كانت تسمح لها بذلك النفوق ، ولا بد ن هناك عوامل أتاحت لها تلك السيطرة . وأن من يلقى نظرة عابرة على خريطة أسبانيا النصرانية ، يظن أنها كانت ممالك منقسمة على نفسها ، وأن قشتالة وليون ونبرة وأرغونة كانت تتصارع فيما بينها طوال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . لكن الواقع أن الوحدة كانت يجمعها طوال معظم ذلك القرن . فملك قشتالة كان ينجح فى الغالب فى ضم ليون الى مملكته — وربما يحدث العكس وتضم ليون مملكة قشتالة — ثم يسيطر سلطانه على نبرة وأرغونة . وبذلك أصبحت تلك الممالك الأربعة جبهة واحدة أمام ممالك الطوائف المسعددة المتطاحنة . وكانت هناك مملكة قطلونية (برشلونة) الفرنجية ، وكانت تتنافس أحياناً مع ملوك قشتالة لكنها كانت تسير فى نفس الخط فيما يتعلق بالعلاقة مع ممالك الطوائف ، فالكل كان هدفه ضرب المسلمين وإخراجهم من البلاد ، يتبين ذلك من دراستنا لأحوال ممالك أسبانيا النصرانية ولعوامل القوة والضعف التى أثرت فى علاقتها بمسلمى الأندلس .

(١) أحوال ممالك أسبانيا النصرانية :

١ — مملكة قشتالة وليون :

كانت مملكة قشتالة من قوى دول شمال أسبانيا النصرانية في نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وكان يعيش فى بلاطها فى برغش شانجه (سانشو) ملك نبرة (نافار) ٣٩١ — ٤٢٦ هـ / ١٠٠٠ — ١٠٣٥ م لأنه كان طفلا وكانت أمه من أصل قشتالى . ولما كبر ملك نبرة زوجه شانجه غرسيه أمير قشتالة من ابنته (البيرة) . وعن طريق تلك المصاهرة ورث شانجه ملك نبرة إمارة قشتالة بعد أن تم اغتيال آخر أمرائها غرسيه بن شانجه بن غرسيه عام ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م دون أن يترك وريثا للعرش ، وعين شانجه الكبير ملك نبرة ابنه فرديناند (فرناندو) حاكما لها وأسبغ عليه لقب ملك ، فكان أول ملوك قشتالة (٤١٩ — ٤٥٨ هـ / ١٠٢٨ — ١٠٦٥ م) (١) .

وبذلك ولدت مملكة قشتالة ، تلك المملكة التى كان لها دور كبير فى الصراع مع الأندلس الاسلامية ، لكنه لم يتهيا لها هذا الدور الا بسبب قوتها وكفاحها مع جاراتها من ممالك أسبانيا النصرانية طلبا لوحدة الجبهة النصرانية ضد مسلمى الأندلس . وكان أول عمل قام به فرديناند الأول ملك قشتالة هو ضم مملكة ليون بالقوة وتوحيد الملكتين فى مملكة واحدة . وكان فرديناند قد تزوج من أخت برمند (برمودو) الثالث آخر ملوك ليون وجليقية ، لعله بصل الى عرشها عن طريق هذه المصاهرة كما حدث مع قشتالة ، الا أنه لم يصبر حتى يموت برمودو ، وقام على رأس قواته بمساعدة ابنه شانجه الكبير ملك نبرة ، وانفتحها وأعلن نفسه ملكا عليها ، وفر برمند الثالث ينتظر فرصة يعود فيها الى عرشه (٢) .

(١) اشياخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١١ .

(٢) عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٧٧ .

انظر الفصل الثانى من الباب الثانى ،

(٣) عنان ، المصدر نفسه ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

ولما توفي شانجه الكبير في عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م ، استطاع برمنند الثالث أن يسترد جزءا من أملاكه ، وأن يقيم في بلاطه ، واثارت بينه وبين صهره فرديناند ملك قشتالة الحرب ، واستمرت مدى عامين . ثم تم اللقاء الحاسم بينهما في موقعة تامارون عام ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م ، وفيها لقي برمنند مصرعه ، ونظرا لوفاته دون عقب ، فقد استولى فرديناند على مملكة ليون بحكم المصاهرة والوراثة ، وغدا ملكا في قشتالة وليون الموحدة ، وانتهى بمقتل برمنند الثالث انتهاء نسل ملوك ليون وجليقية الذين استمروا يحكمون تلك المملكة منذ أن قامت في أوائل القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي (٤)

وبذلك تمت أول وحدة في التاريخ بين مملكة قشتالة ومملكة ليون التي كانت تشمل أيضا جليقية وإسترس ، وصار الشمال الأسباني في منطقة الوسط والغرب تحت قيادة فرديناند . وكان هذا هو السر في تلك السياسة الناجحة التي قادها ذلك الملك ضد أعدائه من مسلمي الأندلس ، إذ أجرهم على دفع الجزية ، واستولى على كثير من مدنها ، وتمكن بمساعدة القوى الصليبية الأخرى من إسقاط مدينة بريشتير التابعة لمملكة مرسقطة الإسلامية عام ٤٥٦ هـ ، مما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد (٥) .

وتد أنار انشاع مملكة قشتالة على هذا النحو الحقد في نفس غريسه ملك نبرة ، وحاول أن يفزوا أخاه فرديناند ملك قشتالة وليون ، ولكنه هزم أيضا وقتل عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، وقام بنفس المحاولة أخوه راميرو ملك أرغونه ، لكنه هزم أيضا وقتل هو الآخر عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م . وهذا استطاع فرديناند أن يظفر في جميع الحروب التي خاضها ضد أخوته من ملوك نبرة وأرغونه ، وصار بذلك من أعظم ملوك أسبانيا النصرانية ، حتى أنه اتخذ لقب « القصر » كي يظهر أنه أصبح سيدا لأسبانيا كلها ، وحتى يمكنه من معارضة دعوى القصر هنري الثالث إمبراطور

(٤) عيان ، المصدر نفسه ، ص ٣٧٨ .

Levermore, op. cit., 101.

(٥) أشياخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ ، عيان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .
Holt, op. cit., p. 25 ' Livermore, op. cit., p. 103

الدولة الرومانية المقدسة في السيطرة على كل العالم المسيحي الغربي ولذلك تدخل في لعبة اختيار بابا رومة ، تأيد البابا اسكندر الثاني ضد منافسه هونوريوس الثاني الذي كان يؤيده امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (٦) .

وبذلك لم تكف مملكة قشتالة وليون بمد نفوذها على جاراتها من ممالك أسبانيا النصرانية وممالك الطوائف الأندلسية ، ولكن نفوذها تخطى حدود شبه الجزيرة حتى وصل الى مدينة رومة ، وصارت بذلك أعظم قوة يحسب حسابها على أرض شبه الجزيرة الأسبانية ، ومن القوى المحدودة في أوروبا الغربية . لكن فرديناند وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه أبوه سانجه الكبير من قبل ، وعمل قبيل وفاته على تقسيم مملكته المترامية الأطراف بين أولاده الثلاثة ، مما عرضها للضعف ولفترة من الحروب الأهلية (٧) .

فقد عقد فرديناند مجلس النبلاء والأساقفة عام ١٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م وفيه قرر بموافقتهم تقسيم المملكة على أن يخص أكبر أولاده سانجه بمملكة قشتالة وحق الجزية على مملكة سرقسطة ، ويخص أدفنش (الفونش السادس فيما بعد) بمملكة ليون وأستريس وحق الجزية على مملكة طليطلة ، واختص أصغرهم غرتسيه باقليم جليقية والبرتغال في غرب ليون ، وحق الجزية على مملكتي اشبيلية وبطليوس ، وأعطى فرديناند حق الاشراف على الأديرة في سائر المملكة لابنتيه أوراكه والبيره ، وخصت أوراكه بمدينة سمورة الحصينة وخصت البيره بمدينة تورنو (٨) .

وكانت قشتالة على هذا النحو أصغر في المساحة بكثير من مملكة ليون وأستريس ، كما كان نصيب أوراكه والبيره أقل بكثير مما كانا

(٦) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢١ - ٢٢ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٠ .
Livermone, op. cit., p: 101.

(٧) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٩ .

(٨) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٩ .
Livermone, op. cit., p: 103.

يستجقانه ، ومن شأن هذه القسمة الجائرة أن تنفضى الى الحرب الأهلية ، كما أن تلك القسمة فصلت مملكة ليون عن مملكة قشتالة ، وكان هذا خطأ سياسيا كبيرا من فريدناند . وقد استمر الوئام الظاهري بين الاخوة حتى مات أبوهم في العام التالي (٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م) وحتى ماتت أمهم الملكة سانشا بعد ذلك بعامين آخرين ، ثم بدأت الحرب الأهلية بين الاخوة على نحو مريع (٩) .

وكان شانجة ملك قشتالة يضطرم سخطا لأنه وهو اكبر اخوته ، لم يضع يده على مملكة أبيه كلها ، وكان يرى ان الولايات والممالك التي اختص بها اخوته كما لو كانت قد اغتصبت منه شخصا ، وصمم على مهاجمة مملكة ليون وضمها الى قشتالة بالقوة حتى تعود الوحدة بين قشتالة وليون مرة أخرى . ونسبت بينه وبين أخيه الفونش ملك ليون حرب ضروس ، خرب توديان ليون وقشتالة ، واستمرت ثلاثة أعوام ، التحم الفريقان أثناءها في موقعتين دمويتين ، الأولى في بلاننادا Plantada في ليون (رمضان ٤٦٠ هـ / ١٨ يولييه ١٠٦٨ م) ، والثانية في جلبيارش او جلبخيرة Golpejera الواقعة على نهر كاريون في قشتالة (شوال ٤٦٣ هـ / ١٥ يولييه ١٠٧١) ، وتكبد شانجه خلالها خسائر فادحة وهزم القشتاليون في المعركة الأخيرة وفروا تاركين خيامهم ، وأغضى الفونش ملك ليون عن مطاردتهم حثنا للدماء (١٠) .

ترك الفونش (الفونسو) جنوده يحتفلون بالنصر دون اتخاذ الحيطة والحذر ، ففوجئوا بهجوم شانجة من جديد حسب نصيحة قائده السيد القمبيطور ، وأوقع بهم هزيمة ساحقة ، وتمكن من أسر الفونش نفسه ، فنزل لأخيه شانجه عن عرش ليون ، وذهب بقيم في ظلمات دير ساهاجون . وهناك استطاعت أخته أوراكة المساكرة أن تدبر أمر فراره

(٩) أنسيانج ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(١٠) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ ، أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

برفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

Livermore, op. cit., pp. 105 * 106.

فلجأ الى ابن ذى النون صاحب مملكة طليطلة الاسلامية الذى استقبله بكل ترحاب وسرور ، واسضافه عنده حوالى ثمانية اشهر (١١) .

لم يقنع شانجه ملك قشتالة بما تم له من الاستيلاء على مملكة ليون ، بل اراد ان ينزع أخاه الصغير غرسيه عن ملك جليقية والبرتغال منتهزا فرصة الصراع الذى كان ناشبا بينه وبين نبلاء جليقية بسبب طغيانه وسوء سيرة وزيره . وما كاد شانجه يظهر على حدود جليقية حتى بادر الجميع الى لقائه والانضمام اليه ، ففر غرسيه وغاهر المملكة سرا الى اشبيلية حيث لجأ الى ابن عباد فى أواخر عام ١٠٦٤هـ / ١٠٧١ . وهكذا تم لشانجه ملك قشتالة الاستيلاء على مملكتى أخويه الفونش وغرسيه وتوحدت قشتالة وليون وجليقية تحت لوائه (١٢) .

لم يبق خارجا عن سلطان شانجه سوى مدينتى سمورة وتورو اللتين تحكمهما أختاه أوراكه والبيرة . وكان شانجه يحقد على أخيه هابن لعطفهما على أخيه الفونش ولأنه كان يخشى دسائسهما ومساعدتهما الخفية لاعادته الى عرشه ، فعول على الاستيلاء على المدينتين ، وتمكن من الاستيلاء على قلعة تورو ، لكنه سقط قليلا عند أسوار ملعة سمورة الحصينة على يد فارس طعنه بحربة وأرداه قتيلا عام ١٠٦٥هـ / ١٠٧٢ م ، ولم تكن هذه الجريمة بعيدة عن تدبير أخته أوراكه (١٣) .

ارتد جيش قشتالة عقب مقتل مليكه ، وبادرت أوراكه وأرسلت فى الحال الى أخيه الفونش المقيم فى طليطلة تنبئه بخلو العرش وبدعوه الى العودة بأسرع ما يمكن . وفى برغش اجتمع الأشراف وكبار رجال الدولة ، وواعقوا على بولى الفونش الحكم مكان أخيه ، على ان يقسم أنه برىء من دم أخيه ، وأنه لم يشترك بأى حال فى تدبير قتله . فنزل

(١١) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٠ .

(١٢) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٥ ، عنان المرجع نفسه ، ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

(١٣) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٢ .
Livermore, op. cit , p. 106.

الفونش عند رغبتهم ، وقام الفارسي رديجوديات (السيد القمبيطور) قائد الملك للقتيل ومستمثاره بتحليفه اليمين بنفسه^(١٤) .

وهكذا عادت المملكة الأسبانية الكبرى الى تماسكها ووحدتها ، كما كانت في عهد أبه ترديناند ، وخاصة بعد أن استطاع أن يأسر عن طريق الغدر والخيانة أخاه الثالث غرسية ، الذي كان قد عاد الى ملكه في جليقنه ، وزح به في حصن « لونا » في جمادى الثاني ٤٦٤ هـ / فبراير ١٠٧٣ ، حيث قضى هناك بتنه عمره حتى توفي عام ٤٨١ / ١٠٩٠^(١٥) .

وهكذا استطاع الفونش (الفونسو السادس) بالخيانة والجريمة والحرب أن يجمع الممالك الثلاث ، قشتالة ولجون وجليقية تحت سلطانه ، واستطاع بعد أعوام تلائل أن يضم الى مملكته الشاسعة بعض أراضي مملكة نبرة الواقعة على نهر أبرة . ثم تفرغ بعد ذلك لاستئناف حركة الاسترداد ومقال المسلمين ، وبوج جهاد نصارى الأسبان في هذا الميدان باسنيلايه على مملكة طليطلة أول صفر ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، رغم الصداقه والكرم الذي أبداه صاحبها الفادر بن ذى النون لذلك الملك الفادر ، حينما لجأ اليه فرارا من بطش أخيه شاذجه كما سبق القول . وحقق الفونش بذلك حلم النصارى في استرداد عاصمتهم القديمة وأصبح نصف شبه الجزيرة في أيديهم ، وصار تفرق أسبانيا النصرانية السياسى والعسكرى على الأندلس الاسلامة أمرا ثابتا ومطردا منذ ذلك الحين ، واتخذ هذا الك عاب القو لقب الامبراطور^(١٦) .

(١٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٥١ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ .

أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٣٦ ، برفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .
عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٤ .

Livermore, op. cit., p. 106.

(١٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٥١ ، ٥٢ ، أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٣٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٤ .

(١٦) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٧ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٢ .
Livermore, op. cit., p. 106, Hole, op. cit., p. 25

وهكذا نرى ان الاسرة النافارية القشتالية حكمت شمال اسبانيا كله ،
وأدارت الصراع ضد المسلمين بنجاح بعد ان حققت وحدة الجبهة
النصرانية ، ولم يكن ما قام بين أفراد تلك الأسرة من صراع على العرش
مستمرا ودا طبيعه عنصريه او قبله كما كان عند ملوك الطوائف ،
فكاد يخفى بمجرد سيطرة أقوى المصارعين ، وعادت الوحدة والقوة
والرغبة في قتال المسلمين بأشد وأعنف ما يكون . وكانت مملكه فثساله
وليون المحدة هى حجر الزاوية سواء فى الدعوة الى الوحدة او فى
قتال المسلمين .

٢ - مملكة نبرة (نافار) :

كانت مملكة نبرة من أكبر الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا سعة ،
اذ كانت تشمل فضلا عن الوطن الأصلى نبرة ، ولايات كنبرية وسوبراب
Cobrarbe وربما جورسه . وكان يحكمها فى أوائل القرن
الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، شانجه (سانشو) الثالث ،
الملقب بالكبير (٣٩١ - ٤٢٦ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٣٥ م) . وقد استطاع هذا
الملك ان يسطر سلطانه على أسبانيا النصرانية كلها عدا اماره برشلونه
اللى كانت تقع فى أقصى الشمال الشرقى ، والتى يسيطر عليها آل برنجير
النابعين اسما للوك الفرنجة فى فرنسا .

وكان شانجه الكبير قبيل وفاته عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م قد قسم
المملكة بين أبنائه الأربعة . فخص أكبر أولاده غرسه بالوطن الأصلى
نبرة ، وخص ثردبناند بقشتالة وضم اليه ليون وجليشنه بالقوة حسما رانيا
من قبل ، وخص ولده غير الشرعى راميرو برقعة ضيقة تمسك بحذاء
نبرة من باب سيزروا جنوبا ، وتشمل أعالي حوض أبره ، وتسمى بمملكة
ارغونة ، وهى مملكة تظهر للوجود لأول مرة وسيكون لها شأن عظيم
فيما بعد ، وخص ولده الرابع كونزالو بمنطقة صغيرة أخرى فى اواسط
اقليم البرنات وهى ولاية سوبراب وياجورسه (١٧) .

(١٧) اشناخ ، المرجع نفسه ، ص ١٢ ، غان ، المرجع نفسه ، ص ٣٧٨ .

وبهذه القسمة الجائرة بدأت سلسلة من الحروب الأهلية بين الإخوة الأربعة . وكان غرسيه ملك نبرة يضطرم حسداً ، وحققاً لرؤية أخيه الأصغر فرديناند يفوز بمملكة قشتالة وليون وجليقية الشاسعة ويطمح الى امتلاكها او امتلاك جزء منها ، وعول في ذلك على الفتك والغدر بأخيه ليرقى عرش اسبانيا النصرانية كلها ويوحدها كما فعل أبوه سانجة الكبير من قبل . وكانت الوحدة هي الضمان النوحيد لاستمرار ممالك أسبانيا النصرانية في الكفاح ضد مسلمى الأندلس ، خاصة وأن ممالك الطوائف كان الصراع قد بدأ فيها بينها ، وبدأت مظاهر انهيارها تبدو واضحة في الأفق ، وكانت فرصة سنحق أن يغامر ملك نبرة في سبيل توحيد ممالك الشمال الثلاثة نبرة وقشتالة وليون تحت سلطانه ، حتى يحقق حلم آباءه واجداده في السيطرة على كل شبه الجزيرة .

وبدا سانجة ملك نبرة بمحاولة الغدر بأخيه فرديناند ملك قشتالة وليون ، وأوعز اليه أنه مريض وأنه على فراش الموت وبود رؤيته . لكن فرديناند اكشف الحيلة وصمم على الانتقام من أخيه الذي نسي روابط الدم وحقوق الضيافة . ولم يفتن غرسيه الى أن أخاه قد وقف على مؤامره ، فلمسا دعاه فرديناند لزيارته بعد ذلك بأعوام قلائل ، ووصل غرسيه الى أرض قشتالة ، ثم اعتقاله وأسره ، لكنه استطاع الفرار وعاد الى نبره ، وتحالف مع أخيه راميرو ملك أرغونة ، وزحف لمقاتلة فرديناند مرة أخرى ، ووصل داخل قشتالة الى أتابوركا *Atapuerca* الذي يقع على مقربة من شرقى برغش عاصمة قشتالة ، حيث دارت رحى معركة انتهت بمقتل غرسيه عام ٤٤٦هـ / ١٠٥٤ م (١٨) .

ونتيجة لهذه الهزيمة استولى فرديناند على بعض النواحي الواقعة على ضفة نهر أبرى اليمنى في منطقة ريوخه *Rioja* وبوريا *Bureba* لكنه أبقى على مملكة نبرة واعترف بابن أخيه سانجة بن غرسيه ملكاً عليها باسم شابجه الرابع (٤٤٦ - ٤٦٨ هـ / ١٠٥٤ - ١٠٧٦ م) . وأعلن

(١٨) أشباج . المرجع نفسه ، ص ١٧ ، ١٨ ، علان . المترجم نفسه ، ص ٢٨٠ .
Livremore, op. cit., p. 101.

الملك الجديد الطاعة لعمه الظافر ، ثم لم يلبث أن عقد حلفا مع عمه ردمير (راميرو) ملك أرغونة في عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، خوفا على مملكته من أطماع عمه فرديناند ، وإن كان هذا الحلف موجها في الظاهر ضد مسلمي الأندلس ، واستطاع شانجه الرابع أن يستفيد من الصراع بين عميه ردمير وفرديناند في الإبقاء على مملكته (نبرة) ، رغم ما أبداه فرديناند من محاولة السيطرة على لقب «القيصر» للدلالة على سيادته على جميع أسبانيا النصرانية^(١٩) .

ثم تعرض شانجه الرابع ملك نبرة مرة أخرى الى اطماع ابن عمه شانجه ، الذي خلف أباه فرديناند في حكم قشتالة عقب وفاته عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م . وكان ملك قشتالة الجديد يرى أن يأخذ مكانة والده ، وأن يصير إمبراطورا لكل أسبانيا النصرانية حتى تتاح له فرصة المساهمة في الكفاح ضد مهالك الأندلس المتناحرة . ورأى هذا الملك أن يبدأ بابنى عميه شانجه الرابع ملك نبرة ، وتسانجه الأول ملك أرغونة . فتحالف هذا الملكان ضده وهزماه في موقعة فيانا عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م ، واضطر ملك قشتالة أن يوجه أطماعه شطر مملكة ليون حسبما تقدم ، وبذلك نجت نبرة من أطماعه^(٢٠) .

استمر شانجه الرابع ملكا على نبرة اثنين وعشرين عاما . وفي عهده توطد مركز المملكة بين جاراتها ، وأقر المفدر بن هود ملكا لسرقسطة وأن يدفع له الجزية في عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م ولم يمض على ذلك بضعة أعوام حتى قتل شانجه الرابع عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م في كمين غادر دبره له أخوه ريموند وأخته أرمندة ، أسوة بما فعله الفونس السادس وأخته أوراكه بأحيهما شانجه ملك قشتالة . وغضب النعمب لهذه الجريمة وقرر حرمان ذلك القائل من مولى عرش نبرة ، وأسدعى شانجه راميرز ملك أرغونة ليعتلى العرش بدلا منه^(٢١) .

(١٩) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٨ - ٢٢ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٨١ .

(٢٠) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٩ .

(٢١) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٥ .

Livermore, op. cit., p. 156.

ونتيجة لذلك استغاث ريموند بالملك الفونس السادس ملك قشتالة وليون كي يعينه على تولي عرش نبرة . غسار الفونس الى نبرة من ناحيتها الغربية ، وسار اليها شنانجة راميرز من ناحيتها الشرقية ، وتفاهم الملكان على اقتسامها وحرمان القاتل وكذلك ولدى القتل من تولي العرش . واستولى الفونس على القسم المحاذي لنهر ابره المشتمل على ولايتي ريوبا وبسكوينا ، واستولى شنانجة راميرز على الجزء الواقع في منطقة البرنات ، وفيه العاصمة نبلونة . وفر ريموند القابل الى امير سرقسطة حيث قضى هناك بقية عمره في غمرة النسيان^(٢٢) .

وبذلك اختفت مملكة نبرة المستقلة الى حين بعد أن اسنطاعت أن تزود عن استقلالها ضد اطماع ليون وقشتالة عصورا باصرار وبسالة . ولم تؤد دورها في الصراع ضد ممالك الأندلس في تلك الفترة كما ينبغي بسبب المنافسة التي نشبت بينهما وبين مملكة قشتالة على نبوا مركز القيادة والزعامة لكل أنحاء أسبانيا النصرانية . وادى اختفاؤهما في الوقت نفسه الى نمو مملكة أرغونة واساع رقعتها اتساعا كبيرا ، مما مكنها من أن تسقط مملكة سرقسطة الاسلامية ، وأن تلعب دورها العظيم في توحيد الجبهة النصرانية ، وقيادة الكفاح ضد مسلمي الأندلس^(٢٣) .

٣ — مملكة أرغونة Aragon : (٢٤) :

ظهرت ملك المملكة لأول مرة كما أثرنا من قبل نتيجة لتقسيم المملكة الذي قام به شنانجه الكبير على اولاده عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م وكانت تلك

(٢٢) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٧ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٦ .

(٢٣) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ٢ ، ص ٣٧٧ ، غنان ، المرجع نفسه .

ص ٤٠٦ .

(٢٤) كلمة Aragon عرّبها العرب على وجهين ، الأول (أرغون) ، والثاني (أرغون أو أرغونة) . وليس هناك مجال للخط بين أرغونة الدولة وبين مدينة أرغونة لمجرد التسمية اللفظي . فان أرغونة بلد ناحية جيان بالأندلس أي في النصف الجنوبي من أسبانيا . أما أرغونة فهي أقصى النصف الشمالي منها ، إذ تنصل حدودها الشمالية بجبال البرانس من غير ماضل . وأرغونة في الأصل اسم نهر يسحدر من ملك الحبال ويصب في نهر ابره .

المملكة الصغيرة من نصيب ابنه غير الشرعى ردمير (راميرو) (٤٢٦) —
٤٥٦ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٦٣ م) . وما لبث أن اتسعت مملكة أرغونة باتحادها
مع مملكة أو إمارة سوبراب الصغيرة بعد اغتيال ملكها كونزالو فى كمين.
دبره احد أتباعه عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م ، واختار أهلها ملك أرغونة
ليخلفه فى حكم المملكة . وبذلك صارت سوبراب وأرغونة مملكة واحدة ،
فزادت قوتها ، ولم يعارض تلك الوحدة احد من أخوة راميرو ، اذ كانوا
مشغولين بتنظيم شئون ممالكهم^(٢٥) .

ولم يقنع ردمير ملك أرغونة بالاستيلاء على ولاية سوبراب ، بل أخذ
يطمح الى الاستيلاء على مملكة نبرة نفسها وتحالف مع ابن هود ملك
سرقسطة لكن يمدّه ببعض قوّاته ، وزحف ردمير الى نبرة واقترحم
حدودها فجأة ، ولكن قلعة نافالا اعترضت سيره المظفر ، وانقض عليه .
أخوه غرسية بجيشه فجأة ، فانهزم جيش أرغونة ولم يتمكن ردمير من
الخلاص الا بصعوبة ، وفر ناجيا بنفسه ، وأبىد معظم جيشه عام
٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م على الأرجح^(٢٦) .

ونتيجة لهذه المعركة الخاسرة فقد ردمير معظم مملكته ، واضطر
الى أن تلجأ الى شعب الجبال الوعرة فى ريباجورسة وسوبراب ،
وقضى هناك بضعة أعوام فى تنظيم شؤونه والنهوض من عثرته ، وأنشأ
جيشا جديدا اسنطاع به أن يسترد كل أراضيه ، وتحالف بعد ذلك
فى عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م مع أخيه وعدوه القديم غرسية ملك نبرة حينئذ

يسمى واديه الأعلى باسمه الذى سرى فيما بعد على الأراضى الفسيحة والولايات الكبيرة التى
انضمت الى هذا الوادى ، وتالفت منها مملكة أرغونة وامتدت من حبال البرانس شمالا الى
جبال كونكة Uuñca جنوبا ، ثم الى طنسيه شرقا ، غير أنها لم تلتك على مر الأجيال .
أن تجزأت الى ولايات ومقاطعات ، نذكر منها مقاطعة وشقة ومقاطعة سرقسطة وغرهما . انظر ،
دائرة المعارف الاسلامبة ، المجلد الثالث ، ص ٣٧ .

(٢٥) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٣ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٢٦) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٤ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٧٩ .

ساعت العلاقات بين غرسية هذا وأخيه فريدناند ملك قشتالة ولبون .
وانضم للحليفين ابن هود ملك سرقسطة ، لكنهم هزهوا قرب برغش ،
وقتل غرسية ملك نبرة عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م (٢٧) .

لم ينس ردمير هزيمته أمام أخيه فريدناند ملك قشتالة ، وصمم على
الانتقام منه ، وتحالف مع ابن أخيه الذى حل محل أبيه فى حكم نبرة ،
ونظرا لخبرته عن اريباد قوة فريدناند ، فقد عقد مؤمرا فى مدينه جاقه
عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦٠ م ووضع نفسه تحت حماية بابا رومه ، ثم بدأ
التحرش بأخيه وانتهر فرصه غيابه لغزو اسبانية ، وسار لمهاجمة حلفائه
من المسلمين الذين كانوا يدفعون له الجزية . فأرسل فريدناند جيشا
قشتاليا زحف على قلعه جرادوس التى كان يحاصرها الأرغونيين ، ونشبت
بين الفريقين معركة على مقربة من تلك القلعه ، انتهت بهزيمة ردمير
ومقتله عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، فولى ابنه شائحة عرش أرغونة (٥٥) —
٤٨٧ هـ / ١٠٦٣ — ١٠٩٤ م) ، واستطاع بمؤازرة شعبه أن يحمى حدود
مملكته ضد النصارى والمسلمين على السواء (٢٨) .

ونتيجة لتطور الصراع بين مملكة نبرة ومملكة قشتالة وليون حسبما
تقدم ، استطاعت مملكة أرغونة أن تزيد من مساحتها وقوتها ، واستولت
على أجزاء من نبره حينما تم اقتسامها بينها وبين مملكة قشتالة ، فامتدت
مساحه أرغونه وبدأت تلعب دورها البارز فى تلك المنطقة ، وقدر لابن
سانجيه وهو المؤسس الأرغونى المعروف بالفونس المحارب ، أن يزوج
بن اوراخه ، ابنه الفونس السادس ملك قشتالة وليون ، وأن يرث تلك
الممالك الواسعة بسبب هذه المصاهرة . وبذلك تمكن من أن يحكم سائر
الممالك الأسبانية ويوحدها تحت لوائه ، ويفدو من أعظم ملوك اسبانيا
النصرانية (٢٩) .

(٢٧) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٧ ، عان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٢٨) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٨ — ٢٠ .

(٢٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، عان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٦ .

لكن هذا الصراع الذى نشب بين مملكة أرغونة منذ نشأتها عام ٤٢٦هـ
١٠٣٥ م ، وبين مملكة نبرة ومملكة قشتالة وليون ، لا شك أنه لم يمكنها من
أن تلعب دورا مؤثرا ضد ممالك الطوائف الأندلسية ، وهذا ما يفسر سر
التحالف الذى تم أحيانا بين أرغونة وبين سرقسطة ، كما يفسر سر
«بقاء سرقسطة رغم سقوط معظم الممالك الإسلامية المحيطة بها فى يد
نصارى قشتالة وليون .

ومع هذا لم تنس مملكة أرغونة دورها كقوة نصرانية ضد مسلمى
الأندلس بوجه عام ، اذ أنها اشتركت مع قشتالة وليون وسائر الممالك
النصرانية فى موقعة الزلاقة ضد مسلمى الأندلس والمرابطين معا عام ٤٧٩هـ/
١٠٨٦ م . وهذا معناه ان الصراع بين أفراد الأسرة النافارية القشتالية على
السلطان فى مختلف ممالك أسبانيا النصرانية لم يكن عائقا للكفاح ضد
مسلمى الأندلس كما اثرتنا من قبل ، اذ أن هذا الصراع كان لا يلبث أن
ينتهى وتستقر الأمور ، وتعود الوحدة ، وتعود معها القوة والرغبة فى
استئناف حركة الاسترداد من جديد .

هذا هو السر فى انتصار نصارى الشمال على مسلمى الأندلس وسقوط
بريشتر فى أيديهم وفى أيدي القوى الصليبية الأخرى عام ٤٥٦هـ / ١٠٩٣م
ثم سقوط طليطلة بعد ذلك فى أيديهم عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م . اذ أن نصارى
الشمال كانت تسودهم وحدة الصف فى تلك الأثناء . وكان من حسن حظ
الأندلس الإسلامية وقبوع الخلافات بين ملوك أسبانيا النصرانية بعض
الوقت خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، عقب
وفاة شانجة الكبير عام ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م ، وفريدناند عام ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م ،
«وقيام الصراع بين أولاد كل منهما على السلطان .

وقد أطلال ذلك الصراع عبر ممالك الطوائف وأعطى لها الفرصة
للأسف للناحر فيها بينهما ، وليس للوحدة والتضامن كما كان يفعل ملوك
أسبانيا النصرانية ، وبذلك لم يستفد ملوك الطوائف مما ومع بين ملوك
أسبانيا النصرانية من نزاع . وكان ملوك الأسبان هؤلاء ، اذكى منهم بكثير
اذا أنهم كانوا يتقاتلون فيما بينهم حتى ينتصر أقواهم ثم لا يلبثون جميعا أن

يسخروا قواهم لضرب المسلمين وتشتيت قواهم واستنزاف أموالهم والسيطرة على بلادهم .

٤ - امارة برشلونة : (قطلونية) :

كان يحكم هذه الامارة آل بوريل في اوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . وبدو أنه كان هناك تنافس بين برشلونة وبين قشتالة وليون على السيادة والسيطرة على مسلمى الأندلس . اذ أن كلا منها كانت تساعد فريقا من المسلمين المتنازعين على الخلافة الأموية في ذلك الوقت ضد الآخر . ولم يمنع هذا التنافس من أن تكون امارة برشلونة (قطلونية) عوناً لأسبانيا النصرانية في صراعها ضد مسلمى الأندلس ، وخاصة في عهد أميرها الكونت برنجار رامور الأول (٤٠٩ - ٤٢٧ هـ / ١٠١٨ - ١٠٣٥ م) وابنه رامون برنجار (٤٢٧ - ٤٦٩ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٧٦ م) (٣٠) .

وقد استنطاع رامون (ريموند) أن يزيد من قوة امارته ، بأن ضم إليها ولايه أرقله وولاية سرطانية ، ثم ولاية قرقشونة الواقعة في الناحية الأخرى من جبال البرنات (البرانس) عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م . وكان لضم هذا الجزء الهام من أراضى اقليم لانجدوك الفرنسى الى قطلونية نتيجة هامة ، وهى إعادة الصلة بين فرنسا وقطلونية بعد أن انقطعت منذ استقلال قطلونة ، والتمهيد بذلك لنزوح الفرسان الفرنسيين المغامرين الذين تحدوهم روح صليبية الى أسبانيا ، والالتحاق بالجيش النصرانية هناك لمقاومة المسلمين (٣١) .

وقام رامون أيضا بمعدة اصلاحات جعلت قطلونية مثالا يحتذى في شمال أسبانيا النصرانى ، اذ أنه عقد مجلسا من النبلاء في برشلونة عام

(٣٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٧ ، أشناخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ .

(٣١) أشناخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٧ .

٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، وأصدر هذا المجلس أو البرلمان قانونا جديدا ينظم الحياة الداخلية ، يسمى « بعرف برشلونة » ، Usages de Barcelona ، ليطبق الى جانب القانون القوطى . كما عقّد مجلسا آخر أقر فيه عدة قرارات لصالح الكنيسة وصالح الفلاحين وحمائهم من ظلم الأقوياء ، ولم يلبث رامون أن توفي وخلفه ولداه برنجار الثانى وريموند الثانى فى حكم الإمارة معا ، وفق الوصيته . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بينهما ، وانتهى الأمر بالامفاق على أن يتسمى كل منهما بكونت برشلونة وإن يتناوبا الحكم كل شتة أشهر . لكنه فى عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م قتل ريموند الثانى غيلة ، وحكم أخوه برنجار الإمارة منفردا ، بالأصالة عن نفسه ، ويصفه وصيا على ابن أخيه القاصر^(٣١) .

وقد لعب أمراء برشلونة فى ذلك الوقت الدور الذى لعبه معظم ماوك أسبانيا النصرانية فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض ، وفى مساعدتهم ضد أعدائهم من نصارى الشمال ، وذلك فى مجال المنافسة الذى كان قائما بين برشلونة وغيرها من ممالك أسبانيا النصرانية . ولكن برنجار أمير برشلونة إيماننا منه بمعركة النصرارى الكبرى ضد المسلمين ، اشترك مع قوات الفونس السادس فى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، الى جانب ملوك النصرارى الآخرين فى أسبانيا ، لأن انجهم كانوا يؤمنون بأنهم يهابلون فى معركة صليبية عامة^(٣٢) .

استمر الكونت برنجار الثانى أو (برنجر) فى حكم إمارة برشلونة حتى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، ثم ترك الحكم لابن أخيه الفنى ريموند الثالث (٤٨٥ — ٥٢٥ هـ / ١٠٩٢ — ١١٣١ م) وسافر حاجا الى المشرق . وحكم هذا الفتى تحت حماية الفونش السادس ملك قشتالة ولبن ، وتزوج من ابنة السيد القمبيطور وكان يلبث بالبرشلونى وأبدى فى محاربه مسلمى الأندلس والمرابطين مهارة فائقة ، خلدت اسمه فى التاريخ^(٣٣) .

(٣٢) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٩ ، عثان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٨ .

(٣٣) اشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٤٤ ، عثان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٨ .

(٣٤) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

وهكذا يتبين لنا انه في الوقت الذي كانت الممالك الاسلامية، في الأندلس غارقة حتى أذنيها في بحار الخلافات والأحقاد والحروب . كانت الممالك النصرانية في الشمال الأسباني تتجاوز كل خلافاتها باستثناء بعض الحروب الأسرية بسبب النزاع على العرش ، ثم لا تلبث أن توحد قواها وتلم شعثها لتحقيق الهدف الأكبر ، وهو طرد المسلمين من شبه الجزيرة .

ب - عوامل القوة والضعف :

يتضح لنا من هذا العرض السريع لأحوال ممالك أسبانيا النصرانية أن هناك عوامل قوة وعوامل ضعف أثرت كل منها في موقفها من ممالك الطوائف وعلى علاقاتها بهذه الممالك . وكانت عوامل الضعف هي ما اشرنا اليه من صراع ملوك أسبانيا النصرانية فيما بينهم على السلطان ، لكن مسلمي الأندلس لم يسنفدوا من هذا الصراع كما سبق القول بسبب التناحر فيما بينهم ، وضعفهم واستناعتهم بنصاري الشمال لمقاتلة بعضهم البعض . وبذلك ضاعت على المسلمين فرصة كان يمكن أن بنهزوها ليوحدوا جبهتهم وسردوا ما فقدوه ، لكنهم للأسف لم يفعلوا .

أما عوامل القوة في ممالك أسبانيا النصرانية فكانت أكثر فعالية وأبقى دواما واستمرارا من عوامل الضعف ، وهيات لنصاري الشمال الفرصة لفرض سيطرتهم على شبه الجزيرة كلها ، حتى قدوم المرابطين عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وهذه العوامل نكمن في ازدياد قوة الملكية ، وضعف طبقة النبلاء ، ودور الكنيسة الأسبانية والبابوية في اذكاء الحروب الصليبية على أرض شبه الجزيرة .

١ - ازدياد قوة الملكية :

نبتع ازدياد قوة الملكية في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي من أن ممالك أسبانيا النصرانية أصبحت تحكمها أسرة واحدة هي لأسرة شانجة الكبير ملك نبرة الذي توفي عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م ، بينما كانت

تلك الممالك في القرن الرابع تحكمها ثلاث أسر متصلة ، واحدة في نبرة ،
والثانية في قشتالة ، والثالثة في ليون ، بالإضافة الى برشلونة التي كان
يحكمها آل برنجار من قبل ملوك فرنسا . وراينا أن هذه الأسرات كانت
تعيش في حالة من الصراع والتناحر ، فكانت قشتالة تصارع جارتها نبرة
وليون حتى تفوز باستقلالها عنهما ، مما مكن الخلافة الأموية طوال القرن
الرابع الهجري / العاشر الميلادي من الضغط بعنف على ممالك الشمال
النصرانية واجبارها على الاستسلام ودفع الجزية .

لها في هذا القرن (الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) فقد
حكمت تلك الممالك ، أسرة واحدة من أصل نائاري قشتالي ، استطاعت
أن توحد ممالك الشمال ونخضعها لسيطرتها وتقود الكفاح ضد دول الطوائف
النهائية بعنف ومراساة بالغة ، حتى أخضعتها وأجبرها على دفع الجزية ،
وانقلب ميزان القوة كما قلنا لصالح أسبانيا النصرانية . وكانت وحدة
الجبهة النصرانية مسنمة معظم ذلك انقصر تحت حكم أشهر ملوك هذه
الأسرة النافارية ، مثل شانجة الكبير (٣٩١-٤٢٦ هـ / ١٠٠٠-١٠٣٥ م)
ملك نبرة ، الذي استطاع أن يوحد نبرة وقشتالة ، ويخضع ليون لسلطانه
عن طريق المصاهرة . ومثل ابنه فرديناند (٤٢٦-٤٥٧ هـ / ١٠٣٤-١٠٦٥ م)
الذي استطاع أن يوحد بين قشتالة وليون وجليقية ، وأن يخضع نبرة
وارغونه لسلطانه بعد فترة من الحروب الأهلية . وقام الفونس بن فرديناند
(٤٥٧-٥٠٢ هـ / ١٠٦٥-١١٠٩ م) بنفس العمل وأعاد الوحدة الى
المملكة كما سبق القول بعد فترة من الحروب الأهلية أيضا .

هذا في الوقت الذي كانت تحكم الأندلس الإسلامية ست وعشرون
أسرة ، أبرزها أسرة بنى عباد في اشبيلية وبنى ذى النون في طلبطلة ،
وبنى هود في سرقسطة وبنى الأفطس في بطنيوس ، وبنى حمود في مالقة ،
وبنى زيري في غرناطة . وكان أكثر تلك الأسر التي تعرضت لضغط مملكة
أسبانيا النصرانية ، هي التي تحكم مناطق الثغور في بطلبوس وطلبطلة
وسرقسطة ، بحكم اشتراكها في الحدود مع نصارى الشمال . وكانت هذه
الممالك الثلاث تتنافس للأسف فيما بينها ولا تنوانى عن القتال ضد بعضها
البعض وتستعين في ذلك بنصارى الشمال ، حتى ضعفت وأصبحت تمد لهم
يدا بالطاعة ، ويبدأ أخرى تحمل الجزية .

وليس معنى ذلك أن أسرة شانجة الكبير وأولاده وأحفاده الذين حكموا الممالك الأسبانية طوال ذلك القرن لم تقع بينهم خلافات أو حروب ، فقد شهد هذا العصر حروبا دموية نشبت بينهم لا تقل في عنفها عما كان موجودا بين ملوك الطوائف ، واستخدمت فيها شتى الأساليب وأخط الوسائل ، من قمار وخداع وغش وقتل ونفى واعتقال وحروب ، ويكفى أن ثلاثة من أولاد شانجة الكبير الأربعة سقطوا صرعى في حروبهم ضد بعضهم البعض ، بينما ابنه الرابع فرديناند الذى أعاد الوحدة الى المملكة تنازع أولاده الثلاثة أيضا بعد وفاته ، فقتل أحدهم وسجن الثانى حتى مات وهو يرسف في اغلاله .

وهذا دليل واضح على حدة الصراع بين أبناء الأسرة الواحدة ، وهم في ذلك لا يختلفون كثيرا عن ملوك الطوائف في صراعاتهم وأحقادهم ، لكن صراعات هؤلاء النصارى كانت صراعات أسرية ، معظمها ان لم تكن كلها بسبب النزاع على العرش والسلطان ، لأن هذا الأخ أخذ مملكة أكبر من أخيه ، ولأن ذلك أكبر سنا من أخيه وكان يستحق أن تكون له معظم المملكة . فكانت تنشبت الحرب بين الاخوة بسبب ذلك ، لكنها لا تلبث أن تنتهى بهزيمة أحد الطرفين واستسلامه لأخيه ودخوله في طاعته أو بقتله أو بنفيه . وعلى أى الحالات كانت السكينة تعود الى البلاد ، ونعود معها الوحدة وتعود معها القوة والرغبة في استئناف حركة الاسترداد من جديد .

أما في دول الطوائف فكانت الحروب مستمرة فيما بينهم ولم يكن هناك من يعمل لتوحيد الصف الإسلامى ، وانطلقت دعوة خافقة من بنى حمود العلويين وبنى جهور لاعادة الوحدة بين هذا الشتات من دول الطوائف ، لكنها لم تؤد الى نتيجة ، ولم يكلف أمراء المسلمين أنفسهم مشقة الاستماع لها ، وقال قائلهم « أحق الناس بالملك من استقل به » (٤٤) .

كان نصارى الشمال يحاربون بعضهم حتى يحققوا الوحدة لبلادهم ، ويقضوا على مظاهر الانفصال الذى كان بوقعهم فيه نظام وراثة العرش الذى كان يلزم الملك بتتسمم المملكة على أبنائه قبل وفاته ، تجنبنا لآى نزاع

(٣٥) ابن بسام ، الأخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١١١ ، ١١٢ .

قد يحدث فيما بينهم في المستقبل ، وكان ذلك هو السبب الرئيسي في النزاع كما رأينا عند دراستنا لأحوال ممالك أسبانيا النصرانية . أما في تول الطوائف الإسلامية ، فكانوا يتقاتلون ليس لتحقيق الوحدة كهؤلاء النصارى ، ولكن بهدف التوسع على حساب الغير . كانت الأطماع والأحقاد والشهوات والتنافس والحسد تملأ نفوس الجميع ، وكل منهم كان لا يتمنى إلا أن يقضى على جاره ويفوز بملكه ، ويستعين في ذلك بنصارى الشمال .

ورغم حروبهم الكثيرة لم يصلوا الى أى نوع من انواع الوحدة لأن عدد ممالكهم كان كبيرا (٢٦ مملكة) . ولا يمكن للقوة المحدودة لكل منهم أن تغلب على هذا العدد الكبير من الممالك وتحقق الوحدة لهذا الشأن . فضلا عن أن معظم تلك الممالك كانت وحدات اقتصادية لها حدود طبيعية وتقع وسط مناطق زراعية مستقلة ، ويمكنها أن تعتمد على نفسها وتعيش مدة قد تطول أو تقصر حسبما تنعرض له من تهديد جاراتها . وهذا بالطبع لم يكن موجودا في الشمال الأسباني . صحيح أنه كان يكون من أربع ممالك ، ليون وقشتالة ، ونبرة ، وأرغونة ، وبرشلونة ، إلا أن هذه الممالك كانت تحت سيطرة أسرة واحدة ، عدا اماره برشلونه ، وكانت تقع بينهما الحروب أحيانا لكنها كانت متحد في جبهة واحدة ضد مسلمي الأندلس ، كما أنها لم تكن مناطق جغرافية منفصلة ، ولم تكن وحدات اقتصادية يمكن أن تعيش بذاتها مثل دول الطوائف ، وإنما كانت عبارة عن أقاليم قاحلة فقيرة البرية قليلة المياه صعبة المناخ ، تجمع بينها حرفة الرعى ، ويندر فيها نوع الغلات والمحاصيل ، ولذلك لم يكن في إمكان أى واحدة منها أن تعتمد على نفسها وأن تستقل بثئونها طويلا ، فكانت تميل الى الوحدة مع جاراتها بحكم ظروفها الطبيعية والاقتصادية . فإذا أضفنا تلك الحقيقة الى كون أن ممالك أسبانيا النصرانية كانت تحكمها أسرة واحدة أدركنا على الفور مدى القوة التي تمتعت بها الملكية الأسبانية في ذلك الوقت ، مما أتاح لها فرصة التفوق على ممالك الطوائف المتعددة المتناحرة (١٥) .

٢٢ - ضعف طبقة النبلاء :

أما الدعامة الثانية التي كان يستند عليها نظام الحكم في دول أسبانيا النصرانية بجانب الملكية فهي طبقة النبلاء ومدى خضوعهم للعرش أو تمردهم عليه . وقد رأينا في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وفي ظل الأسرات الثلاث الحاكمة في نبرة وقشتالة وليون ، مدى النفوذ الواسع الذي تمتع به النبلاء في ذلك العصر ، ويكفي أن أحدهم وهو الكونت فرنان جونثالث ، أقام دولة قشتالة ، واستطاع أن يفرض شخصيته ونفوذه على جاريه ملكي نبرة وليون ، بل انه كان بحق كما سماه ستانلي ليون بول « صانع الملوك » (٤٦) .

هذا في ظل الأسرات الثلاث . أما في ظل الأسرة الواحدة التي حكمت شمال أسبانيا النصرانية في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فقد أصبح الوضع مختلفا . كان النبلاء في السابق يستطيعون أن يضرعوا الأمراء والملوك بعضهم ببعض ، ويستطيعون أن يقدموا خدماتهم لملك آخر إذا لم يتألوا ما يبتغون من ملكيهم ، وكثيرا ما تأمروا على ملوكهم وفرضوا من يرضونه للعرش . أما الآن وبعد أن أصبح حكم الشمال كله في يد أسرة واحدة فقد تم القضاء على نفوذهم الى حد كبير .

ونظرا للسلطات الضخمة التي كانت في يد النبلاء ، فقد استعان ملوك الأسبان برجال الدين الأقوياء وبالمخلصين من الشعب وأصحاب الاقطاع ، واستطاعوا الحد من هذه السلطات الى حد كبير ، كما قاموا بعدة اصلاحات مدنية وكنسية ، كان لها أثر كبير في اضعاف نفوذ هذه الطبقة . فقد ألغى الفونش (الفونسو) السادس « حق القوة » . وهو العرف الذي كان يسمح للقوى بأن يقتضى بنفسه ، وبالعنف ، ما يزعم انه حق له ، وفرض على الدوقات والقواميس أن يعاقبوا مرتكبي الجرائم دون تمييز أو محاباة ، نقضى بذلك على نشاط بعض النبلاء الذين كانوا أحيانا يمارسون عمليات

(٢٧٩) ليجن هول : هسه العرب في أسبانيا ص ٢١٥ .

الصلوصية ، كسرقة التجار والمسافرين. والحجاج تحت دعوى المكوس. والضرائب (٤٧) .

كما عقد ملوك الأسبان عدة مجالس Cortes تشبه المجالس. النيابة الآن ، من الأشراف والأساقفة ،. والزم الأشراف أور النبلاء بتحرى العدالة وفقا لأحكام الشرائع القوطية ،. وأن تطبق في مملكة ليون قوانين. الفونسو المسماة « القوانين الطيبة » Buenos Fueros وفي مملكة قشتالة تطبق لوائح الكونت سانشو المسماة bene Factorias ، وأن يقضى على المجرمين والعصاة من النبلاء وغيرهم بفقد الشرف والمناصب وبالطرد. من الكنيسة وبالنفي من البلاد (٤٨) .

وقد أدت تلك الإصلاحات والقوانين الى اضعاف شأن طبقة النبلاء ، ولم يمودوا مصدر خطر على الملوك كما كانوا في العصور السابقة . وزاد من ضعف هذه الطبقة ما حدث بينهم من انقسام وأحقاد . ذلك أن ظروف الصراع المستمر مع المسلمين ، وصراع الأخوة من ملوك اسبانيا النصرانية ، على العرش ، أجبرهم على الاسنعة بأولاد المزارعين وصغار الناس ، ورفعهم الى مرتبة « الفارس » فنحولون الى نبلاء . وكان النبلاء القدامى الذين كانوا يرثون النبالة عن آبائهم وأجدادهم يحتقرون هؤلاء النبلاء الجدد ويعادونهم ، ويعملون على القضاء عليهم ، فضلا عما كان يوجد من عدا بين نبلاء كل مملكة وأخرى . فعندما يرتفع شأن مملكة ، كان يرتفع شأن نبلائها ، وينخفض شأن نبلاء الممالك الأخرى . ومن هنا كانت نشور الأحقاد والعداوات . وكان الملوك يحولون أن يقتلوا من هذه الأحقاد ، حتى لا تكون عائقا في سبيل الوحدة وفي سبيل الكفاح ضد مسلمى الأندلس (٤٩) .

(٢٨) اشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٢٥ ، غان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٣ .
Livermore, op. cit., pp. 61-63.

(٣٩) اشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٦ ، غان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٧ .

(٤٠) د. حسين مؤنس ، السيد للقهبيطور ، ص ٤١ ، ٤٢ .

وعلى سبيل المثال ، فقد حدث عند اعتلاء الفونش السادس عرش قشتالة ، أن علا تجم طبقة الأشراف الليونيين ، لأن الفونش كان ملكاً على ليون قبل أن يحكم المملكة الموحدة ، وثار الاحتقاد بينهم وبين أشراف قشتالة . فبذل هذا الملك محاولة لإقامة الصلح بين أشراف ليون وقشتالة ، بأن قام بتزويج فارسه السيد القمبيطور من نبيله قشتالية حفيدة لأنونش الخامس ملك ليون الأسبق ، وأنه عم الملك الجالس على العرش (٢٠) .

وهكذا تعاونت العوائل التي أنشأنا إليها حتى الآن على إضعاف صفوف طبقة النبلاء ، مما مكّن الأسرة الحاكمة في أسبانيا النصرانية من أن تسيطر عليهم إلى حد كبير ، وأن توجههم إلى خدمة القضية الكبرى ، وهي استرداد الأرض ، وكان ذلك عامل قوة يحتسب لأسبانيا النصرانية في تلك الفترة ، مكّنها من إدارة الصراع ضد مسلمي الأندلس بنجاح .

٣ - دور الكنيسة الأسبانية والبابوية في الصراع مع مسلمي الأندلس :

وكانت الهيئة الثالثة التي كان لها وزنها في حساب عوامل القوة في « تاريخ الشمال النصراني في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي

(٤١) - بروفسال ، المرجع نفسه ، ص ١٧٩ .

Rodrigo

والسيد القمبيطور ، اسمه الأصلي رديجوديات دي ديمار

Diazde Vivar ، وتسميه المصادر الإسلامية لحريق أو رزريق ، ويرجع تلقيبه بلقب كمبيادور

Campeador

إلى فروسيته التي ظهرت في مباراة عقيمة مع فارس صافاري . وحاول

دوري أن يفسر هذا اللفظ بأنه البطل Champion ، لكن ابن عداري يقول أن

القمبيطور معناه « صاحب الفحص » واستنتج من ذلك الحضور حسين مؤنس أن لفظ Campeador

مأخوذ من Campus وهو الفحص ، ويقابل هذا اللفظ في اللاتينية Cmapldoctus

ومعناه قائد العاراف في بلاد الأعداء بينما بمول (توليد) أن الممبيطور معناه البطل باللعنة

المشنانة ، وهو في هذا ينفق مع دوري . وبسحق أن هذا هو الرأي السليم لأن الممبيطور

لم يكن صاحب فحص أو منطقة إقطاع يحكمها ، لأنه كان من النبلاء الأصغر ، ولم يكن إلا فارساً

من فرسان الملك . ولما ظهر بدوغة وشجاعته جعله فارس الحيش . أما لفظ (السيد أو السيد)

فقد أتى من مناداة المسلمين له « يا سيدي » عندما كان يخدم في جيوشهم ، وانتقل هذا اللفظ

إلى اللغة الأسبانية El Cid انظر ، حسين مؤنس ، السيد القمبيطور ، ص ٤٤ .

هي الكنيسة الأسبانية ، وتطور موقف البابوية. وازدياد تدخلها في شئون أسبانيا الدينية ، ومساعدتها لها في حربها ضد مسلمي الأندلس .

ومن المشكوك فيه أنه كانت توجد علاقة قوية بين أسبانيا النصرانية والكرسي الرسولي بعد سقوط أسبانيا في يد موسى بن نصير وحتى بداية القرن الخامس الهجري . إذ انشغلت البابوية في روما بصراعاها على السلطة الزمنية مع ملوك أوربا ، وانشغل الأسبان في صراعاتهم ضد مسلمي الأندلس . لكن تغير ذلك كله في القرن الخامس الهجري ، إذ أن شانجة الكبير ملك نبرة وصاحب الكلمة على شمال أسبانيا كلها ، أعاد فتح غربي شبه الجزيرة للتأثيرات الأوربية (٥١) .

مقد فتح أبواب مملكته للإصلاحات البندكتية ، وندفق الآباء الكلاونيون وافتتحوا كل المسالك المغلقة في ممالك قشتالة وليون وجلبقية وأشتريس ، وملأوا جميع أديرة أسبانيا ، ووصلوا إلى أسمى المناصب الكنسية ، حتى أن أحدهم وهو برنارد ، صار مطرانا لطليطلة ، ورئيسا للكنيسة المسيحية في أسبانيا كلها . ومن ثم فقد عمل هؤلاء الرهبان على توطيد السيادة البابوية في أسبانيا ، ودفَعوا حركة الاسترداد خطوات كبيرة إلى الأمام (٥٢) .

وقد استخدم ملوك أسبانيا النصرانية الكنيسة في بدعيم هيبتهم وإقرار نفوذهم على رعاياهم ، كذلك استخدموها في صراعاتهم ضد بعضهم البعض ، وفي صراعاتهم ضد المسلمين . فقد دعا فرديناند ملك قشتالة وليون في عام ١٠٥٠ م إلى عقد اجتماع كنسي في جويانيسا ، شهدته الأساقفة والتبلاء وأثر هذا المجمع الكنسي العمل بدعوة القديس بندكت في جميع الكنائس والأديرة ، وحصول الكنيسة على بعض الامتيازات ، كما أمر هذا المؤتمر سكان ليون وقشتالة بأن يلزموا الولاء والطاعة لفرديناند ، كما كان شأنهم من قبل مع الفونش الخامس وشانجة الكبير . وهكذا نرى أن الكنيسة كانت تعمل على توطيد هيئة السلطة الملكية على رعاياها ، وهذا

Livermore, op. cit., p. 105

(٥٢) برند ، أسبانيا والبرغال ، ص ٧٦

Chapman, op. cit., p. 86

(٥٣)

ما تؤيده أيضا القرارات التي صدرت في اجتماع شانت ياقب في عام ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م (٥٣) .

وقد لجأ ردمير (رامرو) الأول ملك أرغونة (٢٦ - ٤٥٥ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٦٣ م) الى استخدام البابوية والكنيسة في صراعه ضد أخيه فرديناند ملك قشتالة وليون . فقد عقد مؤتمرا في جاعة عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م ، تقرر فيه اعتبار جاعة مركزا أسقفيا ، وارسال عشر ايراد الدولة وعشر الجزية التي يحصل عليها من مسلمي سرقسطة وتطليطلة الى رومة . والظاهر أن الذي حمل ردمير على التزامه بهذه الجزية لرومة هو نخوفه من أخيه فرديناند ، اذ أصبح أرغونة بذلك تحت حماية زعيم الكنيسة العالمية ، وهي وسيلة لجأت اليها مملكة البرتغال فيما بعد لنحى استقلالها من مدوان قشتالة (٥٤) .

وقد زار ردمير ملك أرغونة رومه عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، وأعلن نفسه فارس القدس (بتر Peter) ، ثم أرسل البابا اسكندر الثانى سفيره الى أرغونة ، ليعمل على وضع جميع الأديرة تحت سلطة البابا ، وأن تحل الطقوس الرومانية محل الطقوس الأسبانية أو القوطية أو المستعربية . ونظير ذلك حصل ردمير من البابا على الاذن بأن يستعمل في محاربة المسلمين دخل الكنائس الواقعة في مناطق كانت تابعة للمسلمين . وعاد البابا جريجورى السابع وأرسل سفيره الى أسبانيا عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، لى يقرر حق البابا في تعيين الأساقفة ، وفرض الطقوس الرومانية في الصلاة . ورغم معارضة أهالى قشتالة لهذه الاجراءات ، الا أن الفونش السادس أعلن قبولها نظير موافقة البابا على طلاقه من زوجته أجنيسيا وزواجه من الأميرة كونستانس الفرنسية الأصل (٥٥) .

(٤٤) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٥ ، ١٦ ، عتق ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٧ .

(٤٥) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٤٦) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٢٧ ، مؤسس . بحر الأندلس . ص ٤٩٨ .

Livermore, op. cit., p. 106

وبزواج الفونش السادس من الأميرة كونستانس عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٩ م ، نشطت الحركة الكلوونية ، وازداد وفود الرهبان الفرنسيين على أسبانيا ازديادا كبيرا ، وأدى دير ساهاجون في قشتالة ورهبائه البندكتيون غيرة وحماسا شديدا في تحقيق أهداف البابوية في القضاء على مسلمي الأندلس . ولما حدثت هزيمة الزلاقة في رجب ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م عقد الفونش السادس مجمع طليطلة الدينى في رمضان ٤٧٩ هـ / ديسمبر ١٠٨٦ م ، وانتخب فيه هؤلاء الرهبان رئيسهم برنارد مطرانا لطليلة ، وبحثوا امر اعداد العدة لاستئناف الجهاد ضد المسلمين من جديد (٥٦) .

ومن المحقق ان الكونت هنرى والكونت ريموند البرجونيين ، قريبي الملكة كونستانس وصهرى الملك الفونش السادس ، كانا يومئذ في أسبانيا ، واليهما والى نشاط المطران برنارد يرجع الفضل في وفود جماعات كبيرة من المحاربين الفرنسيين الى أسبانيا ، كما وفد اليها أيضا عدد كبير من فرسان جنوبى فرنسا نتيجة لنداء البابا أوربان الثانى عام ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م ، لمساندة الأسبان في حروبهم ضد مسلمي الأندلس . وكان هذا النشاط النصرانى امتدادا للحروب الصليبية التى كانت قد بدأت في تلك المنطقة منذ سقوط جزيرة سردينية في يد قوات البابا والقوى النصرانية الفرنجية والأسبانية عام ٤٠٦ هـ ، والنى استمرت طوال ذلك القرن وبمثلت في سقوط بربستر عام ٤٥٦ هـ ، وطليلة عام ٤٧٨ هـ في يد القوى الصليبية (٥٧) .

وكانت ظروف الحرب المستمرة بين النصارى والمسلمين في اسبانيا ، قد حملت رجال الدين على أن ينزلوا هذا الميدان ، شأنهم في ذلك شأن الأشراف والكونتات ، وكانوا يدعون عند الحرب الى مرافقة الجيش ، ولم يكن أحد من أفراد الشعب ورجال الدين يحظى بالتقدير والاحترام الا اذا

(٤٧) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤٨) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٣١ .

محمد العروسى الطوى ، الحروب الصليبية في المشرق والحرب ، ص ١٤٠ .

أبدى شجاعة في محاربة أعداء البلاد والدين من المسلمين . لذلك جندت الكنيسة نفسها لخدمة هذا الهدف الذى كانت تسعى اليه البابوية والملكية الأسبانية وجماهير الشعب الأسباني . ومن ثم يمكن اعتبار الكنيسة الأسبانية كنيسة لها وضعها الخاص ، فهي كنيسة محاربة ، تخدم في ميدان القتال كما تخدم في ميدان الدعوة الى المسيحية (٥٨) .

ومن الأشياء التى خلعت الصفة الحربية على الكنيسة الأسبانية تلك الفرق من الفرسان التى كانت تابعة للأديرة والقلاع ، مثل فرسان سبنياجو ، وقلعة رباح Calatraba و Alcantara . وكان واجب فرسان سبنياجو (شنت ياقب) فى البداية ، هو الحفاظ على طريق الحج الى مزار القديس يعقوب خالسا من قطاع الطرق والأشرار ، ثم أصبحوا ضمن الجيوش المحاربة ضد المسلمين (٥٩) .

ولم يكن هدف جميع المحاربين هو العمل على خدمة الدين أو رفع الراية المسيحية على أرض الاسلام فى الأندلس ، فقد كان هدف المحاربين العاديين هو الاستحواز على الغنائم والتخلص من حالة الفقر التى كانوا يعيشونها فى الشمال القاحل ، بالمقارنة الى رغد العيش الذى كان يعيشه المسلمون فى الأندلس . ودليلنا على ذلك هو النداء الذى وجهه القسبيطور عند استعداده للهجوم على بلنسية عام ١٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، الى أهالى أرغونة وقشتالة ونبرة ، يدعوهم للحضور والاشتراك فى الغزو فيقول : « هؤلاء الذين يودون أن يقضوا على نقرهم وبصبحوا أغنياء ، فليأتوا معى للغزو ولتعمّر تلك الأرض » (٦) .

وبد وردت هذه العبارة ضمن القصيدة التى قبلت فى وصف حياته ، والى مظهر أن الدين لم يكن وحده هو العامل الرئيسى فى هذه المعارك

(٤٩) اشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، عان ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ .

Crow, cit., p. 88.

Crow, cit., p. 88.

Crow, cit., p. 91.

(٥٠)

(٥١)

وهذه الانتصارات المسيحية ، وتبين لنا القصيدة فرحة المسيحيين الذين استولوا على بلنسية ، وتؤكد ما ذهبنا اليه فتقول « هؤلاء الذين أتوا على أقدامهم أصبحوا الآن يركبون الخيل ، وحازوا الذهب والفضة أكثر مما يستطيع ن يتخيله انسان ، لقد أصبح الجميع أغنياء . . » (٦١)

وهناك من المؤرخين من يشيرون الى انتشار الرذائل الخلقية بين أفراد الطبقة الأرستقراطية ؛ وإلى انحطاط الكنيسة في ذلك الوقت ، ويقولون بأن البطارقة كانوا يشتركون في المؤامرات ضد ملوكهم ، وأن الأساقفة كانوا يقضون أوقاتهم في العاصمة بدل أن يهتموا بإدارة أبروشياتهم ، وأن الكهنة لم يهتموا ببث الروح المسيحية بين الناس ، وأن الرهبان أهملوا قوانين الرهبنة وسننها ، وأنه لم تكن هناك الاقلية من رجال الكنيسة ممن رفعوا أصواتهم بضرورة الإصلاح (٦٢) .

ومن هنا كان ضغط البابوية وقرارات المجامع الكنسية التي أشرنا إليها ، وساسة الإصلاح التي اتبعتها ملوك أسبانيا النصرانية وقيامهم باظهار التقوى والورع في معاملتهم للناس ، وبناء الكثير من الكنائس والأديرة ، واغداقهم عليها الكثير من المنح والعطايا والهبات ، كما خصص هؤلاء الملوك قدرا كبيرا من الغنائم التي حصلوا عليها من حروبهم مع المسلمين للبر بالفقراء وتخفيف آلامهم . واهتموا أيضا بتحسين الطرق الكبرى وانشاء القناطر على الأنهار ، وغير ذلك من الاصلاحات الاقتصادية ، مما حل كثيرا من المشاكل ، وادى الى توفير الأمن والحياة المستمرة لجمهير الشعب (٦٣) .

من هذا كله نرى أن أحوال ممالك أسبانيا النصرانية في القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، كانت تساعد على قياده الصراع ضد مسلمى الأندلس في ثبات ونجاح ، وتساعد على التقدم المطرد للقوى النصرانية

Crow, op. cit., pp. 90,91.

(٥٢)

(٥٢) ابن عدارى ، البيان ٤ ، ص ٥١ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠-

عيسى أسعد ، الطريقة النعمة ، من تاريخ الكنيسة المسححية ، ص ٢٤٣ .

(٥٤) أشياخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٢ ، ١٣٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٧ .

داخل الأراضى الإسلامية ، فالملكية الأسبانية صارت موحدة وفي يد أسرة واحدة ، وطبقة النبلاء ضعف شأنها عن ذى قبل ، وأصبحت أداة في يد الملوك وعونا لهم على تحقيق سياستهم فى الداخل والخارج . أما الكنيسة . فقد ازداد نفوذها وانفتحت أسبانيا على أوربا التى دعمتها فى صراعها ضد مسلمى الأندلس ، وأعلنت البابوية الحرب الصليبية فى الأندلس قبل إعلانها فى المشرق حتى استرد الأسبان طليطلة عاصمتهم الأولى .

وبسقوط طليطلة فى يد نصارى الشمال عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، انتقل الصراع الى قلب الأندلس ، من نهر دويرة الى نهر تاجة ، وأصبحت ممالك الشمال النصرانية تحوز حوالى نصف شبه الجزيرة الأسبانية ، وتمكنت من فرض الجزية على أقوى ملوك الطوائف . وبذلك أصبحت شبه الجزيرة كلها إما تحت حكمهم المباشر ، أو تحت حكم تابعيهم من ملوك الطوائف ، ابتداء من النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، ولم ينقذ أسبانيا الإسلامية من هذا الوضع المهين الا قدوم المرابطين الذى أخر سقوط الاسلام هناك الى حين .

الفصل الثاني

مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس .

الإسلامية وأشبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف .

رأينا في حديثنا عن الأحوال أو الأوضاع الداخلية في كل من الأندلس ، الإسلامية ، وأشبانيا النصرانية مدى ما كان في الأولى من ضعف وما كان في الثانية من قوة . ولم يكن ضعف الأولى ناجما عن نقص في الأموال والأنفس والثمرات ، بل أنها كانت غنية بكل ذلك ، وكانت تلمع في سماء الفرس والأدب والثقافة ، لكن الضعف والوهن اتاها من انقسامها الى ممالك عديدة ، ومن تباعض زعمائها وصراعهم المقيت على السلطان ، ومن ترف حكامها وأشرافها وخلودهم لحياة الدعة والانغماس في النعيم لدرجة أنهم كانوا مجبنون عن مواجهة النصارى ، ولذلك استقدموا المرابطين الأشداء ، الذين لم تفسدهم بعد حضارة أو ترف (١) .

ولم تكن قوة أشبانيا النصرانية ناتجة عن ازدياد الأموال أو الجيوش ، ولكنها كانت ناتجة عن روح المقاومة الصلبة والحيوية والطاقة التي لم تهن أمام ضربات الناصر والمنصور . صحيح أنها استكانت في عصر الخلافة ، لكنها ما لبثت أن خرجت كالمارد من قمقمها عقب انهيار دولة بنى عامر مباشرة ، وفرضت نفسها على أروع ما تكون (٢) .

استطاعت أشبانيا النصرانية أن تستثمر عناصر الاضطراب والفوضى التي ألت بالأندلس في عصر دول الطوائف ، وأن تطيل أمد هذا الاضطراب ، وأن تضرب تلك الدول بعضها ببعض ، وأن تجعل من زعمائها مجرد تابعين يدفعون الجزية عن يد وهم ضاغرون ، واستولت على الكثير من المدن والحصون حتى أنها في لحظة واحدة من لحظات الصراع بين خلفاء بنى أمية

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموسية ، ص ٥٩ .

Crwo, op.cit., p. 96.

الأواخر اثناء الفتنة البربرية عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٤ م اسولت على أزيد
من مائتي حصن تسلمتها من يد هشام المؤيد ، نظير تأييده في صراعه ضد
غريمه سليمان المستعين في الصراع على كرسى الخلافة في قرطبة ، واستمر
التقهقر الاسلامي حتى وصل ذروته بسقوط بريشتر وطمنكة عام ٤٥٦ هـ /
١٠٦٤ م (٢) .

وكانت النذر يرن صداها في أذن الشعب الأندلسي ، وكان لا يفتأ
يحذر ملوكه وأمرائه مغبة الاستمرار في هذا الصراع المحزن على السلطة ،
لكنهم لم يفيقوا الا على سقوط طليطلة ، اعظم قواعد النفر الاسلامي
عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . حينئذ وانتهم لحظة نبذوا فيها خلافتهم واستعانوا
بالقوة الاسلاميه الناشئة ، وهم المرابطون ، وحققوا معا أضخم نصر في
ذلك القرن على ملوك اسبانيا النصرانية في موقعة الزلاقة في العام التالي .

لكن ملوك الطوائف لم يحسنوا استغلال هذا النصر ، ولم يخفوا
خلافتهم وانقساماتهم عن يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين وأمير المسلمين ،
فصمم على القضاء عليهم ، وعلى ضم الأندلس لدولته الشاسعة . أما
اسبانيا النصرانية لم تلبث أن لمت شعثها عقب الزلاقة ، ونظمت جيوشها
واستأنفت النضال من جديد ، وصمدت أمام جيوش الأندلسيين والمرابطين
اثناء حصارهم لحصن لبط (أليدو) في العام التالي لموقعة الزلاقة ،
وأجبرتهم على فك الحصار والتقهقر الى بلادهم . وعلى ذلك فان هزيمة
التصاري في الزلاقة لم تزدهم الا تمسكا واتحادا ، بينما كشفت النقاب عن
الخلل الكامن في جسد الشعب الأندلسي الذي زادت خلافاته وانقساماته
عن ذي قبل .

وليس معنى ذلك ان اسبانيا النصرانية لم تعرف الخلاف الداخلي .
لقد حدث ذلك كما رأينا في دراستنا لأحوالها الداخلية في الفصل السابق

(٢) ابن بلقيس ، مذكراته ، ص ٢٠١ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١١٧ ،
الطوقى ، النسخ ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ ، بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٧١ .

«أكثر من مرة ، وخاصة عقب وفاة الملك الحاكم ، وقيام أبنائه من بعده وصراعهم على السلطان وتصفيتهم لبعضهم ، حتى يخلص الملك لأقواهم ، حينئذ يعود الوحدة من جديد . وبذلك فإن ملوكهم كانوا يفرضون الوحدة بالقوة على اخوتهم من الملوك الآخرين ان لم يقروها بالمسألة وعلان الطاعة . وحتى مع تعدد ملوكهم فانهم كانوا ينسجون خلافاتهم الداخلية امام الشعور العام بالخطر ، أو اذا لحوا فرصة في أحد البلدان الاسلامية لعلهم يصبون منها مغنما ، حينئذ كانوا يتكاثفون ويحاربون وينتمرون ، يأخذ كل منهم نصيبه من الغنيمة ، وكانت الغنيمة أنهم حازوا حوالى نصف ارض شبه الجزيرة في القرن الخامس الهجرى (٤) .

وبذلك فان أهداف الصراع وطبيعته قد تطورت كثيرا عما كان موجودا في عصر الخلافة . فقد أصبح نصارى الشمال في وضع جعلهم يصرحون علانيه بطرد مسلمى الأندلس ويقولون لهم لا مقام لكم بيننا ، وأصبحت الحرب بين الطرفين حربا صليبية من الدرجة الأولى ، أما مسلمو الأندلس فلم يكن لهم هدف الا مجرد الدفاع عما في أيديهم رينما تتحسن الأحوال ، وكانوا يرقبون تقدم النصارى وازدياد قوتهم في رعب وهلع ، وقصائد شعرهم تفيض حزنا وبكاء على ما أصاب المسلمين في هذا العصر من كوارث ودمار ، وأسر وقتل ونفى وتشريد ، وضياح للبلاد والعباد ، حتى قال قائلهم :

حثوا رواحكم يا أهل أندلس فما المقام فيها الا من الغلط

وحسب انشئت روح الهزيمة والرضا بالأمر الواقع ، فألف مفكروهم في ذلك الكتب ، مثل كتاب « جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى ، اللوزير أبو يحيى بن عاصم (٥) .

لقد كان هذا العصر عصر التقهقر التنياىى للإسلام في نواح كثيرة ، فقد سقطت صقلية عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ، وانتزع الروم السيادة

(٤) السدرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١٢١ .

(٥) المقرئ ، نصح الطب ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ .

البحرية من المسلمين ، حتى أن المعتد صاحب اشبيلية أراد أن يستقدم
أحد الشعراء المسلمين من صقلية وآخر من القيروان ، فلم يمكنه ذلك ،
وكتب إليه الأول يقول :

البحر للروم لا يجرى السفن به إلا على غرر والبر للعرب

وكتب الثانى يقول :

ما أنت نوح فتنجينى سفينته ولا المسيح أنا أمشى على الماء
وانتهى ذلك القرن كما نعرف بنشوب الحرب الصليبية بين الغرب،
المسيحي والشرق الاسلامى (٦) .

كل ذلك وما درسناه فى الأحوال الداخلية لمسلمى أسبانيا ونصاراها ،
سوف نراه ، ونرى نتائجه واضحة أثناء دراستنا للعلاقة بين دول الطوائف
وبين الممالك النصرانية فى أسبانيا . وفى هذا المقام لا بد أن نشير الى أننا
سوف ندرس تلك العلاقة بدءا من سقوط الخلافة الأموية عام ٤٢٢ هـ ،
حتى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، ثم نتابع دراسة العلاقات
بين دول الطوائف وبين أسبانيا النصرانية حتى سقوط هذه الدول فى يد
المرابطين . ذلك أنها لم تسقط جميعا دفعة واحدة ، فقد استمر بعضها بعد
العبور الثالث للمرابطين عام ٤٨٣ هـ وبعد قيامهم بتصفة معظم دول
الطوائف والقضاء عليها فى ذلك الوقت (٧) .

١ — علاقات مملكة سرقسطة بالممالك النصرانية فى أسبانيا :

عندما انفرد عقد الخلافة الأموية فى بداية القرن الخامس الهجرى ،
كان يحكم سرقسطة رجل من أنصار المنصور بن أبى عامر ، يسمى منذر بن

(٦) آدن خلكان ، وميات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٨٣ ، ج ٣ ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٧) Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 567, 569.

يحيى بن مطرف النجيبى ، من سلالة الأسره التى استمرت فى حكم تلك الناحية مستقلة أو تابعة للخلافة منذ عام ٢٧٦ هـ . وقد سبق أن وضعنا موقفه من مساندة المرتضى الأموى ثم بخليه عنه هو وحليفه رامون بوريل ملك برشلونة عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م . وقد توثقت عرى الصداقة بين المنذر وملوك النصارى المجاورين له ولا سيما رامون وشانجة الكبير ملك نبرة ، وبالح المنذر فى التودد الى أمراء النصارى حتى أنه نظم فى قصره بسرقسطة حفلا لعقد مصاهرة بين ملهكن من ملوك النصارى ، هما شائحة ملك نبرة ورامون بوريل ملك برشلونة ، حضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين (٨) .

ورغم ما أثارته هذه العلاقة من النقد الحاد ، إلا أنها فى النهاية وفرت السلام والهدوء لاقليم سرقسطة وكفت أطماع النصارى عنه ، ولم يدرك الناس أثر تلك السياسة إلا بعد وفاة المنذر عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، وخلفه ابنه يحيى المظفر (٤١٤ — ٤٢٠ هـ / ١٠٢٣ — ١٠٢٩ م) فى حكم سرقسطة . ويبدو أن يحيى لم يحكم سياسة الصداقة التى كان سببها أبوه مع جيرانه أمراء برشلونة ، حيث أغار صاحبها الكونت رامون بوريل على بعض أطراف مملكته ، واضطر أن ينزل له عن بعض القلاع الحصون (٩) .

خلف المنذر أباه يحيى المظفر فى حكم سرقسطة (٤٢٠ — ٤٣٠ هـ / ١٠٢٩ — ١٠٣٩ م) وفى عهده بدأ سلطان المسلمين فى هذا الركن القصى يتزعزع ، وبدأت أطماع أمراء أرغونة وكونتات برشلونة تتجه نحو سرقسطة ونواحيها ، وكان هذا الاقليم يشمل من الحصون وكبار المدن عدا سرقسطة ، قلعة أيوب ودروقه وبرشتر ووشقة ومدينة سالم ولوجرونيو Logrono وصورية Soria وترويل Teruel وافرغة Frage ، وكان بذلك من أوسع أمارات الطوائف إمدادا وعمرانا . لكن الخلاف دب بين أفراد أسرة بنى تجيب على السلطان ، وأدى ذلك الى القضاء عليهم وقيام

(٨) ابن بسام ، الخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٥٢ — ١٥٤ ، ابن عذارى ، البيان ،

ج ٣ ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٧ ، عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٦٨ .

بنى هود فى حكم مملكة سرقسطة منذ عام ٤٣١ هـ ، حتى سقطت فى هـ
النصارى عام ٥١٣ هـ (١٠) .

وباستيلاء سليمان المستعين بن محمد بن هود على سرقسطة (٤٣١) —
٤٤١ هـ / ١٠٣٩ - ١٠٤٩ م) (١١) ، ثار نزاع بينه وبين يحيى بن اسماعيل
ابن ذى النون ملك طليطلة منذ عام ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ، واستعان كل
منهما بملوك النصارى ضد الآخر . وكان مثار النزاع بينهما استيلاء بنى هود
على وادى الحجارة برغبة اهلها عام ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م ، فهرع المأمون
بقواه حيث هزم وتحصن فى طلبيرة ، ثم فاض فرديناند الأول ملك قشتالة ،
وطلب العون منه نظير أن يؤدى له الجزية ويعترف له بالطاعة ، فاستجاب
له فرديناند وأرسل قواته التى عاتت فى أرض بنى هود المجاورة لمملكته ،
فاضطر ابن هود أن يسلك سبيل ابن ذى النون ، وأرسل الى فرديناند
اموالا وحفا كثيرة على أن يغير على أراضى طليطلة (١٢) .

وقام فرديناند بالمهمة خير قيام وخرب ضياع طليطلة وأريافها حتى جلا
عنها الكثير من سكانها ولجأوا الى العاصمة ، واضطر أهلها الى طلب الصلح
من سليمان المسعين بن هود ، لكنه مكر بهم وانتهز الفرصة واستولى
على مدينة سالم التى كانت تحت سيطرة بنى ذى النون ، وكانت الأسرة
النونية منقسمة على نفسها مما سهل مهمة بنى هود الى حد كبير . لكن
المأمون بن ذى النون لم يستسلم وتوجه الى غرسية ملك نبرة وأخو
فرديناند ملك قشتالة ، وتحالف معه ضد بنى هود ، فأغار غرسية بقواته

(١٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ١٧٧ ، ٢٢٢ ، آبن الخطيب ، المصدر نفسه ،

ج ٢ ، ص ١٧٠ .

(١١) تذكر المصادر العربية القديمة كلها أن سليمان المستعين مات عام ٤٣٨ هـ ، لكننا
وجدنا درهما ضرب فى سرقسطة عام ٤٤٠ هـ مدونا عليه اسم د الامام هشام امير المؤمنين المؤيد
لله ، والحاخبا تاج الدولة سليمان ، . ومعنى ذلك أن سليمان المستعين لم يمب عام ٤٣٨ هـ
ج ٣ ، ص ٢٨٢) وناعه غيره من المؤرخين ، ولكنه حسبما قال ابن عذارى (البيان المغرب
ج ٢ ، ص ٤٤٠ هـ أو بعده بقليل . انظر . Codera, Numismatica, p. 167.

(١٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

على راضى بنى هود المجاورة له فيما بين تطيلة ووشقة ، وافتتح قلعة قلهرة عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، فقام فرديناند بدوره بالاغارة على اراضى طليطلة وخربها (١٣) .

وهكذا ادى التناحر بين هذين الملكين المسلمين ، المستعين بن هود والمأمون بن ذى النون ، الى اعطاء الفرصة للوك النصارى الأسبان لى يقوموا بتخريب اراضى الملكتين ونهب أموالهما واشعار المسلمين بالضعف ، حتى أنهم صاروا جنباء لدرجة أنهم كانوا يولون الادبار بمجرد رؤية جنود النصارى . ولما ازداد اضطراب الأحوال فى طليطلة ، سعى أهلها الى فرديناند ملك قشقاله لطلب الصلح ، على أن يؤدوا له ما يريد من الأموال . ويرحل عنهم ، لكنه انشراط عليهم شروطا من العسير تنفيذها ، ورفض السلم معهم وقال لهم « اننا نطلب بلادنا التى غلبنونا عليها قديما فى اول أمركم ، فقد سكتتموها ما قضى لكم ، وقد نصرنا الله عليكم برداعتكم ، فارحلوا الى عدوتكم (يقصد بلاد المغرب واغريقية) ، واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم فى سكتاكم معنا بعد اليوم ، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم » (١٤) .

وهى عبارة على درجة كبيرة من الأهمية ، اذ ترينا سياسة النصارى وتبين لنا أهدافهم فى استرداد اراضيهم ، وأنهم كانوا يعتبرون المسلمين اجانب دخلاء مهما عمروا من السنين واقاموا من الدول والمنشآت . واستمر فرديناند وأخوه غرسية يعيثان فى اراضى الدولتين حتى مات سليمان المستعين عام ٤٤٠ هـ أو ٤٤١ هـ ، فتنفس المأمون بن ذى النون الصعداء ، وتوجه بعدوانه الى جاره الآخر ابن الأفطس صاحب بطليوس . وقام اولاد سليمان المستعين الخمسة بالصراع فيها بينهم على عرش سرقسطة وما يتبعها من اقاليم ومدن ، وانتهى الصراع بفوز أحمد المقتدر على باقى اخوته عدا يوسف المظفر حاكم لاردة (١٥) .

(١٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٧٨ .

(١٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

(١٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

وقد انتقم أحمد المقتدر من أخيه يوسف المظفر انتقاماً غير أخلاقى. حينما أرسل الأخير نجدة غذائية لمدينة طليطلة التابعة له عبر راضى شانجة ملك أرغونة — وليس شانجة ملك فبرة كما قال البعض — خوفاً من مرورها عبر أراضى أخيه فى سرقسطة ، ورغم ذلك فقد رشأ المقتدر ملك أرغونة. وأرسل له الكثير من الأموال حتى يمكنه من قافلة أخيه ، وانتهى الأمر بضياح القافلة وأسر رجالها وقتل جنودها على يد رجال المقتدر وملك أرغونه (١٦) .

ولما هاجم ردمير الأول ملك أرغونة أراضى مملكة سرقسطة عام ٤٥٥ هـ / ٦٠١٣ م استعان المقتدر بملك قشتالة فرديناند الأول وأقر له بالطاعة ، مبعث إليه ولده شانجة فى بعض قواته برفقة القائد ردرجو دياز المسمى بالقمببطور ، ودارت رحى الحرب عند أسوار حصن جرادوس ، وانهزم ردمير الأول وقتل فى هذه المعركة ، وأثار مقتل الشهور الدينى ضد مسلمى الثغر الأعلى ، وأدى ذلك بالاضافة الى صراع الأخوين اليهوديين الى ضياح مدينة برشتر على يد النصارى عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م (١٧) .

يعد سقوط بريشتر أعظم كارثة أصابت المسلمين فى عهد المقتدر بن هود ، نظراً لما صاحبها من تدمير وسفك وقتل وانتهاك للحرمان علنا أمام الناس ، ولما كانت تحمله من طابع صليبي واضح . ويؤيد البحث الحديث الصفة الصليبية لتلك الحملة التى قام بها أهل غاليس (غالة) والأردمانيون أو الروذمانون أو الأردمليش ، وكلها أسماء للنورمان الذين كان ملك فرنسا شارل البسيط سمح لهم بالاقامة فى الاقليم الذى عرف باسمهم فى فرنسا. يعد ذلك باسم (نورماندى) Normandie . واشترك فى الحملة أيضاً غليوم دى منترى كبير قواد البابا اسكندر الثانى ، الذى بشر لها فى ايطاليا

(١٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

السامرائى ، علاقات المرابطى ، ص ٨١ .

(١٧) الطرطوشى ، سراج الحق ، ص ١٥٦ ، أنظر الفصل الثانى ، الباب الثالث

وفرنسا وأسبانيا ، بالإضافة الى قوات شانجة راميرز ملك أرغونه وابن الملك الذى قتله ابن هود عند جرادوس عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م (١٨) .

وقد اختلفت المراجع الحديثة حول شخصية قائد الحملة الذى ورد اسمه فى المصادر الاسلاميه باسم (البيطبين أو البيطبن أو البيطش) ، فبالعوض يرى انه كان النبيل الفرنسى Elbesde Roucy أو الكونت Robert Crespin أو الكونت بلدوين دى فلاندىس Palduino de Flades الذى كان وصيا على فيليب الأول ملك فرنسا ، وربما حرف الكتاب المسلمون اسم بلدوين الى (البيطين) . على أية حال وصلت تلك الحملة الصليبية التى سبقت الحملة الصليبية الأولى على المشرق بحوالى نصف قرن ، فى جمادى الأولى عام ٤٥٦ هـ / ابريل ١٠٦٤ م الى بريشتر وضربت حولها الحصار مدة أربعين يوما ، واستسلمت المدينة فى النهاية ودخلها النصارى وعاثوا فيها فسادا (١٩) .

وبلغ عدد القتلى والأسرى من اهل المدينة ما بين الخمسين والمائة ألف وهذا دليل على كبر حجم الكارثة ، وقد تخير قائد الحملة خمسة آلاف من أجمل فتيات بريشتر وأرسلهن هدية الى صاحب القسطنطينية والى بابا روما اعلانا وابتهاجا بفوزه على المسلمين . وظل الصليبيون فى بريشتر لمدة عام حتى نهض المقتدر بن هود يعاونه المعنضد بن عباد وأهل الثغور وأعادوا المدينة الى حوزة الاسلام من جديد . وفنلوا كل النجاسة الصليبية التى كان

(١٨) ابن حيان برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .
ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
حسين مؤنس ، الحلة السيرة لاس الأناز ، ج ٢ ص ٢٤٧ .
العبادى ، الاكتفاء لابن الكردبوس ، ص ٧٠ .
Livermore, op. cit., p. 111. دورى ، ملوك الطوائف ، ص ١٧٧ .

(١٩) ابن حيان برواية المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ - ٥٧٥ .
ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٧٠ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٩ ، ٤١ .
أما عن أحداث تلك الحملة ، انظر المصادر المشار اليها أعلاه .

قد خلفها قائد الحملة عند مغادرته المدينة ، وتقدر بخمسة آلاف جندي .
وفارس (٢٠) .

وتصور حادثة بريشتر مدى الضعف والخلل الذي أصاب الحياة الإسلامية في ذلك الوقت ، وخاصة فيما يتعلق بأمراء المسلمين وفقهائهم الذين يصفهم ابن حيان بأبشع الأوصاف وسبهم بالجهل والتقصير وبغضيل الأهواء الشخصية على المصلحة الإسلامية العليا . فلم يكن همهم حين سماعهم خبر الكارثة إلا أن يوقعوا قرب حلول الكارثة بينهم ، فأخذوا في حفر الخنادق ونعلية الأسوار وسد الأركان وتوثيق البنيان ، أما عامة الناس فقد أظهروا اللامبالاة والسلبية الشديدة ، ولم يساندوا ملوكهم وأمرأهم في درء هذا الخطر الزاحف عليهم من الشمال النصراني ، ولم يعرفوا أن هذه الكارثة سوف تتلوها كوارث أعظم منها وأخطر (٢١) .

وقد علا نجم المقتدر بن هود بعد استرداده بريشتر من أيدي الصليبيين في جمادى الأولى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ، واستطاع أن يضف إلى مملكته أراضي جديدة انتزعها من جيرانه النصاري والمسلمين على السواء ، فاستولى على طرطوشة ودانبة وجزء من كورة طركونة وأطراف من مبلونة ، وطمع في بلنسية ، استعان بملك قشتالة الفونس السادس في الاستيلاء عليها ، وفرض على شعبه ضريبة لتحصيل الجزية ودفعتها له ، وقد حاول أحد الفقهاء الصالحين الاعتراض على دفع الجزية للنصارى ، فما كان جزاؤه إلا القتل على يد المقتدر بن هود نفسه (٢٢) .

ولما توفي فرديناند الأول ملك قشتالة عام ٤٥٧ هـ ، قامت الحرب الأهلية من جديد بين أولاده ، وكانت قشتالة وحقوق الجزية على سرقسطة

(٢٠) ابن حيان برواية المقرئ ، النفع د ٢ ، ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢١) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، د ٣ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢٢) ابن عذارى ، الديسان ، د ٣ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، د ٢ ، ص ١٧١ ، مؤسس ، الشعر الأعلى ، ص ١٠١ .

من نصيب ولده الأكبر شانجة ، الذى بادر بإرسال قواته الى سرقسطة بقيادة السيد القمبيطور للحصول على الجزية المطلوبة ، فاضطر ابن هود أن يرسل اليه الكثير من الأموال ، والهدايا لرفع الحصار عن المدينة ، ولما خلس عرش قشتالة للفونش السادس بعد قتله لأخيه شانجة عاد وطالب بالجزية التى كانت لأخيه ، وكان يطالب بها أيضا شانجة وميزر ملك أرغونة الذى كان يستعين به المقتدر فى محاربة أخيه يوسف المظفر صاحب لاردة ، وظل يحاربه حتى ظفر به وسجنه فى حصن ملتشون عام ٤٧٤ هـ ، ولم يلبث أن مات المقتدر فى نفس العام أو فى العام التالى (٢٣) .

انقسمت الامارة بوفاة المقتدر من جديد بين ولديه يوسف المؤتمن الذى اختص بسرقسطة وأعمالها ، والمنذر عماد الدولة الذى اختص بشرقى الامارة (لاردة وطرطوشة ودانية) . وكان من جراء هذه القسمة أن قامت الحرب الأهلية بين الأخوين ، واسنعان كل منهما بالنصارى ، فاستعان يوسف المؤتمن بالسيد الطمبيطور الذى كان قد لجأ الى أبيه المقتدر من قبل بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين الفونش السادس ملك قشتالة ، واستعان المنذر الذى كان من ألد أعداء القمبيطور بشانجة راميرز ملك أرغونة ، وبراهون برنجير الثانى أمير برشلونة (٢٤) .

ووقعت أول معركة بين الأخوين عند قلعة المنار بالقرب من لاردة ، وهزم المنذر ، وأسر أمير برشلونة رامون بيرنجير عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م . وفى نفس الوقت كان عمهما يوسف المظفر سجين قلعة روطة قد فر ولجأ الى الفونش السادس وما لبث أن مات هناك ، وانتهاز الفونش السادس الفرصة وهاجم سرقسطة بحجة أن المظفر قد تنازل له عن حقه المقتصب من أراضى الامارة ، لكن حملته باءت بالفشل وقتل جميع جنودها وقائدها ، فصمم الفونش على الانتقام (٢٥) .

(٢٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ٢٢٣ ، ج ٤ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، آبن الخطيب ، المصدر

نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧١ ، السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

أنظر ، الفصل الأول من الباب الثالث ، ص

(٢٦) عيان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٥ ، أنظر الفصل الأول من الباب الثالث ص

لم يلبث المنذر أن قام هو وحليفه ملك أرغونه وسارا في قواهما لمحاربة القمبيطور والنقي الطرفان عند موريل على مقربة من طرطوشة ، فانتصر القمبيطور واستولى على ما في معسكرهما من مال ومتاع وعلى كثير من الأسرى ، وعاد إلى سرقسطة حيث استقبل استقبال الأبطال ، وعلا نجمه واشتد نفوذه حتى كان المؤمن لا يبرم أمرا من أعمال الحرب أو السياسة دون مشاورته ، وغدا بذلك تحت حمايته مما دعا الناس إلى تحميل المؤمن مسئوليته ببقى القمبيطور وفساده في نواحي شرق الأندلس (٢٦) .

لم يلبث أن مات المؤمن عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وخلفه ابنه أحمد المستعين (٤٧٨ — ٥٠٣ هـ / ١٠٨٥ — ١١٠٩ م) في حكم سرقسطة وبقي الشق الآخر من المملكة بيد عمه المنذر الذي استأنف الصراع مع ابن أخيه ، وتحالف كل منهما مع النصارى ضد الآخر . لكن حدث أن سقطت طليطلة في نفس العام في يد الفوننش السادس واختل ميزان القوى بين المسلمين والنصارى في شبه الجزيرة اختلالا خطيرا ، وبات واضحا أن أيام الاسلام في الأندلس معدودة ، ولم يلبث الفوننش أن قام إلى سرقسطة مصمما على الاستيلاء عليها مستغلا تطرفها وعزلتها عن باقي الممالك الإسلامية ، وحاول المسنعين أن يردده بالمال ، لكنه أبى وأصر على أخذ المدينة ، ولم ينقذها منه إلا انتصار الأتباء بنزول المرابطين أرض الأندلس ، فاضطر الفوننش إلى رفع الحصار عن سرقسطة وعاد إلى قشتالة ليعبئ قواه استعدادا للمعركة الكبرى ضد المرابطين (٢٧) .

ثم كانت وقعة الزلاقة في رجب سنة ٤٧٩ هـ / أكتوبر ١٠٨٦ م ، وفيها هزم الفوننش هزيمة ساحقة وضعف أمر قشتالة ، لكن المستعين واجه خطرا آخر لا يقل خطورة عن خطر نصارى قشتالة . فقد بدأ شائجة راميرو ملك أرغونه بالاستيلاء على منتشون في سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٩ م ، واضطر المستعين عندئذ أن منضوى تحت حماية الفوننش السادس ملك قشتالة وان

(٢٦) عيان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢٧) عيان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٧ .

يدفع له الجزية التي كان قد أباهها من قبل . وكانت هذه المحالفة تهم الفونش ، لأنه كان ينظر الى توسع مملكة أرغونة بعين الحسد (٢٨) .

ذلك ان شانجة ملك أرغونة زحف الى مدينه واشتقه ، وهى ثانى مدينة فى مملكه سرقسطه وضرب حولها الحصار ، لكنه مات محاصرا لها عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م فمضى ابنه بدرى الأول (٤٨٧ - ٤٩٨ هـ / ١٠٩٤ - ١١٠٥ م) يلح عليها بالحصار حتى استولى عليها فى ذى الحجة ٤٨٩ هـ / نوفمبر ١٠٩٦ م بعد معركة حامية تسمى معركة الكوراز Alcoraz هزم فيها المسلمين وحلفاءه القشتاليين ، وقتل من المسلمين حوالى اثنى عشر الفا ، وكان بين القتلى غرسية ردونيز قائد جند قشتالة ، واستسلمت المدينة ودخلها بدرى الأول فى موكب النصر ، وفى الحال حوّل مسجدها الى كنيسة وجعلها عاصمة لمملكه أرغونة (٢٩) .

وفى تلك الأثناء كان السيد القمبيطور الذى كان يعمل لحسابه الخاص فى تلك الفترة قد استولى على بلنسية عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، وانشغل بالحفاظ عليها أمام هجمات المرابطل وازدياد نفوذهم وفونهم فى الجزيرة ، كذلك كان الفونش السادس مشغولا هو الآخر بدفع خطر المرابطين عن مملكته ، ومن ثم أصبح من الواضح أنه لا يمكن للمستعين بن هود أن يطلب العون منهما ضد خطر ملك أرغونة ، فولى وجهه شطر المرابطين وأرسل لهم ابنه عبد الملك عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ومعه هدية مآخرة لطلب محالفتهم (٣٠) .

وكان هذا يفتق مع سياسة المرابطين الذين كانوا يرون ترك الثغور المواجهة لبلاد العدو فى حكم الأندلسيين ، لكونهم أدرى بأحوالها وبأحوال

(٢٨) عيان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٢٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

الططوسى ، سراج النبوك ، ص ١٥٢ المقرئ ، النصح ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(٣٠) بطرس الدصتانى ، معارك العرب فى الأندلس ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، عيان ، المرجع

نفسه ، ص ٢٨٨ .

العدو أكثر منهم ، ولتكون حاجرا بينهم وبين نصارى الشمال ، وخوفا من أن يقوم بنو هود بتسليم المملكة الى أعداء الاسلام اذا ما هاجمهم المرابطون ، واستغل ابن هود هذا الموقف واطمان على بقاءه في الحكم بعد أن اخذ يهدد نصارى الشمال والمرابطين كلا منهما بالآخر (٣١) .

اطمان المستعين الى محالفة المرابطين واخذ يسعد لمقارعة ملوك ارغونة ، وكان بدرو قد توفى وخلفه في الملك أخوه الفونسو المحارب عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م ، وكان ملكا مقداما شديد البأس ، ولم يكن قد بقى من قواعد مملكة سرقسطة الهامة في شمال نهر أبرة بعد سقوط وشقة سوى تعيلة ، فسار اليها الفونسو المحارب في قواته ، وزحف، المستعين لنجدها ووقعت بين الفريقين معركة شديدة عند بلدة تدعى بلتيرة (فالتيرا) ، هزم فيها المسلمون وقتل المستعين ، وذلك في رجب سنة ٥٠٣ هـ / يناير ١١١٠ م ولم تلبث المملكة كلها أن سقطت في يد النصارى بعد ذلك بعشر سنوات (٣٢) .

٢ — علاقة مملكة بلنسية بممالك أسبانيا النصرانية :

تمثل بلنسية نموذجا للفوضى السياسية التي كانت سمة من سمات هذا العصر ، إذ تعاقب على حكمها الفتيان العامريان (مبارك ومظفر) حتى عام ٤١١ هـ ثم استقل بها أحفاد المنصور بن أبى عامر حتى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ، ثم صارت تابعة لبنى ذى النون ويحكمها أحد أبنائهم ، ثم صار تحت حكمهم مباشرة بعد أن طرد القادر من طليطلة وملكه الفونسو السادس على بلنسية عام ٤٧٨ هـ . ولم تلبث أن استقلت المدينة تحت حكم قاضيه ابن جحاف عام ٤٨٥ هـ بعد أن قتل القادر الذى كان في الواقع ظلًا لسلطان ملك قشتالة أو لذلك القائد القشتالى المغامر المسمى القمبيطور . ولم يستمر حكم هذا القاضى طويلا فقد تمكن القمبيطور من الاستيلاء عليها

(٣١) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، الحلل الموشية ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٣٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

المقرئ ، النفع ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، عمان ، المرجع نفسه ، ص ٢٩١ .

بعد عامين (٤٨٧ هـ) عندما لم تجد من يساعدها في الصمود أمام حصار استمر عشرين شهرا كاملا ، اكل الناس فيها لحوم الموتى من البشر . واستطاع المرابطون أن يستعيدوها بعد ذلك بثمانية أعوام (٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م) .

وخلال هذه التقلبات السياسية التى مرت على تلك المدينة ، ظهرت الأطماع فى الرغبة فى السيطرة عليها سواء من جانب المسلمين (بنى هود — بنو ذى النون) أو من جانب المسيحيين (ملوك أرغونة — قطلونية — قشتالة) . وناربخ تلك المدينة خير مثال يمكن أن نضربه للتعرف على حقيقة العلاقات السياسية التى كانت موجودة على أرض شسبه الجزيرة فى ذلك الوقت .

وأول من استولى على بلنسية بعد قيام الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس الهجرى هم الفتيان العامريون ، فقد حكمها منهم مظفر ومبارك . وانتهى حكمهما عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، وتولى أمر بلنسية بعدهما الفنى لببب العامرى صاحب طرطوشة بموافقة أهلها ، لكنه أساء السرة وسخط عليه أهل بلنسية للصدقة التى عقدها مع ملك برشلونة رامون بوربل الثالث ، مما أعطى الفرصة لهذا الملك من التدخل فى شئون بلنسية بصورة واضحة . فقام أهل بلنسية وعقدوا البيعة لأحد أحناد المنصور بن أبى عامر ، وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول (٤١١ — ٤٥٢ هـ / ١٠٢١ — ١٠٦١ م) (٣٣) .

استقر عبد العزيز فى بلنسية وتلقب بالمنصور ، ووسع نفوذه واستولى على المرية بعد مقتل حاكمها زهير العامرى عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م ، وكذلك استولى على مرسية وأوريولة ، وبذلك صارت مملكة مجاهد العامرى فى دانية محصورة بين أطراف مملكة بلنسية الشمالية والجنوبية ، فخرج على

(٣٣) ابن عذرى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

حنبل الساهرائى ، المرجع نفسه ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

، رأس قوائمه عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤١ م لكنه منى بالهزيمة على يد قوات المنصور عبد العزيز الذى ساعده قوات مرتزقة أمده بها ملك قشتالة فرديناند الأول ، ولم يتعرض بلنسية في عهد عبد العزيز لهجمات من نصارى الشمال ، ربما لصله القرابة التى تربطهم ، حيث أن جده كانت من نصارى نبرة أو قشتاله (٣٤) .

وفي عهد ابنه وخلفه عبد الملك المظفر (٤٥٢ — ٤٥٧ هـ / ١٠٦١ — ١٠٦٥ م) تعرضت مملكة بلنسية لهجمة شرسة من فرديناند ملك قشتالة عام ٤٥٧ هـ . ويبدو أن تلك الهجمة كانت رد فعل لاسترداد بريشسر على يد المقتدر بن هود من يد الصليبيين بعد أن كانوا قد اسولوا عليها في بداية عام ٤٥٦ هـ ، ونتيجة لسوء معاملة النصارى الى صحبت القضاء على آثار تلك الحملة الصليبية المدمره التى تعرضت لها بربرشتر .

وكان ابن هود قد رفض دفع الجزية لفرديناند ، فقام الأخير بمهاجمة اراضى سرقسطة ، ثم اشرف على بلنسية وضرب حولها الحصار ، وأعمل الحيلة في القضاء على أهلها ، فتظاهر بالارتداد صوب الشمال الى قرية تسمى بطرنة ، فخرج سكان بلنسية مع ملكهم عبد الملك لمطاردتهم وهم يلبسون افخم الثياب والزينة وكانهم في يوم عيد ، وهنا خرج عليهم الكمين واخذهم قتلا واسرا ، ولم ينج منهم الا العدد القليل ، وفي ذلك يقول الشاعر (٣٥) :

ليسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم الواسا
ما كان اقبحهم واحسنكم بها لو لم يكن ببطونه ما كانا

بعد هذا النصر الذى حققه فرديناند عاد الى محاصرة المدينة من جديد ، فاستغاث عبد الملك المظفر بصهره المأمون صاحب طليطلة . ورغم

(٣٤) غنان ، دول الطوائف ، ص ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٣٥) ابن بسام برواية ابن عذارى ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

ابن بسام برواية المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .

أن المأمون كان يدع الجزية لفردبناند إلا أنه هرع لانتقاذ المدينة أملا في استخلاصها منه لنفسه ، وقد ساعدته الظروف على ذلك ، إذ أن فردبناند لم يلبث أن أحس بدبيب المرض والموت يسرى في جسده فرفع الحصار وعاد إلى بلاده حيث مات هناك بعد فترة قصيرة ، وانهز المأمون الفرصة ودخل بلنسية وعزل صهره عن حكمها وضمها إلى مملكته طليطلة في ذي الحجة عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م (٣٦) .

ترك المأمون حكم بلنسية في يد أحد وزرائها وهو أبو بكر أحمد بن أبي عبد الله بن عبد العزيز (٤٥٧ — ٤٧٨ هـ / ١٠٦٥ — ١٠٨٥ م) ، فأحسن إدارتها واستقل بها بعد وفاة المأمون عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، لكنه واجه خطر أطماع بني هود فيها ، ذلك أن المقتدر بن هود كان قد استولى على دانية في العام التالي (٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م) من يد إقبال الدولة على بن مجاهد العامري ، وأصبحت بلنسية محصورة بين أطراف مملكته ، فنوجس أبو بكر بن عبد العزيز خفية من المقتدر بن هود ، فخاطب الفونش السادس ملك قشتالة وانضوى تحت حمايته ، وتعهد له بأداء الجزية ، وفي الوقت نفسه كان المؤتمن بن المقتدر يتطلع إلى امتلاك بلنسية لأهمية موقعها ووفرة خبراتها ، فخاطب بدوره الفونش السادس ودفع إليه مائة ألف دينار لمعاونته في السيطرة عليها (٣٧) .

وبالفعل زحف ملك قشتالة إلى بلنسية ، فخرج إليه ملكها أبو بكر وخاطبه برقة ولباقة وأقنعه بالرجوع ، فأنصرف الفونش ووعدته بحمايته . ذلك أن الفونش كان معجبا بأبي بكر ويعده واحدا من رجالات الأندلس الثلاثة في نظره ، وهم أبو بكر بن عبد العزيز هذا ، وأبو بكر بن عمار وزير المعتمد بن عباد ، وششنانده أحد قواده البارزين . وفي نفس

(٣٦) أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، القلقشندي ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص

ص ٢٥٣ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ ، دوزي ، المرجع نفسه ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٣٧) القلقشندي ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ .

خليل السامرائي ، المرجع نفسه ، ص ١١٠ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٦٦ .

-الوقت التمس أبو بكر حماية المؤتمن بن هود ، وقدم ابنته لتكون عروسا لابنه أحمد المستعين ، واحتفل بهذا الزواج احتفالا كبيرا وذلك في رمضان ٤٧٧ هـ / فبراير ١٠٨٥ م ، ولم يعيش أبو بكر طويلا اذ ما لبث أن توفي في صفر ٤٧٨ هـ / يونية ١٠٨٥ م ، وخلفه في حكم المملكة ابنه أبو عمر عثمان (صفر ٤٧٨ — شوال ٤٧٨ هـ) (٣٨) .

وفي هذه الأثناء حدث أكبر كارثة حاقت بالمسلمين في ذلك العصر اذ سقطت طليطلة في يد الفونش السادس في صفر ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . وكان لسقوطها آثار خطيرة على مستقبل مملكة بلنسية . ذلك أن الفونش كان قد انفق مع القادر بن ذى النون ملك طليطلة المعزول على اعطائه بلنسية ، أو مساعدته في استردادها من يد ابن وزيرهم الذى كان بنو ذى النون قد ولوه اياها بعد القضاء على حكم العامريين بها عام ٤٥٦ هـ كما سبق القول . وانقسم شعب بلنسية على نفسه ، فكان البعض يرى الانصواء تحت حماية المستعين بن هود ، بينما الآخرون يرون أن لبنى ذى النون حقوقا في المدينة وهم أحق بها (٣٩) .

وتحقيقا لاتفاق الفونش مع القادر ، فقد قدم الأخير مع قوة قشتالة بقيادة البارفانيس الذى تسميه الرواية الاسلامية (البرهانيس) ، وتمكن من دخول بلنسية في شوال ٤٧٨ هـ / فبراير ١٠٨٦ م ، وقامت دولة بنى ذى النون مرة أخرى في شرقى الأندلس بعد أن كانت قد انتهت في طليطلة ، وقامت على يد ملكها الشريد الخانع الضعيف — القادر بالله في مثل الظروف التى كانت قائمة عليها من قبل في أواخر أيامها بطليطلة — دولة ضعيفة ناعمة ، تدين بر جودها لقشتالة ، وتعيش في ظل الحراب النصرانية . وما لبث القادر أن أبدى صولة الضعيف اذا تحكم ، ففرض على المدينة حكم طغيان شامل ، وصادر الأغنياء وفرض عليهم الغرامات ،

(٣٨) القلقشندي ، نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، غان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٦ .

(٣٩) غان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٧ .

وعاث الفصاري في المدينة ، واصبحوا الحاكمين الحقيقيين لها ، وخاف الناس من القادر ان يسلمها لألفونثس كما سلم من قبل طليطلة (٤٠) .

ولما رأى المنذر بن هود صاحب طرطوشة ودانية والجزء الشرقي من مملكة سرقسطة والذي كان يناوىء ابن أخيه أحمد المستعين اضطراب الأحوال في بلنسية ، طمع فيها خاصة وأنها تشطر مملكته ، فسار إليها في قواته ومعه سرية من المرتزقة القتلان وحاصرها . وفكر القادر في التسليم ، لكنه أرسل الفونثس ملك قشتالة يستغيث به ، كما أرسل بنفس الصريخ إلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة وخضم المنذر الذي أراد أن يحقق حلم أبيه المؤتمن في السيطرة على بلنسية ، وأن يعوض الأموال التي كان قد دفعها أبوه إلى ملك قشتالة لتحقيق ذلك ، وبادر بالاستجابة لصريخ القادر ، وهرع إلى بلنسية في أربعة آلاف فارس ، ومعه حليفه القمبيطور في ثلاثة آلاف فارس عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م (٤١) .

ويقال أن المستعين قد اتفق مع القمبيطور على أن تكون الأسلاب كلها من نصيب القمبيطور ورجاله ، وأن تكون المدينة ذاتها من نصيب المستعين . وكانت هذه هي النية الحقيقية في اسراع المستعين لنجدة بلنسية . ولما أشرف على بلنسية أدرك المنذر أنه لا فائدة من الانتظار ، وكان القادر يعرف نوايا هؤلاء الذين هرعوا لمساعدته ، فحاول أن يضربهم ببعضهم وتحالف مع القمبيطور سرا ، وأرسل إليه الأهوال والهدايا ، فلما وصل القمبيطور والمستعين إلى بلنسية ، ظهرت حقيقة القمبيطور ، وانكشف غدره بمن آواه ، وبانت خلاله الأصلية التي أباحت له أن يبيع العدو والصديق معا ، وأن ينتهز الفرصة بأي ثمن ، فكان يوعز للقادر والمستعين أنه مساعد لكل منهما في وقت واحد (٤٢) .

(٤٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ ، القلقشندي ، المصدر نفسه ، ج ٥ ،

ص ٢٥٤ .

Dozy, op. cit, p 693

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٤١) ابن الكريبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٤٢) ابن الكريبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

وأراد القمبيطور ألا يعرض نفسه لغضب الفونش السادس ملك قشتالة ، فأرسل اليه يخبره أنه فيما عمله ويغنيه إنما هو تابع له ، وذهب بنفسه الى قشتالة وحصل من الفونش على وثيقة تبيح له أملاك وتوريث ما يحصل عليه من أراضي المسلمين لأولاده من بعده . ولما أدرك المستعين مدى نفاق القمبيطور وغدره وانصرافه الى العمل لصالحه وصالح قشتالة ، قطع علاقته به واتجه الى محالفة برنجير كونت برشلونة ، وكان من الد أعداء القمبيطور ، ودفع اليه أموالا طائلة وأرسله الى محاصرة بلنسية ، ولكن القادر صمد للحصار حتى عاد القمبيطور من قشتالة وتقابل مع قوات كونت برشلونة في معركة هزم فيها الكونت وأسر ، وأطلق القمبيطور سراحه لقاء فدية كبيرة ، وانتهى الأمر بينهما الى التفاهم وعاد الكونت بجيشه شمالا الى برشلونة (٤٣) .

استطاع القمبيطور بعد ذلك أن يفرض نفوذه وسيطرته على شرق الأندلس ، فدفع له الجزية أصحاب البونت والسهلة ومربطر وشنتمرية الشرق علاوة على بلنسية التي تعهد صاحبها القادر أن يدفع له مائة ألف دينار سنويا نظير حمايته له . وقد أثار ازدياد نفوذ القمبيطور على هذا النحو أعداءه في قشتالة . فأناروا الملك عليه ، وصوروا له تصرفات القمبيطور بصفة الغدر والخيانة ، وخاصة بعد أن كان القمبيطور قد تخلف عن مساعدته في حصار حصن لبيط ، فقبض على زوجته وأولاده وعزم على مهاجمة بلنسية في الوقت الذي كان فيه القمبيطور في سرقسطة لتنظيم الدفاع عنها ازاء ازدياد خطر المرابطين ، واعتقد محالفات مع ملوك النصرى المجاورين مثل ملك أرغونة وملك نبرة (٤٤) .

وتحالف الفونش السادس مع جمهوريتى جنوة وبيزة على مهاجمة بلنسية بحرا ، على أن يهاجمها في نفس الوقت من البر ، وتقدم الفونش الى بلنسية لكن السفن الحليفة لم تصل في الوقت المناسب ، فرفع الفونش الحصار بعد أن أخذت المؤن في النفاد ، وبعد أن سمع أن القمبيطور قد أغار

(٤٣) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٤٤) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٠ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٩ .

على أراضى قشتالة انتقاما لما فعله الفونش بمنطقة نفوذه في بلنسية ، فعاد الفونش الى سياسة اللين وأصدر عفوه عن القمبيطور في أوائل عام ٤٨٥ هـ ١٠٩٢ م وعاد الى بلاده (٤٥) .

انتهاز الحزب المعارض للقادر والقمبيطور ولنفوذ نصارى الأسبان بصفة عامة الفرصة ، وكان على رأس هذا الحزب قاضى المدينة أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافى الذى تفاوض مع المرابطين على أن يمدوه بقوة تساعد على الوقوف في وجه الأسبان والقادر بن ذى النون على أن يسلم لهم المدينة . ولما وصلت القوة المطلوبة ، قامت الثورة ضد القادر وتم قتله في رمضان ٤٨٥ هـ / أكتوبر ١٠٩٢ م ، وآلت السلطة الى جماعة الفقهاء والأشراف وعلى رأسها ابن جحاف (٤٦) .

ولما علم القمبيطور بهذه التطورات المزعجة أسرع بالسير الى بلنسية ، وأعمل الحبله حتى ينفرد بابن جحاف ، وفأوضه على أساس أن يطرد جند المرابطين من المدينة وأن يقيه حاكما لها مكان القادر ، على أن يؤدي الجزية المنفق عليها من قبل وهى ألف دينار في الأسبوع . ونجحت الخطة ، لكن القمبيطور سرعان ما نقض وعوده وأخذ يضارب المدينة ويطالب أهلها بالأموال ، وطادب ابن جحاف بتسليم ابنه رهينة . عندئذ رفض ابن جحاف وإرسل يستصرخ بالمرابطين والمستعين ملك سرقسطة والفونش السادس ملك قشتالة ، وصمد ابن جحاف لحصار القمبيطور عشرين شهرا حتى أكل الناس لحوم البشر ، وصاروا أئباجا كالموتى ، وارتفعت الأسعار بشكل لا يحتمل وانتهى الأمر باستسلام المدينة في ٢٨ جمادى الأولى ٤٨٧ هـ / ١٥ يونيه ١٠٩٤ (٤٧) (٤٨) .

وبذلك سقطت بلنسية في يد القمبيطور وضاعت كما ضاعت طليطلة ، وكان لسقوطها دوى كبير في أنحاء أسبانيا ، لا سيما بعد المذابح التى أجراها القمبيطور لزعمائها وخاصة لابن جحاف الذى أحرقه حيا ، عقابا له على

(٤٥) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، عان ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٠ .

(٤٦) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٣ ، ابن عذارى ، المغرب ، ص ٣٠٥ .

(٤٧) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .

(٤٨) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٣ ، ابن عذارى ، المغرب ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

صموده الطويل ، ولاستنجاده بالمرابطين ، ولاغتياله للقادر أحد اتباع القمبيطور ، ولاستيلائه على أمواله وانكار ذلك عند مطالبته بها . ولبث القمبيطور يقاوم المرابطين ويدفع تقدمهم على شرق الأندلس حتى مرض وقتل ابنه الوحيد في معركة لألفونش مع المرابطين الذين تمكنوا أيضا من هزيمة قواته عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م ، فأله الخطب واشتد عليه المرض ومات غما وحزنا في رمضان ٤٩٢ هـ / يولية ١٠٩٩ م (٤٩) .

شهدت زوجنسه خمينا لهجمات المرابطين عامين آخرين ، وأخيرا استندعت النونش السادس الذى جاء اليها في قواته ، ودخل بلنسية في جمادى الثانى ٤٩٥ هـ / مارس ١١٠٢ م ، ووجد الفونش أنه لا فائدة للمقام في هذه المدينة ، فخرج ومعه خمينا وجميع النصارى ومعهم أموالهم وأولادهم ورفات القمبيطور وأحرقوا المدينة ، ودخلها المرابطون وأعادوها الى حوزة الاسلام في شعبان ٤٩٥ هـ / مايو ١١٠٢ م وبذلك انتهى الصراع حول هذه الملكة (٥٠) .

٣ — علاقة مملكة دانية والجزائر الشرقية بالممالك النصرانية في اسبانيا :

بعد قيام البربرية وانتشار عقد الخلافة في أوائل القرن الخامس الهجرى ، تغلب مجاهد بن عبد الله العامرى مولى عبد الرحمن شنجول بن أبى عامر على دانية والجزائر الشرقية (ميورقة ، منورقة ، يابسة) والتي تعرف بجزائر البليار ، وأقام المصطفى خليفة عام ٤٠٥ هـ ، وغزا معه جزيرد سردينيا في ربية الأول عام ٤٠٦ هـ / اغسطس ١٠١٥ م ، وكان أول فتح اسلامى لهذه الجزيرة الكبيرة ، وأخذ مجاهد بنظم شئونها وبدأ في بناء مدينة كبيرة بها ونقل اليها أسرته ، ولما كانت تلك الجزيرة قريبة من سواحل ايطاليا ، أعلن البسابا بندكتوس الثامن في الحال الحرب الصليبية ضد المسلمين ، وعقد حلفا مع جنوة وبيزة على محاربتهم وطردهم من الجزيرة (٥١) .

(٤٩) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، للضبى ، بغية المقتبس ، ص ١٨٢ .

ماقوت ، محمد البلدان ج ٢ ، ص ٢٧٩ ، المعرى ، للفتح ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

(٥٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤١ ، ٤٢ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٥١) للضبى ، المصدر نفسه ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

لبن الأثير الكامل ج ٩ ، ص ١٠٨ ، لبن خطون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٦٤ .

ولا تعطينا المصادر الإسلامية معلومات مفصلة عن دور نصارى الشمال الأسباني في هذه الحرب الصليبية ، ولكنها تكتفى بالإشارة الى أن الروم والفرنح ساروا اليها وأخرجوا المسلمين منها في نهاية عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م . ولعل المقصود بالروم هنا هم جنود البابا ومدن إيطاليا من الرومان ، أما الفرنج فلمهم فرنجة برشلونة ومما يقوى هذا الاعتقاد موقع برشلونة المواجه لجزيرة سردينيا ومهاجمة مجاهد العامري لها أى لبرشلونة فيما بعد (٥٢) .

على أية حال فقد فشل مشروع مجاهد في احتلال سردينيا نظرا لمقاومة أهل الجزيرة من الداخل ، وتمرد الجند المرتقة النصارى في أسطوله ، وتوالى العواصف العنيفة التى كانت تقذف بسفن المسلمين ناحية الأسطول البابوى ، فسفنهم هؤلاء ويفنكون بين فيها أو يأسرونهم . وانتهت المعركة بهروب مجاهد فى قلة من جنده بعد أن استولى العدو على أهله وحريمه وابنه (على) وأمه النصرانية (جود) وذلك فى عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م . وقد استطاع مجاهد أن يفتدى زوجته وبناته وابنه (على) فيما بعد ، ورفضت أمه وأختها العودة وفضلتا العيش فى أرض نصرانية فأعرض عنهما (٥٣) .

وفى عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م هاجم مجاهد العامري منطقة قطلونية ويبدو أنه هزم أمام قوات قطلونية واضطر الى طلب الهدنة ودفع الجزية ، ولو كان مجاهد قد سخر مجهوده كله لجهاد نصارى أسبانيا ولم يقيم بمشروعه الفاشل فى سردينيا لكان ذلك مفيدا وذا جدوى ، ولكنه أثار البابوية أكبر زعامة مسيحية موجودة فى ذلك الوقت بفزوه الطائش لسردينيا وبعض المدن الإيطالية . وقد قضى مجاهد بقية عمره حتى وفاته عام ٤٣٦ هـ / ١٠٤٥ م فى علاقات طيبة مع كونت برشلونة ومع فرديناند ملك قشتالة على عكس علاقاته مع أئمة المسلمين فى المرية ومرسية ولبنسية (٥٤) .

(٥٢) الضى ، المصدر نفسه ، ص ٤٥٨ ، ابن الأثير ، الكامل د ٩ ، ص ١٠٨ .
(٥٣) الضى ، المصدر نفسه ص ٤٥٨ ، ابن خلدون ، المصدر نفسه د ٤ ، ص ١٦٤ .
(٥٤) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، د ٤ ، ص ١٦٤ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ .

١٠ . تولى حكم مملكة دانية والجزائر الشرقية اقبال الدولة على بن مجاهد .
العامري (٣٦٨-٤٦٨ هـ / ١٠٤٤-١٠٧٥ م) ، وتميز عصره بالعلاقة الحسنة .
مع ملوك النصارى والتسامح المطلق مع نصارى مملكته ، وربما كان ذلك
راجعا الى نشأته بين نصارى سردينيا خلال أسرته الطويل ، واعنائه دينهم
قبل أن يعود الى الاسلام ودياره . وقد اطمأن (على) على موقع مملكته
الحصين والنائي عن أطماع ملوك النصارى ، وعاش في سلام مع جيرانه ،
لا يهتم الا بتمتية ثروته أو زيادة خراجه ، وصاهر ملوك الطوائف بتزويجهم
من بناته الخمس الرائعات الجمال ، واللاتى كن في الواقع عيوننا له على
أزواجهن (٥٥) .

ومما يدل على علاقته الطيبة بملوك النصارى الأسباب أنه وضع
كنائس مملكته في دانيا والجزائر تحت رعاية أسقفية برشلونة ، على أن
يتولى (على) تعيين رجال الدين الذين يعملون بهذه الكنائس ، وهناك
وثيقة بالفاتيكان تفيّد بذلك ، ووثيقة ثانية يسمح فيها (على) للنصارى
المجاهدين في أعمال مملكته بأن يذكروا اسم أسقفهم في خطبهم وعواظهم .
وقد أورد الأسناذ عنان النص العربى لهذه الوثيقة جاء فيه « أشهده اقبال
الدولة ايده الله على أنه اجاب غلبرت الأسقف ببرشلونة الى أن يكون
مذكورا في خطب النصارى في بيعهم بجميع أعماله ، وهو مما انعقد بالخط
الأعلى ، وذلك في شوال سنة تسع وأربعين وأربعمائة » ثم يلى ذلك أسماء
الشهود (٥٦) .

وكان على بن مجاهد يهتم بشئون الجزائر الشرقية ويعنبرها أهم
اقسام مملكته ، وكان حاكم الجزائر على عهد والده مجاهد ، هو غالب مولاه .
(٤٢٨ — ٤٣٦ هـ) ، وكان غالب هذا جنديا وبحارا قديرا دائم الاغارة
بسفنه على الشواطىء النصرانية القريبة سواء في قطلونية أو على ساحل
بروفانس . وحكم الجزائر من بعده صهر على بن مجاهد ، وهو سليمان .

(٥٥) ابن سنام ، المصحر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

١ . عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢١٣ .

٢ . (٥٦) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٣ .

'ابن مشكيان (٤٣٦ — ٤٤٢ هـ) الذى غزا جزيرة سردينيا مرة ثانية عام ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ م وفتحها ، الا أن البابا (ليو) التاسع وجه حملة صليبية اخرى أخرجت المسلمين منها نهائيا (٥٧) .

ثم حكم الجزائر بعده عبد الله المرتضى (٤٤٢ — ٤٨٦ هـ) ، وفى عهده ستطت دانية فى يد أحمد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م ، فاستقل عبد الله المرتضى بحكم الجزائر الشرقية . وقد كان عبد الله هذا تربطه بملك برشلونة رامون بيرنجير الأول (٤٢٧ — ٤٦٩ هـ) وولديه من بعده ، برنجير ورامون ، علاقات ود وصداقة ، وترددت بينهما البعثات والسفارات ، وفى احداها تعرف رسول المرتضى على (مبشر بن سليمان) الذى كان نصارى برشلونة قد أسروه من احدى قلاع لاردة وعائى هناك وظهرت مواهبه (٥٨) .

قدر سفير المرتضى مواهب (مبشر) واستقدمه الى الجزائر الشرقية حيث تولى حكمها بعد وفاة المربضى ، وأرسل الى دانية يطلب تسليم أهل على ابن مجاهد ، فبعثوهم اليه ، وأخذ يكرر غزواته على أرض قطلونية ، حتى جمع له كونت برشلونة جموعه وأبحر اليه ونازله بميورقة عشرة أشهر استنجد أثناءها مبشر بعلى بن يوسف بن تاشفين فلم يصل الأسطول المرباطى الا بعد فوات الأوان ، فقد استسلمت الجزيرة لكونت برشلونة ، لكن المرباطين تمكنوا من استعادتها أخيرا ، وبذلك انتهت دولة بنى مجاهد العامرى فى الجزائر الشرقية (٥٩) .

أما فى دانية فقد سبق القول بسقوطها فى يد بنى هود عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م ، وبذلك انتهى عهد بنى مجاهد العامريين على أرض أسبانيا . وقد حاول سراج الدين بن على بن مجاهد حاكم حصن شقورة استرداد

(٥٧) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٥ .

خليل السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ٧٤ .

(٥٨) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢١٠ .

(٥٩) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص ١٦٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢١٠ .

عرش أبيه المقتصب ، فسار الى يريشولونه واستغاث بصاحبها رامون برنجير الأول ، فاستجاب له بعد شروط اشترطها عليه ، وأمه بقوات تمكن بها سراج الدين من استرداد بعض الحصون ، لكن المقتدر بن هود تمكن من هزيمته والتخلص منه بأن دس له السم فمات سراج الدين عام ٤٦٩ هـ / ١٠٧٧ م (٦٠) .

٤ — علاقة شنتمرية الشرق وبعض المدن الأخرى بالممالك النصرانية في إسبانيا :

سميت تلك المدينة بهذا الاسم تمييزا لها عن شنتمرية الغرب التي تقع على نهر تاجة وينبع مملكة بطليوس . وكانت شنتمرية الشرق تسمى أيضا (السهلة) وهي تقع بين مملكتي سرتسطة وطلبطة ، ونظرا لهذا الموقع فقد سار حاكمها عبد الملك بن هذيل بن رزين (٤٣٦ - ٤٩٦ هـ / ١٠٤٤ - ١١٠٣ م) بعيدا عن المشاحنات والمنازعات التي حفل بها هذا العصر ، وعاش عبثة البذخ واللهو حتى أنه اشترى ذات مرة جارية بثلاثة آلاف دينار (٦١) .

سد أنه لما سقطت طايطة في يد الفونش السادس ملك قشتالة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، اضطر عبد الملك أن يدفع له الجزية كسائر ملوك الطوائف وأن يذهب بنفسه مهنئا على انتصاره ، حاملا معه هدية جليلة القدر ، فكافاه الملك النصراني عليها بقرء كان عبد الملك يفخر به ويتبته على سائر ملوك الطوائف ، لأنه الوحيد الذي نال هدبة الفونش ، ولو أن هناك رواية تنسب هذه الحادثة الى ولده يحيى بن عبد الملك وان كان هذا مستبعدا لأنه لم يحكم الا بعد سقوط طلبطة بحوالى عشرين عاما (٦٢) .

وبعد هزيمة الفونش السادس في موقعة الزلاقة على يد المرابطين امنع عبد الملك عن أداء الجزية ، لكن القمبيطور كان يحمل الراية النصرانية:

(٦٠) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص ١٦٥ .

(٦١) أرسلان ، لطل السندسة ، ج ٢ ، ص ٩٠١ .

(٦٢) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

ويقوم ببث الرعب والفزع في شرقى الأندلس ، واضطر عبد الملك بن هزيل الى الخضوع له ، واتفق معه عام ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م على أن يتركه يعيش في سلام ، على أن يؤدي الجزية للملك الفونش كما كان الشأن قبل الزلافة ، وأن يدفع في الحال الى القمبيطور بصفته نائبا عن الملك مبلغ عشرة آلاف دينار . عندئذ غادر القمبيطور اراضى شنتمرية عائدا الى بلنسية (٦٣) .

ولما اشتدت وطأة القمبيطور على بلنسية والأنحاء المجاورة لها ، شعر القائد أبو عيسى بن لبون صاحب حصن مريبطر أنه لا يستطيع الصمود لهذا الارهاق ، وأنف من مفاوضة القمبيطور ووضع نفسه تحت حماية أبى مروان عبد الملك بن هزيل ، وسلمه الحصن وذهب الى شنتمرية للعيش فيها في اواخر عام ٤٨٦ هـ / نوفمبر ١٠٩٢ م . وسار عبد الملك الى القمبيطور وفأوضه في عقد المودة والابقاء على الحصن في يديه ، على أن تكون سائر حصونه مفتوحة لجنود القمبيطور تزودهم بالمؤن ، ويبيعون ويشترون منها ما يحتاجون اليه من لوازم الحياة (٦٤) .

لكن ابن هزيل لم يلبث أن طمع في الاستقلال عن القمبيطور وامتنع عن داء الجزية له ، وفأوض بدرو (بطره) ملك أرغونة لكي يعاونه في تحقيق مشروعه ، وعرض عليه مبلغا كبيرا من المال . فلما وقف القمبيطور على هذه التطورات انقض بقواته على ارض شنتمرية (السهلة) وعاث فيها ، ونسف الزرع وساق الماشية وسبى جموعا كثيرة ، وبعث الجميع الى « جباله » على مقربة من بلنسية حيث كان معسكره الرئيسى . عندئذ اضطر عبد الملك الى الخضوع له مرة أخرى ، اجتنابا لهذا السيل المدمر ، وصونا لأراضيه ورعيته ، وذلك عام ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، ولم يلبث أن توفي عبد الملك بعد ذلك بحوالى عشر سنوات وخلفه ابنه يحيى الملقب بحسام الدولة (٦٥) .

وكان يحيى هذا أمرا ضعيفا مدمنا للشراب ، وكان يسعى الى مصانعة ملك قشتالة الفونش السادس ويلتمس عودته ويجتنب سطوته . والواقع أن

(٦٣) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٧ .

(٦٤) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٧ .

(٦٥) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٨ .

ملك بنى رزين كان يبدو حينئذ من نهايه بسرعه ، ذلك أن المرابطين كانوا قد اجتاحت يومئذ شرقي الأندلس كله ، وتوجوا سلطانهم في تلك المنطقة بالاستيلاء على بلنسية في عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ، ورغم أن عبد الملك قد أعلن قبيل وفاته طاعته لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين إلا أن هذا الاعتراف لم يكن كافيا لتحقيق خطة المرابطين في القضاء على سائر ملوك الطوائف . ومن ثم فقد تابع المرابطون زحفهم نحو الشمال ، وفي اليوم الثامن من رجب عام ٤٩٧ هـ / أبريل ١١٠٤ م دخل المرابطون مدينه شنشيرة ، وخلصوا أميرها يحيى بن عبد الملك بن رزين ، وانتهت بذلك دولة بنى رزين بعد أن عاشت زهاء ستين عاما ، ولم يبق بعدها من نول الطوائف العديدة سوى مملكة سرقسطة التي تحدثنا عنها من قبل (٦٦) .

وتقع جنوبى شنتمربة الشرق اماره البونت ، واستمر عبد الله بن محمد بن قاسم يحكمها لأكثر من أربعين عاما ، ولم تقع في عهده حوادث ذات شأن إلا حينما أصبحت هذه المنطقة فريسة لأطماع القمبيطور ومغامراته ، ففي عام ٤٨٥ هـ / ١٠٨٩ م زحف اليها بقواته وعاث فيها وخرب أراضيها ، واضطر صاحبها الى الدخول في طاعته ودفع الجزية ومقدارها عشرة آلاف دينار أسوة بما فرض على جاره عبد الملك بن رزين صاحب شنتمربة الشرق . ولما استولى المرابطون على بلنسية عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م استولوا بسرعة على القواعد والحصون المجاورة لها ومن ضمنها اماره البنت ، ويبدو أن ذلك تم في العام التالي (٦٧) .

والى الجنوب من البونت تقع اماره مرسه القريه من حصن لبيط ، وكانت هذه الامارة تحت حكم خيران الصقلبي العامري منذ عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م ضمن مملكته الواسعة التي كانت تشمل بالإضافة الى مرسية جيان والمرية . ولما هلك عام ٤١٩ هـ صارت مملكه لأبى القاسم زهير الصقلبي العامري ، ولما مات زهير عام ٤٢٩ هـ استقل بنو طاهر بملك مرسية على يد أبى عبد الرحمن بن طاهر (٤٥٥ — ٤٧١ هـ / ١٠٦٣ — ١٠٧٨ م) وظلت تحت حكمهم حتى طمع فيها المعتمد بن عباد ، فأرسل اليها حملة بقيادة

(٦٦) ابن عذارى ، البيان ، ٣ ، ص ٣١١ ، غان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٦٧) غان ، المرجع نفسه ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

وزيره ابن عمار الذى انقلب على مليكه واستبد بحكم مرسية ، وفرض حكمها ،
لتابعه ابن رشيق عند ما نوى الذهاب الى سرقسطه ليقوم بمغامرة أخرى
هناك (٦٨) .

لكن ابن رشيق عامل ابن عمار بأسلوبه وأعلن استقلاله بالامارة ،
تم عاد وأعلن بعبه للبعتمد بن عباد ، ولما جاء المرابطون لحصار حصن
ليبسط القريب من حدود امارته ، انتهز ابن رشيق الفرصة وتمرد على المعتمد
وتقرب الى ابن ناشفين ، وفى نفس الوقت كان يتصل بالنصارى المحاصرين
فى الحصن ويزودهم بالمؤن حتى يصمدوا للحصار ، لأنه كان يعتقد أن
وجودهم أمان له ضد خطر ابن عباد والمرابطين ، ولم يكنف ابن رشيق
بهذا القدر من الخيانة ، بل انه دفع جباية بلده مرسية لأنفونش مصانعة
وتقربا اليه (٦٩) .

حينئذ أمتى الفقهاء بتسليمه لابن عباد ، وكان هذا سببا فى تمرد رجاله
المرسيين وعودتهم الى مرسية وقطعهم الميرة عن المسلمين المحاصرين
لحصن ليبسط ، فوقع الغلاء واشتد الحال بهم حتى اضطروا أخيرا لرفع
الحصار عن الحصن خصوصا عندما علموا بمجىء الفونش لانقاذه . وقد
خدم موقف ابن رشيق جنود قشتالة وادى الى تقويتهم واستمرار صمودهم ،
وكانت نتيجة ذلك حدوث أول فشل يصيب الجبهة الاسلامية بعد انتصار
الزلاقة الشهير والذى لم يكن قد مضى عليه أكثر من عامين (٧٠) .

والى الجنوب من مرسية تقع اماره او مملكة المرية ، وكانت أيضا
تحت حكم خيران الفتى العامرى بعد فراره من قرطبة عام ٤٠٧ هـ خوفا
من على بن حمود ، وظل فى حكمها حتى وفاته عام ٤١٩ هـ ثم حكمها من
بعده زهير الصقاسى العامرى حتى مقتله عام ٤٢٩ هـ أثناء صراعه مع
بنى زيرى حكام غرناطة ، فصارت مملكته للمنصور عبد العزيز حفيد
المنصور بن أبى عامر ، فولى عليها قائده وصهره معن بن صمادح التجيبى
عام ٤٣٣ هـ ، لكنه خان سيده وأعلن استقلاله وتسمى بذى الوزارتين ،

(٦٨) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧٩ ، أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

الفلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ .

(٦٩) ابن بلقين ، مذكراته ص ١١٠ - ١١٢ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ،

١٤٣٣ ، ابن الخطيب ، للحلل الموشية ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٧٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

وظل يحكم المرية حتى وفاته عام ٤٤٤ هـ وتولاها من بعده ابنه المعتصم
أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح (٤٤٤ — ٤٨٤ هـ / ١٠٥٢ —
١٠٩١ م) (٧١) .

ورغم موقع المرية المتطرف في جنوب الأندلس الا انها لم تنج من
هجمات قوات قشتالة وخاصة بعد سقوط طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ،
وقد قام حصن لبيط الذي شحنه الفونش بالعتاد والرجال بدور خطير في
اثارة الرعب والفرح في تلك المنطقة (مرسية ، ولورقة والمرية) فقد قام
جنوده النصرى بهجمات على المرية ، والمناطق المجاورة حتى ضاق الناس
بهذا الحال ولم يعودوا يأمنون على انفسهم اذا ما حاولوا الانتقال من بلدة
الى أخرى . وقد ذهب احد شعراء مرسية البارزين وهو عبيد الجليل
ابن وهبون ضحية هجمة لاحدى فرق نصارى هذا الحسن أثناء انتقاله بين
لورقة والمرية عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م (٧٢) .

ويبدو ان المعتصم بن صمادح قد اتصل بنصارى الشمال يطالب
محالفتهم قبل سقوط طليطلة ، وذلك أثناء صراعه مع بنى زيرى أصحاب
غرناطة ، اذ يشير مؤرخ بنى زيرى وهو آخر أمرائهم عبد الله بن بلقين الى
ان المعتصم قد غدر بهم واستولى على وادى آس من باديس صاحب
غرناطة ، وداخل الامرنج ووعدهم بالمال الكثير اذا ساعدوه في صراعه مع
بربر غرناطة ، فاضطر باديس الى ملاطفته والبقاء عليه ، حتى لا يفتح
الباب لانتشار نفوذ نصارى الشمال في هذا الركن القصى من شبه
الجزيرة (٧٣) .

لكن الفونش لم يتركه هادىء البال بعد سقوط طليطلة كما قلنا ،
وبالاضافة الى نشاط حصن لبيط الذى أشرنا اليه فقد أرسل الفونش حملة
صغيرة مكونة من ثمانين فارسا الى المربة ، فنصدى لها المعتصم على رأس
أربعمائة فارس ، ورغم عدم التكافؤ بين القوتين الا أن المعتصم عاد يجر
أذيال الهزيمة ، فقد جبن فرسانه عن اللقاء وولوا العدو ظهورهم ، ومع

(٧١) ابن حبان ، برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

للطسندى ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٧٢) ابن حبان ، المطرب ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، للضبي المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٧٣) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

ذلك لم يكن المعتصم من المتحمسين لاستقدام المرابطين الذين لم يلبثوا أن استولوا على أمارته وخلعوه عنها عام ٤٨٤ هـ (٧٤) .

هـ — علاقة مملكة غرناطة بالممالك النصرانية في أسبانيا :

استولى بنو زيري الصنهاجيون على غرناطة بعد أن نجح سليمان المستعين في تولي عرش الخلافة للمرة الثانية عام ٤٠٣ هـ ، فقد وزع على قواده ولايات الأندلس ، واختص بنو زيري بغرناطة . ولم تزودنا المصادر الإسلامية أو النصرانية بمعلومات عن علاقة بنو زيري بالممالك النصرانية إلا ابتداء من عهد آخر ملوك أمرائها عبد الله بن بلقين (٤٦٥ — ٤٨٣ هـ / ١٠٧٣ — ١٠٩٠ م) . ويبدو أن موقع غرناطة المتطرف في جنوبى الأندلس كان له دخل في ذلك ، فقد ركز نصارى الشمال هجماتهم على ما يجاورهم من الشعوب الإسلامية .

وقد أدى تطور الصراع بين الأمير عبد الله وبين المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ، الى استنجد الأول بالفونش السادس ملك قشتالة ، ذلك أن المعتمد استولى على مدينة جيان أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية . عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، ثم سار بعد ذلك في قوات كبيرة وبني بعض الحصون على مقربة من غرناطة حتى يجبرها على الخضوع والاستسلام ، لكن الوزير سماجة حشد قوات صنهاجة وأبدى شجاعة فائقة في الدفاع عن المدينة ، فاضطر ابن عباد أن يعود بخفى حنين (٧٥) .

وإزاء تزايد أطماع المعتمد بن عباد في غرناطة ، قرر الأمير عبد الله بتوجيه من وزيره سماجة أن يعقد حلفا مع الفونش السادس ملك قشتالة على نمط معظم ملوك الطوائف ، يتعهد له فيه بتأدية جزية قدرها عشرون ألف دينار ، وبعد توقيع المعاهدة أمده الفونش ببعض قواته ، وقام الأمير عبد الله عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م بالاغارة على أراضي أشبيلية المجاورة لمملكته ، واستطاع أن يسترد حصن قبيرة في جنوب غربى جيان (٧٦) .

(٧٤) ابن الكردبوس ، الأكتفاء في أخبار الخلفاء ، ص ٨٩ .

خليل السامرائي ، المرجع نفسه ، ص ١٤٨ .

(٧٥) ابن دأى ، دكراته ، ص ٦٩ — ٧٦ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ١٤٢ .

(٧٦) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ — ٧٦ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

وفي العام التالي (٦٧٠ هـ / ١٠٧٥ م) سار الفونش السادس الى مملكة أشبيلية وغرناطة ومعه وزيره (ششند) مطالباً بالجزية ، فرفض ملك غرناطة دفعها ، لاستبعاد مهاجمة النصارى له لبعده ببلاده وحصانته . وانتهز المعتمد بن عباد ووزيره ابن عمار الفرصة ، وبعثا الى الفونش السادس وعقدا معه حلفا على أن يتعاون الطرفان في افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة للمعتمد وأن يكون سائر ما فيها من الأموال للملك قشتالة ، وأن يؤدي المعتمد اليه فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار . هكذا بلغ التردى والنذالة بين ملوك الطوائف (٧٧) .

وقد باننت نتيجة هذا الحلف أو هذه المؤامرة على الفور ، اذ قامت قوات من النصارى وعمدت الى تخريب بساتين غرناطة ولا سيما أراضي مرجها المشهور . وساعدت الظروف غرناطة على الصمود عند ما تم توجيه ضربة قاسية لابن عباد بسقوط قرطبة التي كانت في حوزته في يد المأمون بن ذي النون عام ٦٧٠ هـ ، وانتهزت غرناطة الفرصة واحتلت الحصن الذي بناه ابن عمار بمساعدة النصارى بالقرب من غرناطة (٧٨) .

ولكن ابن عمار وزير المعتمد بن عباد لم ييأس ، وحاول مرة أخرى تحريض الفونش السادس على غزو أراضي غرناطة وزين له سهولة السيطرة عليها . وعندئذ رأى عبد الله بن بلقين أمير غرناطة أن يتفاهم من جديد مع الملك النصراني الفونش السادس ملك قشتالة ، فسار اليه بنفسه ، وأسفرت المفاوضات بينهما عن نعهد عبد الله بأن يؤدي جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف منقال من الذهب ، وأن يسلم له بعض الحصون الواقعة جنوب غربى جيان ، وهذه باعها الملك النصراني بدوره لابن عباد (٧٩) .

وقد قلنا في حديثنا عن الأحوال الداخلية لمملكة أشبيلية ان ابن عمار وزيره المعتمد كان وزيرا مغامرا ولا يعمل الا لمصلحته الخاصة ، وانه كان

(٧٧) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧١ ، ابن بسام ، للخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

(٧٨) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧١ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ١٤٣ .

(٧٩) ابن بلقين ، المصدر نفسه . ص ٦٩ - ٧١ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

على اتصال بملك قشتالة ويعمل لحسابه في أحيان كثيرة . ولذلك فبمجرد أن تمكن المعتمد من قتل ابن عمار عقب خيائته وتمرده عليه ، تم الصلح بين مملكة غرناطة ومملكة أشبيلية وسويت جميع الخلافات بينهما عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، لكنهما لم يتخذا موقفا موحدًا ازاء تهديد نصارى الشمال بسبب ضعف المملكتين ، واقتصر الأمر على مجرد التشاور وتحذير كل منهما الأخرى اذا ما أحست باقتراب النصارى (٨٠) .

ولما كانت كارثة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م بسقوط طليطلة في يد الفوننش السادس ملك قشتالة ، كان عبد الله بن بلقين من المحبذين لاسندعاء المرابطين ، وشارك في الحملة الأندلسية المرابطية المشتركة التي حققت النصر في موقعة الزلاقة في العام التالى على الفوننش السادس وهزمته هزيمة ساحقة . لكن الفوننش استطاع أن يجمع شتات جنده وأن ينهض من عثرته ، وساعده دول أوروبا والبابوية على التصدى من جديد للمسلمين ، ولم يمض عامان حتى منى المسلمون بالفشل أمام حصن لبيط ، وهو حصن زرعه الفوننش في قلب الدولة الإسلامية جنوبى الأندلس ، وقام الفوننش وهدد سرقسطة ، فقام صاحبها ومن يليه من حكام شرقى الأندلس بدفع الجزية له من جديد (٨١) .

بعد عودة ابن تاشفين الى بلاده عقب فشله أمام لبيط عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، امتد تهديد الفوننش السادس الى جنوبى الأندلس وأرسل قائده (البرهانس) لقبض الجزية من غرناطة وألمرية ، وكان نائباً له في هذه المنطقة ، فخاف ابن بلقين خصوصاً بعد أن هدده البرهانس بالاستيلاء على وادى أشس ، فأرضاه ابن بلقين ببعض الأموال ، وعاد البرهانس يطلب أرضاء الفوننش ، ولما امتنع ابن بلقين بحجة ضيق ذات اليد ، تحرك الفوننش على الفور وأرسل رسوله لطلب الجزية عن ثلاثة أعوام مضت ، منذ أن امتنع المسلمون عن دفعها بعد الزلاقة عام ٤٧٩ هـ (٨٢) .

اضطر ابن بلقين أن يدفع ثلاثين ألفاً من قطع الذهب من ماله الخاص حتى لا تشكوه الرعية لابن تاشفين ، وجدد مع الفوننش معاهدة التحالف ، على ألا يتعرض له ولا يهدد بلاده بعد ذلك ، وأن يحميه من خطر المرابطين .

(٨٠) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ج ٨٢ ، انظر ، الفصل الأول من الباب الثالث ص .

(٨١) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ج ٨٢ ، ص ١٢٢ .

(٨٢) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ج ٨٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٥ .

وأن يقوم بالدفاع عنه ضدهم . وحاول رسول الفونش أن يضرب غرناطة بأشبيلية وأن يحرضها على غزوها ، ولما لم تنجح محاولته عزم الفونش على مهاجمتها بنفسه إذا لم تدفع الجزية . ورغم تحذير ابن بلقين للمعتد ابن عباد حتى يحتاط لنفسه ، إلا أنه أساء الظن واعتقد أنه اتفق مع الفونش على ذلك (٨٣) .

وكان ملوك الطوائف قد أحسوا بتغير نفس يوسف بن تاشفين لما لاحظوه من تدهور أحوالهم وازدياد خلافاتهم ، وظلمهم لرعييتهم وعيشتهم عيشة الترف ، مع تقصيرهم في نفس الوقت عن الدفاع عن بلادهم . لذلك سوغوا لأنفسهم الاتصال بالفونش السادس سرا واتفقوا معه على مدافعة المرابطين عن الجزيرة ، وأن يصيروهم له طعمة إذا ما عادوا إليها مرة ثالثة ، على أن يتركهم على ما بأيديهم عمالا يجبون له من الرعية الأموال وبدفعون له الجزية . وما أن عبر ابن تاشفين البحر إلى الأندلس في جوازه الثالث ، حتى قاموا باغرائه بالهجوم على غرناطة ومالقة والمرية ، وشفلوه بها عن التقدم للمهجوم على النصاري ، حتى يدبروا فيما بينهم وبين النصاري خطة الفدر بقوات المرابطين (٨٤) .

وكان ابن تاشفين يدرك ذلك تماما ويعرف نواياهم ، وانصاع لما يريدون وهاجم تلك البلاد حتى يكشفهم لجمهور المسلمين ، ويقيم الحجة على غدرهم وخيانتهم بما سوغ له القضاء عليهم جميعا . وحدد ابن تاشفين أهدافه بقوله « إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للفرز ، وتواكلهم وتخاذلهم وإبنارهم الراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وثبنة تسمعه ، وهو يقطع به أيامه . ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ولأملأنها عليهم — يعني الروم — خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برغد العيش . إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستقره ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبي دعوته » (٨٥) .

وقد بين ابن تاشفين سر مصيبة الأندلس في هذه العبارة الموجزة ، كما بين طرق العلاج . وكان العلاج هو خلع جميع ملوك الطوائف وإعادة الوحدة

(٨٣) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٥ - ١٢٨ .

(٨٤) ابن الكرجيوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

(٨٥) الملكتي ، المعجب ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

السياسية والعسكرية الى البلاد من جديد ، حتى تستطيع الصمود أمام
التصارى الذين نهضوا من جديد وفرضوا الجزية على مسلمى الأندلس ،
وكان الزلافة لم تكن . وكانت النية متجهة الى غرناطة ، فوقع أميرها ابن
بلقين فى حيرة كبيرة بعد أن عرف تصميم ابن تاشفين على خلعها (٨٦) .

وقد دافع ابن بلقين عن نفسه فى كتابه « مذكرات الأمير عبد الله »
وقال انه لم يفصل بالفونش لأنه لا يستطيع مقاومة المرابطين حتى تصله
مساعدة الفونش ، وحنى على فرض وصول المساعدة ، فان الفونش يمكن
أن يتركه دون قوة نحميه ، حينئذ سيكون لقمة سائغة للمرابطين الذين
يحل لهم قتله بالكناب والسنة ، حسب أقواله . ورغم هذا الدفاع فقد أجمع
كثير من المؤرخين الموثوق بهم على خيائته وخداعه ، ويقولون انه أول من
أعلن العصيان على ابن تاشفين بعد أن سجن أحد أتباعه الذى كان قد دعاه
فى الحصن الذى كان يتولاه ابن تاشفين (٨٧) .

ونصرفات ابن بلقين نفسها دليل على نيته فى مقاومة المرابطين ، فقد
أخذ يعمل لاختزان الأقوات ، وجدد الأسوار وأعلى الأبراج وشحنها بالرجال
والسلاح ، وأودع أمواله وذخائره قصبة المنكب لمفاعتها وحصانتها . ثم
أرسل الى الفونش أموالا وهدايا نفيسة ، مستصرخا به ضد المرابطين ،
مرتميا تحت قدميه ، ففرح بذلك الفونش وقبل المال والهدايا وأقسم بأؤكد
الايمان أنه لن يتركه يقع فريسة للمرابطين ، وأنه سيسمى اليه بنفسه
ويدافع عن ملكه ، فتقويت نفس ابن بلقين وزاد أمله فى بقاء ملكه . وفى ذلك
يقول السمسارى أحد الشعراء : (٨٨)

صاحب غرناطة سفيه	وأعلم الناس بالأمور
صانع الفونش والتصارى	فانظر الى رأيه الدبير
وشاد بنيائه خلافا	لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاها	كأنه دودة الحرير
دعوه مبنى فسوف يدرى	إذا أتت قدرة القدير

(٨٦) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

(٨٧) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ابن عدارى ، المصدر نفسه .

ج ٣ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٨٨) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، ابن الخطيب ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

ورغم هذه التدابير التى اتخذها أمير غرناطة الا أنها لم تثبت ان سقطت.
فى يد المرابطين عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م وانتهت بذلك دولة بنى زيرى فى
غرناطة (٨٩) .

٦ — علاقة مملكة بطليوس بالمالك النصرانية فى أسبانيا :

كان يحكم هذه المملكة عقب انهيار الدولة العمارية فى بداية القرن
الخامس الهجرى أحد فتيان الحكم المستنصر ويسمى سابور ، وكان يدبر
أمره وزير يسمى عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الألفطس ،
ولما مات سابور قام ابن مسلمة بتدبير الأمر لولديه الصغيرين . وفى تلك
الأناء تعرضت المملكة الى هجمات الفونس الخامس ملك ليون

(٣٨٩ — ٤١٨ هـ / ٩٩٩ — ١٠٢٧ م) ، ففى عام ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م هاجم
هذا الملك النصرانى أراضى المسلمين المجاورة له فى شمال بطليوس.
التى تعرف الآن بالبرتغال ، وافسح بعض حصونها ، ثم حاصر مدينة
بازو . فدافع عنها سكانها بشدة ، واستطاع أحد رماثها المسلمين
أن يصوب سهمه المسموم الى الملك النصرانى فأصابه ومات متأثرا
بجراحه (٩٠) .

انتهز الوزير ابن مسلمة بن الألفطس الفرصة واستقل بالمملكة وخلص ابنى
سابور عن العرش ، وظل يحكمها حتى توفى عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، فخلفه
فى حكمها ابنه المظفر محمد (٤٣٧ — ٤٦١ هـ / ١٠٤٥ — ١٠٦٨ م) ، وهو
صاحب الناليف الكبير المسمى « المظفرى » الذى يقع فى نحو خمسين مجلدا .
وقد تعرض المظفر الى هجمات جاريه ، من الشمال بنو ذى النون فى طليطلة ،
ومن الجنوب بنو عباد فى أشبيلية ، لكن أخطر ما تعرض له المظفر هو ما قام
به فرديناند الأول ملك قشتالة وليون من هجمات (٩١) .

وكان فرديناند (فرناندو) يرقب تطور الأحداث لدى جيرانه المسلمين
باهتمام ويتحين فرص العمل ، وكانت أطراف مملكة بطليوس الشمالية الواقعة
بين نهر التاجة ودويرة تشمل منطقة نائية مجردة من وسائل الدفاع القوية
وتكاد تكون معتمدة فى الدفاع على نفسها، فالتجته أنظار فرديناند اليها واخترتها

(٨٩) للضبى ، المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(٩٠) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، أعمال الاعلام . ج ٢ ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٣ .

(٩١) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

بقواته عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، واستولى أولا على مدينتي لايجو (مليقة) ، و (بازو) الواقعتين في شمال البرتغال الحالية ، واللّتين كان المسلمون قد عمروهما منذ أيام المنصور بن أبى عامر . ولم يلق الغزاة دفعا يذكر ، ولم يعن ابن الأنطس بنجدتها ليقينه من عقم المحاولة . واسترق فرديناند سكان المدينتين الإسلاميتين وأسكنهما بالنصارى (٩٢) .

ويبدو أن تلك الكارثة لم تذهب بشجاعة المظفر الذى رفض دفع الجزية لفرديناند ، مما جعله يرسل حملة قوية من ثلاثين ألف جندي منهم عشرة آلاف فارس ، وهى قوة كبيرة جدا بمقياس العصر ، واتجهت تلك الحملة الى شنترين أو شنتمرية الغرب وهى من أهم وأفضل مدائن ذلك الثغر . وكان المظفر قد علم سلفا بمقدم الحملة فسبقتها الى هناك ونظم الدفاع عن المدينة حتى لا تسقط مثل بازو ولايجو من قبل . ولما وصلت قوات فرناند أسقط في أيديهم ، واضطر قائدهم للتفاوض مع المظفر ، وانتهت المفاوضات بعقد الصلح على أن يدفع المظفر جزية مقدارها خمسة آلاف دينار كل عام (٩٣) .

على أن أعظم خطب نزل بالمسلمين وبمملكة بطليوس يومئذ ، هو ضباع مدينة قلمرية أعظم مدن البرتغال الشمالية عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، وكان قد افتتحها المنصور بن أبى عامر منذ ثمانين عاما في سنة ٣٧٥ هـ . وكانت يومئذ تحت حكم مولى من موالى ابن الأنطس يسمى (رانده) . وكان رانده لديه من الفرسان حوالى خمسة آلاف . ولما وصل فرديناند الى المدينة وضرب حولها حصارا استمر ستة أشهر ، وتباطأ ابن الأنطس عن إرسال النجدة الى المدينة ، تفاوض حاكمها رانده سرا مع فرديناند على أن يسلمه المدينة ويؤمنه على نفسه وأهله (٩٤) .

وبموجب هذا الاتفاق غادر رانده وأهله المدينة ليلا واستمر أهلها في الدفاع حتى نفذت أقواتهم فطلبوا التسليم والأمان ، فرفض فرديناند واقتحم المدينة عنوة ، فقتل الرجال وسبى النساء والفرية ، وعين مستشارهم

(٩٢) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

(٩٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ .

(٩٤) ابن حنّان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

شسندو حاكمها لها ومنحه لقب الكونت ، وعمد فرديناند بعد ذلك الى اخراج السكان المسلمين من سائر الاراضى الواقعة بين نهري دويرة ومنيو (منديجو) ، تنفيذا لخطته في اخلاء المسلمين من الاراضى المجاورة لمملكته شيئا فشيئا (٩٥) .

وقد وقعت كارثة سقوط قلهرية في غربى الأندلس في نفس العام الذى سقطت فيه بريشتر في أقصى الشمال الشرقى للأندلس على يد حملة صليبية دعا لها بابا رومة حسبما فصلنا من قبل . ولم يتم سقوط قلهرية الا بعد أن قدم رهبان دير لورنان المؤنة والميرة المخزونة عندهم لجيش فرديناند الذى نفذت ممرته نظرا لطول الحصار حتى أنه فكر في فك الحصار عن المدينة . وهذا بالطبع يؤكد أن الحرب كانت تنسم بالصفة الدينية منذ ضياع سردينية من يد مجاهد العاقرى عام ٤٠٦ هـ (٩٦) .

ازداد ضغط فرديناند على الثغور الغربية ، وضرب على أهلها الجزية حتى ضعفت ، لكن من الله عليها بفترة من الهدوء عقب وفاة فرديناند بعد ذلك بعامين في سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م ، وقيام الحروب الأهلية بين أولاده حسبما فصلنا من قبل حول العرش ، والتي شغلته عن التفكير في العدوان على اراضى المسلمين . ولما خلص عرش قشتالة وليون الى ولده ألفونش السادس اتجهت أطماعه ناحية مملكة طليطلة وأشبيلية حسبما نفصل فيما بعد (٩٧) .

ولم يلبث المظفر بن الألفطس أن توفي هو الآخر عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وقام الصراع بين ولديه يحيى المنصور (٤٦١ — ٤٦٤ هـ / ١٠٦٨ — ١٠٧٢ م) وعمر المتوكل (٤٦٤ — ٤٨٤ هـ / ١٠٧٢ — ١٠٩١ م) ، واستعان أولهما بالمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، واستعان الثانى بالمعتد بن عباد صاحب أشبيلية ، وخربت البلاد بسبب تلك الفتنة التى زادها ألفونش اشتعالا بضرب الأخوين كل بالآخر ، ولم تنته تلك الفتنة الا بموت يحيى ، فانفرد المتوكل بحكم المملكة التى تمتعت في عهده بفترة من السلام والأمن والرخاء (٩٨) .

(٩٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ ، ابن الخطيب ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

(٩٦) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٩٧) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

(٩٨) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

وقد تدخل عم المتوكل في شئون مملكة طليطلة حيث حكمها حوالي عشرة أشهر من عام ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ، عندما ثارت طليطلة على ملكها الضعيف القادر بن ذي النون عقب قتله لوزيرها المحبوب ابن الحديدي . غير أن القادر استعان بالفونش السادس ملك قشتالة الذي عاونه في الرجوع الى عرشه ، وعاد المتوكل الى بطليوس بعد أن وضع يده على الكثير من أموال القادر وذخائره (٩٩) .

وبدو أن الفونش أراد أن ينتقم من المتوكل لمساعدته أهل طليطلة على الثورة ضد القادر الذي كان يعتبره تابعاً له ، فجرد حملة على مدينة قورية في أطراف مملكة بطليوس الشمالية وحصنها المنيع على نهر تاجة ، واستولى عليها في نفس العام (٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م) وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمامه لكي بجتاح أراضي بطليوس بسهولة . وجرت بينه وبين المتوكل مصادمات كثيرة انتهت الى ضعف بلاده واستيلاء الفونش على بعضها . فشعر المتوكل بدنو الكارثة وكان أول من كتب الى المرابطين عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م يشكو اليهم سوء الأحوال (١٠٠) .

ولما قرب سقوط طليطلة في يد الفونش السادس عام ٤٧٨ هـ ، لم يذهب المتوكل اليها محاولاً انقاذها من يد النصاري بناء على طلب صاحبها القادر حسبما أشار البعض (١٠١) اذ تروى اوتق المصادر أن القادر تخلى عنها عندما عجز عن البقاء في حكمها ازاء التهديد المستمر لها من قبل الفونش ، واتفق معه على تعويضه ببلنسية ، وحدث هذا فعلاً كما فصلنا حين الحديث عن بلنسية . وكانت اغاثة المتوكل بن الأقطس لأهل طليطلة الذين أرسلوا له صريخ الاستغاثة ، فأرسل ولده الفضة والى ماردة في جيش قوى محاولاً رد النصاري عن مدينة طليطلة ، ولكنه لم يستطع مغالبة جيوشهم المتفوقة عليه في العدد والعدة ، فارتدت جيوش بطليوس بعد أن خاضت بعض المعارك التي لم توفق فيها (١٠٢) .

(٩٩) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، ابن بسام ، الخيرة ، ق ٤ ، ج ٩ ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(١٠٠) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٢٠ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٩١ .
(١٠١) قال بذلك الأستاذ/محمد عبد الله غنان (انظر ، دول الطوائف ، ص ٩٠) ، وتابعه على ذلك خليل ابراهيم السمرسي (انظر ، علاقات المرابطين ، ص ١١٦) .
(١٠٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٩١٨ .

وبعد سقوط طليطلة في يد الفونش السادس ملك قشتالة عام ١٠٨٥ هـ شعر انه أصبح قادرا على تحدى دول الطوائف جميعا وعلى القضاء عليها ، فأرسل الى المتوكل بن الأفطس يطلب منه تسليم بعض قلاع حصونه ، وأن يؤدي له الجزية ، ويتوعده بشر العواقب اذا رفض . ولم يك ثمة شك في خطورة هذا التهديد بعد أن سقطت طليطلة حصن المسلمين الأول على نهر التاجة الذى عبره النصارى لأول مرة ، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من القواعد الأخرى مثل أشبيلية وبطليوس وقرطبة (١٠٣) .

ولم يخضع المتوكل ابن الأفطس لتهديد الفونش السادس ورد عليه برسالة قوية كلها اباء وشمم ، وندب قاضيه أبا الوليد الباجى ليطوف بحواضر الأندلس ويتصل بالرؤساء ويدعوهم الى لم الشعث وتوحيد الكلمة ومداومة العدو . فقام بالمهمة لكنه لم يجد منهم أذنا صاغية ، وكان هم كل واحد منهم أن يرضى عنه ملك النصارى والا يفكر في خلعه وازالته . وازاء ذلك اتخذ المتوكل وزميله المعتمد بن عباد كان هو الآخر عرضة للامتهان والعدوان المتصل من جانب الفونش أخطر قرار سياسى في تاريخ البلاد في ذلك الوقت وهو استدعاء المرابطين . وقد انتهت الينا رسالة من هذا الأمير العالم الشجاع ابن الأفطس كان قد أرسلها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين يصف له فيها محنة الأندلس ، وما هى عليه من تفرق وضعف ويستنفره فيها الى الجهاد (١٠٤) .

وقد نشبت المعركة الفاصلة بين الفونش السادس وبين الأندلسيين والمرابطين على أرض بطليوس في مكان قريب منها يعرف بالزلاقة ، وحقق المسلمون نصرا عظيما على قوات النصارى مجتذعة ، واختفى تهديد الفونش السادس للمتوكل وغيره من ملوك الطوائف الى حين ولما فشل المسلمون في حصار حصن لبيط بعد الزلاقة بعامين (٤٨١ هـ / ١٠٨٧ م) شعر المرابطون بضرورة خلع ملوك الطوائف جميعا اذا ما أرادوا انقاذ البلاد من التهديد النصرانى ، لأن هؤلاء الملوك هم الذين مكثوا بسياساتهم الخرقاء للنصارى من السيطرة والتحكم في مصير شبه الجزيرة (١٠٥) .

(١٠٣) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٩٠ .

(١٠٤) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ٢١ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٩٠ - ٩٣ .

(١٠٥) السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

وكما أصابت الحيرة من قبل الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ،
ثم أصابت أيضا المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وصار كما يقول
زميله الأمير عبد الله ، يخلط في سياسته ، فطورا يخاطب أمير المسلمين ويظهر
له الطاعة وتارة يرسل لأفونش يعرب له عن صداقته ويطلب مساعدته
ضد المرابطين ، وكان قرب بلاده من النصارى يشجعه على ذلك . لكنه
عندما رأى ما نزل بالأمير عبد الله عام ٤٨٣ هـ على يد المرابطين ، راسل
أفونش وسلم له مدينة شنترين على أن يدافع معه ضد هذا الخطر
الزاحف ، فانحرفت الرعية عنه وراسلوا المرابطين يطلبون منهم سرعة
الحضور حتى لا يستولى النصارى على بطليوس نفسها (١٠٦) .

وصلت جيوش المرابطين الى بطليوس وقبضوا على المتوكل وأهله
وعبيده ، وقتلوا ابنه صبيرا أمام عينيه ثم قتلوه هو الآخر ، وبذلك تم
القضاء على دولة بنى الأفطس في بطليوس وغربى الأندلس عام ٤٨٧ هـ /
١٠٩٤ م ، ولم يبق منهم الا ابن للمتوكل يسمى المنصور ، وكان هو الذى
فصح أباه بالارتقاء فى أحضان أفونش وترك البلد واللجوء اليه ، أو الاخلاص
لابن تاشفين الذى لا بد عازله عن ملكه (١٠٧) .

وكان المتوكل قد احتاط قبل قتله وأرسل ابنه المنصور بذخائره الى
حصن شانجش القريب من قشتالة ، فتحصن فيه المنصور ، ولما رأى
ما حل بأبيه وأخويه توجه بأهله الى أفونش ، وسلم له الحصن وأقام فى
قشتالة ، وصار يدا من أيادى النصارى ، يساعدهم على مهاجمة بلاد
المسلمين ، وقيل انه دخل فى دينهم حنقا لما جرى لأسرته على يد
المرابطين (١٠٨) .

٧ - علاقة مملكة طليطلة بالممالك النصرانية فى أسبانيا :

كان يحكم مملكة طليطلة بنو ذى النون من البربر ، وكانت تلك الأسرة
البربرية تحكم فى مدينة شنت برية Santaver من مقاطعة كونكة جنوبى

(١٠٦) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٧٢ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ١٨٧ .

ابن حيان برواية ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(١٠٧) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .

ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

(١٠٨) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .

طليطلة . وبعد سقوط الخلافة الأموية بخمس سنوات أرسل أهل طليطلة إلى عبد الرحمن بن ذى النون حاكم شنت برية يعرضون عليه ولاية بلدهم ، فأرسل إليهم ابنه اسماعيل فنولى حكم طليطلة وملحقاتها (٤٢٧ — ٤٣٥ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٤٣ م) وتسمى بالظافر واعتد على أحد أعيانها المسمى أبو بكر بن الحديدى ، وعاصر بداية الحروب الأهلية التى نشبت بين أولاد شانجة الكبير عقب وفاته عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م . وكان فرديناند ملك قشتالة يخوض الصراع ضد أخوته الثلاث الباقين ، حتى يفوز بحكم المملكة منفردا ، ولذلك لم يحدث المراجع والمصادر عن علاقة بين فرديناند وبين الظافر اسماعيل بن ذى النون (١٠٩) .

تولى حكم طليطلة بعد وفاة الظافر ابنه يحيى بن اسماعيل وتلقب بالمأمون (٤٣٥ — ٤٦٧ هـ / ١٠٤٣ — ١٠٧١ م) وكان من أشهر ملوك بنى ذى النون ، وفى عهده اتسعت المملكة وبلغ الترف والنعيم أقصاه . ويتنل ذلك فى اعدار (ختان) المأمون لأولاده ، هذا الاعذار الذى بلغ مضرب الأمثال فى الاسراف وشدة الاحفال حتى سمي بالاعذار الذنوبى . أما عن علاقة المأمون بجيرانه المسلمين فقد سبق الحديث عن صدامه المستمر مع سليمان بن هود ملك سرقسطة ، ذلك الصراع الذى استند مدة ثلاث سنوات (٤٣٥ — ٤٣٨ هـ) واتى على الحرث والنسل وأجبر كلا منهم على الاستعانة بملوك قشتالة ونبرة وأمرأ برشلونة ودفعوا لهم الجزية (١١٠) . وفى تلك الأثناء كان فرديناند قد استطاع أن يعيد الوحدة إلى المملكة الأسبانية النصرانية ووجه اهتمامه إلى جيرانه المسلمين ، وكان يطمح إلى إخضاعهم جميعا لا سيما ابن عباد وابن ذى النون ، وهما يومئذ أقوى ملوك الطوائف جميعهم وأعظمهم شأنًا . وكان عنده من الروح الحربية والحمية القومية والغيرة الدينية ما لم يكن عند هؤلاء الملوك (١١١) .

وقد أعد جيوشه عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وهاجم أخيرا مملكة طليطلة فى أقاليمها الشمالى والشرقى ، ولا سيما مدينة سالام ووطنكة ووادى الحجارة وقلعة النهر (الكالا دى هنارس) ، وعاك فى نواحيها تخريباً

(١٠٩) أرسلان ، لطل السندسية ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

(١١٠) أنظر ، الفصل الأول من الباب الثالث ، ص

الفصل الثالث من الباب الثالث ، ص

(١١١) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٣ ، دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ١٧٠ .

وسبيا ، فطلب أهل هذه المدن النجدة من المأمون ملك طليطلة ، فجمع بدوره مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة ، وسار بنفسه الى معسكر الملك النصراني ، وقدم اليه الهدايا وأعلن اعترافه بطاعته وتعهده له بإداء الجزية (١١٢) .

وقد أثرت هذه التبعية للملك قشتالة عند ما قام المأمون بعد ذلك بثلاثة أعوام ، واستولى على مملكة بلنسية (٥٧٠ هـ / ١٠٦٥ م) من يد صهره عبد الملك بن عبد العزيز بن عامر الذي كان قد أساء معاملة ابنته ، ورفض مساعدته بالجند في حروبه ضد ملوك الطوائف الآخرين . وتشير بعض الروايات الى أن المأمون استعد سرا لغزو بلنسية ، واستعان بقوة من الجند النصارى أمده بها حليفه فرديناند الأول وصاحب السيادة عليه ، وأن القوات المتحالفة داهمت بلنسية فجأة وهزمت جيوشها وأهلها في معركة بطرنة وأسرت ملكها في ذى الحجة من ٥٧٠ هـ أكتوبر ١٠٦٥ م (١١٣) .

وهذا لا يناقض ما سبق أن اشرنا اليه من هجوم فرديناند على أطراف بلنسية بعد هجومه على سرقسطة عند امتناعها عن دفع الجزية ، واستدعاء ملك بلنسية لصهره المأمون لمساعدته في الدفاع عن مملكته . ذلك أن المأمون نفسه كان تحت حماية فرديناند وليس هناك ما يمنع من استعانته بفرقة قشتالية لتحقيق أطماعه في مملكة بلنسية . إذ كان الفدر والخيانة طابع للعصر سواء عند مسلى الأندلس أم عند نصارى الشمال (١١٤) .

ولم يمض على وقعة بطرنة قليل حتى توفي فرديناند ملك قشتالة (٥٨٠ هـ / ديسمبر ١٠٦٥ م) ، واثارت بين أولاده الثلاثة شائجة ملك قشتالة والفونش ملك ليون وغرسية ملك جليقية ، حرب أهلية استمرت أعواما وانتهت مرحلتها الأولى في سنة ٦٣٠ هـ / ١٠٧١ م بانتصار شائجة واغتصاب ملك أخويه ، وهرب الفونش (الفونسو السادس فيها بعد ، وهو الذى استولى على طليطلة عام ٤٧٨ هـ) الى طليطلة والتجأ عند ملكها المأمون بن ذى النون ، وهرب غرسية عند ملك اشبيلية وذلك عام ٦٣٠ هـ . وعاش الفونش في بلاط المأمون زهاء تسعة أشهر حتى قتل أخوه شائجة

(١١٢) نفس المصدرين السابقين .

(١١٣) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٢ - ٢٨٦ .

(١١٤) أنظر ، الفصل الثالث من الباب الثالث ، ص

عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م فرجع الفونش الى بلاده مزودا بكثير من التحف والهدايا ، وبعد أن شطع للمأمون عهدا باحترام مملكته ودوام علاقات الصداقة بين المملكتين ، وأن يعاونه ضد خصومه من ملوك الطوائف (١١٥) .

وتحدثنا بعض الروايات بأن الفونش السادس ما كاد يعتلى عرش ليون وقشتالة حتى أراد أن يعرب عن عرفانه للمأمون بن ذى النون ، وذلك بأن يساعده في حربه ضد ابن عباد ، وأمدّه ببعض قواته ، وسار معه الى قرطبة ، واستطاع المأمون بذلك أن يستولى عليها . ولكن الروايات الاسلامية توضح ان سيطرة المأمون على قرطبة كانت بتدبير مبعوثه (حكم ابن عكاشة) الذى اتصل بجندها ودبر مؤامرة تمكن فيها من قتل ابن المعتمد والاستيلاء على المدينة عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م (١١٦) .

بهذا النصر الذى حققه المأمون ضد قرطبة والذى لا يحمل في طياته الا الغدر والسقوط السياسى ختم حياته ، فقد مات في نفس العام (٤٦٧ هـ) وخلفه حفيده يحيى الملقب بالقادر والذى وصفته المصادر بضعف الارادة والخنوع والاستسلام ، لأنه « ربى في أحجار النساء والدايات ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فملك أمره العبيد ، وحكم عليه كل خصى ومولود ، كل يدبر ملكه بارادته ، وينفرد بوزارته » فطمع في بلاده ملوك الطوائف الأقوياء ، فاستولى المعتمد بن عباد على قرطبة وسائر أعمالها ما بين طلبيرة وغافق (١١٧) ، أما المقتدر بن هود صاحب سرقسطه ، فقد استعان بالملك شانجة راميرز ملك أرغونة ونبرة وأخذ منه شنتبرية وملينة (١١٨) الواقعتان شمال شرقى طليطلة (١١٩) .

وفي نفس الوقت فقد ثار أبو بكر بن عبد العزيز في بلنسية وأعلن استقلاله عن طليطلة ، وخلع طاعة القادر بن ذى النون ، وتحالف مع

(١١٥) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٣ .

(١١٦) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٤ ، دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ٢٢٥ - ٢٣٠ .

(١١٧) طلبيرة مدينة على نهر اللانجا غربى طليطلة ، أما غافق فهو حصن من أعمال

قرطبة في شمالها على مسافة ١٠٤ كم ، أنظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(١١٨) يوجد عدة أماكن في أسبانيا باسم (ملينة) ، ولكن المقصود هنا حصن في

مقاطعة كونكة Cuenca شمال شرقى طليطلة يعرف بملينة أراجون Momino dearagon أنظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(١١٩) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

المستعين بن هود صاحب سرقسطة الذى خطب منه ابنته املا فى ان يملك بها بلنسية ، وقام شائجة راميرز حليف المستعين بالاغارة على حصن كونكة^(١٢٠) من أعمال طليطلة ، وكاد يسقط فى يد شائجة لولا ان افتداه أهله منه بمال وفير ، وحاول القادر ان يرد هجمات أعدائه ، فأرسل حملة تحت قيادة بشير الفتى وأمره بمناجزة ابن هود وابن راميرز ، فأنصرفا ، وعاد بشير دون قتال^(١٢١) .

ومما أضعف من حكم القادر وادى الى ثورة اهل طليطلة ضده ، وأدى ذلك فى النهاية الى سقوط طليطلة نفسها فى يد النصارى ، قيام القادر باغتيال وزير جده الفقيه أبى بكر الحديدى عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م . وقد أدى هذا العمل الآثم الى قيام الفتنة فى طليطلة وتحزب أهلها أحزابا ، وقام أبو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية حسبما أشرنا من قبل بخلع القادر ، ولما اشتدت الفتنة والثورة فى طليطلة استدعى القادر الفونش السادس ليعينه على قمعها فأرسل له يقول « ان كنت تريد الدفاع عن أنحائك ، وجه الى مالا ، والا سلمتك لأعدائك^(١٢٢) » .

وكان هدف الفونش هو اضعاف الحكام والرعية من المسلمين اقتصاديا حتى يسلموا بلادهم ويخربوا بيوتهم بأيديهم ، وهذا ما حدث . فقد جمع القادر اهل المدينة ، رعية وأعيانا ، اهل بدو وحضر ، وهددهم بجعلهم هم وأبناءهم رهينة عند الفونش اذا لم يجمعوا له المال المطلوب . فلم يجد اهل طليطلة مناصا من الثورة عليه عام ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م ، ففر من المدينة ليلا وقصد حصن وبذة^(١٢٣) ، فصدده صاحبه ، فلجأ القادر الى مدينة كونكة وأرسل الى الفونش وكتب اليه يستصرخه ويستعين به فى اعادته الى طليطلة . فأسرع اليه واتنقا على محاصرة طليطلة حتى بخرج عنها المتوكل

-
- (١٢٠) كونكة أو سونكة Cuenca حصن من أمنع حصون منطقة الثغر الأدنى
 طليطلة ، شمالي السهلة حيث يحكم بنو رزين . وهى اليوم قاعدة مديرية تحمل نفس الاسم .
 أنظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨١ .
 (١٢١) ابن الكردبوس المصدر نفسه ، ص ٨١ .
 (١٢٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٢ .
 (١٢٣) وبذة Huete مدينة على بعد ٥٠ كم غربى كوكه ، وكانت من الحصون الشمالية الشرقية لملكة طليطلة ، واليها كان فرار القادر بأسرته مرة ثانية عام ٤٧٨ هـ .
 أنظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

ابن الأفتس صاحب بطليوس والذي كان أهل طليطالة قد استدعوه لحكم المدينة بعد فرار القادر عنها (١٢٤) .

وكان اتفاق القادر مع الفونش على أن يعطيه جميع أموال المدينة بعد استعادتها ، لكن الفونش لم يكفه ذلك وحصل على حصون صورية وقورية ، وقام معه بحصار المدينة ، ولما لم يجد ابن الأفتس من يعينه على دفع الحصار فر هاربا ، فدخلها القادر تحت حماية الحراب القشتالية عام ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ، وقام القادر وجمع أموالا عظيمة أضافها الى أمواله الخاصة وقدمها الى الفونش ، ولما لم تف بما اتفق عليه ، أخذ منه حصن قنالش (١٢٥) رهنا ، وعاد الى بلاده محملا بأموال المسلمين التي أخذها القادر غصبا وظلما ، مما أدى الى كره الناس له ومحاولتهم قتله (١٢٦) .

حدث ذلك يوم عيد الأضحى عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨٢ م ، فقد ثار الناس ضد القادر مرة أخرى بسبب استنزافه لأموالهم واعطائها للفونش ، حتى أنه اعطاه نظير الحصن المرهين لديه مائة وخمسين ألف مثقال من الذهب وخمسمائة مد من الطعام ، ضيافة له كل ليلة طوال مدة بقائه في هذا الحصن ، أخذها القادر من أموال رعيته ومؤنهم حتى ضعفوا ، ولم يكن أمامهم الا أن يزحفوا الى قصره من جديد ، فقابلهم الجنود بالسبوف فذهبوا الى الفونش يلتمسون عنده السلوى ويشكون اليه القادر ، فأهانهم وطردهم ، فيئس الناس من البقاء في هذه المملكة ، وأخذوا في الهجرة الى سرقسطة وغيرها من البلدان المجاورة (١٢٧) .

(١٢٤) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .

ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(١٢٥) قنالش Canales تطلق على عدة أماكن في مختلف أنحاء اسبانيا

ومعناها واضح ، وهو جمع قناة أو قنال ، ولعل المقصود هنا هو قرية قنالش التي تقع في شمال طليطالة في منطقة وادي الحجارة على الحدود للقشتالية . ومن المعروف أن الأمير محمد ابن الأوسط قد بنى عدة حصون ومنها حصن قنالش في منطقة الثغر الأدنى لحماية المسلمين من جيранهم النصارى .

أنظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(١٢٦) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ،

ج ١ ص ١٢٥ .

(١٢٧) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧٧ ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

٨٤ ، ابن بسام ، للذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٩٢٦ .

ازداد الاضطراب في طليطلة وعمت البأساء وازداد الطمع في امتلاك المدينة ، وصار ابن عباد يشن عليها هجماته من الغرب ، وابن هود يذيقها العذاب من الشرق ، فأيقن القادر أنه لا طاقة له على الدفاع عن ملكه ولا سبيل أمامه الا تسليم طليطلة الى الفونش ، فكتب اليه وتخلّى له عنها وعما يتبعها من مدن وحصون ، على أن يعينه على أخذ بلنسية واقطارها عوضا عنها . لكن الفونش لم يرض الا بأن يدخل البلاد وهو سيدها ، فأخذ في حصارها وضيق الخناق على أهلها ، فوفد اليه وفد من أشرافها ، وحاولوا مساومته واغراءه بالأموال ، لكنه أبى الا أن يبتلع المدينة كلها ، ولما هددوه بأن هناك من ملوك الطوائف من يمكنه القيام معهم ضده سخر منهم وأبرز لهم سفراء من ذكروهم من الملوك وكلهم خنوع واستسلام ، فسقط في أيدي وفد طليطلة وعادوا وقد أيقنوا بسقوطها (١١٨) .

وكان موقف ملوك الطوائف الآخرين لا يدل على أدنى احتمال بالمساعدة ، فالمعتمد بن عباد يدل أن يبذل عونه للقادر عقد حلفا مع الفونش . السادس ، يتعهد فيه بأداء الجزية وبإطلاق يد الفونش في طليطلة ، على أن يساعده الأخير في نزاعه على سائر أعدائه من المسلمين . وملك سرقسطة المقتدر بن هود ، كان مشغولا بنضاله المستمر ضد هجمات ملوك أرغونة وأمراء برشلونة الذين استولوا منه على قلاع الحدود في ولبة وجرادوس وموزن . وكانت بلنسية قد عادت بعد وفاة أميرها أبي بكر الى ولائها لطليطلة ، ولكن شغلها أمير دانية ، أما بطليوس فقد شغلها المعتمد بن عباد بزحفه عليها ، فلم تستطع بطليوس مساعدة طليطلة مساعدة جدية ، إذ أن ابن الأفلح أرسل ولده الفضل على رأس بعض الجند ، لكنهم هزموا أمام تفوق قوات الفونش ، وعادوا الى بطليوس تاركين المدينة تنعى حظها المشؤم (١٢٩) .

ومما ساعد الفونش على إخضاع المدينة واقتحامها ، هو انشقاق أهلها الذين أضناهم الحصار الذي دام تسعة أشهر ، وبعد عودة وفدها بثلاثة أيام من مقابلتهم للفونش دون اتفاق أو صلح معه ، عرضت المدينة التسليم بالشروط الآتية :

(١٢٨) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

ابن نسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١٢٩) أشباح ، تاريخ الأندلس ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، علق ، المرجع نفسه ، ص ١١١ .

- ١٠ — تأمين المسلمين على انفسهم وأموالهم وعقاراتهم .
- ٢ — من شاء منهم الهجرة هاجر ومن شاء منهم الإقامة أقام ، على أن يدفع الجزية على عدد ما عنده من الأشخاص .
- ٣ — كل من يرجع بعد الهجرة الى المدينة ثانية ، فله عقاره دون أدنى معارضة .
- ٤ — يبقى المسجد الجامع في حوزة المسلمين .
- ٥ — يتعهد الفونش للقادر بأن يكون ملكا على بلنسية بدلا من طليطلة .

تم الاتفاق على هذه الشروط وتظاهر الفونش السادس بقبولها ، وفي المحرم من عام ٤٧٨ هـ / مايو ١٠٨٥ م دخل المدينة على رأس قوات قشتالة وليون ، وجنود من أرغونة ، ومتطوعين ومغامرين من فرنسا وغيرها كانوا قد أتوا للاشتراك في حملة تهم النصرانية كلها ، مما يؤكد الطابع الصليبي في استرداد طليطلة (١٣٠) .

وبعد دخوله المدينة تسمى بالامبراطور ذي الملتين (الاسلام والنصرانية) واقسم ألا يدع أحدا من ملوك الطوائف الا من أعلن خضوعه له ، وقال لرسول أحدهم — وهن ابن مشعل اليهودي ورسول المعتمد بن عباد — « كيف أترك قوما مجانيين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم ، المعنضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون ، كل واحد منهم لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفا ، قد اظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغاني والعبدان ؟! وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحدا ، وأن يدعها بين أيديهم سدى ؟ » (١٣١) .

لم يلبث الفونش الا قليلا حتى شن غاراته على جميع النواحي واستحوذ على جميع أعمال مملكة طليطلة من وادي الحجارة الى طليطلة ، ثمانين حصنا سوى القرى والمدن العامرة . عند ذلك تهافت عليه رسل ملوك الطوائف مهنيين ومباركين وواضعين انفسهم وأموالهم في خدمته ،

(١٣٠) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، دوزي ، ملوك للطوائف ص ٢٧١ .

(١٣١) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

وأنهم ليسوا إلا جباه لأمواله ونايحين لسلطانه ، وبلغ من تهافتهم وتخاذلهم واستسلامهم وضعف حميتهم أن أهدى أحدهم إلى الفوننش هدية قيمة فأعطاه بدلها قردا ، فصار يفخر بذلك على جميع ملوك الطوائف ، ويعتقد أنه حاز قبول الفوننش ورضاه (١٣٢) .

أما القادر بن ذى النون ، فقد وصفه المؤرخون بما يستحقه من أبشع الصفات . فهذا أحدهم يقول : « وخرج ابن ذى النون خائبا مما تمناه ، شرقا بعقبى ما جناه » والأرض تضج من مقامه ، وتستأذن في انتقامه . . واستقر بمحلة ادفوننش (الفونسو) مخفور الذمة ، مزال الهممة ، ليس دونه باب ، ولا دون حرمه ستر ولا حجاب ، حدثنى من رآه يومئذ بتلك الحال وبيده اصطرلاب يرصد فيه أى وقت يرحل وقد أطاف به النصارى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فعله ، وهؤلاء يتعجبون من جهله » (١٣٣) ١٠

وفى الفوننش بعهدده للقادر ومكنه من السيطرة على بلنسية ، وهو على أى الحالات لن يكون إلا تابعا له ، وبذلك مد الفوننش سيطرته على جزء من شرق الأندلس ودخل فى صراع مع السيد القمبيطور حسبها فصلنا حين الحديث عن بلنسية . أما طليطلة نفسها فقد عين لحكمها وادارتها وزيره المستعرب ششند Sisnando Davidis الذى كان يتبع سياسة اللين والتسامح وأظهر العدل لأهلها ، « مما هون عليهم الرزية وحبب اليهم اعطاء الدنية . حتى تنصر بعضهم سواء من العامة أم من ضعاف النفوس من الفقهاء أمثال الفقيه أبى القاسم بن الخياط (١٣٤) .

وكان من رأى ششند أن يلتزم سيده الفوننش بالاعتدال فى معاملة المدينة المفتوحة ، وألا يستثير أهلها لأنهم غالبية السكان ، والا يلح بالغزو على ملوك الجزيرة لأنه لن يجد عمالا أطوع منهم وحتى لا يضطربهم إلى التماس المساعدة من خارج الجزيرة . ويبدو أن الفوننش قد غره الظفر ، وأعماه الطمع ، فشتمخ بأنفه ورفض لبس التاج الذى قدمه له

(١٣٢) ابن كردوس ، المصنوع نفسه ، ص ٨٨ .

(١٣٣) ابن بسام ، المصنوع نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(١٣٤) ابن بسام ، الأخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ابن سعيد ، المغرب .

ج ٢ ، ص ٢٢ .

اتباعه قائلا أنه لن يفعل ذلك الا بعد أن يستولى على قرطبة وعلى
منازل دول المسلمين في الأندلس (١٣٥) .

وكان موقفه من تحويل مسجد طليطلة الى كنيسة بعد شهرين من
استرداد المدينة ، يدل على نقضه لاتفاقه مع أهلها في هذا الشأن . فقد
تظاهر بمقتاب الملك والمطران برنارد اللذين قاما بهذا العمل أثناء غيابه
في ليون ، لكنه لم يفعل شيئا بل أنه أصدر نائوسا تأنيق في ابداعه وتجاوز
الحدد في صناعته لوضعه في المسجد بعد تحويله الى كنيسة مما يدحض
كل رواية بغير ذلك . وهذا ابن بسام وهو من ثقات المؤرخين الذين
نقلوا عن شاهدهوا بالعيان أو استمعوا لهم ، يقول أن الفونس قد
شرع لوقته — بعد سقوط طليطلة في يده — في تغيير المسجد الجامع
بها « (١٣٦)

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى وخرجت من قبضة الاسلام
الى الأبد ، وارندت الى النصرانية بعد أن حكمها الاسلام أربعة قرون
الا قليلا ، وأصبحت حاضرة لملكة قشتالة ، وغدا قصرها منزلا للبلاط
القشتالي ، وجاء سقوطها على هذا النحو ضربة عنيفة للأندلس وسلامتها ،
نظرا لموقعها المتوسط في شبه الجزيرة والذي تستطيع منه أن تهدد جميع
دول الطوائف . وبذلك انقلب ميزان القوى وأصبح تفوق النصرانية أمرا
لا شك فيه ، وقد عبر عن ذلك شعراء المسلمين فقال أحدهم شعرا
يفيض بالأسى والحزن على فقد طليطلة وضياع البلاد . (١٣٧) .

ومن جهة أخرى فقد كان لتلك النكبة التي حلت بالاسلام والمسلمين
عميق الأثر في الأندلس والعالم الاسلامي ، فقد ارتاع ملوك الطوائف جميعا
وأدركوا بعد فوات الأوان أنها نذير بالقضاء عليهم واحدا بعد الآخر ،
ولأول مرة نبذوا خلافاتهم واتجهوا بأنظارهم جميعا الى ما وراء البحر

(١٣٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ص ٤ ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(١٣٦) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

برنيسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(١٣٧) شكيب أرسلان ، الحلل المنسية ، ج ١ ، ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

يلتمسون عون اخوانهم من المرابطين الذين كان لتدخلهم في سير الحوادث بالأندلس أعظم الآثار ، وكان رائدهم في دعوة المرابطين لانقاذ الاسلام هو المستهد بن عباد صاحب أشبيلية (١٣٨) .

٨ - علاقة مملكة أشبيلية بالمالك النصرانية في اسبانيا :

انتهت الفئنة البربرية التي قامت في مطلع القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى بقيام الخلافة الحمودبة العلوية في قرطبة عام ٤٠٧ هـ والتي بسطت سلطانها على الجنوب الأندلسى ، وظلت أشبيلية خاضعة لها حتى استقلت عنها عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م اثر الصراع الذى قدام بين القاسم بن حمود وابن أخيه يحيى بن على بن حمود على كرسى الخلافة في ذلك الوقت . وكان عماد استقلالها تلك الأسرة القوية من بنى عباد اللخمين وعميدها القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل ابن عباد اللخمى الذى كان وحده يملك ثلث كورة اشبيلية (١٣٩) .

وفي عهد أبى القاسم بن عباد الذى استمر حتى عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ كان الصراع محتدما بين أشبيلية وبين جيرانها في الجنوب من بنى زيرى . حكام غرناطة وبنى حمود خلفاء مالقة ، لذلك كان السلام مخيما على العلاقات بين أشبيلية وبين ممالك الشمال النصرانية الأسبانية في هذه الفترة ، سوى ما سبق أن أشرنا اليه من قيام أبى القاسم بارسال ابنه اسماعيل على رأس حملة الى مملكة ليون النصرانية ، عبر أراضى بطليوس التى قام أميرها ابن الأفطس بضرب مؤخرة الجيش الاشبيلى ، فحوصر الجيش بين عدوين ، الليونيون من الشمال وجنود بطليوس من الجنوب ، وجرى مذبحة قتل فيها الكثير من جند اسماعيل بن عباد ، ولم ينج هو الا بأعجوبة ، وعاد مع من نجا من رجاله الى أشبيلية بصعوبة بالغة (١٤٠) .

(١٣٨) غسان ، المرجع نفسه ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، أرسلان المرجع نفسه ، ج ١ ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .
Chapman, A history of spain, p. 72.

(١٣٩) رجب عبد الحليم ، دولة بنى حمود في مالقة بالاندلس ، ص ١٠٥ - ١٠٧ .
Dozy, op. cit., pp. 600, 601.

(١٤٠)

انظر ، النعل الأول من المصاحب الثالث ، ص

وفي عهد خلفه المعتضد بن عباد (٤٣٣ - ٤٦٤ هـ / ١٠٤٢ - ١٠٧٣ م) تطورت العلاقات بين أشبيلية وبين نصارى الأسبان ، فقد كان فرديناند الأول ملك قشتالة يطمح في أن يسيطر سيادته على أسبانيا كلها ، وتمكن من إخضاع بطليوس وسرقسطة وطليلة لسلطانه ودفعته له الجزية ، وجاء الدور على بنى عباد حكام أشبيلية ، ففي عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م قاد جيشه وهاجم أراضى أشبيلية وأحرق قراها فرأى المعتضد أنه من الحكمة أن يحذو حذو المأمون صاحب طليلة في إعطاء الجزية لفرديناند ، فمضى إلى معسكره ، وقدم إليه الهدايا الثمينة وتم الاتفاق بينهما على دفع جزية سنوية لم تقدرها المراجع ، أو المصادر ، وعلى أن يقوم المعتضد بتسليم رفات القديسة « خوسنا » التي استشهدت في عصر الاضطهاد الروماني^(١٤١) .

قام المعتضد بتنفيذ هذين الشرطين ، ويطنب دوزي في وصف ما أظهره المعتضد من أسى وحزن ازاء نقل رفات القديس أزيدور الذي ظهر في المنام لرسول فرديناند الأسقف « الفينوس » أسقف برغش ، ودله على قبره حينما فشل هذا الأسقف في العثور على جثمان القديسة خوستا . ولم يكن هذا الا دهاء ومكرا من المعتضد الذي حاول أن يستفيد من اثاره شفقة المسيحيين وعطفهم عليه ، مع أنه كان يسخر من ذلك اذا ما خلا إلى نفسه . على أية حال فقد توفي فرديناند بعد ذلك بثلاث سنوات وخلفه ولده شانجه في حكم مملكة قشتالة ، وكان المعتضد يدفع له الجزية واستمر في تأديتها حتى وفاته عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م .^(١٤٢)

وكان المعتضد قبيل وفاته قد استقبل غرسبة ملك جلبقية الذي هرب من طفيان أخيه شانجه ملك قشتالة ، أثناء الحرب الأهلية التي اندلعت بين أبناء فرديناند عقب وفاته عام ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م . ويبدو أن هذا كان من الأسباب التي أدت إلى موت المعتضد مسموما عام ٤٦٤ هـ ، من شات مسمومة أرسلها إليه أخد ابتاء فرديناند الذين لهم مصلحة في ذلك ،

(١٤١) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ ، دوزي ، المرجع نفسه ، ص ١٧١ .

(١٤٢) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٨ ، دوزي ، المرجع نفسه ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

أذ لم تحدد لنا الروايات الإسلامية اسم هذا الملك ، واكتفت بقولها ملك الروم أو ملك الأفرنج . ولعل هذا الملك هو شانجة نفسه الذي لم يلبث أن مات مغتالا في نفس العام على يد أخته أوراكة ، التي كانت تعمل لحساب أخيها الفونش الذي كان قد فر هو الآخر الى بلاط المأمون في طليطلة^(١٤٣) .

تولى حكم أشبيلية بعد المعنضد ابنه المعتمد (٦٤٤ — ٤٨٤ هـ / ١٠٧١ — ١٠٩١ م) ، وفي نفس الوقت كان الفونش السادس الذي استطاع أن يوحد ممالك ليون وشتالة وجليقية تحت سلطانه في تلك الفترة ، قد عزم على اتباع سياسة أبيه فريدناند في طرد المسلمين من بلاد الأندلس مستغلا في ذلك الخلافات المدمرة فيما بينهم . وكان الصراع قائما بين أشبيلية وغرناطة بعهد أن استولى بنو عباد على جيان التابعة لغرناطة عام ٤٦٦ هـ ، وقد سبق الحديث عن الحلف الذي عقده غرناطة مع الفونش السادس ضد أشبيلية عام ٤٦٦ هـ

ثم قيام الفونش السادس بحملته على غرناطة وأشبيلية في العام التالي (٤٦٧ هـ) للمطالبة بدفع الجزية ، وقيام ابن عمار وزير المعتمد بن عباد بعقد حلف مع الفونش لفتح غرناطة على أن تكون أموالها له والمدينة لابن عباد . ولم يأت هذا الحلف بنتيجة لأن الأمير عبد الله بن بلقين ملك غرناطة اتفق مع الفونش على دفع الجزية وعلى دفع ما كان قد امتنع عن دفعه منها في السنوات الماضية ، ولأنه لو تركت غرناطة تسقط في يد بنو عباد فسوف تتضخم دولتهم وربما يخلعون يد الطاعة ويتمردون ضد الفونش حسبما نصحه صاحب غرناطة نفسه^(١٤٤) .

ولما فشل ابن عمار والمعتمد بن عباد صاحب أشبيلية في تحريض الفونش ضد غرناطة ، اتجه نشاطهما الى السيطرة على امارة مرسية

(١٤٣) المراكشي ، المعجب ، ص ١٠١ ، ابن شاطر الكتبي ، المصدر نفسه ، ص ١٠٩

، (١٤٤) ابن بلقين ، مفكراته ، ص ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، أنظر ، الفصل نفسه ، ص

(تدمير) التي كانت تحت حكم آل طاهر القيسيين (أبو عبد الرحمن بن
طاهر ٤٥٥ — ٤٧١ هـ م ١٠٦٣ — ١٠٧٨ م) .

ورغم غنى أبي عبد الرحمن إلا أنه لم يكن كثير الخيل والجند مما
جعل الاسنيلاء على بلاده سهلا ميسورا . وقد لاحظ ابن عمار ذلك عندما
مر بمرسية في طريقه لمقابلة الكونت ريمون بيرنجر الثاني ملك برشلونة
ولم تكن مقابلة هذا الكونت إلا سغطية لأهداف ابن عمار الحقيقية
في السيطرة على المدينة^(١٤٥) .

وقد بدا ابن عمار مشروعه أثناء إقامته فيها بانصاله ببعض
الزعماء الناقمين على بني طاهر ، ثم خرج منها الى برشلونة حيث
عقد حلفا مع ملكها الكونت رامون عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م ، على
أساس أن يدفع له المعتمد مبلغ عشرة آلاف مثقال من الذهب ، نظير
مما لوئنه على فتح مرسية ، وأن يقدم كل من الطرفين الى الآخر
رهينة لضمان التنفيذ ، فقدم المعتمد ولده الرشيد ، وقدم ملك
برشلونة ابن أخيه . ويقول دوزي أن المعتمد كان يجهل تفاصيل هذا
الاتفاق ، لكن سلسلة الأحداث نفسها لا يدل على ذلك ولا يمكن لابن
عمار أن يعقد حلفا أو يقوم بمشروع كبير كهذا دون رأى المعتمد
أو علمه^(١٤٦) .

ولتنفيذ هذا المشروع قام ابن عباد بإرسال جيش بقيادة ابن عمار
تصحبه فرقة من جنود برشلونة وحاصروا المدينة ، ولكن المعتمد ترك الميعاد
المفتق عليه لتسليم المبلغ المطلوب يمر دون دفعه ، فارتاب ملك برشلونة
في الأمر وظن أنه قد غرر به ، فسحب قواته من مرسية وقبض على ابن
عمار والرشيد . وقام المعتمد بالقاء ابن أخى ملك برشلونة هو الآخر في
السجن ، وبعد مفاوضات ، دفع المعتمد المبلغ المطلوب ، وتم الإفراج عن
الرشيد وابن عمار ، وأفرج المعتمد بدوره عن الرهينة النصراني الذي سافر
الى بلاده^(١٤٧) .

(١٤٥) بلانسيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(١٤٦) دوزي ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، دوزي ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٥ — ٢٤٩ .

سحب المعتمد قواته من مرسية ، لكن وزيره ابن عمار أغراه مرة ثانية بغزوها ، فجهز المعتمد حبله أخرى بقيادة ابن عمار وعينه حاكما لمرسية . وقد عاونت ابن عمار قوات من قرطبة أمده بها حاكمها الفتح بن المعتمد ، كما عاونته عبد الرحمن بن رشيق حاكم حصن بليج الذى أوكل اليه ابن عمار بمهمة فتح مرسية ، فنجح فى ذلك فى عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م وقبض على ابن طاهر ، ودخلها ابن عمار فى موكب فخيم ، واخذ يظهر بمظهر الأمراء ويوقع بتوقعاتهم ، مما أثار عليه المعتمد بن عباد . ولما شعر ابن عمار بالخطر وأيقن بالهلاك ، لجأ الى الفوننش ليحتوى به بعد أن أعلن ابن رشيق استقلاله بمرسية أثناء غيابيه فى طليطلة لتحريضها ضد حاكمها لصالح الفوننش (١٤٨) .

ولما فشل ابن عمار فى طليطلة لجأ الى الفوننش ليحتوى به وليجد منه عوناً على فتح مرسية ، لكن ابن رشيق أرسل الأموال والهدايا للفوننش فأعرض عن ابن عمار وقال له « أنا لا أرى فيكم إلا أنكم جماعة من اللصوص ، فاللص الأول قد سرق ، وجاء الثانى فسرق من الأول ما سرقه ، وجاء الثالث فسلب من الثانى ما سرقه من الأول » . وعلى ذلك تحول ابن عمار الى سرقسطة حيث خدم بنى هود ، وحيث انتهى به المطاف الى القبض عليه وإرساله الى المعتمد بن عباد ، فتولى قتله بنفسه (١٤٩) .

وفى العام التالى لفتح مرسية على يد ابن رشيق وابن عمار ، أى فى عام ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م ، أرسل الفوننش ملك قشتالة الفارس القشتالى الشهير بالسيد القمببطور ، لاستلام الجزية من المعتمد ملك أشبيلية . وصادف أثناء وصوله الى بلاط المعتمد أن قوات الأمير عبد الله ملك غرناطة كانت تهاجم أراضى أشبيلية مع غرقة من الفرسان النصارى ، بموجب معاهدة الصداقة التى عقدها صاحب غرناطة مع الفوننش السادس عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، فطلب رسول ملك قشتالة من النصارى الكف عن مهاجمة أراضى ابن عباد ، تحقيقاً لمقتضيات الصداقة التى تربط الفوننش بملك أشبيلية أيضاً ، ولما رفض هؤلاء هذا النداء قام القمببطور بمهاجمتهم وهزيمتهم وأسر

(١٤٧) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

دوزى ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٧ ، صلاح خالص ، ابن عمار الأندلسى ، ص ١٢٠ - ١٢٣ .

(١٤٨) دوزى ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٨ ، ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ١٤٦ .

قائدهم الكونت عرسبه أوردينيز . فسر المعتمد وأعطاه عدا الجزية طائفة كبيرة من الهدايا والتحف (١٥٠) .

وهكذا حارب جنود قشتالة بعضها بعضا لحساب ملكي أشبيلية وغرناطة . وليس هذا بغريب اذا عرفنا أن الدولتين كانتا في حلف وصداقة مع قشتالة ، ويبدو أن جيش غرناطة كان يضم في ذلك الحين نسبة كبيرة من جند قشتالة ، ولعل الفونش السادس قد وضعهم هناك رغبة منه في اقامة توازن بين الجيوش الاسلامية المتعادية في جنوب شبه الجزيرة ، وفي الحد من أطماع ملك أشبيلية الذي كان يرنو دائما الى توسيع رقعة مملكته على حساب جيرانه من ملوك الطوائف . وهذا لا يتمشى مع سياسة الفونش التي تهدف الى اضعاف الجميع وضربهم ببعض واطالة أمد الصراع فيما بينهم (١٥١) .

ولما كانت القوة القشتالية الموجودة في غرناطة على رأسها الكونت غرسيه أوردينيز ، خصم السيد القمبيطور وأحد منافسيه في بلاط قشتالة ، فقد تحركت الأحقاد الشخصية الدفينة في نفس كلا القائدين القشتاليين ، ووجداهما فرصة لتصفية الحساب . وتمكن القمبيطور من أسر خصمه ثم أطلق سراحه ، فعاد الى برفش ذليلا مهانا مما كان له أثره في علاقة الفونش بالقمبيطور فيما بعد ، اذ لم يلبث أن نفاه بعد ذلك بعامين ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م بعد أن أوغر صدره عليه من ناحية نبلاء ليون الذين كانوا يكرهون نبلاء برفش الذين ينتسب اليهم السيد القمبيطور (١٥٢) .

ويبدو أن المعتمد بعد أن سقطت في يده مرسية عام ٤٧١ هـ كما فصلناه من قبل ، أراد أن يؤكد عودته وصداقته وتبعيته لألفونش السادس خصوصا بعد أن امتدت مملكته ووصلت الى هذا المدى الشاسع من الاتساع ، حتى وصلت الى مرسية على ساحل البحر المتوسط في شرقي الأندلس فعقد حلفا مع الفونش السادس . ويقول الأستاذ عنان أن الرواية القشتالية تقدم لنا موضوع ذلك الحلف ولكنها لا تذكر تاريخه وتقول لنا أن الوزير ابن

(١٤٩) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٢ ، ليفي بروفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٨١ .

خليل ابراهيم ، المرجع نفسه ، ص ١٠١ .

(١٥٠) ليفي بروفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٨١ .

(١٥١) ليفي بروفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٨١ .

لين بول ، قصة العرب في إسبانيا ، ص ١٦٧ .

عمار ذهب الى ليون وتولى المفاوضة في عقده ، وخلصته أن يقوم ملك
قشتالة بمعاونة المعتمد في حروبه ضد أعدائه من المسلمين ، على أن يقوم
المعتمد بأداء الجزية ويغزو أراضي مملكة طليطلة الجنوبية وأن يسلم منها
الى ملك قشتالة الأراضي الواقعة شمال جبال سيرامورنيا (جبل الشارات
بحسب الرواية المربية) (١٥٣) .

وتزبد الرواية القشتالية على ذلك بأن المعتمد قدم في هذه المناسبة
أحدى بناته لكون زوجة أو حظية لملك قشتالة ، وهى التى تعرفها الرواية
القشتالية باسم « زابدة » وهذا بالطبع لا يمكن أن يحدث من ملك مسلم ،
والصحيح أنها كانت زوجة ابنه الفتح الذى قتله المرابطون أثناء استيلائهم
على قرطبة من يده عام ٤٨٣ هـ ، فذهبت الزوجة مفضية الى أعداء المرابطين
على سبيل الانتقام ، حيث أصبحت ضمن حظايا الفونش السادس ، والتى
أنجب منها ولده الوحيد شانجة الذى قتل في معركة اقليش عام ٥٠١ هـ /
١١٠٧ م (١٥٤) .

أما تاريخ الحلف المذكور بين الفونش وبين المعتمد والذى عقده ابن
عمار في ليون فيبدو أنه كان في عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م وبعد استيلاء ابن عمار
على مرسية بقليل ، ذلك أن العلاقة ما لبثت أن توترت وساعت بين ابن عمار
ومليكه المعتمد بن عباد ، بعد أن استولى ابن رشيق على مرسية ، ولجوء
ابن عمار الى الفونش ثم هجرته الى القادر صاحب سرقسطة ، حيث عمل
في خدمته وخدمة ابنه المؤتمن الذى تولى الحكم عام ٤٧٤ هـ ، مما يؤكد لنا
أن حلف ابن عمار مع الفونش كان قبل هذا التاريخ بالتأكيد . وظل ابن
عمار في سرقسطة حتى تم اعتقاله بواسطة أحد أصحاب الحصون الذين
كان ابن عمار يروم خلصهم لمصلحة ابن هود ، ثم أرسل الى أشبيلية فنقله
ابن عباد بيده عام ٤٧٧ هـ (١٥٥) .

ويربط البعض بين هروب ابن عمار وبين مرقف المعتمد بن عباد الشجاع
من سفارة ابن شماليب النبهدي، التى أرسلها الفونش الى أشبيلية لاستلام

(١٥٢) عنان ، المرجع نفسه . ص ٧٣ .

(١٥٣) الضمى ، سفنه الملتصق ، ص ٣٢ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ .

(١٥٤) أنظر الفصل الأول ، الباب الثالث ، ص

الجزية (١٥٦) ، بينما يجعل الأستاذ عنوان قصة هذه السفارة تالية للحلف الذى أشرنا اليه من قبل ويحدد لها تاريخا وهو عام ٤٧٥ هـ (١٥٧) . وهذا ليس بصحيح على الاطلاق وسوف نناقشه بعد أن نأتى على موضوع السفارة نفسه .

ذلك أن الفوننش السادس وجه سماريه المعتادة الى المعتمد بطلب الجزية وعلى رأسها أحد قادته ، ووزيره اليهودى ابن شاليب ، الخبر فى معرفة الزائف من الصحيح من العيلة . وعسكرت البعثة بجنودها الذين يبلغون الخمسمائة فارس خارج مدينة أشبيلية ، فوجه اليهم المعتمد المال مع بعض أشياخ المدينة ، وفى مقدمتهم الوزير ابن زيدون ، فلما شاهد ابن شاليب المال والسبائك رفض تسلمها بغلظة بحجة أنها من عيار زائف ، وهدد بأنه إذا لم يقدم له المال من عيار حسن ، فسوف يحتل الفوننش مدائن مملكة أشبيلية حتى يتم الدفع على الوجه المرغوب (١٥٨) . وفى بعض الروايات أنه زاد على طلبه السماح لزوجته الفوننش أن تلد فى الجانب الغربى من المسجد الأعظم بقرطبة حسبما أشار بذلك القساوسة ، لأنه كان جزءا من كنيسة كانت معظمة عندهم ، على أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة الزهراء غربى مدينة قرطبة ، وزعم أن الأطباء قد أشاروا بذلك لاعندال مناخها . وزاد فى اثارته للمعتمد فطلب منه التخلّى عن بعض الحصون التى كان الموت عنده أولى من اعطائها . ولما وقف المعتمد على كل ذلك بعث رجاله فقبضوا على ابن شاليب ومن معه من الفرسان القشتاليين ، وأمر باليهودى قتل وطلب والقى بالفرسان فى السجن (١٥٩) .

(١٥٥) خليل ابراهيم السامرائى ، علاقات المرابطين ، ص ١٠٣ ، ١٠٤

(١٥٦) محمد عبد الله عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ .

(١٥٧) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ابن الخطيب ، أعمال اعلام

ج ٢ ، ٢٤٤ ، الحلل الموسوية ، ص ٢٥ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(١٥٨) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ابن خلكان ، المصدر نفسه ،

ج ٤ ، ص ١١٩ .

ابن ملقن ، المصدر نفسه ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ،

ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، الحلل الموسوية ، ص ٢٥ ، ٣٦ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

ويتفق المصدران الاولان فى أن المعتمد قتل الرسول والبعثة كلها ، بينما تذكر المصادر

البيانية أنه قتل الرسول اليهودى معط وسحق باقي أفراد بعثته .

ولما علم ملك قشتالة بها وقع لسفرائه اضطراب أن يرد حصن المدون القريب من قرطبة الى المعتمد ثمنا لاطلاق سراحهم ، لكنه أقسم أن ينتقم منه أروع انتقام ، وأن يخرب اراضي مملكته كلها حتى يصل الى نهاية الأندلس عند جزيرة طريف . وبادر ألفونس وقام على رأس جيوشه من الجلالة والقشتاليين والبشكنس وعاش في أحواز باجة وليلة ، ثم وصل الى أرض أشبيلية وهو يحرق القرى وينسف الزروع ، ويسبى كل من وقع في يده من المسلمين ، وعسكر هناك على ضفة النهر الأعظم أو الوادي الكبير في مواجهة قصر المعتمد بن عباد (١٦٠) .

مكث ألفونس في مقامه هناك ثلاثة أيام أرسل فيها رسالة الى المعتمد ساخرا منه زاريا به مذلا له ، يقول فيها « كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب (الذباب) واتسدت على الحر ، فالقني من قصرك بهروحة أروح بها على نفسي ، وأطرد بها الذباب عني » فكتب له ابن عباد في ظهر رسالته وبخطا يده « قرأت كتابك ، وفهمت خيالك وأعجابك ، وسأنتظر لك في مراوح من الجلود اللطيفة في أبدى الجيوش المرابطية ، نروح منك لا نروح عليك ان شاء الله » . واستمر ألفونس في حملته حتى وصل الى جزيرة طريف على بحر الزقاق أو على مضيق جبل طارق (١٦١) .

وكان تهديد المعتمد لألفونس بالمرابطين قد انتشر في الأندلس ، فاستبشر الناس وفتحت أمامهم أبواب الآمال ، ولم يرسل البعثة الأندلسية الى يوسف من تاشفين تستصرخه لفوث الأندلس ونجدتها من يد هذا الطاغية اللعين ألفونس السادس ، الذي شق الأندلس من اقتصاها الى أدناها ، وخاض بقوائمه فرسه في بحر الزقاق معلنا أن الأندلس كلها أصبحت طوع وبينه وتحت سلطانه . وقد احتفظ لنا ابن الخطيب بالرسائل المتبادلة بين ألفونس السادس وبين ابن تاشفين حينما وصل الأول الى بحر الزقاق وأرسل رسالة لابن تاشفين يتحداه فيها بالعبور اليه أو يقوم هو بذلك ، وبالرسائل المتبادلة بين المعتمد بن عباد وابن تاشفين تستصرخه فيها بالاسراع في العبور ونجدة الاسلام (١٦٢) .

(١٥٩) الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

ابن الخطيب الحلل الموشية ، ص ٢٦ ، ابن جلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ١٨٦ .

(١٦٠) الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٢٦ .

(١٦١) الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ،

ص ١١٤ .

ص ٢٢ ، ٣٢ .

ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٤ .

هذه هي قصة رساله ابن شاليب وما انتهت اليه . ومن الواضح أن تسلسل الأحداث لا يدل مطلقا على أنها كانت عام ٤٧٥ هـ كما يقول بذلك المقرئ ومن تابعه من المؤرخين المحدثين (١٦٣) ، ولا يمكن أن نأخذ بهذا التاريخ ونرجح ان السفارة تمت عقب سقوط طليطلة . أما رفضنا التاريخ المشار اليه فلأسباب الآتية :

أولا : لأنه لا يتناسب مطلقا مع الترتيب المنطقي للأحداث حسبما اشار المقرئ نفسه ، فأن سقطت طليطلة وابن عباد في تحالف مع الفونش السادس ، ولا يمكن أن تأتي سفارة ابن شاليب التي أفسدت العلاقات بينها بدرجة خطيرة ، وجعلت ابن عباد يستصرخ بالمرابطين رسميا قبل سقوط طليطلة .

ثانيا : لو كانت أحداث سفارة ابن شاليب حدثت عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م لكان هناك متسع من الوقت لأفونش لأن يغزو أشبيلية ذاتها ، ولسقطت في يده قبل طليطلة عام ٤٧٨ هـ . لكن كان هناك حلف بينه وبين أشبيلية عقده معها منذ عام ٤٧١ هـ ، وبموجبه أطلق المعتمد يد أفونش في طليطلة ، فاستمر على حصارها ومضايقتها حتى سقطت في يده .

ثالثا : لا يمكن للمعتمد بن عباد أن يقوم بقتل سفير أفونش عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م وهو يعلم تماما أنه لا طاقة له بمواجهة أفونش بمفرده ، خصوصا وأن ابن تاشفين لم يكن قد استولى بعد على سبتة التي لا يمكن العبور الى الأندلس دون السيطرة عليها ، ولم يتم ذلك الا عام ٤٨٦ هـ أو عام ٤٧٧ هـ ولذلك لم يكن هناك أمل في مساعدة المرابطين قبل هذا التاريخ . ومن هنا لا يجوز المعتمد على تحدى أفونش بالشكل الذي أظهرته أحداث السفارة عام ٤٧٥ هـ (١٦٤) .

(١٦٢) أنظر المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ ، السلاوى ، الاستقصاء ج ١ ، ص ١١٠ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ ، دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ٢٦٧ - ٢٧٠

خليل إبراهيم ، المرجع نفسه ، ص ١٠٣ ، ١٠٥ .

Livermore, op. cit. pp. 122, 123

(١٦٣) الضبي ، بغية الملتبس ، ص ٣١ .

السلاوى ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١١

Livermore. op. cit. p. 123

رابعاً : الحملة التي قام بها الفونش السادس حتى وصل الى جزيرة طريف لا يمكن أن يقوم بها عام ٤٧٥ هـ ، لأنه كان مشغولاً في أحداث طليطلة وثوراتها المنعاقبة ضد القادر والسيطرة القشتالية ، وكان الفونش يضع نصب عينيه في ذلك الوقت الاستيلاء على طليطلة ، وكان لا يمكن أن ينضب ابن عباد أو يدفعه للمعاد معه حتى لا ينجذ طليطلة ، بل انه على العكس من ذلك ، عقد معه حلفاً يقسمان بموجبه الغنيمة عند سقوط طليطلة ، ومن ثم تنتفي أحداث سفارة ابن شاليب بالصورة التي تمت بها كلية عام ٤٧٥ هـ .

خامساً : استند الأسناد عنان ودوزي ومن تابعهم من المؤرخين الحديثين والمستشرقين على مصدرين متأخرين جداً ، فالمقرى توفي عام ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م وهو ينقل عن ابن اللبانة الذي لا نجد له مكاناً بين المؤرخين أو الأدباء المشهورين الجديرين بالثقة ، فضلاً عن أنه غير معاصر للأحداث أو قريب منها . أما السلاوي فهو من مؤرخي القرن الرابع عشر الهجري (ت ١٣١٥ هـ) ، ولا يبين المصدر الذي نقل عنه ، زد على ذلك أن روايته مضطربة ويخطيء في ترتيب الأحداث التاريخية ويجعل أقدمها أحدثها كما أنه لم يذكر السفارة ذاتها وإنما يذكر ما ترتب عليها من غزو الفونش وزحفه حتى جزيرة طريف في جنوب الأندلس ويجعل ذلك عام ٤٧٥ هـ (١٦٥) .

والصحيح كما أشرنا أن سفارة ابن شاليب تمت عقب سقوط طليطلة بقليل عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) للأسباب الآتية :

أولاً : ان هذا التاريخ يتفق مع التسلسل التاريخي للأحداث فقد ازدادت بالطبع أطماع الفونش بعد سقوط طليطلة وأراد استقاط جميع ملوك الطوائف كما صرح بذلك لسفير ابن عبيد الله نفسه ، واستطاع في طلباته ، حتى يدفع المعتمد الى الرفض ، وهنا يجد الفونش نفسه في حل من حلفه معه ، وتنتهي له الفرصة لافتراسه . ولما أدرك المعتمد ذلك ورأى هجوم الفونش حتى ووصل طريف ، أدرك الحقيقة وأرسل الى المرابطين يستصرخهم ، رغم معارضة بعض ملوك الأندلس (١٦٦) .

(١٦٤) السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(١٦٥) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ابن خلكان ، المصدر نفسه

ج ٦ ، ص ١١٤ .

ابن أبي دينار ، الموبس ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ .

ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

ثانياً : كان لا يمكن لألفونش أن يقوم بالغزو حتى جزيره طريف اذ كانت قاعدة الغزو في مكان يبعد كثيراً ، فبرغش وليون تقعان في أقصى شمال شبه الجزيرة ، ولا يمكن أن تقوم من أى منهما حملة نسنمر في الزحف حتى جزيرة طريف بهذه السرعة التي تمت بها حملة ألفونش . ولا يمكن أن تكون القاعدة الا طليطلة التي تقع وسط شبه الجزيرة ، ويمكن لمن يسيطر عليها أن يرسل جيوشه في أى اتجاه . ويذكر بعض المؤرخين صراحته أنه عاد من غزوته تلك الى طليطلة ، وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه (١٦٧) .

ثالثاً : صحيح أن الحميري وهو ممن نستند اليهم في ندعيم رأينا لم يذكر تاريخاً محدداً للسفارة ، لكنه جعلها سبباً مباشراً للزلافة التي حدثت بعد سقوط طليطلة بعام ، وليس قبلها ، ويقول ان السفارة أفسدت الصلح والحلف المنعقد بين ألفونش والمعتمد . وبالطبع فان هذا الصلح كان قبل سقوط طليطلة حسبما فصلنا ، وليس بعدها ، اذ أنا لم نسمع عن أحلاف عقدت بعد سقوط طليطلة ، ولكننا سمعنا عن تحركات ملوك الطوائف واتفاق كثير منهم وخاصة كبراءهم ، مثل ابن عباد وابن الأفطس وابن بلقين ، على استدعاء المرابطين الذي تم بعد سقوط طليطلة (١٦٨) .

وهناك غير الحميري من ذكروا بالنص وقالوا صراحة أن سفارة ابن شاليب حدثت بعد سقوط طليطلة . مثال ذلك ابن الأثير الذي قال « فلما ملك الألفونش (الفونسو) طليطلة أرسل الى المعتمد . . . الخ » . ولسان الدين ابن الخطيب الذي يذكر هو الآخر صراحة أنها كانت بعد سقوط طليطلة ، وأن ألفونش « مال على جهة ابن عباد كبيرهم ، يحصل شوكته ويخطب مملكته ويطرق حماه متناهياً في الوعد ، مترامياً الى المرمى البعيد ، ووصله رسوله اليهودي المعين لقبض الضرائب . . . الخ » وأنه لما استولى على طليطلة أرسل ابن عباد يطلب منه تسليم أعماله الى رسله وعماله ، يؤيدهم في ذلك ابن خلدون الذي يقول ان ألفونش « أخذ طليطلة صلحاً عام ٤٧٨ هـ ، ثم سار في بلاد الأندلس حتى وصل بفرقة المجاز من طريف » (١٦٩) .

(١٦٦) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٩ ، ابن الأثير ، المصدر نفسه ،

ج ٦ ، ص ٥٢ .

(١٦٧) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(١٦٨) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٥٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ،

ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

الحلل الموسبة ، ص ٢٢ ، ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .

وغنى عن البيان أن هذه المصادر — ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) وابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) والحميرى (عاش فى القرن التاسع الهجرى) ، أقرب الى الأحداث بكثير من المقرئ (ت ١٠٤١ هـ) ، والسلوى (ت ١٣١٥ هـ) كما أنها أجدر بالثقة وأدعى للاطمئنان بدرجة كبيرة ، إذ أن ابن الخطيب ينقل عن مؤرخ معاصر هو ابن حيان ، بينما المقرئ ينقل عن مؤلف مغمور لا يعتد به ، فضلا عن أن المقرئ نفسه يتفق مع مصادرنا فى التسلسل التاريخى للأحداث ، ويجعلها تنتهى باستدعاء المرابطين ، ويتفق معنا السلوى أيضا فى أن الفونش بعد وصوله الى طريف ارتد وحاصر سرقسطة « وأراد أن يقدمها بالفتح على غرها » وهذا بالطبع لم يحدث الا بعد سقوط طليطلة (١٧٠) .

على أية حال فقد كان سقوط طليطلة وما تبعها من حملة الفونش السادس التى اخترق بها الأندلس من شمالها الى أقصى جنوبها من الكوارث الخطيرة التى جعلت ملوك الطوائف يعيدون حسابانهم ، وعند الشعور بالخطر تقاربت أهواؤهم واتحدت مصلحتهم فى استدعاء المرابطين . صحيح أن بعضهم رفض ذلك بدعوى خوفهم على ملكهم من المرابطين ، لكن ابن عباد حسم الموقف بقوله لهم « رعى الجمال عند ابن تاشفين خير من رعى الخنازير فى قشتالة » . ولم تكن فكرة الاسعانة بالمرابطين وليدة ذلك اليوم ، بل كانت سابقة على ذلك بعدة أعوام ، لكنها لم تأخذ الطابع الرسمى الا عندما اتفق ملوك الأندلس وأرسلوا سفارتهم الى ابن تاشفين ، وعلى رأسها أبو بكر عبيد الله بن أدهم قاضى قرطبة ، وأبو اسحاق بن بقانة قاضى بطليوس وأبو جعفر القليعى قاضى غرناطة ، وأبو بكر بن زيدون وزير المعتهد (١٧١) .

وما حدث بعد ذلك من عبور ابن تاشفين الى الأندلس فى ربيع الأول عام (٤٧٩ هـ يونية ١٠٨٦ م) ، ثم زحفه الى أشبيلية ، ثم تجمع القوايته

(١٦٩) المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ ، السلوى ، المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(١٧٠) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٤ ، ابن الأثير ، المصدر نفسه ،

ج ١٠ ، ص ٥٦ .

ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام .

ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ ، ٨٦ .

الأندلسية في الزلافة من أعمال بطليوس وملاقاتها لجيش الفونش الذى ضم كثيرا من الجند الفرنسيين وغيرهم بالاسماة لى جنود قشتالة وليون ونبرة وبرشلونة ، ثم قدام المعركة فى ١٢ رجب عام ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م وانتهائها بذلك الانتصار الساحق للقوات المتحدة من الأندلسيين والمرابطين ، وفرار الفونش الى طلبلة مع حوالى خمسمائة من فرسانه . كل ذلك معروف وتذكر به كتب التاريخ وما يعنينا هنا هو مناقشة بعض القضايا التى تتعلق بهذه المعركة الفاصلة فى تاريخ الصراع بين الاسلام والنصرانية فى شبه الجزيرة (١٧٢) .

وأول هذه القضايا أن المعتد وغيره من ملوك الطوائف لم يكونوا باستدعائهم للمرابطين يتبنون القضية الاسلامية ، أو يتبعون سياسة اسلامية ، وانما كانت تدفعهم مصالحهم الشخصية وخوفهم على عروشهم من الزوال ، بالرغم مما اثاره استدعاء المرابطين من فورة دينية على كلا الجانبين الاسلامى والمسيحى . فقد كان طابع الحرب صليبيا بالنسبة للمسيحيين وكانت حرب جهاد مقدس من جانب المسلمين ، واستغل ملوك الطوائف تلك الفورة الدينية لمصلحتهم فاستدعوا المرابطين ، ولما تناقض ذلك مع آمالهم وخططهم ، انقلبوا على المرابطين ووضعوا يدهم مرة أخرى فى يد نصارى الشمال (١٧٣) .

فهذا هو الأمير عبد الله بن بلقين وصاحب غرناطة وأحد المعاصرين والمشاركين فى الأحداث نفسها ، يقول فى مذكراته « وجرت بين المعتد

(١٧١) من استدعاء المرابطين وغيرهم وموقعة للزلافة بنفاصلها ، انظر ، ابن بطون ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٠١ ، ١٠٦ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، ص ٨٩ - ٩٥ .

ابن الأثير ، لتكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ٩٩ - ١٠١ .

ابن خلكان ، وفيلات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١١٨ - ١٢٠ ، ج ٦ ، ص ١١٢ - ١٢١ .
ابن الخطيب ، للحل الموشية ، ص ٣٢ - ٤٦ ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .
الحيرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨٥ ، ٩٤ .

المقرى ، نفع الطبيب ، ج ٢ ، ص ٥٢٣ - ٥٢٢ .

Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 694 - 608

Murphy, Mohamedan Empire, pp. 125 - 139.

(١٧٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ ، الحيرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

والفوننش (الفونسو) محالفات كثيرة ، وسأله أن يتخلى له عن معاقل كان الموت عنده أولى به من اعطائها ، فوجست (خافت) نفسه منه بالجملة ، ورام كسره بطوائف المرابطين وضرب بعضهم ببعض . كانت هذه استراتيجية المعتمد بن عباد وهى أن يضرب المسلمين بالنصارى ويخوف هؤلاء بأولئك حتى يبقى له عرشه (١٧٤) .

وقد أعطى المعتمد لاسندعائه المرابطين صفة الغيرة على الدين وعلى المسلمين ، حينما أرسل للفوننش رسالة يندم على التفریط فى حق اخوانه من أهل طليطلة ومساعدته له فى أخذ بلدهم ، لكن دخيلة نفسه تنكشف تباهما بعد أن عاد للتحالف مع الفوننش عندما رأى أن المرابطين بدأوا فى خلع ملوك الطوائف ، وبرر فعلته ذلك بقوله « اضطررتى الضرورة الى ذلك للدفاع (عن نفسى وبلدى) ولو يوما واحدا » (١٧٥) .

اذن فیم كان قوله « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » انها المصلحة الشخصية لا غير ، ونؤكد لنا بعض الروايات بأن رسوله الى ابن تاشفين مائع فى اعطائه الجزيرة الخضراء لتكون قاعدة للجیوش والمرابطين ، وحتى بعد أن وافق على اعطائها أمسك رسل ابن تاشفين عنده فى أشبيلية مدة طويلة ، ثم أطلقهم وأرسل معهم رسالة يطلب فيها من ابن تاشفين الانعهد بعدم الجواز الى الأندلس الا بعد مرور ثلاثين يوما حتى يتمكنوا من اخلاء الجزيرة الخضراء له ، لكن هذه الحيلة لم تفت على ابن تاشفين الذى فهم أن المعتمد يريد أن يلعب على الحبلين ، فيخبر الفوننش بقدوم المرابطين ويرغبه باعطاء الجزية ومحالفته على عدم الاعتداء على مملكته ، واذا لم يتمكن من ذلك سمح للمرابطين بالجواز (١٧٦) .

ولذلك أسرع ابن تاشفين وأرسل بعضا من جنده فى الحال اثر عودة رسل ابن عباد ، واحتلوا أجزاء من الجزيرة الخضراء لوضع ابن عباد امام الأمر الواقع . ذلك أن ملوك الطوائف كانوا يكرهون نزول المرابطين بجزيرتهم ، ولم يكن هناك اجماع على استدعائهم ، لكنهم كرهوا ان يكونوا بين عدوين ، النصارى من شمالهم والمرابطون من جنوبهم، ولما كان لاسم

(١٧٣) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ١٠١ ، ٩٠٢ .

(١٧٤) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٢٥ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .

(١٧٦) ابن باقین ، مذكراته ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

ابن تاشفين دوى يلقي الرعب فى قلوب الأعداء فقد أراد ملوك الطوائف أن يرهبوا ملوك النصارى باظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف بن تاشفين(١٧٧) .

ولما تأكد لهم أن ابن تاشفين ينوى نزول الجزيرة لدافعة النصارى استجابة للنداءات المتكررة من الفقهاء والادباء والوفود الاهلية المتكررة التى كانت تذهب اليه باكية مسنرخة ، اجتمعوا الى زعيمهم ابن عباد وفوضوه فى مكاتبة ابن تاشفين يسألونه الابقاء عليهم ، على أن يكونوا تحت طاعته ، وقد احتفظ لنا ابن خلكان برسالة من المعتمد بهذا المعنى واحتفظ لنا أيضا برد ابن تاشفين ، وفيه طمأنهم بأنه حافظ لعروشهم ومبقيهم على بلادهم ، فأحبوه وعظموه وقرت أنفسهم ورأوا الوقوف معه ضد الفوننش(١٧٨) .

هنا لابد أن نذكر أيضا أن ابن تاشفين مع تقواه وتدينه وحبه للجهاد ودفاعه عن المسلمين ، لم يكن أيضا هو الآخر خاليا من الاطماع الشخصية فى ملك الأندلس ، وهناك موقفان يدلان على ذلك ، أما الموقف الأول فبحكبه لنا ابن الكردبوس الذى كان معاصرا للاحداث أو على الأقل سمع ممن عاصرها ، فيقول أنه أثناء المعركة اشتد القتل فى جيوش الأندلس واستبطأ المعتمد وصول قوات المرابطين وبدأ ينراجع هو بقواته ، ونبعهم الفوننش قتلا وأسرا مسافة ثمانية عشر ميلا ، وكانت خطة المعركة مرسومة على أساس أن الجيش الأندلسى فى المقدمة وأن الجيش المرابطى يتبعه بمسافة قليلة على شكل كمائن متفرقة بحيث ينقض على العدو فى الوقت المناسب(١٧٩) .

ولما بدت هزيمة الجيش الأندلسى وأحيط ابن تاشفين بذلك قال : « أتركوهم قليلا للفناء ، فكلما الفريقين من الأعداء » . وهناك من الروايات ما تذكر أن ابن تاشفين كان يتمنى عدم لقاء العدو فى أرض لا يعرفها ،

(١٧٧) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٢ .

(١٧٨) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

الجمبرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٦ .

(١٧٩) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٤ ، ابن الخطيب ، الملل ، ص ٤١ .

« ووسط أناس لا يعرف فيهم العدو من الصديق . ويبدو أنه كان محققا في ذلك بعد أن رأى فرار ملوك الطوائف من المعركة وهى ما تزال في بدايتها ، عدا ابن عباد الذى صمد والذى اختصه ابن تاشفين في رسائله بالمدح والثناء » (١٨٠) .

هذا هو الموقف الأول ، أما الموقف الثانى فيبرز من خلال الخلاف الذى نشب بين المعتمد وابن تاشفين غداة احراز النصر على الفونش في الزلاقة ، فقد رأى المعتمد ضرورة مطاردة الأعداء وملاحقتهم حتى ينقطع دابرهم ، لكن ابن تاشفين رفض ذلك متعللا بالخوف على الذين انهزموا من المسلمين في بداية المعركة ، فربما قام الفونش بالقضاء عليهم اذا رأى مطاردة المرابطين له ، وهو تعليل لا يحمل طابع الجدية ، وقد فنده المعتمد وقال له ان هؤلاء المنهزمين لن يعجزوا أمام الفونش الذى فر في شرنمة قليلة العدد ، لكن يوسف أصر على موقفه ، وساعده على ذلك وصول نبأ موت ابنه الأكبر الذى كان قد تركه في حكم المغرب أثناء غيابه ، فأعلن العودة الى بلاده فورا (١٨١) .

وقد تحدث المعاصرون وفندوا هذا الخلاف الذى نشب بين القائدين : ابن تاشفين وابن عباد ، فقال أنصار ابن عباد أن يوسف كان يعرف أن ابن عباد كان على حق ، لكنه « خاف أن يهلك العدو الذى من أجله استدعاه ، فيحدث الاستغناء عنه » ، وقال أنصار يوسف « أن ابن عباد أراد أن يقطع حبال يوسف من العودة الى جزيرة الأندلس » . وقال فريق ثالث أن الرجلين كانا غير مخلصين كل للآخر ، وان كان ابن عباد أحرى بالصواب » . (١٨٢)

وهذان الموقفان يوضحان تماما أهداف ملوك الطوائف وأهداف المرابطين من تلك الحرب التى أضرموها مع نصارى أسبانيا وغيرهم من

(١٨٠) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٤ ، ابن توفى ، مذكراته ، ص ١٠٥ ،

الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(١٨١) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٩٣ ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

(١٨٢) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٩٣ ، أنسباخ المرجع نفسه ، ص ٩٢ .

نصارى فرنسا والبابوية . وفى الحقيقة فان يوسف بن تاشفين لم يفعل مثلاً .
مثلاً فعل طارق بن زياد وموسى بن نصير اللذان لم يكفيا عن القتال .
حتى أجهزا على قوة القوط ، بل ان طارق بن زياد بعد أن هزمهم فى موقعة
وادی لكّة (شريش) ، لم ينتظر وصول تعليمات من قائده الاعلى موسى .
ابن نصير ، فواصل الزحف حتى وقعت العاصمة طليطلة فى قبضته معرضاً
نفسه لعقاب موسى وتأنيبه .

وربما فعل ابن تاشفين مثلاً فعل شارل مارتل فى موقعة بلاط الشهداء
(١١٤ هـ) التى هزم فيها المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقى . ورغم
هزيمة المسلمين فى هذه المعركة ومقتل قائدهم فيها ، الا أن شارل لم
يطاردهم واكفى بما أحرزه من نصر وبما أصابه من الفنائم والأسلاب .
ويأتى الشبه بين بلاط الشهداء وبين الزلاقة من ناحية أخرى ، فقد اتبع كل
من شارل ويوسف تقريباً أسلوباً أو خطة مشابهة عادت بالنصر على كليهما .
ذلك أن كلا منهما كان منهزماً فى البداية ، وان كانت الهزيمة فى حالة
يوسف تعود على الأندلسيين وليس المرابطين . لكن شارل ويوسف فاجأ
العدو من الخلف بالاغارة على معسكره ومؤنه وذخائره ، وبالضرورة
فلا بد أن يرتد الجيش المهاجم ويسارع بانقضاء معسكره ومؤنه وهنا يقع
بين جيوش الأعداء من أمام ومن خلف ، فتصيبه الهزيمة لا محالة .

ولذلك فان نتيجة المعركتين تكاد تكون متشابهة ، فلم يتمكن شارل
وكذلك يوسف من القضاء على خصمه قضاء تاماً . اذ أن المسلمين ما لبثوا
ان عادوا الى الانتفاض على جنوب فرنسا ولم يكن قد مر عامان على
هزيمتهم فى بلاط الشهداء . وكذلك فعل الفونش السادس فلم يكدر يمر
عامان أيضاً حتى كان قد استرد أنفاسه ونظم جيوشه وبدأ
يشن الغارات على المسلمين من جديد ، وبستلم منهم الجزية بل ويفرض
عليهم وعلى المرابطين مجتمعين الانسحاب من أمام حصن صفير ، مقرين
بالعجز والفشل أمامه ، وهو حصن لييط عام ٤٨١ هـ .

وتأتى التشابه بين المعركتين من ناحية أخرى ، ذلك أن المسلمين فى
بلاط الشهداء ، والنصارى فى الزلاقة ، قد نقلوا المعركة الى أرض الأعداء .

وقد رأى الفونش السادس أن تكون المعركة بعيدة عن بلاده ، فإذا هزم لا تتعرض بلاده للتخريب والتدمير وإنما يكتفى أعداؤه بما ينالون من أسلاب المعركة وغنائمها ، وإذا انتصر تكون الفرصة مناحة أمامه لتخريب بلادهم وفرض شروطه عليهم (١٨٣) .

وكان ذلك أيضا يناسب ظروف المرابطين الذين لا يعرفون الأرض النى يحاربون عليها ، ولا يدرون من أمر دروبها ومسالكها وأنهارها شيئا . ولذلك اطمأنوا الى قربهم من بطليوس النى كانت حماية لظهرهم ، ويمكن أن يلجئوا اليها والى حصونها اذا ما نالهم الهزيمة . وتتول بعض الروايات « بأن المعتمد كان يبث عيونه بين الصحراويين (المرابطين) خوفا عليهم من مكائد الفونش ، اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وكان يتولى ذلك بنفسه » . (١٨٤) .

واذا كانت الخطة التى رسمها ابن تاشفين والمعتمد جلبت النصر ، فهناك شجاعة المعتمد وجنده ، وشجاعة المرابطين وصبرهم ، حتى أنهم كانوا يطلبون الموت والشهادة كما يقول بعض المؤرخين . وكان هناك ذكاء المعتمد وعدم انخداعه بحيلة الفونش ودهائه عندما اتفق على ميعاد محدد للمعركة ثم قام بالهجوم فى غير وقته ، فكان المعتمد مسنعا للقاءه ودافع دفاع الابطال حتى أخذ بالجراح ، ولم يتقهقر الا نتيجة للخطة التى رسمها يوسف ، وتتضى بجر الاعداء داخل بلاد المسلمين مسافة كافية فيتمكن من الاجهاز عليهم جميعا (١٨٥) .

وهناك السلاح الجديد الذى ظنه الفونش منجلا ، وهو عبارة عن خنجر مقوسة لم يعهدها الأسبان من قبل ، وقد تمكن أحد المرابطين من اللحاق بالفونش وضربه بهذا السلاح الذى كانوا يسمونه « الأطاس » ضربة جعلته يعرج باقى عمره . وكان هناك أيضا ذلك الطبل

(١٨٣) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(١٨٤) الحميرى ، المصدر نفسه ، ٩٠ ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

ابن بلفيز ، مذكراته ، ص ١٠٥ .

(١٨٥) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٩٠ . ٩١ .

المدوى الذى نجع الأسباب وفاجأهم من خلف ظهورهم ، وكان المرابطون قد صاحبوا معهم عددا وفيرا من الجمال التى لم يكن للجزيرة بها عهد من قبل ، فكانت الخيل تفر من رؤيتها ، هذا علاوة على الدروع اللطيفة وسيوف الهند ومزاريق الزان ، التى كانت فى أيدى المرابطين ، والتى كانت ذات شهرة واسعة كسلاح دى قيمة كبيرة فى حروب ذلك الوقت^(١٨٦) .

ويذكر لنا ابن بلقين الممارك فى المعركة سببا آخر للنصر ، وهو أن جنود الفونتنس بمد أن طاردوا الجيش الأندلسى فى بداية المعركة ، انشغلوا بالاسحواذ على الفنائم والأسلاب . وظنوا أن ابن ناشفين من جملة المنهزمين ، واذا بهم يسمعون طبول المرابطين تدوى بعنف من خلفهم ، فاستداروا للاقائهم ، وعاد ابن عباد ومن معه وهاجموهم من خلف ، فكثر القتل فى النصارى ولم ينقذهم الا حلول الظلام ، ووقعت عليهم الهزيمة رغم تفوقهم فى العدد على جيوش المسلمين^(١٨٧) .

وهكذا حسب المسلمون الجولة فى هذه المعركة الفاصلة التى غيرت من مجرى التاريخ الأندلسى والنصرانى فى شبه الجزيرة لفترة طويلة وحققوا نصرا أعاد أمجاد عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبى عامر ، ويكفى أن تلك المعركة قد أعادت الثقة والأمل الذى كاد يخبو فى نفوس الشعب الأندلسى ، وأعاد اليه الحماس الدينى الذى كاد يقضى عليه ملوك الطوائف بسياسنتهم الخرقاء ، وأعنت هؤلاء الملوك من المذلة والخضوع لنصارى الشمال وعدم دفع الجزية لهم . كما أن ملك المعركة قد ردت سيل النصرانية الجارف أو أوقفته فى مكانه ، وكتبت الحياة للإسلام على أرض شبه الجزيرة لمدة أربعة قرون أخرى وتمخضت عن نتيجة هامة ، وهى التمهيد لضم الأندلس الى المغرب وتحقيق الوحدة بين الدولتين الإسلاميتين العظمتين فى ظل دولة المرابطين الكبرى^(١٨٨) .

(١٨٦) ابن حنكلى ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٥ - ١١٧ ، اس إلطيط ، المحلل

(المؤشبه ، ص ٥٣ .

(١٨٧) ابن بلقين . مذكراته ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

ابن حنكلى ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٧ .

(١٨٨) عثمان ، دول الطوائف ، ص ٢٣٢ .

استغل المعتمد الضعف الذى أصاب الفونش عقب الزلافة وزحف فى
تقوة كبيرة من الفرسان على ولاية طليطة ، واستولى على ولاية طليطة ،
واستولى على عدة مدن ، من بينها أثليش وقونقة ونبرة وغيرها ثم قفز
الى أرض مرسية حيث كان السيد القمبيطور يهاجمها ، ومنى المعتمد بهزيمة
ساحقة ، وتراجع الى لورقة واحتوى بقلعتها ، وغادرها الى قرطبة ثم الى
أشبيلية تاركا مرسية لمسيرها ، وكان حصن لبيب (اليدو) الذى سبق
الحديث عنه ، شوكة فى جنب الامارات الاسلامية فى الجنوب الشرقى من
الأندلس وقد شحنه الفونش من قبل بالخيول والفرسان الذين كانوا
لا يتوافون عن مهاجمة مرسية ولورقة ويابسة وأوريولة (١٨٩) .

وكان الفونش قد استنطاع أن يلم شعث جبته بسرعة كبيرة ،
ووفد عليه سيل من الفرسان والمحاربين الفرنسيين والنومانيين الذين
كانوا يدركون أبعاد المعركة الصليبية التى جرت على الأرض ضد الاسلام ،
ولم يمض عام حتى كان ملك قشتالة قد استعد لمحاربة أعدائه ، وتؤكد
الرواية النصرانية أنه خرج لغزو المسلمين مرة أخرى عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ،
وأنه فى غزوته وصل الى قرب أشبيلية ، بينما قامت قوات حصن لبيب
بمؤازرة بعض الجنود القشتاليين وأغارت على المناطق المجاورة حتى المرية ،
التي فر جنودها الأربعمئة جبنا أمام ثمانين فارسا نصرانيا (١٩٠) .

وعاد ملوك الطوائف الى الفنافس والانقسام واضطروا للاستنجاد
بالمرابطين مرة أخرى ، فعبر اليهم يوسف للمرة الثانية وحاصر معهم حصن
ليبب لكنهم فشلوا فى فتحه بسبب أحقادهم وتأمرهم ضد بعضهم البعض ،
وخيانة بعضهم بامدادهم نصارى الحصن بالمؤمن ، مما أطال أمد الحصار ،
واعطى الفرصة لألفونش لى يقوم وينقذه ، ولما عرف أمير المسلمين
ابن تاشفين بكل ذلك ولمسه بنفسه ، رفع الحصار عن الحصن وعاد الى
بلادهم ، وقد استقر فى نفسه ضرورة خلع هؤلاء الملوك عن عروشهم (١٩١) .

(١٨٩) ابن خلكان ، ثلاث العقبان ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

(١٩٠) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٩٣ ، انظر الفصل نفسه ، ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .

(١٩١) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٢٣ ، السسلاوى ، الاستنصار .

ج ١ ، ص ١١٩ .

ولما احس منه ملوك الطوائف بذلك ألقوا بأيديهم الى الفونش وحالفوه ضد المرابطين فصيم ابن تاشفين على القضاء عليهم وعبرت الجيوش المرابطية اليهم للمرة الثالثة عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، حيث أخذت في انزالهم عن عروشهم واحدا بعد الآخر ، وكانت نهاية دولة بنى عباد في رجب عام ٤٨٤ هـ ، حيث تم اعتقال المعتمد بن عباد آخر ملوكهم وارسله هو واسرته الى اغماث بالمغرب ، لكى يموت هناك في ذل وفاقه لم تجر على أحد غيره من ملوك الطوائف (١٩٢) .

ولكن لا يغيب عن الذهن أن ملوك الطوائف لم يقض عليهم المرابطون جميعا في ذلك العام وانما بقى بعضهم وخاصة في شرقي الأندلس ، ولم يتم القضاء عليهم جميعا الا قرب نهاية القرن الخامس الهجري ، وقد تناولنا علاقاتهم مع نصارى الشمال حتى سقوطهم في يد المرابطين . ولم تكن حروب الأندلس والمرابطين ضد هؤلاء النصارى منذ الزلافة وحتى نهاية القرن الخامس الهجري ، الا اعادة للتوازن السياسى والعسكرى على أرض شبه الجزيرة ، ذلك التوازن الذى كان قد اختل بدرجة كبيرة منذ بداية ذلك القرن وحتى عام الزلافة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) .

ذلك أن ايا من القوتين لم تستطع القضاء على الاخرى ، ولذلك فقد استمر الصراع بينهما بعد ذلك وطال حتى سقط الاسلام صريعا أمام ضربات النصرانية المتتالية الدائبة في صبر ونبات . تلك الضربات التى امتدت منذ موقعة كونا دونجا التى حقق فيها نصارى الاسبان أول نصر لهم على مسلمى الأندلس في عام ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م ، والتى استمرت حتى هزيمة المسلمين في آخر معركة لهم مع نصارى الاسبان في عام ٨٩٨ هـ / ١٤٩٣ ، واستطاع النصارى أن يحققوا هدفهم في استرداد بلادهم من أيدي المسلمين وأن يختتموا الحروب الصليبية الاسبانية بهذا النصر المبين ، رغم الكفاح والعناء الذى كابده المسلمون هناك طوال هذه القرون .

(١٩٢) الصبى ، المصدر نفسه ص ٣٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٧٠ .

ابن ابي دينا ، المونس ص ١٠٥ ، ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

الباب الرابع

أهم التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية
وأسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف

- العوامل التي أدت إلى التأثير الحضارى بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية
- قنوات وأساليب التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية •
- مظاهر التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الاجتماعية
- مظاهر التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الثقافية •
- مظاهر التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الاقتصادية •

الباب الرابع

أهم التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر بنى أمية وملوك الطوائف

١ — العوازل التي أدت الى التأثيرات الحضارية بين الأندلس وبين أسبانيا النصرانية :

لم يكد العرب يتمون فتح أسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالتهم المعهودة في بناء مجتمع جديد ، واستطاعوا في أقل من قرن أن يقيموا دولة فتيية ، وأن ينشئوا المدن والقرى ، وقيموا أفخم المباني ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالدول الأخرى ، ثم شرعوا يتنافسون في تحصيل العلوم والآداب ، وفي نقل كتب اليونان والرومان الى اللغة العربية ، وينشئون المدارس والجامعات التي كانت وحدها مصدر للثقافة في أوروبا كلها^(١) .

كانت قرطبة في ذلك العهد تجلس على عرش الحضارة في أوروبا كأكبر واغنى مدينة ، كانت شوارعها الرئيسية مضاءة ومعبدة ، وكان فيها كثير من الحمامات العامة ، وكانت المياه تجلب اليها من الجبال خلال أنابيب الرصاص . أما منازلها فكانت جميلة ، ومساجدها كثيرة رائعة ، ولا يوجد في أوروبا كلها مدينة تقارن بها الا القسطنطينية ذاتها . . كانت قرطبة هي الملاذ للوك أسبانيا النصرانية ونبلائها وأمرائها ، اذا ما عن لهم الاستنشاء من مرض خطير ، أو أرادوا اجراء عمليات جراحية صعبة^(٢) .

(١) عريستان لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

Crow, Spain, the root and the flower, p. 56.

(٢) حسي ، تاريخ العرب (المطول) ، د ٢٢ ص ٦٢٧ ، ربنو ، تاريخ غزوات العرب .

وقد وفد إليها سنانجة ملك ليون عام ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م طالباً الاستشفاء على يد أطبائها ، كما وفد إليها الراهب جلبرت الذي أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثاني يطلب تعلم العلوم الطبيعية والرياضية ، فبلغ فيهما مبلغاً خيلاً لعبادة رومة أن ذلك ضرب من السحر ، وعلى الجيلة فكلما احتاج أحد ملوك ليون أو نبرة أو برشلونة جراحاً أو مهندساً أو مغنياً أو خياطاً أو بناءً وجهوا طلبهم إلى قرطبة عاصمة الحضارة في شبه الجزيرة ، وهكذا وجه سنانجه (سانشو) الكبير ملك نبرة (٣٩١ — ٤٢٦ هـ / ١٠٠٠ — ١٠٣٥ م) رسلاً إلى قرطبة لجلب بعض علماء المسلمين لتعليم ابنه وولى عهده ، فأرسلت له قرطبة اثنين من علمائها قاما على تربيته ونهذيبه (٣)

كان هذا في الوقت الذي كانت تمشي فيه أسبانيا النصرانية ، بل أوربا كلها في جو قروى فقير ، غارقة في حمأة الجهل وخشونة الحياة والأخلاق ، ولم يكن بها شيء من آثار المدنية إلا ما بقى من الإمبراطورية الرومانية من أطياف في القسطنطينية وبعض أجزاء إيطاليا (٤) .

كان نصارى الشمال الأسباني جفاة غير مثقفين ، وقليل من أمرائهم من كان له حظ من العلم ، وكانوا من الفقير وعسر الحال بحيث أنهم كانوا أعجز من أن يتمتعوا بفنون الرفاهية التي ينمتع بها العرب . وفي الوقت الذي كان المسلمون يعتبرون فيه النظافة من الإيمان ، وشرطاً لازماً لأداء الصلوات والعبادات ، كان مسيحيو الأسبان في الشمال ينهون عن النظافة ويعدونّها من أعمال الوثنيين ، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذارتهم حتى أن راهبة دونت في مذكراتها في صلف وتيه ، أنها إلى سن الستين لم يمس الماء منها إلا أناملها عندما كانت تغمسها في ماء الكنيسة المقدس ، وحينما عادت الأندلس إلى الحكم المسيحي ، كان أول ما فعله أحد ملوكها أن أصدر الأوامر بهدم كل الحمامات العامة لأنها من آثار المسلمين (٥) .

(٣) في فرنسا ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٤) لبن دول ، قصة العرب في اسبانيا ، ص ١١٦ ، ألبو غرسبج ، موس ، الشعر الأندلسي ، ص ٣٦ .

(٥) لبن دول ، المرجع نفسه ، ص ١٩٩ ، ١٢٠ ، ١٦٥ .

وبرغم هذا التأخر الحضارى الذى كان يعيشه نصارى شمال أسبانيا ، إلا أنهم كانوا رجال حرب وجلاء ، لا يقل نزوعهم الى القتال عن نزوع أعدائهم المسلمين ، وتعد بنوقونيم فى ذلك أحيانا ، وطالما دفعهم الفقر وحفزتهم الحاجة الى خدمة أى انسان من ملوك المسلمين ، وتاريخ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى لأسبانيا مليء بالوقائع التى حارب فيها جنود النصارى تحت راية المسلمين ، وأشهر مثال على ذلك هو السيد التهيبطور الذى كانت أولى معاركه فى صف المسلمين وضد بنى جلدته من نصارى الأسبان (٦) .

والأسبان كأمة مغلوبه لابد أن يتطلعوا الى الأمة الغالبة وبأخذوا منها ، وبخاصة أن تلك الأمة الغالبة كانت أعلى حضارة وأرقى حياة وأكثر تسامحا ممن سبقها من الأمم التى عاشت على أرض شبه الجزيرة الأسبانية ، لا سيما وأن الأسبان النصارى والمسلمين كانوا يعيشون فى الواقع على أرض واحدة ، ولا توجد بينهم حدود طبيعية عازلة أو فاصلة ، وكان الأفراد يتردد كل منهم على الآخر ويتعرف عليه (٧) .

وكانت الخسومة مع العباسيين والفاطميين تجعل الأندلس الإسلامية دائما أقرب الى الفهم مع نصارى الشمال ، وقد رأينا فى عرضنا للعلاقات بينهم ما يؤكد أن المسلمين لم يكن هدفهم أبدا تدمير هؤلاء أو تحطيمهم ، وإنما كان الهدف من غزواتهم لهم هو فرض السلام والهدوء على الحدود حتى يعيش الجميع فى أمان وهدوء . وهكذا فإن موقع الأندلس وانفصالها عن العالم الإسلامى معزله عن صر الأمويين وملوك الطوائف واتصالها بالشعوب المسيحية جعل مجال النقل الحضارى بينهما واسعا (٨) .

ولم تكن شبه الجزيرة الاقطرا إسلاميا نصرانيا بتحالف فيه أمراء مسلمون مع نصارى ، ضد مسلمين أو نصارى آخرين ، كما حدث فى عصر

(٦) ابن بول ، المرح نفسه ، ص ١٦٥ .

(٧) ابن خلدون ، مقدمته ، ج ٢ ، ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٨) لى بى دروفنسال ، الشرق الإسلامى ، ص ٣٩ ، ٤٠ ، بالنفيا ، تاريخ الفكر الأندلسى

ملوك الطوائف ، وكانت المحالفات والمصاهرات والسفارات تنمجنبنا الى جنب ، فتقوى الوشائج وتدوم المودة ويعم السلام . وحتى في اوقات الحرب ، لم يكن هناك ما يمنع الاتصال بين الشعبين ، بسبب التجاور والملاصقة والعيش على ارض واحدة ، وبسبب التداخل السياسى والعسكرى والبشرى . في شبه الجزيرة في القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى بالذات . ورغم قلة ما اخذته الأندلس عن أسبانيا النصرانية ، الا أن جميع ما ذكرناه . يؤيد قيام التأثير الحضارى بينهما (٩) .

وفي هذا المضمار لا بد أن نشير الى أن هناك مؤرخى الأسبان المحدثين ممن ينكرون دور المسلمين الحضارى في أسبانيا ، بل يرجعون تأخر أسبانيا عن دول أوربا الأخرى في الوقت الحاضر الى وجود هؤلاء المسلمين أنفسهم على ارض شبه الجزيرة . لكن هذا الزعم يخف تأثيره اذا ما عرفت أن غيرهم من مؤرخى الأسبان أيضا قاموا بالرد على هؤلاء وقالوا ان التعلق بالحياة الاسلامية كان هو الاتجاه الغالب يومئذ في أسبانيا ، وأن ملوكها كانوا يتوخون العادات العربية ويلبسون الثياب العربية (١٠) .

ويبدو أن هذا التأخر يعود الى نظام المجتمع النصرانى نفسه ، الذى كان قائما على سيطرة الاقطاعيين والتاج والكنيسة على الاراضى ، بينما كانت جماهير النصب في منزلة الخدم والعبيد . على أى حال كانت هذه الأوضاع من العوامل الداعية لحدوث ذلك التأثير الحضارى وانتقاله من الجنوب المسلم الى الشمال النصرانى ، لكن ما هى القنوات التى سلكها هذا التأثير ؟ هذا ما سوف نتناوله بالبحث الآن .

(٩) بروفيسال ، أارجع نفسه ، ص ٤٠ .

لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٦٤ .

شكيب ارسلان ، الحلل السندسه ، ج ١ ص ٢٦ .

حسين مؤنس ، بطور العمارة ، ص ٢١٨ - ٢٢٢ .

(١٠) بيدال ، أسبانيا حلفه اتصال من المسيحية والاسلام ، ص ١٦ ، ١٧ ، ترجمه ،

أسبانيا والبرتغال ، ص ٣ ، ٤ .

٢ - قنوات التأثيرات الحضارية بين الأندلس وأسبانيا النصرانية :

أهم هذه القنوات هم اليهود والمستعربون والمدجنون والزواج المختلط والتجارة وأسواق الرقيق والحروب ذانها وما ينتج عنها من الأسرى والرهائن والسبى ، ثم المحالفات السياسية والعسكرية ، ومعاهدات السلام ، والجوع السياسى ، والمرتقة .

(١) أما اليهود فكان نشاطهم مؤثرا وعظيما فى نقل التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى جميع مجالات الحياة سواء كانت اجتماعية أم ثقافية أم اقتصادية ، وذلك لأنهم كانوا يجيدون اللغتين العربية واللاتينية ، فكانوا لهذا السبب هم وسيلة من أهم وسائل الاتصال بين الدولتين الاسلامية والنصرانية فى شبه الجزيرة •

كان اليهود تجارا ومترجمين وسفراء ووزراء وحرفيين ، ينقلون التجارة بين الدولتين وخاصة الرقيق ، ويترجمون الكتب الاسلامية العربية الى اللاتينية والعبرية ، وينشرونها فى شمال أسبانيا وأوربا ، نبغ منهم الكثير فى الطب والفلسفة والفلك والكيمياء ، أمثال حسداى بن شبروط طبيب عيد الرحمن الناصر ووزيره وسفيره الى الملكة طوطة ملكة نبرة (١١) .

وفى هذا المجال لا بد أن نشير الى الدور السياسى الذى لعبه اليهود بين الدولة الاسلامية والنصرانية فى الأندلس ، فقد قاموا بدور السفراء والوزراء والمستشارين فى كليهما . وقد سبق القول عن سفارة ابن شاليب اليهودى الذى أوفده ألفونس السادس ملك قشتالة وليون الى المعتمد بن عباد ملك أشبيلية لاستلام الجزيرة ، وما نتج عن وقاحته من قتله وقيام النزاع بين الملكين مما أدى الى استدعاء المرابطين وما نتج عن ذلك من آثار غيرت تاريخ شبه الجزيرة كلها (١٢) .

وكان اليهود يعملون فى أسبانيا النصرانية وزراء وسفراء وكتبا وخداما للعسكر ، وفى جميع الحرف من نساجين وناسخين للكتب ، وصاغة ومجلدى كتب ، وخياطين الى غير ذلك من المهن بسبب أن القشتاليين وأهل

(١١) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الثانى ، ص .

(١٢) أنظر ، الفصل الثالث الباب الثالث ، ص .

الشمال بصفة عامة كانوا يأنفون من الأعمال اليدوية ، ويسمعون لأن يكونوا جندا أو حكاما فقط ، أما في الأندلس الإسلامية فقد كان حال اليهود أحسن و'نفوذهم' أوسع وثروتهم أكبر من ذلك بكثير (١٣) .

ذلك أنهم وصلوا الى منصب الوزارة والكتابة في كثير من دول الطوائف ، فقد كان وزير المعتصم صاحب الملية يهوديا ، وكذلك بنو هود أصحاب سرقسطة وبنو رزين أصحاب السهلة (شتمرية الشرق) يستعينون باليهود في مناصب الوزارة . أما في غرناطة فقد تمتع اليهود فيها بنفوذ كبير ، فقد كان رئيس الوزراء أو الحاجب هو اسماعيل بن نفزالة البهودي الذي استمر في هذا المنصب طوال عهد دولة بنى زيرى في غرناطة تقريبا (١٤) .

وقد سبق القول عن الأسباب التي دعت حكام المسلمين للاستعانة بهذا العنصر ، وكانت الاستعانة بهم منذ الفتح ذاته اذ اتخذهم المسلمون حراسا للمدن التي يتم فتحها ، ووثقوا فيهم ثقة مطلقة لأنهم أعانوهم على الفتح وساعدوهم عليه ، بسبب ما تعرضوا له من اضطهاد على أيدي الدولة البائدة (القوط) . لكن عند ما انقلب ميزان القوى لصالح نصارى الشمال في القرن الخامس الهجرى ، نراهم ينحازون اليهم ضد المسلمين ويساعدونهم على استعادة البلاد . ولا ندرى لذلك سببا ، اللهم الا الخيانة التي تجرى في عروقهم ، والا جريا وراء المصالح التي رأوا أنها تتحقق مع المنتصرين الأثوباء من حكام شمال أسبانيا (١٥) .

كان اليهود يصاحبون جيوش نبرة وقشتالة ولبون تجارا ، يبيعون ويشترون فيما تصل اليه يد الجند من مغانم الحرب وأسلابها ، وما أكثرها في ذلك الحين ، خصوصا وأن الحرب كانت لا تكاد تنقطع بين المسلمين وبعضهم وبعض ، وبينهم وبين النصارى منذ الفتح وحتى نهاية القرون الخامس الهجرى الا لفترات قليلة ، وكانت لهم مدن أو مراكز تجارية يتمركزون فيها ،

(١٣) المراكشى . المعجب ، ص ١٣٤ .

Crow, op; cit, p. 111.

(١٤) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٣٢ ، ٣٢ .

ادن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ج ٢ ، ص ٤٤١ ، ٤٤٤ .
الضبي ، بغية المنس ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(١٥) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٥٢٣ ، ٥٢٦ .

قفى الشرق وعلى ساحل البحر المتوسط كانت مدينة طركونة مدينة اليهود ،
وفى الجنوب كانت مدينة غرناطة أيضا مدينة اليهود بسبب كثرتهم فيها ،
وهناك مدينة اليسانة التى كان يشكل اليهود غالبية سكانها وكانوا من أغنى
يهود شبه الجزيرة (١٦) .

وبسبب نفوذهم وكثرة ثرواتهم وخيانتهم للمسلمين فى نفس الوقت ،
قامت بعض الانتفاضات ضدهم فى أشبيلية ، لكن المعتمد بن عباد تمكن من
إخمادها على الفور ، وفى غرناطة قامت مذبحه هلك فيها منهم الآلاف وتم
قتل زعيمهم اسماعيل بن نغالة اليهودى ، وغر ابنه يوسف الى افريقية
ومن هناك أرسل شعرا لا يدل الا على العداء والكراهية المتأصلة فى نفوس
اليهود ضد المسلمين والمسيحيين على السواء (١٧) .

ورغم ذلك فقد أدى اليهود دورهم فى نقل التأثيرات الحضارية بين
مسلمى الأندلس ونصارى شمال أسبانيا ، وكانوا حلقة من حلقات الاتصال
بين الجانبين ، اذ كانوا كثرى التنقل بينهما بحجة الأعمال ، وكانوا كثيرا
ما يتجاوزون شمال أسبانيا الى فرنسا ، حيث كان يجذبهم هناك وجود
طوائف يهودية كبيرة فى مقاطعتى اللانجدوك والبروفانس (١٨) .

(ب) ولقد لعب النصارى المعاهدون أو ما أطلق عليهم فيما بعد
المستعربون (١٩) دورا مشابها لدور اليهود ، وان كان هذا الدور لم يظهر
الا ابتداء من القرن الخامس الهجرى ، حيث نشطت حركة الاسترداد نشاطا
كبيرا ، واستطاع ملوك قشتالة ونبرة وأرغونة وقطلونية ان يسردوا عددا
كبيرا من الحصون والمدن الاسلامية ، مثل طلمنكة وطليطلة ومجريط (مدريد) ،
ووشقة ، وجميع مدن الشجر الأوسط مثل مدينة سالم ووادى الحجارة وسمورة
وغیرها . وكانت هناك أقلية كبيرة العدد فى تلك المدن من النصارى .

(١٦) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٣٢ ، الاديسى ، صفة المغرب ، ص ٢٩١ ، ٢٠٥ .
حيدر سامان ، مجالى الاسلام ، ص ٢٩٧ .

(١٧) ابن حبان برواية ابن بسام ، الخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ابن
سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ١١٥ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٠٨ .

(١٨) لى بروفنسال ، تراث الاندلس ، ص ٦٢٢ .

(١٩) المستعربون هم نصارى الأسبان الذين أقاموا فى دولة الاندلس الاسلامية وتعلموا
لغة العرب وطردوهم فى أسلوب معينسهم فاستعربوا لسانا وأسلوب حياة .

المعاهدين (المستعربين) ، فكانوا بذلك حلقة من حلقات الانصال ووسيلة لنقل الحضارة الأندلسية الى دول شمال أسبانيا النصرانية .

وقد سبق الحديث عن المعاملة الطيبة التي لاقاها نصارى الأندلس من الحكام المسلمين ، لذلك أقبل مسيحيو البلاد على مناصرتهم والعيش معهم في هدوء ، واستعربوا لسانا وأسلوب حياة ، عدا ما قام به بعض متعمسيهم أحيانا من فتن دينية وطائفية ، كما حدث أيام عبد الرحمن الأوسط من فتنة يولوجيوس . وفي نفس الوقت حرص نصارى الأندلس أو المستعربون حرصا شديدا على استمرار علاقتهم مع اخوانهم في الشمال ، وساعدوهم أثناء حكم ملوك الطوائف بدرجة متزايدة في حروب الاسترداد ، ولذلك كان ملوك الشمال يأخذونهم معهم عند ما يعودون من غزوانهم ، لا لأن بقاءهم في الأراضي الاسلامية كان يؤدي الى معاملتهم بطريقة فظة كما يقول (تشابمان) ، ولكن لأن ملوك الشمال كانوا في حاجة الى تعمير المدن المستردة بمزيد من النصارى ، سواء من أسبانيا النصرانية أم من الأندلس الاسلامية (٢٠) .

وقد سبقت الإشارة الى اسنعة أمراء بنى أمية وخلفائهم ومن أتى بعدهم من ملوك الطوائف بنصارى المعاهدين (المستعربين) في المناصب الادارية والجيش ووظائف القصر والبلاط ، بل انهم استخدموهم كسفراء منذ عصر مبكر وعقب الفتح بحوالى عشرين عاما فقط ، وهناك رواية تقول بأن علقمة عند ما قام بغزو جليقية وأشنريس ووصل الى كوفادونجا ، وهو الكهف الذى اتخذه الأشتوريون مأوى لهم بقيادة زعيمهم بلاى ، أرسل أحد القساوسة الى هذا الزعيم كى ينصحه بعدم جدوى المقاومة . كذلك كانت سفارة عبد الرحمن الثانى والثالث والحكم المستنصر الى شمال أسبانيا وبقيّة دول أوربا تتكون من نصارى الأندلس المعاهدين (٢١) .

وأبرز مثال يمكن أن نضربه على ذلك هو المستعرب ششنندو دافيدس Sisenando Davides الذى كان من وزراء المعتضد بن عباد صاحب 'أشبيلية' ، وكان قد أسر حدثا فى غارة قام بها القاضى ابن عباد والد المعتضد فى منطقة قلهرية عام ٤٢٠ هـ ، ثم أخذه الى أشبيلية وربى مع فتیان القصر ، ولما برزت مواهبه نال ثقة المعتضد ، وجعله ضمن وزرائه أو معاونيه ،

Chapman, A History of Spain, pp. 84, 85

(٢٠)

Crow, Spain, p. 49.

(٢١)

وقد أثار ذلك حقد بعض رجال البلاط ، فنفخى ششندو على نفسه وفر الى بلاط فرناندو ملك قشتالة حيث رحب به واتخذة مستشارا له ، وكان له دور كبير فيها بعد في تكييف سياسة ابنه (الملك ألفونس السادس تجاه مسلمى الأندلس حسبما وضحنا من قبل (٢٢) .

كان هذا الرجل نصرانيا مستعريا تربي في بلاط حاكم مسلم ، ولا شك أنه نقل الكثير مما ألفه ورآه الى بلاط ألفونس السادس ، ويقول بعض المؤرخين أنه التزم سياسة المهادنة واللين والمودة تجاه مسلمى طليطلة ، ونصح مليكه بعدم التطرف في معاملتهم مما جعل المسلمين يطمنون ، وأدى ببعضهم الى الارتداد الى النصرانية (٢٣) .

ولم تكن الاستعانة بهؤلاء المستعربين الا لأنهم يعرفون لغة بني جلدتهم ، وكانوا بذلك أقدر من غيرهم على الفاهم معهم ، كما أن الحدود كانت مفتوحة بين الثفور الاسلامية وبين نصارى الشمال ، ولم يكن هناك ما يمنع من انتقال السكان الى كلا الجانبين ، فكانت الفرصة متاحة للمستعربين للاتصال باخوانهم من نصارى الشمال ، فاذا عرفنا أن المستعربين كانوا يحملون في مظهرهم ولباسهم وعاداتهم ولسانهم وثقافتهم ما تعلموه في الأندلس الاسلامية ، لأدركنا على الفور صبق الصلة وقوة التأثير الذى وصل المدن النصرانية في ممالك الشمال النصراني على أيدي هؤلاء المستعربين .

وكنتيجة لحروب الاسترداد التى بدأت في وقت مبكر وعقب موقعة كوفنا دونجا عام ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م واستمرت حتى نهاية القرن الخامس الهجرى وما بعده ، وجدت طبقة أو فئة أخرى من فئات السكان على أرض المملكة الأسبانية النصرانية ، وهم المدجنون لكنهم لم يظهروا كعامل اجتماعى حضارى الا في القرن الخامس الهجرى اذ تزايدت أعدادهم نتيجة لسقوط عدد كبير من المدن الاسلامية في يد نصارى الشمال كما سبق القول (٢٤) .

١. (٢٢) عان ، دول الطوائف ، ص ٩٨ .

(٢٣) أنظر . الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص .

(٢٤) بروفيسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٧٣ .

(ج) والمدجنون Mudejares هم المسلمون الذين دجنوا أى أقاموا في الأراضي المستردة نتيجة لحروب الاسترداد المسنمة . وقد عمل هؤلاء في البداية معاملة جيدة بصفة عامة حسب معاهدات الاستيلاء ، مراعاة للظروف السياسية والاقتصادية التي جعلت من الأفضل عمل حساب لهؤلاء المسلمين المدجنين بسبب الحاجة الى السكان وإلى المال الزراعيين ، ولم يبدأ التضييق عليهم بشكل واضح الا عقب موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وبعد أن أصبح الصراع بين الأندلس الإسلامية وبين نصارى أسبانيا الشمالية صراع حياة أو موت وأصبحت الحرب حرب افناء (٢٥) .

فقد تدخل رجال الدين من كلا الجانبين وأصبحت الحرب حربا صليبية من الدرجة الأولى ، سابقة بذلك الحروب الصليبية في الشرق ، ووفد كثير من الرهبان والمتعصبين من شتى أنحاء أوروبا وأتاروها حربا صليبية ضد الاسلام لا هوادة فيها ، ويكفى أن تعرف أن تحويل مسجد طليطلة الى كنيسة تم رغم معاهدة الاسترداد على يد نفر من هؤلاء المتعصبين بمساعدة كونستانس ملكة قشتالة الفرنسية الأصل . ومنذ ذلك الحين بدأ التضييق على المسلمين واضطهادهم والزامهم بلبس لباس مميز ، والعيش في أقسام معينة في المدينة ، والزامهم بدفع ضرائب ثقيلة جدا لمصلحة الكنيسة (٢٦) .

ورغم تلك المعاملة فقد بقى في تلك المدن المستردة آلاف من المسلمين المدجنين ، يدل على ذلك صكوك البيع والشراء التي وجدت في كندرائة وشقة وبرشلونة وسرقسطة وطليطلة وغيرها ، اذ أنها تدل على ذيوخ استعمال اللغة العربية في الوثائق والعقود لا بين المدجنين بعضهم وبعض أو بينهم وبين النصارى فقط ، بل كان اليهود يستعملونها أيضا في وثائقهم ، وربما كتبوها بحروف عبرية ، كما أشار بذلك (خنتو بوسك بيل) (٢٧) .

وتثبت هذه النصوص بقاء كثير من جماعات المسلمين المدجنين في طليطلة وغيرها من المدن المستردة الى وقت طويل جدا ، ثم أخذت في الاضمحلال شيئا فشيئا حتى تلاشت اما بالموت واما بالتنصر واما بالطرد من بلاد الأندلس . ولم يكن اضمحلالها كما قال الدكتور حسين مؤنس بسبب .

Champan, op. cit, pp. 86 -87.

(٢٥)

Chapman, op. cit, p. 87.

(٢٦)

Vila, Los Documants arabes, pp, 24, 307.

(٢٧)

فتوى الونشريشى او غيره ممن امنوا بتكفير من استمر في الاقامة في المدن المستردة من المسلمين ، خوفا من غلبة عادات النصارى ولغتهم ولباسهم عليهم ، كما حدث لأهل أبله Avila (٢٨) وغيرهم ممن فقدوا اللسان العربى جملة ، بل ربما أعان هؤلاء المدجنون حكاهم النصارى في حروبهم ضد المسلمين ، كما حدث من مسلمى برشلونة بعد أن عادت الى بوريل الثانى بعد عام من غزو المنصور بن أبى عامر لها عام ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م (٢٩) .

لم تكن فتوى الونشريشى وحدها كافية في اضمحلال جماعات المدجنين ، بل ان السبب الرئيسى في ذلك كما اعتقد ، هو عدم وجود تنظيمات دينية اسلامية أو مؤسسات اسلامية على غرار المؤسسات الكنسية المسيحية ، فالاسلام لا يعرف الكهنوت أو رجال الاكليروس أو نظام الرهبنة والديرية . فقد التف النصارى المعاهدون في الأندلس حول هذه المؤسسات التى صارت هى الملاذ الذى يحميهم ويدافع عنهم ، بل تبوأ رئيسهم منصبا في الحكومة الاسلامية ، ثم وصل صوتهم الى أعلى سلطة في الدولة مما ساعدهم على البقاء وعدم الذوبان كلية في جسم الأمة الاسلامية الأندلسية كما حدث لجماعات المدجنين .

فاذا أضفنا الى عدم وجود مؤسسات اسلامية تدافع عن المدجنين وتحميهم من تلك المعاملة السيئة ، والاضطهاد الذى تعرضوا له خاصة بعد الزلافة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، أنهم لم يجدوا من يثد أزهرهم ، سواء من داخل الجزيرة أم من خارجها من الدول الاسلامية في الشرق والغرب ، بل ان فقهاء الأندلس لم يرحمهم وأفتوا بتحريم اقامتهم في المدن المستردة ، لعرفنا العلة في اضمحلال جماعات المدجنين الذين لم يفعلوا فعل النصارى المستعربين الذين ضحى بعضهم بحياته فيما يعرف بحركة الاستشهاد ، دفعا للآخرين على الثبات والصمود .

على أى حال فقد كان هؤلاء المدجنون سواء طالبت اقامتهم أم قصرت ، من قنوات الاتصال بين الحضارة الاسلامية الزاهرة في الأندلس وبين أسبانيا

(٢٨) مدينة أبله فتحها المسلمون عام ١٤٥ هـ ثم انتزعها الفونش الثالث عام ٢٥٠ هـ ، ثم عانت للإسلام بعد فترة قصيرة حتى استردها الفونش السادس عام ٤٨١ هـ ، ١٠٨٨ م أنظر ، حسن مؤسس ، أسنى المتاجر للونشريشى ، ص ١٩٠ .
(٢٩) 'الونشريشى ، أسنى المتاجر ، ١٤٣ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٠ .

النصرانية المتخلفة ، وكان لهم تأثير كبير في الحياة هناك منذ نهاية القرن الثالث الهجري ، عندما استولى الفونش الثالث على المدن الاسلامية التي تقبع شمال وادي دويرة مثل سمورة وشقوبية وسيمفنة وأبله وأوسمة واسترقة وغيرها ، واستمر بعض مسلمي تلك المدن في الإقامة بها ، وكانوا يؤمنون باليد العاملة فيها ، وازداد نشاطهم وضوحا في القرن الخامس الهجري ووجد على علمائهم وخاصة في طليطلة طلاب العلم من أنحاء أسبانيا وأوربا ، لينهلوا من الثقافة الاسلامية التي ترجمت الى اللاتينية وما تفرع عنها من اللهجات الأسبانية (٣٠) .

ويشير بعض المؤرخين المحدثين الى ان جماعات من المسلمين وخاصة من البربر قد بقيت في أقاصى جليقية وأشنريس عقب حركة الهجرة التي قاموا بها في عصر الولاة من تلك المناطق بسبب الحرب الأهلية العربية البربرية وبسبب القحط الذي أصاب شبه الجزيرة في ذلك الوقت . وقد تكانرت تلك الجماعات ونكرت أسماءها على بعض المواضع في تلك الجهات النائية ، وهذا يدل على أن تاريخ المدجنين لم يبدأ منذ سقوط طليطلة في يد النصارى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وإنما بدأ منذ بداية حرب الاسترداد في عصر الولاة (٩٥ — ١٣٨ م) (٣١) .

(د) الأزواج المختلط :

أما الفئة الثالثة من قنوات الاتصال بين نصارى الشمال ومسلمي الجنوب ، فهي الأزواج المختلط ليس بين مسلمي الأندلس ونصارها ولكن بين مسلمي الأندلس ونصارى الممالك النصرانية في شمال أسبانيا . وقد بدأ بذلك ملوك الأندلس وأمراؤهم ، وكان زواجهم بالأسبانيات والبرتغاليات أجهلا صلة لامتزاج الفاتحين بخصومهم ، والتحام القرابة بينهم على نحو لا تنفصم عراه ، وأصبح ذلك الوافد جديرا بأن يسمى بين عشية وضحاها صهرا ونسيبا (٣٢) .

Crow, op. cit, pp. 97 - 98.

(٣٠)

السعد نعد العرند سالم ، مسجد المحسن في طليطلة ، ص ٨٠ .

(٣١) مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٥٠ .

أنس ركريا النصولي ، الدولة الاموية في قرطبة ، ص ١٠٨ .

(٣٢) مورينو ، الفن الاسلامي في أسبانيا ، ص ٦ ، محمد كرد علي ، غابر الاندلس

وحاصرها ، ص ٣٩ .

وكان أول ولاية الأندلس صهرا للبيت المالک السابق ، فقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير من ايلونا Egilona أرملة ردریک (لزريق) ملك القوط عند الفتح ، وهى التى يسميها العرب « بأم عاصم » وكان نفوذها وتأثيرها على زوجها وتحايلها عليه بأن يتخذ التاج ، من الأسباب التى أدت الى مقتله عام ٩٧ هـ (٧١٦ م). وكانت هناك أيضا لامبيجا Lampegie الفرنسية الحسناء ، ابنة الدوق (أودو) أمير اکوتين ، التى تزوجها عثمان ابن أبى نسعة ، وأثرت عليه وجعلته يتحالف مع أبيها ، لكن عبد الرحمن الغافقى قتله وقتله عام ١١٣ هـ (٣٣) .

أما أمراء بنى أمية وخلفاؤهم فلم يكن منهم من كانت أمه حرة أصلا ، اذ كانت أمهاتهم من نصارى الشمال الأسباني أو من البربر أو من رقيق الصقل . وقد سبقنا الإشارة الى طروب ، الجارية الصقلية زوجة عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) وما كان لها من سلطان وتأثير عليه ، كذلك كانت أم عبد الرحمن الثالث الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) نافارية ندعى ماريبا ونسميها الرواية العربية (مزنة) وهناك رواية أخرى تقول ان اسمها أونيكاء Oneca وهى ابنة الكونت الثالث لمبيلونه المسمى فرنون بن غرسية والمعروف بالأنقر . وقد كان هذا الأمير أسيرا فى قرطبة لمدة طويلة ، ثم رحل الى بلاده فى أواخر عهد الأمير عبد الله جد الناصر ، ويبدو أنه اتفق معه على المحالفة والمصاهرة بأن تتزوج ابنته من ابنه محمد والد الناصر (٣٤) .

كذلك كانت زوجة ابنه وخليفته الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) أورورا Aurora ، والتى تسميها الرواية العربية باسم (صبح) نافارية الأصل أو بشكنسية ، وكانت ذات نفوذ وسلطان كبير فى عهد زوجها ثم بداية عهد ابنها هشام المؤيد ، حتى استبد المنصور بن أبى عامر بالسلطة دونهما . وتزوج هذا الحاجب المنصور أيضا بفتاة نافارية كانت ابنة لشانجة الثانى

(٣٣) الرازى برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

الرازى برواية المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

غان ، تراجم اسلاوية ، ص ٧٧٢ ، صدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ١٠٤ .
Levi-Prevençal, La Civilisation Arabe en Espagne, p. 109.

(٣٤) غان ، حولة الاسلام فى الاندلس ، العصر الاول ، ج ٢ ، ص ٧٠ .
Livermore, A History of Spain, p. 84.

ملك نبرة ، وأنجب منها ابنه عبد الرحمن المأمون الذي كانت أمه تسميه..
شنجول نسبة الى جده الذي كان يشبهه تماما (٣٥) .

وقد كانت المصاهرات كثيرة بين أمراء النغور الاسلامية مثل بنى قسى،
وبنى الطويل المولدين وحكام سرقسطة ، وبين ملوك أسبانيا النصرانية في.
مملكة نبرة وقشتالة ، حتى أن بعض ملوك نبرة كانوا اخوة لبعض أمراء،
بنى قسى المولدين من جهة الأمهات ، وبذلك كان هؤلاء الأصهار يقفون يدا
واحدة ضد أعدائهم سواء كانوا من المسلمين أم من النصارى . وقد سار
بعض ملوك الطوائف على هذا النمط وتزوجوا من أميرات الشمال النصرانيات،
فكانت زوجة مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية هي الأميرة
(جود) النصرانية الاسبانية، وكانت لها خمس بنات تزوجن من ملوك
الطوائف وكن جواسيس لأبيهن على أزواجهن (٣٦) .

ولم يقتصر الأمر على الزواج من أميرات الشمال النصرانيات ، فقد كان
للتسرى بفتيات الشمال الأسباني الواردات ضمن السبى أو الجزية عادة
مألوفة في بيوت حكام الأندلس الاسلامية طوال الفترة محل البحث ، وكان
كثير من الأمراء والخلفاء الأمويين يشترطون أن تحتوى الجزية على بعض
فتيات الجاليجاز gallegas الغاليسيات الشقراوات وكان الطلب على
هذا النوع من الفتيات عظيما ، وأدى ذلك الى وجود العيون الزرقاء والشعر
الأحمر والبشرة البيضاء في بعض الخلفاء مثل عبد الرحمن الناصر . وكان
في قصر أشبيلية رواق يدعى رواق الصبايا ، كان يستقبل الفتيات اللاتي
كان على نصارى الشمال أن يقدموا مائة منهن كل عام الى بعض ملوك،
العرب (٣٧) .

Dozy, A History of the Moslems in Spain, p. 400 (٣٥)

Provencal, op. cit, p. 110.

Livermore, op. cit, p. 86.

(٣٦) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٨ ، المعزى ، نصوص عن الاندلس،
ص ٢٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢١٩ ، ٢٢١ .

(٣٧) غوستاف لويون ، حضارة العرب ، ص ٢٨٩ .

Crow, op. cit, p. 61.

ولم ينفرد الأمراء والخلفاء والحكام بهذا الزواج المختلط ، بل فعله
فعلهم كبار العرب وغيرهم من المؤسرين ، لأن هؤلاء جميعا وفدوا الى
الأندلس دون أن يصحبوا معهم نساءهم ، فقد دخلوها جيوشا منظمه ، ولم
يدخلوها دخول البرابرة أنواجا وقبائل بنسائهم وأطفالهم ، ومن ثم لم يكن
هناك بد من اتخاذ النساء من أهل البلاد ، وأصبح الزواج المختلط أمرا
لا مفر منه ، وأدى ذلك الى أن الجيل الثانى من مسلمى الأندلس كان هجينا ،
بل ربما جاز اعتبارهم مولدين ، حيث أن البيت الأموى نفسه كان بيتا مولدا ،
وأنما كانوا عربا بالاحساس والاتجاه واللغة ، وأخذ الدم العربى الصريح
يتلاشى فى هذا القطر شيئا فشيئا (٣٨) .

وكان لهذا الزواج المختلط أثر كبير عند الجانبين ، فقد كان الأطفال
يتكلمون لغة أمهاتهم بجانب اللغة العربية ، ولا شك فقد نشر هؤلاء النسوة
عاداتهن وتقاليدهن وأسلوب حياتهن داخل قصور الملوك والأمراء وغيرهم من
الناس ، وأدى ذلك الى انتشار لغة شعبية تسمى عجمية أهل الأندلس ،
أو اللطينية ، وهى مزيج من اللاتينية والعربية والبربرية ، يتكلمها الناس
فى حياتهم العادية . وقد نعجب ابن حزم من أهل دار (بلى) بشمال قرطبة
لأن نساءهم ورجالهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط ،
مما نفهم منه أن تلك اللغة كانت منتشرة بين أهل الأندلس ، بل هناك من
يقول بأن اللهجة التى كانت تسمع فى القصور الملكية ، هى لهجة عالسبا
(جليقية) (٣٩) .

وقد لعبت هؤلاء الزوجات والسراير من الجوارى المسيحيات
الأسبانيات وغير الأسبانيات دورا خطيرا فى الحياة الاجتماعية والسياسية
فى الأندلس ، فقد كن ينقلن أفكار نصارى الشمال الأسباني ، ومن تعلمت
العربية منهن كانت تنقل الأفكار والأقاصيص الأسبانية والأوربية الى اللغة
العربية . وانقسمت البيوت العربية الى قسمين ، قسم من أولاد السراير ،
وقسم من أولاد الحرائر ، والأولاد تبع لأمهاتهم ، ينقسمون بدورهم ويتعصبون

(٣٨) بالنسبة ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ١ ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص

٣٧٣ ، ٥٠٢ .

(٣٩) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٧٧ .

Crow, op. cit, p. 61.

Hole, Spain under the Moslems, p. 23

لأمهاتهم ، وكثيرا ما دبرت المؤامرات بسبب ذلك ، ورغم ما كن يتظاهرن به من حب العروبة والاسلام "لا أن كثيرا منهن كن جاسوسات على حكام الأندلس ، إذ لم ينسبن نصرانيتهن ولا أسبانيتهن" (٤٠) .

وقد انتقل نظام الحريم هذا الى بلاط ملوك أسبانيا النصرانية ، فعلى عهد ملوك الطوائف كان هناك ثلاثة أنواع من الزواج في الشمال الأسباني ، أولاها ، هو الزواج المعنصرف به من الكنيسة ويسمى Bendicion وكان زواجا مباركا تعقبه حفلة دنية ، والثاني يسمى Yuras وهو زواج يتم باتفاق بسيط بين طرفين ، وكانت لا تمنعه الكنيسة ، أما الثالث فهو مشابه للنوع الأخير لكنه غير معترف به كارتباط قانوني ، وكان يسمى Barraganía أى السرى أو الزواج بالسرائر ، وكلا الطرفين في هذا الزواج يعتبران غير مرتبطين . وقد بمنح هذا النوع من الزواج ليشمل الرجال المتزوجين زواجا شرعيا ، وإلى كثير من رجال الاكليروس بالرغم من منعهم لهذا النوع من الزواج . والنوعان الأخيران من هذا الزواج يمكن أن نعتبرهما تقليدا مسيحيا للتقاليد الاسلامية في اتخاذ السرايا والحظايا (٤١) .

وبذلك فان تقاليد المسلمين وأساليب حياتهم وان تبرأ منها النصارى كان لها تأثير في حياة أمراء الشمال النصراني ، فقد كان عدد من ملوك ليون وقشتالة فضلا عن الزوجة الشرعية يحتفظون بسررب من الحظايا (الحريم) . ومع أن هؤلاء الحظايا لم يبلغن من الكثرة مبلغهن عند أمراء المسلمين في الأندلس ، فقد كن يعاملن معاملة الزوجات تقريبا ، وكان أولادهن بالرغم من حرمانهم من الارث الشرعى ، يرثون أحيانا بعض الأراضى (٤٢) .

وقد تعدي الأمر أن تزوج بعض ملوك قشتالة وليون من مسلمات ، مثال ذلك مورجات بن الفونس الأول (موريقات عند العرب) ملك ليون (١٦٦ — ١٧١ هـ / ٧٨٤ — ٧٨٩ م) ، والذي كانت أمه مسلمة ، وتحالف مع المسلمين ضد أعدائه من نبلاء النصارى . كما تزوج أشهر ملوك قشتالة وليون في القرن الخامس الهجرى وهو الفونس السادس من كنة المستمد بن عباد بنك أنسبيلة وتسمى (زائدة) أو (سيدة) ، وذلك بعد أن قتل المرابطون زوجها المأمون بن المعتمد بن عباد ، ثم ساروا الى أشبيلية وأسروا

(٤٠) أحمد أمس . طيور الاسلام . ج ٣ ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

(٤١) Chapman, op. cit, p. 88

(٤٢) يوسف أسداح ، تاريخ الاندلس ، ص ٩٤٠ .

المعتمد نفسه ، فامتلات نفسها حقدا على قاتلى زوجها وسجائى أبيه ، ولم تلبث أن رحلت باحثة عن ملاذ لها فى مملكة الفونس السادس العدو اللدود للمرابطين ، وهناك أصبحت زوجة شرعية له بعد أن ارتدت الى النصرانية وانجبت له ابنه الوحيد شانجة (٤٣) .

ولا شك أن المدن المستردة قد تحول جانب من سكانها الى النصرانية ، ولا بد أن تكون المصاهرات قد عقدت بين هؤلاء النصارى الجدد وبين النصارى القدامى ، وغنى عن القول ما ينتج عن ذاك من نشر للحضارة الاسلامية ، بل ان بعض ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى كانوا يتوددون الى ملوك اسبانيا النصرانية ، بأن يجعلوا من بلادهم مكانا للاحتفال بمصاهرة ملوك النصارى الأسبان بعضهم من بعض .

فقد حدث أن ومد شانجة غرسبة أمير قشتالة (٣٨٥ — ٤٠٧ هـ / ٩٩٥ — ١٠١٧ م) وريموند صاحب برشلونة الى سرقسطة فى عهد ملكها منذر بن يحيى (٤٠٠ — ٤١٤ هـ) ، وتصاهر الاميران المسيحيان على يديه ، وكتب عقد النكاح بينهما بمدينة سرقسطة فى حفل من أهل الملتين . ويخطىء ابن حبان فى جعل هذا الزواج يتم فى عهد المنذر (الثانى) أن يحيى الذى تولى حكم سرقسطة عام ٤٢٠ هـ ، والصحيح أنه تم فى عهد المنذر (الأول) ابن يحيى الذى استقل سرقسطة فى بداية عهد الفتنة البربرية واستمر فى حكمها حتى عام ٤١٤ هـ ، لأنه هو الذى كان معاصرا لشانجة غرسية كونت قشتالة الذى توفى عام ٤٠٦ هـ (٤٤) .

وان دل هذا الزواج الذى تم فى سرقسطة على تنىء فانما يدل على التداخل بين الشعبين المسلم والمسيحى على أرض شبه الجزيرة ، فلم تكن حروب الاسترداد مستمرة ومتصلة ، ولم يكن الناس يقدرّون على ذلك كثيرا ، بل كانت هناك فترات أو سنوات ربما تطول أو تقصر حسب الأوضاع الداخلية لكل من البلدين ، تهذا فيها الحروب ويسود السلام ، وتمثل انصهارا فى النواحي الثقافية والاجتماعية بين الجانبين المسيحي والاسلامى ، اللذان كانا يعيشان حياة الحرب والحب معا وفى وقت واحد ، رغم التناقض

(٤٣) الونشريشى ، أسقى المناحر ، ص ١٨٩ .

ليوى برونسسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٥٩ . ١٦٠ .

(٤٤) أنظر ، الباب الثانى ، الفصل الثانى ، ص .

الموجود بينهما . فالحرب تمثلها تلك الفزوات والهجمات التي لا تنتهى بين الجانبين ، والحب يمثلها هذا الزواج المختلط ، وذلك القرابة والمصاهرة الدائبة ، والجوار والتلاحم الذى لا ينتهى أبضا (٤٥) .

حقيقة أن البيت الاسلامى كانت تدبره سبدة نصرانية أسبانية أو فرنجية، ربما نعتنق الاسلام أو نبقى على دينها القديم ، وانك لو تخيلت ربة القصر من هذا النوع ، فماذا تتوقع ؟ لا بد أنه كان هناك خدم وحشم وجواري وعبيد من نفس النوع ، وخاصة من هؤلاء النسوة البيض الجميلات من الشمال النصراني ، اللاتي كن يوصفن دائما بأنهن جليقيات (غاليشيات) ، ولا يأنفن من العمل في قصور أمراء وخلفاء مسلمي الأندلس ، بهدف الحصول على الثروة والغنى وربما المركز السامى ، فقد وصلت بعضهن الى منصب الملكات كما سبق القول (٤٦) .

(هـ) سوق الرقيق :

ولذلك نشطت سوق الرقيق نشاطا كبيرا ، وكان تجار اليهود هم الذين يقومون بتلك التجارة الرباحة ويجلبون الى الأندلس أعدادا هائلة من الفتيان والفتيات الأسبانيات والفرنجيات . وتشير كثير من الروايات الى استخدام المسلمين للفتيان الخرس الذين لا يفصحون في منازلهم ، وكان كثير منهم ذا كلف بالفتيات أو الفتيان من النصارى هؤلاء ، وربما وقعوا في حبهن حتى قالوا فيهن الكثير من الشعر ، بل ان عبد الرحمن الناصر بنى مدينة وسماها على اسم حظيته المحبوبة الزهراء ، فكانت مدينة الزهراء الجميلة . وبذلك كانت سوق الرقيق سبيلا من سبل الاتصال الحضارى بين نصارى ومسلمي شبه الجزيرة (٤٧) .

Crow, op. cit, p. 80.

(٤٥)

(٤٦) ابن خلدون ، مقدماته ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ١٠٤ . Hole, op. cit, p. 114.

(٤٧) ابن حيان برواية ابن بسام ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٤٠٣ ، ق ١٠٤ .

ج ١ ص ٦٠ ، ابن حيان برواية المقرئ ، نفق الطب ، ج ٢ ، ص ٣٦٢ .

ابن خلكان ، قلائد العقيان ، ص ٩٥ ، ٩٦ ، مطمح الانفس ، ص ٨٠ .

ابن غالب ، تعليق منقته من فرحة الانفس ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

ابن خلكان ، وفصاف الاعيان ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

« و » الحرب المستمرة :

وكانت الحرب المستمرة بين الطرفين سبيلا من سبل التأثير الحضارى .
ايضا اذ كانت المعارك تنسفر دائما عن اسرى وسبى كثير سواء من هذا
الجانب أو ذاك . ينتقل هؤلاء الأسرى وذاك السبى الى الشمال أو الجنوب ،
ويعملون حياتهم وأساليبهم في الحياة ، وفي الغالب كانوا ينعملون لفقة
البلد الذى أجبروا على العيش فيه ، وربما اعتنقوا ديانته ، وربما تحرر
هؤلاء الأسرى وعانوا الى بلادهم ، فقد كانت هناك جمعيات في أسبانيا
النصرانية والأندلس الاسلامية مهمتها العمل على تحريرهم (٤٨) .

ولما كان المسلمون هم الفائزون في معظم المعارك الحربية في عصرى
الامارة والخلافة ، فقد كان معظم الأسرى والسبى من أهل الشمال
النصرانى ، وقد سبقت الإشارة الى أنه في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن
الداخل (١٧٢ — ١٨٠ هـ) بحثوا عن أسرى يمكن اقتداؤهم بالمال فلم يجدوا
أسيرا مسلما ، وهناك رواية تقول بأن الأمير الحكم الربضى (١٨٠ —
٢٠٦ هـ) ، وأن الحاجب المنصور بن أبى عامر (٣٦٦ — ٣٩٢ هـ) قاما
بحرب لأن كلا منهما سمع بأن نصارى الشمال احتجزوا عندهم امرأة مسلمة
أسيرة دون أن يعيدوها الى ديار الاسلام حسب اتفاقيات الصلح (٤٩) .

لذلك فقد كثر الأسرى المسيحيون في عصرى الامارة والخلافة (١٣٨ —
٤٢٢ هـ) ، وكان كثير منهم يفك أسرهم ويعود الى وطنه ، سواء بواسطة
أهله أو بواسطة أغنياء المسلمين أنفسهم الذين كانوا بحررونهم ويطلقون
سراحهم شكرا لله على توفيقه لهم في شيء ما . وقد حدث عام ٣٨٧ هـ /
٩٩٧ م أن علم المنصور بن أبى عامر بانتصار جنوده في واقعة كبيرة في
أفريقية ، فأسرع بتحرير نحو ١٨٠٠ أسير مسيحي من ذكور وإناث تقربا
الى الله وشكرا على نعمة النصر (٥٠) .

واذا ما عاد هؤلاء الى أوطانهم وقد تعلموا العربية وعاشوا حياة
المسلمين الأكثر منهم حضارة ومدنية ، نشروا ما عرفوه من أساليب الحياة
والمعيشة الاسلامية بين مواطنيهم ، وزاد على ذلك أثر الأسرى المسلمين

(٤٨) رينو ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٤٩) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الاول ، ص .

(٥٠) رينو ، المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

الذين كانوا يقعون في أيدي النصارى في أواخر عصر الإمارة وفي عصر دولة الطوائف ، وكان هؤلاء بالطبع يزدون في عملية النقل الحضارى بين الأندلس الإسلامية وبين أسبانيا النصرانية .

وفي الأندلس كان أسرى نصارى الأسبان ينحولون الى موالى وعبيد اذا لم يجدوا من يحررهم أو اذا لم يعتنقوا الاسلام ، وكانوا بخدمون في القصور ، وكان منهم الحرس الخاص للخلفاء والملوك الذين كانوا يعولون عليهم في الحروب ، حتى أن عددا كبيرا من جنود المنصور كان من سبى الشمال . أما الرقيق من النساء فكان يشتغلن في قصور الأمراء والأغنياء ، ويتقنن ويتعلمن الغناء ، ومن تنبغ منهن كانت نباع بمن درنفع ، أو يهديها صاحبها الى الأمير ، أو بتزوجها فتصير حرة وتسمى أم ولد . وكانت قصور فرطبة ومقبة حواضر الأندلس ملأى بأمهات الأولاد (٥١) .

وكانت تساء معاملة الأسرى أحيانا ويكلفون بالأعمال الشاقة ، وقد سبقت الإشارة الى أسرى قطلونية (برشلونة) الذين كلفوا بنقل عدد معين من أحمال التراب الى قرطبة ، وهناك رواية تقول بأن المنصور بن أبى عامر كان يستخدمهم أيضا في بناء مدينة الزاهرة بدلا من البنائين المسلمين ، وهم مقيدون في الأصفاذ ، اذلالا للشرك واظهارا لقوة الاسلام . وخلا هذين الحادثين لم نعثر على ما يدل على الاساءة الى أسرى النصارى في بلاد الأندلس ، وواضح أن ذلك تم في عهد المنصور بن أبى عامر الذى خرج عن سياسة الاعتدال في علاقته بنصارى الشمال حسبما تقدم (٥٢) .

أما الأسرى المسلمون الذين كانوا يقعون في يد نصارى أسبانيا النصرانية ، فلم يتمتعوا بما تمنع به أقرانهم النصارى في الأندلس الإسلامية ، اذ كانت ساء معاملتهم ولا يمشون الا في الأصفاذ خوفا من هروبهم ، ولا يتحررون من العبودية الا اذا تنصروا ، وكانوا يكلفون بأعمال الزراعة والحراثة ، وحتى لو تنصروا وتحرروا فانهم يبقون في درجة اجتماعية اقل من سائر المواطنين . ولم يكن يحق لهم التزوج من المسيحيات ولو كن من

(٥١) ابن الأبار ، الحلة للسراء ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

ابن سعد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، المعرى ، النفع ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .
رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٥٢) المعرى ، نفع الطب ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

الخوادم ، ولم يكن يؤذن للعبد بالزواج من الأمة ولو كانا من ملة واحدة ،
وأنما يسمح لهما بالسكن في مكان واحد على أن يكون الأولاد ملكا لسيدهما (٥٣) .

وكان للحرب في ذاتها تأثيرات اجتماعية واقتصادية على نصارى أسبانيا النصرانية ، وخاصة المقيمين منهم في مناطق الحدود ، فقد أدت الى رفع مكانة العامة من الشعب النصراني نظرا لاحتياج الملوك اليهم في كفاحهم ضد مسلمي الأندلس ، وقد كانت ممالك أسبانيا النصرانية تعيش اجتماعيا وسياسيا عصر سيادة الاقطاع وينقسم الناس فيها الى طبقات ، وكانت طبقة النبلاء تستعبد بقية أفراد الشعب سواء كانوا زراعا في الحقول أم عمالا في المصانع الحرفية أم خدما في القصور . وقد صار هؤلاء الخدم والعبيد سادة أحرارا بفضل حروب الاسترداد التي هيأت لهم تلك الفرصة الذهبية ، وهكذا أصبحوا جنودا بمتطون الخيل ، وأصبحوا فرسانا ونبلاء صغارا أو رؤساء قرى صغيرة ، دون أن يكون عندهم أراضي واسعة أو ثروة كبيرة ، اذ كانت ثروتهم تكمن في قوة سواعدهم (٥٤) .

وفي بعض الفترات كانت نهداً للحروب ويعم السلام وتعتقد معاهدات الصلح والسلام ، كما حدث عام ٢٧٠ هـ في عهد الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٢ هـ) ، وكما حدث في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ هـ ، وفي عهد ابنه وخلفه الحكم المستنصر عام ٣٥١ — ٣٥٥ هـ ، وقد سبقنا الإشارة الى هذه المعاهدات في مكانها من الدراسة ، وما نود أن نقوله هو أن تلك المعاهدات كان يتبعها أخذ للرهائن من نصارى الشمال في عصر الخلافة ، تبادل الرهائن في عصر ملوك الطوائف . وبديهي أن هؤلاء الرهائن كانوا يتعلمون العربية ويعيشون حياة المسلمين ، فاذا عادوا نقلوا ونشروا ما تعلموه في بلاط ملوكهم وأهليهم وأضيفوا الى جملة الأسبان الذين يعرفون العربية ويعيشون حياة أهلها (٥٥) .

وكان أول زعيم من زعماء جليقية وأشتريس وهو بلاي فيما نقول بعض الروابات رهينة في قرطبة ، ثم هرب منها وفر الى الشمال وبدأ حرب الدفاع

(٥٣) الصبي ، بمبه المنمى ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

Chapman, op. cit, p. 122

(٥٤)

(٥٥) رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٣ .

والمقاومة ضد مسلمى الأندلس منذ عام ٩٨١ هـ ، تلك الحرب التى تحولت
عنها يعد الى ما يسمى بحرب الاسترداد . وقد انتشر أسلوب تبادل الرهائن
فى عصر ملوك الطوائف بالذات بسبب كثرة عدد الدول الاسلامية وتهافتها
على محالفه ملوك أسبانيا النصرانية ، وقد سبقت الاشارة الى ما قام به
ابن عمار نبابة عن مليكه المعتمد بن عباد من تبادل للرهائن مع أمير برشلونة
حتى يتم تنفيذ المعاهدة التى عقدها معه بخصوص الاستيلاء على مرسية (٥٦) .

وغير الرهائن فقد كانت معاهدات السلام تتيح الفرصة لتبادل السفارات
الدبلوماسية والتجارة والطلاب والأطباء ، ويمكن أصحاب المصالح من الانتقال
بين طرفى شبه الجزيرة . وقد عرفنا أن يولوجيوس زعيم الفتنه الدينية فى
قرطبة فى منتصف القرن الثالث الهجرى قد ذهب الى بملونة عاصمة نبرة عدة
مرات ، ثم عاد محملا بكتب الأدب اللاتينى ، علاوة على الكتب الدينية
المسيحية وبعض الكتب التى تحتوى على خرافات كثيرة ملفقة تحط من شأن
الدين الاسلامى . وسبقت الاشارة أيضا الى وفود كثير من الرهبان الى
قرطبة للدراسة والعلم ، منهم من صار أحد بابوات روما (٥٧) .

كما سبقت الاشارة أيضا الى البعثات التى كان يوفدها ملوك
أسبانيا النصرانية الى ملوك الطوائف لجمع رفات القديسين النصرانى فى بلاد
الأندلس أو لأخذ الجزية أو لتجديد معاهدة . وكانت السفارات الاسلامية
تذهب الى ليون أو برغش أو بملونة أو برشلونة تعقد معاهدات التحالف
ضد ملوك الطوائف الآخرين ، أو لتحديد ما يلزم دفعه من الجزية أو لتجديد
الصدقة والتحالف (٥٨) .

كل هذا النشاط الدبلوماسى ، لا بد أنه كان عظيم الأثر فى دفع عملية
المزج الحضارى والتقريب المادى والفكرى بين الأندلس الاسلامية المتحضرة
وبين الشمال النصرانى المتخلف . ومما ساعد على ذلك أيضا عملية اللجوء
السياسى . واستخدام الجند المرتزقة عند الجانبين .

(٥٦) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص

(٥٧) انظر ، الفصل الاول ، الباب الاول ، ص

(٥٨) انظر ، للفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص

(ز) اللجوء السياسي :

أما اللجوء السياسي فقد كان ذائعا ومنتشرا ، وسبقت الإشارة الى ما قام به أفراد من البيت المالكي سواء في الأندلس الإسلامية أم في الممالك النصرانية في شمال أسبانيا ، من اللجوء الى الجانب الآخر طلبا للمساعدة ضد الحاكم أو هربا من استبداده وظلمه . فقد اتصل اخوة هشام بن عبد الرحمن الداخل بنشرلمان إمبراطور الفرنجة ، طالبين منه العون ضد هشام ، ثم ضد ابنه الحكم فيها بعد . ولجأ ابن لعبد الرحمن الناصر الى ملك ليون ، ولجأ ابن للحاجب المنصور بن أبي عامر الى ملك قشتالة (٥٩) ، وكثر ذلك بين حكام الشعوب الإسلامية سواء في عصر الإمارة أو الخلافة ، فقد لجأ ابن مروان الجليقي الى الفونش الثالث ، كما لجأ أفراد من أسرة بنى قس وبنى الطويل في عهد الإمارة الى ملوك نبرة وليون . ولجأ أفراد من بنى تجيب الى ملوك ليون وتحالفوا معهم ضد عبد الرحمن الناصر . كثر ذلك في عهد ملوك الطوائف أيضا ، فقد لجأ أفراد من أسرة بنى ذى النون أصحاب طليطلة ، ومن أسرة بنى هود أصحاب سرقسطة وكذلك بعض الوزراء مثل ابن عمار وغيره الى ملوك أسبانيا النصرانية . وكان هؤلاء في الغالب يعيشون في ممالك الشمال هم وأنصارهم آمادا طويلة ، وربما ماتوا هناك ، ولا شك أنه كان لهم تأثيرهم الحضارى (٦٠) .

وكان هناك أيضا اللاجئين من ممالك الشمال الأسباني الى الأندلس الإسلامية فقد لجأ ثمانجة (سانشو) ملك ليون الى حماية عبد الرحمن الناصر حينما استأثر أخوه أردون (اردونيو) بالحكم واتى أردونيو الى قرطبة يلتمس حمايتها وتأييدها ضد الفونسو في عصر الحكم المستنصر ، ولجأ الفونسو السادس الى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، فأكرمه ورعاه حتى عاد الى ليون عقب مقتل أخيه سانشو الثانى ، وتولى ملك ليون وقشتالة ورد الجميل للمسلمين فأستولى منهم على طليطلة ذاتها ، وقضى على ملك بنى ذى النون أنفسهم .

(٥٩) الرازى برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٤ .

ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٢٤ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .

انظر الفصل الثالث ، الباب الثانى ، ص .

(٦٠) المصدر ، المصدر نفسه . ص ١٠ ، ٢٢ ، ٤٥ ، ٥١ ، ابن عذارى ، المصدر .

نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ، ابن سعيد . المصدر نفسه ، ج ١ ص ٤٨ .

كذلك لجأ أخوه الى بلاط بنى عباد فى اثبيلية (٦١) ، ومما هو جدير بالملاحظة ما تقوله بعض الروايات من أن الفونسو السادس عند ما كان لاجئاً فى طلبلة سمع أمراءها يتجادلون فى كيفية الدفاع عن المدينة وعن كيفية استسلامها ، فادخر الفونسو هذا الحديث فى نفسه وانفجع به عند استنائه على المدينة ، وما نود أن نقوله هو أن الفونسو لا بد أنه كان يعرف العربية حتى يفهم كلام الأمراء ، اذ تتول الرواية انه كان راقداً متظاهراً بالنوم وأنه استرق السمع ، فلم يكن هناك مترجم ، ولم يكن هناك من يشرح له معنى الكلام ، أو ربما كان هؤلاء يتكلمون بالعجمية التى أشرنا إليها من قبل ، وهى قريبة من اللاتينية ، فاستطاع الفونسو أن يفهم ما فهم (٦٢) .

(ح) أما الجنود المرتزقة من نصارى الشمال الأسباني وان كان بدأ استخدامهم منذ عصر عبد الرحمن الداخل (١٣٨ — ١٧٢ هـ) ثم فى عهود من ملوك من أمراء وخلفاء بنى أمية ، الا انه كثر استخدامهم فى عصر دول الطوائف ، وابتداء من القرن الخامس الهجرى على يد خلفاء بنى أمية الأواخر كما سبقنا دراسته فى الأبواب السابقة ، وكان هؤلاء الجنود لا شك يعيشون بين ظهرائى المسلمين ويقتبسون من أساليبهم فى الحياة ويعودون الى بلادهم وينشرون ما علموه أو عرفوه . وأبرز مثال على ذلك هو السيد القمبيطور وجنده المرتزقة الذين خدموا أمراء المسلمين أكثر ما خدموا أمراء النصارى . ولو لم تمت القمبيطور وهو فى خدمة الجانب النصراني ، لما حفلت به الأساطير الأسبانية ورفعته الى مرتبة الأبطال القديسين (٦٣) .

وبالمثل كانت جنود الممالك الاسلامية تعمل أيضا متحالفة فى خدمة ملوك نبرة وقنباله كى يعين هذا على ذاك ، أو تساعد أحدهم فى الهجوم على دولة اسلامية معادية . وقد سبقنا دراسة ذلك فى الأبواب السابقة ، مما يدل على أنه كان هناك تداخل سياسى وعسكرى واجتماعى بين ممالك

Dozy, op. cit, pp. 422 - 426

(٦١)

أسطر الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص

(٦٢) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص

(٦٣) أسطر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص

أسبانيا النصرانية وبين حكام الأندلس الإسلامية ، مما اتاح الفرصة لنقل التأثيرات الحضارية بين الجانبين بطريقة طبيعية ومؤثرة .

هذا عن قنوات الاتصال بين نصارى شمال أسبانيا وبين مسلمى الأندلس وهى قنوات كما رأينا متعددة ومؤثرة وفعالة ، ولا بد أنها نقلت الكثير والكثير من المؤثرات الحضارية سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية الى الممالك الأسبانية النصرانية . كما نقلت أيضا بعض التأثيرات الى الحياة الإسلامية فى الأندلس . وقد تعددت المجالات والميادين التى نجم قبيها هذا التأثير أو ذاك ، سواء فى ميدان الحياة الاجتماعية أم الثقافية أم الاقتصادية .

٣ — مظاهر التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الاجتماعية :

وفى هذا الميدان ظهر التأثير فى نواح عديدة ، فى روح التسامح التى تحلى بها المسلمون تجاه أصحاب الأديان الأخرى فى شبه الجزيرة ، وفى الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفى الموسيقى والحفلات والأعياد ، وفى الملبس والأكل والمشرب والسكن ، أو فى ميدان العمارة وفن البناء .

أما روح التسامح فقد ظهرت عند مسلمى الأندلس بشكل واضح ، وقد وُفينا الحديث عن هذا الموضوع أثناء الكلام عن الفتنة الدينية التى سميت بحركة الاستشهاد المسيحى التى حدثت فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وما نود أن نقوله هنا هو أن الكنائس كانت مفتحة الأبواب للمارة سواء من النصارى والمسلمين ، تفدق عليهم من كرمها وأطايب طعامها وشرابها حتى أن بعض المسلمين كانوا يبيتون بها^(٦٤) .

وقد بلغ التسامح الى حد أن كان المسلمون يزورون كنائس النصارى ويزور النصارى قبور أولياء المسلمين لنيل البركة ، كما أنهم

(٦٤) آبن سمام ، المصدر ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، ١٩٢ .

ابن خاقان ، مطمح الانفس ، ص ٢١ .

الادويسى ، صفة المغرب ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

انظر للفصل الاول . الباب الاول ، ص .

امتنعوا عن أكل لحم الخنزير وقاموا باختان أطفالهم تفليدا للمسلمين .
بل كانت أسماؤهم في غالبها أسماء عربية . كما تلقب بعض المسلمين
بالقاب النصارى ، فهناك الأديب أبو جعفر بن عبد الله ، وكان يعرف
بابن شانجة . ولا شك أن روح السماحة هذه قد انتقلت الى نصارى
الشمال وأخذوها عن المسلمين^(٦٥) .

فقد كان ملوك قشتالة وليون يحبطون أنفسهم بعلماء المسلمين .
ويستخدمون مهندسيهم ، ويستمعون الى موسيقيهم ، ويستفحون بخير ما في
الثقافة الاسلامية دون أدنى لوم أو حرج ، ولم يتحول شعورهم الا عند ما
اتخذت الحرب الصفة الدينية الصليبية في عصر ملوك الطوائف . ورغم
تحقيق نصر حاسم على المسلمين بسدد ستوط طليطلة في يد الفونسو عام
١٠٨٦ هـ / ١٠٧٨ م ، فقد قرر هذا الملك في البداية ألا يتعرض لمقدمات
المسلمين وأن يظلوا مشرفين على مسجدهم وأن يقيموا فيه شعائرهم دون
أن يتعرض لهم أحد^(٦٦) ♦

لكن المتعصبين من رهبان الأديرة مع مطران طليطلة بمساعدة الملكة
كونستانس — وكان هؤلاء جميعا من الفرنسيين — تمكنوا في غيبة الفونسو
السادس في ليون من تحويل مسجد طليطلة الى كنيسة ، ولما عاد الفونسو
وعرف بالامر غضب غضبا شديدا واعتزم عقاب هؤلاء المعتدين بالموت
حرقا ، لكن مسلمي طليطلة تشفعوا لديه حتى لا ينفذ وعيده اعتقادا
منهم بأن هذا غير مفيد ، وربما اثار عليهم المسيحيين الآخرين وأتى بنتيجة
عكسية . وكان تدخل البابوية وأتباعها من الرهبان الفرنسيين هو الذي
ساعد في احداث موجات التعصب ، كما أدى الى اشتداد ساعد
رجال الدين المسيحيين في اسبانيا ، بدرجة فاقت غيرها من البلاد

(٦٥) ابن بسام ، الخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٣١١ .

ابن عذاري ، البيان ، ص ٢٣ ، ص ٢٣ .

ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

رينو ، المرجع نفسه ، ص ١٨٠ .

(٦٦) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص .

الأوربية الأخرى حتى قيل « ان أسبانيا ضحت بحريتها وبمعظمها كشعبها في سبيل الكاثوليكية » (٦٧) .

وقد أخذ نصارى الشمال الأسباني عن المسلمين الكرم وحسن الخلق وتخلصوا من همجيتهم بفضل اتصالهم بالمسلمين واقتباسهم منهم طابعهم النبيلة ، ومبادئ فروسيتهم التى منها مراعاة النساء والشيوخ والاطفال واحترام العهود والوفاء بالوعود ، ورقة العواطف ولين الطبع ، حتى قال بعض مؤرخى النصارى ومتدنبهم أنه « يشك فى أن المسيحية كانت تستطيع وحدها أن تأتى بمثل ذلك التأثير مهما بولغ فى كرمها وتأثيرها ، فلم يكن المسلم مدمرا أو مخربا ، وإنما كان مبدعا منشئا للمدن والقصور والبساتين ، ورغم أصله البدوى القاسى ، إلا أنه كان يحب اللين والترف ويستلطف الجمال فى شتى صورهِ ويستطيب الحياة الناعمة (٦٨) .

ولذلك رأينا أن أشد المسلمين غزواً وإيغالا فى بلاد النصرانية فى شمال أسبانيا وهو المنصور بن أبى عامر وابنه عبد الملك المظفر (٣٦٦ هـ — ٣٩٩ هـ) رأيناه ينصح بعدم احراق الدور وعدم هدم المنازل ، بل أنه كان يصل بلاد الشمال ببلاده بالعمل على تعميرها وتوفير الاقوات والمدن لها ، حتى أنه ندم فى أواخر أيامه على ذلك ، لأنه لم يخرب ويدمر من البلاد الأسبانية مسافة تجعل غزو النصارى لمسلمى الأندلس أمرا صعبا (٦٩) .

وكان مسلمو الأندلس أصحاب فضل فى انتشار الغناء والموسيقى بين الشعب النصرانى فى شمال أسبانيا . فقد كان البيت الأموى يرعى هذه الفنون رعاية عظيمة لدرجة أن بعضا من أمراء بنى أمية أنفسهم كانوا يعرفون الغناء ، فضلا عن أن معظمهم كانوا شعراء . وكانوا يستقدمون الفتيات

(٦٧) تترند ، أسبانيا والبرتغال ، ص ٨ ، ٩ .

(٦٨) غوستان ثوبون ، حضارة العرب ، ص ٥٩٧ .

حيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤١٩ .

(٦٩) أنظر الفصل الثالث ، الباب الثانى ، ص .

والمغنين من بغداد والمدينة المنورة ، وقصة زرياب المغنى، ووصوله الى الأندلس فى عهد عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وأثره الكبير فى رقى هذا الفن وفى الحياة الاجتماعية عامة ، تغنى عن البيان (٧٠) .

وتقول بعض الروايات انه قدم الى الأندلس أيضا فى عهد هذا الأمير ثلاث مغنيات هن ، فضل وعلم وقلم المدنيات . وكانت احداهن وهى (قلم) رومية نافارية الأصل ، أسرت وهى صغيرة ، وأرسلت الى المدينة ثم أتت مع فضل وعلم الى قرطبة بعد أن اشتراها الأمير عبد الرحمن الثانى ، ويزيد ليفى بروفنسال بانه تزوجهن ورزق من كل واحدة منهن بولد واصبحن أمهات أولاد . ولم تأت هؤلاء المغنيات الى الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر كما قال بذلك الاستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب « حضارة العرب » فى الأندلس « اذ أن المقرئ يذكر أن (فضل) المدنة كانت أصلا لاحدى بنات هارون الرشيد ، ولم يكن الرشيد معاصرا لعبد الرحمن الناصر (٧١) .

ما يهمنى هنا هو أن بعض الفتيات من سبى نصارى شمال الأندلس كن يذهبن الى المشرق الاسلامى ، ويتعلمن الغناء والموسيقى ويبرعن فيه ، ثم يعدن الى الأندلس وربما عدن الى بلاط ملوك نصارى شمال أسبانيا أيضا ، وهى شئ معقول اذا عرفنا أن كثيرا من المغنين والموسيقيين المسلمين كانوا يذهبون الى نبره وقشتالة وليون وأرغون ابتداء من عصر دول الطوائف بعد أن تجزأت الدولة الأموية ، واصبحت بدل قرطبة عدة قرطبات ، وتهافت ملوكها على الشعراء والموسيقيين والمغنين الذين كان يوجد من بينهم بعض النصارى والمسنعريين ، أى أن التأثير كان متبادلا . ولدينا شواهد كثيرة تدل على ميل نصارى الشمال الى اغاتى العرب وموسيقاهم (٧٢) .

(٧٠) ابن خزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٩١ .

(٧١) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

لبقى بروفنسال السرى الاسلامى ، ص ٢٤ .

البرقوقى ، حضارة العرب فى الأندلس ، ص ٧٠ ، ٧١ .

قرند ، أسبانيا والبرتغال ، ص ٣١ .

فمعظم أسماء الآلات الموسيقية عند نصارى الأسبان مشتق من اسمه
العربي هو الاسم العربي نفسه منطوقا في صورة إسبانية ، فالعود كانوا
ينطقونه Laud والقيثارة Guitarrā والرباب Rabel
والنفير Anafil والبندير Pandera والصنج Sonajas
والبوق Elboque والطبل Atambal

ولازالت العادات التي ورثوها عن المسلمين كطريقة العزف المعروفة
عند الموسيقيين باسم Zambra (وبالعربية زمر) ، وسلوك السامعين
أثناء العزف ومقاطعتهم له بصياحهم Ole Ole (الله . . الله)
لازالت هذه باقية تدل على ما كان يحدث أيام المسلمين ، حتى أن كلمة
يا ليل Leli Leli أخذها الأسبان عن مسلمي الأندلس (٧٣) .

وهناك أيضا ما يدل على تفهم نصارى شمال أسبانيا لموسيقى
الأندلس وغنائها . فقد حدث حينما سقطت مدينة برشتر الإسلامية في
يد النصارى عام ٤٥٦ هـ واستولوا على ديارها بما فيها من متاع
وخدم وعبيد وجواري ، أن جلس أحدهم وطلب من إحدى الجاريات
العرييات أن تمسك عودها وتسمعه هو وضيفه اليهودى المستعرب بعض
ما عندها . فقامت وعزفت وغنت ، ورغم أن اليهودى يقول أنه لم
يفهم من أشعارها شيئا ، إلا أنه استغرب ما قام به ذلك النصرانى من
حبه الشرب ، وأظهاره الطرب لسماع تلك الأشعار وهذه الموسيقى (٧٤)

وربما لم يفهم ذلك النصرانى ما قالته الجارية ، لكنه بالطبع قد
فهم اللحن الموسيقى ، فالموسيقى لغة عالمية ، زد على ذلك أنه كان هناك
شعر أندلسى يسمى بالزجل ، قد انتشر في شبه الجزيرة في ذلك الوقت ،
وكانت موسيقاه شعبية ، والأزجل نفسه كان خليطا من العريية
والأسبانية مما ستناوله بالدراسة في الصفحات التالية ، وربما كان غناء
الجارية من هذا النوع من الشعر ، ففهمه النصرانى وطرب منه .

(٧٣) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

حتى ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٧١٣ .

(٧٤) لين حبان برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧٥ .

وكان من الطبيعي وقد تفوق مسلمو الأندلس في أساليب الحياة والحضارة أن يأخذ عنهم الأسبان وغير الأسبان ، ليس في الموسيقى والغناء فقط بل في مجالات اللهو الأخرى ، مثال ذلك ، الشطرنج الذي أخذته نصارى شمال أسبانيا عن مسلمي الأندلس ، وجاء ذكره للمرة الأولى في وصيتين لفردين من أسرة نبلاء برشلونة ، يرجع عهدهما الى ما بين سنتي ٣٩٨ هـ ، ٤٠٧ هـ (١٠٠٨ م ، ١٠١٧ م) يهبان فيهما ما لهما من شطرنج الى أشخاص معينين^(٧٥) .

وكان لابن عمار وزير المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية مع الفونسو السادس قصة طريفة تتعلق بالشطرنج ، فقد جاء ذلك الملك مهددا أشبيلية وعسكر بجيوشه خارج حدودها ، فأرسل المعتمد وزيره لمفاوضته ومنع هجومه على البلاد . واحتال ابن عمار على الفونسو واسنفل اعجابه بما كان معه من شطرنج كان في غاية الجمال والاداع والالتقان ، ودس الى بعض نبلائه بعد أن رشاهم أن يقتنعوا الملك باللعب مع ابن عمار ، بشرط اذا فاز الملك كان له الشطرنج ، واذا فاز ابن عمار كان له ما يريد^(٧٦) .

ولما فاز ابن عمار أظهر شرطه ، ولم يكن الا عودة الفونسو الى بلاده دون هجوم على أشبيلية ، فغضب الفونسو ، ولم يرجع الا بعد أن أخذ جزية عامين مقدما . وان كانت القصة فيها شيء من الخيال الا أننا لا نستبعد حدوثها خاصة وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على أنه كان لابن عمار علاقة خاصة بالملك الفونسو السادس ، وقد سبق الحديث عن ذلك بالتفصيل ، لكن القصة تدل على تلك الروح الودية وعلى العلاقات الاجتماعية التي كانت تسود الحياة بين مسلمي شبه الجزيرة ونصاراهم رغم ما كان بينهما من حروب شبه دائمة^(٧٧) .

(٧٥) توند ، المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٤ .

محمد كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

(٧٦) المراكسي ، المعجب ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٧٧) المراكسي ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

دوزي ، ملوك الطوائف ، ص ٢٣٨ - ٢٤٢ .

أما الأعياد والاحتفال بها فقد كان معروفا عن مسلمى الأندلس
 أنهم كانوا يحتفلون بالأعياد غير الإسلامية ، خاصة وأنها تأتي في نفس
 الفصل من السنة ، لأنها تتبع التقويم الشمسى . ولذلك كانت أعياد
 ثابتة فأخذت صفة الشعبية لدرجة أن بعض الأمراء كان ينزجون
 في هذه المناسبات الدينية المسيحية . فتعد احتفل بزواج المنصور بن أبى
 عامر من أسماء بنت غالب الناصرى في أول أيام السنة الميلادية الجديدة ،
 وهو العيد السنوى الذى كان المسلمون يشاركون فيه وفي غيره على
 أسنة صورة^(٧٨) .

وتذكر بعض الروايات أن بعض أكابر المسلمين وأغنيائهم كانوا
 «يصنعون ما يشبه (التورته) في عصرنا الحاضر ، في عيد النيروز ، اذ
 كانوا يصنعون في مثل هذا اليوم « مدائن من العجين لها صور مستحسنة »
 «صورها أحد الشعراء فقال^(٧٩) :

مدبنة مسورة	تحرار فيها السحرة
لم ينهها الا يد	عذراء أو مخدرة
بدت عروسا نجتلى	من درمك ^(٨٠) مزعرة
ومالها من مفتح	الا لبنان العشرة

كذلك كان التأثير متبادلا فيما يخص الأزيى والملابس . أما المسلمون
 فقد كانوا في أوائل أيام الفتح ينقلدون السيوف ويتأبطون الرماح
 ويتكبون القسى ، وكانوا يلبسون الممائم ، ويمضى الوقت صاروا يتشبهون

(٧٨) بالإنشما ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٢١ .

Dozy, op. cit, p. 483.

Hole, op. cit, p. 141.

(٧٩) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٧٦ .

(٨٠) الدرهم ، نوع من أنواع الخفيق ، يستعمل في صنع الخز وخلافه . انظر ،

«تطبيع في المغرب والأندلس ، ص ٨٢ .

بالنصارى في أزيائهم وأسلحتهم ، يلبسن الدروع ويغوصون في الزرد ، ويقتنون سيوف « يوردو » وقسي الفرنجة التي كانوا يتدربون عليها طوال الوقت . وتركوا العمائم وصاروا يلبسون الكمة الهندية . أما أمراء المسلمين وشيوخهم وقضاتهم فكانوا يلبسون القلائس ويتجنبون العمائم ، ولا يلبسها إلا ما شذ منهم (٨١) .

وكان تأثر المسلمين على نصارى الشمال الأسباني كبيرا في هذا المجال ، ذلك أنه اعتبارا من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى على الأقل ، دخلت أزياء قرطبة وأشبيلية وطليطلة وسرقسطة الإسلامية في دور أمراء المسيحيين في شمال البلاد ، وكانت سفارات ملوك نبرة وليون وقشتالة وبرشلونة تنفذ الى بلاط قرطبة أمام الناصر والمستنصر وابن أبى عامر وابنه عبد الملك ، ونعمود محملة بأفخر الملابس والأزياء والهدايا والتحف التي كان نساء البلاط في ممالك الشمال يتلفن عليها وينظرن اليها على أنها « موضة » العصر ، وكان يكثر من الأسئلة عن الأقمشة والألوان والأزياء ، وعن النحف من العاج والكهرمان والزجاج الملون التي كان يعرضها الباعة والتجار في أسواق قرطبة (٨٢) .

وبحكي لنا ابن حيان عن شاهد عيان أن ملوك أسبانيا في القرن الخامس الهجرى كانوا يرتدون من ثياب المسلمين ويقلدونهم في اتخاذ الفرش المستخدمة للجلوس ، وقد حدث عندما فتح التايوت الذي كان يحتوى على رفات السيد القمبيطور بعد ذلك بمدة طويلة وفي أيام الامبراطور شارلكان ، وفي سنة ١٥٤١ م على وجه التحديد ، أن وجدت

(٨١) الفباهى ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٩٣ ، ٩٥ .

ابن فضل الله العمري ، وصف أفريقيا والمغرب والاندلس ، ص ٤٣ .

ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ .

عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٣٠ .

(٨٢) ليفي بروغيسال ، تراث الاندلس ، ص ٦٢١ .

Levi - Provencal, La civilisation Arabe en Espagne pp.

127-129.

جثته ملفوفة في رداء عربى ومعه سيف ورمح ، وقد عاش القمبيطور في القرن الخامس الهجرى وكان يعيش مع المسلمين والنصارى ، فلا غرابة في اتخاذه الملابس العربية عندما كان حيا أو تكفينه بها بعد وفاته^(٨٣).

أما الطعام والشراب ، فقد تنفن مسلمو الأندلس في الاكثار من أنواعه ، حتى أن النوع الواحد كان يطهى بطرق مختلفة . واشتهرت فئات السكان بأطعمة خاصة بها . فاليهود لون خاص بهم يسمى « حجلة يهودية » ونوع آخر يسمى « لون من فروخ يهودى » ، وللمصقالبة لون يسمى « صنعه مسلوق الصقالبة » وانتقل الى الأندلس أكلات عديدة من مختلف البلدان ، من مصر وبغداد واليمن والمغرب وفارس ، ومن نصارى شمال أسبانيا ، فقد أخذوا من أسبانيا النصرانية أكلة « الحوت المروج » أو « صفة لون من الحوت الكبير الجرم » وكذلك ذر الفلفل المسحوق على الطعام^(٨٤) .

وقد انتقل الى المطبخ المسيحى في شمال أسبانيا العديد من الأكلات عن المطبخ الأندلسى لا سيما في عصر ملوك الطوائف ، حيث زاد الاختلاط بين الجانبين ، وحبث كان التفوق الحضارى لمسلمى الأندلس فى القمة فى ذلك الوقت . وقد انتقلت عادة الشرب الى المسلمين والاستغراق فيها من مجاورتهم واختلاطهم سواء بنصارى المستعربين أم بنصارى الشمال الأسباني .

وقد تأثر الجانبان أيضا بما كان عند كل منهما من نظم البناء وفن العمارة . وهنا لابد أن نشير الى أن الأديرة والكنائس التى بناها الرهبان المستعربون الذين فروا من الأندلس الاسلامية ، أو كانوا يعيشون فى المسكن المستردة كانت مركزا يشع بالثقافة والحياة الاجتماعية التى عاشها

(٨٣) ابن حبان برواية اس بسام ، فخرية ، ق ١ ، ١ د . ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

عبار ، دول الطوائف ، ص ٢٤٩ .

Levi, Provencal op. cit, pp. 130, 137

(٨٤) محبيل ، الطببخ فى المغرب والاندلس ، ص ٢٥ ، ٤٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٧٧ ،

٨١ ، ١١٩ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٧٦ .

. أولئك الرهبان داخل المجتمع الاسلامى ، ومن ثم فقد كانت تلك الأديرة عاملا من عوامل التقرب بين الشعبين المسيحى والمسلم ، وعاملا من عوامل المزج بين الحضارتين الاسلامية والنصرانية على أرض شبه الجزيرة .

وقد نشأ فن العمارة الاسلامية فى الأندلس ونطور فى أحضان الفن المسيحي الاسبانى ، أخذ عنه صورته الأولى من أعمدة الكنائس وأقواسها وأحجارها المنحوتة ، ثم أفاض عليه الطابع الاسلامى شيئا فشيئا .
ومر هذا الفن خلال العصور الاسلامية فى أدوار مختلفة ، لكل منها طابعه الأصيل وخصائصه المميزة ، وما يهمننا منها هو الدور الأول الذى يسمى بالطراز المستعرب ، والذى ساد فى عصر بنى أمية ، والدور الأندلسى الذى ساد فى عصر دول الطوائف والمرابطين والموحدين (٨٥) .

ولم يطلق اسم الطراز المستعرب على الدور الأول الا لأن الذين قاموا بالبناء والانشاء والزخرفة كانوا من الاسبان الذين اسلموا أو من النصارى المعاهدين (المستعربين) أو من غيرهم من نصارى ليون وقشتالة ونبرة وبرشلونة . ولذلك فان المؤثرات الاسبانية النصرانية تبرز فى العمارة الاسلامية فى الأندلس فى عصر بنى أمية ، خذ على ذلك ما يقوله الغسانى أن المنصور بن أبى عامر زاد فى المسجد الجامع فى قرطبة عام ٣٨١ هـ ، واستخدم فى البناء الأعلاج (نصارى الشمال) ووجوه فرسان الخلافة والفرنج (نصارى برشلونة) ، وما يقوله ابن فضل الله العبرى ثم نقل عنه الحميرى أنه كان « على وجه المحراب سبع قصى قائمة على عمد ، طول كل قوس أزيد من قامة ، وكل هذه القصى مزججة بصبغة القوط (أى بأسلوبهم فى الفن) ، قد أعجزت المسلمين والروم بغريب أعمالها ودقيق تكوينها ورصنها » (٨٦) .

(٨٥) مؤنس ، تطور العمارة الاندلسية ، ص ١٨٦ .

(٨٦) الغسانى ، رحلة الوزير فى افتكاك الاسير ، ص ٢٢ .

ابن فضل الله العموى ، مسالك الانصار ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٥٥ .

وهذه النصوص واضحة الدلالة على تأثير الفن القوطى فى الفن المعمارى الأندلسى ، نتيجة لاشتراك الفرنج والقوط من نصارى شمال إسبانيا فى أعمال البناء والزخرفة ، وكان من الطبيعى أن يتركوا بصماتهم على هذا اللون من أعمال الحضارة . يزيد ذلك وضوحا ما يقوله ابن الوردى من أن لهذا المسجد ثلاثة أعمدة حمراء اللون مكتوب على أحدها اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ، وهى إشارات صريحة الى اسعانة المذخرفين بالرسوم والصور مما يخالف التقليد الإسلامى الذى اقتصر على الزخرفة النباتية فقط ، مما يدل على أن (النصارى) الذين كانوا يعملون فى زخرفة المسجد أضافوها جريا على عادتهم فى زخرفة الكنائس النصرانية ، ولم يسمح لهم بإضافتها الا لأنها وردت فى القرآن الكريم (٨٧) .

ولم يلبث مسلمو الأندلس أن تحرروا من النفوذ البيزنطى فى فن العمارة أو من الأساليب القوطية واستبدلوا النقوش العربية المزوجة بالكتابة بالزخرفة الذهبية ، واستلوا من الأقواس الصغيرة البارزة التى يعلو بعضها بعضا ، واستخدموا العقود المستدبرة على صورة نعل الفرس (حدود الفرس) التى تربط الأعمدة بعضها ببعض بواسطة أقواس ، فيها سمي بالفن المستعرب الذى شاع فى الأندلس الإسلامية طوال عصر بنى أمية ، وخاصة فى عصر الخلافة (٨٨) .

انتقل الفن المستعرب الى إسبانيا النصرانية فى الشمال ، فى غاليسية (جليقية) على يد الرهبان المستعربين بدءا من القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، وفى أشتورية (أشتريس) وليون فى عهد الفونش الثالث (٢٥٠ — ٢٩٤ هـ / ٨٦٦ — ٩١٠ م) وكانت أشتريس قد تخلصت من الوصاية الكارولنجية فى ذلك الوقت ، ولم تجد مناصا من التغذى بحركة المستعربين ، خصوصا وأن تيار الخلافة الثقافى كان يحدث تأثيره

(٨٧) ابن الوردى ، حريده المجائب ص ٢١ ، مؤنس ، تطور العمارة ، ص ٢٠٣ .

(٨٨) عوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٠٠ ، جميل نخلة المدور ، حضارة الإسلام على دار السلام ، ص ٣٦ .

القوى فى منطقة جبال البرنات (البرانس) بحيث طفى على ال
الكارونجى ، وعقد حدوة الفرس رمز لهذه التفاعلات (٨٩) .

وكذلك تأثرت قطلونية (برشلونة) والتي كانت منطقة نفوذ فرنسا
بالفن المسنعرى فى العمارة والبناء ، وأكثر الابنية من حيث الضخامة
قطلونية هو بازيليكا سان ميجل دى كوشة n Miguel de Cuxa
وهى ذات طابع مستعرب وعلى النحو القرطبى ، ذلك أن عقودها على ش
حدوة الفرس ، وتتداخل فى بناء حنباؤها مع امتداد يبلغ ثلاثة أرباع الق
على النحو القرطبى أيضا . وقد تم بناء هذه البازيليكما عام ٤٢٧ هـ / ٣٥
على أيدي القس أوليفا Oliva (٩٠) .

وفى ليون وهى المركز الرئيسى لحركة الاسترداد نجد أنفسنا
أكثر مناطق المسنعرين ازدهارا ، حيث أقام الرهبان الأندلسيون منشآت
فى كنف الفونسو العظيم وأبنائه ، فمنها الطابع المسنعرى المتكامل وذ
روائع معمارية ، بحيث كان القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلاد
بمثل ذروة الفوق الاسلامى النصرانى الأسباني على العالم الف
كافة(٩١) .

وفى قشتالة ، اصطبغ أسلوب عهد الخلافة بصبغة الطبيعة د
ان يفقد أصالته ، وشهد الكثير من الكنائس على يد قسس ورهبان قدر
من قرطبة وسائر أحواض الأندلس الاسلامية ، مثل كنيسة اسكالادا ا
برجع تشييدها فى نقش تاريخى الى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م على يد الق
الفونسو وأصحابه الذين قدموا من قرطبة ، وكذلك هناك نقش يتص
بدى سان مارتى دى كاسنيدا an Martin.de Castaneda

(٨٩) مانويل جوميت مورينو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ص ٤٢٤ .

(٩٠) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٣٢ .

(٩١) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٣٩ .

يُتضمن أنه من انشاء القس خوان الذي جاء أيضا من قرطبة بتاريخ عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م (٩٢) .

وفي عصر دول الطوائف ، أي الدور الأندلسي وهو الدور الذي اكتمل فيه نضج الطراز المستعرب في الأندلس الاسلامي وبعض نواحي أسبانيا النصرانية ، كان طراز العمارة المعروف بالروماني قد وجد طريقه الى امارات أسبانيا النصرانية الشمالية الشرقية ، ثم سرّب منها الى امارات الشمال الغربي في ليون وقشتالة وجليقية ، ونشأت كنائس ازدانت بالتمثيل الرومانية البدائية بدلا من الزخارف المستعربة ذات العناصر النباتية أو الهندسية ، مثل كنيسة سانت باقرب ، وكنيسة جاقه (٩٣) .

ولم يلبث هذا الطراز الروماني في أسبانيا النصرانية أن تأثر بمؤثرات مستعربة اسلامية ، يتجلى ذلك في الزخارف العربية الباقية على الجدران وعلى الصناديق التي تحفظ فيها بقايا القديسين ، بل ان بعض هذه الصناديق يحمل كتابات عربية كوفية ، كما نجد في صندوق البقايا في كنيسة أبيب « أوفيدو Oviedo » ، بل نراها في العقود ، كما نرى في دير سانتو دو منجو دي سبلوس Santo Domingo de Silos (٩٤)

ولما انتشر عقد الخلافة الأموية وتفرق الأندلسيين في امارات الطوائف ، وكثر اختلاط المسلمين بالانصارى ، وتداخل بعضهم في بعض على النحو الذي عرفناه طوال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، استعمل المسلمون طراز الفن الروماني في منشآتهم الى جانب الطراز المستعرب ومزجوا الطرازين مزجا كاملا . ويظهر هذا المزج بوضوح في القصور الزاهرة التي أنشأها ملوك الطوائف في أشبيلية وبطليوس وسرقسطة وقد كشفت الحفائر عن أجزاء من عقد في قصر الجعفرية الذي بنىاه .

(٩٢) موريتو ، المرجع نفسه ، ص ٤٤٠ - ٤٤٢ ، ترند ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ .
مؤسس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٩٣) مؤسس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٩٤) مؤسس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ .

المستعمرين بن هود ذات طراز مستعرب ، وأجزاء أخرى ذات طراز روماني ،
أما الزخارف كلها فمستعربة^(٩٥) .

كذلك كانت القصور التي بناها ملوك نصارى الشمال في قشتالة ولبيون
تقوم على طراز تلك القصور العربية في دول الطوائف ومن أمثلة ذلك
قصر شقوبية الذي أمر بانشائه الفونسو السادس على نمط قصر طليطلة
العربي الذي كان قد عاش فيه لاجئا سياسيا حوالى تسعة أشهر من عام
٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م . ومما يزيد في قيمة ذلك القصر امكان اعتباره مثالا للقصور
العربية المحصنة التي أقيمت في بلاد أسبانيا النصرانية ثم عفا رسمها^(٩٦) .

وكان لفن العمارة الأندلسي أثره أيضا في الأبنية الأخرى مثل الكباري
والجسور والقنوات المائية المعلقة والحمائم التي تقول بعض الروايات
النصرانية انها لم تعد مقصورة على أسبانيا الاسلامية ، بل تعدتها
الى المدن الأخرى في أسبانيا النصرانية ، مثل برغش ، ونيوداد ، وصورية
وغيرها . وقد تلاشت هذه الحمائم مع اشتداد حروب الاسترداد وتعصب
الكنيسة التي قامت بمحو كل أثر للمسلمين من البلاد^(٩٧) .

على أن أعظم ما ابتكرته قرطبة وقدمته لفن العمارة هو طريقة عمل
الأقبية التي تقوم على عقود متقاطعة وأضلاع متعارضة ظاهرة ، وهذه
الطريقة تحل العضلة الأساسية في فن العمارة ، ونعني بذلك عضلة
عمل الأسقف ، وذلك بنفس الطريقة التي اتبعت في العمارة القوطية التي
ازدهرت بعد ذلك التاريخ بقرنين من الزمان^(٩٨) .

وبرغم أن حركة الاسترداد في ذاتها كانت تمثل مظهرا لتعارض
الثقافتين الاسلامية والنصرانية في شبه الجزيرة ، أكثر منها كفاحا دينيا

(٩٥) هؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ .

(٩٦) عوستان لوبون ، المرجع نفسه ، ص ٥٩٦ .

Levi Provencal, op. cit, p. 136.

(٩٧)

Balbas, Los edificios, pp. 110, 111

(٩٨) ترفند ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

أقلية ، وأدت الى اتجاه البلاط الأشتوري أو القشتالي في بعض الأحيان نحو أوربا باحثا عن حلفاء له غير المستعربين ، وبالتالي الى عدم الاستقرار في الفن الأسباني ، فمرة يكون غربيا ومرة يكون عربيا ، الا أن غشتالة وأرغونة كائنا ميالتين للأساليب الفنية العربية لأسباب عدة ، أولاها الجنس ، فيكاد يكون سكان شبه الجزيرة الايبيرية كلهم من جنس واحد ، وثانيها ذلك الانسجام بين الشعبين نتيجة هجرة كثير من جماعات المستعربين اليهما ، الأمر الذي كان له أثره في حياة كثير من الناس والشخصيات البارزة حتى الملوك ، وفي تطور العمارة وغيرها من أساليب الحضارة (٩٩) .

«Aznar, Los constants de arte espanol, pp. 4 - 8. (٩٩)

٤ — مظاهرات التأثيرات الحضارية

في ميدان الحياة الثقافية

كان أهم ماتركه مسلمو الأندلس من أثر في شبه الجزيرة هو الأثر الثقافي ،
تمتد عصر الخلافة الأموية امتدت شعلة النور التي أضاعت سماء الأندلس
الإسلامية الى شمال البلاد في أسبانيا النصرانية ، ومنها الى بقية أنحاء
أوروبا ، كانت الأندلس اذن هي الجسر أو المعبر الذي عبرت عليه حضارة
الإسلام الزاهرة الى شمال أسبانيا وأوروبا ، فعملت على ارساء أسس
حضارتهم وتخليصهم من حالة السقوط الشنيع الذي أصابهم إبان القرن
العاشر الميلادي ، وأعطتهم قوتونها الدانية في علوم الطب والفلسفة والفلك
والكيمياء والرياضيات ، الى غير ذلك من العلوم التي لم تكن تعرفها أسبانيا
النصرانية ولا أوروبا في ذلك الوقت الذي كان لا يعرف القراءة والكتابة فيه
هناك الا قليل من الرهبان والقسس والنبلاء (١) .

ولقد كان لهذا السمو الثقافي للأندلس الإسلامية رد فعل عند رجال
الدين المسيحيين سواء في قرطبة أم في شمال أسبانيا النصرانية ، وان
اختلفت طبيعة رد الفعل هذا عند الجانبين . أما في قرطبة ، فقد دار الصراع
الفكري بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكانت حركة
الاستشهاد المسيحي في قرطبة في منتصف القرن الثالث الهجري / رفضا
للثقافة الإسلامية الزاحفة ، يتضح ذلك من شكوى الفارو وغيره من القسس
من اقبال مسيحيي الأندلس على الأدب والثقافة العربية واهمالهم الثقافة والأدب
اللاتيني ، حتى أن الواحد منهم لا يستطيع أن يكتب رسالة بتلك اللغة ، بينما
كان يتبحر في دراسة العربية وآدابها (٢) .

(١) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٧ ، ٨ ، بالنبيا ، المرجع نفسه ، ص ١٠ ، ٩٥ ، حتى
المرجع نفسه ، ص ٢ ، ٦٣١ ، رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ .

(٢) بالنبيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، دوري ، ملوك الطوائف ،

سجيو ٨ - ٩ .

كذلك كانت هناك أيضا شكوى من أدباء اليهود ، من انصراف أهل ملتهم عن اللغة العبرية فقد جأر ابن جبرول (٤١١ — ٤٦٢ هـ — ١٠٢١ م) بالشكوى من ذلك ، وأخذ يتحسر على انصراف اخوانه في الدين من أهل سرقة عن لغتهم المقدسة ويسميه الجماعة العمياء ، اذ كان بعضهم يتكلم — على حد تعبيره — لغة ايدوم (Edom = عجمة أهل الأندلس) ، وبعضهم الآخر يستعمل لغة كيدار (Kedar = اللغة العربية) . وقد حاول غيره من كتاب اليهود الذين أسخطهم تكلم اليهود بالعربية وتفضيلهم لها على العبرية ، أن يثبت أن هذه الأخيرة لا نقل عن العربية ثروة وجمالا ، فأقبل على مقامات الحريري وترجمها الى العبرية (٣) .

وقام اليهود والنصارى بعمل دراسات تستهدف النيل من الاسلام والخط من شأنه فقام ابن حزم وغيره ، وهو من أعظم مفكرى الأندلس الاسلامية. وأثرهم وأغناهم فكرا وتأليفا وخاصة في الأديان والمقارنة بينها ، وألف في ذلك كتابا مشهورا يسمى « الفصل في اختلاف الملل والأهواء والنحل » ، وقام هذا المفكر العظيم بخوض المعركة الفكرية الدائرة على أرض الأندلس مع اليهود والنصارى ، واستخدم معرفته للغة اللاتينية في التعمق في قراءة الانجيل والتوراة حتى أن خصومه انتقدوا عليه دراسته لهما ومناظرته لأصحابهما ، لكنه لم يعبأ بذلك وألف الكتب للرد على النصارى واليهود ، من أشهرها كتاب « الرد على ابن النفريلة اليهودي » كما ألف قصيدة طويلة يفند فيها دعاوى النصرانية (٤) .

هذا في الأندلس الاسلامية ، أما في أسبانيا النصرانية فقد أخذ أهلها من العرب واليهود — كما يقول كتاب النصارى المحدثين — الشعور الحساس بالديانة ، وأصبح الدين عاطفة وفنا ، يدل على ذلك تلك الطقوس الكنسية في أى مكان في أسبانيا ، والحماس الدينى لكثير من المنكرين الدينيين الأسبان . وأعطى المسلم واليهودى للأسبان أبضا فكرة الاهتمام بالدين كطريق للقومية ، وأم يكن هناك رابط قبل ذلك بين الدين والقومية ، ومن

(٣) بالنشيا ، المرحع نفسه ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠١ .

(٤) محمد ابراهيم الكنانى ، أثر ابن حزم في الفكر المسيحى ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٠ .

ثم فان دول اسبانيا النصرانية جعلت من هيئة الصليب علامتها الحربية ودليها القومى ، وخاضت حربا صليبية ناجحة ضد مسلمى الأندلس (٥) .

وفى الواقع فان البابوية والكنيسة الأسبانية ، لا المسلمين ، هما اللتان أعطتا هذا الشعور لنصارى الأسبان ، وهما اللتان دفعتهما دفعا لخوض غمار حرب صليبية ضد مسلمى الأندلس ، وحرمتا عليهم الاشتراك فى الحروب الصليبية بالشرق الإسلامى حتى ينتهوا من أمر مسلمى الأندلس ، لأن حربهم معهم لا تقل شأنًا عن الحروب الصليبية بالشرق . حدث هذا عقب موقعة الزلاقة مباشرة وأثناء استعداد أوروبا للحروب الصليبية .

وقد ظهر تأثير الإسلام فيها يخلص بفكرة القويمة فى دول اسبانيا النصرانية بطريقة أخرى ، اذ قامت هناك بعض الحركات التجديدية فى تعاليم الدين المسيحى وطقوسه ، وقد اعتبرها البعض حركات الحادية فيها آثار إسلامية ، ففى القرن الثامن قامت حركة الحادية — حسب تعبيرهم — فى سبتمانية وبلاد الغالة القوطية تنكر فكرة الاعتراف المسيحية ، وتنادى بأن الاعتراف لا يكون الا لله وحده ولبس للقس . ومن المعروف جيدا أن الإسلام لبست فيه هذه الفكرة ولم تكن المناداة بالغائها عند مسيحي الشمال الا نتيجة للتأثر بالأفكار الإسلامية المنتشرة ، وقد اعتبر ذلك عدا للكانوليكية التى تجعل الاعتراف أحد أركانها (٦) .

وبالإضافة لهذه الحركة الهامة قام ميچينوس Migetius وبث فكرة ينكر التثليث ويقرب بذلك من الإسلام ، وأهم من ذلك هو الحركة الخاصة بالتبني التى تقول بأن المسيح فيها يختص بناسوته انما هن ابن الله بالتبني . وكان الهدف من هذه النظرية هو الحط من شخصية المسيح لتهديد الطريق للاتحاد بين المسيحيين والمسلمين بزعمهم . وربما تعود هذه الحركة الى آراء مطران طليطلة اليباندوس Elipandus وصديق فيلكس Felix أسقف مدينة أورجل Urgel . التابعة لامارة قطلونية ، التى نادى بها

Crow, op. cit, pp. 14, 15.

(٥)

(٦) شون كرمير ، الحضارة الإسلامية ، ص ٢٨ .

عام ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م وُقِل أن المسيح كان رجلاً امتلأ بالروح المقدسة ، وهكذا تبناه الله واختاره ، مما تسبب في حدوث انشقاق داخل الكنيسة الأسبانية ، بسبب مناقضة تلك الفكرة للعقيدة الكاثوليكية التي تؤمن بعقيدة الثالوث المقدس وبأن المسيح هو الله (٧) .

وقد ذهب تأثير الفكرة الإسلامية في التوحيد الى نواح بعيدة في أوربا ، فلم تكن حركة تحطيم الأصنام بما حوته من أشأم النتائج — هكذا يقول أحد كتاب المسيحية — على الامبراطورية البيزنطية خالية كل الخلو من الأثر الإسلامي ويمكن أن نذكر بهذا الصدد أن كلوديوس الذي عين أسقفنا لتورين عام ٢٢٠ هـ / ٨٢٨ م والذي قام بطمس واحراق وازالة جميع التماثيل والصلبان في أسقفيته قد ولد وتربى في أسبانيا الإسلامية (٨) .

ولم ينأثر العقيدة الإسلامية في جوهرها بالعقيدة المسيحية وان كانت هناك بعض الأفكار التي تسربت الى المسلمين في الأندلس نتيجة مجاورتهم للمسيحيين وعيشهم معا في مكان واحد وعلى أرض واحدة . فيردد أحد كتاب المسلمين فكرة « الخلاص » — وهى فكرة مسيحية — في كتاباته ، اذ يقول حينها ينحدرت عن فساد الأديان ، ان حال الناس لا يصلحه الا نبى ، فان لم يكن زمن نبى ، فالقاضى مسئول عن ذلك كله « فعليه أن يصرح بالحق ، ويجرى الى الصلاح والعدل والتخلص ، وينظر لنفسه فعسى يتخلص » مما يشير على الأرجح الى فكرة الخلاص المسيحية (٩) .

كما أثرت حركة الاستعراب في ذلك الصراع الذى قام بين النصارى المستعربين والنصارى غير المستعربين من قشتاليين وفرنجة بخصوص مسألة الصلوات في القرن الحادى عشر الميلادى . وكان الآخرون يريدون حمل الأولين على استعمال الطقوس الرومانية في الصلاة بدلا من المستعربة ذات

(٧) فنون كريمير ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ ، ٢٩ .
Livermore, op. cit, pp. 79, 80.

أنظر . الفصل الثانى . الباب الاول ، ص .

(٨) فنون كريمير ، المرجع نفسه ، ص ٢٩ .

(٩) ابن عديون ، ثلاث رسائل أندلسية في الحبس ، ص ٦٠ .

الطابع القوطى ، ولجأوا الى التحكيم ، ورغم أن النتيجة كانت فى صالح المذهب المستعرب ، إلا أن الملكة كونستانس زوجة الفونس السادس ملك قشتالة وليون ، وما يحيط بها من رهبان فرنسيو الأصل ، أصروا على استعمال الطقوس الرومانية ، انتصارا لارادة بابا رومة . وقام النصارى المستعربون مدافعين عن طقوسهم فيما يشبه الثورة ، ونادوا بعزل الفونسو السادس الذى لا يحمى طقوسهم ، فأبقى الفونسو على الطقسين معا ، وان كانت هناك رواية أخرى تقول بأنه استجاب لطلب البابا وقرر العمل بالطقوس الرومانية فقط (١٠) .

وكان الفونسو السادس قد اتخذ طليطلة عاصمة لمملكة ليون وقشتالة بعد أن سقطت فى يده عام ١٠٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . وكانت تلك المدينة ألهمامة وعاصمة القوط القدامى قد أصبحت شيئا فشيئا مركزا للثقافة الاسلامية فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، بعد أن ضرب البربر قرطبة فى أوائل ذلك القرن ، وبقي لها هذا المقام بعد الغزو المسيحى لها عام ١٠٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، فكان بلاط الفونسو السادس مصطبغا بالثقافة الاسلامية ، بل أن الفونسو هذا أعلن نفسه « امبراطور الملتين » أو العتبتين ، وأصبحت طليطلة محجة يفد اليها طلاب العلم من شمال اسبانيا ومن كل أنحاء أوربا (١١) .

وكان كثير من أذكىاء الجلالة والقشستاليين والليونيين والنافاريين يتعلمون العربية ويتصّدون حكام الأندلس ليعملوا فى الإدارات المختلفة وبختلطون بأشراف العرب ، وتجرى عليهم أحكام الاسلام ، ومن ظل منهم محتفظا بدينه نسي مبادئه وصار يحجب نساءه كالمسلمين ويقتدى بأزيائهم والسنتهم وعاداتهم فى مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم ولهوهم ، وقد نبغ نفر منهم ووصلوا الى منصب الوزارة (١٢) .

(١٠) روبرتسون ، آتحاف الملوك ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

شكيب أرسلان ، الحل ، ج ١ ، ص ٣٨٨ .

(١١) ابن صاعد ، طبقات الامم ، ص ١٧ ، نرند ، المرجع نفسه ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(١٢) محمد كرد على ، المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

١٠ ولم يقتصر الأمر على قدوم نصارى الشمال الأسباني الى قرطبة لتلقى العلم أو للعمل فيها ، بل وفد اليها كثير من أبناء أوربا كما أشرنا من قبل ، وكان من أوائل هؤلاء الوافدين جبريت (البابا سلفستر الثانى) عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ، وقد ظل فى قرطبة مدة ثلاث سنوات (٣٥٦ — ٣٥٩ هـ / ٩٦٧ — ٩٧٠ م) يستقى العلم والمعرفة ، ولما عاد الى أوربا كآول سفير للعلم العربى أدهش الناس بما حمله اليهم من عجائب الفلك والرياضيات والحساب وعدوا ذلك من أعمال السحر والشعوذة (١٣) .

وقد سبقت الإشارة الى استعراب السيد القمبيطور ، وقيامه بالاستيلاء على بلنسية العربية عام ٤٨٧ هـ . ومن المرجح جدا أن السيد كان يتكلم العربية بطلاقة فى حفلات القصر فى بلنسية ، وأن السفراء المسلمين والنصارى كانوا يتنافسون بين يديه — كل بلغته — فى انشاد أشعارهم ، وهناك ملك آخر من ملوك الشمال الأسباني ، وهو بدور الأول ابن النونسو ملك أرغونة المنوفى عام ١١٠٤ م ، وكان هذا الملك من دعاة العلوم العربية ، وكان لا يحسن الا العربية كتابة ولا يوقع رسائله الا بها (١٤) .

وسبقت الإشارة أيضا الى طلب الفونسو بايصاد اثنين من علماء قرطبة لنأديب ابنه وولى عهده شانجة (سانشو) ، وكان بلاط الملك يحتوى على أدباء من المسلمين واليهود المستعربين يكتبون له خطاباته الى ملوك دول الطوائف ويتخذ منهم سفراء اليهم ، بل انه كان يصحب فى جيشه عددا منهم جريا على عادة الملوك فى الأندلس . وقد قام بعضهم يمدحه فى قصائد.

(١٣) Pidal, Espanay la introduccion de la cincia arabe en Occidente, p. 13.
(١٤) Vellicrosa, El quebacer astronomico de la Espana Arabe, p. 312.

غوستان لودون ، المرجع نفسه ، ص ٥٩٠ .

Pidal, op. cit, p. 14.

(١٤)

من الشعر . وإن قال هذا على شيء قائما يدل على تفوق الثقافة الإسلامية وانتشارها في جميع أرجاء شبه الجزيرة (١٥) .

وكانت هناك حركة للترجمة نشأت في عدة مدن إسلامية ، ولكن أهم هذه المدن كانت طليطلة وخاصة بعد سقوطها في يد الفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . كانت هذه المدينة عامرة بالمكتبات العربية ، وكان يقطنها جماعات ثلاث : المسيحيون والعرب واليهود . وقد قام الآخرون بدور الوساطة بين المسيحيين والعرب ، ثم بدأت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ثم إلى الأسبانية ، وذلك بدءا من أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي (١٦) .

وكان مسلمو الأندلس قد نشطوا قبل ذلك في ترجمة الكتب الإغريقية واللاتينية إلى العربية ، ومن أمثلة ذلك كتاب ديو ستوريدس في الطب الذي أرسله الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وقام نفر من عجم الأندلس بنقله إلى العربية ، كما قاموا أيضا بنقل كتاب هورشيوس Horasius الروماني في التاريخ إلى العربية في عهد الحكم المستنصر بن الناصر (٣٥٠ — ٣٣٦ هـ) على يد أحد فقهاء قرطبة . وأحد قساوستها المسنعرين ، وبنى عليه أحمد بن محمد الرازي ما كتبه في الجغرافية التاريخية فيما بعد (١٧) .

ومما ساعد على رواج حركة الترجمة إلى العربية ومنها إلى اللغات الأخرى ، وجود عدد وافر من العلماء والأدباء المسلمين كانوا على معرفة باللغات الأجنبية ، وخاصة في القرن الخامس الهجري الذي ازدهرت فيه العلوم والآداب الإسلامية ازدهارا كبيرا . من هؤلاء عبد الدايم بن مروان ابن جبر اللغوي نزيل المرية (ت ٤٢٦ هـ) وعاصم بن أيوب الأدب ، من

(١٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦ ، المعرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٠٤

— ٣٠٥ —

(١٦) Pidal, op. cit, p. 14, Crow, op. cit, p. 96.

(١٦)

(١٧) Vallicrosa op. cit, 310.

(١٧)

مؤنس ، الجغرافة والجغرافيون في الاندلس ، ص ٢١٦ ، ٢٣٤ ، ٢٥١ .

أهل بطليوس (ت ٤٩٤ هـ) ومحمد بن موسى بن فتح الأنصاري من أهل بطليوس (ت ٤٦٠ هـ) ، هشام بن محمد بن هشام بن محمد القيسي المعروف بابن الصحنى ، من أهل قرطبة ، (ت ٤٤٠ هـ) ، ويوسف بن عيسى بن سليمان النحوى من أهل سُنتمرية الغرب (ت ٤٧٦ هـ) (١٨) .

وليس بغريب أن يعرف أدباء قرطبة وغيرها من حواضر الأندلس الأخرى اللغة اللاتينية أو لهجاتها الأخرى التى عرفت بالقشتالية أو البرتغالية أو القطلونية ، والتى دخلت فيها آلاف وآلاف من الكلمات العربية ، فقد كانت بلاد الأندلس وطنا تتعايش على أرضه اللغة العربية واللاتينية ، وأصبح الناس هناك ينكمون الى جانب العربية التى كانت لغة رسمية ، رطانه لاتينية دارجة بسميها ابن حزم اللطينية ، ويصفها البعض بعجمية أهل الأندلس ، كانوا يستخدمونها فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم ، بل أنها كانت شائعة حتى فى بلاط الخلفاء (١٩) .

وكان بعض القضاة يعرفون تلك اللغة ويتكلمون بها ، كما تلقب كثير من الناس بالقباب أعجمية مثل البطرة شقه أو البطرشك ، وهى كلمة مأخوذة من *Petra Sica* ومعناها الحجر البابس باللاتينية أو *Piedra Seca* بالأسبانية ، وهناك من تلقب بابن البانش أو البينش . وقال ابن الأبار أن معناها بالعربية الرجلان لكننا وجدنا أن الكلمة مأخوذة من لفظ *Pensionario* الأسبانية ومعناها الأديب ، يؤيد ذلك أن لفظ البانش كان لقبا لعلى بن أحمد بن خلف الأنصاري ، وكان نحويا أدبيا ، مات بفرناطة ٥٢٨ هـ (٢٠) .

(١٨) ابن شكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٣٧٢ ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ ، ٥١٣ ، ٦١٣ ، ٦٤٣ .

(١٩) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ ، بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ٥٩ .

مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٦ ، ترند ، المرجع نفسه ، ص ١٣ ، ١٤ .

(٢٠) ابن حزم المصدر نفسه ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ٩٦ ، ١١٨ .

ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٢١٥ ، المعجم فى أصحاب أبى على الصيرفى .

ص ٢٧٤ ، ٢٢ ، ٣٤ ، ٦٢ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٦٦ ، ٢٢٦ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

Diccionario Espanol Arabic, p. 352.

وقد بلغت معرفة الناس باللغة العجمية الأندلسية مبلغا جعلهم يستخدمونها في الاحتيال لكسب المال أو في الحرب ، فتد كان بعض تجار الرقيق الغشاشين يستخدمون بعض النسوة الأندلسيات اللاتي يجدن الكلام بالعجمية ويلبسوهن ملابس سبايا الروم ويبيعونهن على أنهم كذلك . كما حدث في أحد حروب المقتدر بن هود مع راميرو ملك أرغونة أن تعرض للمهزيمة في إحدى المواقع لكن فتاه المسمى سعداره ، وكان رجلا شجاعا ، لبس زي الروم واستخدم مهارته اللغوية في الرومية والعجمية ، إذ كان يتكلم نفس لغتهم لمجاورتهم وكثرة مخالطتهم واحتال حتى دخل بين جنود راميرو ، واقترب منه حتى تمكن من طعنه ، وصاح بالرومية : قتل السلطان يا معشر الروم . فتخاذل عسكره ولوا منهزمين ، وانتصر المقتدر بتلك الحيلة اللغوية (٢١) .

وكما اشنكى اليهود والنصارى من أهل ملتهم أنهم قد تركوا لغتهم وانكبوا على العربية ، كذلك كان لبعض كتاب المسلمين نفس الشكوى ، فقد زعم ابن شهيد (ت ٤٢٦ هـ) عقيرته لائما على المسلمين عيهم في الكلام بالعربية وأن لغتهم « ليس لسيبويه فيها عمل ، ولا للفراهيدي إليها طريق ، ولا للبيان عليها سمة ، إنما هي لكنة أعجمية يؤدون بها المعانى تأدية المجوس والمنبط ، وأنهم نحولوا إلى العامية الصريحة وغلبت عليهم العجمة » (٢٢) .

ورغم أن علم النحو كان من العلوم الهامة في الأندلس إلا أن كلام أهلها الشائع سواء عند العامة أو الخاصة ، كان كثير البعد عما يقنضيه الأسلوب العربى السليم ، حتى لو أن أحدا سمع كلام الشلوبينى الذى كان يشهد له بتفوقه في علم النحو في مشارق الأرض ومغاربها ، لضحك بملء فيه لما في كلامه من شدة التحريف . ولذلك اقتصر استعمال العربية الفصحى على الأدب والمكاتبات الرسمية ، ولم يعد من الناس من يتكلمها إلا استثقلوه

(٢١) الطرطوشى ، سراج اللوك ، ص ١٥٦ ، السقطى ، آداب الحسبة ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢٢) ابن شهيد برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، د ١ ، ص ٢٢٩ ، ابن حيان

بروادة ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، د ١ ، ص ٥٠ .

استبردوه ، ولم يكن ذلك الا بسبب مجاورتهم ومخالطتهم للفرنج والأسبان
الذين اثروا في لغتهم وفي طريقة أدائها ، فقد كانوا يكثر من الاملالة والترقيق
والتفخيم ، ولا يعتقدون حرف القاف وإنما ينطقونه « كافا » (٢٣) .

وقد اشار ابن حزم الى ذلك وقال عن أهل (بلى) شمال قرطبة أنهم
لا يحسنون الكلام باللطينية ، وكان الكلام بها كان شيئاً عادياً . كما قال
عن أهل فحص البلوط ، وهم على بعد ليلة واحدة من قرطبة أن « من سمع
لغتهم يقول انها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة » ويعمل ذلك قائلاً : « وهكذا
في كثير من البلاد ، فانه بمجاورة أهل تلك البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها
تبدلاً لا يخفى على من تأمله » مما يؤيد ما ذهبنا اليه من أثر الجوار
والاختلاط في اللغة والأدب (٢٤) .

وقد ظهر تأثير عجمية أهل الأندلس أو الأسبانية المحلية في فنين أدبيين
عظيمين قاما على يد أهل الأندلس وأولهما وهو الموشحات التي ابتكرها
مقدم بن معافر القبرى الضرير (٢٢٥ — ٢٩٩ هـ / ٨٤٠ — ٨١٢ م) ،
وثانيهما الزجل الذي ظهر على يد ابن عبد ربه (ت ٣٥٦) والرمادى
(ت ٤١٢ هـ) ، لكنه ذاع وانتشر على يد ابن قزمان (٤٦٠ — ٥٥٤ هـ /
١٠٦٨ — ١١٦٠ م) . ورغم أن الموشحات كانت الفاظها عربية فصيحة
الا أنها تخلصت من القافية الموحدة للقصيدة ، وكان القبرى « يأخذ اللفظ
العجمي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة » (٢٥) .

واللركز هذا كان يسمى الخرجة أو (القفل) وهى أهم جزء في
الموشح ، وواضح أن الخرجة كانت تكتب في لغة عامية أو عجمية . ووجود
الخرجات الأعجمية في مخطوطات الموشحات الأندلسية دون شرح لمساتى
الفاظها ، دليل على أن هذه اللغة الأعجمية كانت معروفة لدى قراء
الموشحات . وهى تساوى في الدلالة الخرجات العامية ، مما دعا البعض
الى القول بوجود أصل مشترك بنيت عليه الموشحات ، وهذا الأصل يعود

(٢٣) المقري ، المصدر نفسه ، د ١ ، ص ١٠٣ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٢٤) ابن حزم ، الاسام ، د ١ ، ص ٣١ ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ .

(٢٥) ابن بسام ، الخيرة ، ق ١ ، د ٢ ، ص ١ ، ٢ .

الى أغاني في العامية العربية وفي العامية الأعجمية ، لأن اللغتين عاشتا في البيئة الأندلسية جنبا الى جنب ، وواضح أن تلك الخرجات أخذت من تلك الأغاني العجمية التي امتد تأثيرها الى العامية العربية في أغانيها ، ثم الى العربية الفصيحة في موشحاتها (٢٦) .

أما الزجل فقد كان كله باللغة العامية المختلطة باللغة الأعجمية أو الأسبانية ، وكان تطورا نتج عن الموشحات التي شاع استعمالها في الأندلس في ذلك الوقت ، فقد نسج العامة على منوالها واستحدثوا فن الزجل الذي لم يلتزموا فيه بالثقافية ، وإنما التزموا فيه بالنظم على مناحيهم وحسب لغتهم المستعجمة (٢٧) .

ومن المحقق — أخبرا — أن الزجل أسباني ، لأنه يتحدث عن أعياد ومواسم لانوجد الا في التقويم اللاتيني ، ولاستعماله الفاظا وعبارات من عجمية الأندلس مختلطة بلغته العربية الدراجة ، السى جانب اهماله للموضوعات الأدبية العربية التقليدية كوصف الرحلات في القفار المهجورة وحياسة البداوة والتنقل والارتحال والبكاء على الأطلال الى غير ذلك ، واهتمامه بتصوير الحياة اليومية لمسئى الأندلس والتي فيها ذكر كثير لعادات المستعربين وحياتهم (٢٨) .

وكما تأثر أدب الأندلس في لغته وزجله ومشحاته باللغة الأعجمية أو الرومانية أو الأسبانية وهى لغة مشتقة من اللاتينية كما سبق القول ، فقد أثر الأدب الأندلسى نفسه ولغته العربية في لغة الممالك النصرانية في شمال أسبانيا وآدابها أيضا .

ذلك أنه عقب ظهور الموشحات والأزجال في الأندلس ، ظهر شعر يشبهه عند الأسبان في الشمال وفي مقاطعة بروفاني في جنوب فرنسا ،

(٢٦) عبد العزيز الإبراهيمي ، الزجل و الاندلس ، ص ٦ ، ٧ ، ٤٧ ، ٥١ .

(٢٧) المفردى ، نصح للطبيب ، د ٤ ، ص ٢٠٠ ، أزهار الرباى ، د ٢ ، ص ٢١٦ .

(٢٨) بالقنبا ، المرجع نفسه ، ص ١٥٩ ، ١٥٦ .

وسمى هذا الشعر عندهم باسم شعر التروبادور أو التروفير حسب اللهجات الفرنسية ، وباسم الجو جلاديس حسب لغة أهل قشتالة من الأسبان . ويمتاز هذا الشعر بأنه شعر عاطفى يوقع على الآلات الموسيقية مثل الزجل ، ويقصدون به البيوت الأرسقراطية والبلاط الملكى (٢٩) .

وقد اختلف المستشرقون والباحثون كثيرا فى منشأ هذا الشعر ، هل هم أخذوه عن مسلمى الأندلس ، أم أنه نشأ بطبيعى للشعر عندهم ؟ والأرجح عند كثير منهم أنه مأخوذ عن مسلمى الأندلس ، أو أن هناك قرابة بينهما على الأقل . ذلك أن هناك تشابه فى موضوعات هذا الشعر وشعر الزجل الأندلسى ، كما أن بعض أوزان هذا الشعر الأفرنجى قشتالى يساوى أوزان الموشحات والأزجال الأندلسية ، أضف الى ذلك ، التماثل فى ترتيب الأبيات وتعاقب القوافى ، مما يدل على التأثير الذى لا شك فيه بين هذين النوعين من الشعر (٣٠) .

وقد لعبت سرقسطة فى هذا المجال دورا كبيرا ، ذلك أنها كانت مهبطا لفرسان النصارى من كل جنس ، يجدون فى بنى هود وفى بلاطهم الباذخ ساحة رحبة ، فى الوقت الذى كانت فيه سرقسطة مركزا للأشعار الفروسية والشعر الغنائى الذى كان ينشر يومئذ فى أرجاء قلاطونية وأرغونة ونيرة ، ومنها كانت تنتقل المقطوعات الغنائية الأندلسية الى المجتمعات النصرانية المجاورة ، فتؤثر فى الملاحم والانشيد القومية ، وقد انتقلت هذه المؤثرات فيها بعد بضعى الزمن عبر جبال البرنات الى جنوبى فرنسا ثم الى غيرها من المجتمعات النصرانية (٣١) .

كذلك يرجع ظهور فن شعر الحب العذرى فى اللغة الاسبانية منذ القرن الثانى الهجرى / القرن الثامن الميلادى الى تأثير الشعر العربى ، كما أن

(٢٩) ليفى بروفنسال ، أدب الأندلس وتاريخها ، ص ٢٤ ، ٤٥ ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ٢٨٣ .

Pidal, Espana coma Elebon entre el cristianismo el Islam, pp7-10

(٣٠) أحمد أمى ، طهر الاسلام ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٣١) عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٩٦ ، لين بول ، قصة العرب فى أسبانيا ، ص ١٢٧ .

الشعر القصصى الأسباني الذى يتمثل فى قصيدة السيد القمبيطور ذو اثر اسلامى واضح ، فمن المحتمل أن قائلها كان راهباً أسبانيا يعيش فى مملكة سرقسطة الاسلامبة أو مستعرباً من بلدة مدينة سالم ، وقد فرغ منها عام ٥٣٥هـ / ١٤٠م أى بمصدونة القمبيطور بأربعين عاماً . وهى تدور حول حياة ذلك الفارس المغامر الذى كان يتقلب بين ملوك أسبانيا النصرانية وملوك الأندلس الاسلامية واصبحت بطولته ومغامراته مادة خصبة تثير خيال الشعراء والأدباء منذ ذلك الحين (٣٢) .

أما فى ميدان اللغة والمفردات اللغوية ، فيقول بعض الباحثين المحدثين أن المفردات العربية التى دخلت الى الأسبانية تقدر بربيع مهنوبات القاموس الأسباني ، بينما دخلت الى البرتغالية حوالى ثلاثة آلاف كلمة عربية ، واللغة القطلانية أيضاً فيها الكثير من الألفاظ العربية ، ولم يكن ذلك الا بسبب أن طوائف من المسلمين أنفسهم اتخذوها فى لغتهم وأطلقوها على أشياء سموها بها ، وانتقلت هذه الأشياء بمسمياتها الى نصارى الشمال ودخلت فى لغتهم (٣٣) .

وعلى سبيل المثال ولبس على سبيل الحصر ، فان كلمة فنسوق هى Fonda وطاحونة Tahona وتعريف Tarifa والأرز El Erros والسكر El Azucar والساقبة Acequia والخزانة Alacena والمخدة Almohada والدكان Adoqurin والكرى (الإجار) Alquiler والقاضى Alcalde والقبه Alcoba والبناء Albanil والقطران Alquitran وفلان Fulano . ومن الكلمات التى دخلت البرتغالية ولم نستعمل أصلاً فى الأسبانية الحديثة ، القطيفة A leatifa الفندق Alfandaga الخياط Alfalate وصحراء Safara والرطل Arretel الى غير ذلك (٣٤)

(٣٢) حتى ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٦٨ ، بالنسبة ، المرجع نفسه ، ص ٥٣ .

(٣٣) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، محمد كرد على ، المرجع نفسه ج ١ .

ص ٢٣٤ ، أرسلان ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٣٤) نريد ، المرجع نفسه ، ص ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ .

وبشكل عام فإن أسماء الجبال والتلال والجزر والشواطئ الرملية ، والأنهار والبحيرات والينابيع الحارة ، والسهول والحقول ، والغابات ، والحدائق والأزهار والأشجار ثم الكهوف والمناجم ، والألوان ومنشآت الإنسان كالمزارع والقرى والمدن والأسواق والمساجد ، والطرق المرصوفة ، والقناطر والقلاع والحصون والمطاحن والأبراج ، كل هذه أصبحت أعلاما جغرافية مأخوذة عن العربية (٣٥) .

فلفظة جبل تظهر في جبلكون Jabalcon وجبرالين Gibraltin وجبل الفارو Gibralfaro وكلمة المدور أصبحت اسما للمدينة المسماة Aimoda var del Rio ونظير كلمة وادي في معظم أسماء الاودية مثل الوادي الكبير Guadalquivir ووادي الحجارة Guadalajara ووادي المدينة Guadamedina ووادي الرملة Guadarrama ، ومجموعة مصطلحات الري والهندسة المعمارية والحلى كلها ذات أسماء عربية وعلى الجملة فقد أخذت الاسبانية من العربية الكثير ، وإذا كان التأثير الاسباني والروماني على اللغة العربية عميقا فقد كان تأثير العربية على الاسبانية لا يقل عمقا بل كان أعمق منه بكثير (٣٦) .

وإذا كان المستعربون واليهود هم أداة الاتصال بين الثقافة الاسلامية والثقافة المسيحية الاسبانية ، أو بتعبير آخر كانوا هم الذين دفعوا حركة الاستعراب دفعا الى الشمال الاسباني ، فإن المدن التي سقطت في يد نصارى الاسبان مثل طلمنكة وطليطلة وبرشلونة وغيرها بقيت مدنا يعيش فيها العربية التي كان يتكلمها المدجنون والمستعربون لعدة قرون بعد سقوط تلك المدن ، وكان هناك من علمائها وأدبائها المسلمين من فضلوا البقاء فيها ، ربما لمغنم فقد يصيبونه من العلاقة الجديدة

(٣٥) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٤٧ ، ٥٠ .

(٣٦) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٢٧ ، ٥٠ ، محمد الماسي ، الاعلام الجغرافية الاندلسية ،

نص ١٤ ، عدد العرب بن عبد الله ، العربية لغة العلم والحصارة ، ص ٢٦١ .

التي يمكن أن تنشأ بينهم وبين الحكام الجدد ، أو حفاظا على أملاكهم ، وعقاراتهم وعدم التخلي عنها (٣٧) .

وقد التزمت كتب الطبقات بالصمت عن ذكر هؤلاء العلماء والأدباء :
الا في القليل النادر جدا ، لأن تلك المدن لم تعد ديار اسلام حسب تعبير
أحد أصحاب الطبقات ، ولم نعثر في طليطلة مثلا الا على ترجمة لاثنين .
من عامائها بعد سقوطها في يد الفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م
أولهما هو أحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر الأنصاري ، وله كتاب
في تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها أخبر به الحاكم أبو الحسن بن بقى .
وغيره ، ونقل عنه ابن بشكوال في كتاب « الصلة » كل ما نسبته اليه ،
ويقول عنه انه كان ثقة فيما رواه ونقله ، وتوفي ابن مطاهر هذا
في طليطلة عام ٤٨٩ هـ ، أي بعد سقوطها في يد النصارى باحدى عشرة
سنة (٣٨) .

أما الناني فهو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن جواهر الحجري ،
من أهل طليطلة وكان من أهل العلم والفكر ، رحل الى الحج عام ٤٥٢ هـ
وسمح العلم بمكة ومصر ثم عاد الى وطنه وبقي في طليطلة حتى توفي بها
عام ٤٨٨ هـ أيام حكم النصارى لها . من هذا نفهم ، انه لم يكن هناك
مانع من عودة المسلمين الى البلاد التي استردها نصارى الشمال اذا ما
خرجوا منها للحج أو خلافه ، وظل هؤلاء يعيشون بين ظهرائى النصارى
وسموا بالمدجنين ، وكانوا عاملا أو رافدا أو قناة من قنوات الاتصال بين
الثقافة الاسلامية المنفوقة وبين الثقافة المسيحية الاسبانية الناشئة (٣٩) .

لم يقتصر التأثير والتأثر على مجالات اللغة والأدب والأفكار والمعتقدات
الدينية كما سبق القول ، بل كان هناك تأثير في مجال العلوم الأخرى
مثل الطب والرياضيات والفلك . فالأسقف Recisnundo والذي

(٣٧) بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٨ .

(٣٨) ابن بشكوال ، الصلة ، د ١ ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٣٩) ابن بشكوال ، الصلة ، د ٢ ص ٥٣١ ، ٥٣٢ .

يسميه العرب بربيع بن زيد والذي كان في خدمة عبد الرحمن الناصر ، وكان سفره الى الامبراطور أوتو امبراطور المانيا ، وضع كتابا في التقويم الفلكي نشره دوزي ، ووجد أن هذا التقويم الذى كتبه ربيع باللاتينية ما هو الا ترجمة لتقويم عريب بن سعد مع بعض الزيادات ، ولا شك أن هذا الكتاب الفلكى اللاتينى قد وجد طريقه الى اسبانيا النصرانية (٤٠)

وكانت الثقافة اللاتينية حتى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، بعيدة عن ذلك النشاط العلمى ، ولم يكن لأصحابها عام واسع بالحساب أو الرياضة كالعرب ، وما كانوا يعرفونه في هذا المجال لا يعدو الا أن يكون جهودا أولية بجانب ما ظهر عند مسلمى الأندلس في ذلك الوقت . ولذلك فليس من الغريب أن يحمل مستعربو الأندلس هذا العلم الى ممالك أرغونة وليون وكونتية برشلونة (٤١) .

وقد عثر الأستاذ بيكروسا على مخطوط هو الآن أحد مخطوطات مكتبة ريبول في محافظة برشلونة ، ويحمل رقم ٢٢٥ ، وهو مجموع عظيم من المقالات في الفلك والرياضيات مترجمة من العربية الى اللاتينية والترجمة اللاتينية نفسها حافلة بالمصطلحات العربية واستنتج هذا الباحث من دراسة ذلك المخطوط أن الفلك والرياضيات كانت مزدهرة في الأندلس قبل أيام الحكم المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ ، وازداد هذا الازدهار بعد ذلك على يد مسلمة المجريطى ومدرسته التى ازدهرت على يدها تلك العلوم في القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، كما ظهر أيضا في ذلك الوقت في طليطلة الزرقالى الطليطلى والذي يعد أعظم فلكى عرفته أوربا قبل يوحنا كبلر (٤٢) .

أما الطب فقد نبغ فيه كثير من الأطباء النصارى واليهود في الأندلس الاسلامية ، وكانوا في البداية يعتمدون على بعض الكتب النصرانية المؤلفة

(٤٠) بالنشيا ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .

Villicrosa, op. cit., p. 312

Villicrosa, op. cit., p. 312

Villicrosa, op. cit., pp. 312,313

(٤١)

(٤٢)

في فروع الطب وليس في أصوله ، الى أن ظهر بينهم من اعتمد على الأصول
مثل كتب أبقراط وجالينوس وغيرهم . ومن أشهر الأطباء في الأندلس
حسداى بن اسحاق ، الذى كان وزيرا وسفيرا لعبد الرحمن الناصر ،
ولازلنا نذكر سفارته الى الملكة طوطة ملكة (نبرة) وعلاجه لحفيدهما
سانشو ملك ليون ، بعد أن عجز أطباء الشمال النصراني عن ذلك^(٤٣)

وهناك مجال ظهر فيه مسلمو الأندلس الاسلامية وهو الفنون
الزخرفية من نحت ورسم ونصوير وزخرفة على العاج والمعادن وقد
تأثروا فيها بالفن النصراني ، فقد اقتبسوا من فنون القوط والفرنجة
والبيزنطيين والبنادقة لكنهم كانوا مبتكرين منشئين لفن اسلامي زخرفي
محض أثر في غيرهم سواء في دول اسبانيا النصرانية أم في غيرها من دول
أوربا . وكان الاحتكاك مستمرا في هذا المجال بين الفنانين الأندلسيين
وبين الفنانين البيزنطيين الذين أوفدهم إباطرة بيزنطة للاشتراك في تزيين
ونقش المساجد والقصور والحمامات الأندلسية على عهد الخلافة ،
وننتج عن ذلك أن بلغ الفن الاسلامي الأندلسي أوج ازدهاره في القرن
الرابع الهجري^(٤٤) .

وكان عرب الأندلس أسبق الأمم الاسلامية في صنع التماثيل والصور ،
وقد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث الهجري بالتماثيل والصور
والنقوش التي تمثل الحيوان والنبات والطير ، أما التماثيل والصور البشرية
فكانت تلقى نوعا من التحريم العام . لكنه في عصر عبد الرحمن
الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) خطا الفن الأندلسي خطوة أخرى ، إذ
صنعت التماثيل والصور البشرية ، فقد أمر الناصر برسم صورة جاريته
وحظيته « الزهراء » على باب قصر المدينة التي سماها باسمها ، كما
زينت أبهاء قصورها بتماثيل وصور بشرية فكانت ظاهرة فنية جديدة^(٤٥) .

(٤٣) ابن صاعد ، طبقات الامم ، ص ٧٨ ، أنظر الفصل الثالث ، الباب الثاني ص

(٤٤) عفان ، نهاية الاندلس ، العصر الرابع ، ص ٣٨٣ ، أحمد أمين ، ظهور الاسلام ،

ج ٣ ، ص ٣٢ .

(٤٥) عفان ، المرجع نفسه ، العصر الرابع ، ص ٣٧٨ ، أحمد أمين ، المرجع نفسه ،

ج ٣ ، ص ٣٠٠ .

وفي ميدان التصوير ، يمكن أن نميز بين ثلاثة أساليب ، الأول الأندلسي الطليطلي ذو الصفات الإسلامية الشرقية ، والثاني القطوني ، وهو صدى للأوربي والثالث القشتالي الليوني ، وهو مزيج من الاثنين مع احتفاظه ببعض خصائصه . والمقصود بالتصوير هنا هو « صور المخطوطات » وقد ظهر في هذا الفن أثر المستعربين بصورة قوية جدا على يد ماخيو الذي ترك اسمه مدونا في خاتمة تفسير الكتاب الأخير من العهد الجديد المعروف بكتاب الرؤيا الذي أتمه في عام ٣١٤هـ / ٩٢٦ م .

وقد أصاب هذا الفنان نجاحا عظيما حتى أن مصوري ليون وقشتالة ظلوا يسيرون على منواله حتى أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي^(٤٦) .

وبتحليل فن (ماخيو) نلاحظ أن كل ما يتعلق به من أساليب فنية في العمارة والزخرفة قد ورد كاملا من الأندلس وهو مستعرب ، ولعله تعلم طريقته التلوين بالماء من هناك ، كما يستدل على ذلك من اثار تاريخية في الانجيل الاشبيلي ، ولم يأخذ شيئا من الزخارف الشمالية ، ولا من تلك التكوينات الموجودة في البوابات والأشكال ذات الأثر الأوربي ، وانما استوحى منه من الفن المستعرب^(٤٧) .

وإذا كان ماخيو قد أحدث ثورة في تنسيق المخطوطات بأراضي ليون ، فان هناك راهبا آخر في قشتالة أضفى على الخط المستعرب رشاقة وجمالا يجعل من خطوطه المبع خط في عصر الخلافة ذلك هو « ملورنثيو » الذي ولد عام ٣٠٦هـ / ٩١٨ م واخذت تظهر براعته منذ عام ٣٣١هـ / ٩٤٣ م ، وكان منه الزخرفي مشرب بالروح المستعربة خاصة في استخدام عقود حدود الفرس والتوريقات والنقوش العربية الكوفية^(٤٨) .

(٤٦) موريسر . المرجع نفسه ، ص ٤٧٠ ، ٤٧٦ .

Aznar, Los constants del arte espanol, pp 3-7.

(٤٧) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٣ .

(٤٨) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٦ .

وكان الخزف المزخرف في عصر الخلافة قد ازدهر ازدهارا كبيرا ، بحيث تجاوز في قيمته الفن المسيحي الأوربي بما في ذلك الفن البيزنطي . وقد أدى ذلك الى نشاط تجارة الصادرات من هذا النوع من الصناعات الفنية الى شمال أسبانيا وإلى دول حوض البحر المتوسط كما أدى الى ظهور مصانع للخزف في أسبانيا النصرانية في ترويل Teruel وقطلونية Paterna وكذلك في بروفانس بجنوب فرنسا^(٤٩) .

وكانت هناك بعض التحف الفنية التي تصنع من العاج ، وتوجد منها اثنان محفوظتان بسان ميان دي لاكوجيا San Millan de la cogolla تمثل تغلف الطابع الأندلسي بشكل واسع وتتميز بتأثير من قرطبة ، ومن الممكن ارجاع صناعتها الى عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٨ م وهو تاريخ تدشين هذه الكنيسة . والتحف الأولى عبارة عن صليب للاحتفالات الدينية ذي حجم كبير ، والثانية مذبح متنقل عليه نقش بلغة مستعربة ورسوم حيوانات صغيرة الحجم بين توريقات مثلما كان موجودا في الآثار الماضية التي ترجع الى عصر الخلافة^(٥٠) ولا يزال في الفن الروماني الأسباني ما يدل على صلته بالفن الأندلسي مثلا في المعادن الثمينة المزخرفة بالمينا السوداء ، والذي ظهر في بقايا نقش مضغوط لكتابات كوفية كما في الصندوق المقدس ، وثمة قطع أخرى مماثلة بصعب قراءة ما بها من نقوش مثل العلبة الصغيرة المنسوبة الى المطران أريانو Ariano ، وكلاهما محفوظ في أيبط Oviedo وترجعان الى حوالي سنة ١٠٧٥ م / ٤٦٩ هـ ، ومن الملاحظ أن الاتجاه العربي في تلك القرون كان محببا ولم يثر نفور المسيحيين ، فقد هذب الذوق الفني في دول أسبانيا النصرانية في ذلك الوقت^(٥١) .

(٤٩) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٣٦٩ .

(٥٠) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

(٥١) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٧ .

٥ - التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الاقتصادية

١ - الزراعة :

بلغت الزراعة والصناعة والتجارة في الأندلس الإسلامية ، وخاصة في عصر الخلافة الأموية شأوا عظيما من التقدم والازدهار ، نظرا لعامل الاستقرار والأمان الذي حققه عبد الرحمن الناصر وخلفاؤه من بعده بعد أن أخضعوا نصارى الشمال وعقدوا معهم معاهدات السلام .

والأندلس بطبيعتها قطر يمكن أن يحقق الاكتفاء الذاتي لسكانه ، بسبب تنوع موارده وتباين أقاليمه المناخية واختلاف مواسم سقوط المطر في شرق الأندلس عن غربه ، لذلك تنوعت المحاصيل الزراعية واستمر ظهور الفاكهة على مدار العام ، وكثرت محاصيله وفاكهته حتى صدرت الى ممالك اسبانيا النصرانية وغيرها من دول العالم الأخرى .

وقد عبر عن هذه النظرية في الاكتفاء الذاتي الذي تتمتع به الأندلس الخليفة المنصور بالله العباسي عندما قال عن عبد الرحمن الداخل « ماذا يقال في رجل يركب من انتاجه ويلبس من ديباجه ، وينفق من خراجه (١) » .

وكان هذا الاكتفاء أمرا ضروريا لمن يقيم سياسته على الاستقلال بتلك البلاد ، وعلى جهاد أعدائها سواء من نصارى الشمال أم مسلمى المغرب وأفريقية من الفاطميين والعباسيين . ولهذا فقد عمل حكام الأندلس أقصى ما في وسعهم لاستغلال ثروات البلاد ، فاستصلحوا الأراضي وأقاموا المصانع وتبادلوا التجارة مع أقطار أسبانيا النصرانية ومع بلاد أوربا ودل حوض البحر المتوسط الأخرى ، حتى أن أحد كتاب

(١) الرازي برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ٢ ، ص ٥٥ .
Chapman, A history of spain, p. 3

المغرب وهو أبو علي بن الربيب القروي ، أرسل إلى أحد وزراء الأندلس أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم رسالة يشير فيها إلى رواج الحالة الاقتصادية بالأندلس ويقول « أنها مقصد كل طرفة ومورد كل تحفة ، ان بارت تجارة أو صناعة فاليها تجلب ، وان كسدت بضاعة ففيها تنفق » (٢) .

وقد أقام مسلمو الأندلس زراعتهم لأراضيهم وضياعهم على أساس من القوانين الزراعية التي اختصت بها دون غيرها من البلاد ، وعلى أساس نظام جسد للرى ، من شق للترع والقنوات وبناء للنواعير أو السواقي التي نقلها عنهم نصارى أسبانيا الشمالية ، يدل على ذلك أن اللفظ المستخدم في الأسبانية للتعبير عن هذه الآلة وهو Noria مأخوذ عن اللفظ العربي (ناعورة) و acequia من لفظ (الساقية) العربي ، و accadus هو القادوس الذي يستخدم لنقل الماء من جوف الأرض وصبه على سطحها (٣) .

وقد أدخل العرب أيضا إلى الأندلس زراعة الأرز والقطن وقصب السكر والتوت والنخيل ، وأنواع الزهور التي انتشرت زراعتها أيضا في شمال أسبانيا النصرانية بل في أوربا كلها ، يدل على ذلك أسماء تلك الزهور وغيرها مما استعارته اللغة الأسبانية ، وكذلك الحال في الفاكهة ، فقد أدخل العرب أيضا كثيرا من الأشجار المثمرة التي البسلاد ، مثل البرتقال والتفاح والبرقوق والمشمش ، وانتقلت زراعتها إلى أسبانيا النصرانية وعرفت بها بأسمائها العربية فالبرقوق albaricoque واللبون limon وهكذا (٤) .

(٢) ابن بسام ، الخيرة ، ق ١ ، د ١ ، ص ١١٦ ، ١١٢ . حيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) محمود على مكي ، مدريد العربية ، ص ٤٨ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، د ١ ، ص ٣٥٤ ، حتى ، المرجع نفسه ، د ٢ ، ص ٤٣٠ ، حيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ١٠٧ . Livermore, op. cit, pp. 118, 119.

وفي الوقت الذي ازدهرت فيه الزراعة في الأندلس الإسلامية كانت أسبابا النصرانية تعيش على ما تستورده منها من محاصيل ، أو على ما تستنبته من زروع ونباتات أخذت زراعتها عن الأندلس أيضا . ذلك أنها كانت بلاد تميل إلى رعى الأغنام ، بسبب طبيعتها الجبلية ، وتربتها الفقيرة ، وجوها الشحيح بالأمطار الكافية للزراعة ، وبسبب نظامها الاقطاعي العتيق الذي يقوم على أساس استعباد الفلاحين والعمال ، أضف إلى ذلك طبيعة الأسبابى نفسه الذي كان يأنف من العمل اليدوى في الأرض ، وإذا عمل فائما يعمل في الرعى فقط ، وأدى ذلك إلى فقر البلاد وإلى اتجاهها دائما نحو الجنوب في الأندلس ، أما للاقتباس الخصارى سواء في مجال الزراعة أم في غيره من المجالات ، وأما لشراء ما يلزمها من محاصيل بواسطة تجار اليهود ، أو للاغارة ونهب ما تصل إليه أيديهم من محاصيل ومؤن (٥) .

ب - الصناعة :

أما الصناعة فقد بلغ مسلمو الأندلس فيها شأوا عظيما ، ويكفى أنهم عرفوا فكرة استخدام قوة سقوط الماء في إدارة الأرحية والطواحين وهى فكرة علمية حديثة تستخدم الآن لإدارة التوربينات لتوليد الكهرباء ويصف الإدريسي ذلك بقوله أنه « كان في مدينة المنكب في شرقى الأندلس بناء مربع مرتفع كالصنم أو المنار ، أسفله واسع وأعلاه ضيق ، وبه حفرتان على جانبيه متصلتان من أسفله إلى أعلاه ، وبازائه من إحدى جوانبه حوض كبير يصب فيه الماء بعد أن يكون قد أتى من بعيد إلى أعلى المنار ، ثم يهبط إلى الحوض فيدير رحي صغيرة» (٦) .

ويبدو أن هذه الرحي المائية قد اندثرت أيام الإدريسي الذي ألف كتابه بعد سقوط هذه الناحية في أيدي النصارى ، وكان هؤلاء يدمرون كل أثر للمسلمين كما هو معروف . وهناك من يقول أيضا أن مسلمى الأندلس قد

Crow, op. cit, pp. 13, 111, 124, 125.

(٥)

(٦) الإدريسي ، صفة المغرب ، ص ١٩٩ .

عرفوا فكرة رفع الماء من الآبار ، وانهم اخترعوا آلة لذلك ، ويبدو أنه يقصد « الشادوف » أو الساقية مما لم تعرفه الأندلس من قبل ، بل أنهم بنوا القنوات المعلقة واخترعوا أنابيب الرصاص لجلب الماء الى المدن من أعالي الجبال ، مما يدل على نهضة صناعية عظيمة توافرت للأندلس في عهد بنى أمية ، ودول الطوائف(٧) .

وقد توافرت المواد الخام وخاصة المعادن اللازمة لتلك الصناعة في معظم أنحاء شبه الجزيرة ، فمعدن الحديد يوجد في المرية في شمال شرقى قرطبة وفي مريبطر قرب بلنسية ، والذهب في لاردة وساحل ألبهونة ، والفضة والزئبق في قرطبة وتدمير وبجانة ومحص البلوط ، والنحاس في شمال الأندلس ، والملح الأندلسي في سرقسطة ، والرخام في المرية ، والعنبر والكهرمان في بحر شذونة ، وحجر اللازورد والمغنطيس في تدمير ، والمرجان في ساحل بيرة من عمل المرية ، والقصدير في أشكونية وحجر التونيا والكحل في البيرة وطرطوشة والزعفران في طليطلة(٨) .

ونظرا لتوافر هذه المواد الخام الكثيرة فقد قامت صناعات كثيرة في الأندلس الإسلامية ، منها صناعة آلات الحرب من التراس والرماح والدروع والسروج والألجم والمفافر في قرطبة وطليلة ومجريط (مدريد) وكان أهل الأندلس وكذلك نصارى الشمال يهتمون بهذه الصناعات اهتماما كبيرا نظرا لكثرة الحروب التي كانت تنشب بينهم . كما قامت صناعة السفن الحربية والتجارية في مدينة المرية ولقنت وطركونة على عهد عبد الرحمن الثانى والثالث ، وفي جزيرة يابسة شمال مبورقة(٩) .

وقد امتازت المرية بالإضافة الى صناعة السفن بأقوى صناعة نسيج في الأندلس ، فقد كان يوجد بها ٨٠٠ نول لصناعة الملابس الحريرية ،

(٧) المقري ، ازهار الرياض ، ٢ ، ص ٢٦٦ ، حيدر يامات ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٦ .

(٨) الرازي برواية المقري ، النفع ١ ، ص ٧٠ ، ٩٣ ، مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون

في الاندلس ، ص ٢١٥ .

(٩) الأندلسي ، المصدر نفسه ، ص ١٩٣ ، ابن سعيد برواية المقري النفع ، ١ ، ص ١٠٩٣ .

ص ٩٤ ، ياقوت ، المصدر نفسه ، ٨ ، ص ٤٩٠ ، المقري ، النفع ١ ، ص ٩٢ ، ٩٣ .
Levi - Provencal, Inscriptions, p. 83.

وَألف نول لصناعة الحلل النفيسة والديباج الفاخر ، وألف نول للاستلاطون وألف نول للثياب الجرجانية ، ومثلها للثياب الأصفهانية والعنابي والستور المليلة . وقامت صناعة الفسيج أيضا في قرطبة حيث كان بها ثلاثة عشر ألف حائك ، وفي غرناطة وبسطة ومالقة وصناعة الكاغد (الورق) في شاطبة وبلنسية ، واستخراج الزئبق في حصن أبال شمال قرطبة ، وصناعة البسط في فنالة بمرسية ، وصناعة الأدوات المنزلية مثل السكاكين والمقصات المذهبة من النحاس والحديد في مرسية ، والفخار العجيب والزجاج البللوري في مالقة وطليلة^(١٠) .

هذا عن الصناعة وتقديهما في الأندلس الإسلامية أما في ممالك أسبانيا النصرانية ، فقد كان هناك أيضا الكثير من المعادن مثل الذهب في شنت ياقب ، والحديد والنحاس والمعادن الأخرى في جليقية وأستريس وليون وقشتالة . ولذلك نهضت بها صناعة الأسلحة وخاصة في برغش عاصمة مملكة قشتالة ، وكانت هناك صناعة أقمشة في مدن عديدة مثل سورة وافيلا (آبله) وشقوبية وصورية والقلعة ودريد وطليلة وككة ، لكنها لم تصل إلى مستوى منسوجات الأندلس الإسلامية ، ولذا كانت نساء الطبقة الأرستقراطية هناك يستوردن ما يحتجنه من أقمشة حريرية وغيرها من قرطبة وغيرها وكن ينتظرن وصول بجار اليهود بفارغ الصبر^(١١) .

وقد كانت صناعة الصوف والحرير مزدهرة في طليطلة ، ولم يكن ذلك إلا بفعل الصناع المسلمين الذين بقوا فيها عقب سقوطها عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م حتى بلغ عددهم عشرة آلاف صانع ، وكان قريبا من جبل الشارات

(١٠) الادريسي ، المصدر نفسه ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ص ١ ، ص ٧٤ ، ٧٨ ، محمد العروسي المطسوي ، الخروب الصليبية في الشرق والمغرب ، ص ١٧٤ ، مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون ، ص ٢١٥ ، ص ٢١٦ ، ترند ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ ، لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٢٩ . Livémore, op. cit., p. 119.
(١١) الرازي برواية المقرئ ، النفج ، ص ١ ، ص ٧ ، ابن سعيد برواية المقرئ ، النفج ، ص ١ ، ص ٩٣ ، ٩٤ ، ابن سعيد ، بسط الأرض ، ص ١١٤ .
Crow, op. cit., p. 125.

الذى يمتياز بكثرة المراعى ووفرة الأغصام التى تربي عليها مما هيا موردا هاما من مادة الصوف الخام اللازم لتلك الصناعة . وبقيت في طليطلة أيضا صناعة الأسلحة وكثير من الصناعات الأخرى ، يدل على ذلك شوارعها وأزقتها التى ظلت تحمل أسماء تدل على الصناعات الموجودة بها مثل شارع النحاسين والدباغين والقزازين والصباغين والعطارين والجزارين الى غير ذلك من الصناعات الأخرى^(١٢) .

وقد تأثرت صناعة النسيج في أسبانيا النصرانية بمثلتها في الأندلس الاسلامية ، يدل على ذلك قطع النسيج التى عثر عليها في الكنائس . فهناك البطانة الموجودة في صندوق العاج الذى أهدها فرديناندو الأول لكنيسة سان ايسيدور لحفظ مخلفات سان خوان باتستا وسان بلامون سنة ١٥١٠ هـ / ١٠٥٩ م ، والنسيج قطعة به صور طيور وحيوانات ذات أصل عربى ، وعليه كتابة عربية لعل قراءتها كالاتى : « النفع ذخرا لمن أراد العالم الآخر » مما يدل على أنها نسجت صراحة لغرض كنسى بأيدي خلفاء أولئك المستعربين من نساچى الملك الذين كان آواهم الفونسو الخامس عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٤ م^(١٣) .

وقد ظهرت مصانع للخزف والقيشاني في مطلونية وبطرنة وترويل بتأثير من المصانع الاسلامية ، لأن الأسبان كانوا متأخرين في المصانع الدقيقة . وكذلك قامت في طليطلة صناعات الفخار الأسباني ذى البريق المعدنى الذى يعتبره الهواة بعد الخزف الصبى مباشرة في الجمال والقيمة الفنية ، وكان أول ورود لذكر هذه الصناعة في طليطلة عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م أى أيام أن كانت في يد المسلمين وبقيت بها بعد سقوطها في يد النصارى . وكانت تنقش عليها نقوش أسبانية وترسم عليها الرفوك ، مما يدل على أن الفخار العربى كان يصنع للبابوات والكرادلة أيضا . وقد أشار أحدهم الى هؤلاء

(١٢) الادريسى ، المصدر نفسه ، ص ١٨٨ ، روبرنسون ، المرجع نفسه ، ص ٣٢٥ .
محمود على مكى ، المرجع نفسه ، ص ٨٤ .

(١٣) . مورينو ، الفن الاسلامى في أسبانيا ، ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

الصناع العرب بقوله « انهم فقراء الى ما لدينا من ايمان ونحن فقراء الى ما لديهم من صناعة » (١٤) .

كذلك كانت صناعة علب الحلوى المصنوعة من العاج في كوناة وقشتالة ذات طابع اسلامى . ويظهر هذا الطابع أيضا في صناعة المصوغات والأواني الزجاجية والفخار والأبسطة والكؤوس والصلبان والنيجان الملكية في قشتالة ، وملابس القسوس التى كانت تحمل غالبا زخرفة اسلامية . وهكذا نرى أن الصناعة الاسلامية أثرت في الصناعة النصرانية في شمال أسبانيا ، ويعلّل بعض كتاب النصارى ضعف الصناعة الأسبانية بسبب وجود المسلمين الذين حاصروها بصناعاتهم وتجاراتهم التى كانت حكرًا عليهم وعلى اليهود ، كما أنهم فرضوا عليهم عملتهم العربية ، مما جعل نصارى الشمال لا يشعرون بميل الى النشاط الاقتصادى (١٥) .

ويبدو أن هذا القول مبالغى فيه كثيرا ، لأن سبب تأخر الصناعة في شمال أسبانيا لم يكن مرده الى المسلمين ، فقد كان هؤلاء مصدرا من مصادر النهضة الصناعية التى امتدت لتشمل الشمال الأسباني وجنوب فرنسا . وكان النظام الاقطاعى الذى كانت تعيشه دول أسبانيا النصرانية هو المسئول عن ذلك ، فقد كان التاج والكنيسة والنبلاء يملكون الأرض ويفرضون الضرائب الباهظة على السلع ، بسبب احتياجهم الشديد للأموال اللازمة للانفاق على حروبهم الكثيرة مع مسلمى الأندلس ، أضف الى ذلك احتكار بيع سلع معينة وقصر التجارة فيها على الرهبان ، فقد كان رهبان دير ساها جون مثلا يتمتعون بحق احتكار بيع النبيذ والأقمشة والأسماك والأخشاب ، فلا ينافسهم فيها أحد والا تعرض للمصادرة والغرامة ، وهذا أدى الى تأخير النشاط التجارى الذى أدى بدوره الى ضعف النشاط الاقتصادى بوجه عام (١٦) .

(١٤) تروند ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، مويثو ، المرجع نفسه ، ص ٣٦٩ ، محمد كرد على ، المرجع نفسه ، ص ١١ .

(١٥) تروند ، المرجع نفسه ، ص ٥ ، ٦ .

Levi - provençal, la civilisation en Espagne, pp. 136, 137.

(١٦) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٣٩ . Crow, op. cit., p. 126.

ج - التجارة :

ونتيجة لتأخر دول أسبانيا النصرانية في الصناعة والزراعة فقد قامت تجارة رائجة بينها وبين الأندلس الإسلامية وخاصة في أوقات السلم . ومن الغريب أن الحروب كان يعقبها نشاط تجارى عظيم . ذلك أن التجار من اليهود وغيرهم كانوا يصاحبون الجيوش ويمشون خلفها ، انتظارا لما يقع في أيديها من السبى والغنائم وما كان أكثره في تلك الأيام . وقد حدث ذلك أثناء الصراع الذى دار بين المرضى الأموى وبين صنهاجة عام ٤٠٩ هـ / ١٠٢٠ م ، وحدث أيضا عقب سقوط مدينة بريشتير شمال سرقسطة في يد الحملة الصليبية الأوربية الأسبانية عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، وكانت هذه عادة تتمشى تماما مع طبيعته الحروب وما يتبعها من نهب وسلب لا بد أن يجد سوقا تستوعب ما زاد عن حاجة الجنود والغزاه (١٧) .

ولا بد أنه كان يصاحب السفارات أو البعثات الدبلوماسية التى كانت تأخذ الجزية من ملوك الطوائف ، والسفارات التى كانت تأتى قبل ذلك أيام الخلافة لطلب السلام ، نشاط تجارى واسع . فقد كانت العطايا والهبات من الملابس الفاخرة والأدوات والحلى والتحف الفنية التى كان يقدمها الخليفة لأفراد تلك السفارات ، لا بد أنها كانت تجذبهم الى شراء ما يلزمهم قبل الرحيل الى بلادهم ، وكانت تجعل نساء القصور فى ليون وقشتالة يحثون تجار اليهود على جلب المزيد منها من أسواق قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية (١٨) .

وقد وردت انتسارات عديدة على لسان المؤرخين والجغرافيين العرب الأندلسيين على أن هذه الصناعة أو تلك قد عمت جميع بلاد الأندلس أو بلاد الأندلس والكفر ، يقصدون بذلك جميع شبه جزيرة ايبيرية كلها ، خاصة

(١٧) ابن حيان برواية ابن بسام ، الأخيرة ، ق ١ ، د ١ ، ص ٣٩٨ ، ابن حيان

برواية المعرى ، النسخ ، د ٢ ، ص ٥٧٥ ، رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢١٧ .

(١٨) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ٣٠٢ .

Levi - Provencal, op. cit., pp. 127 - 129.

وان الصناعة الأندلسية كانت منفوقة ، حتى ان نصارى قشتالة كانوا يفضلون سيوف أشبيلية على سيوف مدنية بوردو التي نسميها الرواية العربية برديل والسيوف البردليات . فقد جاء في وصية أحد قادتهم « أوصي أيضا لابني بسيفي القشتالي الذي صنع في أشبيلية ورصع مقبضه بالذهب ونفيس الجواهر » وكانوا يفضلون أيضا الملابس العربية التي كانوا يستوردونها من الأندلس الإسلامية (١٩) .

المراكز التجارية :

وازدهرت هذه التجارة عند مناطق الحدود مع الثغور الإسلامية وعند المدن الساحلية الإسلامية ، مثل المرية وطرطوشة وطركونة ، والمدن النصرانية مثل برشلونة وأشبونة وشنت ياقب . فقد كانت برشلونة بموقعها الجغرافي بين دول أسبانيا النصرانية والإسلامية سوقا رائجا للسلع الأندلسية والأسبانية ، فكان يأتيها من الأندلس الحرير والصوف والأقمشة والجلد وتصدرها الى نصارى الأسبان أو الى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط الأخرى (٢٠) .

وكذلك كانت المرية « محطا لسفن النصارى ومجتمعاً لديوانهم » ومنها كانت تصدر سلعهم الى سائر بلاد الأندلس ، ومنها أيضا كانوا يشترون ما يحتاجونه من السلع الأندلسية ، فكانت هذه المدينة إذن تقوم بتجارة الصادر والوارد بين الأندلس وبين أسبانيا النصرانية ، أو بينهما وبين سائر دول البحر المتوسط (٢١) .

وكانت ميورقة بموقعها كجزيرة تقع قرب السواحل الإسلامية والنصرانية ، مركزاً من مراكز تبادل التجارة الأندلسية والأسبانية . وأما

(١٩) الرازي برواية المقرئ ، للفتح ، ج ١ ، ص ٧١ ، الحميري ، المصدر نفسه ، ص ١٦٥ ، لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٣٠ ، مورينو ، الفن الإسلامي ، ص ٤١٥ .
(٢٠) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٧٨ .
(٢١) المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

سرقسطه فقد ضربت بسهم وافر في هذا الميدان ، نظرا لمجاورتها لجميع ممالك أسبانيا النصرانية ، واستغلت نهر أبره الذي كان يربطها بتلك الممالك في الوصول اليها بسهولة ، كما استغلت ميناءيها الكبيرين على البحر المتوسط ، وهما طركونة وطرطوشة لاستقبال تجارة الشرق وتصديرها الى قشتالة ونبرة وأرغونة ، وجنت من وراء ذلك ثروة طائلة جذبت اليها الفرسان والمرتزقة النصارى الأسبان ، ومكنتها أيضا من دفع الاتاوات التي فرضها عليهم ملوك قشتالة ، فعاشت عصرا طويلا بمنجاة من غزواتهم المخربة التي ابتليت بها دول الطوائف الأخرى ، كما ساعد على رواج تجارتها أيضا تلك المصاهرات التي عقدها بنو قسى وبنو الطويل المولدون مع ملوك نبرة وقشتالة (٢٢) .

وكانت أعظم تجارة بين الأندلس وبين أسبانيا النصرانية هي تجارة الرقيق ، وقد تخصص فيها تجار اليهود الذين كانوا يقومون بجلب هذا النوع من التجارة من جليقية وسائر ممالك أسبانيا النصرانية ، ومن سبى الفرنجة الى قرطبة وغيرها من المدن الرئيسية ، فيأخذ الخلفاء والأمراء وأفراد الطبقة الأرستقراطية حاجتهم منه ، وما بقى يسير به تجار اليهود الى سائر بلاد العالم ، وربما وصلوا به الى خراسان وغيرها من أقاصى البلاد (٢٣) .

وكان أفراد الطبقة الأرستقراطية من وزراء وقواد يهودون للخلفاء الكثير من هؤلاء العبيد الصقالبة على سبيل التقرب اليهم . فقد جاء ضمن هدية عبد الملك بن شهيد للخليفة الناصر عبد الرحمن عددا كبيرا من العبيد الصقالبة من الجنسبن ، كذلك جاء في هدية الحاجب جعفر المصحفى للحكم المستنصر بوم ولاينسه للخلافة ، مائة مملوك من الفرنج على خيولهم كاملى العدة والسلاح ، وعددا كبيرا من أسلحة الفرنجة وحرابهم . ولا يمكن أن

(٢٢) ابن حوقل ، صرة الارض ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، المقري ، المصدر نفسه ، ص ١٠٠ ،

ص ٥٩٨ ، غان ، دول الطوائف ، ص ٢٩٦ .

(٢٣) ابن حوقل ، المصدر نفسه ، ص ١١٠ ، البهاجى ، المصدر نفسه ، ص ٢٦ ،

ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ص ١٠١ ، ص ١٥١ .

يتيسر اهداء هذا العدد الكبير من العبيد أو الرقيق ، الا بسبب رواج هذا النوع من التجارة^(٢٤) .

وبخلاف تجارة الرقيق كان أمراء بنى أمية وخلفاؤهم يستوردون بعض المواد اللازمة لبناء المساجد والقصور من بلاد أسبانيا النصرانية وغيرها ، مثل الرخام والسواري والفسيفساء . اذ كان الناصر يستورد السواري وهى الجزء الاسطوانى من الأعمدة من افريقية وبلاد الفرنج وأسبانيا النصرانية ، والفسيفساء من القسطنطينية ، كما كان يستقدم المهندسين والبنائين من كل قطر ، وكانت النهضة العظيمة والعمارة الوافرة التى اشتهر بها عصر بنى أمية ، تستدعى مثل هذا النشاط التجارى الواسع^(٢٥) .

الطرق التجارية :

أما الطرق التجارية التى كانت تسلكها التجارة بين الأندلس وبين ممالك أسبانيا النصرانية فقد كانت عديدة ، منها ما يتم عن طريق الأنهار الكثيرة المنتشرة فى شبه الجزيرة ، والتى تربط بين شرق الأندلس وغربها ، وبينها وبين شمال أسبانيا النصرانى . ذلك أن منابع نهر ناجة وروافد نهر ثغر ووادى مرسية تتصل بروافد نهر الوادى الكبير ووادى آنه . وهذه الأنهار كلها منها ما يصب فى البحر المتوسط ومنها ما يصب فى المحيط الأطلسى ، لكنها تنبع جميعا من جبال وسط الأندلس فتتقابل روافدها وتتصل ، ويمكن للمسافر أن يأخذ احداها فيتجه شرقا أو غربا حسبما يريد^(٢٦) .

وكانت سفن الأندلس وسفن الفرنج ونصارى أسبانيا الشمالية تغدو الى هذه الأنهار بالبضائع ، وتعود منها محملة ببضائع الأندلس ، يساعدها فى ذلك عملبة المد والجزر التى تبلغ فى نهر الوادى الكبير اثنين وسبعين ميلا ، وفى نهر يائه ستين ميلا . ولذلك ليس من الغريب أن نسمع أن حيوان السمور (حيوان صغير يشبه الأرنب) الذى يوجد على ساحل جليقية وعلى الساحل

(٢٤) آبن حبان ، برواية آبن خلدون ، المعبر ، ٤ ، ص ١٤٤ .

(٢٥) ابن حبان ، برواية المقرئ ، المسعودى نفسه ، ١ ، ص ٢٦٦ ، ٢٧٠ .

(٢٦) انظر الخريطة رقم ٣ .

الغربي للأندلس ، ويصنع من وبره فراء جميل رفيع في مصانع سرقسطة في أقصى الشمال الشرقي للأندلس ، كان من السهل على التجار أن ينقلوه عبر نهر دوبره حتى مدينة (لارا) قرب برغش ، ثم يسرون به الى مدينة تطيلة على نهر أبره ، ثم ينزلون مع النهر حتى مدينة سرقسطة ، فيصنع هناك ثم يصدر الى الأندلس وأسبانيا النصرانية (٢٧)

بالاضافة الى الطرق النهرية كانت هناك طرق برية كثيرة ، ونكتفى منها بما يربط قرطبة بممالك أسبانيا النصرانية في الشمال . وكانت هذه الطرق تقابل على وجه التقريب الطرق الرومانية التي كانت موجودة قبل الفتح الاسلامي للأندلس ، وأهمها طريق يبدأ من قرطبة الى طليطلة ، ثم يسير الى وادي الحجارة الى حوض نهر أبره ، ثم يتفرع الى طريقين ، أحدهما يسير بمحاذاة النهر مارا بقلهرة ونخرة حتى يبلونة عاصمة نبرة ، ثم يسير الى البة والقلاع (قشتالة) واشتريس . والفرع الثاني يسير جنوبا الى سرقسطة فلاردة حيث تنتهي اليه التجارة مع امارة برشلونة (٢٨).

والطريق الثاني يبدأ من قرطبة الى المعدن Maden الى قورية سلمنقة وسمورة ، ثم مواصل سيره داخل جليقية ، ويتفرع من هذا الطريق فرع آخر يبدأ من عند قورية ويتجه شرقا الى جبيرة فطليطلة ، ومنها الى سلمنقة حيث ينصل بالطريق الرئيسي مرة أخرى . وهناك طريق ثالث يبدأ من قرطبة وينزل جنوبا فيمر بغرناطة ثم يصعد شرقا بشمال ، فيمر بمرسبة فبلنسبة فطرطوشة فلاردة في أقصى شمال سرقسطة (٢٩) .

وهناك أيضا **الطرق البحرية** التي تربط ثغور الأندلس ومدنه الساحلية بثغور برشلونة في الشرق وجليقية في الغرب . فميناء المرية وقرطاجنة ولقنت

(٢٧) ابن سعيد ، بسط الارض ، ص ١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ألفرى ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٢٨) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٦ ، مؤلفس ، فجر الاندلس ، ص ٣٤٦ ، للجغرافية والجغرافيون ، ص ١٤ .

(٢٩) ابن حوقل ، المصدر نفسه ، ص ٤٦ ، مؤلفس ، الجغرافيون والجغرافيون ، ص ١٤ .

ودانية كانت تتصلّ بثغر برشلونة عاصمة امارة قطلونية بخط بحري ، وثغور اشبيلية ولبلة وشنترين تتصل بثغور مملكة جليقية ، مثل برتغال وبراجه وشانت ياقب أيضا بخط بحري كانت تصعد فيه السفن التجارية وقت السلم ، والسفن الحربية أيام القتال (٣٠) .

السكة :

وكان لا بد لهذا النشاط التجارى التوسع بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية من عملة يتم على اساسها التداول وعميلة البيع والشراء ، وقد تأثرت العملة التى صكها المسلمون الأوائل بالعملة المحلية التى وجدوها فى البلاد من حيث الشكل والنقوش ، ثم استقلت عنها شيئا فشيئا وصارت بعد ذلك اساس التعامل الاقتصادى على أرض شبه الجزيرة كلها ، كما هو الحال فى التعامل بالدولار أو الاسترلينى فى الوقت الحاضر .

نفى بداية عصر الولاة ، كان يكتب على العملة نصوص لاتينية اسلامية الطابع فى الفترة من عام ٩٦ الى ٩٧ هـ ، ثم تظهر اللغة اللاتينية مع العربية منذ عام ٩٨ هـ ، ثم اللغة العربية فقط منذ عام ١٠٢ هـ ، ويمكن أن نعزو ظهور اللغة العربية الى سبب سياسى ، وهو أنه بعد عام ٩٨ هـ ، أى بعد اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير وبعد نقل أيوب لمقر الحكم الى اشبيلية ، رأى ادخال اللغة العربية كرد فعل لسياسة التسامح التى كان يسير عليها عبد العزيز ، كما يمكن ارجاع اختفاء اللغة اللاتينية الى سبب سياسى أيضا ، ألا وهو قيام حركة المعارضة التى قام بها أمير اشتريس وجليقية فى هذا الوقت كما سبق القول (٣١) .

وقد قام أمراء بنى أمية (١٣٨ — ٣١٦ هـ) بضرب عملة ذهبية مشابهة لعملة أسلافهم فى بلاد الشام ، كما ضربوا أيضا الدراهم والفلوس ، وبذلك

(٣٠) انظر الخريطة رقم ٣٠ .

(٣١) Gullon, Los monayoges latino arabes, pp. 55- 62
Trois Mannois, p. 60.

كان نشاط دار السكة عظيمًا في قرطبة . وقد عثر على نقود من هذا العصر في منطقة استيا Estella في مملكة نبرة ، مما يدل على قيام تبادل تجاري في ذلك الوقت مع هذه الدولة ، وبصفة عامة فقد كان أثر النقود الإسلامية على أسبانيا المسيحية في تلك الفترة كبيرًا ، ولنا أن نؤكد أن الحياة الاقتصادية في الممالك النصرانية بأسبانيا لا سيما الشرقية منها كانت تقوم على أساس هذه النقود ، ومن المحتمل أنها كانت تصل إلى الشمال وتستعمل هناك بعد فترة قصيرة من ضربها في عاصمة الأندلس الإسلامية (٣١) .

أما في عهد الخلافة الأموية (٣١٦ — ٤٢٢ هـ) ، فقد كان ذلك العهد هو عهد الاستقلال السياسي والديني الكامل عن الشرق ، ولذلك قام الخليفة عبد الرحمن الناصر بضرب عملة ذهبية كان لها تأثير كبير على اقتصاديات أسبانيا المسيحية ، حتى أنه ورد ذكرها في بعض دساتير مملكة ليون تحت اسم Cathimi أو Kasimi نسبة إلى الدراهم القاسمية الأندلسية (٣٢) ، مما يدل على رواجها في أسبانيا النصرانية في تلك الفترة . وقد وصلت النقود التي ضربت في دار سكة مدينة سبته التابعة للأمويين في ذلك الوقت ، إلى إمارة قطلونية (برشلونة) ، وكان لها أثر كبير في الحياة الاقتصادية هناك ، مما تشهد به الوثائق القطلونية التي ترجع إلى ذلك العصر (٣٣) .

وفي عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ — ٤٨٤ هـ) ، لم يكن النشاط النقدي في الأندلس إلا امتدادًا له في عصر الخلافة ، وبقي النقد موحدًا باسم هشام المؤيد وإن كان ملوك الطوائف قد أضافوا أسماءهم أيضًا ، ورغم

(٣٢) Jaime Lluís, Observaciones sobre la amonedación legal de los musulmanes.

د. عبد الرحمن فهمي . دراسة لبعض النسخ الإسلامية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ٢٢ ، المجلد الأول ، عام ١٩٦٠ .

(٣٣) سميت الدراهم القاسمية بذلك نسبة إلى اسم عامل دار ضربها . انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٢ .

(٣٤) ابن الكريبوس ، الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، ص ٥٩ .

Jaime Lluís, op. cit., pp. 95 - 60.

ازدياد قوة أسبانيا النصرانية السياسية والعسكرية في تلك الفترة ، الا أنها ظلت تتعامل بالنقود الاسلامية ، وساعد على انتشار تلك العملة في ممالك أسبانيا النصرانية المختلفة ، أن تلك الممالك كانت تأخذ الجزية من دول الطوائف بتلك العملة ، وظلت تتعامل بها لفترة طويلة بعد زوال ذلك العصر . ولما عزم ملوك الأسبان على سك عملة خاصة بهم تسربت اليهم بعض الكلمات العربية الخاصة بعملية السكة ، مثل كلمة Ceda المأخوذة من الكلمة العربية (السكة) ، كما مضى الفونسو السادس على غرار أسلافه ، فكتب بالعربية على النقود التي سكها (٣٥) .

وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على أن الحضارة العربية في الأندلس قد فرضت نفسها على شبه الجزيرة كلها في عصر بنى أمية وعصر دول الطوائف ، وما زالت آثار ذلك باقية حتى الآن ، سواء في الخرائب المعمارية أم في المدن التي لا زالت باقية أم في قطع النقود والتحف الفنية التي تملأ متاحف أسبانيا ، أم في تلك الآثار الثقافية من كتب ومخطوطات تحمل الكثير من علوم الأندلس وآدابها وفنونها ، مما لا يمكن للجاحدين من الأسبان أن ينكروه مهما حاولوا ، ولو نظروا الى لغتهم التي يتكلمون بها اليوم ، لراوا أن حوالى ربع مفرداتها مأخوذة من اللغة العربية ، وهذا أنصع دليل وأقوى برهان على تفوق الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس على حضارة ممالك أسبانيا النصرانية في عصر بنى أمية وملوك الطوائف .

Jaime Lluís, op. cit., pp. 65 - 69.

(٣٥)

حتى ، تاريخ العرب (الطول) ، ٢ ، ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

خاتمة

بعد هذه الدراسة التى قمنا بها عن العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، نستطيع أن نقول بادية ذى بدء أن مقاومة الأسبان للفاطحيين لم تندحر بشكل نهائى ، بل أنها تقوّعت فى أقاصى الشمال الغربى للبلاد ، فى منطقة جليقية وأشتريس ، حيث قامت أول مملكة نصرانية عقب الفتح ببضع سنوات ، ممثلة فى حركة النبيل القوطى بلاى ، وصمدت لهجمات المسلمين فى عصر الولاة حتى التقطت أنفاسها ، وانتهزت الفرقة والصراع القبلى فى ذلك العصر وتمكنت من طرد المسلمين من الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة ، وخسر المسلمون ربع ما فتحوه ولم يكن قد مضى على الفتح أكثر من أربعين عاما .

ونستنتج من ذلك أن العرب لم يعوا الأسباب التى أدت الى سقوط إسبانيا فى أيديهم ، ونسوا أن ذلك لم يكن الا بسبب تنازع أمرائها وملوكها وانشقاقهم وتحالفهم مع أعداء بلادهم ضد بعضهم البعض . وبذلك دلّ الرب على قصر نظر سياسى واضح ، وانغمسوا فى الصراعات الحزبية والقبلية ، حتى مكّنوا للمقاومة النصرانية أن تنشئ دولا تقتسم معهم شبه الجزيرة ، وتعمل على استرداد الأندلس من يد المسلمين مرة أخرى .

وشارت الحروب والصراعات بين الطرفين أجيالا وقرونا ، لكن حكام الأندلس لم يكن هدفهم من حروبهم مع نصارى الأسبان ، هو القضاء عليهم ، وإنما كان هدفهم هو تأمين حدودهم وفرض السلام بالقوة أمام تلك المقاومة المسلحة لنصارى الشمال ، حتى تنتهى الظروف البناء والعمران والتقدم الحضارى . ولم يكن يدفع نصارى الشمال على الهجوم على مسلمى الأندلس الا حالة الفقر التى كانوا يعيشونها ، فكان بعضهم يأتى الى الأندلس للعمل فى إدارتها والخدمة فى مشروعاتها وفى جيشها ، ومن لم تأت منهم ، كان يقوم بالاغارة على الحدود بهدف النهب والسلب . وكانت هذه هى الصفة البارزة لحروبهم أيام الامارة الأموية .

وفي عهد الخلافة الأموية ، حاول عبد الرحمن الناصر ومن أتى بعده من حكام القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، أن يردعوا الممالك النصرانية التي نشأت في الشمال الأسباني ، ونجح هؤلاء الحكام في ذل كل النجاح ، وصارت شبه الجزيرة الأسبانية تحت سيطرتهم وحققوا الوحدة بين دولها . ومع ذلك لم يتغير هدف الجهاد ضد نصارى الشمال الأسباني في فترة الخلافة عنه في فترة الإمارة إلا في أن الخلافة كانت حملاتها أقوى وأعنف ، وأشد تأثيرا وأوضح نتيجة من حملات الإمارة .

وقد نبتت حملات الخلافة القوية المتتابعة على شمال أسبانيا نصارى أوربا إلى خطورة هذه الدولة الإسلامية ، فحاولوا التصدي لها من جديد كما حدث أيام شارل مارتل وشرلمان ، وانتهزوا فرصة الحرب الأهلية التي بدأت عقب سقوط دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ وجعلوا نصارى شمال أسبانيا رأس الحربة أو رأس جسر ، وتتابعت الغزوات الصليبية . وكان أولها ما قامت به البابوية وفرسان الفرنجة والأسبان من نصفية للسيطرة الإسلامية على جزيرة سردينية عام ٤٠٦ هـ ، ثم حملتهم البشعة المدمرة على بربشتر عام ٤٥٦ هـ ، ثم مساعدتهم لأذنفش (الفونسو) السادس في الاستيلاء على طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، ثم مساندتهم له بعد هزيمته في الزلاقة في العام التالي ، وتحريم الخروج لنصارى الأسبان للاشتراك في الحروب الصليبية في المشرق إلا بعد الانتهاء من الحرب الصليبية في الأندلس .

ونستنتج من ذلك أن الحروب الصليبية إنما نشأت أول ما نشأت على أرض شبه الجزيرة الأسبانية ، ابتداء من حملة سردينية ومرورا بحملة بربشتر ، وانتهاء بسقوط طليطلة في يد الفونسو السادس . وعلى هذا فإن الحرب بين مسلمى الأندلس ونصارى الأسبان ، إنما أخذت الصفة الصليبية ابتداء من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وسبقت في ذلك الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي بحوالى قرن كامل .

ورغم هذه الحروب المطردة ، كانت العلاقات السلمية بين مسلمى الأندلس ونصارى الأسبان ، تتدفق عبر قنوات الاتصال التي أشرنا إليها في الباب الرابع ، وكان هذا أمرا طبيعيا ، إذ لم تكن هناك حدود طبيعية

فاصلة وكانت الحدود في شد وجذب ، في ارتفاع وانخفاض . كان مسلمو اليوم يصيرون نصارى في الغد ، وكانت الأرض التي تتبع السيادة الإسلامية الآن ، تصير تحت سيادة نصارى الشمال غدا ، ويحدث العكس ، يأخذ المسلمون أرضا من ممالك الشمال ، ويحدث الاختلاط والتداخل بين الشعبين ، حتى توحدت أساليب الحياة بينهما الى حد كبير ، وحتى رأينا أن ملوكهم يلبسون الملابس العربية ، ويطلبون مؤدبين مسلمين من قرطبة لأولادهم ، وبستعينون بالمهندسين والأطباء والعمال والحرفيين من مسلمى الأندلس . وكانت النتيجة ان انتشرت حضارة الاسلام في الممالك النصرانية في اسبانيا ، تم عبرتها الى أوربا حيث بددت ظلمات الجهالة التي كانت تعيش فيها تلك البلاد في ذلك الحين ، وساعدت على نشأة الحضارة الأوربية في العصور الحديثة .

لم يكن مسلمو الأندلس مخربين مدمرين في حروبهم لنصارى الشمال الأسباني بالصورة البشعة التي صورهم بها بعض المستشرقين أو بعض المفرضين ، فلم يكن هدفهم هو التخريب ، وانما القمع وارغام سكان اسبانيا النصرانية على التزام حسن الجوار ، يؤيد ذلك أن أكثر حكام الأندلس غزوا ، وهو المنصور محمد بن أبى عامر ، قد اعترف في أخريات أيامه بخطئه في تعمير بلاد الشمال الأسباني وشحنها بالمؤن ، ووصلها ببلاد المسلمين ، وعدم تخريب مسافة كافية منها لتكون فاصلا بين الأعداء وبين بلاده ، حتى لا يفاجأ قومه من المسلمين بهجوم النصارى عليهم ذات يوم دون أن يأخذوا حذرهم ، بسبب ملاصقتهم لهم على النحو الذي أشار اليه المنصور .

وبذلك ينتفى كلام ابن خلدون الذي راعه ما فعله عرب الهلالية بتونس ، ووصف العرب بأنهم قوم مخربون ، لا يدخلون بلدا الا ويطمسون فيه معالم الحضارة بسبب طبيعتهم البدوية . فقد ترك العرب في الأندلس حضارة ما زالت آثارها تشهد لهم حتى اليوم ، ويكفى أن أوربا لم تنهل من حضارة أكثر مما نهلت من الحضارة العربية في الأندلس .

ومما أثر في علاقات مسلمى الأندلس بأسبانيا النصرانية وأضعفت الجبهة الإسلامية ، خصومة العباسيين والفاطميين للأمويين في الأندلس .

فعندما كانت تلك البلاد تابعة للخلافة الأموية في المشرق ، استطاع ولايتها أن يصلوا في فتوحاتهم حتى قرب باريس . أما في عهد بنى أمية الذين استقلوا بالأندلس عن الخلافة العباسية ثم أخذوا يتصارعون معها ومع الخلافة الفاطمية على أرض المغرب الأقصى ، فقد شغلهم هذا عن تأمين دولتهم الإسلامية الناشئة في تلك البلاد النائية ، أي في الأندلس ، ضد تلك الشوكة التي أصبحت ذات شعب وما تفرع عنها من دول في شمال إسبانيا أخذت تقف للمسلمين بالمرصاد .

ولو أمن العباسيون والفاطيون ظهور أموي الأندلس ، لكان لصراع هؤلاء مع أعدائهم من الأسبان شأن آخر ، ولتغير مصير البلاد عما انتهى إليه بكل تأكيد . لكن الصراع بين الخلافتين الثلاث ، العباسية والفاطمية والأموية ، جاء بتلك النتيجة المحزنة ، وهي ضياع الأندلس في النهاية ، وانحسار المد الإسلامي وعودته مهزوما إلى شمال إفريقيا من جديد .

كما ساهمت الصراعات المقيمة بين ملوك الطوائف في إضعاف البلاد ووقوعها لقمة سائغة في يد نصارى الشمال الأسباني . وقد كان بين هؤلاء النصاري ، صراعات وانقسامات لا تقل عنفا عما كان موجودا بين ملوك الطوائف ، لكنها اختلفت في طبيعتها ونتائجها وهدفها . إذ أنها كانت صراعات أسرية تقوم بين أفراد الأسرة المالكة على السلطان ، وما أن يستقر أقواهم على العرش حتى تتوحد البلاد ونستقر الأمور ، ويقوم الجميع لاستئناف الكفاح ضد مسلمي الأندلس من جديد .

وكان هذا هو الهدف النهائي من الصراع الداخلي بين ملوك الأسبان في تلك الفترة . أما ملوك الطوائف ، فقد كان صراعهم من لون آخر ، إذ أن شهوة الحكم استولت عليهم جميعا ، وصار بعضهم يرتقى العرش على أسنة رماح الأسبان أو الفرنجة ولا يستمرون في حكمهم إلا بتأييد من هؤلاء ، يدفعون لهم الجزية ويقررون لهم بالطاعة . وهكذا كانت بداية النهاية في ضياع البلاد . وكان أول ما ضاع في عهدهم هي مملكة طليطلة الإسلامية ، عاصمة القوط القدامى والعاصمة الدينية والسياسية لإسبانيا قبل الفتح الإسلامي لها ، وبذلك فقد المسلمون نصف شبه الجزيرة .

ومما وصلنا اليه أيضا من نتائج أن أهل الذمة في الأندلس سواء كانوا من النصارى أم اليهود ، لم يكونوا مخلصين للحكم الإسلامى لتلك البلاد ، رغم السماحة الدينية التى امتاز بها عصر بنى أمية ، ورغم الثروات الهائلة التى كونوها فى عهدهم ، ورغم النفوذ الهائل الذى وصل اليه كثير منهم ، حتى أنهم وصلوا الى مراتب الوزارة والكتابة وقيادة الجيوش والعمل فى القصور الخلافية ، والقيام بوظيفة الحرس الخاص للأمراء والخلفاء .

فقد زرع النصارى من أهل الذمة الحقد فى نفوس الأسبان المسلمين الذين يعرفون بالمولدين ، وكانوا عوناً لهم فى إثارة القلاقل والفتن والثورات لناهضة حكم المسلمين للبلاد ، وقاموا بفتنة دينية طائفية فى قرطبة أيام أمراء بنى أمية ، تعرف بحركة الاستشهاد المسيحية ، لاثارة النصارى فى كل مكان ضد مسلمى الأندلس ، وكانوا دائمي الاتصال بممالك أسبانيا النصرانية وبالقرى النصرانية فى البلاد الأخرى ، لاستعدادها على مسلمى الأندلس ، وتسهيل الطريق أمامهم لاستعادة البلاد من أيديهم .

أما يهود الأندلس ، فرغم العلاقات الحسنة التى كانت تربطهم بالمسلمين هناك ، ورغم تمتعهم بأكثر مما تمتع به نصارى الأندلس من امتيازات ، إلا أنهم تأمروا على سادتهم من الحكام المسلمين ، وحاول بعضهم إقامة دولة منفصلة لهم فى جنوبى البلاد ، لولا بطش المسلمين بهم والقضاء على مشروعاتهم . ولما رأى اليهود بشاغب فكرهم أن ميزان القوى أصبح فى صالح نصارى الشمال الأسبانى فى عصر ملوك الطوائف خدموا عندهم وعملوا لهم سفراء ووزراء ، ودلوهم على عورات المسلمين وانقلبوا عليهم . وكان اليهود دائما يمشون فى ركاب من غلب ، لتأمين مصالحهم وخدمة أهدافهم .

كذلك كانت العناصر الأجنبية أنتى استعان بها حكام الأندلس والتى تتمثل فى البربر والصقالبة ، من الأسباب الرئيسية فى اضعاف الحكم الإسلامى فى البلاد . ذلك أن هذين العنصرين كانا يعملان أيضا لمصلحتهما الخاصة ، وظهر ذلك بشكل واضح أيام ضعف الأمراء والخلفاء من بنى أمية ، وفى عصر ملوك الطوائف بالذات ، وكانوا بذلك معول هدم فى غالب

الأيام . صحيح أنهم ساعدوا الاماره والخلافة في تنفيذ مشروعاتها الحربية ضد نصارى الشمال الأسباني ، لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على هؤلاء النصاري ولم يجتثوا الخطر من جذوره ، بل أنهم تحالفوا معهم في بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى لضرب الخلفاء الأواخر بعضهم ببعض ، حتى يقتسموا البلاد فيما بينهم ، وساعدوا بذلك على اضعاف البلاد وخضوعها لأسبانيا النصرانية .

وقد أدت الكراهية المترسبة بين العرب والبربر الصقالبة وبين العرب وبين مسلمى الأسبان المعروفين بالمولدين ، وبين المسلمين وبين النصارى من أهل الذمة ، الى أن القوى الاجتماعية التى كان يستند اليها الأمويون ، كانت مكسكة وضعيفة ، بسبب الأحقاد التى تراكت جيلا بعد جيل بين فئات الشعب والجيش المختلفة ، والتى تنخر فى جسد الدولة ، كما ينخر السوس فى الحطب . وهذا هو السر فى ذلك الانهيار السريع الذى أصاب دولة بنى أمية وبشكل فجائى ، عقب عصر ازدهار وقوة لم يشهد له البلاد مثيلا من قبل . وبذلك فإن انهيارها كان من الداخل ، ولم يكن بسبب عوامل خارجية كتهديد جيرانها أو غزوهم لها ، إذ أنها كانت أقوى منهم ، وكانت قد أخضعتهم لسلطانها ، سواء فى الشمال الأسباني أم فى الشمال الأفريقى .

وكان اسراف بنى أمية وبنى عامر فى مشروعاتهم الحربية والعمرانية من العوامل التى أثرت فى علاقاتهم مع نصارى الأسبان وأدت الى انهيار دولتهم فى النهاية . وقد قام بعض الفقهاء بدق ناقوس الخطر للتحذير من هذا الاسراف ، لكن حكام ذلك العصر لم يلتفتوا الى ذلك ، وقاموا ببناء مدن وقصور ارضاء لحظية من الحظايا أو تخليدا لاسم محبوب ، كما استنفذت حروبهم العديدة المستمرة فى أسبانيا وفى شمال افريقيا معظم دخل الدولة وأجهدت قواها ، وترتب على ذلك نتيجة فى منتهى الخطورة . ذلك أنه فى عصر ملوك الطوائف ، كان لا يمكن لهؤلاء الملوك أن يحصلوا على مثل تلك الأموال الطائلة للقيام بمشروعات حربية مماثلة ضد نصارى الشمال الأسباني ، بسبب نفنت البلاد وتعدد الخزائن التى تجبى اليها الأموال ، بتعدد الملوك والحكام . ومن هنا أتى العجز الشامل الدائم والضعف المستمر أمام القوى النصرانية الناهضة فى قشتالة وليون ونبرة وأرغونة وبرشلونة .

وهذا الضعف الاقتصادي والعجز المالى يفسر لنا سرا من أسرار سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م .

وأخيرا فان دراسة العلاقات بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية كشفت لنا نواحى الضعف والقوة فى دول شبه الجزيرة ، ووضعت يدنا على هذه النتائج التى أشرنا إليها حتى الآن ، وكانت فى ذلك كالمرآة التى رأينا فيها مجتمع شبه الجزيرة سواء كان مسلما أم نصرانيا على حقيقته ، وكشفت لنا عن سر أفراحه وأتراحه ، وعن فترات سلمه وهوائه ، وفترات صراعه وآلامه . وكان السر فى ذلك كله ، هو وحدة الجبهة الداخلية ، فإذا نواجذت ، كان النجاح والتوفيق والقوة فى العلاقات مع دول أسبانيا النصرانية ، وإذا غابت ، كان الفشل والاحباط والذلة والمهانة القومية .

كانت الجبهة الداخلية موحدة فى عهد معظم أمراء بنى أمية وخلفائهم ، فكان النصر للمسلمين على أعدائهم من نصارى الأسبان . وكانت الجبهة الداخلية مفتتة فى عهد ملوك الطوائف ، فكانت الهزيمة والخسران للمسلمين ، وتحققت فيهم نبوءة أحد ملوك الفرنجة حينما أشار على مسيحيى الشمال الأسباني بأن يترثوا فى مقاومة المسلمين ويتركوهم حتى « تمتلىء أيديهم بالغنائم ويننافسوا فى الرياسة » ، حينئذ يتمكن المسيحيون منهم ، وهذا ما حدث بالضبط منذ بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، حينما تنافس الحكام المسلمون على الرياسة والسلطان . وكان سقوط طليطلة فى يد القوى النصرانية عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، هو بداية النهاية للمسلمين فى الأندلس ، تلك النهاية التى تأخرت طويلا ، بسبب جهود المرابطين والموحدين ، لكنها أتت وعادت الأندلس الى النصرانية من جديد .

ملاحق البحث

ملحق رقم (١)

وصف استقبال الحكم المستنصر لأحد ملوك ليون (جليقية) (١)

ورد هذا الوصف عند المقرئ وهو يبين الى أى مدى وصلت الخلافة الأموية ومدى الضعف الذى وصلت اليه ممالك أسبانيا النصرانية ، حتى أن ملوكها لجأوا الى الخلافة يستصرخونها ضد بعضهم البعض ، كما يبين أيضا المراسيم الدبلوماسية فى استقبال الملوك والأمراء والسفراء التى شاعت فى هذا العصر . واليك نص وصف استقبال الحكم المستنصر لأحد ملوك ليون كما ورد عند المقرئ :

فى آخر صفر سنة احدى وخمسين وثلاثمائة ، أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله مولايه محمدا وزيدا ابنى افلح الناصرى ، فى كتية من الحشم والخدم ، لتلقى غالب الناصرى ، صاحب مدينة سالم ، المورد للطاغية اردون ابن ادفونس (اردونيون بن الفونسو) الخبيث فى الدولة ، المتكلم على طوائف من أمم الجلالقة ، والمنازع لابن عمه الملك قبله شانجة بن ردمير (سانشو بن راميرو) وتبرع هذا اللعين اردون بالمسير الى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير طالب اذن ، ولا مستظهر بعهد ، وذلك عند ما بلغه من اعتزام المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو اليه ، وأخذه فى التاهب له .

فأحتال فى تأميل المستنصر بالله ، والانتماء اليه وخرج قبل امان يعتقد له ، أو ذمة تعصمه ، فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، تكلمهم غالب الناصرى الذى خرج اليه ، فجاء بهم نحو مولاة الحكم ،

(١) المقرئ : أزمار لرياقص ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٤ .

وتلقاهم ابنا افلح بالجيش المذكور ، فأنزلاهم ، ثم تحركا بهم ثانی يوم نزولهم الى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله اليهم هشام بن محمد بن عثمان المصحفي ، في جيش عظيم كامل التعيين ، وقدموا الى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها . فلما انتهى أردون الى ما بين السدة وباب الجنان ، سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله ، فأشر الى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قلنسوته وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم رد قلنسوته الى رأسه .

وأمر المستنصر با نزال أردون في دار الناعورة ، وقد كان تقدم فرشها بأنواع الغطاء والوطاء وانتهى من ذلك الى الغاية ، ويوسع له في الكرامة ولأصحابه ، فأقام الخميس والجمعة ، فلما كان يوم السبت ، تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه ، بعد اقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح ، وقعد الاخوة وبنوهم ، والوزراء ونظرائهم صفا في المجلس ، فيهم القاضى منذر بن سعيد ، والحكام والفقهاء ، فأتى محمد بن القاسم بن طملىس بالملك أردون وأصحابه ، وعلى لبوسه ثوب ديباجي رومي أبيض ، ولبلىوال من جنسه وفي لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر ، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس ، يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرها .

فدخل بين صفى الترتيب ، يقلب الطرف في نظم الصفوف ويجيل النظر في كثرتها وتظاهر أسلحتها ، ورائق حليتها ، فراعهم ما أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسى رؤوسهم ، غاضين من جفونهم ، قد سكرت أبصارهم ، حتى وصلوا الى باب الأقباء ، أول باب قصر الزهراء ، فترجل جميع من كان خرج الى لقائه . ونقدم الملك أردون وخاصة قوامسه (اى امرائه) ، على دوابهم ، حتى انتهوا الى باب السدة ، فأمر القواميس بالترجل هناك ، والمثنى على الأقدام ، فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طملىس ، فأنزل في برطل (٢) البهو الأوسط من الأبهاء

(٢) برطل ، كلمة إسبانية ومعناها سقفه عند باب البيت ، اى في أجدى جوالقه

للقناى ، ولا نزال نسمع في المغرب ، راجع نكمله المعجم العربية لحوزى ، ص ٢٧٥ .

القبلية ، التي بدار الجند على كرسى مرتفع مكسو الأوصال . بالفضل .
وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شائجة بن رادير الوافد على
الناصر لدين الله رحمه الله تعالى .

فقمعد أردون على الكرسى ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج الاذن
لأردون الملك من المستنصر بالله ، بالدخول عليه ، فقدم يمشى وأصحابه
يتبعونه الى أن وصل الى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه
المستنصر بالله ، وقف وكشف رأسه ، وخلع برنسه ، وبقي حاسرا اعظاما
لما بان له من الدنو الى السرير ، واستنهض ، فمضى بين الصفيين المرتبين
في ساحة القصر الى أن قطع السطح وانتهى الى باب البهو ، فلما قابل
السرير ، خر ساجدا سويعة ، ثم استوى قائما ثم نهض خطوات ، وعاد
الى السجود ، ووالى ذلك مرارا ، الى أن قدم بين يدي الخليفة وأهوى
الى يده فناوله اياها ، وكر راجعا منتهقا على عقبه ، الى وساد ديباج
مثقل بالذهب ، جعل له هناك ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ،
فجلسن عليه والبهرقد علاه .

وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأبياعه ، فدنوا مهتلين فعله
في تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده ، فقبلوها وانصرفوا مقهقرين ،
فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضي النصارى
بقرطبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم وأطرق الخليفة الحكم
عن تكليم الملك أردون اثر قعوده أمامه وقتا ريثما يفرغ روعه ، فلما رأى
أن خفف عليه ، افتتح تكليمه ، فقال : « ليسرك اقبالك ويغبطك تأميك
فلدينا لك من حسن رأينا فوق ما قد طلبته » . « فلما ترجم له كلامه اياه ،
تطلق وجه أردون وانحط عن رتبته فقبل البساط ، وقال : « أنا عبد أمير
المؤمنين مولاي ، المتورك على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم في نفسه
ورجاله ، فحيث وضعنى من فضله ، وعوضنى من خدمته ، روجت أن
أتقدم فيه بنبة صادقة ونصيحة خالصة » .

فقال له الخليفة « أنت عندنا بمحل من يستحقه حسن رأينا ويناالك
من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على أهل ملتك ، ما يغبطك ، وتتعرف به

فضل جنوحك إلينا ، واستظلالك بظل سلطاننا » ، فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقال الخليفة وابتهل داعيا وقال « أن شانجه بن عمى يقدم إلى الخليفة الماضي مسنجيرا به منى ، فكان من اعزازه إياه بما يكون من مثله من أعظم الملوك ، وأكارم الخلفاء ، لمن قصدهم وأملهم ، وكان قصده قصد مضطر . فقد تنأه رعبته ، وأنكرت سيره ، وأخارتنى مكانه ، من غير نسمى منى — علم الله ذلك — ولا دعاء إليه ، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا . فتطاول عليه رحمه الله بأن صرفه إلى ملكه وقوى سلطانه وأعر نصره . ومع ذلك فلم يقيم بفرض النعمة التى أسديت إليه ، وقصر فى أداء الفروض عليه وحقه وحق أمير المؤمنين مولاي من بعده . وأنا قد صدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة ، من قرارة سلطاني وموضع احكامي ، محكما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى ومن تحويه من رعيتي ، فثبتان ما بيننا من قوة الثقة ، ومطرح الهمة » .

فقال الخليفة « قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك . وسوف يظهر من اقراضنا إياك على الخصوصية فوق شأنه ، ويترادف من احساننا إليك به اضعاف ما كان من أبينا رضى الله عنه إلى نذك ، وان كان له فضل التقيم بالجنوح إلينا ، والقصد إلى سلطاننا ، فلبس ذلك مما يؤخر عن نفسه ، ولا ينقصك مما أئلفناه وسنصرفك مغبوطا إلى بلدك ، ونشد أواخى ملكك ، ونملك جميع من انحاش إليك من أمتك ، ونعتقد لك بذلك كتابا يكون بصدق ، نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ونقبضه عن كل ما صرفه من البلاد إلى يدك ، وسيرادف عليك من أفضالنا فوق ما احتسبته . والله على ما نقول وكيل » .

فكرر أردون الخضوع وأسهب فى الشكر وقام للانصراف متهقرا ، لا يولى الخليفة ظهره ، وقد تكلفه الحفدة من جلة الفتيان ، فأخرجه إلى المجلس الغربى فى السطح وقد علاه البهر وأذهله الروع ، من هول ما باشره وجلالة ما عاينه ، من فخامة الخليفة وبهاء العزة . فلما دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالبا منه ، انحط ساجدا اعظاما له ، ثم تقدم الفتيان به إلى البهو الذى بجوفى هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مائل بالذهب وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام

اليه ، وخضع له وأومأ الى سبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانحنى اليه فعانقه ، وجلس معه فغبطه ، ووعدته بانجاز عدات (وعود) الخليفة له بما ضاعف سروره ، سم أمر الحاجب جعفر فحسبت عليه الخلع الى أمر بها الخليفة ، وكانت دراعه مسسوجة بالذهب ، وبرنسا مثلها ، له لوزة مفرغة من حالص الدبر . مرصعه بالجواهر والياقوت ، ملات عين العلق تجله ، فخر ساجدا وأعلن بالدعاء .

سم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فكل ذلك بحسب ما يصلح لهم وخر جمعهم خاضعين شاكرين ، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه . وقدم لركابه في أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب ، عليه سرج جلى ، ولجام حلى ممرغ وانصرف مع ابن طملس الى قصر الرصافه مكان نضيفه ، وقد أعد له نبيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والعرش والماعور . واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعه التضييف وأرغاد المعاش ، واستنشر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الاسلام فيه ما أفاضوا في التبجج به ، والنحدث عنه أنما .

وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حسان ، وانشادات لأشعار محكمة منان ، بطول القول في اختيارها .

ملحق رقم (٢)

الدعوة للوحدة وعدم الاستعانة بالنصارى (١)

هذه رسالة من أحد ملوك الطوائف في بداية القرن الخامس الهجري ، جاءت على لسان كاسيه أبى عبد الله البزليانى الى صاحبى شاطبة (٢) مدعوها فيها الى السلم وترك الخلاف والصراع مع المظفر أبى محمد ، ذلك الصراع الذى أدى بهما الى الاستعانة بنصارى الشمال الأسبانى . . والرسالة تبين خطر هذا الاتجاه ، كما يصف حالة البلاد فى ذلك الوقت ، فهى رسالة هامة ، وهاك نصها :

« كنبت يا سيدي ، ومشارب الآمال قد تكدرت ، ووجوه المحاسن قد تغيرت ، وأيدى النوازر (٣) قد قصرت ، وسبيل التناصر قد نوعرت الا أن يتلافى الله الخلل بسديد نظركما وبنعش الأمل بحميد أثركما ، فينظم الشمل ويصل الحبل ، ويسد الثلم ويشد الحزم ويرفع المنفروق ، ويجمع المنفروق ، ويضع الأصر ، ويرفع الوزر ، ويعيد الكلمة منفتحة ، والأمة متسقة والأبدى منأيدة ، والنفوس متوددة والأهواء متعاضدة ، والأنحاء واحدة والدماء محقونة والعاقبة مأمونة ، والله تعالى بعين كلا على الصلاح ويفضى بنا الى النجاح بعزته .

واتصل بى ما وقع بينكما وبين المظفر أبى محمد من التنازع الذى أخاف أن يفضى بكم الى التقاطع ، وورد على كتابكما الكريم فى ذلك مما برقبت انعدام أجله ونظرت (٤) انحسام علله ، حتى خشيت أن يتمادى بكم اللجاج ، ويتعاصى (٥) فى أموركم الصلاح ، وأشفقت من اذلال الشيطان

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ٢ ، ص ٤٥٤ - ٤٥٦ .

(٢) صاحبى شاطبة هما مبارك ومظفر العامرين .

(٣) للتوازر : السائر .

(٤) سفلرت . انتظرت

(٥) يتعاصى . يستعصى .

دخائله . واطلال الخزلاں بحبائله ، فيقرع الكلال سنه من الندم ، وينطوى
الحران على بده من الالم . وحالى با سبدي فى الأخذ من احوالكما بأوفر
نصيب ، والفرع فى أموركما بأكثر ذنوب ، حال من أعدكما لحوادث الزمن
وكوارث المحن . واعتقد كمال العده الكامنة والمعصمة الواقية فيما استنر
وعان . وطهر وبطن ، فلم ار نفسى فى سعه من اهمال التذكرة واغفال
البصيرة . والله بعد الكل من السنات والتمات ويعيدكم الى المواساة
والمواساة .

ولم يحب عليكم ما فى صلاح ذات البين من الموز بخير الدارين وأمن
المعاد وحصب البلاد واعرار الدين واذلال القاسطين وتوهمين المشركين ،
وتزود العضد ووهور العدد ، ودعة الأحسام والدعة من الآتام وستتر
العورات وحفظ الحرمات والانتهاء الى حدود الله والازدجار بزجره والنأدب
بأدبه والائتمار بأمره . فانه يقول عز من قائل « فائقوا الله وأصلحوا ذات
بينكم » وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » (٦) . وقال « واعتصموا
بحبل الله جميعا ولا يفرقوا » (٧) وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقاطعوا
ولا يحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وعلى طاعته أعوانا » .

وقد علم أنه لم يهلك من هلك من الأمم الماضية والقرون الخالية
الا بتقاطعهم وتحاسدهم وتدابروهم وتخادلهم ، وأن اللجاج مطبة الجهل ،
والهوى آفة العقل ، والحمية من أسباب الجاهلية والعصبية من العفجية ،
والحرب مشتقة المعنى من الحرب ، مع ظنك المنقلب وكأنة المنقلب . نيتهم
الأطفال وتلتهم الرجال . سوق لا ينفق حاضرها غير النفوس والأرواح ،
وشرب بنعاطون المنسابا يظبا السوف واطراف الرماح ، مصرعهم دائر
وصارعهم خاسر ، وماضهم نادم وباقيهم واهم .

والذى يحملون من أوزارهم وأوزار مع أورارهم ، ويحتقبون من
أعمارهم ، تسلط النصارى على المسلمين ، وعبثهم فى بلادهم بقتلوا

(٦) سورة الأنفال ، آية رقم ١ .

(٧) سورة آل عمران . آية ١٠٣ .

ويأسرون ، فالأموال مستهلكة ، والحرمان منتهكة والدماء مهراقة ، والنساء مستاقاة ، وعقد الدين مفسوخ ، وعهد الاسلام منسوخ ، والكفر عال على الايمان ، والسوء غالب على الاحسان ، فقد بلغنى أن مذهبكم الاستجاشة بالنصارى الى بلاد المسلمين ، يطئون ديارهم ويعفون آثارهم ويجتاحون أموالهم ، ويسفكون دماءهم ، ويستعبدون أبناءهم ويستخدمون نساءهم .
وان نفذ هذا — واعوذ بالله — نهى حال مؤذن بالذهاب ، وجريرة تؤذن بالخراب ، ولم نأمن أن يظهر لهم من الخلل في بلادنا والقللة في أعدادنا ، ما يجرتهم علينا ويجرهم إلينا ، بما لا نقدر على مكائثرهم فيه ، ولا نقوى على مصابرتهم به ، فتلك الواقعة النى لا بنتعش عثورها والقارعة التى لا ينجبر كسرهما .

ولم أجد يا سبدي وعدنى دواء أنجع ولا سعيًا أنفع ، من صلة يدي بيد الفتى الكبير فلان ، فى توسطه هذه الأحوال بينكم ، والنائى لاصلاح ما فسد منها عليكم ، ولم نأف (٨) سببًا الى كشف هذه الغايات وفتح هذه المبهمات ، أقوى فى النجاح وأهدى الى الصلاح من بعث اعلام بلادنا ووجوه رجالنا .

(٨) لعلها : نلحق .

ملحق رقم (٣)

رسالة الفونش السادس الى المعتمد بن عباد

قبل موقعة الزلاقة (١) عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م

هى رسالة هامة أرسلها الفونش السادس ملك قشتالة وليون وأقوى ملوك أسبانيا النصرانية الى المعتمد بن عباد ملك اشبيلية . واهمية هذه الرسالة تكمن فى اشارتها الى خيانة المعتمد وتواطئه مع الفونش السادس فى استيلائه على طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م من يد بنى ذى النون . وهاك نص الرسالة :

من الأنبيطور ذى الملتين : الملك الفضل الأدفنش ابن شانجة الى المعتمد بالله ، سدد الله رأيه وبصره مقاصد الرشاد وسلام عليك من مشيد شرفه الفنى وثبت فى المنى فاهتز اهتزاز الرمح بعامله والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها ، وما صار بأهلها حين حاصرها بما صار فى هذه السنين . فأسلمتم اخوانكم وعطلتكم بالرعاية زمانكم ، والحذر من أنقذ الله قبل الوقوع فى الحباله ، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ زمانه ونسعى بزور الوفاء أمامه لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورايده ، ووصل رسول العدو وارده ، لكن انذار يقطع الاعذار ، ولا يجعل الأمر خوف الفوت فيما يرومه ، أو خشى العاقبة على من يسومه ، وقد حملنا الرسالة اليك القرمط البرهانس وعنده من النجريد الذى يلقى به أمثالك والعقل الذى بدبر به بلادك ورجالك ، فيها وجب استنابته فيما يدق ويجل ، وفيما يعلم لا فيما حل ، وأنت عندما نأى به من ورائك والنظر بعد هذا من ورائك والسلام عليك مسمى منك وبين يدبك .

(١) ابن الخطيب ، الحل الموسية ص ٢٢ - ٢٣ .

رد المعتمد بن عباد على رسالة الفوننش السادس (٢)

ولما وصلت رسالة الفوننش السادس المشسار اليها الى المعتمد بن عباد ، كتب الرد عليه بخطه فيها بلى :

« من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتمد بالله
أبى عمر بن عباد الى الطاغية الباغية ادفوننش بن شانجة الذى لقب نفسه
بملك الملوك وسماها بذى الملنن . قطع الله بدعواه سلام على من اسع
الهدى . (أما بعد) ، فانه أول ما نبدأ به من دعواه أنه ذو الملنن
والمسلمون أحق بهذا الاسم ، لأن الذى يملك من أمصار البلاد وعظيم
الاسعداد ومحبى المهلكة ، لا نبغله قدرتكم ، ولا نعرفه ملككم ، وانما كانت
سنة أبقت منها منادبكم ، وأغفل عن النظر السديد فركبنا مركبا عجز نسخه
الكس وعاطيناك دمة كؤوس قلت فى أنثائها ليس مباديك تعلم أنا فى العدد
العديد والنظر السديد .

ولدينا من كمات الفرسان وحبل الانسان وحماة الشجعان يوم بلنقى
الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر وكرهوا الفقر ، نسيل نفوسهم على حد
الشفار ، وتناهم السهام فى القفار ، يديرون رحى الفنون بحركة العزائم ،
ويشفون عن خطب الجنون بخوانم العزائم ، ولما تستجبر (٣) أن تأمر بإسلام
البلاد فى ارجالك ، وانا لنعجب من استعجالك برأى لم تحكم انجازه ،
ولا حسن انتخانه ، واعجابك بصنع رافقك فيه الأقدار ، واغتررت بنفسك
أسوأ اغترار ، قد أعدوا لك ولقومك جلادا أزلية الاتفاق ، وشفارا حدادا
شحده (٤) الاصفاق ، وقد يأنى المحبوب من المكروه ، والندم من
الشهورة (٥) . نبهت من غفلة طال زمانها ، وايقظت من نومة عاد ايمانها .

(٢) ابن الخطيب ، الحل ، ص ٢٣ - ٢٥ .

(٣) نتحسرا .

(٤) لعلها : شديدة .

(٥) لعلها . التهسور .

ومتى كان لأسلافك الأقدمين مع أسلافك الأكرمين بد صامدة أو رفلة
بمساعدة الأذل نعلم مقداره وتحقق شساره ، والذي جرك على طلب
ما لا يدركه ، قوم كالهمر لا يقابلونكم جميعا الا في قرى محصنة أو من وراء
جدر ، ظن العاقل نعقل ، والدول لا تنقل ، وكان ببنا وببنك من المسألة
ما أوجب التعود على نصرتهم وتدبير أمورهم ، ونسال الله سبحانه المغفرة
نسما أتنناه في أنفسنا وفيهم من نرك الحزم ، واسلامهم لأعاديهم ، والحمد لله
الذى جعل عقوبتنا نوبيخك وتقريبك (٦) بما أطار من دونه ، وبالله نستعين
عليك ، ولا تستبطى مسيرتنا اليك ، والله ينصر سنه الكريم ولو كره
الكافرون ، والسلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل وخدعه ، .

(٦) لها : تتركك .

ملحق رقم (٤)

رسالة المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين

يستصرخه فيها ضد الفونش السادس (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، الى حضرة الامام أمير المؤمنين (٢) وناصر الدين محيي دعوة الخليفة الامام أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين القائم بعظيم اكبارها ، الشاكر لاجلالها ، المعظم لما عظم الله من كرم مقدارها ، اللائذ بحرما المنقطع الى سمو مجدها من المسجير بالله محمد بن عباد ، سلام كرم يخص بالحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتب المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية في غرة جمادى الأولى سنة ٤٧٩ هـ وأنه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين ، فانا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا ، وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من صنيعنا ، نصرنا فيها شعوبا لا قبائل ، واشتاتنا لا قرابة ولا عشائر ، فقل نصرنا وكثر شامتنا ، وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين أدفونش ، واناخ بطليطلة ووطنها بقدمه ، وأسر المسلمين ، واخذ البلاد والقلاع والحصون .

ونحن أهل هذه الأندلس لبس لأحد منا طاقة على نصره داره ولا أخيه ، ولو شاعوا لفعلوا ، الا أن الهواء والماء منعهم عن ذلك ، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال ، وانت أيدك الله سيد حمير وملكها الأكبر ، وأميرها وزعيمها ، نزعنا بهمتي اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستفتيت بحرمتكم لتجوز لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحيون شريعة الاسلام وتدينون على دين محمد عليه الصلاة والسلام ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم ، والأجر العظيم والسلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله وبركاته ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » .

(١) آمن الخطيب ، الحل الموشة ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) لم يتخذ يوسف بن تاشفين لقب أمير المؤمنين واسما اتخذ لقب أمير المسلمين بجليل

ما يقوله بعد ، لك في نفس الرسالة « أنه أيد الله أمير المسلمين ... الخ » ،

رد ابن تائسفين على رسالة المعتد السابغة (٣)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم نسلهما ، من أمير المؤمنين (١) وناصر الدين ، معين دعوة أمير المؤمنين ، الى الأمير الأكرم المعتد على الله أنى القاسم محمد بن عباد ، أدام الله كرامته بنقواه ، ووفقه لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(أما بعد) فإنه لما وصل خطابكم الكريم ، وقفت على ما تضمنته ، من استدعائنا لنصرتك وما ذكرته من كربك ، وما كان من قلة حماية جيرانك ، فنحن يمين أشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك ، وواجب علينا ذلك من الشرع وكتاب الله تعالى ، وأنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكى يكون جوازنا اليك على أيدينا متى شئنا ، فان رأيت ذلك ، فاشهد على نفسك بذلك وابعث اليها بعقودها ونحن فى اثر خطابك ان شاء الله .

(٣) ابن الخطيب ، المحلل الموشة ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٤) سبق الاشارة الى خطأ هذا اللقب والصحيح أنه اخذ لقب أمير المسلمين بخليل

ما بقوله فى نفس العبارة « معين دعوة أمير المؤمنين » والمقصود بذلك هو الخليفة العباسى .

ملحق رقم (٥)

خطاب النصر في موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م (١)

كتب المعتمد بن عباد ملك أشبيلية رسالته أرسلها بالحمام الى ولده الرشيد عقب الفراغ من وقعة الزلاقة قال فيها « يا ابنى أبقاه الله وسلمه ووقاه الأسواء وعصمه وأسبغ عليه آلاءه وأنعمه . كعبه وقد أعز الله الدين ، وظهر المسلمون وفتح لهم على بدى الفتح المبين ، بما يسره الله تعالى ونساء ، وقدره سبحانه وقضاه ، من هزيمة أدفونش بن فرذلند ، لعنه الله وأصله نكال الجحيم ، ولا أعدمه العيش الذميم ، كما قنعه الخزي العظيم . وأتى القتل على أكثر رجاله ، وانصل النهب سائر اليوم والليلة المتصلة به جميع محالنه وجمع من رؤوسهم بين بدى من مشهورى رجالهم ومذكورى أبطالهم ، ولم يختار منهم الا من شبر وجرب ، واملأت الأبدى مما سلب ونهب .

والذى لا مربة فيه ان الناجى منهم قليل ، والمفلت بسيوف الجزع والبعد قليل ، ولم بصبني بفضل الله الا جرح أشوى ، وحسن الحال عندنا والله وزكا . ولا يشغل بذلك بال ، ولا ينوهم غر الحال النى أشرت اليها حال . والأدفونش بن فرذلند ان لم بصبح سحت السيوف غسيموت كمدا . وان كان لم تعلقه أشراك الحمام اليوم فدا ، فاذا ورد كتابى هذا فمر بجمع الخاص والعام من أهل أشبيلية وجيرانها الأقربين وأصفيائها المحبين ، فى المسجد الجامع أعزهم الله ، وليقرأ عليهم فيه ، لتأخذوا من المسرة نسبيهم ، ويضيفوا شكر الله الى صالح دعائهم والسلام .

(١) آين الخطيب ، الطل آوشمة ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

ملحق رقم (٦)

القدس القرطبي ودوره في اثاره الفتنه الدينية في عهد اماره

بنى أمية في الفترة (٢٣٤ — ٢٤٥ هـ / ٨٤٨ — ٨٥٨ م)

كان يولوجيوس Eulogious قسيس ينتدى الى أسره قرطبة عريضة ومعروفة بولائها للمسيحية وكراهيتها للإسلام . درس في كنيسة القديس زيلوس — أحد شهداء المسيحية ربما أمام دقلديانوس — وبموق حنى على أساقفته ، وبأنز كثيرا بأحدهم من المعصيين ، وهو Abbet Spera - in De الذي ألف كتابا في تفنيد العقيدة الإسلامية وفي أهمية موت الاستشهاد . وهذا الاسناد الضور المتعصب هو الذي أصر في نفس يولوجيوس كثيرا وعنده تقابل مع ألفارو Alvaro ذلك الشاب القرطبي الفنى النبل والذي كان يشارك يولوجيوس مشاعره رغم أنه لم يكن قسيسا . وهكذا نشأت صداقة وطيدة بين ألفارو ويولوجيوس الذي أصبح قسيسا لكنيسة القديس زيلوس . ثم زار بملونه عاصمه مملكة نيره (نافار) عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م وعاد الى قرطبة لتتبع فيها حريق البعصب والفتنة الدينية ، ونسجع الفبيان والفتنات — حتى المسلمين بعد اغرائهم ونصرهم — على سب الاسلام وصاحب الدعوة .

ولما انسدت الفتنه وشعرت الحكومة بالحرج رأت أن تعالجها أول الأمر بالحكمه فدعا الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ / ٨٢٠ — ٨٥٢ م) الى عقد مؤتمر كنسى لمعالجة هذا الأمر . فقام ريكافريد RReccafred مطران أشبيلية بالدعوة لعقد المجمع الكنسى ، ومثل الأمير عبد الرحمن في هذا المجمع القومس Gomez الذى أسلم فيما بعد وصار من كتاب الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ — ٨٨٧ م) .

ورغم اصدار المجمع قرارا بمنع أعمال الاستشهاد وبسجن من يحرض عليها من جديد ، الا أن يولوجيوس شمر بقرارات المجمع وأنها لم تدن أعماله

الاستشهاد ، واسمهم أعضاء المجمع بالخوف والجبن والعمالة ، بل انه رمى المعارضين له من الأساقفة بأنهم كانوا ييطنون الاسلام ويظهرون المسيحية . هكذا بلغ تعصبه ، ولم يدر أن كثيرا من المسيحيين كانوا معتدلين ، وبعلمون أعمال الاستشهاد بأن الشهداء قد أنارهم الكبرياء والعجب وحب البطولة ، لذلك وصف هؤلاء المعتدلون الاستشهاد بأنه عمل انحاري وليس استشهادا دينيا . لأنه لبس هناك ما يدعو اليه . فالأمراء الأمويون بسسرون على سياسة التسامح ، والقضاة أنفسهم لا يحكمون بالاعدام على الفور بل انهم كانوا يلتمسون مساعدة هؤلاء المتهمين وبحاولون اقناعهم بانكار ادعاءاتهم ضد الاسلام ، لكنهم كانوا يصرون على أقوالهم تحت تأثير يولوجيوس وأمثاله من المتعصبين . واعترف يولوجيوس نفسه بسماحة المسلمين بعد أن امتنع القاضي عن اصدار حكم عليه بالموت ، وأمر بارساله الى القصر ليرى الوزراء رأيهم فيه .

وهناك قابله أحد الضباط الذي كان يعرفه جيدا ونصحه بالألا يستهوبه عمل هؤلاء الجهلاء وهو الرجل المنعظم المستنير . هنا فقط شعر يولوجيوس بأن المسلمين أقل وحشية مما كان يعتقد . وكان هناك شعور بحب الحياة في نفسه ونفس غيره ، وعاد الى الاسلام كثير من النصارى بعد قرار المجمع الكنسى ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م وغير كثير من العلمانيين والأساقفة ممن كانوا يؤيدون أعمال الاستشهاد رأيهم . هنا نهض يولوجيوس للرد على هؤلاء والف الكتب في ذلك مثل كتابه Memorial of the Saints (ذكر القديسين) وفيه رد على معارضيه ، وساق حججا من الانجيل تؤيد أعمال الاستشهاد .

وظل يولوجيوس يثير النصارى ويبث الكراهية في نفوسهم ويحرضهم حتى انتشرت الفتنة في طول البلاد وعرضها ، وسقط الكثير من القتلى بسبب هذه الأعمال الطائشة ، منهم على سبيل المثال أسقف قرمونة المسمى Theodemir . وظلت المنة تستشري حتى سقط يولوجيوس نفسه في المصيدة بعد أن أخنى إحدى الفسات واسمها (ليوكرتا) واعترف أمام القاضي أنه هو الذى لقنها تعاليم المسيحية . ولم يعد هناك مناص من أن يسير الى النهاية التى قاد زملاءه ومواطنيه اليها . ولذلك قدم نفسه للموت بطريقة الشهداء ، واعدم في عام ٣٤٥ هـ / ١١ مارس ٨٥٦ م .

ورغم ما قام به هذا القس المعصب من اثاره للفتنة الا انه كان السبب في احضار بعض كتب الأدب اللاتينية من بمبلونه الى قرطبة ، ولا بد انه أخذ الى بمبلونه كتب المسلمين الدينية ليقوموا هناك بتفنيدها ثم يرسلونها اليه . وقد أحضر هو نفسه كتباً من هذا القبيل ملبثة بالأناطيل والخرامات ضد الاسلام وصاحب الدعوة ، وظل دائم الاتصال بأسقف بمبلونه المسمى ويسند Wiliesind عن طريق الرسائل المتبادله . وربما ما قام به يولوجيوس في هذا المجال قد أثار جدلاً فكرياً فيها بعد ، ودفع ببعض الكتاب المسلمين مثل ابن حزم لأن يؤلف كتابه الشهير « الفصل في الملل والأهواء والنحل » كما ألف كتاباً آخر للرد على افتراءات اليهود ضد الاسلام ويسماه « الرد على ابن النفريلة اليهودي » .

أنظر ،

Dozy, A history of the moslems in Spain, pp.
273 - 274 , 285 - 2923 , 206 - 307.

مروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

جداول البحث

جدول البحث

جدول رقم (١)

أمراء وخلفاء بني أمية

١- عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخا
(١٣٨-١٧٢ هـ / ٧٥٦-٧٨٨ م)

٢- هشام الأول
(١٧٤-١٨٠ هـ / ٧٨٨-٧٩٦ م)

٣- الحكم الأول
(١٨٠-٢٠٦ هـ / ٧٩٦-٨٢٤ م)

٤- عبد الرحمن الثاني
(٢٠٦-٢٣٨ هـ / ٨٢٤-٨٥٢ م)

٥- محمد الأول
(٢٣٨-٢٧٣ هـ / ٨٥٢-٨٨٦ م)

٦- عبد الله
(٢٧٥-٣٠٠ هـ / ٨٨٨-٩١٤ م)

٧- المنذر
(٢٧٣-٢٧٥ هـ / ٨٨٦-٨٨٨ م)

٨- عبد الرحمن الثالث الناصر
(٣٠٠-٣٥٠ هـ / ٩١٤-٩٦١ م)

٩- الحكم الثاني المستنصر
(٣٥٠-٣٦٦ هـ / ٩٦١-٩٧٦ م)

عبد الله
عبد الرحمن

عبد الملك
محمد

سليمان
الحكم

عبد الجبار
هشام

١٠- هشام الثاني المؤيد
(٣٦٦-٣٩٩ هـ / ٩٧٦-١٠٠٩ م)
(٤٠٠-٤٠٣ هـ / ١٠١٠-١٠١٣ م)

١١- محمد المستكني
(٤١٤-٤١٦ هـ / ١٠٢٣-١٠٢٥ م)

١٢- سليمان المستنير
(٤٠٠-٤٠٣ هـ / ١٠١٠-١٠١٣ م)

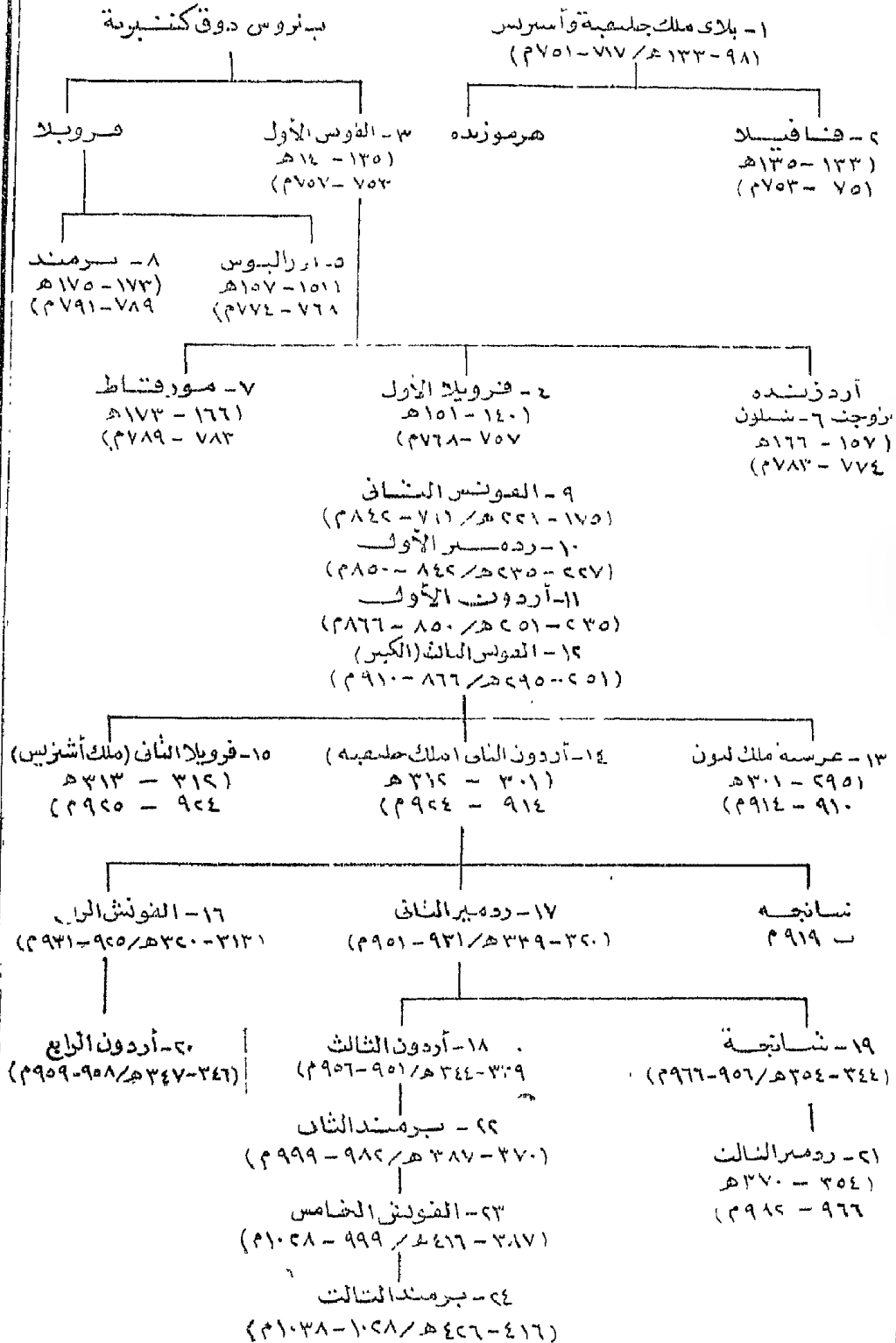
١٣- هشام المعتد
(٤١٨-٤٢٢ هـ / ١٠٢٧-١٠٣١ م)

١٤- عبد الرحمن المرتضى
(٤٠٧-٤٠٨ هـ / ١٠١٦-١٠١٧ م)

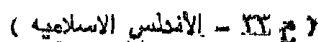
١٥- محمد المهدي
(٣٩٩-٤٠٠ هـ / ١٠٠٩-١٠١٠ م)
(٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م)

جدول رقم (٢)

ملوك ليون (جالية قبيلة أسنوس)



ونضة من شياحه (أبيحوا وستنا)



جدول رقم (٤)

أمراء قشتالة

١- فرديناند جونشالث
(٣١٩-٣٦٠ هـ / ٩٣١-٩٧٠ م)

٢- غرسية
(٣١٠-٣٨٥ هـ / ٩٧٠-١٠٩٥ م)

٣- شالنجة
(٣٨٥-٤٠٧ هـ / ٩٩٥-١٠١٧ م)

الاسيرة
(تزوجت شالنجة الثالث
ملك سبيرة)

٤- غرسية
(تزوجت أخت سبيرة الثالث
أعزل . أبس نه شمس
فانتقل ملك شمس له ولون
إلى شالنجة الثالث روح السرة)

طمبرية
(تزوجت برمود الثالث
ملك لئون ومات دون عقب
فانتقل ملكه إلى قشتالة)

جدول رقم (٥)

أمراء قطلوسية (سرشلونة)

١- ريموند برنجير الأول (رامون)

٢- برنجير رامون الأول
(٤٠٩-٤٤٧ هـ / ١٠١٨-١٠٣٥ م)

٣- رامون برنجير الأول
(٤٤٧-٤٦٩ هـ / ١٠٣٥-١٠٧٦ م)

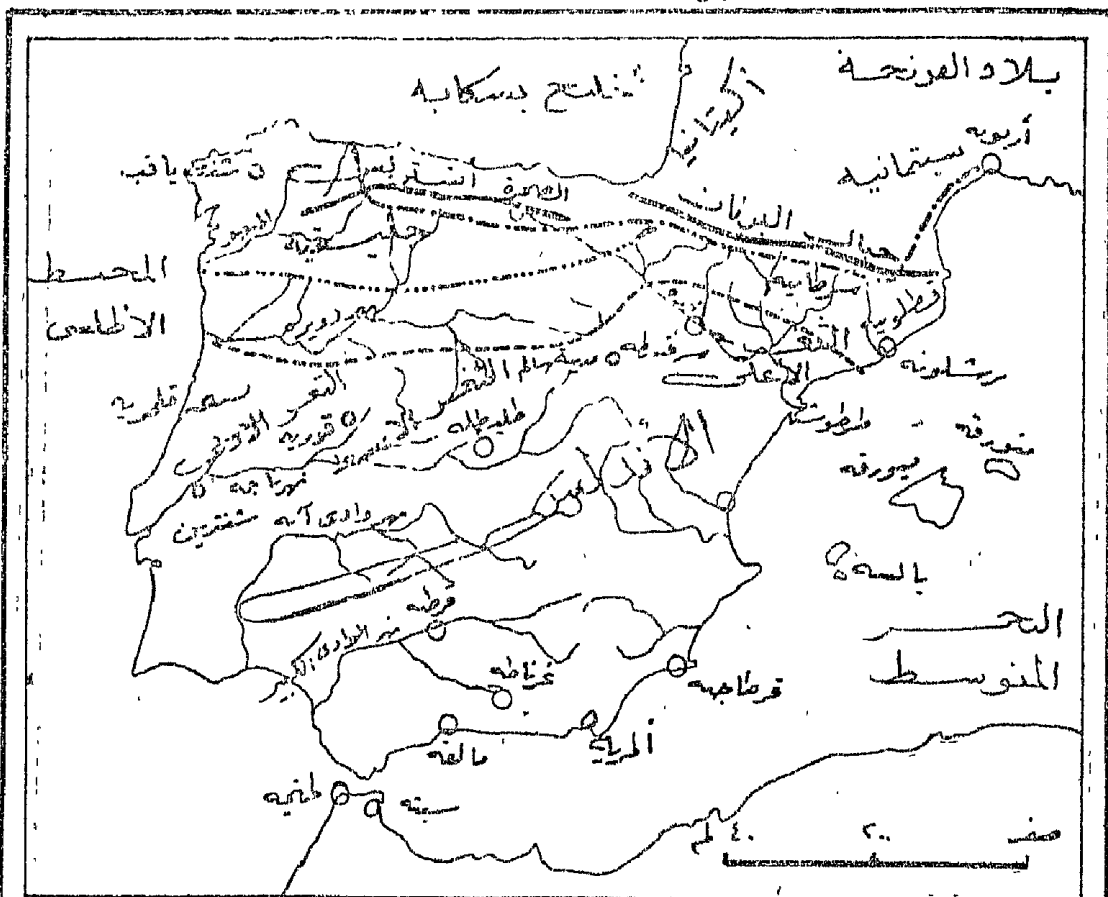
برنجير الثاني
(٤٦٨-٤٨٩ هـ / ١٠٧٦-١٠٩٤ م)
ثم رحل إلى المشرق للحج
والمشاركة في الحروب
الصليبية هناك

(حكما سويا)

ريموند الثاني
قتل عام ١٠٨٤ م

ريموند الثالث
(تولى الحكم عام ٤٨٩ هـ / ١٠٩٤ م)
تحت رعاية المولان السادس
بعد رحيل عمه برنجير الثاني
إلى المشرق
وتزوج من أخته الصبيحة (التي بطور)

۱۱۹۹



سید سل جہلیہ ریسہ

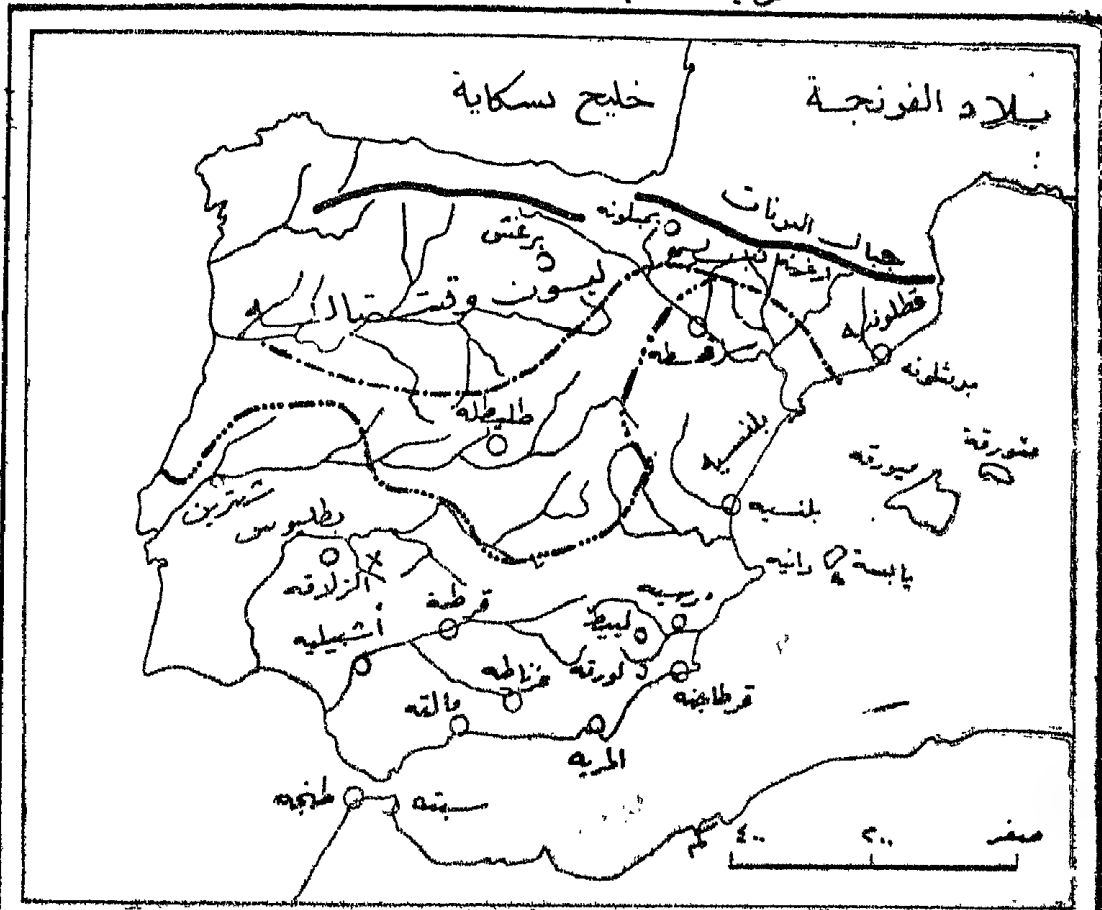
٥٠٠ مدينه هامه

عدد النسخ المملوكة في المكتبة العامة في القاهرة ١٢٧١

الحدود بين الأنظمة الإسلامية وأسيان المسلمة في بداية عصر النهضة القومية

----- المدور بين الزنلن الاسلامي وامبا نيا الفصانية في منطقة عمن البارة النمة

خريطة رقم ٢



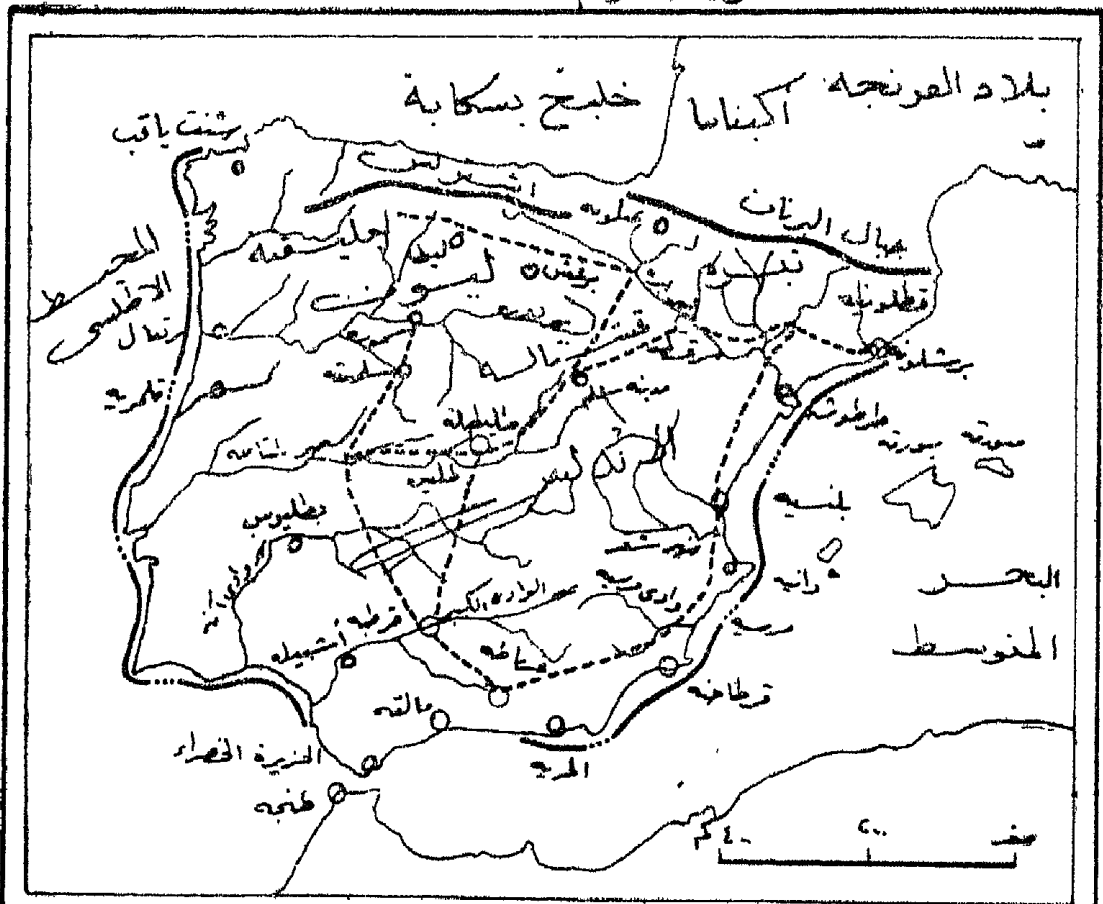
سلاسل جبال

مدن هامة

الحدود بين الدول الإسلامية وأوروبا القارية في طاية عصر الخلافة الأموية

الحدود بين الدول الإسلامية وأوروبا القارية في طاية عصر ملوك الجوائف

خريطة رقم ٣



ساحل جبلة

○ مدن
 الطرق البرية بين قطة وبين ماله أسمايا النصارية
 ————— الطرق البحرية بين قطة وبين ماله أسمايا النصارية

البحر المتوسط

البحر الأحمر

حلب

حمص

لاذقية

بيروت

جبل النور

نهر الفرات

الميل

الكلم

أهم المواقع والأماكن في المشرق العربي

الاسلامية وفي أساطير العرب

مواقع تاريخية

الحدود الدولية

أهم المواضع والمطالع في السير لسد
الرسالة وفي أساطير النصارية
• مواضع رئيسية • مراجع تاريخية
والاصل في طهية رئيسية

المصادر والمراجع

أولا - المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة

ابن الأبار (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ / ١١١٩ - ١٢٦٠ م)

١ - الحلة السراء ، ج ١ ، ٢ ، تحقيق د. حسين مؤنس ، نشر
التركة العربية للطباعة والنشر بمصر ، الطبعة الأولى ، عام
١٩٦٣ م .

٢ - المعجم في أصحاب الفسافي الامام أبي علي الصدفي ، مدريد ١٨٨٥

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م)

٣ - الكامل في التاريخ ج ٤ - ٩ . طبع القاهرة ، ١٢٩٠ هـ

ابن أبي دینسار (ت ١١١٠ هـ)

٤ - المونس في أخبار أفرمقية وتونس ، الطبعة الاولى ، تونس ٢٣٨٦ هـ

ابن بسام الشنتري (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٦ م)

٥ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول
والثاني .

٦ - الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، طبع القاهرة .

ابن بشكوال (٤٩٤ - ٥٧٨ هـ / ١١٠١ - ١١٨٢ م)

٧ - الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، ج ١ نشر السيد عزت العطار
الحسني ، طبع القاهرة ، ١٩٥٥ م

ابن بلقين (ت ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م)

٨ - مذكرات الأمير عبد الله ، تحقيق ليفي بروفنسال ، طبع دار
المعارف بمصر .

ابن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م)

- ٩ — مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥١ تاريخ .

ابن حبيب (ت ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م)

- ١٠ — تاريخه ، جزء خاص بالأندلس نشره محمود على مكى بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرى ، المجلد الخامس ١٩٥٧ م

ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٦ م)

- ١١ — جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، دار المعارف بمصر ١٩٤٨م
- ١٢ — طوق الحمامة فى الألفه والألاف ، تحقيق حسن كامل الصيرفى طبع القاهرة .
- ١٣ — الرد على ابن النفيله اليهودى . تحقيق احسان عباس — طبع القاهرة ١٩٦٠
- ١٤ — نطق العروس فى تواريخ الحلفاء برواية الحميدى ، تحقيق شوقى ضيف ، مجلة كلية الآداب ، جامعه القاهرة ، المجلد ١٣ الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥١ م
- ١٥ — رسائل ابن حزم الأندلسى ، المجموعه الأولى ، تحقيق احسان عباس ، القاهرة ١٩٥٥ م .
- ١٦ — الاحكام فى أصول الأحكام ، ج١ ، طبع القاهرة ١٩٦٣ م
- ١٧ — جوامع السيرة ، تحقيق احسان عباس ، دار المعارف بمصر .
- ١٨ — شذرات من كتاب السياسة لابن حزم ، نشر محمد ابراهيم الكنانى ، مجله تطوان ، العدد الخامس . ١٩٦٠ م .
- ١٩ — مداواة النفوس ، طبع مصر .

ابن حوقل (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)

- ٢٠ — كتاب صورة الأرض ، ج١ ، طبع ليدن ١٩٦٧م

ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩ م)

٢١ — المقبس في تاريخ أهل الأندلس . ح ٣ نشر الأب طشور انطونية ،
طبع باريس ١٩٣٧ م

ابن خلكان (ت ٥٣٥ هـ / ١١٣٦ م)

٢٢ — قلائد العقبان ، طبع مصر ١٢٧٧ هـ

٢٣ — مطمح الأنفس ومسرح النأس في ملح أهل الأندلس ، طبع مصر

ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ هـ)

٢٤ — أعمال الاعلام ، ج ٢ بحقيق لنفى بروفنسال ، طبع بيروت ١٩٥٦ م

٢٥ — الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ . بحقيق محمد عبد الله عنان ،
دار المعارف بمصر (سلسلة ذخائر العرب رقم ١٧)

٢٦ — الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ٢ الطبعة الأولى ، مطبعة
الموسعات بمصر . عام ١٣١٩ هـ

٢٧ — رقم الحل في نظم الدول ، طبع تونس ١٣١٦ هـ

٢٨ — الحل الموشية في ذكر الأخصار المراكشيه . الطبعة الأولى ،
تونس ١٩٢٩ م

٢٩ — معيار الاختار في ذكر المعامد والديار ، طبع فاس ، ١٣٢٥ هـ

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)

٣٠ — العبر وديوان المبدأ والخبر . ج ٤ . ج ٦ طبع بولاق ١٨٨٤ م

٣١ — مقدمه ابن خلدون . ج ١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥١ م

٣٢ — مقدمة ابن خلدون ، ج ٢ ، ج ٣ ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٥٨ م

ابن خلكان (٦٠٨ — ٦٨١ هـ / ١٢١٠ — ١٢٨٤ م)

٣٣ — وفيات الاعيان ، ج ١ — ٦ ، بحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد
نشر مكتبة النهضة المصريه بالقاهرة .

ابن محبوب (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥ م)

٣٤ — المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرين ، طبع القاهرة ، ١٩٥٤م

ابن سعيد القرني (ت ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م)

٣٥ — المغرب في حلى المغرب ج ١ ، ٢ تحقيق شوقي ضيف ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ م

٣٦ — سسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق خوان خونيس ، طبع تطوان بالمغرب ١٩٥٨م

ابن شاکر الکتبی (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٠م)

٣٧ — فوات الوفيات — ج ١ ، طبع بولاق ١٢٨٣هـ

ابن شهيد الأندلسي (ت ٤١٩هـ / ١٠٢٨م)

٣٨ — رساله النوابع والزوابع ، طبع بيروت .

ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٣٦هـ / ٩٤٨م)

٣٩ — العقد الفريد ، ج ٢ ، طبع مصر ١٢٩٣هـ

ابن عسودن (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي)

٤٠ — ثلاث رسائل أندلسية في آداب الصنعة والمحاسب ، تدقيق ليفي بروغنسال ، القاهرة ١٩٥٥ م

ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٥م)

٤١ — القصد والأهم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم ، طبع القاهرة ١٣٥٠هـ

ابن عذارى (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي)

٤٢ — البيان المغرب ، ج ٢ ، تحقيق دوري ، طبع بيروت .

٤٣ — البيان المغرب ، ج ٣ ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٦٩ م

٤٤ — البيان المغرب ، ج ٤ ، الطبعة الرابعة ، تحقيق احسان عباس ، طبع بيروت ١٩٦٧ م

ابن غالب الأندلسي (القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي)

٤٥ — تعلق منقته من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الأول ح ١ ، مايو ١٩٥٥ م

ابن الفرضي (ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م)

٤٦ — تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، ج ١ ، ٢ ، نشر السيد عزت العطار الحسني ، طبع القاهرة ١٩٥٤ م

ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٣٦ م)

٤٧ — مسالك الابصار في ممالك الامصار . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٩ معارف عامة قسم ١ . ح ١٦ ، قسم ٢ ، ج ١٥ .

٤٩ — وصف امريقية والمغرب والاندلس ، مقتطف من كتاب مسالك الابصار في ممالك الأمصار ، نشر حسن حسني عبد الوهاب ، طبع تونس ١٩٢٣ م

ابن قتيبة الدينوري (٢١٣ — ٢٧٦ هـ / ٨٢٧ — ٨٠٩ م)

٥٠ — الامامة والسياسة ، ج ٢ . الطبعة الثانية ، طبع مصر ١٩٥٧ م

ابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م)

٥١ — تاريخ افتتاح الأندلس ، الطبعة الاولى ، طبع مصر .

ابن الكردبوس (القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي)

٥٢ — الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، نشر احمد مختار العبادي ، صحيفة معهد الدراسات الاسلاميه بمدرين ، مجلد ١٣ عام ١٩٦٦/٦٥ م

ابن هذيل :

٥٣ — نحنة الأنفس وشعار أهل الأندلس ، مخطوط بدار الكتب
المصرية ، رقم ٩٩ مروسية نيمور .

ابن الوردى (ت ٥٧٤٩ هـ / ١٣٣٦ م)

٥٤ — خريدة الجائب وفريدة الفرائب ، طبع القاهرة ١٢٧٦ هـ

أبو الفدا (ت ٥٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م)

٥٥ — تاريخه ، ج ١ ، ٢ ، طبع القسطنطينية ١٢٨٦ هـ

الادريسي (ت ٥٦٤٩ هـ / ١٢٥٣ م)

٥٦ — صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ، مأخوذ من كتاب
نزهة المشتاق ، طبع ليدن عام ٨٦٦ م .

الاصطخرى (ت ٥٣٥٠ هـ / ٩٦٢ م)

٥٧ — المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى ،
دار القلم بالقاهرة ١٩٦١ م .

الأنصارى (٨٠١ — ٨١٤ هـ / ١٣٩٩ — ١٤١١ م)

٥٨ — فريج الكروب فى ندبر الحروب . تحقيق جورج اسكاملون ،
القاهرة ١٩٦١ م

الباجى (ت ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م)

٥٩ — وصبه الشيخ أبى الوليد الباجى لولديه ، نشر جودة هلال ،
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدير . المجلد الثالث ،
١٩٥٥ م

البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)

٦٠ — نوح البلدان ، الطبعة الأولى . طبع مصر ١٩٠١ م .

التطيلي (ت ٥٢٥ هـ / ١١٢٩ م)

٦١ — ديوانه ، تحقيق احسان عباس ، طبع بيروت .

الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م)

٦٢ — ينمية الدهر ، ج١ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ،
الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٧ م .

٦٣ — ينمية الدهر ، ج٢ ، الطبعة الأولى . مصر ١٩٣٤ م .

الحجرى (القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى)

٦٤ — ناصر الدين على القوم الكافرين . مخطوط بدار الكتب المصرية
برقم ١٦٣٤ ط

الحميدى (ت ٨٨٨ هـ / ١٠٩٥ م)

٦٥ — جذوة المقبس فى ذكر ولاية الأندلس . نشر مكتب الثقافة
بالقاهرة .

الحميرى (جمعه عام ٨٦٦ هـ / ١٤٦٣ م)

٦٦ — صفة جزيرة الأندلس ، منتخب من كتاب الروض المعطار فى
خبر الأقطار للحميرى ، نشر لىنى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ م

الخشنى (ت ٣٦١ هـ / ٩٧١ م)

٦٧ — تضاة قرطبة وعلماء افريقية ، نشر السيد عطار الحسينى ،
القاهرة ١٣٧٢ هـ .

الزبيدى (ت ٣٧٩ هـ / ٩٩١ م)

٦٨ — طبقات النحويين واللفويين ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد
ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٥٤ م .

السقطى (القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى)

٦٩ — آداب الحسبه ، نشر لىنى بروفنسال وكولان . المطبعة الدولية
باريس ١٩٣١ م .

سـخـنـون :

٧٠ — المدونة الكبرى . ج٤

السلوى (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٥ م)

٧١ — الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ، طبع مصر .

صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م)

٧٢ — طبقات الأمم ، نشر الأب لويس شيخو ، نشر وطبع بيروت ١٩١٢ م .

الضبي (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م)

٧٣ — بغية الملمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبع مدريد ١٨٨٤ م

الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٤ م)

٧٤ — سراج الملوك ، الطبعة الاولى ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ١٣١٩ هـ .

العنزي (٧٨ هـ / ١٠٨٥ م)

٧٥ — نصوص عن الأندلس ، مأخوذ من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية بمديرية ١٩٦٥ م .

العيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٠ م)

٧٦ — عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ ، قسم ٢ ، ح ١٢ ، قسم ٣ ، ج ١٣ ، قسم ٤ ج ١٩ .

الفرناطي (ت ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م)

٧٧ — تحفة الألباب ، نشر في Journal Asiatique, Sep. 1925.

الفساني (ت ١١١٩ هـ / ١٧٠٦ م)

٧٨ — رحلة الوزير في افتكاك الأسر ، طبع طنجة ١٩٤٠ م .

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)

- ٧٩ — صبح الأعشى ، ج ٥ ، طبع القاهرة ١٩١٥ م .
٨٠ — مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، ج ٣ ، تحقيق عبد السميع أحمد فراج ، طبع الكويت ١٩٦٤ م .

المراكشى (ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م)

- ٨١ — المعجب في تلخيص أخبار المغرب . نشر محمد سعد العريان ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٤٩ م .

المغربى : محمد الشطبي

- ٨٢ — الجمان في أخبار الزمان . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٤١٦ تاريخ .

المقرئ (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م)

- ٨٣ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج ١ — ٤ . الطبعة الأولى ، المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٠٢ هـ .
٨٤ — ازهار الرياض في أخبار القاضى عياض ، ج ١ ، ٢ تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، طبع القاهرة ١٩٣٩ م .

مجهول :

- ٨٥ — أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، طبع مدريد ١٨٦٧ م .
٨٦ — شرح حال الكنيسة ، طبع فالبه بمالطة ١٨٤١ م .
٨٧ — الطبخ في المغرب والأندلس ، تحقيق امبروزيو أويثى ميراندا ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، مجلد ٩ — ١٠ عام ١٩٦٢/٦١
٨٨ — مفاخر البربر ، نشر لبقي بروفنسال ، طبع الرباط ١٩٣٤ م .

النباهى (٧١٣ — ٧٧٦ هـ / ١٣٠٩ — ١٣٧٤ م)

- ٨٩ — تاريخ قضاة الأندلس ، نشر ليفى بروفنسال ، دار الكاتب المصرى بالقاهرة عام ١٩٤٨ م .

التويرى (٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م)

- ٩٠ — نهضة الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٢ ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

الهمداني :

٩١ — مختصر كتاب البلدان ، طبع لندن ١٩٦٧ م .

الونشريشي (ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م)

٩٢ — أسنى المتاجر في سان من غلب على وطنه النصاري ولسم
بهاجر ، نشر د. حسين مؤنس ، صحيفة معهد الدراسات
الاسلامية بمدريد المجلد الخامس ، عدد ١ ، ٢ عام ١٩٥٧ م .

باقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٣٠ م)

٩٣ — معجم البلدان . ج ١ — ١٠ . الطبعة الأولى . مصر ١٩٠٦ م .

البهقوي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)

٩٤ — صفة المغرب ، مأخوذ من كتاب البلدان ، طبع لندن ١٨٥٠ م

يوسا بيوس القيصرى (٢٦٤ — ٣٤٠ م)

٩٥ — تاريخ الكنيسة ، ترجمة القس مرقص داود ، نشر دار الكرثك
القاهرة ١٩٦٠ م .

ثانياً - المراجع العربية والدوريات

أحمد أمين :

- ١ - ظهور الاسلام ، ج ٣ ، الطبعة الخامسة : بيروت ، ١٩٦٩ م .

أحمد زكي باشا :

- ٢ - السفر الى المؤتمر . الطبعة الأولى . بولاق ١٨٩٣م
٣ - أربعة عشر يوماً سعيداً في خلافة عبد الرحمن الناصر ، طبع
القاهرة ١٨٨٦م .

أحمد الشفتناوى وآخرون :

- ٤ - دائرة المعارف الاسلامية . المجلد الثانى .

أحمد مختار العبدى :

- ٥ - صورة لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس ، مجلة
البيئة ، السنة الأولى ، العدد التاسع ، يناير ١٩٦٣ م

اميليو غرسية غومس :

- ٦ - الشعر الأندلسى ، تعريب د. حسين مؤنس ، الطبعة الثانية ،
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ .

أنيس وزكريا النصولى :

- ٧ - الدولة الأموية في قرطبة ، ج ١ ، طبع بغداد ، ١٩٢٦م

آنخل جونثالث بالنثيا :

- ٨ - تاريخ الفكر الأندلسى ، تعريب د. حسين مؤنس ، الطبعة الأولى
القاهرة ١٩٥٥م

بروكلمان :

- ٩ - تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج ٢ ، تعريب نبيه أمين مارس ومنير
العلبكي ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ،
١٩٤٩م .

بطرس البستقاني :

١٠ - مصارك العرب في الأندلس ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٥٠م

قرند :

١١ - أسبانيا والبرتغال ، تعريب د. حسين مؤنس ، من كتاب
The Legacy of Islam طبع القاهرة ١٩٣٦ م

حسن أحمد محمود :

١٢ - تاريخ الغرب الاسلامي ، دار النهضة المصرية ، القاهرة
١٩٦٨ م .

حسين مؤنس :

١٣ - فجر الأندلس ، الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة
والنشر ، القاهرة عام ١٩٥٩ م .

١٤ - الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات
الاسلامية في مدريد ، مجلد ٧ ، ٨ لعام ١٩٦٠/٥٩ م ، مجلد
١١ ، ١٢ لعام ١٩٦٤/٦٣ .

١٥ - سبع وثائق جديدة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية
بمدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤م .

١٦ - بلاى وميلاد أشتريس وقيام حركة المقاومة النصرانية في شمال
أسبانيا ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ، المجلد ١١ ، ج ١
مايو ١٩٤٩م .

١٧ - الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب،
جامعة القاهرة ، مجلد ١١ ، ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ .

١٨ - تطور العمارة الاسلامية في الأندلس ، مجلة كلية الآداب ،
جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، ١٩٥١ م .

١٩ - السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية
المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، مايو ١٩٥٠ م .

٢٠ - أثر ظهور الاسلام في الأوضاع السياسية ، المجلة التاريخية
المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو ١٩٥١ م .

جيسدر بامات :

٢١ — مجالى الاسلام ، تعريب عادل زعبتر ، طبع القاهرة ١٩٥٦م

خالد الصوفانى :

٢٢ — تاريخ العرب فى اسبانيا ، عصر المنصور ، دار الكتاب العربى .

خليل ابراهيم السامرائى :

٢٣ — النفر الأعلى الأندلسى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ١٩٧٦م .

٢٤ — علاقات المرابطين بالممالك النصرانية وبالذول الاسلامية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

دوژى :

٢٥ — ملوك الطوائف ، تعريف كامل كبلانى ، الطبعة الأولى القاهرة ، عام ١٩٣٣ م .

٢٦ — تاريخ مسلمى اسبانيا ج ١ ، تعريب حسن حبشى ، دار المعارف ، القاهرة ، من كتاب
Histoire Des Musulmans D'Espagne

روبرتسون الانجليزى :

٢٧ — اتحاد الملوك الألبا بتقديم الجمعيات فى بلاد أوربا ، تعريب خليفة محمود ، طبع بولاق ، مصر ١٣٥٨هـ .

رجب محمد عبد الحليم :

٢٨ — دولة بنى حمود فى مالقة بالأندلس . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ م

رينو :

٢٩ — تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا ، تعريب شكيب أرسلان ، طبع مصر ١٩٣٢ م .

ستائلى لين بول :

٣٠ — قصة العرب فى أسبانيا ، تعريب على الجارم ، دار المعارف ،
مصر ١٩٦٠ م .

السيد عبد العزيز سالم :

٣١ — تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، لبنان ١٩٦٣ م

شكيب أرسلان :

٣٢ — الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، ج ١ ، ٢ ،
الطبعة الأولى ، مصر ، ١٩٣٦ م .

صلاح خالص :

٣٣ — ابن عمار الأندلسى ، طبع بغداد ، ١٩٥٧ م .

عباس محمود وآخرون :

٣٤ — دائره المعارف الاسلاميه . المجلد الثالث .

عبد الرحمن فهمى :

٣٥ — دراسة لبعض التحف الاسلاميه ، مجلة كلية الآداب ، جامعة
القاهرة ، مجلد ٢٢ العدد الأول عام ١٩٦٠ .

عبد العزيز الأهواتى :

٣٦ — الزجل فى الأندلس ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٥٧ م .

عبد العزيز بن عبد الله :

٣٧ — العربية لغة العلم والحضارة .

عبد السلام أحمد الرفاعى :

٣٨ — الحاجب المنصور ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٣٦ م .

عيسى أسعد :

٣٩ — الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية ، طبع سوريا
١٩٢٢ م .

غوستاف لوبون :

٤٠ — حضارة العرب ، تعريب محمد عادل زعيتر ، مصر ١٩٤٥ م .

فسون كريم :

٤١ — الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ، تعريب مصطفى بدر ، مصر ١٩٦٧ م .

فيليب هتى :

٤٢ — تاريخ العرب (المجلد) ، ج ١ ، ٢ ، الطبعة الرابعة ، مصر ١٩٦٥ م .

كليسا سارنلى :

٤٣ — مجاهد العامري ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

كاهل كيلانى :

٤٤ — نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٢٤ م -

كيزو :

٤٥ — النخبة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية ، تعريب حنين نعمة الله الخورى ، الاسكندرية ١٨٧٧ م .

لبفى فروفنسال :

٤٦ — الاسلام في المغرب والأندلس ، تعريب السيد عبد العزيز سالم وآخرون ، القاهرة .

٤٧ — أدب الأندلس وتاريخها ، تعريب حمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ١٩٥١ م .

٤٨ — الشرق الاسلامى والحضارة العربية الأندلسية ، تطهوان بالمغرب ، ١٩٥١ م .

٤٩ — تراث الأندلس ، مجلة الكاتب المصرى ، يناير ١٩٤٧ م .

محمد عبد الله عنان :

٥٠ — دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، القسم الثانى ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٥٢ م .

- ٥١ — دولة الطوائف . العصر الثانى . القاهرة ١٩٦٩ م .
٥٢ — عصر المرابطين ، العصر الثالث ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٤ م .
٥٣ — نهاية الأندلس . العصر الرابع . الطبعة الاولى . القاهرة ١٩٤٩
٥٤ — تاريخ العرب فى أسبانيا ، الطبعة الاولى ، مصر ، ١٩٢٤ م .

محمد الفاسى :

- ٥٥ — الأعلام الجغرافية الأندلسية . مجله البنية . مجلة السنة الأولى ، العدد الثالث ، بولنه ١٩٦٢ م .

محمد كرد على :

- ٥٦ — غابر الأندلس وحاضرها . الطبعة الأولى ، مصر ١٩٢٣ م .

محمد العروسى المطوى :

- ٥٧ — الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، تونس ١٩٥٤ م .

محمود على مكى :

- ٥٨ — مدريد العربية ، القاهرة .

مصطفى الزرابى :

- ٥٩ — قوة النفوس والعيون بسبر ما توسط من القرون ، معرب عن الفرنسية ، طبع مصر ١٨٦٢ م .

مانويل جوميث مورينو :

- ٦٠ — الفن الاسلامى فى أسبانيا ، تعريب لطفى عبد البديع ، طبع القاهرة .

نيكل :

- ٦١ — مختارات من الشعر الأندلسى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٤٩ م

هشام سليم أبو رميلة :

- ٦٢ — نظم الحكم فى الأندلس فى عصر الخلافة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة .
٦٣ — تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، تعريب محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٤٠م

ثالثا - المراجع الأجنبية

Americo Castro :

1. The structure of spanish History, New Jersey 1954.

Allen (W. E. D) :

2. An attempt to reconstitute Al-Ghazal's embassy to the vikings, London 1960.

Aznar (Jase Cemon) ,

3. Las constantes de arte espanol, Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos de Madrid V. 3 1965.

Balbas (Leopoldo Torres),

4. Las edificios hispano - Musulmanus, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V. I 1953.

Cantar, (Sanchez)

5. Viajeros espanoles en Oriente, en Revista del instituto Egiptio de Madrid, V. 4 1956.

Chapman (charles, E.),

6. A history of spain, founded on The Historia de Espanay de la civiligacion Espanala of Altamira U.S.A. 1931.

Codera (Don Francisco),

7. Numismatica, Madrid 1879.

Conde,

8. History of the Domination of the Arabs in spain, London.

Crow (John A.) :

9. Spain : The root and the flowers, New York 1963.

Dozy :

10. Recherches sur L'Histoire et la litterature De L'Espagne Leyde 1881.
11. A history of the Moslems in Spain London 1913.

Guillon :

12. Trois Monnaies Latines - Arabes, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 1 1953.
13. Les monnayages latino-Arabes. en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 3, 1955.

Hole (Edwyn),

- 14 Spain under the Muslims, London 1958.

Livermore (Harold),

15. A history of Spain, London 1958.

Lluis (Jaime y Navas Brusí)

16. Observaciones sobre la amonidacion, en Revista del

Mones (Hussain)

17. De nuevo sobre los fuentes arabes de la historia del Egipto, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid V., 2, 1954.
18. Abd Al - Rahman III, en Revista de Instituto Egipcio de Madrid, V., 9 - 10, 1961 - 1962.

Murphy (James Cavanah)

19. The history of the Mohamed Empire in Spain, London 1916.

Pidal (Ramon Menendez) ,

20. The Old and his Spain, London 1934.
21. España como eslabón, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 1, 1953.
22. España y la introducción de la ciencia árabe, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 3, 1955.

Prieto y Vives :

23. Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926.

Provençal (Levi) ,

24. Inscriptions Arabes D'Espagne, Leyde, 1931.

Vila (Jacinto Bosch) ,

25. Los Documentos Árabes, en Revista de Instituto Egipcio de Madrid, V., 5, 1957.

Vallicrosa (Jose Millas) ,

26. El quehacer astronómico de la España Árabe, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 5, 1957.
- Diccionario Espamol Arábico.
Diccionario Geográfico de España.

محتويات الكتاب

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	
٥	مقدمة
١٣	بحث في أهم المصادر والمراجع
٢٧	تمهيد تاريخي

الباب الأول

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية

الفصل الأول : الظروف والعوامل التي أنشأت في العلاقات بين

الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية ... ٤٧

أولاً : ظروف الأندلس الإسلامية وأحوالها المؤثرة في علاقاتها

باسبانيا النصرانية ... ٤٨

١ — سمات عصر بني أمية بالنسبة للعلاقات مع ممالك

اسبانيا النصرانية ... ٤٨

٢ — عوامل القوة وأثرها في العلاقات مع ممالك اسبانيا

النصرانية ... ٥٢

٣ — عوامل الضعف وأثرها في العلاقات مع ممالك اسبانيا

النصرانية ... ٥٩

٤ — المقاومة النصرانية داخل الأندلس الإسلامية وارتباطها

بمقاومة اسبانيا النصرانية ضد مسلمي الأندلس ... ٦٨

ثانياً : ظروف اسبانيا النصرانية وأحوالها المؤثرة في علاقاتها

بالأندلس الإسلامية ... ٨٩

١ — النظام السياسي في اسبانيا النصرانية وأثره في العلاقة

مع مسلمي الأندلس ... ٩٣

٢ — الطبيعة الجغرافية والبشرية وأثرها في الصراع مع

مسلمي الأندلس ... ٩٨

٣ — العامل الديني وأثره في الأوضاع الداخلية وفي الصراع

مع مسلمي الأندلس ... ١٠٥

٤ — علاقته ممالك اسبانيا النصرانية بعضها ببعض وأثر ذلك

في صراعها مع مسلمي الأندلس ... ١٠٧

رقم الصفحة

الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية	
واسبانيا النصرانية في عصر بنى أمية	١١١
(أ) طبيعة العلاقات بين بنى أمية وبين نصارى الشمال	
الاسباني : سراع سياسي وعسكري	١١٢
(ب) الصراع بين أمراء بنى أمية وبين نصارى الشمال الاسباني	١٢٧
١ — علاقة أمراء بنى أمية بمملكة جلبقية وأستربس (ليون)	١٢٩
٢ — علاقة أمراء بنى أمية بمملكة نبرة (نافارا أو البشكنس)	١٤٩
٣ — علاقة أمراء بنى أمية بامارة قطلونية (برشلونة) ...	١٤٩

الباب الثاني

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر خلفاء بنى أمية

الفصل الأول : الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين	
الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر خلفاء بنى أمية ...	١٦٣
أولا : ظروف الأندلس وأحوالها المؤثرة في علاقتها باسبانيا	
النصرانية	١٦٣
١ — سمات عصر الخلافة فيما يتعلق بعلاقة مسلمى الأندلس	
بنصارى الشمال الاسباني	١٦٤
٢ — عوامل القوة وأثرها في العلاقات مع ممالك اسبانيا	
النصرانية	١٦٦
٣ — عوامل الضعف وأثرها في العلاقات مع ممالك اسبانيا	
النصرانية	١٧٨
ثانيا : ظروف اسبانيا النصرانية وأحوالها المؤثرة في علاقاتها	
بالأندلس الإسلامية	١٩٠
١ — أحوال مملكة ليون وأثرها في العلاقة مع مسلمى الأندلس	١٩٣
٢ — أحوال مملكة نبرة (نافارا) وأثرها في العلاقة مع	
مسلمى الأندلس	٢٠٠
٣ — أحوال إمارة قشتالة وأثرها في العلاقات مع مسلمى	
الأندلس	٢٠٣

رقم الصفحة

الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر خلفاء بني أمية

- ١ - طبيعته العلاقات بين مسلمي الأندلس ونصارى الشمال وأهداف الصراع بينهما ٢١١
- ٢ - علاقات خلفاء بني أمية بنصارى الشمال الأسباني في عصر القوة ٢١٨
- (أ) علاقة خلفاء بني أمية بمملكة ليون ٢١٨
- (ب) علاقة خلفاء بني أمية بمملكة نبرة (نافار) ٢٤٠
- (ج) علاقة خلفاء بني أمية بامارة قنستالة ٢٥٠
- (د) علاقة خلفاء بني أمية بامارة قطلونية (برشلونة) ٢٥٦
- ٣ - علاقة خلفاء بني أمية بنصارى الشمال الأسباني في عصر ضعف الخلافة ٢٦٣

الباب الثالث

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية

وإسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

الفصل الأول : الظروف والمساوئ التي أدت في العلاقات بين

- الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف ٢٧٠
- أولا : ظروف الأندلس الإسلامية وأحوالها المؤثرة في علاقتها بإسبانيا النصرانية ٢٧١
- (أ) الفتنة البربرية وأثرها في قيام عصر ملوك الطوائف وفي العلاقة مع ممالك إسبانيا النصرانية ٢٧١
- (ب) سمات عصر ملوك الطوائف ومظاهر الضعف فيه ٢٧٣
- (ج) عوامل الضعف وأثرها في علاقة ملوك الطوائف بإسبانيا النصرانية ٢٨٢
- ١ - علاقة ملوك الطوائف بعضهم ببعض وصراعهم على السلطان ٢٨٢

رقم الصفحة

- ٢ — الصراع الداخلي في كل مملكة على الحكم ... ٢٨٧
٣ — فساد ملوك الطوائف ... ٢٩٢
٤ — فساد طبقة الوزراء والموظفين ... ٢٩٧
٥ — انتشار العيوب الخلقة والاجتماعية والاقتصادية ...
بين افراد الشعب ... ٣٠٠

ثانيا : ظروف اسبانيا النصرانية واحوالها المؤثره في علاقتها بالاندلس الاسلاميه :

- (أ) احوال ممالك اسبانيا النصرانية ... ٣٠٤
١ — احوال مملكة قشتالة وليون وتأثيرها في العمالة بملوك الطوائف ... ٣٠٤
٢ — احوال مملكة نبرة (نافار) وتأثيرها في العمالة بملوك الطوائف ... ٣١٠
٣ — احوال مملكة أرغونه وتأثيرها في العمالة بملوك الطوائف ... ٣١٣
٤ — احوال اماره قطلونيه (برشلونه) وتأثيرها في العمالة بملوك الطوائف ... ٣١٧
(ب) عوامل الضعف والضعف في ممالك اسبانيا النصرانية وأثرها على العلاقات مع ملوك الطوائف ... ٣١٩
١ — ازدياد قوة الملكية ... ٣١٩
٢ — ضعف طبقة النبلاء ... ٣٢٣
٣ — دور الكنيسة والبابوية في ادراك الدروب التسلبيه بالاندلس ... ٣٢٥

الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسيه بين الاندلس الاسلاميه

- واسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف ... ٣٣٣
١ — علاقات مملكة سرقسطه بالممالك النصرانيه في اسبانيا ٣٣٦
٢ — علاقات مملكة بلنسية بالممالك النصرانية في اسبانيا ٣٤٦
٣ — علاقات مملكة دانية والجزائر الشرقية بالممالك النصرانية في اسبانيا ... ٣٥٤
٤ — علاقات مملكة ششمريه الشرق بالممالك النصرانيه في اسبانيا ... ٣٥٨

- ٥ - علاقات مملكة غريباطة بالممالك النصرانية في اسبانيا ... ٣٦٣
- ٦ - علاقات مملكة بطليوس بالممالك النصرانية في اسبانيا ... ٣٦٨
- ٧ - علاقات مملكة طليطلة بالممالك النصرانية في اسبانيا ... ٣٧٣
- ٨ - علاقات مملكة اتسيلبه بالممالك النصرانية في اسبانيا ... ٣٨٣

الباب الرابع

أهم التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بنى أمية وملوك الطوائف

- ١ - المـواهل الـى أدت الـى التـأثير الحـضارى بـين الأندلس
الإسلامية واسبانيا النصرانية ... ٤٠٥
- ٢ - فنون وأساليب التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية
واسبانيا النصرانية ... ٤١١
- ٣ - مظاهر التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الاجتماعية ... ٤٣١
- ٤ - مظاهر التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الثقافية ... ٤٤٧
- ٥ - مظاهر التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الاقتصادية ... ٤٦٦
- الخاتمة ... ٤٨١
- الملاحق ... ٤٨٩
- الجدول والخرائط ... ٥٠٩
- المصادر والمراجع ... ٥٢٩
- الفهرس ... ٥٣٩

٨٥/٤٤٦٥

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

شركة دار الاشعاع للطباعة
١٤ ش عبد الحميد السيدة زينب القاهرة

الناشرون

الشركة العالمية للكتاب

للطباعة والنشر والتوزيع والوسائل التعليمية

ص.ب ٣١٧٦ - بيروت - لبنان

دار الكتاب العالمي

للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب ١٣٥٢٥٠ - بيروت - لبنان

مكتبة المدرسة

للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب ٣١٧٦ - بيروت - لبنان

دار الكتاب اللبناني

للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب ٣١٧٦ - بيروت - لبنان

دار الكتاب المصري

للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب ١٥٦ - القاهرة

الناشرون

دار العالم الإسلامي

للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ١٣٥٣٥٤ بيروت - لبنان

دار الكتب الإسلامية

للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ١٣٥٣٥٤ بيروت - لبنان

دار الكتاب للجميع

للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ١٣٥٣٥٤ بيروت - لبنان

الدار الأفريقية العربية

للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ٣١٧٦ بيروت - لبنان

المركز العربي للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب ٣١٧٦ بيروت - لبنان

AL-ĀLĀQĀT BAIN AL-ANDALUS
AL-ISLĀMIYA WA ISPĀNĪĀ AL-NASRĀNIYA
FI ĀHD BANĪ Umayya
WA MŪLUK AL-TAWĀ'IF

By

DR - R.M. ABD EL HALIM



PUBLISHERS

DAR AL-KUTOUB AL-ISLAMIYA

DAR AL-KITAB ALLUBNANI

BEIRUT

DAR AL-KITAB AL-MASRI

CAIRO